

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

التخصص: الدراسات اللغوية في ضوء التواصل الحضاري

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل.م.د.)

موسمته:

المعالم الحضارية للتواصل اللغوي

في العصر العباسي الأول - المدونة الشعرية - أنموذجا -

إعداد الطالب:

بلقاسم سيدي محمد

إشراف الأستاذ:

أ.د. عبد الجليل مرتاض

أعضاء لجنة المناقشة:

| | | | |
|-------|---------------|----------------------|---------------------------|
| رئيسا | جامعة تلمسان | أستاذ التعليم العالي | أ.د. العرابي لخضر |
| مشرفا | جامعة تلمسان | أستاذ التعليم العالي | أ.د. عبد الجليل مرتاض |
| عضوا | جامعة تلمسان | أستاذ التعليم العالي | أ.د. عبد الحكيم والي دادة |
| عضوا | جامعة مستغانم | أستاذ التعليم العالي | أ.د. حنيفي بناصر |
| عضوا | جامعة بشار | أستاذ التعليم العالي | أ.د. عمران رشيد |
| عضوا | جامعة بشار | أستاذ محاضر "أ" | د. رقيق كمال |

السنة الجامعية: 2018-2019

6

الكلمة شكر

الحمد لله رب العالمين حدا يكافئ نعمه ويوافي مزيده ...

أتقدم بخزير الشكر والامشان إلى أسناذي الفاضل

الدكتور عبد الجليل من قاض

لقبوله الإشراف على هذه الأطر وحتة وإخراجها

للوجود، أشكره على هامش الحرية الذي منحني إياه

أثناء البحث، وأيضا على تواضعه الذي عز نظيره

ورفعة ذوقه التي اسنوعبت مشا كسة أسئلي وفوضى

كلماتي،

جزاه الله عني كل خير.

شكر الله

الحمد لله جل في علاه، هو المعين ولا مسبب سواه، سبحانه

إذا قال للشيء كن فيكون

من علينا، وهو الغني عنا ونحن الفقراء

الله الملك القدوس

أعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد

ومن يضل فلا هادي له، أما بعد:

الحمد لله أن هداني ووفقتني فكان عملي هذا بفضل الله سبحانه

وتعالى .

أهدي عملي المنواضع إلى أقرب الناس إلى قلبي، والذي الكريمين

اللذين سهرا على راحتتي وكانا نعم العون والسند، فلم يدخلوا

بعطاءهما علي يوما .

إلى كل من أمدني بالعزيمة وزرع في الإرادة والثبات، وأخص

بالذكر أشقائي وشقيقتي وجميع زملاء الدراسة.

مقدمة

الحمد لله على ترادف آلائه ونعمائه، ومزيد فضله وإحسانه، أحمدته سبحانه وأشكره على جزيل عطائه، وجميل نواله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وفي أسمائه وصفاته، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، خير من عبد ربه حق عبادته، وشكره حق شكره، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار، وأصحابه الأخيار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

يعد القرن الثاني الهجري العصر الذهبي للحضارة العباسية التي تكونت من مزيج من الحضارات الأخرى، مما أكسبها التفوق والاستمرار، فقد توافرت في هذا العصر أسباب رقي الحضارة وازدهارها مما جعل الشعراء يصفون معالمها بطريقة فنية وإبداعية تؤكد أن خلفاء بني العباس وأمرأهم قد شجعوا هذه المظاهر الحضارية المادية والمعنوية، حيث خلدت هذه الأشعار ذكر مجموعة كبيرة من الخلفاء كالمهدي والرشيد والمأمون وغيرهم...

ولا غرو أن الانقلاب العباسي مع ما رافقه من طغيان العنصر الأجنبي، قد أحدث هزة عنيفة في الكيان العربي، ولم يكن من السهل انصهار العقليات المختلفة في وقت سريع مما هيا لنشأة صراع حضاري ما فتئ أن تحول إلى صحوة وانفتاح على الآخر. وبناء عليه فما مدى تأثير شعر العصر العباسي الأول بالمعالم الحضارية التي شهدتها الخلافة العباسية آنذاك؟ وما هي أهم الآثار الناجمة عن التواصل الحضاري الذي عرفته الحياة الأدبية عامة، والشعر على وجه الخصوص باعتباره دستور العرب؟

أما عن أسباب اختياري لهذا الموضوع فتعزى إلى أنني لطالما كنت شغوفاً بالأدب العربي وفنونه المختلفة، فخوراً بماثر العرب المسلمين على جميع الأصعدة، ولاسيما الثقافية منها، إذ شهد العصر العباسي الأول أكبر نهضة ثقافية في تاريخ الحضارة الإسلامية نتيجة امتزاجه بالأمم الأخرى من خلال الإسلام الذي شكل حضارة جديدة لتلك الثقافات المتعايشة في المجتمع العباسي وما يحويه من تحضر مادي ومعنوي، كان له الأثر البين في تأثر شعراء القرن الثاني للهجرة بما شاهدوه من تمدن مجتمعمهم، فقاموا بصورونه وبيدعون في التعبير عما يختلج في نفوسهم وما تجيش به قرائحهم اتجاه هذه الهزة الحضارية، فسجلت محابره مفاخر أمتهم الحضارية بما فيها من ظُرفٍ وأناقة وتقلب في النعيم، وتفنن في المعاش والأثاث والرياش.

ولقد كنت في أثناء قراءتي للأدب العربي في عصوره المختلفة أدقق النظر في أدب العصر العباسي الأول، وأقرأ بنهم ما كتبه الدارسون في شعر تلك الفترة، فاستهوتني النقلة الحضارية التي حظي بها الشعر في ذلك الزمن، ولفت نظري ما تضمنه من تصوير حضاري لمجتمعه في شتى مجالاته، وكان إيماني راسخاً بأن الأدب – شأنه شأن سائر العلوم والفنون – طريقة لنقل المعرفة في قالب مشوق وممتع، فلم أجد أجمل من اختيار

مسمىً يتناسب وتلك النهضة الحضارية، فطاب لي أن يسمى بحثي هذا "المعالم الحضارية للتواصل اللغوي في شعر العصر العباسي الأول" - المدونة الشعرية - أنموذجاً.

لا توجد دراسة مفردة عن المعالم الحضارية في شعر العصر العباسي الأول، ولكن هناك دراسات موجزة، لامست من بعيد بعض الشعر في هذا العصر، وأكثرها التصاقاً بالموضوع هي:

- وصف القصور في العصر العباسي من إعداد الطالبة: ثروت أحمد محمود وهدان من جامعة النجاح - فلسطين - حيث درست الباحثة معلماً واحداً من معالم التحضر في العصر العباسي والمتمثل في القصور التي خلد الشعراء ذكرها في قصائدهم، ناهيك عن اكتفائها بثلة من شعراء هذا العصر، تبعاً لمنهجها العام في الدراسة.

- ملامح الحياة الاجتماعية في العصر العباسي من خلال شعر ابن الرومي من إعداد الطالبة: هويدا الطريفي الإمام علي بن عوف من جامعة الخرطوم - السودان - ولم تدرس صاحبة هذا البحث سوى شاعر واحد بدت معالم الحضارة العباسية واضحة في شعره، وقد قصرتها على الشق الاجتماعي فقط.

وقد ركزت الدراستين السابقتين على جوانب محددة من معالم الحضارة العباسية الطافحة في شعر العصر العباسي، وبذلك ظل هذا الموضوع مفتوحاً للدراسة من أجل الكشف عن جوانبه المهمة ووضعها في المكانة اللائقة به، فلعل دراستي هذه - إنشاء الله تعالى - سوف تقوم بذلك.

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التكاملي، فجمعت بين المنهج التاريخي الملائم لمثل هذا النوع من المواضيع، خاصة وأنه يعالج حقبة مشرقة من حقب التاريخ الإسلامي، إذ يوضح العلاقات بين الأشخاص والأحداث والزمان والمكان، إلى جانب المنهج الوصفي الذي يعنى بوصف الظواهر الطبيعية والاجتماعية وتحليلها وتعليلها وتحديد العوامل المؤثرة فيها، فيكون بذلك مكملاً لسابقه، ناهيك عن اعتمادي على المنهج الاستنباطي الذي يقوم على تأمل المعالم الحضارية في شعر العصر العباسي الأول باعتباره عصراً متقدماً ودراستها تفسيراً ونقداً واستنباطاً للوصول إلى حقيقة تأثر شعراء هذا العصر بواقع المجتمع الجديد القائم على التحضر الذي مس مناحي الحياة العباسية المختلفة.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة أوجزت فيها سبب اختياري للموضوع، ثم تمهيد يحدد، بشيء من الشرح والتفصيل المعنى اللغوي والاصطلاحي لمفهوم الحضارة، فنبذة عن قيام الدولة العباسية العظيمة، مع الإشارة إلى أهم عوامل التحضر في المجتمع العباسي آنذاك، ثم قسمت الرسالة إلى أربعة فصول وخاتمة، فجاء أول هذه الفصول بعنوان: معالم الحضارة المادية في شعر العصر العباسي الأول، والمتمثلة في القصور والبرك والأنهار ومستلزمات المجتمع من الثياب والأطعمة والأشربة والعمارة والحلي وغيرها مما يعكس تحضر

المجتمع، وأقْفُ في ذلك كله مع الشعر العربي متأماً جمالياته في أناقة وجمال وحس تصوير لتلك المعالم الحضارية المتعددة.

أما الفصل الثاني فخصصته للإحاطة بالحياة المعنوية التي يتسم بها أفراد المجتمع العباسي المتحضر، كالتعفف والود والاحترام والرقي في التعامل والعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، والتي أبدع شعراء هذه الحقبة الزمنية المشرقة في وصفها وإبرازها، وانتقاء التراكيب العذبة للتعبير عنها وتوظيف الصور والأخيلة التي تناسبها.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن معالم الحياة الاجتماعية في شعر العصر العباسي الأول، والمتمثلة في الاحتفالات والأعياد التي استمدت من واقع البيئة التي غلب عليها طابع الانفتاح على ثقافة الغير وما صاحبه من لهو ومجون انعكس على الحياة الأدبية آنذاك، فاستحدثت أغراض شعرية جديدة أهمها التغمي بالشعبوية وشعر الفكاهة.

أما الفصل الرابع فأفرده للدراسة الفنية الخاصة بذلك الإبداع الشعري الذي نظم في ظل تلك الثورة الحضارية، فخلدّها وأحسن تصويرها فأثر فيها وتأثر بها، فكان له سماتٌ مميّزةٌ في بناء القصيدة وألفاظها وتراكيبها وأخيلتها وصورها.

وقد اعتمدت في جمع مادة هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع فكانت في مجملها أدبية تاريخية.

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أحمد الله على توفيقه ومَنّه وكرمه ولطفه، وأرجو من الله أن يكون بحثي هذا إضافة إلى ما سبقه من دراسات في هذا المجال، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

المدخل

- أ- الحضارة : المصطلح والمفهوم
- ب- نظرة تاريخية عن قيام الدولة العباسية
- ج- المؤثرات العامة في حضارة العصر العباسي الأول

أ - الحضارة: المصطلح والمفهوم:

استعمل المؤرخون الأوائل للتاريخ الإنساني مصطلح الحضارة منذ القدم، فتارة يتحدثون عنها وكأنها مرحلة متقدمة من تاريخ الأمم ويقرنوها بالإنجازات العظيمة والقفزات الإنسانية المدهشة، وتارة يتحدثون عن حضارات ما قبل التاريخ وكأن الحضارة سمة أساسية لأي ثقافة إنسانية تظهر في شعب من الشعوب، وتارة أخرى نجد من يوحد بين الحضارة أو بين النزعة الثقافية عموماً وبين الأديان. فقد كانت الحضارة على مر العصور تعبيراً عن إسهام أمة من الأمم في رصيد الأفكار وما ينتج عنها من اكتشافات واختراعات وصناعات وشعر وفن ونظم ومؤسسات وقيم ومبادئ، وهي بهذا المعنى ليست حكراً على الأديان السماوية إذ أن التاريخ عرف حضارة المصريين القدماء والفرس والهندوس والإغريق الذين كانوا يحتكمون إلى مبادئ أرضية وفلسفات إنسانية ارتضوها لأنفسهم.

وقد وجد كثير من الباحثين عند تحليلهم نشوء الحضارات الإنسانية أن عناصرها تتمثل في: الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون⁽¹⁾.

إن لفظة حضارة في الأصل اللغوي تقابل البداوة، قال المتنبي⁽²⁾:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب⁽³⁾

ويقال في اللغة العربية: حضر يحضر فهو حاضر من الحضور أي التواجد، وقد استُخدم لفظ الحضارة قديماً - بكسر الحاء وفتحها- للإشارة إلى "الإقامة في الحضر" وهو خلاف البادية، وهو ما جاء في لسان العرب: "والحضر خلاف البدو. والحاضر خلاف البادي. وفي الحديث: "لا يبيع حاضر لباد"⁽⁴⁾. أما الحاضر فهو المقيم في المدن والقرى وأما البادي فهو المقيم بالبادية.

(1)- انظر ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة الدكتور: زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت، 1988م، ج1/ص: 3.

(2)- أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور، من أهل الكوفة، قدم الشام في صباه وجال في أقطاره واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها، كان من الكثيرين ممن نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشياها، قتل سنة أربع وخمسين وثلاثمائة للهجرة، انظر شمس الدين ابن الخلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، 1900م، ج1/ص: 123.

(3)- عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1968م، ج1/ص: 291.

(4)- أخرجه البخاري في صحيحه، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422 هـ، كتاب البيوع، باب هل يبيع حاضر لباد بغير أجر، حديث رقم 2158، ج3/ص: 72.

ويقال: فلان من أهل الحاضرة وفلان من أهل البادية، وفلان حضري وفلان بدوي والحضارة بالكسر: الإقامة في الحضر، وكان الأصمعي⁽¹⁾ يقول الحضارة بالفتح، مستندا إلى البيت التالي:

فَمَنْ تَكُنِ الْحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيَّ رَجَالِ بَادِيَةٍ تَرَانَا

والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، والبادية يمكن أن يكون اشتقاق اسمها من بدا، يبدو أي برز وظهر، ولكنه اسم لزم ذلك الموضع خاصة دون ما سواه.

والحاضرة والحاضر: الحي العظيم أو القوم، وقال ابن سيده⁽²⁾: الحي إذا حضروا الدار التي بها مجتمعهم، قال:

فِي حَاضِرٍ لَجِبَ بِاللَّيْلِ سَامِرُهُ فِيهِ الصَّوَاهِلُ وَالرَّيَاثُ وَالْعَكْرُ

فصار الحاضر اسماً جامعاً كالحاج والسامر والجمال ونحو ذلك: قال الجوهري: كما يقال حاضر طيء، قال حسان:

لَنَا حَاضِرٌ فَعُمُ وَبَادٍ كَأَنَّهُ قَطِينُ الْإِلَهِ عِزَّةً وَتَكْرُمًا

وكل من نزل على ماء عد ولم يتحول عنه شتاءً ولا صيفاً، فهو حاضر، سواء نزلوا في القرى والأرياف والدور المدرية أو بنوا الأخبية على المياه فقرروا بها ورعوا ما حواليتها من الكلاء⁽³⁾.

(1) - هو الإمام، العلامة، الحافظ، حجة الأدب، لسان العرب، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع بن مظهر بن عبد شمس بن أعيان بن سعد بن عبد بن غنم بن قتيبة الأصمعي، البصري، اللغوي، الأخباري، أحد الأعلام، ولد سنة بضع وعشرين ومائة للهجرة، وتصانيفه ونوادره كثيرة، وأكثر تواليه مختصرات، وقد فقد أكثرها، مات - رحمه الله - سنة خمس عشرة ومائتين، ويقال أنه عاش ثمان وثمانين سنة، انظر شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1405 هـ / 1985 م، ج 10/ص: 181.

(2) - هو علي بن أحمد بن سيده اللغوي الأندلسي، أبو الحسن الضرير، من أهل الأندلس، كان حافظاً، وله في اللغة مصنفات منها: كتاب المحكم والمحيط الأعظم وكتاب المخصص وكتاب شرح إصلاح المنطق، ومات ابن سيده بالأندلس سنة ثمان وخمسين وأربعمائة عن ستين سنة أو نحوها، انظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1414 هـ / 1993 م، ج 4/ص: 1648.

(3) - ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء صادر، بيروت، 1414 هـ / 1994 م، الطبعة الثالثة، مادة (حضر)، ج 4/ص: 198.

ولقد جرى اللغويّ النحويّ ابنُ فارس⁽¹⁾ على عادته المبدعة في الكشف عن جذر الكلمة، والجامع لأصولها، والمفرّع لاشتقاقاتها، فقال: "الحاء والضاد والراء إيراد الشيء، ووروده ومشاهدته. وقد جيء ما يبعد عن هذا وإن كان الأصل واحداً، فالْحَضَرَ خِلافَ الْبَدْوِ، وسكون الْحَضَرَ الْحِضَارَةُ"⁽²⁾.

والذي عند ابن فارس في معنى الحضارة وجدنا مثله عند الجوهري⁽³⁾ في الصحاح إذ يقول: "الحاضر، والحاضرة: خلاف البادي، والبادية، وهي المدن والقرى والريف، والبادية خلاف ذلك، يقال: فلان من أهل الحاضرة، وفلان من أهل البادية، وفلان حضري، وفلان بدوي، قال: والحاضر: الحي العظيم وذكر بيت حسان السابق للاستدلال على ذلك"⁽⁴⁾.

وقد احتفت المعاجم المختصة بمفردات القرآن الكريم، بكلمة الحضارة؛ فالأصفهاني⁽⁵⁾، استعرض الفعل الثلاثي "حضر" وما اشتق منه في القرآن الكريم، وقال: "الْحَضَرَ: خلاف البدو، والحضارة، والحضارة: السكون بِالْحَضَرَ"⁽⁶⁾. وورد لفظ (حاضرة) في القرآن الكريم، وتعني الإقامة، قال الله تعالى: {وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}⁽⁷⁾.

(1) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن محمد بن حبيب الرازي اللغوي، كان إماماً في علوم شتى، وخصوصاً اللغة فإنه أتقنها، وألف كتابه المجمل في اللغة وهو على اختصاره جمع شيئاً كثيراً، وله كتاب حلية الفقهاء، بالإضافة إلى رسائل أنيقة، ومسائل في اللغة، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج1/ص: 120.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ/1997م، ج2/ص: 76، 75.

(3) هو إسماعيل بن حماد الجوهري أبو نصر الفارابي، صاحب كتاب الصحاح في اللغة وابن أخت أبي إسحاق الفارابي صاحب ديوان الأدب، وكان الجوهري من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة وعلماء، وأصله من بلاد الترك من فاراب، انظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج2/ص: 619.

(4) إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1407هـ/1987م، ج2/ص: 632.

(5) هو الحسين بن محمد بن الفضل، أبو القاسم الأصفهاني، المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء من أهل أصبهان، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقربن بالإمام الغزالي، من كتبه محاضرات الأدباء، الذريعة إلى مكارم الشريعة، المفردات في غريب القرآن، توفي سنة اثنتين وخمسمائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، 2002م، ج2/ص: 255.

(6) الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، 1420هـ/2009م، مادة (حضر)، ص: 241.

(7) - سورة الأعراف: 163.

كما قال الزمخشري⁽¹⁾: "حاضرة البحر: قرية منه راكبة بشاطئه"⁽²⁾. ويقول القرطبي⁽³⁾ في تفسيره: "أي كانت بقرب البحر، تقول: كنت بحضرة الدار أي بقربها"⁽⁴⁾.

وأما القول إنّ كلمة حضارة، وتحضّر لم تكن شائعة في استعمالات العرب اللغوية أوّل مرة، وطيلة القرون التي أعقبت الفتوحات الإسلامية؛ فهذا قول فيه تسرع، ومجانب للصواب⁽⁵⁾.

وهكذا يتضح لنا أن الحضارة، والحاضر تعني في مفهومها اللغوي الإقامة والاستقرار بنزول فئة من الناس في مكان يختارونه أو على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه⁽⁶⁾، وغالباً ما يختارون الأماكن الخصبة والمترعة بالعيون والمياه وأماكن العشب ومواطن الشجر، ومن تلك الإقامة الدائمة تنشأ القرى والأرياف والمدن.

والحضارة التي نعنيها في بحثنا ما استجد على أفراد المجتمع العربي من مظاهر حضارية، وما عم المسلمين في القرن الثاني خاصة من وسائل الترف والتفنن في المساكن والمعاش نتيجة اختلاطهم بالأمم الأخرى بعد الفتوحات الإسلامية واندماجهم بأمم الفرس والهنود والرومان وغيرهم، وتأثيرهم فيهم والتأثر بهم، وهذا أمر طبيعي، فإن الأمم على مر الزمان تستفيد من بعضها وتحاكي الأمة التالية حضارة أمة سابقة ولا سيما إن كانت هذه الأمة لها باع في الحضارة وسابقة إليها.

(1) - هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، ولد في زمخش سنة سبع وستين وأربعمائة للهجرة، وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية فتوفي فيها سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة للهجرة، أشهر كتبه الكشاف في تفسير القرآن، وأساس البلاغة والمفصل وغيرها، انظر الأعلام، الزركلي، ج 7/ص: 178.

(2) - انظر أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ، ج 2/ص: 170.

(3) - هو أبو عبد الله عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي، من كبار المفسرين، ومن مؤلفاته: الجامع لأحكام القرآن، والكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة للهجرة، انظر شمس الدين الداوودي، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، دون طبعة وتاريخ، ج 2/ص: 69.

(4) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ/1964م، ج 7/ص: 305.

(5) - انظر عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1975م، ص: 174.

(6) - انظر المعجم الوسيط إخراج: إبراهيم أنيس، وعبد الحليم منتصر وعطيه الصوالحي ومحمد خلف الله أحمد، مطابع دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، 1392هـ/1972م، الجزء الأول، ودائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت، 1971م، الطبعة الثالثة، المجلد الثالث.

لقد أحرز العرب منذ صدر الإسلام كثيراً من الانتصارات والفتوحات الإسلامية في بلاد مصر والشام وفارس، وتكونت نتيجة لذلك طبقة ثرية من القبائل التي شاركت في هذه الفتوحات، إذ استشعرت قوتها وتفوقها بالقياس إلى الشعوب التي خضعت لها، كما أصابت كثيراً من الانتعاش المادي واستقر في خلد هؤلاء الفاتحين أن العربي خلق ليسود وخلق غيره ليخدم، ونظروا إلى العناصر الأخرى نظرة السيد إلى المسود⁽¹⁾.

ولذا يرى ابن خلدون⁽²⁾ أنه إذا حصل الملك تبعه الرفه والدعة، واتساع الأحوال وتلك هي الحضارة التي عناها عندما قال: "والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع في استجادته، والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضاً وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف، وما تتلون به من العوائد"⁽³⁾.

كما بين ابن خلدون "أن أجيال البدو والحضر طبيعية، فاختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلّتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر، والماعز والنحل والدود، لينتاجها واستخراج فضلاتها، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة - ولا بد- إلى البدو؛ لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفنن والمسارح للحيوان وغير ذلك، فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكف والدفع، إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه، للعجز عما وراء ذلك"⁽⁴⁾.

ومما لا شك فيه، أن أي مرحلة من مراحل الرقي الإنساني تحمل بين طياتها الجيد والمفيد من سابقتها وتتخلص من العيوب والآفات، فالبدواة كمرحلة تالية لمرحلة الصيد قد طورت القيم التي تجمع أفراد القبيلة أو العشيرة، فكانت الأخلاق التي نبتت من أرض المنفعة والمصلحة هي الرباط الذي يشد حجارة البناء إلى بعضه، ولعل أهم تلك المعاني السامية التي ساهمت في تدعيم ركائز ذلك البناء النجدة والإباء وعزة النفس والصدق والشجاعة

(1) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، دون طبعة وتاريخ، ص: 10.

(2) هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون أبو زيد، وليّ الدين الحضرميّ الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ والعالم الاجتماعي البحاثة، أصله من إشبيلية ومولده ومنشأه بتونس، كان فصيحاً، جميل الصورة، عاقلاً، صادق اللهجة، عزوفاً عن الضيم، طامحاً للمراتب العالية، اشتهر بكتابه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، انظر الزركلي، الأعلام ج2/ص: 225.

(3) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408 هـ/ 1988 م، ج1/ص: 216.

(4) المصدر نفسه، ج1/ص: 150.

والجود، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: " فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك"(1).

ويصف لنا ابن خلدون حالة العرب وتأثرهم بحضارة فارس والروم عندما ملكوا بلادهم واستخدموا بناتهم وأولادهم، بما لم يكن لهم عهد بمثله من قبل قائلاً: "... ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة، فقد حكي أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً"(2).

ولا يعني ابن خلدون بكلامه ذلك نفي أي حضارة سابقة للعرب، فهو يدرك تماماً أن أعظم حضارة عرفها التاريخ هي حضارة الإسلام العظيم الذي شرف الله العرب بحمله ونشره وجعله تاجاً عظيماً على رؤوسهم، ولذلك سادوا، وما كانوا ليسودوا بغيره، وهدموا صوامع الضلال والإلحاد رغم رسوخها بنشره وتعليمه للأمم ودعوتهم إليه، وفتحوا أصقاع الأرض بمفاتيح سماحته، وأسروا قلوب البشر وكسروا عداوتهم بعدله وكرمه.

وتلك نظرة لا تتعارض مع ما شاهده المسلمون بعد الفتوح من مظاهر التنعم والرفي عند الأمم المفتوحة وأعجبهم فأخذوا منه ما وافقهم، وهذبوا بعضه ليلائهم لاسيما وأن حضارة تلك الأمم وخاصة الفرس والروم حضارة عتيقة عميقة تحدث عنها القرآن الكريم وأشارت السنة المطهرة إليها، قال الله تعالى: { أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } (3). وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن ملك كسرى وقيصر سيبيد، ويؤول للمسلمين فقال: "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله"(4).

وقد ثبت في الصحيح بشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح تلك البلاد حيث قال: " تغزون جزيرة العرب، فيفتحها الله عز وجل ثم تغزون الدجال فيفتحها الله"(5)، فدل ذلك أن لتلك الأمم حضارات لم تكن لغيرها وملك وثراء وثقافات متعددة، فاليهود الذين ملكوا الشام ما يزيد على القرن من الزمان، أنشؤوا حضارة فائقة في أحوال المعاش من مطاعم ومشارب وملابس، وتفننوا في الصناعات المختلفة حتى اكتسحوا الأسواق في يثرب وبلاد الشام، وكذلك الحال بالنسبة للروم الذين أتوا بعدهم واستوطنوا البلاد قرابة ستمائة سنة، فكانوا في غاية الحضارة، والأمر سواء بالنسبة لحضارة القبط في مصر الذين أسسوا حضارة عظيمة عبر ثلاثة آلاف سنة، ثم جاء بعدهم اليونان والروم إلى أن أظهر الله الإسلام فنسخ تلك الأمم وعاداتهم وطوع حضاراتهم وذلها لأبنائه، فكانت حضارة الإسلام أعظم

(1)- ابن خلدون، المصدر السابق، ج1/ص: 216.

(2)- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3)- سورة الروم، 1-3.

(4)- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (أحلت لكم

الغنائم) حديث 3120، ج4/ص: 85.

(5)- أخرجه مسلم في صحيحه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال، حديث: 38، ج4/ص: 2225.

حضارة عرفها التاريخ وعاشتها البشرية؛ لجمعها بين الدنيا والآخرة ولربطها العلم بالإيمان والمعاش بالمعاد.

وقد ازدهرت على أرض العراق حضارات عظيمة منها الحضارة السومرية والآكديّة والبابليّة والآشورية وغيرها، وكلها حضارات انتشرت نفوذها إلى البلاد المجاورة ابتداء من الألف الخامس قبل الميلاد، " فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر" (1).

وجاء بعض المتأخرين من الباحثين بتعريفات للحضارة، فلم يبعدوا كثيراً عما سبقهم فعرف لالاند المدينة في موسوعته الفلسفية أنها: "حالة مجتمعية مقابل الحالة الطبيعية، وهي تنجم عند ج ج روسو وسان جوست عن عقد اجتماعي" (2). ويرى جميل صليبا أن الحضارة مرادفة للمدينة، وقد جاء في معجمه الفلسفي أن المدني: "هو المنسوب إلى المدينة (Cite) أو إلى الناس الذين يعيشون في المدينة" (3)، وكذلك استخدم ول ديورانت في مؤلفه قصة الحضارة "المدينة والحضارة بمعنى واحد" (4).

وهناك أيضاً من رأى أن الحضارة مرادفة للثقافة، فهناك إذاً اتفاق على إقامة نوع من التوافق أو التداخل بين الثقافة والحضارة، فالثقافة لغة تشير إلى التمكن من العلوم والفنون والآداب التي تعكس النشاطات والاهتمامات المميزة لشعب ما، أو لأمة من الأمم، إلا أن هناك طائفة من الباحثين تطلق لفظة الثقافة على تنمية الذوق الرفيع، وبعضهم الآخر يطلقه على نتيجة هذه التنمية أي على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها، في مجتمع من المجتمعات، على أن هناك فريق ثالث يطلقه على نتيجة هذا الاكتساب، أي على حالة التقدم والرقى التي وصل إليها المجتمع.

"وإذا كان بعض العلماء يطلق لفظ الثقافة على المظاهر المادية، ولفظ الحضارة على المظاهر العقلية والأدبية فإن بعضهم الآخر يذهب إلى عكس ذلك فيقرر أن لفظ الحضارة يدل على جملة المظاهر المادية، بينما تدل الثقافة على مجمل النشاطات العقلية والروحية" (5).

ويرى ول ديورانت بأن الحضارة: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي" (6)، وقد أشار إلى عناصرها التي تتألف منها فجعلها عناصر أربعة هي الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، واشترط لنموها وازدهارها الأمن والاستقرار والسكينة وعدم الاضطراب والقلق، معللاً ذلك بأن

(1)- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج1/ص: 463.

(2)- لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، 1996 م، ج1/ص: 171 .

(3)- صليبا جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979 م، باب الميم، ج2/ص: 360.

(4)- ول ديورانت، قصة الحضارة، ج1/ص: 3.

(5)- صليبا جميل، المعجم الفلسفي، باب الحاء، ج1/ص: 477.

(6)- ول ديورانت، قصة الحضارة، ج1/ص: 3.

الإنسان إذا استقر واطمأن تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء وحينئذ تستنهضه الحوافز الطبيعية ومتطلبات حياته ومجتمعه إلى الكشف عما في الكون والحياة مما يتسبب في نمو الحضارة والمخترعات يوماً بعد يوم، ولذلك يشترط ديورانت للحضارة عدة عوامل أولها العوامل الجيولوجية، التي لها الأثر الفاعل في نمو الحضارة الجغرافية والتي تسهم بدورها في تطور الحضارة أو عدمه عاملاً ثانياً، ثم العامل الاقتصادي الذي تقوم عليه الحضارة فهو عصبها وممولها وكلما كان الاقتصاد قوياً متيناً كانت الحضارة أسمى وأقوى نتاجاً وسيراً.

وبعد ذلك تأتي العوامل الجنسية فالمدينة في نظر ديورانت لا ترتبط بالجنس إلا بمعنى واحد وهو أنها تجيء عادة بعد مرحلة يتم فيها التزاوج البطيء بين شتى العناصر ذلك التزاوج الذي ينتهي تدريجياً إلى تكوين شعب متجانس نسبياً⁽¹⁾.

وأخيراً فإن العوامل النفسية الدقيقة، من سيادة النظم السياسية لصناع الحضارة والتفاؤل وطول الأمل والالتحام اللغوي لتبادل الأفكار والقوانين الخلقية ونظام الترابط الأسري والقيم التربوية وغيرها، كل ذلك لا بد من أن تصبغ به تلك العوامل السابقة المادية والبيولوجية اللازمة لنشأة المدينة، فكأن العامل النفسي هو الباعث لتلك العوامل التي بمفردها لا تقوم قائمة الحضارة ولا تنشأ من عدم.

وهذه العوامل والدعائم التي ذكرها ديورانت وجعل وجودها من أسباب تطور الحضارة وازدهارها وعدمها من أسباب تدهور الحضارة واضمحلالها هو أمر واقع مسلم به، وإن كان ابن خلدون قد سبقه إلى ذلك، فقد عقد له فصلاً في المقدمة وأشار فيه أن الحضارة في الأمصار إنما ترسخ بقيام الدولة وتقدمها معللاً ذلك بأن الحضارة أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران على حد تعبيره. وهذه الزيادة متفاوتة بتفاوت الأمم وأحوالها ورفاهيتها قلة وكثرة، مشيراً إلى تلك العوامل التي فصلها ديورانت ضمناً في سياق كلامه قائلاً: "... ويقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه، المهرة فيه ..."⁽²⁾، ثم يقول: "وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في أهلها، وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة؛ لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها ... فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم، وتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه، وهذه هي الحضارة"⁽³⁾.

وهنا نتساءل: هل للحضارة في تلك الصورة التي رسمها ابن خلدون وغيره من الباحثين تأثير في سلوك المجتمع وعوائده واتجاهاته؟!

(1) - انظر ول ديورانت، المرجع السابق، ج 1/ ص: 06.

(2) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج 1/ ص: 461.

(3) - انظر المصدر نفسه، ج 1/ ص: 461، 462.

إن الترف مظهر من مظاهر الحضارة، وهو يدلُّ في بعض مواطنه على ازدهارها وقوتها، وفي المقابل يُعدُّ الترف سوسة إذا نخرت في هياكل الحضارة خرَّت سُقفها على الأرض، وتهاوت أعمدتها بلا قرار. وهنا أقف على معاني الترف في سيء أثره، وسوء فعله في تهوي الحضارة ودحرها نحو الهاوية. فالدلالة اللغوية للترف توحى بالمعاني الإيجابية والسلبية في آن واحد، فإيجابيته أنه توسعة في النعمة ومظهر من مظاهر بروزها، وسلبياته في تحوُّل هذه النعمة إلى طغيان وبطر وانغماس في الملذات، يطغي النفس الإنسانية فتكفر بنعمة خالقها؛ وتجذبها جذبة الطين جذبة تخذُّ إلى ثقيل طينه، وتتمرغ في مُتَع الحياة؛ فتنسى رسالتها في الحياة، بل تنسى التصور الصحيح لها؛ فيصبح الترف أولاً وآخراً وسيلة وهدفاً، ولهذا فإنَّ " القيد المفروض على شهوة الترف قد فرض لصالح المجتمع، ولمصلحة الفرد"⁽¹⁾.

ويجرُّ الترف معصية ورذيلة وفنوناً مستحدثة، تکرّس عبادة الدنيا والارتداء في أحضانها حتى يصدق في حضارة كهذه قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾⁽²⁾، فيتضخم جانب المُتَع حتى يصير غدة سرطانية تمتصُّ زهرة الحضارة؛ فتذبل وتموت، في وقت يظنُّ فيه أنها تحقق أقصى درجات الحضارة والرقي، بينما هي في الحقيقة تحتضر وتناجي ساعة الموت، فما تجد نفسها إلا ذابلة على مسرح الحياة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽³⁾. فهي صحوة الأوصال قبل الوداع الأخير، والنظرة الأخيرة التي بعدها يُقبضُ البصر، وتذلف الحضارة في أكفانها البرزخية، " فربما يحدث عند آخر الدولة قوّة توهم أنّ الهرم قد ارتفع عنها، ويومض ذبالها إيماضة الخمود، كما يقع في الذبال المشتعل، فإنه عند مقاربة انطفائه؛ يومض إيماضة توهم أنها اشتعال، وهي انطفاء، فاعتبر ذلك، ولا تغفل سرّ الله تعالى وحكمته"⁽⁴⁾.

ومافقئ القرآن الكريم يضرب الأمثال عن الحضارات التي ازدهت ألوانها، وتلك التي ارتدت حلة الترف وبطرت بالنعمة الربانية والفيض الإلهي؛ فما شكرت المُنْعَم على ما أسداها، ومنحها وأعطها فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾⁽⁵⁾.

(1) - محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، بيروت، دار الشروق، الطبعة الخامسة، 1398هـ/ 1978م، ج1/ص:84.

(2) - سورة الأحقاف، الآية: 20.

(3) - سورة يونس، الآية: 24.

(4) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج1/ص: 363.

(5) - سورة النحل، الآية: 112.

فهذه حضارة اكتست حُلَّ الأمن وأردية الطمأنينة، تأتيها الأرزاق بفيض رغيد؛ فلا تحتاج إلى أن تكدَّ بطلبه في الأرض، ولا تنقلُ مناكب الأرض بضرِبها؛ فالأرزاق تساق إليها، ومما يدلُّ على أنها حضارةٌ مستقرة أن اكتنفتها غمامةٌ مطمئنة تهطلُّ عليها سكينه واطمئناناً، ويرتحلُ الناسُ إليها والرزق يُرْتَحَلُ إليه وتقصدها الجموع البشرية، فالأمن مطلب من مطالبها وأمنية من أمانيتها، فماذا صنعت هذه الحضارة المغبوطة بمتعها ونعمها؟

بطرت النعمة وأترفها النعيم؛ فكفرت بأنعم الله تعالى فنالت جزاءها المحتوم، وذهبت إلى قدرها بما جنت على نفسها؛ فذاقت صلف الجوع وخلعت عنها فروة النعيم ولبست أردية الجوع وتجرّعت العلقم، فـ "سماه لباساً؛ لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس"⁽¹⁾.

نعم، قد ذم الله الترف في مواضع كثيرة من كتابه الكريم من مثل قوله عز وجل: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾⁽²⁾، وكذا جاء في السنة المطهرة التحذير من الشهوات والميل إليها. ومعلوم أن من الحضارة التأنق في أحوال الحياة ومعاشها ولذاتها "وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها"⁽³⁾.

ويذكر ديروانت أن من أسباب فناء المدنية الانحلال العقلي أو الخلفي في الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتصالات، أو ما ينشأ عن تهمد القواعد التقليدية التي كان النظام الاجتماعي يقوم على أساسها ثم العجز عن إحلال غيرها مكانها، أو انهيار قوة الأصلاّب بسبب اضطراب الحياة الجنسية أو تركيز الثروة تركزاً محزناً ينتهي بالناس إلى حرب الطبقات والثورات الهدامة والإفلاس المالي⁽⁴⁾.

وما خمريات أبي نواس⁽⁵⁾ وتهتك بشار⁽⁶⁾ وإباحية كثير من الشعراء إلا نتاج ذلك، ويصور ابن خلدون فساد الأفراد في حالة إفراط الحضارة والترف فيقول: "... فلذلك كثر منهم الفسق والشر والفسفسفة والتحليل على تحصيل المعاش من وجهة ومن غير وجهة وتتصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له، فنجدهم أجرياء على

(1)- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10/ ص: 194.

(2)- سورة الإسراء، الآية: 16.

(3)- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج1/ ص: 465.

(4)- انظر ول ديورانت، قصة الحضارة، ج1/ ص: 8.

(5)- هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكميّ بالولاء، أبو نواس، شاعر العراق في عصره، ولد في الأهواز من بلاد خوزستان سنة ست وأربعين ومائة للهجرة، نشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، توفي سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج2/ ص: 225.

(6)- أبو معاذ بشار بن برد بن يرجوخ، العقيليّ بالولاء، الضرير، الشاعر المشهور، ذكر له أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني ستة وعشرين جداً أسماؤهم أعجمية، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج1/ ص: 271.

الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقعة والفجور في الأيمان والربا في البياعات، ثم تجدهم - لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف - أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه، و اطراح الحشمة في الخوض فيه "(1).

وهذا مشاهد معلوم لا مرأى فيه في حضارة أي أمة كانت، ويدلل على ذلك ما جاء في عيون الأخبار وغيره من مغبة الترف واللهو والانغماس في الحضارة المادية من أن المنصور(2) سمر ذات ليلة فذكر من استقامة خلفاء بني أمية حتى أفضى الأمر إلى بنيتهم المترفين وانصرافهم إلى الشهوات وإيثار اللذات والدخول فيما يغضب الله، فسلبهم الله العز ونقل عنهم النعمة، فأخبره أحد جلسائه عن قصة حدثت لعبد الله بن مروان(3) عندما دخل أرض النوبة وقابل ملكها، وكان عبد الله هذا في سجن المنصور فأمر بإحضاره وسأله عن قصته تلك مع ملك النوبة، فأخبره بإقامته في أرض النوبة(4) ومقابلته للملك حيث زاره الملك لما علم بأمره ومنزلته قال عبدالله بن مروان: "فقد على الأرض ولم يقرب الثياب، فقلت: ما يمنعكم أن تقعد على ثيابنا؟ قال: لأنني ملك، وحق على كل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه ثم قال لي: لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم؟ قلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا لأن الملك زال عنا قال: فلم تطئون الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم؟ قلت: يفعل ذلك جهالنا قال: فلم تلبسون الديباج والحريير وتستعملون الذهب والفضة وذلك محرم عليكم؟ قلت: ذهب الملك منا وقل أنصارنا فانتصرنا يقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا. قال: فأطرق ملياً وجعل يقلب يديه وينكت في الأرض ويقول عبيدنا وأتباعنا دخلوا في ديننا وزال الملك عنا! يردده مراراً، ثم قال: ليس ذلك كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وركبتم ما نهيتم عنه، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم والله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم ..."(5).

وكثرة التعاريف للحضارة؛ جعلت بعض الباحثين يعرضون عنها؛ فقال البوطي: "لا أرى حاجة إلى الإطالة في تعريف الحضارة على نحو ما يصنع كثير من الكاتبتين، على أنني لم أقف إلى الآن على تعريف علمي دقيق، على الرغم من كثرة ما ظهر من كتابات مختلفة عنها"(6).

(1)- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخير، ج1/ ص: 466.

(2)- هو عبد الله بن علي بن العباس، أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، ولد سنة خمس وتسعين للهجرة، كان عارفاً بالفقه والأدب، مقدماً في الفلسفة والفلك، محباً للعلماء، هو والد الخلفاء العباسيين جميعاً، وقد كان أفلحهم شجاعة وحزماً، توفي سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج4/ص: 177، 178.

(3)- لم أجد له ترجمة.

(4)- النوبة: أرض واسعة في جنوبي مصر وشرقي النيل وغربيه، انظر زكريا القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ص: 24.

(5)- ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ، ج1/ ص: 305.

(6)- البوطي محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، ص: 19.

وأكثر ما يهمننا في مفهوم الحضارة هو ما وصلت إليه أي أمة من الأمم في نواحي نشاطها العقلي والفكري والثقافي والاجتماعي وتقدمها في مجال العمران والبناء الحضاري وتسخير كافة المعارف والفنون والارتقاء بها في حياتها مستفيدة من الحضارات المجاورة، لتصل إلى حضارة ذاتية مستقلة تنسب إليها وتدل على شخصيتها بعد ما قامت به من كلفة وبذلت من جهد واستغرقت من زمن لتنتقل من حال إلى حال، إذ أن "الحضارة - في مفهومها العام - هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان الجهود المبذول للوصول لتلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية، وهذا المفهوم للحضارة مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ، لأن التاريخ هو الزمن، والثمرات التي ذكرناها تحتاج إلى زمن لكي تطلع، أي أنها جزء من التاريخ، أو نتاج جانبي للتاريخ وكما أن ثمر الزروع والأشجار لا يطلع إلا بفعل الزمن إذ لا يمكن أن تزرع وتحصد ثمرة ما، في نفس الوقت فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان"⁽¹⁾.

ب - نظرة تاريخية عن قيام الدولة العباسية:

ينتسب البيت العباسي إلى العباس بن عبدالمطلب عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان مولده قبل الهجرة بنحو خمسين سنة الموافق لاثنتين وخمسمائة للميلاد، ونشأ في مكة وأصبح من وجوهها، ومن سادة قريش واشتهر بسداد الرأي والكرم والعطف على الفقراء، وتولى في الجاهلية منصب السقاية، وتولى أيضاً عمارة المسجد الحرام⁽²⁾. واشتهر من أبناء العباس ابنه عبد الله⁽³⁾ - رضي الله عنه - الذي نما البيت العباسي من سلالته وخصوصاً من ابنه علي⁽⁴⁾، وقد كانت ولادة عبد الله - رضي الله عنه - قبل الهجرة بستين وعرف عنه اشتغاله بالعلم وقد حظي بدعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - له حيث قال: " اللهم فقهِه في الدين"⁽⁵⁾، فظهرت بركة هذا الدعاء عليه حتى لقب بحبر الأمة وترجمان القرآن.

(1) - مؤنس حسين، الحضارة، سلسلة عالم المعرفة العدد (1)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978 م، ص: 13.

(2) - انظر ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415 هـ، ج/3 ص: 511.

(3) - هو أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي رسول الله عليه وسلم وله ثلاث عشرة سنة، ومات ابن عباس بالطائف في فتنة ابن الزبير سنة ثمان وسبعين للهجرة وبلغ سبعين سنة، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج/3 ص: 64.

(4) - هو أبو محمد علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي، وهو جد السفاح والمنصور الخليليين؛ كان سيداً شريفاً بليغاً، وهو أصغر ولد أبيه، قتل سنة أربعين للهجرة، انظر المصدر نفسه، ج/3 ص: 277.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، باب وضع الماء عند الخلاء، حديث رقم 143، ج/1 ص: 41.

ويعد علي بن عبد الله بن العباس أول شخصية عباسية كان لها طموح ونشاط سياسي، أوصاه أبوه بالرحيل إلى الشام تجنباً للفتن، فعمل بوصية أبيه، ولحق بالخليفة عبد الملك بن مروان⁽¹⁾ في دمشق فأكرمه.

وقد اضطربت حالته في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك⁽²⁾، إذ سجنه وضربه بالسياط مرتين، ذلك أنه تزوج لبابة بنت عبد الله بن جعفر والتي كانت تحت عبد الملك بن مروان، قبل أن يطلقها، فنقم عليه الوليد بن عبد الملك، وقال له: إنما أردت أن تذلل بنيتها من الخلفاء⁽³⁾.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن الدعوة العباسية بدأت على يد ابنه محمد بن علي بن عبد الله⁽⁴⁾ في حياة أبيه، و التي لم يكن له ذكر فيها⁽⁵⁾.

وقد رأى محمد هذا، أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبق بإعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل، وأن كل محاولة فجائية لا بد أن تكون عاقبتها الفشل، فرأى أن يسير الناس في المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم؛ فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا دعاة يدعون الناس إلى الرضا بالبيت دون أن يسموا أحداً خوفاً من بني أمية أن يقضوا على المدعو إليه إذا عُرف، ورأوا أن أحسن منطقة يبثون فيها الدعوة، هي الكوفة وخراسان. أما الكوفة، فهي مهد التشيع لأهل البيت من قديم، فيمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم، وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين:

● الأول: أن فكرة التشيع يفهمها الخراساني من المسلمين بسهولة؛ لأن مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

(1) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، أبو الوليد، أحد أعظم خلفاء بني أمية، ولد بالمدينة سنة ست وعشرين للهجرة، كان يعد من فقهاء المدينة وقرائهم قبل أن يلي الخلافة وقد عرف بالحزم والفتنة والسياسة والإقدام على سفك الدماء، فاستطاع أن يجمع الناس عليه، توفي سنة ست سبعين للهجرة بدمشق، انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، 1415هـ/1995م، ج37/ص: 110.

(2) هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، الدمشقي، الذي أنشأ جامع بني أمية، ببيع بعهد من أبيه، وكان مترفاً، توفي في جمادى الآخرة، سنة ست وتسعين للهجرة، وله إحدى وخمسون سنة، انظر شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4/ص: 347.

(3) انظر ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ/ 1988م، ج9/ص: 351.

(4) هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب، الهاشمي القرشي، ولد في قرية تعرف بالحميمة سنة اثنين وستين للهجرة، وهو والد السفاح والمنصور، ولي إمارة الهاشميين سرا في أواخر أيام الدولة الأموية وكان مقامه بأرض الشراة بين الشام والمدينة، توفي سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج6/ص: 271.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج9/ص: 352.

• والثاني: أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين؛ ولذلك فائدة كبيرة في حياة النفوس، وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد⁽¹⁾.

وجه محمد بن علي بن عبد الله دعائه إلى العراق وخراسان في دعوة سرية تنادي بأحقية العباسيين للخلافة، فكانت نفوس الناس هناك - وبخاصة الموالي والشيعة - مهياة لاستقبالها، عازمين على الثورة؛ لامتلاء صدورهم بالحقد والكرهية للأمويين وعمالهم على العراق.

فقد سبق وأن ثار أهل العراق بزعامة ابن الأشعث⁽²⁾ على الحجاج⁽³⁾، وأعلن قتيبة بن مسلم⁽⁴⁾ سنة ست وتسعين للهجرة خلع سليمان بن عبد الملك وقام خطيباً في أهل العراق وخراسان قائلاً: "... إن الشام أب مبرور، وإن العراق أب مكفور، حتى متى يتبطح أهل الشام بأفئيتكم وظلال دياركم! يا أهل خراسان، انسبوني تجدوني عراقي الأم، عراقي الأب، عراقي المولد، عراقي الهوى والرأي والدين..⁽⁵⁾. وبعد وفاة محمد هذا انتقل ولاء الشيعة إلى ابنه إبراهيم⁽⁶⁾.

وكان من أبرز دعاة الشيعة في الكوفة أنثى بكير بن ماهان⁽⁷⁾، ولما توفي بكير شيخ الشيعة بالكوفة، أقام إبراهيم بن محمد بن حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال مكانه⁽⁸⁾.

(1) - الخضري، محمد بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية، تحقيق: محمد العثماني، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1406هـ/1968م، ص: 19.

(2) - هو ابن الأشعث عبد الرحمن بن محمد الكندي، الأمير، متولى سجستان، بعثه الحجاج على سجستان، فثار هناك، وأقبل في جمع كبير، وقام معه علماء وصلحاء الله تعالى لما انتهك الحجاج من إماتة وقت الصلاة، ولجوره وجبروته، فقاتله الحجاج، وقيل إن ابن الأشعث أصابه السل، فمات، فقطع رأسه، ونفذ إلى الحجاج، انظر شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4/ص: 184.

(3) - هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل، ولد سنة أربعين للهجرة، و كان عامل عبد الملك بن مروان على العراق وخراسان، فلما توفي عبد الملك وتولى الوليد أبقاه على ما بيده، وكان للحجاج في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يسمع بمثلهما، توفي سنة خمس وتسعين للهجرة، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج2/ص: 31، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ج12/ص: 113.

(4) - هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، ولد سنة تسع وأربعين للهجرة، أمير، فاتح، من مفاخر العرب، نشأ في الدولة مروانية وفتح كثيراً من المدائن، توفي سنة ست وتسعين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج5/ص: 189.

(5) - انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، 1387هـ، ج6/ص: 510.

(6) - هو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، زعيم الدعوة العباسية قبل ظهورها، كان يسكن الحميمة، ولد سنة اثنتين وسبعين للهجرة، وهو الذي وجه أبا مسلم الخراساني واليا على دعائه وشيعته في خراسان، وقد كان إبراهيم فصيح اللسان، راجح العقل، يروي الحديث والأدب، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج1/ص: 59.

(7) - انظر الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ/2000م، ج10/ص: 171.

(8) - انظر الخضري، محمد بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية، ص: 28.

وهكذا بدأت تظهر إلى الوجود الدعوة إلى أبناء العباس، ومن أجل تقوية الدولة عمل إبراهيم على تأمين مركزين للدعوة: أحدهما في الكوفة لوجود كثير من الشيعة هناك، والآخر في خراسان لبعدها عن مقر الخلافة من ناحية، ولكون الأمويين كانوا يعاملون غير العرب معاملة دونية، فأحفظهم ذلك، ورأوا أن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبوة⁽¹⁾.

ثم اتصل إبراهيم بن محمد بشاب من خراسان، وهو أبو مسلم الخراساني⁽²⁾، وكان ظاهر النجابة فولاه خراسان؛ فصار يعمل أبو مسلم على جعلها قاعدة للخلافة العباسية، وأوصاه بقول: "يا عبد الرحمن، إنك رجل منا أهل البيت، فاحفظ وصيتي، وانظر إلى هذا الحي من اليمن، فأكرمهم، وحلّ بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر إلى هذا البيت من ربيعة، فاتهمهم في أمرهم، وانظر إلى هذا الحي من مضر، فإنهم العدو القريب، فاقتل من شككت فيه، ومن كان في أمره شبهة... وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسائناً عربياً فافعل"⁽³⁾.

وتجدد الإشارة إلى الاهتمام الكبير الذي أولاه العباسيون للموالي، فجعلوا منهم الدعوة والنقباء، ولذا انهالوا بأعداد كبيرة على أبي مسلم الخراساني القائم على أمر الدعوة العباسية فصور لهم بذكائه وحنكته الخلاص والحرية وما سيتمتعون به من حقوق مرضية خلافاً لما كانوا يعانونه من حكم بني أمية. وقام أبو مسلم بإيعاز من العباسيين بإشغال القبائل العربية والعمل على التفرقة بينهم ليشغلهم عن تجمع الموالي والرقيق من الفرس ونجح أبو مسلم في مهمته حتى قال شاعرهم⁽⁴⁾:

| | |
|------------------------------------------------|------------------------------------------------|
| مَا بَالَكُمْ تَلْقَحُونَ الْحَرْبَ بَيْنَكُمْ | كَأَنَّ أَهْلَ الْحَجَا عَن رَأْيِكُمْ عَزَبُ |
| وَتَتْرُكُونَ عَدُوًّا قَدْ أَظْلَكُكُمْ | مِمَّا تَأَشَّيْتُمْ لَادِينُ وَلَا حَسَبُ |
| قَوْمًا يَدِينُونَ دِينًا مَا سَمِعْتُ بِهِ | عَنِ الرَّسُولِ وَلَمْ تَنْزِلْ بِهِ الْكُتُبُ |
| فَمَنْ يَكُنْ سَائِلِي عَنِ أَصْلِ دِينِهِمْ | فَإِنَّ دِينَهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ |

إذاً فقد قامت دولة العباسيين على عواتق العجم من الفرس والموالي، وقام بهذا الكيان العظيم أبو مسلم الخراساني الذي يعده المؤرخون رجل الدولة، وصاحب الدعوة والذي تم على يده الفتح، فقد تبنى الدعوة منذ نشأتها، ولما كسب قلوب الناس وكثر الهرج والمرج

(1) - الخضري، محمد بك، المرجع السابق، ص: 12.

(2) - هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سندوس بن حوزون، ولد بزرجمهر، وكان يكنى: أبا إسحاق، نشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى به إلى عيسى بن موسى السراج، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين، فلما بعثه إبراهيم بن محمد الإمام إلى خراسان قال له غير اسمك وكنيتك، فتسمى عبد الرحمن بن مسلم، واكتنى بأبي مسلم، انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج 10/ ص: 27.

(3) - الخضري، محمد بك، ص: 28، 29.

(4) - الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الأولى، 1960 م، ج 1/ ص: 361.

ونما الشر وثارَت الفتن في عهد مروان بن محمد⁽¹⁾، الملقب بالحمار آخر خلفاء بني أمية، واضطرب حبل الدولة واختلفت كلمتهم وقتل بعضهم بعضاً استغل أبو مسلم ذلك وأظهر دعوة بني العباس وجهاز جيشاً عرمرماً لقتال نصر بن سيار⁽²⁾ أمير خراسان ثم توالى الوقائع الحربية معه ومع غيره من أمراء خراسان حتى ظهر أبو مسلم عليهم ودخل العراق ثم سلم الأمر إلى السفاح⁽³⁾ فتولى الخلافة سنة اثنين وثلاثين ومائة للهجرة⁽⁴⁾.

ولما استوثق له الأمر، ودانت له البلاد تتبع بني أمية فوضع السيف فيهم، وكان لتحريض الشعراء على قتلهم وإبادتهم أكبر الأثر في نفسه على ما وجد فيها من غل وحب للأخذ بالنثار، فقد دخل عليه سديف الشاعر⁽⁵⁾ يوماً وفي مجلسه سليمان بن هشام بن عبد الملك⁽⁶⁾ وقد بالغ في إكرامه، فلما رأى سديف ذلك قال:

لَا يَغُرُّنَاكَ مَا تَرَى مِنْ رِجَالٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
فَضَعَ السَّيْفَ وَأَرْفَعَ السُّوُطَ لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أَمْوِيًّا

(1) - هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو عبد الملك الأموي، المعروف بالحمار، آخر خلفاء بني أمية، ولد سنة سبعين للهجرة وبويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد، قتل بقرية من قرى مصر يقال لها بوضير يوم الخميس لست بقين من ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومائة للهجرة، انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج 57/ص: 321.

(2) - هو نصر بن سيار بن رافع بن حرّ بن ربيعة الكناني: أمير من الدهاة الشجعان، ولد سنة ست وأربعين للهجرة، وكان شيخ مضر بخراسان ووالي بلخ، ولي إمرة خراسان سنة عشرين ومائة للهجرة وبعد وفاة أسد بن عبد الله القسري وولاه هشام بن عبد الملك وغزا ما وراء النهر ففتح حصونا وغنم مغانم كثيرة، وأقام بمرو، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج 8/ص: 23.

(3) - هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أبو العباس أول خلفاء الدولة العباسية وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب، ولد سنة أربع ومائة للهجرة، وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد، كان شديد العقوبة، عظيم الانتقام وقد تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق، ولقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دمائهم، توفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة، انظر المصدر نفسه، ج 4/ص: 116.

(4) - انظر ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1418 هـ / 1997 م، ج 1/ص: 143، 144.

(5) - سديف بن إسماعيل بن ميمون، مولى بني هاشم، وفي سبب ولائه أقوال، وهو شاعر حجازي مُقل، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان شديد التعصب لبني هاشم، شديد التحريض على بني أمية، يجادل أنصارهم في الحجاز ويُسابُّهم، انظر عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، لبنان، الطبعة الرابعة، 1981 م، ج 2/ص: 65.

(6) - هو سليمان بن عبد الملك بن مروان، أبو أيوب: الخليفة الأموي، ولد في دمشق سنة أربع وخمسين للهجرة، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد، كان عاقلاً، فصيحاً، طموحاً إلى الفتح، جهز جيشاً كبيراً وسيره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان وكانتا في أيدي الترك، وتوفي في دابق سنة تسع وتسعين للهجرة، ودامت مدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أياماً، انظر الأعلام، الزركلي، ج 3/ص: 130.

فالتفت سليمان وقال: قتلنتي يا شيخ! ثم أخذ سليمان فقتل⁽¹⁾، قالوا ودخل عليه سديف نفسه وشاعر آخر وقد قدم الطعام وعنده نحو سبعين رجلاً من بني أمية فأنشده:

| | |
|--------------------------------------------|-----------------------------------------|
| أَصْبَحَ الْمُلْكُ ثَابِتَ الْأَسَاسِ | بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ |
| طَلَبُوا وَتَرَّ هَاشِمٌ فَشَفَوْهَا | بَعْدَ مَيْلٍ مِنَ الزَّمَانِ وَيَاسِ |
| لَا تَقْلَيْنِ عَبْدَ شَمْسٍ عَثَاراً | وَأَقْطَعَنَّ كُلَّ رِقْلَةٍ وَغَرَّاسِ |
| ذُهِبَ أَظْهَرَ التَّوَدَّدِ مِنْهَا | وَبَهَا مِنْكُمْ كَحَزِّ الْمَوَاسِي |
| وَلَقَدْ غَاطَنِي وَغَاضَ سِوَانِي | فُرَبَّهُمْ مِنْ تَمَارِقٍ وَكَرَاسِي |
| أَنْزَلُوهَا بَحِيثُ أَنْزَلَهَا اللُّ | هُ بِدَارِ الْهَوَانِ وَالْإِنْعَاسِ |
| وَأَذْكُرُوا مَصْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدِ | وَقَتِيلًا بِجَانِبِ الْمَهْرَاسِ |
| وَالْقَتِيلِ الَّذِي بَحْرَانَ أَضْحَى | ثَاوِيًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسِ |

قالوا: فأمر بهم السفاح فضربت أعناقهم ثم بسط النطوع فوقهم فجلس يأكل ولهم أنين حتى ماتوا جميعاً⁽²⁾.

هذا الغل الدفين الذي انطوى عليه صدر السفاح وغيره قد حجب بصره فلم يعد يرى إلا السيف والنطع ثم الصلب والتمثيل لقطع دابر بني أمية حتى وصل الأمر إلى نبش القبور وتفتيت رفات من فيها وإحراقه.

ويروى أن السفاح لما أتى برأس مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية سجد فأطال السجود ثم رفع رأسه فقال: "الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك، والحمد لله الذي أظفرتني بك وأظهرني عليك، ثم قال: ما أبالي متى طرفني الموت قد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية منثنين، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم وتمثل:

لَوْ يَشْرَبُونَ دَمِي لَمْ يَزَوْ شَارِبُهُمْ وَلَا دِمَاؤُهُمْ لِلْغَيْظِ تَرْوِينِي

ثم حول وجهه إلى القبلة فسجد فأطال السجود ثم جلس وقد أسفر وجهه وتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له⁽³⁾:

(1)- انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م، ج4/ص: 358.

(2)- ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ج1/ص: 148.

(3)- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ/2005م، ج3/ص: 215.

أَبَى قَوْمَنَا أَنْ يَنْصِفُونَا، فَأَنْصَفْتُ
تُورثُنْ مِنْ أَشْيَاخِ صِدْقٍ تَقَرَّبُوا
قَوَاطِعُ فِي أَيْمَانِنَا تَقَطَّرُ الدَّمَا
بِهِنَّ إِلَى يَوْمِ الْوَعَى فَتَقَدَّمَا
كَبِيضِ نَعَامٍ فِي الْوَعَى مُتَحَطَّمَا
إِذَا خَالَطَتْ هَامَ الرَّجَالِ تَرَكْنَهَا

وبقيام دولة العباسيين تغيرت أحوال العجم والموالي، فقد شعروا بكيانهم ودخلهم العجب وخاصة الفرس الذين كانوا يزعمون أنهم السبب المباشر في قيام الدولة ولولاهم لما قامت واشتهر وعظم أمر أبي مسلم الخراساني حتى هابه الخلفاء أنفسهم، وصار لهم نفوذ وسلطة، بعدما كانوا لا يجدون مثل ذلك في دولة بني أمية التي كانت تقدم العرب عليهم، أما اليوم فقد علا شأنهم وعظم أمرهم فالوزراء منهم، والولاة والقضاة وقواد الجيش، وأصبحت الدولة تعاملهم كمعاملة العرب أو أكثر، ونتيجة لهذا النفوذ كون الموالي حزباً لهم انبثقت منه ثوراتهم ومؤامراتهم، وشاع ما سمي بالشعوبية وهي حركة تبنها الموالي من العجم وغيرهم، مذهبهم الحقد على العرب والسخرية بهم وبتراثهم وحضارتهم.

وكان هذا الاتجاه الشعبي السبب المباشر في ظهور الزندقة والمجون والتهتك الأخلاقي وتفشي شرب الخمر والتغزل الصريح بالغلطان وغيرهم، وكان من أقطاب هذا الحزب ومن أنصار تلك الدعوة أبو نواس وبشار والخريمي⁽¹⁾ وأبو الشمقمق⁽²⁾ وغيرهم كثير جداً.

يقول أبو نواس في شعره الشعبي يسخر من العرب ويهجو عيشهم⁽³⁾:

إِذَا مَا تَمِيمِي أَتَاكَ مُفَاخِرًا
تُقَاخِرُ أُنْبَاءَ الْمُلُوكِ سَفَاهَةً
فَقُلْ عُدْ عَنْ ذَا أَكْلِكَ لِلضَّبِّ؟
وَبُولِكَ يَجْرِي فَوْقَ سَاقِكَ وَالْكَعْبِ
وَدَعْدُعٍ بِمَعْزَى يَا ابْنَ صَانِعَةِ الزَّرْبِ
وَشَيْخُكَ مَاءٌ فِي التَّرَائِبِ وَالصُّلْبِ
إِذَا ابْتَدَرَ النَّاسُ الْفِعَالَ فَخُذْ عَصَاً
فَنَحْنُ مُلْكَنَا الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا

ويفضل حياة الفرس على حياة العرب فيقول متزندقاً⁽⁴⁾:

(1) - إسحاق بن حسان بن قوهي، ويقال قوهي لقب حسان أبو يعقوب الخريمي مولا هم المري، شاعر متقدم مطبوع مشهور له ديوان معروف وأصله من مرو، نزل الجزيرة والشام وسكن بغداد، انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج 8/ص: 198.

(2) - مروان بن محمد، الملقب بأبي الشمقمق، شاعر هجاء، من أهل البصرة، خراساني الأصل، من موالي بني أمية، له أخبار مع شعراء عصره، كبشار وأبي العتاهية وأبي نواس وابن أبي حفصة، انظر الزركلي الدمشقي، الأعلام، ج 7/ص: 209.

(3) - أبو نواس، الديوان، تحقيق ايفالد قاغنز، دار النشر: فرانز شتاينر، 1492هـ/ 1972، ج 2/ص: 12.

(4) - المصدر نفسه، ج 2/ص: 27.

يُقَاسِي الرِّيحَ وَالْمَطَرَ
مَ فِي اللَّذَاتِ وَالخَطَرَ
وَسَابُورٌ لِمَنْ غَبَرَ
فُرَاتٍ تَقَيَّاتٌ شَجَرَ
عَنْهَا الطَّلْحُ وَالْعُشْرُ
يَرَابِيعاً وَلَا وَحَرَ

دَعِ الرَّسْمَ الَّذِي دَثَرَ
وَكُنْ رَجُلاً أَضَاعَ الْعِلْمَ
أَلَمْ تَرَ مَا بَنَى كِسْرَى
مَنَازَهُ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالنَّهْرِ
بِأَرْضِ بَاعَدَ الرَّحْمَنُ
وَلَمْ يَجْعَلْ مَصَابِدَهَا

ويفخر بشار بكسرى وحزبه على العرب فيقول(1):

عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ
وَمَنْ ثَوَى فِي التُّرْبِ
كِسْرَى وَسَاسَانُ أَبِي
عَدَدْتُ يَوْمًا نَسَبِي
بَنَاجِيَهُ مَعْنَصِيبِ
يُجَنِّي لَكُهُ بِالرُّكْبِ
فِي الْجَوْهَرِ الْمُتَهَبِ

هَلْ مِنْ رَسُولٍ مُخْبِرٍ
مَنْ كَانَ حَيًّا مِنْهُمْ
جَدِّي الَّذِي أَسْمَوْا بِهِ
وَقَيَّصَرُ خَالِي إِذَا
كَمْ لِي وَكَمْ لِي مِنْ أَبِي
أَشْوَسَ فِي مَجْلِسِهِ
يَعْدُو إِلَى مَجْلِسِهِ

ويطيل الثناء على آبائه أولئك ويفخر بهم إلى أن يقول(2):

خَلَّفَ بَعِيرَ جَرَبِ
يُنْقُبُهُمَا مِنْ سَعْبِ
يَخْبِطُهُمَا بِالخَشَبِ

وَلَا خَدَا قَطَّ أَبِي
وَلَا أَتَى حَنْظَلَةَ
وَلَا أَتَى عُرْفُطَةَ

ومهما تكن الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة الأموية، فإن الانقلاب العباسي في حقيقة أمره ثورة اجتماعية غيرت من صورة المجتمع العربي التي كان عليها أيام بني أمية إلى مجتمع إسلامي جديد، تعيش فيه أمة إسلامية تضم إلى جانب العنصر العربي عناصر أجنبية، وبخاصة الفرس، ارتفعت منزلتها الاجتماعية حتى تفوقت على العرب واستطاعت أن تفرض وجودها ونفوذها في المجتمع العباسي، وأن يكون لها دورها الفعال في تطويره والتأثير عليه في شتى جوانبه حتى صبغ المجتمع بالصبغة الفارسية.

(1) - بشار بن برد، الديوان، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، دون طبعة،

1386هـ/1966م، ج2/ص: 27.

(2) - المصدر نفسه، ج2/ص: 378.

ج- المؤثرات العامة في حضارة العصر العباسي الأول :

لما أعز الله العرب بالإسلام وامتد عليهم ببعثة نبيه صلى الله عليه وسلم فيهم تبدلت أحوالهم التي كانوا عليها من قبائل متقطعة متناحرة إلى أمة عظيمة قادت الأمم وأخرجتهم من ظلمات الجهل والتخلف إلى نور الإيمان والحضارة، فجعلهم الدين الجديد سادة الدنيا وعمار الأرض وانقادت لهم الأمم وخضعت لهم الأمصار وفتح الله لهم الدنيا بأسرها، فأصبحوا رواد الحضارة وقادة الناس بعدما كانوا منزوين في جزيرتهم لا يشعرون بعظمة ولا يتوقون إلى فخر يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم، فقد كانت تزامهم حضارة الفرس وعظمتهم من ناحية، وقهر الروم وجبروتهم من ناحية أخرى، وكانت علاقتهم بهاتين الأمتين أشبه ما تكون بعلاقة المنهزم الذي يتحرى الفتك والبطش مرة تلو الأخرى، ولذلك قال الله تعالى عنهم: {وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (1).

وقد قال قتادة بن دعامة السدوسي (2) - رحمه الله - في تفسير الآية الأنفة: "كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً وأعراهم جلوداً وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقيماً ومن مات منهم ردى في النار يؤكلون ولا يأكلون - والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشد منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتهم فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله" (3).

وذكر الإمام الطبري (4) - رحمه الله - في تاريخه أن عمر بن الخطاب (5) - رضي الله عنه -

(1) - سورة الأنفال، الآية: 26.

(2) - هو قتادة بن دعامة بن قنادة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، يقال أنه ولد أكمه، توفي سنة بضع عشرة ومائة للهجرة، انظر ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد سوريا، الطبعة الأولى، 1406هـ/1986م، ج1/ص: 453.

(3) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420هـ/1999م، ج4/ص: 40.

(4) - هو أبو جعفر الطبري المحدث الفقيه المقرئ المؤرخ المعروف المشهور، ولد سنة أربع أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين للهجرة في أمل طبرستان، واستوطن بغداد، له: أخبار الرسل والملوك وجامع البيان في تفسير القرآن، مات سنة عشر وثلاثمائة للهجرة، انظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج6/ص: 2441.

(5) - هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح القرشي العدوي، أبو حفص أمير المؤمنين، وثاني الخلفاء الراشدين، صاحب المناقب الجمة، قتل سنة ثلاث وعشرين للهجرة، انظر ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ، ج4/ص: 484.

ندب الناس في الليلة التي مات فيها أبو بكر⁽¹⁾ - رضي الله عنه - إلى أهل فارس ثلاثاً كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وجه فارس - كما ذكر- من أكره الوجوه إلى العرب وأثقلها عليهم، لقهرهم وشدة سلطانهم وقوة شوكتهم وعزهم وقهرهم للأمم.

ويروي لنا أيضاً أن المثنى بن حارثة⁽²⁾ - رضي الله عنه - قائد المسلمين إلى فارس خطب الناس فقال: "يا أيها الناس، لا يعظمن عليكم هذا الوجه، فإننا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها"⁽³⁾، وذكر القرطبي - رحمه الله - في تفسير قوله عز وجل: {أن يتخطفكم الناس} أنهم فارس والروم⁽⁴⁾.

ومن يتصفح تاريخ الطبري ير ما أعز الله به المسلمين من نصر مبين وما أفاء به عليهم من خير عميم، بعدما كانوا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم رعاة للشاء لا يعرفون من الحضارة إلا اسمها، فلما اعتنقوا الإسلام وآمنوا به ورأوا من حولهم من الأمم في ضلال، وأنهم قد أصبحوا حملة الدين الجديد وحماته، وأن عليهم نشره ودعوة الناس جميعاً إليه والجهاد في سبيله، ورأوا أن سيادة العالم التي كانت للفرس والروم قد انتقلت فجأة إليهم، وأن تلك الأمم قد أصبحت تحت حكمهم، فرفع ذلك من شأنهم وسمت نفوسهم وسرى فيهم من العزة الكثير، وظهر ذلك واضحاً في الدولة الأموية في حكمها ومعاملتها لغيرها، وبدأ الاحتكاك بالأمم الأخرى يظهر جلياً، مما أسفر عن حضارة مشرقة للإسلام والمسلمين لم يشهد لها مثيل في أمة من الأمم السابقة.

لقد أبدل الله خوف المسلمين الفاتحين بعد تهيبهم أمناً، وقذف الرعب في قلوب أعدائهم من الفرس خاصة، الذين يعدون أشرس الأمم وأقواها، فأصبحوا غنيمة للمسلمين هم وأموالهم وأولادهم وأورثهم الله أرضهم، وصدق فيهم قول الأعور العبدي⁽⁵⁾:

(1) - هو عبد الله بن أبي قحافة، أبو بكر الصديق، أول الخلفاء الراشدين، يلتقي مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في جده مرة، وهو أول من أسلم من الرجال، صاحب المناقب الكثيرة والفضائل الجمّة، توفي في ثمان باقين من جمادى الآخرة، سنة ثلاثة عشر للهجرة، انظر ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1412هـ/1992م، ج3/ص: 963.

(2) - هو المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد الشيباني، أسلم في السنة التاسعة، وغزا بلاد الفرس في أيام أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - كان شهماً، شجاعاً، ميمون النقيبة، حسن الرأي، أبلى في حروب العراق بلاء لم يبلغه أحد، توفي سنة أربعة عشر للهجرة، قبل القادسية، انظر ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج5/ص: 568.

(3) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3/ص: 444.

(4) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10/ص: 194.

(5) - هو بشر بن منقذ أحد بني شن بن أفصى بن عبد القيس وكنيته أبو منقذ، وله ولدان شاعران هما جهم وجهيم، كان شاعراً محسناً، أموي الشعر، انظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، ج2/ص: 624.

وَاسْتَبَدَلْتُ بَعْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ خَفَانَا
إِذْ بِالنُّخَيْلَةِ قَتَلَى جُنْدِ مَهْرَانَا
فَقَتَّلَ الرَّحْفُ مِنْ فُرْسٍ وَجِبِلَانَا
حَتَّى أَبَادَهُمْ مُتْنَى وَوُحْدَانَا⁽¹⁾

هَاجَتْ لِأَعْوَرَ دَارُ الْحَيِّ أَحْزَانَا
وَقَدْ أَرَانَا بِهَا وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ
أَزْمَانَ سَارَ الْمُتْنَى بِالْخِيُولِ لَهُمْ
سَمَا لِمَهْرَانَ وَالْجَيْشِ الَّذِي مَعَهُ

بهذه القوة اندفع العرب لقتال الفرس والروم، لا حبا في الغزو، وتهافتا على الدنيا والغنائم، وإرضاء لهوى القتال الكامن في طباعهم، إنما هو حب الجهاد في سبيل الله تعالى، يدفعه الإيمان الصادق بالعبقيدة السليمة وحب الخير، التي بثها فيهم الإسلام، فحبيب إليهم الاستشهاد في سبيل الله، وفي سبيل الدعوة إلى الحق الذي أوحى إلى النبي - صلى الله عليه وسلم- فانطلقوا رغبة في الجنة وحرصا عليها، وباستهانة في الحياة الدنيا، فما هي إلا متاع غرور، فعاشت نفوسهم في جنان تحت ظلال السيوف، وحامت أنفسهم نحو آخرة هي خير وأبقى، وعقدوا مع الله العزم والبيعة بأن باعوا الله أنفسهم وأرواحهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾⁽²⁾.

وقد كان الفاتحون يعرفون موقف الإسلام من الدعوة، فكانوا يعرضون على أهل هذه البلاد الإسلام أو الجزية أو الحرب، وقد كانت الحرب آخر الخيارات أمام المسلمين لفتح السبيل أمام دعوة الإسلام لتعم الدنيا بأسرها، وهذا هو الهدف الرئيس من الفتوحات.

كما أن الجهاد والفتح كان يهدف إلى رفع الظلم عن المظلومين والمستضعفين، الذين وقعوا تحت طائلة الظالمين والمستعبدين المعتدين على الكرامة والإنسانية، وكان هذا استجابة لأمر من الله سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا، الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾⁽³⁾.

والواقع أن المسلمين أنشؤوا حضارتهم في صورة جديدة تختلف كثيراً عن حضارات الأمم التي فتحوها، وتمكنوا من نشر دينهم وحمل تلك الأمم على الدخول فيه عن طواعية وقناعة كما حدث لشعوب مصر والهنود عندما اتصل بهم العرب إبان الفتوحات الإسلامية، فقد اعتنقت تلك الأمم معتقد المسلمين وتطبعوا بعباداتهم وتخلقوا بأخلاقهم، يقول الدكتور غوستاف لوبون: "وللفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب فالبرابرة الذين استولوا على العالم الروماني والترك وغيرهم وإن

(1)- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3/ص: 471.

(2)- سورة التوبة، الآية: 111.

(3)- سورة النساء، الآية: 75، 76.

استطاعوا أن يقيموا دولة عظيمة، لم يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التي قهروها، وعكس ذلك أمر العرب الذين أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها...⁽¹⁾.

ويمكن بعد هذا أن نجمل عوامل التحضر العربي فيما يأتي:

أولاً : الإسلام :

لم يعرف للعرب حضارة بالمعنى المفهوم قبل الإسلام، فقد كان العرب أمة وحشية فضة كاسرة في غالب طباعها أمة قبلية لا تؤمن إلا بعرف القبيلة ووحدها لا تنقاد للسياسة ولا للحكم، وتلك خصائص منافية للعمران والتمدن الذي تقوم عليه الحضارة⁽²⁾.

لقد بعث الله رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس كافة ووعد الله سبحانه وتعالى بنصر هذا الدين وإظهاره في العالمين، مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (3). ومن هذا المنطلق فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد بذل جهده وسعى لتبليغ هذا الدين إلى الناس كافة دون إجبار لهم على الدخول فيه، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} (4).

وإذا كان من دعائم الحضارة الاستقرار والأمن والتسامح وفن المعاملة والتكافل الاجتماعي، والنظر في مصالح الأمة وتبادل النفع بين أفرادها وغير ذلك مما افتقده العرب قبل البعثة المحمدية، فإن الإسلام العظيم قد جاء بكل ذلك وأضعافه من العوامل المادية والنظرية التي لولاها لما قامت للعرب قائمة، ولما أشرقت شمسهم على سائر الأمم.

وبمجيء هذا الدين الجديد جاءت النظم، والتأم صدع الأمة، واجتمع شملها وأصبحت تسيير في اتجاه واحد وتتعاقد في حمل معول البناء والتحضر، فتدفقت ينابيع الحضارة من كل صوب، وأصبحت تلك القبائل المتناحرة وتلك الأشلاء الممزعة، وتلك الأعراف المتباينة أمة واحدة يسودها العدل والحرية والعمل والمساواة، وأصبح أفرادها ينقبون في خزائن الأرض، ويجولون أطرافها، وينعمون بخيراتها، ويستخرجون كنوزها، فيفتحون الأرض وينشرون الملة ويشيدون القناطر ويحفرون الترع، ويبنون القصور، ويقومون المساجد، ويهندسون الطرق وفق دعوة دينهم، وتلك هي الحضارة في أسمى معانيها.

(1) - غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيت، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م، ص: 144.

(2) - انظر ابن خلدون، ديوان المبتد والخبر، ج1/ ص: 187.

(3) - سورة التوبة، الآية: 33.

(4) - سورة البقرة، الآية: 256.

وقد عبر القرآن الكريم عن تلك الحضارة وعن تلك الشمولية والوحدة في العبودية والبناء في أكثر من موضع، من ذلك مثلاً قوله عز وجل: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} (1)، فجعل الأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ونصب الأمة على الحال، أي في حال اجتماعها على الحق؛ أي هذه أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعت على التوحيد (2).

ومن المعلوم أن الحضارات لا تقوم إلا على تلك المبادئ والمثل والتعاون، وذلك سر من أسرار شموخ حضارة المسلمين ورسوخها وتخليدها. فقد حظيت الحضارة الإسلامية الرشيدة بالتمكين الرباني، وتقلبت في نعمه ونعيمه، قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (3).

وهذا الوعد الرباني، وقع حقيقة على الأرض، فتم وعد الله سبحانه وتعالى، ومن أصدق من الله قيلاً؟" ويعني بقوله: إن مكناهم في الأرض، إن وطننا لهم في البلاد" (4).

"والاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان" (5).

فالإسلام الذي دعا إلى العلم والعمل ونبذ الرهبانية، هو الذي فتح أعين العرب على حضارة الأمم عندما فتح بلادهم، وهو الذي جلب الكنوز والأموال التي قامت عليها حضارة العرب، وهو الذي وحد وأخى بين العربي والعجمي إذا أسلم، وهو السبب في اقتناء العربي للرقيق والجواري من سبي الفتوحات وفيئها، ولولاه لما صبت الأموال صباً على ديار المسلمين فتبدلت أحوالها، وتنعم أفرادها، فبات من كان يأوي إلى خيمة مضروبة في وحشة الصحراء يسكن قصرًا مشيداً أو منزلاً عامراً ومن كان لا يجد ما يسد رمقه، قد ملأ مائدته بأصناف الطعام والشراب، ومن كان لا يجد ما يستر عورته، ويذهب ريحته، قد لبس أنواع الثياب الحريرية المزركشة وتعطر بالمسك والعنبر ووطيء الأسرّة، وتحلى بالذهب والفضة، وتنعم بأصناف الفرش.

(1)- سورة الأنبياء، الآية: 92.

(2)- انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11/ص: 339.

(3)- سورة النور، الآية: 55.

(4)- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى،

1420 هـ / 2000 م، ج18/ص: 651.

(5)- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، الطبعة السابعة عشر، 1412 هـ، ج4/ص: 2529.

يقول ابن خلدون: "... فلما استعبدوا (يعني العرب) أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن في أحواله فبلغوا الغاية من ذلك، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والأنية وسائر الماعون والخرثي (1) فأتوا من ذلك وراء الغاية" (2).

والإسلام هو الذي أترف عرب المدينة ومكة، وأغرقهم في نعيم الحضارة وأورث الفاتحين مدن الشام وأمصارها، فعاشوا في مدنها، وسكنوا دورها وقصورها التي كانت قبل الفتوح تتنفس حضارة اليونان والرومان؛ مما كان سبباً في سرعة تحضرهم ورفيهم، وبفضل الإسلام أعز الله دمشق حاضرة الدولة الإسلامية، وأغدق عليها سيول الذهب والفضة من كل قطر حتى أثر عن معاوية (3) - رضي الله عنه - أنه كان يقول وقد انتقل من بعض كور الشام إلى بعض عمله، فنزل منزلاً وبسط له على ظهر إجار (4) مشرف على الطريق ومرت به القطرات والرحائل والخيول والجواري: "رحم الله أبا بكر ! لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابته منه، وأما نحن فتمرغنا فيها، ثم قال: والله إنه لملك آتانا الله إياه" (5).

وهكذا كان الإسلام والقرآن أساس حضارة العرب، وقاعدة سؤدهم وشرفهم، بهما فتحت لهم الدنيا وأسرت القلوب؛ وانقادت الأمم، وحقاً ما قيل من أن دولة العرب دخلت في ذمة التاريخ، بيد أن الدين هو الذي كان سبباً في قيامها (6).

(1) - الخرثي: متاع البيت وأثاثه، ومنه حديث عمير مولى أبي اللحم: فأمر لي بشيء من خرثي المتاع، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (خرث)، ج2/ص: 145.

(2) - ابن خلدون، ديون المبتدأ والخبر، ج1/ص: 216.

(3) - هو معاوية بن أبي سفيان، صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي، مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار، كان فصيحاً، حليماً وقوراً، ولد بمكة سنة عشرين قبل الهجرة، وأسلم يوم فتحها سنة ثمان للهجرة وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه، توفي سنة ستين للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج7/ص: 261.

(4) - الإجار: السطح، بلغة الشام والحجاز وجمعه أجاجير وأجاجرة، أو هو سطح بدون سترة في قول ابن سيده، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (أجر)، ج4/ص: 11.

(5) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5/ص: 334.

(6) - انظر غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص: 445.

ثانياً : الفداء والتضخم المالي :

نتيجة لجهاد المسلمين وفتوحاتهم والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل نشر الإسلام، وتعليمه للناس، جاءتهم الدنيا بكنوزها وهي راغمة، وأفاء الله عليهم من الأموال، وأثقال الذهب والفضة، ما كان يفوق تصورهم وخيالهم.

لقد انهالت عليهم الأموال والسبي والرقيق من كل حدب وصوب، وتدفقت عليهم غنائم الحروب التي خاضوها، وأموال الجزية التي ضربوها، فكان ذلك عاملاً قوياً من عوامل تحضرهم، وتبدل أحوالهم، وتقلبهم في نعيم الدنيا.

قال الطبري⁽¹⁾: "وكان فيمن سبي من ميسان⁽²⁾ يسار أبو الحسن البصري⁽³⁾، وأرطبان جد عبد الله بن عون بن أرطبان⁽⁴⁾". وذكر أن سلمة بن المحبق⁽⁵⁾ أحد المجاهدين زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - شهد فتح الأبلّة، وغنم ثمانين ألف مثقال من الذهب كانت أصلاً لثراء أحفاده من بعده⁽⁶⁾.

وفي سنة أربع ومائة تولى الجراح بن عبد الله الحكمي⁽⁷⁾ أرمينية⁽⁸⁾ وفتح بلنجر⁽⁹⁾ وغيرها في خلافة يزيد بن عبد الملك، فغنم الجراح مغانم من الترك الذين صالحوه على أموال يؤدونها إليه نظير كفه عنهم⁽¹⁰⁾.

(1) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3/ص: 569.

(2) - مَيْسَانُ: اسم مدينة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط، فتحت في عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - وولّاها النعمان بن عدي، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1995م، ج5/ص: 242.

(3) - هو يسار، أبو الحسن البصري، مولى الأنصار، من أهل ميسان، انظر السيد أبو المعاطي النوري، أحمد عبد الرزاق عيد، محمود محمد خليل، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1417 هـ/ 1997 م، ج4/ص: 163.

(4) - هو عبد الله بن عون بن أرطبان المزني بالولاء، شيخ أهل البصرة ومن حفاظ الحديث، لم يكن في العراق من هو أعلم بالسنة منه، ثقة في كل شيء، توفي سنة إحدى وخمسين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج4/ص: 111.

(5) - هو سلمة بن المحبق الهذلي، اسمه صخر، ويكنى أبا سنان، له رواية، وقد سكن البصرة، روى عنه ابنه سنان وجون بن قتادة، وقبيصة بن حريث والحسن البصري وغيرهم، انظر ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3/ص: 128.

(6) - انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3/ص: 569.

(7) - هو الجراح بن عبد الله الحكمي، أبو عتبة، أمير خراسان، وأحد الأشراف الشجعان، دمشقي الأصل والمولد، ولي البصرة للحجاج، ثم خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز، توفي سنة اثنتي عشرة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج2/ص: 115.

(8) - أرمينية: اسم لصقع عظيم واسع في جهة الشمال، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ص: 160.

(9) - بَلَنْجَر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، قيل أن عبد الرحمن بن ربيعة هو من فتحها، انظر المصدر نفسه، ج1/ص: 489.

(10) - انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4/ص: 155.

وقد ذكر ابن الأثير⁽¹⁾ أن عُنْبَسَةَ الكَلْبِي⁽²⁾، عامل الخليفة على الأندلس، غزا بلد الفِرْنَج سنة سبع ومئة ونازل مدينة قَرَقَسُونَةَ⁽³⁾ وحصر أهلها فصالحوه على نصف أعمالها وعلى ما في المدينة من أسرى المسلمين وأسلاهم وأن يعطوا الجزية للمسلمين⁽⁴⁾.

وفي خلافة هشام بن عبد الملك⁽⁵⁾ سنة أربع عشرة ومئة استعمل ابن عمه مروان بن محمد ابن مروان على أَرْمِينِيَّة، وأَدْرَبِيَجَان⁽⁶⁾، فدخل مروان البلاد وأوغل فيها وأخربها وغنم وسبي، ودخل بلاد مُلْك السَّرِير⁽⁷⁾ فأوقع بأهله وفتح قلاعاً ودان له الملك وصالحه على ألف رأس، وخمسائة غلام، وخمسائة جارية، ومائة ألف مد من البر⁽⁸⁾.

كما أصاب عبيد الله بن الحَبَاب⁽⁹⁾، والي أفريقية والأندلس من الغنائم والسبي أمراً

(1) - هو علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المعروف بابن الأثير، ولد سنة خمس وخمسين وخمسائة للهجرة، واشتغل في بلاد متعددة، وكان إماماً نسابه، مؤرخاً، إخبارياً، أديباً، نبيلاً، صنف تاريخه المشهور بالكامل في التاريخ على الحوادث والسنين في عشرات المجلدات، وهو من خيار التواريخ ابتداءً فيه من أول الزمان إلى سنة تسع وعشرين وستمائة للهجرة، وله أسد الغابة في معرفة الصحابة، توفي سنة سبع وثلاثين وستمائة للهجرة، انظر ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 1406 هـ / 1986 م، ج 1/ص: 52.

(2) - هو عنبسة بن سحيم الكلبى، فاتح، من الغزاة الشجعان، كان عامل الأندلس في أيام هشام بن عبد الملك، توفي سنة سبع ومائة للهجرة، انظر الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2003م، ج 3/ص: 134، والزركلى، الأعلام، ج 5/ص: 91.

(3) - قَرَقَسُونَةَ: حصن من حصون الأندلس، وبين قرقسونة وقرطبة مسافة خمسة وعشرين يوماً، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4/ص: 328.

(4) - انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 4/ص: 176.

(5) - هو هشام بن عبد الملك بن مروان، من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد سنة إحدى وسبعين للهجرة بدمشق وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد، كان حسن السياسة، يقظاً في أمره، يباشر الأعمال بنفسه، وتوفي سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلى، ج 8/ص: 86.

(6) - أَدْرَبِيَجَان: بلاد تلي الجبل من بلاد العراق وهي مفتوحة الألف وتلي بلاد أرمينية من جهة المغرب، انظر أبو عبد الله الجميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، 1980 م، ج 1/ص: 20.

(7) - ملك السرير: مملكة واسعة ليس لها إلا مسلكان: مسلك إلى بلاد الخرز، ومسلك إلى بلاد أرمينيا، وهي ثمانية عشر ألف قرية في جبال، والسري: اسم المملكة لا اسم المدينة (يفتح السين وكسر الراء) بلفظ السرير الذي ينم عليه، ويقال: إن هذا السرير كان من ذهب، وكان لبعض ملوك الفرس، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 3/ص: 219.

(8) - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 4/ص: 214.

(9) - هو عبيد الله بن الحباب السلولي، كان كاتباً لهشام بن عبد الملك ثم ولاه إمرة مصر، قتله أبو جعفر المنصور بواسطة مع ابن هبيرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة، انظر عبد الرحمن بن يونس الصدفى، تاريخ ابن يونس المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ، ج 2/ص: 140، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ج 37/ص: 415.

عظيماً وأهدى خالد بن عبد الله القسري⁽¹⁾ خليفته على الكوفة ويسمى طارقاً ألف وصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب⁽²⁾.

وفي سنة خمس وستين ومائة سير المهدي⁽³⁾ ابنه الرشيد⁽⁴⁾ لغزو الروم فهزمهم وغنم مائة ألف دينار وثلاثة وتسعين ألفاً وأربعمائة وخمسين ديناراً، ومن الورق واحداً وعشرين ألف ألف درهم، وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم.

وغنم المسلمون من البهائم خمسة آلاف رأس سبي وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً ومن الدواب الذلل بأدواتها عشرين ألف رأس⁽⁵⁾.

وكانت خزائن والى خراسان في عهد الرشيد، علي بن عيسى بن ماهان⁽⁶⁾ تحمل على ألف وخمسمائة بعير، وبلغت أمواله ثمانين ألف ألف، فأخذها الرشيد وضمها لأموال الدولة⁽⁷⁾.

كما كان في بيت مال المسلمين يوم توفي الرشيد - رحمه الله - تسعمائة ألف ألف ونيّف⁽⁸⁾. وقد كان يصل إلى بيت المال في حياته - رحمه الله - سبعة آلاف وخمسمائة قنطار

(1) - هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر بن عبقر بن أبي الهيثم البجلي القسري أمير مكة للوليد وسليمان، وأمير العراقيين لهشام بن عبد الملك، وهو من أهل دمشق، قتل بالكوفة قريباً من سنة مئة وعشرين للهجرة، انظر جمال الدين ابن منظور الأنصاري، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1402هـ/1984م، ج7/ص: 368.

(2) - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4/ص: 248.

(3) - هو محمد بن عبد الله المنصور، أبو عبد الله المهدي بالله، من خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولد سنة سبع وعشرين و مائة للهجرة، و كان محمود العهد والسيرة، محبباً إلى الرعية، حسن الخلق والخلق، جواداً، توفي سنة تسع وستين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج6/ص: 221.

(4) - هو هارون الرشيد، ابن محمد المهدي، ابن المنصور العباسي، أبو جعفر، خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم، ولد بالريّ سنة تسع وأربعين ومائة للهجرة، وكان عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقهاء، فصيحاً، توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة للهجرة، انظر المصدر نفسه، ج8/ص: 62.

(5) - انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 153.

(6) - هو علي بن عيسى بن ماهان، من كبار القادة في عصر الرشيد والأمين العباسيين، وهو الذي حرض الأميين على خلع المأمون من ولاية العهد، توفي سنة خمس وتسعين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج4/ص: 317.

(7) - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5/ص: 379.

(8) - المصدر نفسه، ج5/ص: 389.

في كل سنة⁽¹⁾، وخلف عبد الرحمن الناصر⁽²⁾ حاكم الأندلس في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف دينار مكررة ثلاث مرات⁽³⁾.

وقد فصل ابن خلدون في موارد بيت المال ببغداد أيام المأمون⁽⁴⁾ الذي حكم ما يزيد على عشرين عاماً⁽⁵⁾ والتي كانت تصل إلى بيت مال الدولة من الثغور والبلدان الإسلامية كل سنة، فبلغت آلاف مؤلفة من الدنانير والدرهم، ومثاقيل الذهب والفضة غير ما كان يصل من المتاع والأكسية والسكر والعسل والزيت والرقيق والبراذين والبغال والعود الهندي والبسط وغير ذلك⁽⁶⁾.

فخزائن الدولة إذن كانت المعين الغدق الذي هياً لكل هذا الترف، فقد كانت تحمل إليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض، حتى قالوا إن المنصور خلف حين توفي أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم، وإن دخل بيت المال سنوياً لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليوناً من الدنانير⁽⁷⁾.

تلك الأموال الكثيرة، والنعم الطائلة التي أفاء الله بها على خزائن العباسيين خاصة أوجدت حياة لم تكن معهودة من قبل، حياة بذخ ونعيم وترف، وخاصة في قصور الخلفاء والحكام والوزراء والقواد وعلية القوم من العلماء والأدباء والشعراء وطبقات المغنين الذين كانت تسكب عليهم الأموال سكباً؛ مما جعل حياتهم نعيماً خالصاً.

يقول الدكتور شوقي ضيف: "وطبيعي أن تدفع هذه الأموال لا إلى النعيم فحسب، بل أيضاً إلى الترف في الحياة وكل أسبابها المادية من دور مزخرفة وفرش وثيرة وثياب أنيقة

(1) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج 1/ص: 227.

(2) - هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المرواني الأموي، أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية، في الأندلس، ولد سنة سبع وسبعين ومائتين، وكان كبير القدر، كثير المحاسن، محبا للعمران، مولعا بالفتح وتخليد الآثار، توفي بقرطبة سنة خمسين وثلاثمائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج 3/ص: 324.

(3) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج 1/ص: 226.

(4) - هو عبد الله أمير المؤمنين المأمون بن هارون الرشيد بن مُحَمَّد المهدى بن عبد الله المنصور بن مُحَمَّد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ويكنى أبا العباس، ولد المأمون ليلة ملك هارون في شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، واستخلف يوم الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة، وهو ابن سبع وعشرين سنة، وعشرة أشهر، وعشرة أيام، ويبيع له وهو بخراسان، مات المأمون لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين للهجرة، انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417 هـ، ج 1/ص: 181.

(5) - ابن قتيبة الدينوري، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1992 م، ج 1/ص: 391.

(6) - انظر ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ص: 224-226.

(7) - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة عشر، 1966م، ص:

معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون والتماس لكل أدوات الزينة والتفنن فيها تفنناً يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة" (1).

وفي تاريخ الطبري ومروج الذهب للمسعودي (2)، والوزراء والكتاب للجيشياري (3) وغيرها، من مظاهر الترف وحياة النعيم التي كان يتقلب فيها خلفاء بني العباس ووزراؤهم، وبعض طبقات المجتمع ما يدل على النقلة الحضارية التي عاشها العصر العباسي الأول في جميع مجالات الحياة.

ثالثاً : امتزاج العرب و اختلاطهم بالأمم الأخرى :

إن أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس تؤمن بالله تعالى ورسوله وكتبه واليوم الآخر وتأمراً بالمعروف وتنهى عن المنكر، فكانت أول أمة جمعت بين قوة الإيمان وحب العلم، فنشرت العقيدة وأقامت حضارة أضاءت بها الدنيا في وقت كان يسود العالم ظلام وبؤس وحروب طاحنة.

ولا ريب أن أمة الإسلام آمنت بالعلم سبيلاً للهداية، فأصبح المسلمون جميعاً طلاب علم، وكان العلم عندهم أعظم قدراً وأرفع شأناً من المال والجاه، وحظي العلماء المسلمون بالمنزلة العظيمة عند الخلفاء والولاة، حيث انطلق هؤلاء في البحث العلمي فتولدت نهضة علمية في كل فروع العلم والمعرفة، فتقدمت العلوم وارتقت، وبرز علماء أفذاذ من المسلمين في شتى العلوم، سطعوا في سماء الحضارة الإسلامية وكان لهم أثر كبير في الغرب الأوروبي.

ويعد الجهاد في سبيل الله تعالى من أفضل القربات، ومن أعظم الطاعات، بل هو أفضل ما تقرب به المتقربون وتنافس فيه المتنافسون بعد الفرائض؛ وما ذلك إلا لما يترتب عليه من نصر المؤمنين وإعلاء كلمة الدين، وقمع الكافرين والمنافقين، وتسهيل انتشار الدعوة الإسلامية بين العالمين، وإخراج العباد من الظلمات إلى النور، ونشر محاسن الإسلام وأحكامه العادلة بين الخلق أجمعين، وغير ذلك من المصالح الكثيرة والعواقب الحميدة للمسلمين.

(1) - شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 48.

(2) - هو أبو الحسن، من ولد عبد الله بن مسعود صاحب النبي - صلى الله عليه وسلم - بغدادي الأصل، انتقل إلى ديار مصر فأقام فيها، له من الكتب: كتاب مروج الذهب، كتاب ذخائر العلوم، كتاب الرسائل، كتاب الاستنكار، كتاب خزائن الملك وسر العالمين، توفي سنة ست وأربعين وثلاثمائة للهجرة بمصر، انظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4/ص: 1705.

(3) - هو أبو عبد الله بن عبدوس بن عبد الله الكوفي الجشياري أحد الكتاب الأخباريين، نشأ مع أبيه في بغداد ثم تولى الحجابة بين يدي الوزير علي بن عيسى بن داود، بعد أبيه، وله من الكتب كتاب الوزراء والكتاب، وكتاب ميزان الشعر والاشتمال على أنواع العروض، توفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، انظر الصفي، الوافي بالوفيات، ج3/ص: 167، وابن النديم، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1417 هـ/ 1997 م، ج1/ص: 160.

وقد ورد في فضله وفضل المجاهدين من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يحفز الهمم العالية، ويحرك كوامن النفوس إلى المشاركة والصدق في جهاد أعداء الله تعالى، قال عز وجل: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ، لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ، إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} (1)، وقال أيضا: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَاً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (2).

وعن سهل بن سعد (3) - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها" (4).

وعن أبي هريرة (5) - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمي، اللون لون الدم والريح ريح المسك" (6). وقال النبي صلى الله عليه وسلم أيضا: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم" (7).

(1) - سورة التوبة، الآية: 41-45.

(2) - سورة التوبة، الآية: 111.

(3) - هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الساعدي، يكنى سهل أبا العباس، كان له يوم توفي النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة سنة، وتوفي سهل سنة ثمان وثمانين للهجرة، انظر عز الدين ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ/1994م، ج2/ص: 575.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم الحديث 2892، ج4/ص: 35.

(5) - هو عبد الرحمن بن صخر، أبو هريرة الدوسي، اليماني، سيد الحفاظ الأثبات، صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان من أحفظ الصحابة، توفي بقصره بالعقيق سنة سبع وخمسين للهجرة، انظر ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج4/ص: 348.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم الحديث: 5533، ج7/ص: 96.

(7) - أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421 هـ / 2001 م، رقم الحديث 12246، ج19/ص: 272.

ويروى أن عمر بن عبد العزيز⁽¹⁾ - رحمه الله - كتب إلى عامل من عماله: أنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث سرية يقول لهم: "اغزوا باسم الله، في سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا"⁽²⁾.

لقد انطلق المسلمون يفتحون البلاد، وينشرون الإسلام خارج جزيرتهم، وسارت أول كتيبة لهم إلى بلاد العراق وفارس، بقيادة خالد بن الوليد⁽³⁾ - رضي الله عنه - وذلك بعدما قضى على المرتدين، فقد توجه إلى العراق بادئاً بفرج الهند، وهي الأبلّة⁽⁴⁾، فسار إليها وتآلف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم، ماراً بالبصرة فالكوفة وذلك في محرم سنة اثنتي عشرة من الهجرة حتى نزل بقريات من السواد، فصالح أهلها وقبل منهم الجزية⁽⁵⁾.

ثم توالى انتصارات المسلمين وفتوحاتهم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستولى على أمصار كثيرة في فارس والشام⁽⁶⁾، وهكذا استمرت تلك الفتوحات منذ ذلك العهد حتى امتدت رقعة الدولة الإسلامية في عهد بني العباس من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والخزر⁽⁷⁾ والروم والصقالبة⁽⁸⁾ شمالاً، فضمت بذلك بلاد السند⁽⁹⁾ وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق، فضلاً عن الجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب وغيرها⁽¹⁰⁾.

- (1) - هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي، القرشي أمير المؤمنين، كنيته أبو حفص، ويلقب بالأشج، ولد سنة إحدى وستين للهجرة، كان إماماً فقيهاً، مجتهداً عارفاً بالسنن، بلغت مدة خلافته سنتين ونصف، توفي سنة إحدى ومائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج5/ص: 114.
- (2) - أخرجه مالك في الموطأ، صححه ورقمه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبداً لباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1406 هـ / 1985 م، ج2/ص: 448.
- (3) - هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أبو سليمان، كان أحد أشراف قريش في الجاهلية، واستخلفه أبو بكر على الشام إلى أن عزله عمر، توفي خالد بن الوليد بمدينة حمص سنة إحدى وعشرين للهجرة، انظر ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج2/ص: 215.
- (4) - الأبلّة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم منها، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ص: 76.
- (5) - انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3/ص: 343.
- (6) - انظر المصدر نفسه، ج4/ص: 146-153.
- (7) - الخزر: اسم إقليم من قسبة تسمى إتل، وإتل اسم لنهر يجري إلى الخزر من الروس وبلغار، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2/ص: 367.
- (8) - الصقالبة: أجناس مختلفة ومساكنهم بالحربي إلى شلو في المغرب، وبينهم حروب، ولهم ملوك فمنهم من ينقاد إلى دين النصرانية اليعقوبية ومنهم من لا كتاب له ولا شريعة، وهم جاهلون، انظر المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2/ص: 25.
- (9) - السند: مدينة يقال لها المنصورة، ومن مدنها ديبل، وهي على ضفة بحر الهند والترز، وهي أيضاً على ساحل البحر فتحت في أيام الحجاج بن يوسف، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3/ص: 267.
- (10) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 89.

وبعد تلك الفتوح، بدأ المسلمون في تنظيم دولتهم، فوجهوا نشاطهم إلى ميدان البناء والحضارة: "فكان عهد بني العباس الأولين عهد ازدهار لحضارة العرب في الشرق فاقتبس العرب فيه ثقافة اليونان، فلم يعتموا أن أبدعوا حضارة ازدهرت فيها الآداب والعلوم والفنون"⁽¹⁾.

وكان من المحتم بعد تلك الفتوح العريضة أن يختلط العرب بغيرهم من الأجناس البشرية المتعددة، عن طريق التسري⁽²⁾ والمصاهرة والرق، وغدت بيوت العرب تزخر بالرقيق والإماء والجواري من كل جنس، حتى انصهرت الأنساب وكاد الدم العربي الخالص أن ينعدم في بغداد خاصة، فالكثير من أبناء العرب كانت أمهاتهم من الجواري والإماء، حتى قال قائلهم بعد انتصار المسلمين على العجم في موقعة جلولاء⁽³⁾: "... فدخلت في معسكرهم إلى فسطاط، فإذا أنا بجارية على سرير في جوف الفسطاط، كأن وجهها دارة القمر، فلما نظرت إلي فزعت وبكت، فأخذتها وأتيت الأمير، فاستوهبته إياها فوهبها لي فاتخذتها أم ولد"⁽⁴⁾.

وأصاب خارجة بن الصلت⁽⁵⁾ في فسطاط لهم ناقه من ذهب موشحة باللؤلؤ والدر الفارد والياقوت، عليها تمثال رجل من ذهب وكانت على كبر الظبية، فدفعها إلى المتولي لقبض الغنائم⁽⁶⁾.

ولم يقتصر ذلك الأمر على العامة فحسب، وإنما كان يكثر في بيوت الخلافة والوزراء والأكابر بل إن كثيراً من الخلفاء الأمويين والعباسيين من أمهات غير عربيات فهذا أبو خالد يزيد الناقص⁽⁷⁾ بن الوليد بن عبد الملك بن مروان من خلفاء الدولة الأموية أمه اسمها شاه فريد من بنات فيروز بن يزيد بن كسرى، وأم فيروز بنت شيرويه وأم شيرويه بنت خاقان ملك الترك وأم أم فيروز بنت قيصر عظيم الروم ولهذا كان يفتخر يزيد بقوله:

أَنَا ابْنُ كِسْرَى وَبِي مَرْوَانُ وَقَيْصَرُ جَدِّي وَجَدِّي خَاقَانُ

(1) - غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص: 153.

(2) - التسري: من السرية وهي الأمة - المملوكة - إذا تسراها سيدها واتخذها للوطء، و"السرية بالضم: الأمة التي بوأتها بيتاً واتخذتها للملك والجماع، منسوبة إلى السر بالكسر؛ للجماع، لأن الإنسان كثيراً ما يسرها ويسترها، أو منسوبة للسرور؛ سميت الجارية سريّة لأنها موضع سرور الرجل، انظر المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، دون طبعة وتاريخ، ج12/ص: 13.

(3) - جلولاء: مدينه في العراق على طريق خراسان، وعندها انتصر العرب على جيش ملك ساسان، انظر الدينوري، الأخبار الطوال، ج1/ص: 127.

(4) - المصدر نفسه، ج1/ص: 128.

(5) - هو خارجة بن الصلت، عداه في الكوفيين، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، انظر ابن الأثير، أسد الغابة، ج2/ص: 110.

(6) - انظر الدينوري، الأخبار الطوال، ج1/ص: 127.

(7) - هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو خالد: من ملوك الدولة مروانية الأموية بالشام، ولد سنة ست وثمانين للهجرة، ويقال له الناقص، لأن سلفه الوليد بن يزيد كان قد زاد في أعطيات الجند، فلما ولي يزيد نقص الزيادة، توفي سنة ست وعشرين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج8/ص: 190.

أما مروان بن محمد الملقب بالحمار؛ لصبره على مكاره الحروب وشجاعته، أمه أم ولد يقال لها لبابة الكردية، وفي أيامه ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوته وظهر السفاح بالكوفة⁽¹⁾، ويذكر أيضاً أن أم المأمون الخليفة العباسي ابن الرشيد أمة اسمها مراجل⁽²⁾.

وتزوج المسلمون من الكتابيات، فقد روى الطبري في تاريخه، عن سعيد بن جبير⁽³⁾، قال: بعث عمر بن الخطاب إلى حذيفة⁽⁴⁾ بعدما ولاه المدائن وكثر المسلمات: إنه بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها، فكتب إليه: لا أفعل حتى تخبرني: أحلال أم حرام، وما أردت بذلك؟ فكتب إليه: لا بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلافة، فإن أقبلتم عليهن غلبتكم على نساتكم. فقال: الآن، فطلقها، ويروي خبراً آخر عن جابر قال: شهدت القادسية مع سعد، فتزوجنا نساء أهل الكتاب⁽⁵⁾.

كما ذكر الجاحظ⁽⁶⁾ أن اليهود والنصارى الذين كانوا يجاورون المسلمين في بغداد كان منهم، من النصارى كتاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة، ومن اليهود الصباغ، أو الدباغ أو الحجام أو القصاب أو الشعاب وغيرها من أنواع الحرف والمهن⁽⁷⁾.

(1) - انظر المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3/ص: 188.

(2) - انظر ابن خلدون، ديوان لمبتدأ والخبر، ج3/ص: 249.

(3) - هو سعيد بن جبير الأسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله: تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل، من موالي بني والية بن الحارث من بني أسد، ولد سنة أربع وخمسين للهجرة، قتل على يد الحجاج سنة خمس وتسعين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج3/ص: 93.

(4) - هو حذيفة بن حِسل بن جابر العبسي، أبو عبد الله، واليمان لقب حسل: صحابي من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سر النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنافقين، ولم يعلمهم أحد غيره، ولاه عمر على المدائن بفارس، وله في كتب الحديث 225 حديثاً، توفي سنة ست وثلاثين للهجرة، انظر ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج2/ص: 39، والزركلي، الأعلام، ج2/ص: 171.

(5) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3/ص: 588.

(6) - هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، ولد سنة ثلاث وستين ومائة للهجرة، بالبصرة وفلج في آخر عمره، وكان مشوه الخلق، مات والكتاب على صدره، إذ قتلتته مجلدات من الكتب وقعت عليه سنة خمس وخمسين ومائتين، وله تصانيف كثيرة، منها: الحيوان، البيان والتبيين، سحر البيان، التاج والبلاء، انظر الزركلي، الأعلام، ج5/ص: 74.

(7) - انظر الجاحظ، الرسائل الأدبية، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة، القاهرة، 1384هـ/1964م، ج3/ص: 316.

ويقول أيضاً في رده على النصارى: "فأما الملك والصناعة والهيئة، فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية⁽¹⁾ والخيل العناق واتخذوا الجوقات وضربوا بالصَوَّالِجَةَ⁽²⁾ وتحذفوا المدني ولبسوا المُلْحَمَ⁽³⁾ والمُطْبَقَةَ⁽⁴⁾، واتخذوا الشاكرية⁽⁵⁾، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي، واكتنوا بذلك أجمع"⁽⁶⁾.

وقد دل ذلك على شدة الالتحام، والتأثر بالمسلمين، على أنهم قد أثروا في العوام والأغبياء من المسلمين ببدعهم وطقوسهم وخرافاتهم، حتى أن الجاحظ عاب على متكلمي النصارى وأطبائهم ومنجميهم نقلهم كتب المنانية⁽⁷⁾ والديصانية⁽⁸⁾ والمرقونية⁽⁹⁾ إلى العرب، وهو ما كان سبباً في إفساد العامة وتفشي المجون والزندقة⁽¹⁰⁾.

ومن شواهد امتزاج العرب بغيرهم ما كان من الخليفة الزاهد عمر بن العزيز - رحمه الله - عندما أمر أهل طرندة⁽¹¹⁾ بالقول عنها إلى ملطية⁽¹²⁾ سنة مائة من الهجرة، وكانت طرندة واغلة في البلاد الرومية، وكان عبد الله بن عبد الملك قد غزاها سنة ثلاث وثمانين للهجرة وأسكنها المسلمين فكان يرتادها جند المسلمين القادمون من الجزيرة وقيمون فيها إلى أن تنزل الثلوج ثم يعودون، وعندما تولى عمر بن عبد العزيز أمر بعودة المسلمين إلى ملطية، وخرب طرندة خوفاً على المسلمين من العدو وكتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام⁽¹³⁾.

- (1) - البردؤن: الدابة، وجمعه براديين، والبراذين من الخيل: ما كان من غير نتاج العراب، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (بردن)، ج 13/ص: 51.
- (2) - الصوالجة: مفردها صَوْلْجَان، وهي عصاً يُعْطَف طرفها يُضْرَب بها على الدواب، انظر المصدر نفسه، ج 2/ص: 310.
- (3) - المُلْحَم: جنس من الثياب، انظر الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج 33/ص: 408.
- (4) - المطبقة: نوع من النعال، انظر أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ/ 2000 م، ج 3/ص: 38.
- (5) - الشاكرية: يراد بهم الجند المستأجرون، انظر الجاحظ، الرسائل، ج 1/ص: 30.
- (6) - المصدر نفسه، ج 3/ص: 317.
- (7) - المنانية: ويقال المنانية والمنانية والمنوية، وهم الزنادقة أصحاب ماني بن فاتك الذي كان يقول: إن مبدأ العالم من كونين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنها في صراع مستمر لا ينتهي إلا بانتهاء الدنيا، انظر ابن النديم، الفهرست، ج 1/ص: 400.
- (8) - الديصانية: فرقة من المجوس، وهم أصحاب ديسان، الذي كان قبل ماني، والمذهبان متقاربان، انظر المصدر نفسه، ج 1/ص: 411.
- (9) - المرقونية: أصحاب مرقيون المجوسي، وهم قبل الديصانية، انظر المصدر نفسه، ج 1/ص: 412.
- (10) - انظر الجاحظ، الرسائل، ج 3/ص: 321.
- (11) - طَرَنْدَةُ: من ملطية على ثلاث مراحل داخلية في بلاد الروم، غزاها عبد الله بن عبد الملك سنة ثلاث وثمانين وبنوا بها مساكن، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4/ص: 32.
- (12) - مَلْطِيَّة: من بناء الإسكندر وجامعها من بناء الصحابة، بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام، انظر المصدر نفسه، ج 5/ص: 192.
- (13) - انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 4/ص: 109.

ومن اتصال المسلمين بغيرهم واستفادتهم منهم، ما كان بين عبد الملك بن مروان وملك الروم من اتصالات ومراسلات، فقد كتب إليه عندما أراد إصلاح الحرم النبوي وتوسيعه، أن يبعث إليه ما استطاع من الفسيفساء، فوجه إليه منها أربعين وسقاً، فبعث بها إلى عمر بن عبد العزيز عندما كان والياً على المدينة، فهدم المسجد وزاد فيه، وبناه وزينه بالفسيفساء⁽¹⁾.

وتلك نقلة أخرى من عوامل التحضر العربي بعد الفتوح، إذ كان من نتائج ذلك الامتزاج أن تأثر العرب بغيرهم بما شاهدوه عندهم من حضارة ومدنية في اتخاذ الفرش والتمارق والملابس، فارتدوا الطيلسان⁽²⁾ وسراويل الوشي المسدولة، قال شاعرهم في ذلك:

إِذَا مَا لَيْسَنَّ الْحُلَى وَالْوَشَى أَشْرَقَتْ وَجُوهٌ وَأَبَاتٌ يُسَلِّبُنَا الْحِلْمَا
وَلَثَّنَ السُّبُوبَ⁽³⁾ حَمْرَةَ قَرَشِيَّةً زُبَيْرِيَّةً يَعْلَمَنَّ فِي لَوْنِهَا عِلْمَا⁽⁴⁾

ولبسوا الخفاف والقلائس، وتفننوا في العمائم، فترى للخلفاء عمة ولفقهاء عمة، وللقبائل عمة، وللأعراب عمة. ولكل قوم زي يختلف عن الآخر، وفرشت مجالس الخلفاء بالصوف الثمين وغير ذلك من مظاهر المدنية والحضارة.

ومما لاشك فيه أن حضارة الدولة العباسية استوعبت كل الحضارات السابقة لها كالأكدية والآشورية والفارسية واليونانية والهندية، فقد حدث لقاح متفاعل ومستمر في هذا المجتمع نتيجة امتزاج هذه الحضارات، بل إن اللغة العربية تغلب سلطانها لكونها لغة الدولة المسيطرة بحيث ترجمت لها خلاصة الفكر اليوناني والهندي والفارسي، فاستوعبتها جميعاً، خاصة وأن العرب لم يجدوا ضيراً في أن يأخذوا من المفردات الفارسية وغيرها مما كانت لهم حاجة إليه، أو مما كان ينقصهم في لغتهم بعد أن عربوها وجرت على ألسنتهم وفي كتبهم.

والجدير بالذكر أن الدولة العباسية استعانت في بدايتها بالروح الفارسية التي تحلم بعظمة الفرس في ماضيهم قبل الإسلام مجسدةً في أبي مسلم الخراساني الذي قاد الثورة للعباسيين، وقد عرف العباسيون ذلك للفرس فاتكلوا عليهم في الإدارة والوزارة، وبذلك انتعش العنصر الفارسي الذي كان مُهمشاً في حكم بني أمية وتعاضم نفوذه وبدأ التنافس بينه وبين العنصر العربي، وفي ذلك يقول الجاحظ أن: "دولة العباسيين أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجنادٍ شامية"⁽¹⁾.

(1) - الدينوري، الأخبار الطوال، ج1/ص: 326.

(2) - الطيلسان: ضَرَبٌ مِنَ الْأَكْسِيَّةِ، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (طلس)، ج6/ص: 125.

(3) - السبوب: الثياب الرقاق، انظر المصدر نفسه، مادة (سبب)، ج1/ص: 456.

(4) - الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ، ج2/ص: 239.

(1) - المصدر نفسه، ج3/ص: 237.

كما اتخذ الخلفاء وزراءهم وكتابهم من الفرس منذ قيام الدولة، حيث تولى الوزارة على عهد السفاح أبو سلمة الخلال⁽¹⁾، وفي عهد المنصور أبو أيوب سليمان المورياني⁽²⁾، وفي عهد الرشيد يحيى بن خالد البرمكي⁽³⁾، وفي عهد المأمون الفضل بن سهل⁽⁴⁾.

وقد برز الدور الهام لعملية المثقفة الحضارية مع الشعوب الفارسية والهندية واليونانية أيام الحكم العباسي الذي يعد انقلاباً اجتماعياً وسياسياً وثقافياً غير أن صدمة التلاحم المفاجئ كانت سبباً في تحفيز الإمبراطورية العباسية لاستيعاب ثقافات هذه الشعوب، تفهمها وهضمها وتمثلها ومن ثم محاولة المواءمة بينها وبين ما يناسب الفكر الإسلامي⁽⁵⁾، حيث استوعبت الحضارة العباسية تراث العصر القديم وازدادت جذور التواصل في هذا العصر بين هذا التراث وبين الثقافة الإسلامية عن طريق التزاوج بين العرب وغيرهم والسفر والترجمة، وكان لنصيب الفرس الحظ الأوفر من هذا التواصل من أي شعب آخر ومن شعوب الأمة الإسلامية، إذ ازداد نفوذ الفرس في هذا العصر وقوي تأثيرهم في مجالات مختلفة من الحياة السياسية والعلمية والأدبية⁽⁶⁾.

وكان من نتائج الفتح الإسلامي - أمويًا كان أم عباسياً - أن تداخلت الثقافات، وتأثر بعضها ببعض فالعرب تأثروا بما عند الفرس والهنود من ثقافة وحضارة، ولغلبة الإسلام والعرب أقبل العجم بشتى أجناسهم على تعلم العربية ممثلة في القرآن الكريم والحديث الشريف، وآداب العرب وأشعارهم وسيرهم، إما تحت تأثير الإسلام فيهم بعدما أسلموا، أو طمعاً في الوصول إلى وزارات الدولة العباسية ومناصبها التي يتعذر على من لم يتقن اللسان العربي وبلاغته الوصول إليها كما هي حال البرامكة في زمن الرشيد، وآل سهل في زمن المأمون.

(1) - هو حفص بن سليمان الهمداني الخلال، أبو سلمة، أول من لقب بالوزارة في الإسلام، وكانت إقامته قبل ذلك في الكوفة، أنفق أموالاً كثيرة في سبيل الدعوة العباسية، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج2/ص: 263.

(2) - هو سليمان بن مخلد المورياني الخوزي، أبو أيوب، من وزراء الدولة العباسية، كان ليبياً فصيحاً، وتوفي سنة أربع وخمسين ومائة للهجرة، انظر المصدر نفسه، ج3/ص: 135، والمسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3/ص: 237.

(3) - هو يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل، وزير هارون الرشيد، كان كريماً، عالماً، وتوفي في محبسه، في الثالث من محرم سنة تسعين ومائة للهجرة، انظر المصدر نفسه، ج3/ص: 280، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6/ص: 219.

(4) - هو الفضل بن سهل السرخسي، أبو العباس، وزير المأمون وصاحب تدبيره، اتصل به في صباه وأسلم على يده، ولد سنة أربع وخمسين ومائة للهجرة، وقد جعل له الخليفة الوزارة وقيادة الجيش معاً، فكان يلقب بذي الرياستين، توفي سنة اثنتين ومائتين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج5/ص: 149، وابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج3/ص: 294.

(5) - انظر نورالدين السد، الشعرية العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون طبعة، 1995 م، ص: 170.

(6) - انظر عبد الحكيم حسان، الأدب المقارن والتراث الإسلامي، مكتبة الأدب، القاهرة، 1998 م، ص:

ولا مقارنة بين ثقافة العصر الأموي، وثقافة العصر العباسي في عصره الأول، فقد كان الأمويون يميلون إلى الأصالة العربية، وحياء البداوة ولم تدخل حياتهم تلك الفلسفات والعلوم التجريبية التي ظهرت إبان العصر العباسي الذي انتشرت فيه الثقافة الفارسية انتشاراً عظيماً، نتيجة الامتزاج البشري والمصاهرة، واقتناء الجواري والرقيق وثراء الدولة ورغبة الخلفاء في تحصيل العلوم وتشجيع العلماء وما شابه ذلك.

وقد عزى أحمد أمين انتشار ثقافة الفرس في المحيط العربي العباسي إلى عاملين هما:

- تقليد الخلفاء العباسيين منصب الوزارة إلى الفرس في الغالب.
- انتقال عاصمة الخلافة الإسلامية في عهد العباسيين من دمشق إلى بغداد⁽¹⁾.

كما أن بغداد من بلاد المشرق، قريبة من خراسان، وهي بلدة كثيرة الخيرات، تشكل حلقة وصل بين الفرس والأمم السامية، وهي بموقعها ذلك مرتع لكثير من ثقافات تلك الأمم. وقد تعاقبت على العراق كما هو معروف أمم مختلفة، وخلفت مدنية وثقافة لم تكن لغيره من البلدان، فقد سكنه الكلدان والسريان وهم أمم أرامية كما سكنه إياد وربيعة من قبائل العرب، وأقام به سكان الحيرة من المناذرة ومعلوم ما لكل أمة من ثقافة وحضارة تختلف عن الأمة الأخرى، وبتضافر هذه الثقافات بما فيها ثقافة الفرس قبيل الإسلام قامت إحدى دعائم التحضر في المجتمع العربي.

ولا جدال في تأثير ثقافة الفرس في المجتمع العربي آنذاك في شتى مجالات الحياة، ولعل من أهم ذلك الألفاظ اللغوية وطريقة التخاطب والتأثير والتأثر بلغة الفرس وأساليب حياتهم، فاللغة العربية وقتها لم تعد لغة خاصة بالعرب وحدهم، في هذا المجتمع الذي يضم أخلاطاً من الأمم، وفي هذا يقول الجاحظ: "ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمون البَطِيخَ الخَرْبُزُ، ويسمون السَّمِيطَ⁽²⁾ الرَزْدَقَ، ويسمون المصوص⁽³⁾ المزور، ويسمون الشُّطْرُنَجَ الأَشْتَرُنَجَ، في غير ذلك من الأسماء، وكذلك أهل الكوفة، فإنهم يسمون المِسْحَاة⁽¹⁾ بَال، وبَالٌ بالفارسية"⁽²⁾.

إنَّ هذا التفاعل التاريخي - بكلِّ صوره وأشكاله - بين الأمتين العربية والفارسية على امتداد العصور، أدَّى إلى نفاذ مئات من المفردات الفارسية في اللسان العربي، إذ لا

(1) - انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م، ص: 161.

(2) - السَّمِيطُ: من الطعام، ما يُمدُّ عليه، انظر مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، قاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، 1426هـ/2005م، مادة (سمط)، ج 1/ ص: 672.

(3) - المَصُوصُ، بِفَتْحِ المِيمِ: طَعَامٌ، وَهُوَ لَحْمٌ يُنْفَعُ فِي الخَلِّ وَيَطْبَخُ، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (مصص)، ج 7/ ص: 93.

(1) - المِسْحَاةُ: المِجْرَفَةُ مِنَ الحَدِيدِ، انظر المصدر نفسه، ج 2/ ص: 598.

(2) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1/ ص: 40.

يخفى وجود الألفاظ المعرّبة في القرآن الكريم مثل: سندس وإستبرق⁽¹⁾ ومرجان وسجّيل⁽²⁾، وسرادق⁽³⁾ وغيرها، ومن الألفاظ ما حافظ على صورته ولفظه ومنها ما يصعب تشخيصه، نظراً للتغيرات الكبيرة التي طرأت على اللغة الفارسيّة حروفاً وقواعد من جهة، أو لما شاب هذه المفردات من تصحيف أو تحريف، أو داخلها من قلب أو إبدال - من جهة أخرى - عندما تصرّف بها العرب لتلائمَ والجرسَ الموسيقي للغة العربيّة⁽⁴⁾.

وقد يتملح الأعرابي - كما يقول الجاحظ - بأن يدخل في شعره شيئاً من كلام الفارسية كقول العماني⁽⁵⁾ للرشيد، في قصيدته التي مدحه فيها⁽⁶⁾:

مَنْ يَلْفَهُ مِنْ بَطْلٍ مُسْرَنْدٍ فِي زَعْفَةٍ مُحْكَمَةٍ بِالسَّرْدِ

تَجُولُ بَيْنَ رَأْسِهِ وَ الْكَرْدِ

يعني العنق . وفيه يقول أيضاً :

لَمَّا هَوَى بَيْنَ غِيَاضِ الْأَسَدِ وَصَارَ فِي كَفِّ الْهَزْبِرِ الْوُورِدِ

أَلَى يَذُوقُ الدَّهْرَ أَبَ سَرْدِ

وَأَب سَرْدِ يَعْنِي الْمَاءَ الْبَارِدِ.

لقد شاعت الثقافة الفارسية على ألسنة كثيرين في الحياة اليومية في العصر العباسي وبسبب ذلك ولأنّها كانت لغة الحضارة الفارسية دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس، إذ "لم تعدّ هذه الألفاظ والكلمات غزواً للعربية، وكثيراً ما كانت تعرّب بحيث تتفق واللسان العربي، وقد آف العرب فيها مصنّفات كثيرة تمييزاً لها وتعريفاً بها، وبذلك اتّسعت العربية بفضل هذا الاحتكاك الثقافي الواسع، وتحوّلت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة على مقوماتها ومكوّناتها الأساسية وأوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية"⁽¹⁾.

(1) - السندس: رَقِيقُ الدِّيَابِجِ وَرَفِيعُهُ، وَالْإِسْتَبْرَقُ: غَلِيظُ الدِّيَابِجِ، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (سندس)، ج6/ص: 107.

(2) - السّجّيل: حِجَارَةٌ كَالْمَدْرِ، انظر المصدر نفسه، ج11/ص: 326.

(3) - السَّرَادِقُ: الَّذِي يُمَدُّ فَوْقَ صَحْنِ الْبَيْتِ، انظر الزبيدي، تاج العروس، ج25/ص: 441.

(4) - انظر الخفاجي، شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، المطبعة الوهبيّة، العراق، دون طبعة، 1282 هـ، ص: 3.

(5) - هو محمد بن ذؤيب بن محجن بن قدامة الحنظلي، وقيل له العماني وهو بصري لأنه كان شديد صفرة اللون، وليس من أهل عمان، وكان شاعراً راجزاً متوسطاً من شعراء الدولة العباسية، توفي سنة ثمان وعشرين ومائتين للهجرة، انظر الأصفهاني، الأغاني، تحقيق إحسان عباس، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1423 هـ/2002م، ج18/ص: 226، والزركلي، الأعلام، ج6/ص: 123.

(6) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ص: 134.

(1) - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 92.

ولم يكن لانتشار اللغة الفارسية في المجتمع العباسي أثر سيئ ودور رئيس في تفشي عيوب الكلام واللعن واللكنة بل له تأثيرٌ جليٌّ في ازدهار العلم والنضج الفكري وإن لم يكن كذلك لما أشار الجاحظ إلى فصاحة أهل البصرة حيث يروى ردّ ابن المناذر على من عيرَ أهل البصرة قائلاً: "أما ألفاظنا فأحكى ألفاظ القرآن وأكثرها لها موافقة... قال عزّوجلّ وجفان كالجوابي وقدور راسيات وأنتم تسمّون القدر برمّة وأنتم تسمّون البيت عليّة إذاً كان فوق البيت ونحن نسميها غرفة قال الله: غرف من فوقها غرف" (1).

أضف إلى ذلك، ما كان يزدحم به الشارع العراقي وأسواقه من مشافهة العرب لقبائل العجم وغيرهم، على أن حلقات العلم والمدارس المتناثرة في "جُنْدُ يُسَابُور" (2) القريبة من البصرة، وفي نصيبين (3) وحرّان (4) والرّها (5) وأنطاكية (6) والإسكندرية (7)، كانت كلها تصب ثقافة اليونان وحضارتها، بما فيها من فلسفة ومادية متمردة على المجتمع العباسي، ولهذا انتشرت فيه الزندقة والمذاهب الجدلية والفرق الضالة وتفشت فيه النحل والملل (8).

وهناك من الخلفاء من كان يشرب إلى تلك الثقافات كالرشيد والمأمون، فقد نهضت الفنون والعلوم والصناعة والتجارة بسرعة في عهديهما، وأرسل شارلمان (1) وفداً لزيارة الدولة الإسلامية في عصر الرشيد.

(1) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ص: 40.

(2) - جُنْدُ يُسَابُورُ: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2/ص: 170.

(3) - نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، انظر المصدر نفسه، ج5/ص: 288.

(4) - حران: مدينة من ديار مضر، قديمة عتيقة، لا يدري متى بنيت، يقال بناها هران أخو إبراهيم عليه السلام، وهو أبو لوط عليه السلام، انظر أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ج1/ص: 191.

(5) - الرّها: مدينة رومية عظيمة، فيها آثار عجيبة وهي بالقرب من قلعة الروم من الجانب الشرقي الشمالي عن الفرات، انظر المصدر نفسه، ج1/ص: 110.

(6) - أنطاكية: مدينة عظيمة من أعيان المدن على طرف بحر الروم بالشام، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعدوبة الماء، وفي داخلها مزارع وبساتين، انظر زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ج1/ص: 150.

(7) - الإسكندرية: من أعظم مدائن الدنيا، وقد بنيت غير مرة، جددها الإسكندر المقدوني، ولم تنزل على ذلك حتى ظهر دين الاسلام، حيث فتحها عمرو بن العاص، فصارت ديار مصر أرض إسلام، انظر تقي الدين المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ، ج1/ص: 269.

(8) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 94.

(1) - هو شارلمان أو كارل الكبير، ولد سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة للميلاد، وهو ملك الفرنجة وحاكم إمبراطوريتهم، الابن الأكبر للملك بيبين الثالث من سلالة الكارولينجيين، كما أنه أول إمبراطور روماني مقدس، توفي سنة أربع عشرة وثمانمائة للميلاد، انظر اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة: عادل زيتون، دار حسان، الطبعة الأولى، دمشق، 1410هـ/1998م، ص: 37، 143، 149.

وقد كان عصر المأمون من أزهى عصور العلم في الدولة العباسية لميل المأمون نفسه إلى تحصيل العلوم والمعارف ونشر المعرفة بين أفراد الأمة الإسلامية، وقد تجلّى ذلك في إمداد "بيت الحكمة"⁽¹⁾ في بغداد - الذي وضع أساسه الرشيد - بالكتب في مختلف العلوم والفنون والتي تم جلبها من بلاد الهند والروم والفرس وغيرها، حتى أصبح أشبه بجامعة علمية، تحوي داراً للكتب يجتمع فيها العلماء للترجمة والتأليف والدرس، به أماكن خاصة للناسخين لنسخ الكتب لأنفسهم ولغيرهم بأجور معينة، وأشرف عليه موظف عرف باسم صاحب بيت الحكمة كان الخلفاء يختارونه ممن يتصف بسعة العقل والأمانة العلمية⁽²⁾، فقد كان المأمون بعيد المهمة، أبي النفس، وكان نجم ولد العباس في العلم والحكمة، وقد أخذ من جميع العلوم بقسط، وضرب فيها بسهم، وهو الذي استخرج كتاب إقليدس⁽³⁾ من الروم، وأمر بترجمته وتفصيله، وعقد المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات⁽⁴⁾.

والمطلع على كتاب ابن قتيبة⁽⁵⁾ عيون الأخبار، يجد أنه يمزج في كتابه هذا "بين الثقافة العربية والثقافة الفارسية مزجا قويا، مزاجا بين طائفة كبيرة من الآداب في الثقافة الأولى والآداب السياسية في الثقافة الثانية، مع ما أضافه من الحكم الطريفة التي جلبها من كتاب كليلة ودمنة المترجم عن الهندية، وكذلك ما أضافه عن الثقافة اليونانية"⁽¹⁾.

ويذكر الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكي اجتلب أطباء الهند مثل منكة، وبازيكر وقببرقل وسندباد وغيرهم⁽²⁾، ولاشك أن أثرهم يبدو واضحاً في المجتمع العربي بمخالطتهم لأفراده.

(1) - بيت الحكمة: هو أول مؤسسة علمية أكاديمية تضطلع بدور الترجمة، وكان أول رئيس لهذه المؤسسة العلمية العظيمة يوحنا بن ماسويه، وكان نصراني الديانة سريانياً، وإذا كان الرشيد قد أسس بيت الحكمة فقد بلغت ذروة مجدها وعصرها الذهبي في عهد المأمون، انظر عبد الشافي محمد عبد اللطيف، السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، 1428 هـ، ج1/ص: 368.

(2) - انظر علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام الجاهلي، الدولة العربية والدولة العباسية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1960 م، ص: 407.

(3) - إقليدس: رجل من علماء الروم يسمّى بهذا الاسم وضع كتابا فيه أشكال كثيرة مختلفة تدلّ على حقائق الأشياء المعلومة والمغيبية يشدّ الذهن ويدقّق الفهم ويلطّف المعرفة ويصفّي الحاسة ويثبت الروية، وهو أول من اخترع الرياضيات، انظر أبو ذر سبط بن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، الطبعة الأولى، 1417 هـ، ج2/ص: 16، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ص: 343.

(4) - الدينوري، الأخبار الطوال، ج1/ص: 401.

(5) - هو أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو جعفر: قاض، من أهل بغداد، له اشتغال بالأدب والكتابة، كان يحفظ كتب أبيه وهي واحد وعشرون كتابا في غريب القرآن والحديث والأدب والأخبار، ولي القضاء بمصر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة للهجرة، وعرف فضله فيها فأقبل عليه طلاب العلوم والآداب، ويقول أكثر مؤرخيه أنه توفي وهو على القضاء بمصر سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج1/ص: 156.

(1) - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 190.

(2) - انظر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ص: 95.

ومن الحقائق الثابتة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية أن التراث اليوناني شكّل عنصراً رئيسياً من عناصر تكوينها؛ ولم يتمثل ذلك في وفرة العلوم والمعارف التي أفاد منها العرب من هذا التراث فحسب، وإنما تمثل أيضاً في اتخاذ المثقفين العرب والمسلمين قواعد منطق أرسطو⁽¹⁾ دليلاً أو منهجاً لتنسيق مختلف العمليات الفكرية وخدمة العلوم بغية الوصول إلى الحقيقة، يقول القرماني⁽²⁾ في هذا الصدد: "وكانت اليونان من أعدل الناس، وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم مثل العلوم المنطقية والطبيعية والإلهية والرياضية، وكانت خزائن ملوكهم وكتب علومهم بقبرص فحملت إلى المأمون فأمر بنقلها إلى العربية، فهذه التي في أيدي الناس اليوم من العلوم المذكورة منها، وكان العالم بهذه العلوم يسمى فيلسوفاً وتفسيره محب الحكمة وكانت ملوكهم من أعظم الملوك ودولتهم من أفخر الدول"⁽³⁾، وفي هذا النص دلالة واضحة على استفادة العرب من تلك الثقافات الوافدة وصبغها بصبغتهم في الغالب.

ويؤكد ابن خلدون تلك الاستفادة، وينعت العرب بتغيير أحوالهم وطباعهم بعد الفتح فيقول: " ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم، فلما جاء الإسلام، واستولوا على ممالك الدنيا، وحازوا سلطان العجم، وغلبوهم عليه، وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم في غضارة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش، فهجروا ذلك شيئاً ما، ولم يكن الملدوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي كان ديدنهم ومذهبهم، فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفقة بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ"⁽¹⁾، ويزيد في وصفه لهم بأنهم أبعد الناس عن الصنائع، وأن العجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها، لأنهم أعرق في العمران الحضري، وعن طريقهم أخذ العرب حضارتهم واستجلبوها من عندهم⁽²⁾.

(1) - أرسطوطاليس بن نيقوماخوس، ويقال اختصاراً: أرسطو، فيلسوف يوناني وثني مشهور، مؤسس مذهب فلسفة المشائين، له مؤلفات عديدة، توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة قبل الميلاد، انظر حسين محمود نصار ومساعدية، الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، الطبعة الأولى، 1431هـ/2010م، ج1/ص: 228.

(2) - هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن سنان القرماني الدمشقي، مؤرخ منشي، حسن المحاضرة رقيق المعاشرة ولد ونشأ في دمشق سنة تسع وثلاثين وتسعمائة للهجرة، وتولي النظر في وقف الحرمين، له التاريخ المعروف بتاريخ القرماني واسمه أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ والروض النسيم في مناقب السلطان إبراهيم مخطوط، توفي في دمشق سنة تسع عشرة وألف للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج1/ص: 275.

(3) - القرماني، أخبار الدول وأثار الأول، تحقيق أحمد حطيظ وفهمي سعد، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1412هـ/1992م، ج3/ص: 157.

(1) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج1/ص: 539.

(2) - انظر المصدر نفسه، ج1/ص: 506.

وكما أخذت الحضارة الإسلامية العباسية عن حضارة الفرس أيضاً عن حضارة الهند وثقافتها، فهذا أبو نواس يتأثر بفلسفة هندية تزعم أن الإفراط في البرودة تعيد الشيء حاراً، فيقول⁽¹⁾:

قُلْ لِزُهَيْرٍ، إِذَا اتَّكَأَ وَشَدَا
سَخُنْتَ مِنْ شِدَّةِ الْبُرُودَةِ حـ
أَقْلِلْ أَوْ أَكْثِرْ ، فَأَنْتَ مِهْذَارُ
نَتَى صِرْتَ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ
كَذَلِكَ السَّلْجُ بَارِدٌ حَارُ
لَا يُعْجِبُ السَّامِعُونَ مِنْ صِفَتِي

وأخيراً فإن الثقافة العربية الإسلامية كانت مزيجاً من عقلية عربية لها طبيعة خاصة هي نتاج بينتها، وحياة اجتماعية خاصة عرفها العرب في جاهليتهم ودين إسلامي أتى بتعاليم جديدة، ورسم للحياة مثلاً أعلى يخالف المثل الذي كانت ترسمه تقاليد الجاهلية، وفتح إسلامي مد سلطانه على فارس وما حولها، وعلى مستعمرات رومانية كثيرة، فأذاب ما كان لتلك الأمم من دين ومدنية وعلم في الدولة العربية الإسلامية، وكون منها مزيجاً واحداً مختلف العناصر.

رابعاً : الترجمة :

تعد الترجمة من الأمور المهمة التي شغلت فكر الدارسين والباحثين وأخذت مكانة كبيرة من دراساتهم لأنها تحتك بالثقافات المختلفة، وهذا المفهوم للترجمة قد أدركه المترجمون العرب والمسلمون في عصورهم المختلفة.

لقد سعى المسلمون الأوائل إلى تحصيل ما عند الأمم الأخرى من معارف وعلوم تنسجم ومبادئ الدين الجديد وذلك بغية بناء حضارة إسلامية على أسس علمية وفكرية إذ شهد العصر الأموي تفاعلاً حضارياً وفكرياً بين المسلمين وأهل البلاد المفتوحة في التطلع نحو علوم هذه الأمم، فكانت البدايات الأولى لتعريب الفلسفة والطب والكيمياء والفلك، وعلى الرغم من تلك الجهود الحثيثة لم تكن عملية الترجمة والنقل في ظل الدولة الأموية علامة ظاهرة، ولم يكن لهم شغل بالعلوم الفلسفية، إلا ما ذكر عن خالد بن يزيد بن معاوية⁽¹⁾، يقول ابن النديم⁽²⁾ أن " خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تصفح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان

(1)- ديوان أبي نواس، ج2/ص: 81.

(1)- هو أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي، كان من أعلم قريش بفنون العلم، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب، وله فيها أشعار كثيرة مطولات، توفي سنة خمس وثمانين للهجرة، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج2/ص: 224.

(2)- هو محمد بن إسحاق النديم، وكنيته أبو الفرج، مصنف كتب الفهرست الذي جود فيه، واستوعب استيعاباً يدل على إطلاعه على فنون العلم وتحققه لجميع الكتب، ويعتقد أنه كان وراقاً يبيع الكتب، له من الكتب فهرست الكتب، كتاب التشبيهات، وكان شيعياً معتزلياً، انظر الزركلي، الأعلام، ج6/ص: 29.

اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية...⁽¹⁾.

ويتبين من هذا أنّ حركة الترجمة لم تتعدّ كتب الصنعة، والذي حمل خالداً على ذلك دوافع نفسية ورغبات شخصية، حيث نقل ابن النديم أيضاً أنه " قيل له: لقد جعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة، فقال خالد: ما أطلب بذاك إلا أنه أغني أصحابي وإخواني، وإنني طمعتُ في الخلافة فاخترلت دوني فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة فلا أحوج أحداً عرفني يوماً أو عرفته إلى أن يقف بباب السلطان رغبةً أو رهبةً "⁽²⁾.

وهذا الجاحظ يخبرنا أن خالد بن يزيد بن معاوية كان من أوائل من دعا إلى الترجمة، باعتبارها رافداً من روافد التحضر العربي، وينعته بالفصاحة وجودة الرأي فيقول: "وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً، وفصيحاً جامعاً، وجيد الرأي كثير الأدب، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء "⁽³⁾. وكان اصْطَفُ القديم، وهو أحد النقلة إلى اللسان العربي، يترجم له كتب الصنعة وغيرها⁽⁴⁾.

ولما كانت العمارة والفن المعماري في المسجد الأموي بدمشق والمسجد الأقصى وقبة الصخرة بالقدس سمة مميزة للحضارة العربية الإسلامية في العصر الأموي، فإن تأسيس دار للترجمة وتبني نشر العلم والثقافة من خلال استقطاب واحتضان خيرة العلماء والمفكرين والمترجمين من مختلف الجنسيات والقوميات الفارسية واليونانية واليهودية والمسيحية، تعبر عن رغبة حقيقية لخلفاء بني العباس الأوائل في شد انتباه العالم عن الإنجازات العمرانية والعسكرية للأمميين، والاتفات إلى إنجاز علمي حقيقي، يجسد فكرة حوار الحضارات والتعايش بين العرب والمسلمين وبين غيرهم من الشعوب والجنسيات المختلفة.

فقد عني أبو جعفر المنصور - ثاني خلفاء بني العباس - بنشر بعض العلوم الفلسفية وذلك بأن طلب من ملك الروم، أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات، ليقرأها المسلمون ويطلعوا على ما فيها، ونقل له البَطْرِيق⁽¹⁾ شيئاً من الكتب القديمة⁽²⁾.

ولم تترجم في هذه المرحلة جميع علوم اليونان؛ لما فيها من الضرر، والذي تُرجم في عهد المنصور هي كتب الطب والمنطق، فأما الطب فقد بدأت الترجمة فيه في عهد بني

(1) - ابن النديم، الفهرست، ج1/ص: 300.

(2) - المصدر نفسه، ج1/ص: 434.

(3) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ص: 267.

(4) - ابن النديم، الفهرست، ج1/ص: 302.

(1) - كَانَ فِي أَيَّامِ الْمَنْصُورِ وَأَمْرُهُ بِنَقْلِ أَشْيَاءَ مِنَ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ، وَلَهُ نَقْلٌ كَثِيرٌ جَيِّدٌ إِلَّا أَنَّهُ دُونَ نَقْلِ حَنْبَلِ بْنِ إِسْحَاقَ، انظُرْ ابْنَ أَبِي أَصْبِعَةَ، عَيُونَ الْأَنْبَاءِ فِي طَبَقَاتِ الْأَطْبَاءِ، تَحْقِيقٌ: نَزَارَ رِضَا، دَارُ مَكْتَبَةِ الْحَيَاةِ، بِيْرُوتَ، دُونَ تَارِيخِ، ج1/ص: 282.

(2) - انظُرْ حَاجِي خَلِيفَةَ، كَشَفَ الظُّنُونِ عَنِ أَسَامِي الْكُتُبِ وَالْفَنُونِ، مَكْتَبَةُ الْمُتَنَى، بَغْدَادَ، 1941 م، ج1/ص:

أمية، وأما المنطق فالمعروف أنّ أبا جعفر هو أول من ترجمه، وأما السبب الذي لأجله قام المنصور بالاهتمام بكتب الطب وتشجيع المترجمين على ترجمتها ما حُكي من أنه أصيب بمرض في معدته فاستعصى على أطبائه علاج هذا المرض، فدل على جورجيس بن يختشوع⁽¹⁾ رئيس أطباء جنديسابور فعالجه، فاتخذه طبيباً له، ثم جاء هارون وجعله طبيباً له وأمره أن ينشئ في بغداد بيمارستاناً مدرسة طب، فقام بذلك واستحضر أطباء جنديسابور⁽²⁾.

وأما المنطق فأول من اشتهر بترجمته عبدالله بن المقفع⁽³⁾ كاتب أبي جعفر المنصور، يقول ابن النديم: "وقد كانت الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب إلى اللغة الفارسية، فنقل ذلك إلى العربية عبد الله بن المقفع وغيره"⁽⁴⁾.

ويعد أبو جعفر المنصور أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وأول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية إلى العربية ومن هذه الكتب كليلة ودمنة وكتاب إقليدس⁽⁵⁾.

أما محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور فهو أول من أمر بتنصيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين وقد أفنى منهم خلقاً كثيراً⁽¹⁾.

وقد شهدت حركة الترجمة في عهد الرشيد تطورا كبيرا مع ازدياد المؤلفات والكنوز العلمية، ويعود ذلك إلى تطور المادة المستخدمة في الكتابة، حيث ظهر الورق بكميات كبيرة جداً، بعد أن ساد استخدام جلود الجواميس والأغنام والوحوش المدبوغة واللخاف والنحاس والحديد وعشب النخيل، وكذلك عظم أكتاف الإبل والأغنام، في عمليات التدوين والكتابة في عهد الفرس والروم وصدر الدولة الإسلامية⁽²⁾.

(1) - جورجيس بن جبريل الطبيب السرياني، فارسي، كانت له خبرة بالعلاج وخدم المنصور، توفي في حدود السنين والمئة للهجرة، انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج11/ص: 171.

(2) - انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1/ص: 185.

(3) - هو عبد الله بن المقفع، من أئمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس، ولد في العراق مجوسيا سنة اثنتين ومائة للهجرة، وأسلم على يد عيسى بن علي، وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي، وترجم له كتب أرسطوطاليس الثلاثة في المنطق وكتاب المدخل إلى علم المنطق، كما ترجم عن الفارسية كتاب كليلة ودمنة وهو أشهر كتبه، توفي سنة اثنتين وأربعين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج4/ص: 140.

(4) - ابن النديم، الفهرست، ج1/ص: 300.

(5) - القرمانى، أخبار الدول وآثار الأول، ج2/ص: 67.

(1) - القرمانى، المصدر السابق، ص: 78.

(2) - انظر القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج2/ص: 515.

وهذا التطور والحدث الكبير دفع بالخليفة الرشيد إلى أن يرأس الروم ويدعوهم إلى فتح خزائن كتبهم في عمورية⁽¹⁾ وأنقرة⁽²⁾، ووضعها تحت تصرف العاملين في الترجمة برئاسة يوحنا بن ماسوية⁽³⁾.

أما المأمون فيعتبر عصره قمة العهد الذهبي للترجمة والنهضة العلمية، فقد بذل الخليفة العباسي المأمون جهوداً كبيرة للتنقيب عن الكتب الثمينة وأوفد البعثات إلى الهند والقسطنطينية⁽⁴⁾ وغيرهما، وكان يوفد أحياناً رسلاً إلى جهات بعيدة فيقطعون آلاف الأميال بحثاً وراء كتاب سمع عنه أو وصلته أخباره.

ويمكن القول أن المأمون استكمل عمل أبيه الرشيد في بناء بيت الحكمة وجلب الكتب إليه من مختلف البلدان، وقد أشار ابن النديم إلى ذلك قائلاً: "إن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات فكتب إليه المأمون يسأله الإذن إنفاذاً ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلاد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع فأخرج لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق.. فأخذوا مما وجدوا فلما حملوها إليه أمرهم بترجمتها⁽⁵⁾".

وهكذا نشطت الحركة العلمية في العصر العباسي نشاطاً فائقاً عن طريق الترجمة والمترجمين الذين يجيدون اللسانين الفارسي والعربي، نذكر من هؤلاء: ابن المقفع والحسن بن سهل وأحمد بن يحيى البلاذري⁽¹⁾ المؤرخ المعروف وغيرهم وهؤلاء كلهم كانوا ينقلون

(1) - عمورية: بلد في بلاد الروم، غزاه المعتصم سنة ثلاث وعشرين ومائتين للهجرة، حين سمع شراً العلوية، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4/ص: 158.

(2) - أنقرة: موضع في بلاد الروم من أرض الشام، به مات امرؤ القيس بن حجر، انظر الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص: 21.

(3) - هو يوحنا بن ماسويه، أبو زكريا، من علماء الأطباء، سرياني الأصل، عربي المنشأ، خدم الرشيد والمأمون ومن بعدهما إلى أيام المتوكل، توفي سنة اثنتين وأربعين ومائتين للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج8/ص: 211، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1/ص: 346.

(4) - قُسْطَنْطِينِيَّةُ: وهي دار ملك الروم، واسمها اصطنبول بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح، عمّرها ملك من ملوك الروم يقال له قسطنطين فسميت باسمه، والحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة، ولها خليج من البحر يطيف بها من وجهين مما يلي الشرق والشمال، وجانباها الغربي والجنوبي في البر، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4/ص: 347.

(5) - انظر ابن النديم، الفهرست، ج1/ص: 301.

(1) - هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن داود البلاذري، من أهل بغداد كان عالماً، فاضلاً وشاعراً، راوية نسابه، متقناً، وكان مع ذلك كثير الهجاء، ومدح المأمون بمدائح، كما جالس المتوكل، ومات في أيام المعتمد ووسوس في آخر عمره، من كتبه فتوح البلدان والقراية وتاريخ الأشراف، توفي سنة تسع وسبعين ومائتين للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج1/ص: 267، وياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج2/ص: 530.

من الفارسية إلى العربية وهناك من ينقل من اللغة الهندية إلى العربية منهم: مَنكَّةُ الهندي⁽¹⁾، وابن دَهْنُ الهندي⁽²⁾ وابن وَحْشِيَّة⁽³⁾ الذي كان ينقل من النبطية إلى العربية⁽⁴⁾.

كما أن المأمون كان يجلب علماء الملل الأخرى من اليهود والنصارى وغيرهم ويحتفي بهم في مجلسه، لا لعلمهم فحسب بل لثقافتهم في لغة العرب وحذقهم في معرفة لغة اليونان وآدابها وقد أخرجوا من أديرة سوريا وآسيا الصغرى وسواحل الشام وفلسطين كتباً خطية في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم، ثم ترجموها إلى العربية بدقة وعناية عظيمة.

وكان المأمون يعط حنين بن إسحاق⁽⁵⁾ - أحد أهم مترجميه - من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل⁽⁶⁾.

ولعل ميل المأمون إلى الفلسفة والمنطق واتساع دائرة معارفه العامة وتأثره بمذهب الاعتزال دفعه إلى تشجيع حركة النقل والتأليف، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية⁽⁷⁾ الجديدة⁽¹⁾.

(1) - هو منكه الهندي، كان عالماً بصناعة الطب حسن المعالجة لطيف التدبير فيلسوفاً، متقناً للغة الهند ولغة الفرس وهو الذي نقل كتاب شاناق الهندي في السموم من اللغة الهندية إلى الفارسية وسافر من الهند إلى العراق في أيام الرشيد، انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج 1/ص: 375.
(2) - هو ابن دهن الهندي الحكيم من الأطباء المشهورين، نقل إلى العربية من اللسان الهندي عدة كتب، وذكره ابن بشر في فهرسته، انظر عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1420 هـ / 1999م، ج 1/ص: 53.
(3) - هو أحمد بن علي بن قيس بن المختار بن عبد الكريم بن حرثيا، أبو بكر المعروف ابن وحشية، كلداني الأصل، نبطي، من أهل قسطنطينية عالم بالكيمياء، ينسب إليه الاشتغال بالسحر والشعوذة، من كتبه ترجمة كتاب الفلاحة وأسرار الطبيعيات في خواص النباتات، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج 1/ص: 170.

(4) - انظر ابن النديم، الفهرست، ج 1/ص: 303، 304.

(5) - هو حنين بن إسحاق العبادي، أبو زيد، طبيب، مؤرخ، مترجم، ولد سنة أربع وتسعين ومائة للهجرة، كان أبوه صيدلانياً، من أهل الحيرة وسافر حنين إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وانتقل إلى بغداد فأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه وغيره، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية، وكان فصيحاً بها شاعراً، اتصل بالمأمون فجعله رئيساً لديوان الترجمة، وتوفي سنة ستين ومائتين للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج 2/ص: 287.

(6) - أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1346 هـ / 1927م، ج 1/ص: 377.

(7) - الفلسفة الأفلاطونية: نسبة إلى أفلاطون الحكيم من أهل مدينة أثينا رومي فيلسوف يوناني، طبي، عالم بالهندسة وطبائع الأعداد وله في الطب كتاب بعثه إلى طيماسوس تلميذه وله في الفلسفة كتب وأشعار وله في التأليف كلام لم يسبقه أحد إليه، وبلغ أفلاطون من العمر إحدى وثمانين سنة وكان حسن الأخلاق كريم الأفعال كثير الإحسان إلى كل ذي قرابة منه وإلى الغرباء، انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج 1/ص: 79.

(1) - أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون، ص: 379.

ويؤكد الجاحظ استفادة المجتمع الإسلامي حينئذ من تلك الترجمات والثقافات الوافدة قائلاً: "وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة وأبواب الأصباغ والعطر والأطعمة والآلات"⁽¹⁾.

وبقدر ما كان لهذه الترجمة من فوائد تمثلت في إطلاع العرب على حضارة غيرهم من الأمم، والاستفادة منها في بناء مجتمعهم، إلا أنها جلبت معها إلى المجتمع المسلم كثيراً من السفسطة والمجون والانحراف والإباحية، والدعوة إلى الفسوق وخاصة في الشعر العربي الذي ظهرت فيه الفلسفة والصنعة والمادية اليونانية فظهر في المجتمع ما يسمى بالشعراء المجان، كحماد عجرد⁽²⁾، ومطيع بن إياس⁽³⁾، وأبي نواس وبشار وغيرهم، وشعراء اللهو والعبث والزندقة كأبي دلالة⁽⁴⁾ وأبي الشمقمق وغيرهما.

كما ظهرت الفرق الدينية الضالة كالمعتزلة والروافض والمرجئة والسبئية وغلاة الشيعة، وظهر ما يسمى بنزعة "التنوير" القائمة على أساس تمجيد العقل وعبادته⁽⁵⁾، فأورث ذلك الغنى الأدبي فقراً دينياً وعقائدياً، ولعل خمريات أبي نواس وتغزله بها، ومعاني بشار وفلسفته، وغيرهما من الشعراء ما هي إلا نتاج تلك الترجمة وحصاد تلك الثقافة، فما الذي دعا الوليد بن يزيد⁽¹⁾ الخليفة الفاسق المنتهك لحرمان الله الذي أراد الحج ليشرب الخمر فوق ظهر الكعبة إلى الإلحاد غير ذلك التأثير المبالغ فيه بالثقافات الوافدة، إذ يقول⁽²⁾:

أَتَوْعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ فَهَذَا أَنْذَا جَبَّارُ عَنِيْدٍ
إِذَا لَاقَيْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرِ فَقُلْ يَا رَبِّ مَرْقَنِي الْوَلِيْدُ

(1)- الجاحظ، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1424 هـ، ج1/ص: 56.

(2)- هو أبو عمرو حماد بن عمر بن يونس بن كليب الكوفي مولى بني سواة بن عامر بن صعصعة المعروف بعجرد، الشاعر المشهور؛ هو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان ماجناً، ظريفاً، خليعاً، متهماً في دينه بالزندقة، توفي في سنة إحدى وستين ومائة للهجرة، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج2/ص: 210.

(3)- هو مطيع بن إياس الكناني، أبو سلمى: شاعر، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان ظريفاً، مليح النادرة، ماجناً، متهماً بالزندقة، مولده ومنشأه بالكوفة، وأصل أبيه من فلسطين، أقام ببغداد زمناً، وولاه المهدي العباسي الصدقات بالبصرة فتوفي فيها سنة ست وستين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج7/ص: 255.

(4)- زند بن الجون، أبو دلالة بضم الدال كان صاحب نوادر وأخبار وأدب ونظم وكان عبداً أسود توفي سنة إحدى وستين ومائة للهجرة، انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج14/ص: 145.

(5)- انظر محمد مصطفى هداره، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص: 99.

(1)- هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس، ولد سنة ثمان وثمانين للهجرة، من ملوك الدولة مروانية بالشام. كان من فتيان بني أمية وظر فائهم وشجعانهم وأجوادهم، يعاب بالانهماك في اللهو وسماع الغناء، له شعر رقيق وعلم بالموسيقى، وتوفي سنة ست وعشرين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج8/ص: 123.

(2)- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، الطبعة الرابعة، 1422هـ/2001م، ج17/ص: 285.

وجرأة الوليد بن يزيد على حدود الله جلية واضحة في قوله(1):

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ

وما الذي جعل أبا دلامة يهيم في سواد الكوفة يتقلب في حانات الخمارين، ويفر عن طاعة الله، ويعرض عن حج بيته الحرام غير تلك الأفكار الجديدة والمعتقدات المستجلبة والتي لا تمت بصلة للدين الإسلامي، إذ يقول(2):

نُبِّئْتُ أَنَّ طَرِيقَ الْحَجِّ مَعْطَشَةٌ مِنْ الطَّلَاءِ وَمَا شُرْبِي بِتَصْرِيدِ
وَاللَّهِ مَا بِي مِنْ خَيْرٍ فَتَطْلُبُنِي فِي الْمُسْلِمِينَ وَمَا دِينِي بِمَحْمُودِ
إِنِّي أَعُوذُ بِدَاوُدَ وَتُرْبَتَهُ مِنْ أَنْ أَحْجَّ بِكُرِهِ يَا ابْنَ دَاوُدَ

إن من أكبر الآثار على الدين الإسلامي ترجمة كتب الإلهيات التي تضاد بالدرجة الأولى صفاء العقيدة الإسلامية، فكانت ترجمة علم المنطق والفلسفة الإلهية خاصة من أهم أسباب دخول الفلسفة في العقائد الإسلامية بدلاً من النصوص الشرعية، فحينما تتصفح كتاباً من كتب المعتزلة أو الأشاعرة - المتأخرين منهم خاصة - فإنك تجد أنها تتميز بالمقدمات المنطقية الطويلة والصعبة ثم تجد الصفحات الطويلة في الاستدلال على العقائد بالعقل، مع إغفال النصوص الشرعية، ناهيك عن الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام وما أحدثوه على العقائد الإسلامية من ويلات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية(3): "والفلاسفة المتظاهرون بالإسلام يقولون: إنهم متبوعون للرسول، لكن إذا كشفت عن حقيقة ما يقولونه في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر تبين لمن يعرف ما جاء به الرسول وما يقولونه في نفس الأمر أن قولهم ليس هو قول المؤمنين" (1).

(1) - جواد علي، المرجع السابق، ص: 379.

(2) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، دون تاريخ، ج1/ص: 56.

(3) - هو أحمد بن عبد الحليم، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية، الإمام، شيخ الإسلام، ولد في حران سنة إحدى وستين وستمائة للهجرة، وتحول به أبوه إلى دمشق فنبت واشتهر، برع في العلم والتفسير وأفتى ودرّس وهو دون العشرين، أما تصانيفه كثيرة، ففي الدرر أنها ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، وفي فوات الوفيات أنها تبلغ ثلاث مئة مجلد، منها السياسة الشرعية و الفتاوى والإيمان والجمع بين النقل والعقل، توفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج1/ص: 144.

(1) - ابن تيمية، الصفدية، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، الطبعة الثانية، 1406هـ، ج2/ص: 326.

وهذا غيض من فيض الآثار السلبية التي عكستها الثقافة الدخيلة على حياة المسلمين، ودينهم في ذلك العصر، تلك الثقافات، والملل التي تسربت عن طريق الترجمة، والاختلاط إلى العرب، بما لا عهد لهم بمثلها، فأصبحت جزءاً من حياتهم اليومية، وثقافتهم المكتسبة، فقد أورد ابن المعتز⁽¹⁾ قول أبي نواس: "ما مجنت، ولا خلعت العذار حتى عاشرت الخاركي فجاهر بذلك، ولم يحتشم فامتثلنا نحن ما أتى به وسلكننا مسلكه، ونحن ومن يذهب مذهبا عيال عليه"⁽²⁾.

(1) - هو عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس: الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة، ولد في بغداد سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم، صنف كتباً، منها الزهر والرياض، البديع، الآداب، الجامع في الغناء وطبقات الشعراء، وتوفي سنة ست وتسعين ومائتين للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج1/ص: 144.

(2) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 306.

المبحث الأول: القصص

كان الملوك والسلاطين، والخلفاء والأمراء يهتمون بتشييد القصور العظيمة، وكانت تبنى على مساحات واسعة، وربما توسطتها أفنية فسيحة، وتدور على جوانبها أجنحة خاصة بالحكم، والسكن الخاص والمرافق المختلفة.

وقد اهتم بعض الخلفاء وخاصة من بني العباس بتزيين هذه القصور وزخرفة جدرانها وسقوفها بألوان شتى من النقوش والزخارف الرائعة، فضلاً عن ما يجلب إليها من أثاث فاخر وفرش وثيرة⁽¹⁾.

وشكلت هذه القصور من قبل حصوناً منيعة، وسداً قوياً في وجوه الأعداء، كما حدث للصحابة رضي الله عنهم عندما قاموا بفتوحاتهم ونشروا الإسلام في بلاد فارس خاصة، حيث وجدوا معاناة ومشقة، لتحصن أهل تلك البلاد في قصورهم المنيعة، كالخورنق⁽²⁾، والقصر الأبيض⁽³⁾، وقصر العدسيين⁽⁴⁾ وقصر بني مازن⁽⁵⁾ وغيرها⁽⁶⁾.

كما كانت تلك القصور مبعثاً للتفكير والاعتبار بعظمة من مضى من بناتها وملاكها حيث عطف عليهم الزمن، وأبادهم الموت، فلم تمنعهم قصورهم، فأصبحوا حلماً من الأحلام.

فهذا قصر الخورنق، الذي شيد بطلب من يزيدجرد الأثيم بن يهرام⁽⁷⁾، ليسكنه ولداً من أولاده، وكان الذي بناه رجلاً اسمه سنمّار، استمر في بنائه عشرين سنة، فلما فرغ من بنائه، تعجبوا من حسنه وإتقان عمله" فقال: لو علمت أنكم توفونني أجري وتصنعون بي ما أنا أهله لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت، فقيل وإنك لتقدر على أن تبني أفضل منه ثم لم تبنيه! فأمر به فطرح من رأس الخورنق"، فأصبح جزاء سنمار مثلاً يعرف إلى اليوم⁽⁸⁾.

وفي ذلك البناء العظيم وذلك الجزاء الخاسر يقول قائلهم⁽⁹⁾:

- (1) - انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1/ص: 93.
- (2) - الخورنق: قصر كان بظهر الحيرة، وقد اختلفوا في بانيه فقال الهيثم بن عدي: الذي أمر ببناء الخورنق النعمان بن امرئ القيس، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2/ص: 401.
- (3) - القصر الأبيض: هو قصر كسرى بالمداين، انظر صفي الدين الحنبلي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412 هـ، ج 3/ص: 1096.
- (4) - قصر العدسيين: وهو قصر كان بالكوفة في طرف الحيرة لبني عمّار بن عبد المسيح بن قيس بن حرملة، وإنما نسبوا إلى أمهم عدسة بنت مالك، وهو أول شيء فتحه المسلمون لما غزوا العراق، انظر المصدر نفسه، ج 4/ص: 360.
- (5) - قصر بني مازن: من قصور الحيرة، انظر أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، 1992 م، ج 1/ص: 225.
- (6) - انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 3/ص: 360.
- (7) - يزيدجرد بن بهرام جور بن يزيد الملك المعروف بالأثيم بن بهرام بن سابور بن سابور ذي الأكتاف بن هرمز بن هرمز بن نرسي بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور الجنود بن أردشير بن بابك، انظر الداوودي، طبقات المفسرين، ج 1/ص: 155.
- (8) - انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 2/ص: 65.
- (9) - المصدر نفسه، ج 2/ص: 66.

جَزَانِي جَزَاهُ اللهُ شَرًّا جَزَائِهِ
سِوَى رِصَّةِ الْبُنْيَانِ عِشْرِينَ حِجَّةً
فَلَمَّا رَأَى الْبُنْيَانَ تَمَّ سُمُوقُهُ
فَأَتَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَرْسٍ وَحِقْبَةٍ
وظَنَّ سِنْمَارًا بِهِ كُلَّ حَبْرَةٍ
فَقَالَ اقْدُفُوا بِالْعُلْجِ مِنْ فَوْقِ بُرْجِهِ
جَزَاءَ سِنْمَارٍ وَمَا كُنْتَ ذَا ذَنْبٍ
يُعَلِّي عَلَيْهِ بِالْقَرَامِيدِ وَالسَّكْبِ
وَاضَ كَمِثْلِ الطَّوْدِ ذِي الْبَادِخِ الصَّعْبِ
وَقَدْ هَرَّهْ أَهْلُ الْمَشَارِقِ وَالْعَرَبِ
وَفَازَ لَدَيْهِ بِالْمَوَدَّةِ وَالْقُرْبِ
فَهَذَا لَعَمْرُ اللهِ مِنْ أَعْجَبِ الْخَطْبِ

لقد عرف العرب القصور وبنوها، وعرفها الصحابة رضي الله عنهم وبنوها خدمة للمسلمين، ولم يكن همهم اللهو والمتعة، كما لم يهتموا بزخرفتها وتزينها كما فعل الأمويون والعباسيون، إنما كانت حصناً للإسلام ومنزلاً للمسلمين من المجاهدين والمسافرين وغيرهم.

فقد ذكر أن عثمان بن عفان⁽¹⁾ - رضي الله عنه - كتب إلى أحد عماله: أن اتخذ داراً ينزلها من قدم البصرة من أهل المدينة وينزلها من قدم من مواليها، فاتخذ القصر الذي يقال له قصر ابن عفان وقصر رَمْلَةَ وجعل بينهما فضاء كان لدوابهم وإبلهم.

ويذكر ياقوت⁽²⁾ أن بالبصرة قصرًا ينسب للصحابي الجليل أنس بن مالك⁽³⁾ رضي الله عنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الأحنف بن قيس⁽⁴⁾ غزا طخارستان⁽⁵⁾ سنة اثنتين وثلاثين أيام عثمان رضي الله عنه وحاصر حصناً يقال له سنوان، وأطلق عليه فيما بعد قصر الأحنف.

(1) - عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، أمير المؤمنين، ولد بعد الفيل بست سنين على الصحيح، لقب بذي النورين، وهو أول من هاجر إلى الحبشة ومعه زوجته رقية، وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وأشهر على الصحيح المشهور، انظر ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج4/ص:377.

(2) - ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله، شهاب الدين: مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب، أصله من الروم، ولد سنة أربع وسبعين وخمسائة للهجرة، من كتبه معجم البلدان، إرشاد الأريب ويعرف بمعجم الأدياء وتوفي سنة ست وعشرين وستمائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج8/ص:131.

(3) - هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأحد المكثرين من الرواية عنه، توفي سنة ثلاث وتسعين للهجرة، انظر ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج1/ص:275.

(4) - هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين بن حفص، أبو بحر التميمي السعدي، أدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يجتمع به، وقيل إنه دعا له، كان ثقة مأمونا قليل الحديث، وكان ممن اعتزل وقعة الجمل، ثم شهد صفين، توفي بالبصرة زمن ولاية مصعب بن الزبير سنة سبع وستين للهجرة، انظر المصدر نفسه، ج1/ص:331.

(5) - طخارستان: من بلاد خراسان على مقربة من بلخ، وهي في مستو من الأرض، وهي كثيرة الأنهار والأشجار والجال، انظر الحميري، الروض المعطار في خبر الأخيار، ج1/ص:331.

وكان في المدينة قصر ابن عوان⁽¹⁾ ينزل فيه بعض أحياء اليمن قبل الأوس والخزرج، وعندما حاصر الأحنف بن قيس وأصحابه رضي الله عنهم أهل جوزجان⁽²⁾ وحاربوهم وانتصروا عليهم، وصف شاعرهم ابن الغريزة النهشلي⁽³⁾ المعركة والموقع فقال⁽⁴⁾:

سَقَى صَوْبُ السَّحَابِ إِذَا اسْتَهَلَّتْ مَصَارِعَ فَنِيَّةٍ بِالْجَوْزَجَانِ
إِلَى الْقَصْرَيْنِ مِنْ رِسْتَأَقِ حَوْفٍ أَفَادَهُمْ هُنَاكَ الْأَقْرَعَانَ

ولم يتفنن أحد كتفنن العباسيين في قصورهم وخاصة بعدما استقام لهم الأمر، واستقرت الأوضاع وزادت الأموال، وفاض الترف.

فقد ذكر أن المنصور لما عزم على بناء مدينة بغداد أحضر مهرة المهندسين، وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين، وحُذِّق الصناعات والحداثة والحفر، ثم اختطها وجعلها مدورة، حتى قيل: أنه لا يعرف في الدنيا كلها مدينة مدورة سواها⁽⁵⁾.

وقد وصفها الشاعر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي⁽⁶⁾ بقوله⁽⁷⁾:

أَعَايَنْتَ فِي طُولِ مِنَ الْأَرْضِ وَالْعَرْضِ كَبْغَدَادَ دَاراً إِنَّهَا جَنَّةُ الْأَرْضِ
صَفَا الْعَيْشُ فِي بَغْدَادَ وَاخْضَرَ عُوْدُهُ وَعَيْشٌ سِوَاهَا غَيْرُ صَافٍ وَلَا غَضٍّ

فقد كان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أول من شاد الأبنية والقصور، إذ بنى قصر القبة الخضراء ليحول أذهان الناس إلى ضرورة بناء القصور تماشياً ومتطلبات الحضارة الجديدة، وبنى الجوامع والحصون والقصور في بغداد كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما، وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع، واقتدى بهم وزراءهم وأمراؤهم فأقاموا قصورا فخمة تعرف بأسماء بناتها، كقصور البرامكة في الشماسية، وقصر ابن الخطيب، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد، وقصر بني خلف بالبصرة، وقصر عيسى بن علي وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور، وقصر وضاح الذي بناه

(1) - قصر ابن عوان: كان بالمدينة وكان ينزل في شقة اليماني بنو الجذماء حي من اليمن من يهود المدينة، كانوا بها قبل الأوس والخزرج، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4/ص: 355.

(2) - الجوزجان: في بلاد خراسان، والجوزجان اسم للناحية وليس بمدينة بل هو اسم كورة، وأكبر مدن الجوزجان أنبار واليهودية وغيرهما، انظر المصدر نفسه، ج1/ص: 182.

(3) - هو كثير بن عبد الله بن مالك التميمي النهشلي، المعروف بابن الغريزة، شاعر أدرك الجاهلية والإسلام، وعاش إلى إمرة الحجاج، توفي سنة سبعين للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج5/ص: 220.

(4) - أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دون طبعة، 1988م، ج1/ص: 394.

(5) - انظر البغدادي، تاريخ بغداد، ج1/ص: 88.

(6) - هو عمارة بن عقيل التميمي، شاعر مقدم، فصيح، من أهل اليمامة، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائة للهجرة، كان يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء من بني العباس فيجزلون صلته، توفي سنة تسع وثلاثين ومائتين للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج5/ص: 37.

(7) - انظر البغدادي، تاريخ بغداد، ج1/ص: 89.

رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي، وقصر الرشيد وقصر الأمين، وقصر ابن الفرات، وقصر ابن مقلة غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة ودار القرار⁽¹⁾.

وبلغ فن البناء العباسي شأنًا بعيداً في التحضر، من رسوم ونقوش وقبب وزخرفة، فقصر القبة الخضراء مثلاً كان يتصدره، إيوان طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وسقفه قبة خضراء تعلوها تماثيل، وترى هذه القبة من أطراف بغداد، وكانت هذه القبة تاج بغداد وعلم البلد، ومآثرة من مآثر بني العباس العظيمة⁽²⁾.

والملاحظ أن فكرة بناء الإيوان جاءت مستمدة من الحضارة الفارسية خاصة إيوان كسرى أنوشروان⁽³⁾ الذي بناه سابور ذو الأكتاف⁽⁴⁾ في نيف وعشرين سنة وطوله مائة ذراع في عرض خمسين بناه بالأجر والجص، وجعل طول كل شرافة من شراريفه خمسة عشر ذراعاً، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان فأخرجوا منه ألف دينار ذهباً.

وحكي أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه وأن يجعل آله في بنائه، فقيل له إن نقضه يتكلف بقدر العمارة فلم يسمع وهدم شرافه وحسب ما أنفق عليها فوجد الأمر كذلك⁽⁵⁾.

وفي سنة سبع وخمسين ومئة، نقل أبو جعفر المنصور أسواق مدينته إلى مكان يقال له الكرخ، وبنى تلك الأسواق من ماله، وزينها ووسع طرق المدينة، مما دعا الشعراء إلى وصف منازل الكرخ تلك، من مثل قول نبطويه⁽⁶⁾:

(1) - زيدان جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج2/ص: 624.

(2) - البغدادي، تاريخ بغداد، ج1/ص: 93.

(3) - هو كسرى أنوشروان بن قباذ بن فيروز، وهو الذي ملك المنذر على العرب، وهو الذي قصده سيف بن ذي يزن يستنصره على الحبشة، فبعث معه قائداً من قواده في جند من الديلم، فافتتحوا اليمن، ونفوا السودان منها، وكان ملك كسرى سبعاً وأربعين سنة وستة أشهر، انظر أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون طبعة وتاريخ، ج2/ص: 67.

(4) - هو سابور بن هرمز الملك بن نرسي الملك بن بهرام الملك، ويقال له الملك شاهنشاه، وسمي سابور ذو الأكتاف لأنه كان يخلع أكتاف العدو، كان سابور حملاً يوم مات أبوه هرمز الملك، فعقد التاج على بطن أمه، انظر عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دون طبعة وتاريخ، ج9/ص: 4088.

(5) - الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستطرف، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ، ج1/ص: 389.

(6) - هو إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلب ابن أبي صفرة الأزدي، أبو عبد الله الملقب نبطويه النحوي الواسطي؛ له التصانيف الحسان في الأدب، وكان عالماً بارعاً، ولد سنة أربع وأربعين ومائتين للهجرة، وقيل: سنة خمسين ومائتين بواسط وسكن بغداد، وتوفي في صفر سنة ثلاث وعشرين للهجرة، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج1/ص: 47.

سَقَى أَرْبَعِ الْكَرْخِ الْعَوَادِي بَدِيمَةً
وَكُلَّ مُلْتِ دَائِمِ الْهَظْلِ مُسْبِلِ
مَنَازِلُ فِيهَا كُلُّ حُسْنٍ وَبَهْجَةٍ
وَتَلْكَ لَهَا فَضْلٌ عَلَى كُلِّ مَنَزِلٍ (1)

ويذكر البغدادي (2) أن المهدي لما بنى قصره بالرُصافة (3)، ونام ذات مرة فيه أتاه آت في منامه، ينعي ذلك القصر الجميل قائلاً (4):

كَأَنِّي بَهَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ
وَأَوْحَشَ مِنْهُ رُكْنُهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ بَهْجَةٍ
وَمُلْكٍ إِلَى قَبْرِ عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ

ويصف لنا الشاعر أحمد بن محمد اليزيدي (5) قصراً كان يسكنه المأمون، ويصف أشجاره وأنهاره فيقول (6):

يَا قَصْرُ ذَا النَّخْلَاتِ مِنْ قَارَا
إِنِّي حَنَنْتُ إِلَيْكَ مِنْ بَارَا
أَبْصَرْتُ أَشْجَاراً عَلَى نَهْرٍ
فَذَكَرْتُ أَنْهَاراً وَأَشْجَارَا
لِللَّهِ أَيَّامٌ نَعَمْتُ بِهَا
فِي الْقَفْصِ (7) أحياناً وَفِي بَارَا

وللشاعر العباسي ابن أبي عيينة (8) أشعار كثيرة عذبة في وصف قصور بني العباس، فله أبيات عذبة جميلة، كالسلسبيل رقة وحلاوة، في وصف قصر من قصورهم، إذ يذكر ما في ذلك القصر من محاسن وما ضم من غروس وأشجار كالجوازي وتربة تضاهي المسك، يرتع

(1) - البغدادي، تاريخ بغداد، ج1/ص: 100.

(2) - هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب، أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين، ولد سنة، كان فصيح اللهجة عارفا بالأدب، يقول الشعر، ولوعا بالمطالعة والتأليف، من مصنفاته: تاريخ بغداد، الكفاية في علم الرواية، انظر الأعلام، الزركلي، ج1/ص: 172.

(3) - رُصَافَةُ بَغْدَادَ: بالجانب الشرقي، لما بنى المنصور مدينته بالجانب الغربي واستتمَّ بناءها أمر ابنه المهدي أن يعسكر في الجانب الشرقي وأن يبني له فيه دورا وجعلها معسكرا له، فالتحق بها الناس وعمروها فصارت مقدار مدينة المنصور، وعمل المهدي بها جامعا أكبر من جامع المنصور وأحسن، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3/ص: 46.

(4) - البغدادي، تاريخ بغداد، ج1/ص: 101.

(5) - هو محمد بن العباس بن محمد اليزيدي، أبو عبد الله، ولد سنة ثمان وعشرين ومائتين للهجرة، من كبار علماء العربية والأدب ببغداد، له كتب جملة، منها الأمالي، مناقب بني العباس، كتاب الخيل، أخبار اليزيديين، توفي سنة عشر وثلاثمائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج6/ص: 182.

(6) - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1/ص: 434.

(7) - الققص: قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا، وكانت من مواطن اللهو، ومعاهد التنزه، ومجالس الفرح، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4/ص: 382.

(8) - هو محمد بن أبي عيينة بن المنجاب بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة، شاعر عباسي، مطبوع، ظريف، غزل، هجاء، من سكان البصرة، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج20/ص: 27 وما بعدها.

فوقها سرب من الغزلان في دقة وانتظام، كدُرٍ منظوم، وحمائم تنتقل بين رياضه تطلق أنغاماً موسيقية فاتنة، فيقول (1):

لَقَدْ كُنْتُ يَوْمَ الْقَصْرِ مِمَّا ظَنَنْتُ بِي
يُذَكِّرُنِي الْفَرْدَوْسُ طُوراً فَأَرْعَوِي
بِغَرْسٍ كَأَبْكَارِ الْجَوَارِي وَتُرْبِيَةِ
وَسَرْبٍ مِنَ الْغَزْلَانِ يِرْتَعْنَ حَوْلَهُ
وورَفَاءَ تَحْكِي الْمُوصِلِي إِذَا عَدَتْ
فِيَا طِيبُ ذَلِكَ الْقَصْرِ قَصِراً وَمَنْزَلاً
كَأَنَّ قُصُورَ الْقَوْمِ يَنْظُرْنَ حَوْلَهُ
يُدُلُّ عَلَيْهَا مُسْتَطِيباً بِفَضْلِهِ

بريئاً كما أني برىء من الشَّرِكِ
وطوراً يُوَاتِينِي إِلَى الْقَصْفِ وَالْفَتْكِ
كأنَّ ثَرَاهَا مَاءٌ وَرَدٍ عَلَى مَسْكِ
كما أنسلَّ منظُومٌ مِنَ الدُّرِّ مِنْ سِلْكِ
بتغريدها أَحْبَبْتُ بِهَا وَبِمَنْ تَحْكِي
بِأَفِيحِ سَهْلٍ غَيْرِ وَعَرٍ وَلَا ضَنْكِ
إِلَى مَلِكٍ مُوفٍ عَلَى مَنِيرِ الْمُلْكِ
فيضْحَكُ مِنْهَا وَهِيَ مَطْرَقَةٌ تَبْكِي

ويصف أشجع السلمي (2) قصورا لجعفر بن يحيى البرمكي (3) قائلا (4):

قُصُورُ الصَّالِحِيَّةِ (5) كَالْعَذَارَى
مُطِلَاتٌ عَلَى بَطْنِ كَسَنَتِهِ
إِذَا مَا الطَّلُّ أَثَرَ فِي ثَرَاهِ
تُعَبِّقُهُ السَّمَاءُ بِصَبْغِ وَرْسِ

لَبَسْنَ ثِيَابَهُنَّ لِيَوْمِ غَرْسِ
أَيَادِي الْمَاءِ نَسْجاً وَشَى غَرْسِ
تَنْفَسَ نَوْرُهُ مِنْ غَيْرِ نَفْسِ
وَتُصْبِحُهُ بِكَأْسِ عَيْنِ شَمْسِ

يشبه الشاعر تلك القصور في جمالها وحسنها ونضارة بنائها بالعذارى الحسنات اللاتي لبسن أحسن الثياب، وقد تهيأن لحضور حفلة عرس، تلك القصور المطلة على مناظر خضراء قد نسج الماء جمالها، فأنبت خضرتها التي ازدانت بها أرضها، وأصبحت كالوشى المنمق، تلك القصور التي يعلوها الطل كل صباح، فيزيدها جمالاً إلى جمالها، وذلك عندما تتلاقى أشعة الشمس بذلك الطل المرسل من السماء لملامسة تلك القصور، وهو تصوير

(1) - الأصفهاني، المصدر السابق، ج20/ص: 37.

(2) - هو أشجع بن عمرو من بني سليم، كان متصلاً بالبرامكة، وله فيهم أشعار كثيرة، نشأ باليمامة ثم انتقل بعد موت أبيه مع أمه إلى البصرة، يعد من فحول الشعراء، انظر الدينوري، الشعر والشعراء، ج2/ص: 869، والأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 153.

(3) - هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، أبو الفضل، وزير الرشيد العباسي، وأحد مشهوري البرامكة ومقدميهم، ولد سنة خمسين ومائة للهجرة ببغداد، واستوزره هارون الرشيد، يحكم بما يشاء فلا ترد أحكامه، إلى أن نقم الرشيد على البرامكة نقمته المشهورة، فقتله في مقدمتهم، توفي سنة ست وسبعين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج2/ص: 130.

(4) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 157.

(5) - الصالحيّة: قرية قرب الرُّها من أرض الجزيرة، فيها بعض المتنزهات الجميلة والدور، وتمتاز بقصورها الجميلة التي كان المهدي أول من شيدها، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3/ص: 389.

جميل يدل على ما يتمتع به الشاعر من إحساس مرهف، يعكس بهاء هذه المعالم الحضارية التي دفعت الشاعر إلى أعمال خياله وبتدبير صنعته.

ويلتقي أشجع بالرشيد فيمدحه، ويصف ما وقعت عيناه عليه من عظمة قصره، فيقول⁽¹⁾:

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحْيَاةٌ وَسَلَامٌ نَثَرْتُ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الْأَيَّامُ
فِيهِ اجْتَلَى لِذُنْيَا الْخَلِيفَةِ وَالنَّفَقَتِ لِلْمُلْكِ فِيهِ سَلَامَةٌ وَسَلَامٌ
قَصْرٌ سُقُوفُ الْمُزْنِ دُونَ سُقُوفِهِ فِيهِ لِأَعْلَامِ الْهُدَى أَعْلَامٌ
نَثَرْتُ عَلَيْهِ الْأَرْضُ كِسْوَتَهَا الَّتِي نَسَجَ الرَّبِيعُ وَزَخْرَفَ الْإِرْهَامُ⁽²⁾

يصف شاعرنا أشجع هذا القصر بجماله، وطول سقوفه، بأنها تناوش السحاب، وأرضه روضة خضراء، قد كساها تلك الحلة إرهام المطر ورذاذه في ربيع مقبل جميل، وقد ازدان ذلك القصر العظيم بعلم من أعلام الهدى وزينة الخلفاء، هارون الرشيد.

ونجد أن أبياتاً جميلة رقراقة قيلت في رثاء بغداد أيضاً، تصف حالها أيام الفتنة العمياء بين الأمين وأخيه المأمون، تنسب تلك الأبيات لعلي بن أبي طالب الأعمى وهو شاعر مغمور الذكر من شعراء أواخر القرن الثاني، يصف في أبياته تلك، نصارة بغداد ويبرز محاسنها، ويصف قصورها وجناتها وعظائم الملك فيها، وينعتها بجنة الدنيا، إلى أن دارت عليها الدوائر، فأصبحت قاعاً صفصفاً قد ترممت حضارتها، وتبدلت محاسنها، يقول⁽³⁾:

كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَغْدَادُ أَحْسَنَ مَنْظَرًا وَمَلْهُى رَأْتُهُ عَيْنٌ لِاهٍ وَنَاظِرٍ
بَلَى هَكَذَا كَانَتْ فَأَذْهَبَ حُسْنَهَا وَبَدَّدَ مِنْهَا الشَّمْلَ حُكْمَ الْمَقَادِرِ
وَحَلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ فَأَضْحَوْا أَحَادِيثًا لِبَادٍ وَحَاضِرِ
أَبْغَدَادَ يَا دَارَ الْمُلُوكِ وَمُجْتَنَى صُنُوفِ الْمُنَى يَا مُسْتَقَرَّ الْمَنَابِرِ
وَيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا وَيَا مَطْلَبَ الْغِنَى وَمُسْتَنْبِطِ الْأَمْوَالِ عِنْدَ الْمُتَاجِرِ
أَبِينِي لَنَا أَيْنَ الَّذِينَ عَهْدْتُهُمْ يَحْلُونَ فِي رَوْضٍ مِنَ الْعَيْشِ نَاضِرِ
وَأَيْنَ الْمُلُوكِ فِي الْمَوَاكِبِ تَعْتَدِي تُشَبِّهَ حُسْنًا بِالنَّجُومِ الزَّوَاهِرِ
وَأَيْنَ الْفُضَاةِ الْحَاكِمُونَ بَرَائِهِمْ لَوْرِدِ أَمْوُرٍ مُشْكَلَاتِ الْمَصَادِرِ
أَوْ الْقَائِلُونَ النَّاطِقُونَ بِحُكْمَةٍ وَرَصْفِ كَلَامٍ مِنْ خَطِيبٍ وَشَاعِرِ
وَأَيْنَ الْجِنَانِ الْمُؤَلِّفَاتِ بِحُسْنِهَا وَأَيْنَ قِصُورِ الشَّطِّ بَيْنَ الْعَوَامِرِ
وَأَيْنَ مُرَاحٍ لِلْمُلُوكِ عَهْدَتُهَا مَزْخَرَفَةٌ فِيهَا صُنُوفُ الْجَوَاهِرِ
تُرْشُ بِمَاءِ الْمِسْكِ وَالْوَرْدِ أَرْضُهُ

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 154.

(2) - الإرهام: المطر، يقال أرهمت السحابة إرهاماً: أتت بالمطر، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (رهم)، ج12/ص: 257.

(3) - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3/ص: 330.

ويبرز لنا أبو العتاهية⁽¹⁾ عظمة قصور بني العباس التي تدل على تحضرهم، وإتقان بنائهم لها، ويعظمهم بأنها لا تنفعهم، إذا لم يكن معهم من العمل الصالح في الدنيا ما يجلب لهم الأمن والسرور في الآخرة.

ويروي الأصمعي أن الرشيد صنع طعاماً وزخرف مجالسه وأحضر أبا العتاهية، وقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا، فقال أبو العتاهية⁽²⁾:

عَشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِماً فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ

فقال الرشيد: أحسنت، ثم ماذا؟ فقال:

يُسْعَى عَلَيْكَ بِمَا اشْتَهَيْتَ لَدَى الرِّوَّاحِ أَوْ البُّكُورِ

فبكى الرشيد: فقال الفضل بن يحيى البرمكي⁽³⁾: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته، فقال الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه⁽⁴⁾.

والأبيات السابقة وإن كانت تحمل في طياتها عظة وحكمة إلا أنها تصور لنا ما كان ينعم به الخلفاء من الترف وسبل الحضارة في المساكن والمآكل.

ومن الشعراء من يدعو لتلك القصور بالسقيا والغيث، ويصف أصحابها بعلو الهمة والتأييد من الله عز وجل ولا سيما إذا كان صاحب القصر من خلفاء المسلمين، يقول أبو العتاهية مادحا المهدي وواصفا قصراً له⁽⁵⁾:

سُقَيْتَ الغَيْثَ يَا قَصْرَ السَّلَامِ فَنِعْمَ مَحَلَّةَ المَلِكِ الهُمَامِ
لَقَدْ نَشَرَ الإلهُ عَلَيْكَ نورا وَحَفَّكَ بالملائِكَةِ الكِرَامِ
سَأشْكُرُ نعمةَ المهدي حتى تَدُورُ عَلَيَّ دائِرَةُ الحِمَامِ
له بيتان: بيت تُبْعِي وبيت حَلَّ بالبلدِ الحَرَامِ

(1) - هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، العيني المعروف بأبي العتاهية الشاعر المشهور، ولد سنة ثلاثين ومائة للهجرة، بعين التمر، وهي بليدة بالحجاز قرب المدينة، نشأ بالكوفة وسكن بغداد، وكان يبيع الجرار فقيل له: الجرار، له في الزهد أشعار كثيرة، وهو من مقدمي المولدين في طبقة بشار وأبي نواس وتلك الطائفة، وشعره كثير، توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين للهجرة، ببغداد، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج 1/ص: 219.

(2) - أبو العتاهية، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، 1406هـ/1968م، ص: 163.

(3) - هو الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك البرمكي، أبو العباس، كان من أكثرهم كرماً مع كرم البرامكة وسعة جودهم، وكان أكرم من أخيه جعفر، وكان هارون الرشيد قد ولاه الوزارة قبل جعفر، وتوفي بالسجن سنة ثلاث وتسعين ومائة للهجرة، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج 4/ص: 27.

(4) - ديوان أبي العتاهية، ص: 163.

(5) - المصدر نفسه، ص: 408.

يدعو الشاعر بالسقيا لقصر المهدي، المسمى بقصر السلام وذلك لأنه مقام المهدي ومستقره، ومن عادة العرب أن تدعو لمن تحب بالغيث والمطر؛ لأنه سبب الحياة ومبعث الخضرة والجمال.

ومن عظمة تلك القصور الدالة على الترف والحضارة الدنيوية يتخذ أبو العتاهية عظة وعبرة في سرعة انقضاء أعمار ساكنيها، واصفاً ما كانوا فيه من ترف وله، فيقول⁽¹⁾:

| | |
|------------------------------------|-------------------------------------------------------|
| لَهْفِي عَلَى الزَّمَنِ الْقَصِيرِ | بَيْنَ الْخَوَرِ نَقِيٍّ وَالسَّادِيرِ ⁽²⁾ |
| إِذْ نَحْنُ فِي غُرْفِ الْجِنَا | نَ نَعُومُ فِي بَحْرِ السُّرُورِ |
| فِي فَنِيَّةٍ مَلَكُوا عَنَا | نَ السُّدُورِ أَمْثَالِ الصُّقُورِ |
| مَا مِنْهُمْ إِلَّا الْجَسُورِ | رَ عَلَى الْهَوَى غَيْرُ الْحُصُورِ |
| عِذْرَاءَ رَبَّاهَا شُوعَا | عُ الشَّمْسِ فِي حَرِّ الْهَجِيرِ |
| لَمْ تُدَنَّ مِنْ نَارٍ وَلَمْ | يَعْلُقْ بِهَا وَضْرُ الْقُدُورِ |

إلى أن يقول⁽³⁾:

| | |
|--------------------------------------------------|--------------------------------------------------|
| وَمُخَصَّراتِ زُرْنَنَا | بَعْدَ الْهُدُوءِ مِنَ الْخُدُورِ ⁽⁵⁾ |
| رِيًّا ⁽⁴⁾ رَوَادِفُهُنَّ يَلْبَسُنَّ | الْخَوَاتِمَ فِي الْخُصُورِ |
| غُرَّ الْوُجُوهِ مُحَجَّبَا | تِ قاصِراتِ الطَّرْفِ حُورِ |
| مُتَنَعِّمَاتِ فِي النَّعِيمِ | يَمُّ مَضَمَّخَاتِ بِالْعَبِيرِ |
| يَرْفُلَنَّ فِي حُلِّ الْمَخَا | سِينِ وَالْمَجَاسِدِ وَالْحَرِيرِ ⁽⁶⁾ |
| مَا إِنْ يَرَيْنَ الشَّمْسَ إِلَّا الْفَرْطَ | مَنْ خُلِّ السُّتُورِ |

إن الشاعر يتحسر على مرور الزمن سريعاً، متذكراً أيام لهوه وصباه الخوالي، حينما كان بصحبة أترابه وأصدقائه، يتنعمون في بحر من السرور، ونراه يذكر الخمر ويصفها بالعدراء، وقد أنضجت أشعة الشمس ولم تعرض للنار.

ثم يصف المتنعمات من الجواري والنساء اللاتي كن مقصورات في المنازل والقصور، وكن يرفلن في أنواع الحلل والزينة، ليصل إلى غرضه وهو مدح الخليفة، رائد

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج4/ص: 49.

(2) - السدير: بفتح أوله وكسر ثانيه، قيل: نهر، وقيل قصر، وهو معرب، وقيل إنه قصر قريب من الخورنق، كان النعمان الأكبر يتخذ لبعض ملوك العجم، سمي كذلك لكثرة سواده وشجره، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3/ص: 201.

(3) - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4/ص: 50.

(4) - المخصرات: دقيقات الخصور، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة(خصر)، ج4/ص: 240.

(5) - ريا: الممتلئة، انظر المصدر نفسه، مادة(رأي)، ج14/ص: 296.

(6) - المجاسد: القمصان التي تلي البدن، انظر المصدر نفسه، مادة(جسد)، ج3/ص: 121.

النهضة والتحضر، رب المدائن والقصور، مسبغا عليه سمة الذكاء والمنزلة الرفيعة والعقل الراجح، رغم صغر سنه.

والأبيات بألفاظها الرقيقة وموسيقاها القريبة وجرها الراقص، تصور لنا ألواناً من التمتع، ومفاتيح الترف والتحضر.

ويذكر الأصفهاني⁽¹⁾ في جملة أخباره أن ابن النطاح⁽²⁾ الشاعر تشوق إلى بغداد وإلى نضارة عيشها، وتذكر أيامه ولياليه في ربوعها، فقال أبياتاً منها⁽³⁾:

| | |
|-----------------------------------------|-----------------------------------------|
| نَسِيمُ الْمُدَامِ وَبَرْدُ السَّحَرِ | هُمَا هَيَّجَا الشُّوقَ حَتَّى ظَهَرَ |
| تَقُولُ اجْتَنِبْ دَارَنَا بِالنَّهَارِ | وَزُرْنَا إِذَا غَابَ ضَوْءُ الْقَمَرِ |
| فَإِنَّ لَنَا حَرَساً إِنْ رَأَوْكَ | نَدِمْتَ وَأَعْطُوا عَلَيْكَ الظَّفَرَ |
| سَقَى اللَّهُ بَغْدَادَ مِنْ بَلَدِ | وَسَاكِنَ بَغْدَادَ صَوْبَ الْمَطَرِ |
| وُنُبِّئْتُ أَنَّ جَوَارِي الْقُصُوفِ | رَ صَيَّرْنَ ذِكْرِي حَدِيثَ السَّمْرِ |
| أَلَا رَبَّ سَائِلَةٍ بِالْعِزِّ | قَ عَنِّي وَأُخْرَى تُطِيلُ الْفِكْرَ |
| تَقُولُ عَهْدَنَا أبا وَأَنْلِ | كَظَبِي الْفَلَاةَ الْمَلِيحَ الْحَوْرَ |
| لِيَالِي كُنْتَ أَزُورُ الْقِيَانَ | كَأَنَّ ثِيَابِي بِهِارُ الشَّجَرِ |

لقد كان العباسيون، لا سيما السراة منهم، يتقنون بنيانهم، ويهتمون بتزيينه وتجميله، ومن أقوالهم في اقتناء الدار والحرص عليها: " ليكن أول ما تبتاع وآخر ما تبيع"⁽⁴⁾.

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر حين اختط داره لينسبها: هي قميصك فإن شئت فوسّعه، وإن شئت فضيقه. وأتاه وهو يبني داره التي ببغداد بقرب الدور، وإذا هم يبيضون حيطانها فقال: اعلم أنك تغطي الذهب بالفضة، فقال جعفر: ليس في كل مكان يكون الذهب أنفع من الفضة، ولكن هل ترى عيباً؟ قال نعم: مخالطتها دور السوق"⁽⁵⁾.

وفي ذلك دليل واضح على بالغ اهتمامهم بمظاهر الترف والتفنن في بناء منازلهم وقصورهم واختيار الأمكنة الوطيئة والوثيرة للبناء، والابتعاد عن دور العامة، ترفعاً وأناقاً.

(1)- هو علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو الفرج الأصفهاني، العلامة النسابة الأخباري، الحفاظة، الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراسة، كان جيد التصانيف وكان شاعراً جيداً، ولد سنة أربع وثمانين ومائتين للهجرة وتوفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة للهجرة، في خلافة المطيع لله، روى عن أبي بكر بن دريد وأبي بكر بن الأنباري والفضل بن الحباب الجمحي والأخفس ولفطويه وغيرهم، انظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4/ص:1707.

(2)- هو محمد بن صالح بن مهران ابن النطاح، مولى بني هاشم، البصري: مؤرخ، عالم بالأنساب والسير، من أهل البصرة، نزل بغداد وحدث بها، له كتاب الدولة، توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج6/ص:161.

(3)- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج19/ص:87.

(4)- ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج1/ص:430.

(5)- المصدر نفسه، ص: ج430/1.

وفي قرى فارس ومدنها كثير من القصور، ومنها الخرب الذي يذكر الشاعر بعظمته، وعظمة من عمره وسكنه، فيستهلم من ذلك العظة والعبرة، ومحمد بن يسير⁽¹⁾ واحد من شعراء العصر، يرى قصراً خرباً في بستان بالجعفرية في طرف بغداد فيقول⁽²⁾:

أَلَا يَا قَصْرُ ، قَصَرَ النَّوْشَجَانِي أَرَى بِكَ بَعْدَ أَهْلِكَ مَا شَجَانِي
فَلَوْ أَغْفَى الْبَلَاءُ دِيَارَ قَوْمٍ لِفَضْلٍ مِنْهُمْ وَلِعِظَمِ شَانِ
لَمَا كَانَتْ تُرَى بِكَ بَيْنَاتٍ تَلُوحُ عَلَيْكَ آثَارُ الزَّمَانِ

وساير عبدالله بن الحسن⁽³⁾ أبا العباس السفاح بظهر مدينة الأنبار، وهو ينظر إلى بناء قد بناه أبوه العباس ويدور به، فأنشد عبدالله⁽⁴⁾:

أَلَمْ تَرَ جَوْشَنًا لَمَّا تَبَّنَى بِنَاءً نَفَعَهُ لِبْنِي بَقِيْلَةَ
يَوْمَ لَنْ أَنْ يَعْمَرَ عُمَرَ نُوحٍ وَأَمْرُ اللَّهِ يَحْدُثُ كُلَّ لَيْلَةٍ

وبعض الشعراء يتغزل في القصور، حُباً بمن يسكنها من ذوات الخدور، يقول العباس بن الحسين في ذلك⁽⁵⁾:

صَادَتْكَ مِنْ بَعْضِ الْقُصُورِ بِيضٌ نَوَاعِمُ فِي الْخُدُورِ
حُورٌ تَحُورُ إِلَى صَبَا كَبَاعَيْنِ مِنْهُنَّ حُورِ
وَكَاثَمًا بِنُغُورِهِنَّ جَنَى الرِّضَابِ مِنَ الْخُمُورِ
يَصْنَبُغْنَ تَفَّاحَ الْخُدُودِ بِمَاءِ رُمَّانِ الصُّدُورِ

وتصف لنا الشاعرة الحبناء بنت نصيب⁽⁶⁾ مجلساً للمهدي وقد أبهرها ما رأت فيه من نعيم، وتفنن في بسط النمارق والفرش والخيام، وما كسا الله به أرض ذلك المجلس من بساطٍ أخضر تخلله الروائح العطرة والأزهار الفواحة، ويقول الأصفهاني في هذا السياق:

(1) - هو محمد بن يسير البصري، أبو جعفر، شاعر، من أهل البصرة، كان مولى لبني أسد، كان في عصر أبي نواس، وعمر بعده حيناً، توفي سنة عشر ومائتين للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج7/ص:144.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج14/ص: 25 .

(3) - هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو محمد: تابعي من أهل المدينة، ولد سنة سبعين للهجرة، كان ذا هيبة ولسان وشرف، وكانت له منزلة عند عمر بن عبد العزيز، توفي سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج4/ص: 78 .

(4) - إبراهيم الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، ج1/ص: 122.

(5) - هو العباس بن الحسين بن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كان الرشيد والمأمون يقربانه غاية التقريب لنسبه وأدبه، له أدب رفيع وشعر حسن، انظر المصدر نفسه، ج1/ص: 132.

(6) - أبوها نصيب الأصغر مولى المهدي، وكان شاعراً مجيداً، أعتقه المهدي أو ابنه موسى الهادي، وله فيهما مدائح وفي بني العباس وكذلك ابنته الحبناء، انظر بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، الطبعة الأولى، 1352 هـ/1934 م، ج1/ص: 229.

"خرج المهدي يتنزه بعيسى باذ، وقدم النصيب - يعني بذلك نصيب الشاعر- ومعه ابنته حَبْنَاء، فدخل على المهدي وهي معه فأنشدته قولها فيها(1):

رُبَّ عَيْشٍ وَلِذَّةٍ وَنَعِيمٍ وبهاءٍ بِمَشْرِقِ الْمَيْمِـــــــدانِ
بَسَطَ اللَّهُ فِيهِ أَبْهَى بَسَاطٍ مِنْ بَهَارِ وَزَاهِرِ الْخَوْذَانِ
ثُمَّ مِنْ نَاضِرٍ مِنَ الْعُشْبِ الْأَخْـ ضَرٍ يَزْهُو شَقَائِقَ النُّعْمَانِ
مَدَّهُ اللَّهُ بِالتَّحَاسِيـــــــبِ حَتَّى قَصُرَتْ دُونَ طَوْلِهِ الْعَيْنَانِ
حُفَّتْ حَافَتَاهُ حَيْثُ تَتَاهَى بِخَيْبَامٍ فِي الْعَيْنِ كَالظُّلْمَانِ
زَيْنُوا وَسَطَهَا بِطَارِمْةٍ مَثْـ لِ الثَّرِيَّا يُحْفُهَا النُّسْرَانِ
ثُمَّ حَشَوْ الخِيَامَ بِيضٌ كَأَمْثَا لِ الْمَهَا فِي صَرَائِمِ الْكُتُبَانِ
يَتَجَاوِبُنِ فِي غِنَاءٍ شَجِيٍّ أَسْعِدَانِي يَا نَخْأَتِي حُلُوانِ
وَبِقْصُرِ السَّلَامِ مِنْ سَلْمِ اللـ هُ وَأَبْقَى خَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ
وَلِدِيهِ الْغِزْلَانُ بَلْ هُنَّ أَبْهَى عِنْدَهُ مِنْ شَوَارِدِ الْغِزْلَانِ
يَا لَهُ مَنْظَرًا وَيَوْمَ سُرورِ شَهِدْتُ لَدُنِّيهِ كُلُّ حَصَانِ

ولما بنى صالح بن المنصور(2) قصره بدجلة قال فيه سلم الخاسر(3):

يَا صَالِحَ الْجُودِ الَّذِي مَجْدُهُ أَفْسَدَ مَجْدَ النَّاسِ بِالْجُودِ
بَنَيْتَ قَصْرًا مُشْرِفًا عَالِيًا بِطَائِرِي سَاعِدٍ وَمَسْعُودِ
كَأَنَّمَا يَرْفَعُ بُنْيَانَهُ جِنُّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدِ
لَا زِلْتَ مُسْرُورًا بِهِ سَالِمًا عَلَى اخْتِلَافِ الْبَيْضِ وَالسُّودِ

ينعت الشاعر ممدوحه بالجود الذي جاوز جود الناس، فأفسد جودهم، وتعدى مجده أمجادهم، ثم يصف قصره بالجودة، فهو معجب بإتقان بنائه، وسرعة إنجازه، ذلك القصر المشرف العالي، الذي أنجز في وقت وجيز، ونراه يلمح إلى سلطة النبي سليمان عليه السلام على الجن التي أكدها القرآن الكريم، وفي ذلك كله دلالة على حضارة القوم وتمدنيهم.

لقد انعكست مظاهر الحضارة الجديدة في شعر أبي نواس، وتجلت في صدق فني وعمق وجداني، وما يهمننا في هذا المقام أشعاره التي لها علاقة بالقصور أو بالأحرى التي

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج23/ص: 27.

(2) - هو صالح بن منصور الحميري، من عرب اليمن، المعروف بالعبد الصالح، وهو أحد الأعيان القادمين على المغرب من اليمن في الفتح الأول، ونزل في مرسى قرب نكور في شمالي المغرب، انظر الزركلي، الأعلام، ج3/ص: 91.

(3) - هو سلم الخاسر بن عمرو بن حماد، من فحول الشعراء، كان تلميذ بشار بن برد وأبي العتاهية، سمي الخاسر، لأنه باع مصحفا واشترى بثمنه طنبوراً، وهو شاعر ماجن، خليع، عكف على المخازي وتوفي سنة ست وثمانين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج8/ص: 193، والزركلي، الأعلام، ج3/ص: 110.

صورت جانباً من جوانب الحياة فيها، وقد تمثلت فيها أيضاً حياته الخمرية التي تنشقت عبق الرياض والقصور والقيان، فهاهو يصف مجلساً في أحد قصور عيسى بن أبي جعفر المنصور⁽¹⁾ في بلدة يقال لها القفص⁽²⁾:

يا طيبينا بقصور القفص، مُشْرِفَةً
لَمَّا أَخَذْنَا بِهَا الصَّهْبَاءَ صَافِيَةً
جاءتكَ من بيتِ خَمَارِ بَطِينَتِهَا
فَقَامَ كَالْغُصَنِ قَدْ شُدَّتْ مَنَاطِقُهُ
فَاسْتَلَّهَا مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ ، فَانْبَعَثَتْ
فِي مَجْلَسِ حَوْلِهِ الْأَشْجَارُ مَحْدِقَةٌ
لَا نَسْتَخَفُّ بِسَاقِينَا لِعِزَّتِهِ،
فِيهَا الدَّسَاكِرُ وَالْأَنْهَارُ تَطْرُدُ
كَأَنَّهَا النَّارُ وَسَطَ الْكَأْسِ تَنْقُدُ
صَفْرَاءَ مِثْلِ شُعَاعِ الشَّمْسِ تَرْتَعُدُ
ظَبْيِي يَكَادُ مِنَ التَّهْيِيفِ يَنْعَقِدُ
مِثْلَ اللِّسَانِ جَرَى وَاسْتَمْسَكَ الْجَسَدُ
وَفِي جَوَانِبِهِ الْأَطْيَارُ تَعْتَرِدُ
وَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِ حَكْمُهُ أَحَدُ

ولا شك أن صورة المجلس هنا تختلف تماماً عن صورة المجلس في القصائد الجاهلية التي تغلب عليها البساطة والألفاظ السهلة واللغة العامة، فنحن بإزاء مجلس شراب في قصر زاه من قصور القفص، حيث يشرف على جملة من بيوت الأعاجم والأنهار الجارية.

وقد استرسل الشاعر في وصف ساقى الخمر الذي قدمه بصورة الظبي الجميل، مشيراً إلى ظاهرة انتشار الغلمان في القصور العباسية، فكان التشبيب بهم شائعاً وإن كان وصف الغلمان شذوذاً معاباً غير أنه حالة إنسانية لم يتفرد بها النواصي وحده، بل برع فيها غيره من الشعراء لكنه يبقى أبرزهم.

ويعد أبو نواس من أوائل الشعراء الذين سخرُوا من الأطلال والآثار التي كان الشاعر القديم يفتتح بها قصائده، مفتتحاً إياها بوصف الخمر ومجالس اللهو والعبث والشراب، وبدأت نزعة الشعبوية والشعوبية تظهر واضحة في أشعاره، إلى جانب آخرين أمثال بشار وغيره.

وفي هذا السياق يقول أبو نواس ساخرأً من وصف الديار والآثار، ناعثاً ما وقعت عيناه عليه من الرياض والأزهار والقصور المنيفة⁽³⁾:

مَالِي بِدَارِ خَلْتِ مِنْ أَهْلِهَا شَغْلُ
وَلَا رُسُومٌ ، وَلَا أَبْكِي لِمَنْزَلَةٍ
وَلَا قَطَعْتُ عَلَى حَرْفٍ مَذْكُورَةٍ
بَيِّدَاءَ مُقْفِرَةً يَوْمًا ، فَأَنْعَتْهَا
وَلَا شَجَانِي لَهَا شَخْصٌ وَلَا طَلَّلُ
لِلْأَهْلِ عَنْهَا ، وَلِلْجِيرَانِ مُنْقَلُ
فِي مِرْفَقَيْهَا ، إِذَا اسْتَعْرَضْتَهَا ، قَتَلُ
وَلَا سَرَى بِي ، فَأَحْكِيهِ بِهَيَا ، جَمَلُ

(1) - هو عيسى بن أبي جعفر المنصور، أمير المؤمنين ببغداد، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة، انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج 11/ص: 153.

(2) - ديوان أبي نواس، ج 3/ص: 112.

(3) - المصدر نفسه، ج 3/ص: 262.

ولا شتوتُ بها عاماً، فأدركني
ولا شددتُ بها من خيمةٍ طنباً،
لا الحزنُ مني برأي العينِ أعرفه
لا أنعتُ الروضَ إلا كنتُ مختبراً
فهاك من صفتي إن كنتُ مختبراً
نخلٌ، إذا جُلبت إبان زينتِها،
فيها المصيفُ ، فلي عن ذاك مُرتحلُ
جاري بها الضبُّ والحرباءُ والورلُ
وليس يعرفني سهلٌ ولا جبلُ
قصرأً مُنيفاً ، عليه النخلُ مُشتملُ
ومُخبراً نقرأ عني إذا سألوا
لأحت بأغناقِها أعذاقُها النخلُ

إلى أن يصل إلى قوله (1):

خلالها شجرٌ في فيئه نقدُ
إن جنت زائرها عناك طائرُها
من بلبلٍ غرد ناداك من عُصن
هذا فصفه، وقل في وصفه سدداً
لا يرهب الذئب فيها الكُشبُ والحمل
والحمْلبرجع الحنة في صوتها هدلُ
بيكي للبلبة أودى بها خبلُ
مدت لواصلفه في عمره الطولُ

وهذا شاعر آخر يتشوق إلى وطنه العراق، ويهزه الحنين إلى بغداد أرض القصور
والفخمة، والرياض النضرة، والشواطئ الهادئة، مرتع الصبا، ومجمع العشيرة والأهل
والخلان الناصحين، فيقول (2):

ألا هل إلى ورد العراق سبيلُ
تقطعت الأسباب إلا تحية
وقل غناء عن أخي الشوق والهوى
على أن فيها متعة وتعلية
تبدلت من بغداد شيراز منزلاً
على سعفات من بلاد شوامخ
بأرض دماث بين قصر وجنة
إذا ما رآها ناظر حار طرفه
بها زهرة الدنيا ولدين زهرة
إخوان صدق من ربيعة في الذرى
بحيث الأخلاء الجميع حُلولُ
على النأي يهديها إليك رسولُ
صحايف لا يشفى بهن غليلُ
يراح لها ذو لوعة وخليلُ
بلاد وُغور ما بهن سهولُ
وأهل على شطّ الفرات نزولُ
تفجر فيها أعين وسؤلُ
فرد إليه الطرف وهو كليلُ
ومكتسب للطلالين جميلُ
شباب كرام سادة وكهولُ

(1)- أبو نواس، المصدر السابق، ج/3/ص: 264.

(2)- أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، شركة أمل، القاهرة، دون طبعة، 1425هـ، ج/1/ص:

ويصف أبو شاعر⁽¹⁾ مجلساً جلسه عند قوم على حافة نهر في قصر تحفة الرياض والبساتين، فيقول⁽²⁾:

| | |
|------------------------------------|---------------------|
| أَلَا يَأْتِي مَجْلِسَ الشَّرْبِ | على نهر أبي بكره |
| أَدَى الْقَصْرِ وَعِنْدَ الرَّوِّ | ض في العنطة والنضرة |
| وَعِنْدَ الْوَاحِدِ الْمَاجِدِ | د من خير بني زهره |
| كُورِيمُ الْجَدِّ وَارِي الزَّنْدِ | د مخص طيب العشره |
| ظَلَّلْنَا عِنْدَهُ فِي عَيْدِ | ش صندق ناضر الزهره |
| لِدِينَا الرِّاحِ وَالرِّيحَا | ن في زق وفي ذكوره |
| وَعَوَّادٌ وَطَبَّالٌ | تخير ناه عن خبره |
| وَأَلْوَانٌ مَمْلَأَةٌ لَسُدِّ | ت أحصياها من الكثره |
| وَضَبِيٌّ ذُو دَلَالٍ غَمِّ | نج في طرفه فتوره |
| لَهُ مِنْ عَنَبِ الرَّيْحَانِ | على جبهته طوره |

وتبقى القصور بقيمتها الحضارية، ومنعتها وأسوارها، تحدياً لأهل الود والإلف، تحول دون لقائهم، وتبادل نظراتهم، فتتحول تلك الصبابة إلى أبيات نفيسة تجسد معاناة الشاعر وولعه، فهذا أبو دلالة يفتن بجارية، تطلعت عليه من أحد القصور، فيقول فيها⁽³⁾:

| | |
|-----------------------------------------------|-----------------------------|
| بَيْنَا الْفَتَى يَتَمَشَّى نَحْوَ مَسْجِدِهِ | مبادراً لصلاة الصبح بالسدف |
| حَانَتْ لَهُ نُظْرَةٌ مِنْهَا فَأَبْصَرَهَا | مطلّة بين سجعها من العرف |
| فَخَرَّ فِي التُّرْبِ مَا يَدْرِي غَدَاتْنِي | أخر منكشفاً أم غير منكشف |
| فَجَاءَهُ الْقَوْمُ أَفْوَاجاً بِمَائِهِمْ | لينضحوا الرجل المعشي بالنطف |

| | |
|------------------------------------------------------|-------------------------------|
| قَالُوا لَكَ الْخَيْرُ مَا أَبْصَرْتَ؟ قُلْتُ لَهُمْ | جنية أقصدتني من بني خلف |
| أَبْصَرْتُ جَارِيَةً مَحْجُوبَةً لَهُمْ | تطلعت من أعالي القصر ذي الشرف |
| فَقُلْتُ: مَنْ أَيْكُمْ وَاللَّهِ يَأْجُرُهُ | يعير فوته مني إلى ضعفي |
| فَقَامَ شَيْخٌ بِهِيٌّ مِنْ تَجَارِهِمْ | قد طالما خدع الأقوام بالخلف |
| فَابْتَأَعَهَا لِي بِأَلْفِي دِرْهِمٍ فَعَدَا | بها إلي فألقاها على كتفي |

(1) - هو أبو شاعر عبد الله بن عبد الحميد، أخو أبان، من فتيان البصرة وظرائفهم، عمر طويل، وكان موسراً لا يعرف إلا الشرب والسماع، انظر أبو بكر الصولي، المصدر السابق، ج1/ص: 70.

(2) - المصدر نفسه، ج1/ص: 66، 67.

(3) - انظر ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1404هـ، ج1/ص: 223.

وتقول عليّة بنت المهدي⁽¹⁾ في السياق ذاته⁽²⁾:

ما زلتُ مَدَّ دَخَلْتُ القَصْرَ في كُرْبٍ أهْذِي بذكركِ صَبَاباً لستُ أنْسَاكِ
لا تحسبيني وإنْ حُجَّابُ قَصْرِكُمْ سَدُّوا الحَجَابَ وَحَالُوا دُونَ رُؤْيَاكِ
أني تغيّرتُ عمّا كُنْتُ يَا سَكَنِي أَيَّامَ كُنْتُ إِذَا مَا شِئْتُ أَلْقَاكِ
لكنَّ حُبَّكَ أبلاني وعَدَّبني وأنتِ في راحةٍ طُوبَاكِ طُوبَاكِ

وقد كان من عادة تلك الشاعرة، أن تخاطب محبوبها ببناء المخاطبة لا المخاطب، لئلا تتهم، وهي الأميرة، فتخدش عفتها، وقد ذكر أنه كان لها خادم اسمه رشأ، ويبدو أنه نال حظوتها، فأعجبت به، فكانت تكتيه في أشعارها "بزينب"⁽³⁾ وتكنى خادماً آخر لها اسمه "طل" بظل فتقول⁽⁴⁾:

ظِلٌّ ولكني حرمتُ نعيمه وهواه إن لم يغتني الله

تقصد " بظل " خادمها ظلّ.

وهكذا فعلت في غزلها في أبياتها السابقة، جعلت حبّها - ولعله أحد الخادمين - امرأة فخاطبته بخطاب الأنثى.

ويتضح مما سبق أن الحضارة العباسية أثرت على أغراض الشعر ومقاصده، وأخيلته ومعانيه، فانعكس عصر الترف و الغنى والثروة، عصر القصور والملذات على مرآة الشعراء الذين تحولوا عن الوقوف على الأطلال ووصف الصحاري المجذبة و الجبال والوهاد إلى وصف القصور الشاهقة والمناظر الحضريّة الخلابيّة. ولقد شكّلت تلك القطع الشعريّة البديعة فناً حضارياً جديداً، يسعى الشاعر من خلاله إلى بث الحنين إلى وطنه وقصوره ومقتنياته، وكثيراً ما كان يمزج نشوته تلك بنشوة الحب، أو الخمر وسماع القيان، فكان يحسن تصوير فنتته بها وبقصورها وورودها ورياحينها.

(1) - هي عليّة بنت المهدي العباسية، أخت أمير المؤمنين هارون الرشيد؛ كانت من أحسن خلق الله وجهاً، وأظرف النساء وأعقلهن، ذات صيانة وأدب بارع، تزوجها موسى بن عيسى العباسي، وكان الرشيد يبالي في إكرامها واحترامها، ولها ديوان شعر، عاشت خمسين سنة، توفيت سنة عشر ومائتين للهجرة، انظر محمد بن شاعر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاعر بن هارون بن شاعر الملقب بصلاح الدين، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1974م، ج3/ص: 123.

(2) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج3/ص: 68.

(3) - المصدر نفسه، ج3/ص: 62.

(4) - المصدر نفسه، ج3/ص: 57.

المبحث الثاني: البرك والأنهار

كان من الطبيعي أن تلقى البرك والأنهار جزءاً فسيحاً من الاهتمام الحضاري الذي صنعه الحاكم والمحكوم في الدولة العباسية، تلك الدولة الحضارية الحقة، خاصة وأن عاصمتها بغداد تمثل بيئة ساحرة خلابة تحفها الخضرة وتخرق أراضيها الأنهار، وتتفجر قيعانها بالعيون والينابيع.

ومعلوم ما حبا الله به تلك المدينة من جمال الطبيعة، وتعدد الأنهار وخصب الأرض، وصلاح التربة، فلا غرابة بعد هذا أن تُصنع الترع وتُحفر القنوات وتبنى القناطر وتقام الجسور، وأن يتفنن البنائون والمهندسون في شق البرك وتسويرها وتزيينها والاهتمام بها حتى أصبحت تلك البرك علماً لبعض الأمكنة، لا تعرف إلا بها، ناهيك عن البرك التي لا يخلو منها قصر من القصور، ولعل بركة المتوكل⁽¹⁾ وهائية البحر⁽²⁾ خير شاهد على ذلك.

ولقد سميت البركة بركة لإقامة الماء فيها، والماء مصدر الحياة وجمالها، ومن هنا اتخذت زينة تُزيّن بها القصور والحدائق. وقد ذكرت آنفاً أن بعض الأمكنة سميت بالبركة لنفاستها وشبهها بالبركة في جمالها كبركة الحبش التي ذكرها ياقوت في معجمه، فذكر أنها أرض واسعة تشرف على نيل مصر، تزرع فتكون نزهة خضرة لزكاء أرضها وريّها، وهي من أجمل منتزهات مصر، وليست ببركة ماء كما يتبادر من التسمية⁽³⁾، وفي ذلك المكان الجميل يقول الشاعر علي بن محمد بن حبيب الكاتب⁽⁴⁾:

أَقَمْتُ بِالْبِرْكَةِ الْعَرَاءِ مُرْهَفَةً وَالْمَاءُ مُجْتَمِعٌ فِيهَا وَمَسْفُوحٌ
إِذَا النَسِيمُ جَرَى فِي مَائِهَا اضْطَرَبَتْ كَأَنَّمَا رِيحُهُ فِي جِسْمِهَا رُوحٌ

(1) - هو المتوكل على الله، جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد، ولد سنة خمس، وقيل سبع ومائتين للهجرة، وبويع له في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، كانت أمه أم ولد، اسمها شجاع، وكان شجاعاً، جواداً، ممدحاً، توفي سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة، انظر جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م، ص: 252، والزركلي، الأعلام، ج2/ص: 127.

(2) - هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحر، شاعر كبير، ولد بمنبج سنة ست ومائتين للهجرة، واتصل بجماعة من الخلفاء أولهم المتوكل العباسي، توفي سنة أربع وثمانين ومائتين للهجرة، انظر المصدر نفسه، ج8/ص: 121.

(3) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ص: 401.

(4) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

ومن البرك العباسية التي ذكرها ياقوت: بركة أم جعفر: زبيدة بنت جعفر بن المنصور، وتقع هذه البركة في طريق مكة بين المغيثة والعذيب⁽¹⁾ وبركة الخيزران⁽²⁾ وهو موضع قرب الرملة من أرض فلسطين، وبركة زَلْزَل، وتقع في بغداد بين الكَرْخ والسَّراة، سميت باسم رجل مغن محسن في الضرب على العود، وكان في أيام المهدي والرشيد، وكان في موضع البركة قرية يقال لها سال بقاء إلى قصر الوضّاح، فحفر زلزل هناك بركة ووقفها على المسلمين فنسبت المحلة كلها إليه، فقال نِفْطُويّه النحوي في ذلك⁽³⁾:

لَوْ أَنَّ زُهَيْرًا وَأَمْرًا الْقَيْسِ أَبْصُرَا مَلَاخَةً مَا تَحْوِيهِ بَرْكَةُ زَلْزَلِ
لَمَا وَصَفَا سَلْمَى وَلَا أُمَّ جُنْدُب وَلَا أَكْثَرَ ذِكْرِ الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ

وتزداد البركة جمالاً ورونقاً عندما تلقي الشمس أشعتها عليها، وفي ذلك بقول أحد الشعراء⁽⁴⁾:

أَمَا تَرَى الْبَرْكَةَ الْغَرَاءَ قَدْ كُسِيَتْ نُورًا مِّنَ الشَّمْسِ فِي حَافَتِهَا طَلْعَا
وَالنَّهْرُ مِنْ فَوْقِهِ يُلْهِيكُ مَنْظَرُهُ شُهْبُ سَمَاوِيَّةٍ فَارْتَجَّ وَالتَّمَعَا
كَأَنَّهُ السَّيْفُ مَصْقُولًا يَقْلُبُهُ كَفُّ الْكَمِيِّ إِلَى ضَرْبِ الْكُمَاةِ سَعَى

وعادة ما تكثر في الأديرة المناظر الطبيعية الجميلة، كالحدائق والبرك وغيرها، فتكون قبلة لبعض الخلاء من الشعراء للهو والعبث، والتغزل بمرتابيها، يقول عمرو الوراق⁽⁵⁾ يصف مناظر وافقت طبعه في دِير مَرْيُحْنَا⁽⁶⁾:

(1) - ياقوت الحموي، المصدر السابق والصفحة نفسها.
(2) - الخيزران، زوجة المهدي العباسي، وأمّ ابنه الهادي وهارون الرشيد: ملكة حازمة متفهمة، يمانية الأصل، أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي، وكانت من جوارى المهدي، وأعتقها وتزوجها، توفيت سنة ثلاث وسبعين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج2/ص: 328.
(3) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ص: 402.
(4) - الأبيشي، المستطرف في كل فن مستطرف، ج1/ص: 441.
(5) - هو عمرو بن المبارك بن عبد الملك العنزي، بالولاء، الوراق، شاعر ماجن خليع، أصله من البصرة، له أخبار مع أبي نواس، اشتهر في أيام الرشيد، ونظم شعرا كثيرا في حرب الأمين والمأمون، انظر الأعلام، الزركلي، ج5/ص: 85.
(6) - دِير مَرْيُحْنَا: إلى جانب تكريت على دجلة، وهو كبير، عامر، كثير القلايات والرهبان، مطروق، مقصود، وينزل به المجتازون ولهم فيه ضيافة، وله غلات ومزارع، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2/ص: 537.

أرى قلبي قد حنَّنا
إلى غيظانِه الفُسْح
إلى ظُبي من الأُنسِ
إلى عُصْنِ من الآسِ
إلى أحسنِ خُلُقِ الله
فَلَمَّا أَنْبَلَجَ الصُّبْحُ
ولمَّا دارتِ الكَاسُ
إلى ديارِ مَرِيحَنا
إلى بَرَكَتِه العَنَّا
يصيدُ الإنسَ والجَنَّا
بِه قلوبِ قَد حَنَّا
إن قَد دَسَّ أو عَنَّا
نزلنا بَيْننا دَنَّا
أدرنا بَيْننا لَحَنَّا

ويقول محمد بن عاصم⁽¹⁾ في ألق بركة الحبش بمصر التي تلتف حولها البساتين والمتنزهات عندما يزداد حُسْنها بارتفاع مستوى النيل⁽²⁾:

عَرَجَ بُجْمِيْزَةَ العَرَجَا مطيَّاتي
المُم بقصر ابنِ بسْطام فرُبَّتْما
وبركة الحبش اللاتي ببهجتها
كأنَّ أجبالها من حولها سُحْبُ
كأنَّ أذنا ب ما قد صيد فيه لنا
أسِنَّة خُضِبَتْ أطرافها بدم
منازلاً كنت أغشيتها وأطرفها
وسَفْح حُلُوانِ والمُم بالتويَّاتِ
سعدتُ فيه بأيَّامي وليلاتي
أدركتُ ما شئتُ من لهوى ولداتي
تَقَشَّعتْ بَعْدَ قَطْرٍ عَن سَمَواتِ
من أبرميس ورأى بالشُّبَيْكاتِ
أو راشح نزَعُوه مِن جَراحاتِ
وكُنَّ قَدماً مواخيري وحاتي

أما الأنهار فقد كثرت بصورة لافتة، وتفنن المهندسون في شق الترع المنبثقة منها، وأقيمت عليها القناطر والجسور، بل وأقيمت الدكاكين والأسواق على جوانب بعضها، حتى غدت علماً على بعض الأمكنة. والتقت القرى والدور والرياض حول معظمها، كنهْر القلَّيين، وسمي بذلك لتجمع باعة السمك وقيامهم بقلبه هناك، وهي محلة كبيرة ببغداد في شرقي الكرخ⁽³⁾.

وكنهْر عيسى بن علي بن عبدالله بن العباس⁽⁴⁾: وهي كُورَة وقرى كثيرة وعمل واسع في غربي بغداد يعرف بهذا الاسم، ويذكر ياقوت أن مأخذه من الفرات عند قنطرة دِمَمَّا ثم يمر فيسقي طَسُوجَ فَيْرُوزِ سَابُورِ حتى ينتهي إلى المحوّل ثم تتفرع منه أنهار تخترق مدينة السلام، ثم يمر باليَاسِرِيَّةِ ثم قَنَطَرَةَ الرُّومِيَّةِ وقنطرة الزَيَّاتِيْنِ وقنطرة الأَشْنانِ وقنطرة الشَّوكِ

(1) - هو محمد بن عاصم الموقفي، ويقال له ابن عاصم: من شعراء اليتيمة، مصري، في شعره رقة، وإجادة وصف، كان يكثر من وصف الأديرة ومحاسنها، انظر الأعلام، الزركلي، ج/6:ص: 181.

(2) - إبراهيم النجار، شعراء عباسيون منسيون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ج/5:ص: 26.

(3) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج/5:ص: 322.

(4) - هو عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي: من علماء العباسيين، ينسب إليه نهر عيسى ببغداد، ولد في المدينة سنة ثلاث وسبعين للهجرة، وسكن بغداد إلى أن توفي سنة أربع وستين ومائة للهجرة، وهو عم السفاح والمنصور، انظر الأعلام، الزركلي، ج/5:ص: 105.

وقنطرة الرُّمان وقنطرة المُعَيض هكذا إلى أن يصب في دجلة، وفي نهر عيسى يقول بعض شباب بغداد(1):

في نهر عيسى والهواء مُعَبَّرٌ والماء فضِّي القَمِيصِ صَقِيلٌ
والطَّيْرُ إمَّا هَاتِفٌ بِقَرِينِهِ أو نَادِبٌ يَشْكُو الفِرَاقِ تَكْوِلٌ
وعرائس السَّرِّ التَّحْفَنَ بِسُنْدُسٍ ورقصنَ فارتفعت لهن دُيُولُ
والغصن مهزوزُ القَوَامِ كأنها دَارَتْ عليه من الشَّمَالِ شَمُولُ
والدهرُ كالليل البَهِيمِ وأنتمُ غُررٌ تُنِيرُ ظِلَامَهُ وَحُجُولُ
نَبَّةُ بَنِي اللَّذَاتِ وَاهْتَفَ فِيهِمْ بِنَيْفُظٍ: إن المَقَامَ قَلِيلُ

لقد صور الشاعر، ذلك النهر تصويراً بديعاً، فماؤه كالفضة الصافية في لمعانها، ورائحة الهواء تنبعث منه زكية كأنها العنبر، وقد تعددت أصوات الطير التي تجمعت حوله، فمنها من يغرد تغاريد الفرح فينادي أحبابه، ومنها من هو مكلوم، قد غير الفراق بهاء صوته.

إن الأنهار الكثيرة الوفيرة المياه، وما ينشعب عنها من برك وخلجان وغدران، وما ينبت على شواطئها من حدائق ورياض، وما يصاحبها من ظواهر طبيعية كمد وجزر وفجر ونهار وليل وشمس وأصيل من مظاهر الطبيعة الخلابة في الحضارة العباسية؛ جعل الأمراء والمترفين يتخذون من ضفافها مراتع للمتعة واللهو ومن صفحاتها ساحات تمرح عليها زوارقهم وأشرعتهم وهم في هذه وتلك يعزفون أعذب الألحان ويتغنون بأعذب الشعر وأرقه.

وليس يخفى على أحد أن في إجراء تلك الأنهار وشق الترع، وإقامة القناطر والجسور، من الكلفة والفكر، ما لا يقل عما ينفق في عمارة الدور والقصور والمساجد وسائر الأبنية التي تتحصن بها الدولة، وتظهر بها معالم حضارتها، ومن تلك الأنهار على سبيل المثال لا الحصر نهر أبي الأسد - كنية رجل - وهو أحد شعاب دجلة في طريق البصرة، ويصب في دجلة العظمى، وأبو الأسد هذا قائد من قواد المنصور، ونهر أبي الخصيب، كان مولى للمنصور، أقطعه هذا النهر بالبصرة، ومنها نهر أبي فطرس، وهو موضع قريب من الرملة في فلسطين، وبه وقعت قتلة بني أمية المشهورة على يد علي بن عبد الله بن العباس سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة، وفي تلك الحادثة يقول إبراهيم مولى قائد العبلي(2) يرثي أولئك القتلى(3):

(1) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5/ص: 322.
(2) - هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن علي ابن عدي من بني عبد شمس بن مناف، أبو عدي، الأموي القرشي: شاعر، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، من أهل المدينة، كان في أيام بني أمية ينضمهم ويميل إلى بني هاشم، انظر الزركلي، الأعلام، ج4/ص: 109.
(3) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5/ص: 438.

أَفَاضَ الْمَدَامِعَ قَتْلَى كُودَا وَقَتَّلَى بِكَثْوَةِ لَمْ تُرْمَسِ
وَقَتَّلَى بِوَجِّ وَبِاللَّابِّينِ بِيثْرِبِ هُمْ خَيْرُ مَا أَنْفُسِ
وَبِالزَّابِّينِ نَفُوسٌ ثَوَتْ وَأَخْرَى بِنَهْرِ أَبِي فُطْرُسِ
أَوْلَيْكَ قَوْمٌ أَنَاخَتْ بِهِمْ نَوَائِبُ مِنْ زَمَنِ مُتَعَسِّسِ

وكثيرا ما استهوت تلك الأنهار بشواطئها الجميلة، ومنتزهاتها الساحرة وأماكنها الغناء فطاحلة الشعراء لقضاء بعض أوقاتهم فيها فتحلوا لهم الحياة، ويطيب لهم السهر فتفيض قرائحهم بوصف تلك المجالس في أشعارهم، فهذا أبن اللاحقي⁽¹⁾ يصف لهوه وشربه مع رفاقه على شاطئ دجلة فيقول⁽²⁾:

رُبَّ يَوْمٍ بِشَطِّ دِجْلَةَ لَدَّ وَلَيْالٍ نَعَمْتُ فِيهَا لِذَاذِ
غَيْبَةٍ لَمْ تَطُلْ عَلَيَّ وَمَاذَا خَيْرُ قُرْبِ الْمُطَرِّ مَدِ الْمَلَاذِ
تَرَكَ الْأَشْرِبَاتِ لَيْسَ بِعَاطِ لِرَسَّاطُونِهَا وَلَا الرَّاقِيَاذِ
وَحَكَى الْأَحْمَقُ الَّذِي لَيْسَ يَدْرِي أَنَّ خَيْرَ الشَّرَابِ هَذَا اللَّذَاذِ

وحفر المهدي نهر الصلّة (بكسر الصاد) بواسطة، وأحيا ما عليه من الأراضي، وجعلت غلته لصلات أهل الحرمين ونفقتهم⁽³⁾.

وعندما أجرى الرشيد نهراً؛ ليحي به موات الأرض، ويزيد في خضرتها، قال أشجع السلمي يصف ذلك النهر⁽⁴⁾:

أَجْرَى الْإِمَامُ الرَّشِيدُ نَهْرًا عَاشَ بِأَجْرَائِهِ الْمَوَاتُ
جَادَ عَلَيْهِ بَرِيْقٍ فِيهِ وَسِرٌّ مَضْمُونِهِ الْفُرَاتُ
أَلْفَحَهُ دَرَّةٌ لُقُوحًا يَرَضُّعُ أَخْلَافَهَا النَّبَاتُ
عَلَى رِيَاضٍ لَهُ نَبَاتُ مَا وَلَدَتْهُنَّ أُمَّهَاتُ
لِلْمَاءِ مِنْ فَوْقِهَا انْتَبَاهُ وَلِلثَّرَى تَحْتِهَا سُبَابَاتُ
فِي جَانِبِيهِ وَجَانِبِيهَا أَعْنَةُ الْمَاءِ مُطْلَقَاتُ

(1) - هو أبن بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي، شاعر مكث، من أهل البصرة، نسب إلى جده، وكان أبو جده عفير من الموالي، انتقل أبن إلى بغداد، واتصل بالبرامية، فأكثر من مدحهم، وخص بالفضل بن يحيى، ونظم لهم كليلة ودمنة شعرا، توفي سنة متين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج1/ص: 27.

(2) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص : 10.

(3) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5/ص: 321.

(4) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص : 86.

ومن الواضح أنه لم يكن وصف القصور وفنها المعماري المادة الوحيدة للوصف في شعر أشجع السلمي، فقد وصف أيضا البرك والرياح التي تحفها من كل جانب، وهذا النص ذو دلالة حضارية مهمة، نستدل من خلاله على بعض معطيات البيئة العباسية، وعلى تطور غير معهود في الشعر العربي قبل هذا العصر.

والتائية السابقة تتحدث عن نهر صناعي أنشأه الرشيد في أحد قصوره، ويبدو أن الشاعر قد فتن بهذا المنظر الطبيعي فوقف على بعض مظاهر ذلك النهر، التي تجسدت بشلالات المياه المندفعة إلى أعلى بقوة السيل، ليسقي مساحات واسعة من الرياض والبساتين، وتبدو اللوحة مرسومة رسما بريشة فنان، وكأننا أمام نهر من أنهار الجنة أو روضة من رياضها.

وقال أيضاً يمدح هارون ويصف إنجازاته الحضارية، ويصف معالم منطقة تسمى الحُسَيْنِيَّة فيها نهر وثمر⁽¹⁾:

| | |
|----------------------------------------|--------------------------------------|
| ظَهَرُ الحُسَيْنِيَّةِ مُوصُوفٌ | وَنَهْرُهَا بِالرَّيْفِ مَحْفُوفٌ |
| إِنَّ الحُسَيْنِيَّةَ فِي مَرْبَعٍ | بِهِ نَسِيمُ الرَّبْعِ مَشْعُوفٌ |
| بَرِّيَّةٌ بَحْرِيَّةٌ يَلْتَقِي | فِي جَانِبَيْهَا البَدْوُ والرَّيْفُ |
| يَطِيبُ قَطْرَاهَا وَيَصْفُو لَهَا | جَوْ صَفَاهُ المَاءُ مَكْشُوفٌ |
| أَكْرَمُ عِرْقٍ مَصَّ مَاءَ الثَّرَى | عِرْقٌ عَلَى هَارُونَ مَعْطُوفٌ |
| إِرْثُ النَّبِيِّينَ إِلَيْهِ انْتَهَى | مِنْ آدَمَ أبلَحُ مَعْرُوفٌ |

ويصف العباس بن الأحنف⁽²⁾ بعضاً من ملامح حضارة عصره، وتأنق العيش في القصور والأنهار في قصيدة له بعنوان النعيم الأكبر فيقول⁽³⁾:

| | |
|------------------------------------------------|--------------------------------------------|
| لَمَّا بَدَتْ فَرَأَيْتُهَا فِي صُفْرَةٍ | كَلَفَ الفُؤَادُ بِكُلِّ شَيْءٍ أَصْفَرٍ |
| وَتَشَرَّفَتْ مِنْ قَصْرِهَا فَلَمَحَتْهَا | فَلَأْسَأَلَنَّ عَنِ النَّعِيمِ الأَكْبَرِ |
| وَكَأَنَّ نُسُوتَهَا الكَوَاعِبُ حَوْلَهَا | زُهِرُ الكَوَاكِبِ حَوْلَ بَدْرِ أَزْهَرِ |
| فَوَقَّفْتُ ثُمَّ خَشَيْتُ نَظْرَةَ كَاشِحٍ | فَرَجَعْتُ مَفْجُوعاً بِذَلِكَ المُنْظَرِ |
| وَسَكَنْتُمْ مِنْ بَطْنِ دَجَلَةَ مُنْظَرًا | أَنْقِ المَرَابِعِ طَيِّبِ المُنْتَظَرِ |
| وَكَأَنَّ دَجَلَةَ مُدَّ حَلَالْتُمْ قُرْبَهَا | تَجْرِي لِسَاكِنِهَا بِمَاءِ الكَوْثَرِ |

(1) - أبو بكر الصولي، المصدر السابق، ج1/ص: 125.

(2) - العباس بن الأحنف بن أسود بن طلحة الحنفي اليمامي، من فحول الشعراء، وله غزل فائق، توفي ببغداد، سنة اثنتين وتسعين ومائة للهجرة، وكان من أبناء ستين سنة، انظر شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9/ص: 98.

(3) - العباس بن الأحنف، الديوان، تحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1373هـ/1954م، ص: 122.

ويقول في موضع آخر (1):

أَنْكَرَ النَّاسُ سَاطِعَ الْمِسْكِ مِنْ دِجْلَةَ قَدْ أَوْسَعَ الْمَشَارِعَ طَيِّبَا
فَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَمَا يَدُ رُونَ أَنْ قَدْ حَلَّاتٍ مِنْهُ قَرِيبَا
قَاسِمِينِي هَذَا الْبَلَاءِ، وَالْأَ فَاجْعَلِي لِي مِنَ التَّعْزِي نَصِيبَا
إِنْ بَعْضَ الْعِتَابِ يَدْعُو إِلَى الْعُتْبِ وَيُوْذِي الْمُحِبِّ حَبِيْبَا
وَإِذَا الْقُلُوبُ لَمْ تُضْمِرِ الْعَطْفَ فَلَنْ يَعْطِفَ الْعِتَابُ قُلُوبَا

يتغنى الشاعر برائحة الطيب الذي ينبعث من نهر دجلة المجاور لأحبته، معلنا أن هذه الرائحة الشذية إنما اكتسبها النهر منهم، وها هو مرة أخرى يتحفنا بشاعريته، ويتشوق إلى بغداد، موطن النعيم والحضارة، ويتمنى العودة إليها سريعاً، وهو على نهر أبي الجند فيقول (2):

لَيْتَ شِعْرِي مَتَى نَوُوبَ إِلَى بَغْدَادِ دَادَ إِنَّمَا مُسْتَنْبِطُونَ الْإِيَابَا
مَنْ يَكُنْ صَانِقاً بِنَهْرِ أَبِي الْجُنْدِ دَ يَكُنْ صَيْفُهُ أَدَى وَعَذَابَا
مَا تَعَرَّفْتُ لِلْهَوَاجِرِ مَسَّأً مَا بَقَايِي أَشَدُّ مِنْهَا التَّهَابَا
فَأَرَانِي إِذَا تَذَكَّرْتُ مَنْ خَلَّ فَتُ خَافِي لَمْ أَمْلِكِ الْإِنْتِحَابَا

هكذا يصور الشاعر الحنين إلى الوطن، ويصوغ ذلك في لحن جميل وتعبير رشيق، وكلمات تلمح من خلالها رقي اللفظ وتحضره.

كما ذكر ابن الأحنف أيضاً نهر المعلى الذي ينسب إلى المعلى بن طريف مولى المهدي، وهو من كبار قواد الرشيد، ويسمى ذلك النهر بالفردوس وهو أعظم محلة ببغداد، إذ يسير تحت الأرض حتى يدخل دار الخلافة (3)، فيقول فيه (4):

أَيُّهَا الطَّالِبُ شَمْساً لِلْوَرَى تَطْلُعُ لَيْلَا
أَنْتَ مِنْ بَغْدَادِ بَابِ الْمَدِينِ شَمَامَ أَوْ نَهْرِ الْمُعَلَّى
تَلْقُ نَمَّ الشَّمْسِ إِلَّا أَنْهَذَا تَسْحَبُ ذَيْلَا
هِيَ شَمْسٌ عَزَمَتْ أَنْ لِأَتْتِيَلِ الْخَلْقَ ذَيْلَا
طَلَعَتْ فَوْقَ كَثِيبِ فِي قَضِيْبٍ هَالٍ هَيْلَا

(1) - الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ج4/ص: 1016.

(2) - ديوان العباس بن الأحنف، ص: 34.

(3) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5/ص: 324.

(4) - ديوان العباس بن الأحنف، ص: 230.

وفي هذه الأبيات يصف الشاعر محبوبته التي فاق جمالها وضياؤها جمال الشمس، ويرى أن نهر المعلى قد شرف بمقامها فيه، وقد استطاع التعبير عن ذلك بألفاظ سهلة وبسيطة، كما أنه لم يتكلف استحضار المعاني، ولم يتصنع صياغتها، فهي مستقاة من واقعه المعيش، وإن أغرق في جعل تلك المحبوبة شمساً على سبيل التشبيه البليغ، إلا أن ذلك باب في البلاغة يطرقه جميع الشعراء على تفاوت فيه بينهم، وحسبه أنه قد استخدم القرائن المفارقة بين الشمسين: فشمسه التي عناها جعل لها ذيلاً تجره، وهي ملابسها الأنيقة كما أنه لا ينالها أي شخص، ولا يراها كل إنسان، بينما الشمس الحقيقية، يعم نفعها كافة البشر ويراهم الجميع.

ومن الأنهار التي تجلت فيها جهود القوم وعمارتهن، نهر الأبلّة (بضم الباء وفتح اللام المشددة) الذي حوى ميادين النخل والأزهار ومختلف الأشجار، وقد ذكره الثعالبي (1) فقال (2): "وأما نهر الأبلّة فهو في البصرة، وحواليه من ميادين النخل والأترج والنارنج وسائر الأشجار، ومن أصناف الزرع وأنواع الخضروات ما لا ينظر أحسن منه، وعليه من القصور المتناظرة، والأبنية الرائقة ما تحار فيه العيون، وتهش له النفوس"، وفيه يقول ابن عيينة (3):

وَيَا حَبَّاذَ نَهْرُ الْأَبْلَةِ مَنْظَرًا إِذَا مَدَّ فِي أَثْنَائِهِ الْمَاءُ أَوْ جَزَرَ

وعندما سرح الأمين (4) بعض سفنه، التي صنعت على أشكال بعض الحيوانات في نهر دجلة، وازدانت بها شطآنه، قال أبو نواس (5):

قَدْ رَكِبَ الدُّلْفَيْنِ بَدْرُ الدُّجَى مَقْتَحِمًا فِي الْمَاءِ قَدْ لَجَّجَا
فَأَشْرَقَتْ دِجْلَةٌ فِي حُسْنِهِ وَأَشْرَقَ الشَّطَّانُ وَأَسْتَبْهَجَا
لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُ مِرْكَبًا أَحْسَنَ مِنْ سَارٍ وَإِنْ عَرَّجَا
إِذَا اسْتَحْتَتْهُ مَجَادِفُهُ أَعْنَقَ فَوْقَ الْمَاءِ أَوْ هَمَلَّجَا
خَصَّ بِهِ اللَّهُ الْأَمِينَ الَّذِي أَضْحَى بِتَاجِ الْمُلْكِ قَدْ تَوَّجَا

(1) - هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي: من أئمة اللغة والأدب، من أهل نيسابور، كان فراء يخطط جلود الثعالب، فنسب إلى صناعته، واشتغل بالأدب والتاريخ، فنبغ وصنّف الكتب الكثيرة الممتعة، من كتبه يتيمة الدهر، الإعجاز والإيجاز، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، انظر الزركلي، الأعلام، ج4/ص: 163.

(2) - أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة، دون طبعة وتاريخ، ج1/ص: 526.

(3) - المصدر نفسه، ص: 526.

(4) - هو محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، خليفة عباسي، ولد في رصافة بغداد سنة سبعين ومائة للهجرة، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه، وكان أبيض، طويلًا، سمينا، جميل الصورة، شجاعا أديبا، رقيق الشعر، مكثرا من إنفاق الأموال، سيئ التدبير، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة الندماء، قتل سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج7/ص: 127.

(5) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5/ص: 324.

يصور أبو نواس جمال المركب الذي اصطلح على تسميته الدافين، فهو حسن إن سار وإن عرج، وإذا تحركت مجاديفه أسرع مرة فوق الماء، ومرة يهملج: أي يسير بطيئاً، وقد اختار الشاعر لأبياته أكثر الألفاظ سهولة وتأنقاً، والتي تحمل في كنهها بعداً حضارياً عميقاً لتناسب الإتقان في صنع تلك الفلك، كما تبدو لنا معالم الترف والأبهة في وصفه للأمين واضحة جلية، لا سيما عندما يمتطي البحر ويتفوح فيه على متنها، وفي ذلك كله ما يؤكد حصول التنعم والتحضر، في الصنع والفسحة، وهو مازاد من اشتعال قرائح الشعراء ورغبتهم في توليد معان تعكس ما رأته أعينهم من منجزات حضارية أبدعها العرب في عصر نهضتهم ورقيتهم.

ويذكر الأصفهاني أن الرشيد غضب على أم جعفر، ثم ترضاه فأبت أن ترضى عنه، فأرق ليلته ثم قال: افرشوا لي على دجلة، ففعلوا، فقعد ينظر إلى الماء وقد زاد زيادة عجيبة فسمع مغن يغني (1):

| | |
|-------------------------------------------------------|------------------------------------------------|
| جَرَى السَّيْلُ فَاسْتَبْكَا نِي السَّيْلُ إِذْ جَرَى | فَاضَتْ لَهُ مِنْ مَقْلَتِي سُرُوبُ |
| وَمَا ذَاكَ إِلَّا حِينَ خُبِرْتُ أَنَّهُ | يَمُرُّ بَوَادٍ أَنْتِ مِنْهُ قَرِيبُ |
| يَكُونُ أَجَا جَاءُ دُونَكُمْ فِإِذَا أَنْتَهَى | إِلَيْكُمْ تَلَقَّى طَيْبَكُمْ فِطْيَابُ |
| فِيَا سَاكِنِي شَرْقِي دَجْلَةَ كُلُّكُمْ | إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ حَبِيبُ |

وقد تسبب سماع ذلك الصوت في رضا الرشيد، ودخوله إلى أم جعفر التي استبشرت، ودفعت إلى قائل الأبيات ألف دينار، وإلى مغنيها ألف أخرى (2).

ويصور لنا بشار دجلة عند الضحى، عندما تموج أمواجه وتتلاطم فيقول (3):

| | |
|--------------------------------------|-------------------------------------|
| وَمَسْبُوحٌ لِلْسَّامِ تَعْضُدُهُ | يَهْمَاءُ مَا فِي أَدِيمِهَا أَثْرُ |
| كَأَنَّهَا بِالضُّحَى إِذَا مَرَجَتْ | يَمُّ تَدَاعَى تَيَّارُهُ الْأَثْرُ |

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 224.

(2) - المصدر نفسه، ج18/ص: 225.

(3) - ديوان بشار بن برد، ج4/ص: 79.

أما الشاعر العباسي ابن كُنَاسة⁽¹⁾ فقد خرج مرة يتجول في أطراف الحيرة، بين رياضها البهية، وأنهارها المليحة فلم يزل ينظر إلى البر، وإلى تلك الرياض، حتى إذا أعجبه ما رأى أنشد يقول⁽²⁾:

| | |
|----------------------------------|---------------------------------------|
| الآن حين تزيّن الظهْرُ | مَيِّتًا وُوه وبُراقُهُ العُفْرُ |
| بَسَطَ الربيعُ بها الرياض كما | بُسِطَتْ فُطُوعُ اليَمَنَةِ الحُمْرُ |
| بَرِيَّةٌ فِي البَحْرِ نَابِتَةٌ | يُجْبِنِي إِلَيْهَا البِرُّ والبَحْرُ |
| جَرَى الفُراتُ على مياسرِها | وَجَرَى على أيمانِها الزَّهْرُ |
| وبدا الخورنقُ في مطالعِها | فَرَدًّا يُلُوحُ كَأَنَّهُ الفَجْرُ |
| كانت منازلُ للملوك ولم | يُعْلَمُ بها للملوك قَبْرُ |

وفي نهر بيل (بكسر الباء) قال آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز⁽³⁾:

| | |
|---------------------------|--------------------------------------|
| هَـاكَ فاشـرَبَها خـليـلي | فـي مـدى اللـيل الطـويلِ |
| فَهـوَةٌ مـن أصـل كـرمِ | سُـبِنَتْ مـن نـهر بـيلِ |
| فـي لسانِ المـرءِ مـنـها | مِثـل طـعمِ الزُّنـجـبـيلِ |
| قـل لـمـن يـنـهـاك عـنـها | مـن وَضـيـع أو نـبـيلِ |
| أنت دَعَها وارِج أُخـرى | مـن رحيقِ السلسـبـيلِ ⁽⁴⁾ |

إن من مظاهر بذخ الطبيعة في العصر العباسي الأول، تلك الأنهار الكثيرة الوفيرة الماء، السلسلة التدفق، تحيي موات الأرض مشرقا ومغربا وشمالا وجنوبا، ترفد الأرض بالخصب والعطاء، وتمدّ الرياض بالسحر والنماء، وكانت أكبر المدن وأهمها تقع على تلك الأنهار، الأمر الذي جعل العباسيين يتخذون من ضفافها مراتع لهُو واستمتاع، ومن صفحاتها ساحات أمينة، تسير عليها زوارقهم وهم يعزفون ويغنون ويقولون شعرا.

(1) - هو محمد بن عبد الأعلى بن كناسة، توفي سنة سبع ومنتين للهجرة، انظر أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الثانية، دون تاريخ، ص: 194.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج13/ص: 241.

(3) - هو آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي أبو عمر، كان من فحول الشعراء، توفي في عشر السنين ومائة، كان يشرب الخمر ويفرط في المجون فأخذ المهدي وجلده ثلاث مائة سوط على أن يقر بالزندقة، فقال والله ما أشركت بالله طرفة عين ومتى رأيت قريشيا تزندق، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج5/ص: 195.

(4) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5/ص: 318.

المبحث الثالث : الزهريات والروضيات

لقد احتلت الطبيعة مساحة واسعة في ديوان الشعر العربي على مر العصور حيث تغنى الشعراء منذ العصر الجاهلي بالطبيعة من حولهم فوصفوا الأرض بما فيها من أحياء ونبات وجماد وبما يوجد على ظهرها من قفار وأنهار وأطيار وأشجار ورياض وغدران، كما وصفوا السماء بما فيها من نجوم وأقمار وبرق ورعد وسحب وأمطار.

وبانتقال الإنسان العربي في العصر الأموي والعصر العباسي إلى حياة المدنية والترف والرفاهية في الدور والقصور وما يحيط بها من حدائق وبساتين ورياض أخذ يتغنى بتلك المشاهد والمناظر، وأخذ الأدباء والشعراء يتبارون ويتنافسون في وصفها بإبداع متناه وإجادة منقطعة النظير.

وقد عمد الشعراء في كثير من الأحيان إلى استهلال قصائدهم بوصف الرياض ومشاهد الطبيعة حتى صار ذلك عرفاً بينهم يسرون عليه في افتتاح قصائدهم، في حين أن بعضهم قد بالغ في اهتمامه بوصف جزئياتها حتى اشتهر بذلك كما هو الحال عند الصنوبري⁽¹⁾.

والزهريات إنما هي وصف الطبيعة وجمالها، وذلك قديم عند العرب وفي أشعارهم، فلما كثر النظم فيه أفردوا له باباً قائماً بذاته سموه الزهريات، وخصوه بنعت الرياض والبساتين، والأشجار والأزهار والأطيار وغيوم الربيع، ووسميه وما شاكل ذلك⁽²⁾. أما الروضيات فكانت وما زالت تشكل مظهراً حضارياً ومعلماً يدل على اهتمام الدولة بالغرس والزرع بألوانه المختلفة والبهية، خاصة وأن الجنان والرياض والبساتين تعد زينة للأرض ومبعثاً للبهجة والسعادة، وسلوة للمكروبين، حيث ورد ذكر الجنان والحدائق الغناء في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله عز و جل: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} ⁽³⁾.

وجاء في فضل زرع الحدائق والبساتين، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من مسلم يغرس غرساً، إلا كان ما أكل منه صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة"⁽⁴⁾.

وقد أكثر شعراء العصر العباسي الأول وكتابه من وصف الرياض وما تحويه من أنواع الزهور والورود والرياحين، ولهم في هذا المعنى قولهم: "روضة رقت حواشيها، وتأنق واشيها، روضة كالعقود المنظمة على البرود المنمنمة، روضة قد راضتها كف

(1) - أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار، أبو بكر الضبيّ الحلبي المعروف بالصنوبري الشاعر كان جده الحسن صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون، توفي أبو بكر هذا سنة أربع وثلاثين وثلاث مائة للهجرة، وله ديوان مشهور، انظر الصفي، الوافي بالوفيات، ج7/ص: 248.

(2) - انظر بطرس البستاني، أدباء العرب في الأعصر العباسية، دار مارون عبود، بيروت دون طبعة، 1979م، ص: 304.

(3) - سورة القلم، الآية: 17.

(4) - أخرجه مسلم، باب فضل الغرس و الزرع، حديث: 1552، ج3/ص: 1188.

المطر، ودبجتها أيدي الندى، أخرجت الأرض أسرارها وأظهرت يد الغيث آثارها، وأبدت الرياض أزهارها، الرياض كالعرانس في حليها وزخارفها، والقيان في وشيها ومطارفها، باسطة زرايبها وأنماطها، ناشرة حبراتها ورياطها، زاهية بحمرائها وصفرائها، روضة قد تضوعت بالأرج الطيب أرجاؤها وتبرجت في ظل الغمام صحراؤها، وتنافحت بنوافح المسك أنوارها، وتعارضت بغرائب النطق أطياريها⁽¹⁾.

وقد روي عن غير واحد من أهل العلم أن متنزهات الدنيا أربعة، وهي: غوطة دمشق وصغد سمرقند وشعب بوان ونهر الأبله، وقالوا: وأفضلها غوطة دمشق⁽²⁾، ويقول أبو الطيب المتنبي في شعب بوان⁽³⁾:

مَعَانِي الشَّعْبِ طَيْباً فِي المَعَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

وقال السَّلامِي فِيهِ⁽⁴⁾:

انظُرْ إِلَى الشَّعْبِ وَاخْلُ رَوْضَةَ أَنفَا قَدْ زَادَ فِي حُسْنِهِ فَازْدَدَ بِهِ شَغْفَا
إِذْ أَلْبَسَ الهَيْفَ مِنْ أَغْصَانِهِ حُلًّا وَلَقِّنَ العُجْمَ مِنْ أَطْيَارِهِ نُقْفَا
وَنَمَّرَتْ حُسْنَهُ الأَغْصَانُ مَثْمَرَةً مِنْ نَازِعِ قَرُطَاءٍ أَوْ لِابِسِ شَنْفَا
وَالْمَاءُ يَنْثِي عَلَى أَعْطَافِهَا أَزْرَا وَالرَّيْحُ تَعْقِدُ مِنْ أَطْرَافِهَا شُرْفَا

لقد استحوذ منظر ذلك الشعب على لب الشاعر، لما وهبه الله من رياض جميلة بهية، بعيدة عن رعي البهائم، ودهس الناس مما زاده بهاءً وحسناً، فشغف قلبه به كما أنه شحذ قريحته بجملة من الألفاظ الحضارية الرائعة، فجاءت في عمومها سهلة طرية تناسب طراوة أفواح ذلك الشعب وأغصانه، وتنادي أطياريه بحلاوة لفظية ومعنوية، كحلاوة أصوات تلك الطيور.

إن تلك الأوصاف الرنانة التي يطلقها شعراء العصر العباسي الأول وكتابه عن الروضيات، تدلنا على اهتمام الناس بالزرع والثمر والزهر الذي يجدون فيه متنفسهم، ويتلذذون بروائح الفواحة التي تشرح صدورهم، وتجلي همومهم، وتجلب مسراتهم، كما يرون فيه مسرحةً فسيحاً تموج فيه عيونهم فترتد شفاهاً محملةً بالجمال والغبطة.

وعلى النقيض تماماً من السلف الذي كان يقدم لقصائده بوصف الصحراء وما تحويه من خشونة العيش وضيم النفس وركوب الأخطار، أصبح الشاعر العباسي يترك ذلك كله ليصف الطبيعة الخلابة في الحاضرة ببساتينها ورياحينها ونسيم هبوبها، وكان يمزج نشوته بها في

(1) - أبو منصور الثعالبي، سحر البلاغة وسر البراعة، تحقيق: عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون طبعة وتاريخ، ص: 14.

(2) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 1/ص: 503.

(3) - شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1423 هـ، ج 11/ص: 257.

(4) - المصدر نفسه، ج 11/ص: 259.

كثير من الأحيان بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع الأصوات العذبة، وبعضهم صور فتنته بتلك الرياض والبساتين وبما فيها من رياحين وزهر وورود، كقول إبراهيم بن المهدي⁽¹⁾ في النرجس⁽²⁾:

ثَلَاثُ عُيُونٍ مِنَ النَّرْجَسِ عَلَى قَائِمٍ أَخْضَرَ أَمْلَسِ
يُذَكِّرُنِي طَيْبَ رِيَا الْحَبِيبِ فَيَمْنَعُنِي لَذَّةَ الْمَجْلَسِ

وقد عرف العباسيون فوائد النرجس فقالوا فيه: "إنه يجلو الكلف والبهق، وخصوصاً أصله بالخل وينفع من داء الثعلب، ويعجن أصله مع العسل والكرسنة فيفجر الدماميل العسرة النضج، ويضمد بأصله على أورام العصب، وهو يجفف الجراحات، ويلزقها إلزاقاً شديداً، ودهنه ينفع للعصب، وينفع من الصداع الرطب السوداوي، وكذلك دهنه، ويصدع الرؤوس الحارة، وإذا أكل أصله هيج القيء، وإذا شرب منه أربعة دراهم بماء العسل أسقط الأجنة الأحياء والأموات، ودهنه ينفع من أوجاع الرحم"⁽³⁾، وقد وصف أبو نواس محاسنه فقال⁽⁴⁾:

لَدَى نَرْجَسٍ غَضُّ الْقَطَافِ كَأَنَّهُ إِذَا مَا مَنَحْنَاهُ الْعُيُونَ عُيُونَ
مُخَالَفَةً فِي شَكْلِهِنَّ فَصُفْرَةٌ مَكَانِ سَوَادٍ وَالْيَيْاضُ جُفُونُ

ومن الأزاهير التي نالت إعجاب الكثيرين آنذاك زهر البنفسج حتى أن مُتِّيمَ جارية علي بن هشام⁽⁵⁾ اهتمت لأمره، وكان عندها أثر من كل ريحان وطيب حتى إنها من شدة إعجابها به لا يكاد يخلو من كمها الريحان ولا يرى إلا كما قطف من البستان⁽⁶⁾.

(1)- هو الأمير الكبير أبو إسحاق الملقب بالمبارك إبراهيم بن أمير المؤمنين محمد بن أبي جعفر الهاشمي العباسي الأسود، ويعرف بالثنتين للونه وضخامته، ولد إبراهيم سنة اثنتين وستين ومائة للهجرة، وكان فصيحاً بليغاً عالماً أديباً شاعراً رأساً في فنّ الموسيقى، توفي إبراهيم في رمضان سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة، انظر شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج10/ص: 557.

(2)- الأصفهاني، الأغاني، ج10/ص: 95.

(3)- شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج11/ص: 230.

(4)- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(5)- علي بن هشام بن فرخسرو أبو الحسن المروزي أحد قواد المأمون له شعر حسن وقدم على المأمون دمشق، وكان له نديماً ثم وجد عليه في بعض أمره فقتله، انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج43/ص: 266.

(6)- الأصفهاني، الأغاني، ج7/ص: 231.

وقال القاضي عياض⁽¹⁾، يصف زرعاً تناثرت في أطرافه الزهور وشقائق النعمان⁽²⁾:

انظر إلى الزرع وخاماته
كُتَيْبَةٌ خَضْرَاءُ مَهْزُومَةٌ
تَحْكِي وَقَدْ مَأَلَتْ أَمَامَ الرِّيحِ
شَقَائِقُ النُّعْمَانِ فِيهَا جِرَاحٌ

أراد الشاعر أن يصور منظر ذلك الزرع الكثيف المتجمع، ثم لم يلبث أن شبه شقائق النعمان المتناثرة في ثناياه بالجراح لحمرتها في اخضرار ذلك الزرع.

ودونك وصف لمنظر طبيعي ساحر في قرية من نواحي بغداد تسمى "باطرُنْجِي"⁽³⁾ قد اكتظت بالمناظر الجميلة والبساتين الناظرة المملوءة بالأزهار المختلفة، والأبيات التالية في وصف ذلك المكان قد نسبت إلى أبي نواس، إذ يقول⁽⁴⁾:

بَا طَرُنْجِي بَهَا ثَوَائِي وَلِي فِيهِ
وَبَهَا نَرْجِسٌ يُنَادِي غُلَامِي
وَتَعْنَى الدَّرَاجِ وَاسْتَمَطَرَ اللَّهُ
فَانْتَنِيَا إِلَى رِيَاضِ عِيُونِ
وَمَكَانِ الجَفُونِ مِنْهَا ابْيَضَاضٌ
بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَهَا صَرَخَ الْوَرْدُ
عِنْدَنَا فَهَوَةٌ تَغَافِلُ عَنْهَا
وَانْتَنِينَا لِلْوَرْدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنَى
فَرَأَى النَّرْجِسُ الَّذِي صَنَعَ الْوَرْدَ
وَرَأَى الْوَرْدُ عَسْكَرِينَ مِنَ الصُّفَى
وَاسْتَجَاشَ الْبَهَارُ جَيْشاً مِنَ الْأَتَى
فَرَأَيْتُ الرَّبِيعَ فِي عَسْكَرِ الصُّفَى
لَيْسَ إِلَّا لِخُمْرَةٍ مِنْ خُدُودِ

بِهَا إِذَا دَارَتْ الْكُوُوسُ اعْتَبَارُ
قِفْ فَقَدْ أُذْرِكْتَ لَدِينَا الْعُقَارُ
وَوَجَدَتْ بِنُورِهَا الْأَزْهَارُ
نَاطِرَاتٍ مَا إِنْ بَهَنَّ أَحْوَرَارُ
وَمَكَانِ الْأَحْدَاقِ مِنْهَا اصْفَرَارُ
دُ إِلَيْنَا يَا مَعْشَرَ السُّمَّارِ
دَهْرُهَا فَالْوُجُودِ مِنْهَا خُمَارُ
بُو عَنْ النَّرْجِسِ الْمُضَاعَفِ دَارُ
دُ فَنَادَى مُسْتَصْرِخاً يَا بَهَارُ
رِ فَنَادَى فَجَاءَهُ الْجُنَّارُ
رُجٌّ فِيهِ صِغَارُهُ وَالْكَبَّارُ
رِ وَقَابِي يَشْفُهُ الْإِحْمَرَارُ
مَنْ أَنَاسٍ بَغُوا عَلَيْنَا وَجَارُوا

ويصف أبو نواس في هذه الأبيات ما حبا الله به تلك القرية من جمال الطبيعة، وكثرة الزهور، وفي ذلك التصوير مظهر من مظاهر حضارة الكلمة التي اختارها الشاعر لترجمة ما حوته بيئته من تمدن وإتقان في تسنيق البساتين وحشدها بألوان الزهور والروضيات.

(1) - أبو الفضل عياض بن محمد بن أبي الفضل القاضي، كان من الفقهاء الفضلاء الأعلام، روى عن أبيه وغيره، توفي سنة تسع وعشرين وستمائة للهجرة، انظر محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ/2003م، ج1/ص: 257.

(2) - شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج11/ص: 283.

(3) - باطرُنْجِي: بضم الطاء والراء وسكون النون وجيم، والقصر: قرية قرب القفص من نواحي بغداد، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ص: 324.

(4) - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4/ص: 294، 295.

وهذه أوصاف بديعة لمجموعة من الزهريات التي رأى أبو نواس فيها منظراً حسناً وأصنافاً متعددة من الورود والرياحين حيث يقول⁽¹⁾:

أَوْ مَا تَرَى أَيْدِي السَّحَابِ رَقَّشَتْ
مِنْ سَوْسَنِ (2) غَضُّ الْقَطَافِ، وَخَزَمِ
وَجَنِّي وَرَدٍ يَسْتَبِيكُ بِحُسْنِهِ،
حُمْرًا وَبِيضًا يَجْتَنِينِ، وَأَصْفَرًا،
كَعُقُودٍ يَأْقُوتِ نُظْمَانَ وَلَوْلُؤِ
وَمِنْ الزَّبْرِجَدِ حَوْلُهُنَّ مَثَلًا
حُلَّ النَّوَى بِبَدَائِعِ الرَّيْحَانِ
وَبِنَفْسِجٍ، وَشَقَائِقِ النَّعْمَانِ (3)
مِثْلَ الشَّمُوشِ طَلَعْنَ مِنْ أَعْصَانِ
وَمُلُونَنَا بِبَدَائِعِ الْأَلْوَانِ
أَوْ سَاطُوهُنَّ فَرَائِدُ الْعُقَيَانِ
سِمْطًا يَلُوحُ بِجَانِبِ الْبُسْتَانِ

ومن اهتمام العامة والخاصة بالروضيات وأنواع الزهور أن عطل بعضهم أعماله في مواسم تفتح الأزهار والورود، ليعيش في ظلها ويتمتع برويتها والتنزه بين أشجارها، فقد ذكر أن حائكاً كان يعمل العام كله لا يتعطل في عيد ولا جمعة، فإذا طلع الورد طوى عمله وغرّد بصوتٍ وقال⁽⁴⁾:

طَابَ الزَّمَانُ وَجَاءَ الْوَرْدُ فَاصْطَبُحُوا
مَا دَامَ لِلْوَرْدِ أَزْهَارٌ وَأَنْوَارُ

ويقول ديك الجن⁽⁵⁾ في وصف الورد⁽⁶⁾:

لِلْوَرْدِ حُسْنٌ وَإِشْرَافٌ إِذَا نَظَرْتُ
خَافَ الْمَلَالُ إِذَا دَامَتْ إِقَامَتُهُ
إِلَيْهِ عَيْنٌ مُجِبٌّ هَاجَهُ الطَّرْبُ
فَصَارَ يَظْهَرُ حِينَئِذَا تَمَّ يَحْتَجِبُ

(1) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 338.

(2) - السوسن: نبت، أعجمي معرب، وهو معروف، وقد جرى في كلام العرب، وأجناسه كثيرة وأطيبه الأبيض، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (سوسن)، ج13/ص: 229.

(3) - الخزم: يقصد به الخزامي وهو نبت طيب الريح واحده خزاماة، وقيل هي عشبة طويلة العيدان، صغيرة الورق، حمراء الزهرة طيبة الريح، لها نور كنور البنفسج، انظر الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ، ج2/ص: 601.

(4) - انظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(5) - أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن زيد بن تميم الكلبي الملقب ديك الجن، ولد بمدينة حمص، سنة إحدى وستين ومائة للهجرة، وكان ماجناً، خليعاً، عاكفاً على القصف واللهو متلافاً لما ورثه، وشعره في غاية الجودة، وتوفي في أيام المتوكل سنة خمس أو ست وثلاثين ومائتين، انظر ابن الخلكان، وفيات الأعيان، ج3/ص: 185.

(6) - الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج2/ص: 602.

ومن بستانيات الحسين بن الضحاك⁽¹⁾ قوله في روضة فاتنة قد اخترقتها الأنهار
والجداول الصغيرة⁽²⁾:

سُقِيًّا لِشَكْلِكَ مِنْ شَكْلِ خُصِّصْتَ بِهِ دُونَ الدَّسَاكِرِ⁽³⁾ مِنْ لَدَاتِ دُنْيَانَا
حَقَّتْ رِيَاضُكَ جَنَاتٌ مُجَاوِرَةٌ فِي كُلِّ مَخْتَرِقٍ نَهْرًا وَبُسْتَانَا
لَا زَلَّتْ أَهْلَةُ الْأَوْطَانِ عَامِرَةً بِأَكْرَمِ النَّاسِ أَعْرَاقًا وَأَغْصَانَا

يدعو الشاعر بالسقيا لشكل تلك الروضة الغناء التي أحاطت بتلك الدساكر بجنانها وبساتينها التي تخللتها الأنهار والجداول الصغيرة، ويثني على تلك الأوطان وأهلها، فهم من أكرم الناس أعراقاً وأحساباً، هكذا يسوق لنا الشاعر أوصاف تلك الحدائق والرياض اليبانة في أبيات كالماء البارد لصاحب الهاجرة، رقة وعضوبة وحلاوة، ولا غرو فهو أحد حاملي لواء حضارة الكلمة في عصره.

وكان بعض الخلفاء، يمنح المداحين من الشعراء هبات سنوية تصل إلى تقديم الحدائق أو البساتين، لقاء مدائحهم أو استجابة لطلباتهم، وقد منح المهدي مروان بن أبي حفصة⁽⁴⁾ حديقة غناء، قال فيها أبياتاً يصف ما فيها من نخيل وزروع⁽⁵⁾:

نَوَاضِرٌ غُلْبًا قَدْ تَدَانَتْ رُؤُوسُهَا مِنَ النَّبْتِ حَتَّى مَا يَطِيرُ غُرَابُهَا
تَرَى الْبَاسِقَاتِ الْعَمَّ فِيهَا كَأَنَّهَا ظَعَائِنٌ مَضْرُوبٌ عَلَيْهَا قِبَابُهَا
تَرَى بَابَهَا سَهْلًا لِكُلِّ مُدْفَعٍ إِذَا أَيْنَعَتْ نَخْلٌ فَأَغْلَقَ بَابُهَا
يَكُونُ لَنَا مَا نَجْتَنِي مِنْ ثَمَارِهَا رَبِيعًا إِذَا الْأَفَاقُ قَلَّ سَحَابُهَا
حَظَائِرُ لَمْ يُخْلَطْ بِأَثْمَانِهَا الرَّبَا وَلَمْ يَكُ مِنْ أَخَذِ الدِّيَاتِ اِكْتِسَابُهَا
وَلَكِنْ عَطَاءُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مِدْحَةٍ جَزِيلٌ مِنَ الْمُسْتَخْلَفِينَ ثَوَابُهَا
وَمِنْ رَكُضِنَا الْخَيْلِ فِي كُلِّ غَارَةٍ حَلَالٌ بِأَرْضِ الْمُشْرِكِينَ نِهَابُهَا
حَوَتْ غُنْمَهَا أَبَاؤُنَا وَجَدُونَا بِصُمِّ الْعَوَالِي وَالِدِمَاءِ خِضَابُهَا

(1) - هو الحسين بن الضحاك بن ياسر أبو عليّ الشاعِر البصريّ المعروف بالخليع مولى لولد سليمان بن ربيعة الباهليّ الصحابيّ، ولد سنة اثنتين وستين ومائة، وهو شاعر ماجن مطبوع، حسن الافتنان في ضروب الشعر وأنواعه، وسمي بالخليع لكثرة مجونه وخلاعاته، توفي سنة خمسين ومائتين، انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج12/ص: 235.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج7/ص: 152.

(3) - الدساكر: بناء كالقصر، حوله بيوت للأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي، ابن منظور، لسان العرب، مادة (دسك)، ج4/ص: 285.

(4) - هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد، شاعر، عالي الطبقة، ولد سنة خمس ومائة للهجرة، كان جدّه أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم، اعتقه يوم الدار، ونشأ مروان في العصر الأموي، باليامة، حيث منازل أهله، وأدرك زمنًا من العهد العباسي فقدم بغداد ومدح المهدي والرشيدي ومعن بن زائدة، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج7/ص: 208.

(5) - حسين عطوان، شعر مروان بن أبي حفصة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 2005م، ص: 25.

وكان لابن أبي عيينة بستان وضيعة في بعض قطائع المهلب بالبصرة فصيرها منزله، وقال فيها(1):

| | |
|-----------------------------------------|------------------------------------------|
| يَا جَنَّةً فَاتَتْ الْجَنَانَ فَمَا | تَبْلُغُهَا قِيمَةً وَلَا تَمُنُّ |
| أَلْفُهَا فَاتَخَّذْتُهَا وَطَنًا | إِنَّ فُؤَادِي لِأَهْلِهَا وَطَنٌ |
| زَوْجَ حَيْثَانُهَا لِلضَّبَابِ بِهَا | فَهَذِهِ كَنَزَةٌ وَذَا خَسْتَنٌ |
| فَانظُرْ وَفَكِّرْ فِيمَا نَطَقْتَ بِهِ | إِنَّ الْأَدْيَبَ الْمَفَكِّرَ الْفَطِنُ |
| مَنْ سَفُنٍ كَالنَّعَامِ مُقْبِلَةٍ | وَمَنْ نَعَامٍ كَأَنَّهَا سَفُنٌ |

ولا شك أن ذلك المنظر الخلاب يفصح عن رقي حضاري شهدته دولة الإسلام في العصر العباسي الأول، وقد أجاد الشاعر اختيار ألفاظه وتراكيبه وصوره، فجاءت فصيحة سهلة تناسب المقام، وتتلاءم مع الحال، لا تجد لفظاً شارداً ولا صورة نابية، كما لا يجد الذوق والذهن كدأ في استحضر معنى أو التعرف على خيال، وذلك من سمات الحضارة اللفظية المحملة بنقل حضارات الأمم المادية والمعنوية.

ويقول في السياق ذاته(2):

| | |
|------------------------------------------------|---------------------------------------------------|
| يُذَكِّرُنِي الْفَرْدُوسُ طُورًا فَاَنْتَنِي | وَطُورًا يُؤَوِّتُنِي إِلَى الْقَصْفِ وَالْفَتَكِ |
| بِعَرَسِ كَأَبْكَارِ الْعَذَارَى وَتُرْبِيَةٍ | كَأَنَّ تَرَاهَا مَاءً وَرِدٍّ عَلَى مَسْكِ |
| كَأَنَّ قِصُورَ الْأَرْضِ يَنْظُرُنَّ حَوْلَهُ | إِلَى مَلِكٍ أَوْفَى عَلَى مَنْبَرِ الْمَلِكِ |
| يُذِلُّ عَلَيْهَا مُسْتَطِيلًا بِحُسْنِهِ | وَيُضْحِكُ مِنْهَا وَهِيَ مُطْرِقَةٌ تَبْكِي |

هكذا كانت منزلة الزهريات والروضيات في عيون القوم، فريق يرى فيها مالاً وبهاءً، وآخر يرى فيها ذكراً وعبراً، وتأملاً في عجيب صنع الله عز وجل، وقدرة ذلك الخالق العظيم المبدع، و ليس أدل على ذلك من قول الشاعر(3):

| | |
|-----------------------------------------|-----------------------------------------|
| تَأْمَلُ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانظُرْ | إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ |
| عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنِ شَاخِصَاتُ | بِأَبْصَارِ هِيَ الزَّهْبُ السَّيْبِيكُ |
| عَلَى قَصَبِ الزُّبُرْجُدِ شَاهِدَاتُ | بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ |

(1) - ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج1/ص: 317.

(2) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج6/ص: 267.

(3) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1/ص: 107.

وقد كان أكثر شعراء العصر العباسي الأول يشبهون محاسن من يحبون بالزهر والروض وفي ذلك يقول بشار بن برد(1):

ولها وَرَادُ الْغَدَائِرِ كَالكَرْوِ مِ سَوَاداً قَدْ حَانَ مِنْهُ انْتِهَاءُ
وَحَدِيثٌ كَأَنَّهُ قَطَعُ الرُّو ضِ زَهْتُهُ الصَّفْرَاءُ وَالْحَمْرَاءُ

كما أكثر أهل الظرف من تفضيل الورد ومدحه شعراؤهم، فعددوا جوانب حسنه، فشبوه بالوجنات الحمر، وقايسوه إلى الخمر ومثله بالمليح من الأشياء، وجعلوه في مرتبة التفاح، قال العباس بن الأحنف(2):

أَبْغَضُ الْآسِ وَالْخِلَافِ جَمِيعاً، لِمَكَانِ الْخِلَافِ وَالْيَاسِ مِنْهَا
وَأَحِبُّ التَّفَاحَ وَالْوَرْدَ ، حَتَّى لَوْ وَزَنْتِيهِ بِالْجِبَالِ وَزَنْهَا
أَشْبَهَا رِيقَهَا وَنَكْهَةً فِيهَا فَهَمَّا يُذْبِئَانِ بِالطَّيِّبِ عَنْهَا

وقال آخر(3):

عَشِيَّةً حَيَّانِي بَوْرِدٍ ، كَأَنَّهُ خَدُودٌ أَضِيْفَتْ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضِ
وَوَلَّى ، وَفَعَلُ الْخَمْرِ فِي حَرَكَاتِهِ فَعَالَ نَسِيمُ الرِّيحِ بِالْغُصْنِ الْعَضِّ

إن وصف الطبيعة وجمالها، فن شعري عربي قديم، طرقة شعراء العرب في مختلف العصور، لكن شعراء عصرنا أكثروا من النظم فيه، تبعاً لتحضرهم واهتمام مجتمعهم بالجنان والحدائق والبساتين، وذلك ما عدوه من متطلباتهم الحضارية، وقد نجحوا في إتقانه، فلما تهافت الشعراء على ذلك الفن المليح، وصوروه بما يليق به من عذوبة اللفظ وسهولته، ومن جمال التشبيه واستعارته، أفرد له نقادهم باباً شعرياً قائماً بذاته وسموه، بالروضيات والزهريات، وإن شئت فقل " الزهريات "، فأصبح فناً حضارياً مستحدثاً بهذه الصورة، فأتوا بما لم يأت به الأوائل من الأشعار الروضية البديعة، ومن وصف الرياحين والبساتين والأشجار والأزهار والأطيار، ووصف السحب، وغيوم الربيع ورذاذها، وتمايل الأغصان وابتهاج الناس، وسرورهم ولهوهم، وعبث بعضهم أحياناً مما يعد جديداً بديعاً، ورافداً حضارياً، تذوقه البعض ومجه البعض الآخر.

(1)- ديوان بشار بن برد، ج1/ص: 119.

(2)- ديوان العباس بن الأحنف، ص: 283.

(3)- الوشاء، الموشى، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر، مطبعة الاعتماد، الطبعة الثانية، 1371 هـ / 1953 م، ج1/ص: 178.

المبحث الرابع : الثياب

تميز العصر العباسي بتعدد الأمم والأجناس، واختلاف الأعراق والقوميات والثقافات، فقد قوي نفوذ الفرس، وازداد تغلغلهم في مجتمع العصر العباسي الأول حتى أن الحياة قد صبغت بصبغة فارسية أو تكاد، ثم غلب عنصر الأتراك وازداد نفوذهم في العصر العباسي الثاني، فضلا عن وجود أمم أخرى منهم الزنج الذين كانوا يجلبون من شرق إفريقيا، ويستخدمون في الأعمال المتعلقة بالزراعة والحصاد، أضف إلى ذلك أن العباسيين قد تجمعت لديهم ثروة ضخمة من الإرث الحضاري؛ فقد ورث العرب الحضارة الساسانية والكلدانية والآرامية من فتحهم العراق وإيران، وورثوا الحضارة البيزنطية والمصرية من غزوهما الشام ومصر، كل ذلك جعل المجتمع يعج بكثير من الأجناس، فقد ذكر المقرئ (1) أن المأمون: "كان لا يمشي أبداً إلا والترجمة بين يديه من كل جنس" (2).

وقد قاد هذا التنوع العرقي والثراء الحضاري المتعدد المشارب، المختلف الطبائع والأهواء إلى تغيير الحياة الاجتماعية، وتنوع صورها، وتباين ملامحها وأشكالها، وكان من أثر ذلك أن تميز المجتمع العباسي بنزوعه إلى التطور والتجديد في مختلف أوجه الحياة من مسكن وملبس ومأكل وغيرها.

والظاهر أن العباسيين تأثروا بالفرس كثيرا من حيث الاهتمام باللباس وهو ما فعله بعض الخلفاء إذ قرر أبو جعفر المنصور لبس القلانس التي لم تكن معهودة من قبل بالصورة التي أقرها وأمر بها، مما دعا أبا دلالة إلى القول (3):

وَكُنَّا نُرَجِّي مَنَحَةَ مِنِّ إِمَامِنَا فَجَاءَتْ بِطَوْلِ زَادِهِ فِي الْقَلَانِسِ (4)
تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرَّجَالِ كَأَنَّهَا يَنَانُ يَهُودٍ جُلَّتْ بِالْبَرَانِسِ (5)

ويذكر أن المنصور ألزم رعيته بلبس تلك القلانس الطوال فكانوا يعملونها بالقصب والورق ويلبسونها السواد (6).

وكان الناس يلبسون تلك القلانس صيفاً وشتاءً، عندما يريدون الدخول على الخلفاء وعلى الأمراء، قال الجاحظ: "وقد يلبس الناس الخفاف والقلانس في الصيف كما يلبسونها في"

(1) - هو أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس، تقي الدين المقرئ، مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك، ونسبته إلى حارة المقارزة وهي من حارات بعلبك في أيامه، ولد بالقاهرة، وولي فيها الحسبة والخطابة والإمامة مرات، واتصل بالملك الظاهر برقوق، من تأليفه: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، والسلوك في معرفة دول الملوك، توفي سنة أربع وخمسين وثمانمائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج1/ص: 177.

(2) - تقي الدين المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1/ص: 154.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج10/ص: 189.

(4) - القلنسوة: من ملابس الرؤوس، ابن منظور، لسان العرب، مادة (قلس)، ج6/ص: 181.

(5) - البرنس: كل ثوب رأسه منه ملتزق به، وقيل هي قلنسوة طويلة، انظر المصدر نفسه، مادة (برنس)، ج6/ص: 26.

(6) - جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج1/ص: 195.

الشتاء إذا دخلوا على الخلفاء وعلى الأمراء وعلى السادة والعظماء؛ لأن ذلك أشبه بالاحتفال وبالتعظيم والإجلال، وأبعد من التبذل والاسترسال وأجدر أن يفصلوا بين مواضع أنسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم⁽¹⁾.

واختلفت القلائس من حيث طولها وشكلها، فبعض الخلفاء جعلوها طويلة ووضعوا العمائم فوقها وزادوا من طولها حتى تكون فوق قلائس الأمة، ومنهم من لبسها بدون العمائم كما فعل القضاة وزادوا من طولها ومنها القلائس العادية البسيطة التي لبسها عامة الناس⁽²⁾.

كما عدد الجاحظ كثيراً من لباس الخاصة والعامة، فذكر أن منهم من يلبس المبطننة، ومنهم من يلبس الدراعة، وهي جبة مشقوقة المقدم، ومنهم من يلبس البازكند، وهو من الألبسة الفارسية، "فالباز" تعني الكتف بالفارسية، ووصف زي مجالس الخلفاء بأنها تفرش بالصوف صيفاً وشتاءً؛ لفخامته، كما ذكر أن الشعراء كانت تلبس الوشي والمقطعات والأردية السود، وكل ثوب مشهر⁽³⁾.

هكذا تأنق الخاصة والعامة في اللباس، فكان الخليفة إذا سار في موكبه ارتدى قباءً أسوداً، أو بنفسجياً يصل إلى الركبة، ومفتوح عند الرقبة ليظهر القفطان زاهياً من تحته، له منطقة مرصعة بالجواهر، كما كان يرتدي عباءة سوداء، وعلى رأسه قلنسوة طويلة قد زينتها الجواهر الثمينة⁽⁴⁾. أما الطبقة الراقية فكان لها أيضاً زيهما الفاخر الذي يتماشى مع ثرائها ومكانتها، فكان لباسها العادي يتألف من سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وستررة وقفطان وقباء وقلنسوة، وكانوا أحياناً يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ويسمونها "مزاج".

وكان لكل طائفة زيهما الذي يميزها، فالكتاب لبسوا الدراعات، وهي ثياب مشقوقة من الصدر، وكانت رداء القواد الأقبية الفارسية القصيرة، أما عامة الناس فكان رداء الواحد منهم إزاراً وقميصاً ودراعة، وستررة طويلة وحزاماً يسمى "قمر بند" والأحذية والنعال⁽⁵⁾.

أما ألبسة النساء فقد فاقت ألبسة الرجال تطوراً وأناقة، كعادة النساء في أي مجتمع، فهناك نساء الطبقات الممتازة، اللاتي اتخذن أغطية لرؤوسهن مرصعة بالحلي والجواهر الغالية والأحجار الكريمة، وقد كان للسيدة زبيدة⁽⁶⁾ زوجة هارون الرشيد أثر كبير في تطور الزي النسائي، وإدخال بعض التغييرات على ملابس النساء ووسائل الزينة، حتى أصبحت

(1) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج3/ص: 77.

(2) - انظر المصدر نفسه، ج3/ص: 80.

(3) - المصدر نفسه، ج3/ص: 78.

(4) - حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، دون تاريخ، ص: 230.

(5) - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(6) - هي أم جعفر بنت جعفر بن المنصور أبي جعفر العباسية والدة الأمين محمد بن الرشيد، وكانت عظيمة الجاه، والمال لها آثار حميدة في طريق الحجّ وجدها المنصور هو من لقبها زبيدة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج10/ص: 241.

أنموذجاً للمرأة في عصرها، فقد عممت رؤوس الجواري وجعلت لهن الطرز والأصداغ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق. وقد أسرفت في شراء ملابسها وزينتها، إذ صنع لها الرفيع من الوشي حتى أنها اتخذت ثوباً من الوشي، يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار، وكانت أول من ابتكر اتخاذ الخفاف والنعال المرصعة بالجواهر وشمع العنبر والقباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلايبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأزرق، وتشبهت النساء في بغداد بها⁽¹⁾.

وقد ألبست السيدة زبيدة "بوران بنت الحسن"⁽²⁾ يوم زفافها من الخليفة المأمون بيدها قسماً من ملابسها ومن بينها البدنة الأموية التي أهداها لها زوجها الرشيد يوم زواجها، وما يدل على استحسان بوران بنت الحسن ورداً للجميل الذي قدمته لها السيدة زبيدة من هدايا ثمينة أنها سألت زوجها المأمون في نفس الليلة الإذن للسيدة زبيدة بالحج فأذن لها⁽³⁾.

كما أن نساء الطبقات المتوسطة في المجتمع، كن يبالغن في أزيائهن فيلبسن الحلية المذهبة على رؤوسهن، ويلفن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن، والأساور في معاصمهن⁽⁴⁾.

ومن أنواع الثياب، ثياب موشاة بالذهب تلبسها النساء وتسمى الزبرج⁽⁵⁾، قال بشار في أرجوزته المعروفة يصف فتاة تحلت بتلك الثياب⁽⁶⁾:

واهاً لأسماء ابنة الأشدِّ قامت ترأى إذ رأتهي وخدي
كالشمس بين الزبرج المنقذ سلطاناً مبيضاً على مسود
ضنت بخدّ وجلت عن خدِّ ثم انتنت كالنفس المرتدِّ

(1) - انظر حسن أحمد محمود/أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص: 231.

(2) - هي بوران بنت الحسن بن سهل، زوجة المأمون العباسي، ولدت سنة إحدى وتسعين ومائة للهجرة، وتعد من أكمل النساء أدباً وأخلاقاً، اسمها خديجة، وعرفت ببوران، وتوفيت ببغداد سنة إحدى وسبعين ومائتين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج2/ص: 77.

(3) - انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 607.

(4) - حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص: 231.

(5) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (زبرج)، ج2/ص: 285.

(6) - ديوان بشار بن برد، ج2/ص: 222.

هكذا كان ترف الخاصة والكثير من العامة في الرياش واللباس والفرش، إذ كانوا يتأنقون في اختيار لباسهم ونعالهم بما يناسبهم، وفي ذلك يقول أحد الشعراء واصفاً غلاماً له قد ارتدى لباساً جميلاً⁽¹⁾:

ظَلَّ يَخْتَالُ فِي رِدَاءِ شَبَابٍ نُو صِبَاً يِقْتَضِيكَ حَقَّ النَّصَابِي
فِي قَمِيصٍ مُفَوِّفٍ مِنْ زُجَاجٍ وَوَشَاحٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ حُبَابِ⁽²⁾

وقد استحسن ظرفاء الرجال ما بهج من الثياب وغلا، وزادت نفاسته على غيره طلباً للتمتع والتجمل. وقد ذكر الوشاء زي أولئك الظرفاء، وذوقهم في اقتناء تلك الثياب والقمص، كالعلائل الرقاق⁽³⁾، والقمص السفاق⁽⁴⁾ من جيد ضروب الكتان الناعمة النقية الألوان، مثل الدبقي⁽⁵⁾، والجنابي، والمبطنات التاخنج⁽⁶⁾، والخامات، ودراريع الدرجرد⁽⁷⁾، والملمح الخزي⁽⁸⁾ والخراساني، ومبطنات القوهي⁽⁹⁾ الرطب، وأزر القصب الشرب⁽¹⁰⁾، والأردية المحشاة العدنية، وطيايسة الملمح النيسابورية⁽¹¹⁾، والمصممة الطرازية⁽¹²⁾، والوشى

(1) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج 1/ص: 254.

(2) - القميص المفوف: إذا كانت فيه نقوش وخطوط بيض، انظر أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1422 هـ / 2002 م، ج 1/ص: 169.

(3) - العلائل: مفردا الغلالة: ثوب رقيق يلبس تحت ثوب صفيق، انظر المصدر نفسه، ج 1/ص: 170.

(4) - سَفَقَ الثوبُ يَسْفُقُ سَفَاقَةً، فَهُوَ سَفِيقٌ: متين، كَثُفَ نَسَجَهُ، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (صق)، ج 10/ص: 204.

(5) - الدبقي: مِنْ دِقِّ ثِيَابِ مِصْرٍ مَعْرُوفَةٍ، تَنْسَبُ إِلَى دَبِيقِ اسْمِ مَوْضِعٍ، انظر محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي، أبو منصور، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2001 م، ج 9/ص: 54.

(6) - التَّاخَنْجُ: لَفْظٌ فَارِسِيٌّ يَرَادُ بِهِ ضَرْبٌ مِنَ النَّسِيجِ، انظر إبراهيم السامرائي، التكملة للمعجم العربية من الألفاظ العباسية، مديريات المكتبات والوثائق الوطنية، الأردن، الطبعة الأولى، 1407 هـ / 1986 م، ص: 84.

(7) - الدراعة: جبة مشقوقة من الأمام، وهي من الصوف ومنسوبة إلى بلد في فارس يسمى الدرجرد، انظر الزبيدي، تاج العروس، ج 20/ص: 538.

(8) - الملمح: جنس من الثياب فيه بعض الحرير، ولذا قيل خزي لاشتماله على شيء من الصوف والحرير، انظر أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي المَطْرَزِيُّ، المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي، بدون طبعة وتاريخ، ج 1/ص: 423.

(9) - القوهي: وهو البياض من الثياب منسوب إلى قوهستان، بلد بكرمان، انظر أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1419 هـ / 1998 م، ج 2/ص: 112.

(10) - الشرب: ما تشبع بالصبغ، أو مال إلى الحمرة، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (شرب)، ج 1/ص: 491.

(11) - الطيلسان: ضرب من الأكسية خضراء اللون، انظر ابن سيده، المخصص تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1417 هـ / 1996 م، ج 1/ص: 3389، 3390.

(12) - المصممة: التي لا يخالط لونها آخر، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (صمت)، ج 2/ص: 56.

السَّعِيدِيَّة⁽¹⁾، والخُزُرُوكُوفِيَّة، والمَطَّارِف السُّوسِيَّة⁽²⁾، والأَكْسِيَّة الفارسية، والطَّيَالِسَةُ التُّومِسِيَّة الزُّرُق السَّلُولِيَّة⁽³⁾ وكل ما أشبه ذلك وقاربه، ودنا منه وجانسه⁽⁴⁾.

أما متظرفات النساء، فإنهن يخالفن متظرفي الرجال في اللباس، فإنهن يلبسن الغلائل الدخانية، والأردية الرشيدية، ويفهم من تسميتها بذلك أنها منسوبة إلى الرشيد، أو إلى بلدة رشيد من أعمال مصر، ويرتدين كذلك الشُّرُوب المَزَنَرَة⁽⁵⁾، والأردية الطَّبْرِيَّة، المنسوبة إلى طَبْرِسْتَان، والقَصَب المُلُون، والحرير المَعِين، والمقانع النِّيسَابُورِيَّة التي تقنع به المرأة رأسها، وأزر المُلْحَم الخُرَّاسَانِيَّة، والجِرْبَانَات المُخَانِقِيَّة⁽⁶⁾، والكَمَام المفتوحة، والسَّرَاوِيَلَات البيض المُدِّيَّة والمَعَاجِر السود التي تشد به المرأة رأسها، له سنابل في أطرافه⁽⁷⁾.

ومن تحضر القوم وتفننهم أن كتبوا على تلك الرياش والملابس العبارات اللطيفة، والأشعار العذبة، في الود والعتاب والشكوى ولوعة الحب، وما شابه ذلك، وكأن كل عبارة أو بيت شعر تعبر عما في نفس صاحبها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره صاحب الموشى من أن ماجنَ جارية مكاتم المغنِّية كتبت على وشاح قميصها بالذهب⁽⁸⁾:

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| زَفَرَاتِي لَيْسَ تَفْنَى | وفـؤادي بك مُضْنَى |
| أَتَرْضَاكَ وَأَبْـدِي | لـك ... سـنـا |
| بـأبي كـم أتمنـى | وإلى كـم أتمنـى |
| بـعدما أصبـح قلبـي | فـي فـيد الأحرار رَهـنـا |

(1) - السعيدية: ضرب من برود اليمن منسوبة إلى سعيد بن العاص، انظر ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ج1/ص: 296.

(2) - السُّوسِيَّة: نسبة إلى بلد في الأهواز يقال له سوس، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3/ص: 281.

(3) - التومسية والسلولية: لعلها منسوبة إلى موضعين.

(4) - الوشاء، الموشى، ص: 161.

(5) - الشروب المَزَنَرَة: نوع من الثياب مصبوغ، ينسج في الإسكندرية وغيرها من المدن الأخرى كدمياط، تنيس ودبيق، انظر المقرئزي، تقي الدين، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ، ج2/ص: 298.

(6) - الجربانات: الواحد جربان، وهو طوق القميص، فارسي معرب، والمخانق نسبة إلى القلادة، وتسمى مخنق، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (جرب)، ج1/ص: 216، ومادة (خنق)، ج10/ص: 39.

(7) - انظر الوشاء، الموشى، ص: 163.

(8) - المصدر نفسه، ص: 219.

وكتبت راهي جارية الأحذب قبل أن يشتريها إسحاق بن إبراهيم الموصلي⁽¹⁾ على وشاح قميصها⁽²⁾:

إذا وجدتُ لهيب الشوق في كيدي أقبلتُ نحو سقاء القوم أبتردُ
هَبَنِي طَفْنْتُ بِبَرْدِ الْمَاءِ ظَاهِرِهِ فَمَنْ لَحَرَ عَلَى الْأَحْشَاءِ يَتَّقُدُ

وذكر بعض من دخل على الرشيد أنه رأى على رأسه جوارٍ كالتماثيل، وعصابة منظمة بالدر والياقوت مكتوباً عليها بصفائح الذهب⁽³⁾:

ظَلَمْتَنِي فِي الْحُبِّ يَا ظَالِم وَاللَّهُ فِيمَا بَيْنَنَا حَاكِم

كما كتب على قلنسوة إحدى جوارى المأمون⁽⁴⁾:

يَا تَارَكَ الْجِسْمَ بِلَا قَلْب إِنْ كَانَ يَهْوَاكَ فَمَا ذَنْبِي
يَا مَفْرَدًا بِالْحُسْنِ أَفْرَدْتَنِي مِنْكَ بَطُولُ الشُّوْقِ وَالْكَرْبِ

كما تعددت أنواعهم، وتتنوعت اختياراتهم في اقتناء أصناف الأحذية فلبسوا منها الزيجية⁽⁵⁾، والثَّخَانَ الكُنَابِيَّةَ⁽⁶⁾، والمُشَعَّرَةَ اليمانيَّةَ، والحَذُو اللَّطَافَ⁽⁷⁾، والمُخْتَمَةَ الخِفافَ⁽⁸⁾، والخِفافَ الهاشميَّةَ⁽⁹⁾ والمكسورة الكُنَابِيَّةَ⁽¹⁰⁾، ومن الأدم الثخين، والأسود الرزين بالجوارب،

(1) - هو إبراهيم الموصلي أبو إسحاق بن ماهان بن بهمن رئيس المطربين، أبو إسحاق إبراهيم بن ماهان بن بهمن الفارسي الأصل، ولد بالكوفة سنة خمس وعشرين ومائة، فبرع في الآداب، والشعر، والموسيقى، واتصل بالخلفاء والبرامكة، مات سنة ثمان وثمانين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9/ص: 80.

(2) - الوشاء، الموشى، ص: 162.

(3) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج8/ص: 128.

(4) - الوشاء، الموشى، ص: 224.

(5) - الزيجية: نسبة إلى الزنج وهم جيل من السودان، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (زنج)، ج2/ص: 291.

(6) - الكُنَابِيَّة: نعال هندية اختصت مدينة المنصورة بصناعتها أكثر من غيرها من المدن الأخرى، وأخذت هذا الاسم من مدينة كُنَابِيَّة، انظر رينهارت بيتر أن دوزي، تكلمة المعاجم العربية، ترجمة: جمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، الطبعة الأولى، 2000م، ج9/ص: 147.

(7) - الحذو: من الحذاء، وهو النعل، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (حذا)، ج14/ص: 169.

(8) - المختمة: والأرجح المختمة بالثاء، وهي العريضة الرأس، انظر أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ/1996م، ج1/ص: 409.

(9) - الخفاف الهاشمية: المنسوبة إلى بني هاشم، وتوصف هذه الخفاف بأنها ذات رقبة عالية تخبأ فيها الرسائل وحافظات النقود، انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، دون طبعة، 1398 هـ/1978 م، ج3/ص: 305.

(10) - المكسورة الكُنَابِيَّة: والمقصود بالكنابية تلك المجتمعة سيورها بالخرز، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (كتب)، ج1/ص: 789.

والمِرْعَزِيَّ (1) والقَزَّ (2)، كما لبسوا الخفاف (3) التي يشرك أسودها بأحمر، وأصفرها بالأسود، ويعيبون لبس الأحمر منها ويتخذون التَّكَّكَ الإِبْرَيْسِيَّةَ (4)، والتكك الحَزِّيَّةَ، والمطارف القُطْنِيَّةَ، والمنقوشة (5) الأرمنيَّة (6).

ولعل في قصة زواج المأمون ببوران أكبر دليل على حرص العباسيين في اقتناء أحسن الأردية وأبهى الفرش، فقد أنفق من الأموال والجواهر والحلي وأنواع الثياب واللباس، ما يدل على سعة العيش والترف الحضاري.

وقد أثر عن الحسن بن سهل والد بوران أنه بذل من الأموال ونثر من الدر ما يفوق الوصف في زواج ابنته بوران من الخليفة المأمون حتى قيل إنه عمل بطاطيخ من عنبر وجعل في وسط كل واحدة منها رقعة بضيعة من ضياعه ونثرها، فمن وقعت في يده بطيخة منها فتحها وتسلم الضيعة منها، وفرش للمأمون حصيراً منسوجاً من الذهب، ونثر عليه ألف لؤلؤة، ويذكر أنه أنفق على تلك الدعوة خمسين ألف ألف درهم (7).

ولقد كان بعض المغنين والشعراء المقربين من الحكام يلبسون من المطارف ما ارتفع ثمنه وغلا سعره، كما هي حال إسحاق بن إبراهيم الموصلية (8)، الذي كان يلبس مطارف الخز السود الجميلة، حتى بلغت قيمة الثوب مائة ألف درهم (9).

تلك ملابس القوم في العصر العباسي الأول، ملابس جمال وتحضر وزينة، قد تفاخروا بها وتباهوا في لبسها؛ لذا قال بشار (10):

زَيْنُ الْمَلَابِسِ حِينَ يَلْبَسُهَا وَإِذَا تَسَلَّبَ زَانَهُ سَلْبُهُ

(1) - المرعزي: من المرعز، وهو الزغب الذي تحت شعر العنزة، وقيل هو اللين من الصوف، وجوارب المرعزي منسوبة إليه، انظر ابن منظور، المصدر السابق، ج5/ص: 354.

(2) - القز: من الإبريسم، الحرير مادة (قزز)، انظر الجوهري، الصحاح، ج3/ص: 891، وابن منظور، لسان العرب، مادة (حزر)، ج4/ص: 184.

(3) - الخف: ما غلظ من النعل، انظر المصدر نفسه، ج9/ص: 81.

(4) - التَّكَّكَ: وأشهر التَّكَّكَ تلك التي كانت تستورد من أرمينيا والتي يرتفع سعرها إلى عشرة دنانير، انظر محمد بن حوقل البغدادي الموصلية، أبو القاسم، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، دون طبعة، 1938م، ج2/ص: 344.

(5) - المنقوشة الأرمنية: أي المزينة أطرافها بالديباج، انظر ناصر بن عبد السيد أبي المكارم بن علي، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي، بدون طبعة وتاريخ، ص: 159.

(6) - الوشاء، الموشى، ص: 162.

(7) - ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ج1/ص: 220.

(8) - هو إسحاق بن إبراهيم الموصلية، أبو محمد النديم، كان رأساً في صناعة الأدب والموسيقى، أديبا، عالما، إخباريا، شاعرا، محسنا كثير الفضائل، توفي سنة خمس وثلاثين ومئتين للهجرة، انظر شمس الدين الذهبي، العبر في خبر من غير، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج1/ص: 330.

(9) - الأصفهاني، الأغاني، ج5/ص: 201.

(10) - الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج2/ص: 379.

المبحث الخامس : الحلي

إن الإنسان بطبيعته ومنذ أقدم العصور ميال إلى التجميل والتحلي حتى بأبسط ما كان يملك من إمكانات، ويتطور حياته تطورت وسائل زينته وطرقها واختلفت باختلاف البيئات والعصور، والمرأة بطبيعة الحال أكثر ميلا للزينة من الرجل، لأن الزينة عموما والحلي خصوصا ملائمان لطبيعتها ومكملان لجمالها، غير أن هذا لا ينفي استعمالها من طرف الرجل.

وتعد الحلي في مقدمة المفردات الاجتماعية التي تعكس نمط سلوك الفرد ومستواه المعاشي، وربما قد تفصح عن شيء من شخصيته وما يكون لتلك الشخصية من أثر مهم على واقع حياته العامة، وقد عكست هذه الأخيرة حضارة العصر العباسي الأول المغرق في الترف والازدهار الذي عم مناحي الحياة المختلفة.

لقد شاع البذخ والإسراف عند أبناء الطبقة المخملية في العصر العباسي الأول فغالوا في اصطناع الأبهة ومظاهر التأنق في الملابس والحلية وأدوات الزينة واستخدام الجواهر، وغير ذلك من المظاهر متأثرين في ذلك بغيرهم من الأمم وخاصة الفرس.

وتعتبر حفلات الأعراس الخاصة بتلك الطبقة عن ذلك البذخ والترف الحضاري في إرتداء الحلية، وأصناف الطيب، وأنواع الملابس، ولعل في زواج الرشيد بزبيدة أكبر دليل على ذلك، إذ ذكر الشابشتي⁽¹⁾ في كتابه "الديارات" أن الخليفة المهدي زوج ابنه هارون الرشيد بأمة جعفر ابنة أخيه فاستعد لها مالم يستعد لامرأة قبلها من الآلة وصناديق الجواهر والحلي والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والكسوة، وتم العرس في قصر الخلد في المحرم سنة خمس وستين ومائة للهجرة⁽²⁾، إذ جرى العرس في حفل بهيج حضره عدد كبير من المدعوين من الأمراء والأشراف والأعيان، وحشد الناس في الأماكن وضائق بهم الميادين والساحات وفرق فيهم الرشيد من ماله الخاص خمسين ألف درهم⁽³⁾. هذا بالإضافة إلى ما أنفقه والده المهدي على هذا الزواج؛ فقد وضعت الدنانير والدراهم في كؤوس من ذهب وفضة ووضعت العطور والمسك والعنبر في أواني زجاجية وفرق كل ذلك على الناس وأنه لم ير في الإسلام مثله⁽⁴⁾.

(1) - هو علي بن محمد الشابشتي، أبو الحسن، أحد الندماء الأدياء اتصل بالعزير العبيدي، فولاه خزانة كتبه واتخذة نديما وسميرا، من تأليفه الديارات، اليسر بعد العسر، توفي بمصر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج4/ص: 325.

(2) - الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد، الديارات، تحقيق: كوكيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، 1951م، ص: 100.

(3) - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2/ص: 315.

(4) - الشابشتي، الديارات، ص: 100.

وقد زينت العروس بما يعجز وصفه من الحلي والجواهر حتى أنها لم تستطع السير لكثرة ما عليها من الجواهر، ومن بين ما أهدى لها الرشيد في هذا اليوم "البدنة الأموية"، وهي عبارة عن قميص من لؤلؤ وجوهر مأخوذة من البدن أي الدرع القصير، وقد ذكر أن هذه البدنة كانت لعبد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية امرأة هشام بن عبد الملك، ولم ير في الإسلام مثلها ومثل الحب الذي كان فيها، وكان في ظهرها وصدرها خيطان من ياقوت أحمر وباقيها من الدر الكبار الذي ليس مثله⁽¹⁾.

لا اختلاف في كون زبيدة زوجة الرشيد سيدة عصرها في الأبهة والأناقة، واقتناء أجود أنواع الحلل والزينة، فقد ذكر المؤرخون أنها "أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكلفة بالجواهر وصنع لها الرفيع من الوشى، حتى بلغ الثوب من الوشى الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار، وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري، وأول من اتخذ القباب من الفضة والآبنوس والصنّدل وكلايينها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسّمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، واتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر وشمع العنبر، وتشبه الناس في سائر أفعالهم بأمر جعفر"⁽²⁾.

ويذكر الطبري أن المهدي نظر إلى جارية له عليها تاج فيه نرج من ذهب وفضة، فاستحسنه، وقال فيه شعراً⁽³⁾:

يا حبذا النرجس في التاج

وقد تناول الشعراء الحلي بوصفها زينة للمرأة، تزيدها بهاء وجمالاً، فتسحر العيون، وتستولي على القلوب، ويقدر تعدد حلي المرأة وتنوعها، يكون تحضرها وترفعها، وقد لا يتوفر ذلك إلا في ربات القصور، فإنهن أقدر على تملك الجواهر، وأكثر ترفاً وتنعماً وفي ذلك يقول بشار بن برد⁽⁴⁾:

| | |
|-----------------------------------|----------------------------------|
| يَمَشِي الهُوَيْنَا كَالنَّزِيْدِ | فَ لِئُهْرِهِ وَهُوَ الحَمِيْدُ |
| وَعَلَى التَّرَائِبِ دُرَّةٌ | فِيهَا الزَّبْرَجْدُ والفَرِيْدُ |
| وَنَقَّارِسٌ قَدْ زَانَهَا | حَلَقٌ غَدَائِرُهَا تَصِيْدُ |
| وَأَغْنٌ يَحْفَلُ عُصْفُوراً | وَكَأَنَّه جَمْرٌ وَقُودُ |
| وَالْقُرْطُ فِي مَهْلُوكَةٍ | مَجْرَاهُ مِنْ جَبَلٍ بَعِيْدُ |

(1) - الشابشتي، المصدر السابق والصفحة نفسها.

(2) - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4/ص: 253.

(3) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 185.

(4) - ديوان بشار بن برد، ج2/ص: 215، 216.

استطاع بشار بن برد أن يبرز معالم حضارة عصره من خلال تلك الحلي في سهولة لفظية ومآخذ قريبة، ووزن راقص عصري، هو مجزوء الرجز، الذي تتغنى به الخاصة والعامّة؛ لسهولته وظرفه، وتتكرر رؤية بشار للزبرجد وهو نوع من الحلية التي تزيد النحور رونقاً وروعة فيقول(1):

وَنَحْرًا يُرِيكَ الدَّرَّ لَمَّا بَدَتْ لَنَا
وَحَمْرَاءُ كُلِّوَاذِ الكَثِيبِ تَطَرَّبَتْ
تَقَالُ إِذَا رَاحَتْ كَسُولٌ إِذَا عَدَتْ
تَرَى قُرْطَهَا مُسْتَهْلَكًا دُونَ حَبْلِهَا
بِهَ لَيْئَةٌ مِنْهَا تَزِينُ الزَّبْرَجَدَا
فُوَادِي وَهَاجَتْ عَبْرَةٌ وَتَلْدُدَا
وَتَمْشِي الهُوَيْنَا حِينَ تَمْشَى تَأُودَا
بِنَفْنَفِهِ مِنْ وَاضِحِ اللَّيْتِ أَجِيدَا

كما دلل الشاعر على تحضر المرأة في العصر العباسي الأول، بأنها ثقيلة الحركة كسولة في مشيتها، تسير الهوينا، وكل ذلك يكتفي به الشاعر عن النعمة والدعة والخدمة، التي كانت تحظى بها ذوات الخدور في ذلك العصر.

أما أبو نواس فقد وصف محاسن إحدى الجوارى وما ترتديه من أصناف الحلي، بقوله(2):

لَقَدْ صُبِّحَتْ بِالْخَيْرِ عَيْنٌ تَصَبَّحَتْ
مُقَرَّطَةً لَمْ يَحْنَهَا سَحْبُ ذَيْلِهَا
تُشَارِكُ فِي الصُّنْعِ النِّسَاءَ وَسُلِّمَتْ
وَمَطْمُوعَةٌ لَمْ تَتَّصِلْ بِذُؤَابِئِهِ
بِوَجْهِكَ يَا مَعْشُوقٌ فِي كُلِّ شَارِقِ
وَلَا نَازِعَتِهَا الرِّيحُ فَضَلَ الْبِنَائِقِ
لَهْنَ صَنُوفُ الحَلِيِّ غَيْرِ المَنَاطِقِ
وَلَمْ تَعْتَقِدْ بِالتَّاجِ فَسُوقَ المَفَارِقِ

وقد ذهب أبو نواس وغيره من الشعراء في القرن الثاني للهجرة إلى تشبيه الخمرة بالدر في مثل قوله(3):

مَعْتَقَةٌ حَمْرَاءُ وَقَدَّتْهَا جَمْرُ
حَطَطْنَا عَلَى خَمَّارِهَا ، جُنَحَ لَيْلَةٍ
وَنَكَهَتْهَا مِسْكًَ وَطَلَعَتْهَا تَبْرُ
فَلَاحَ لَنَا فَجْرٌ وَلَمْ يَطْلَعْ الفَجْرُ

إلى أن قال:

كَأَنَّ الزَّجَاجَ البَيْضَ مِنْهَا عَرَائِسُ
إِذَا فَهَرَّتْ بِالمَاءِ ، رَاقَ شُعَاعُهَا
وَضَاءَ مِنَ الحَلِيِّ المُضَاعَفِ فَوْقَهَا
عَلِيهِنَّ بَيْنَ الشَّرْبِ أُرْدِيَةٌ حُمْرُ
عُيُونِ النَّدَامَى ، وَاسْتَمَرَّ بِهَا الأَمْرُ
بَدُورٌ ، وَمُرْجَانٌ تَأَلَّفَهُ الشَّذْرُ

(1) - بشار بن برد، المصدر السابق، ج3/ص: 31.

(2) - ديوان أبي نواس، ج4/ص: 90.

(3) - المصدر نفسه، ج3/ص: 147.

جاء الشاعر في هذه الأبيات على ذكر جملة من الأوصاف الحضارية في ألفاظ سلسلة وعبارات منمقة، فعدد أصناف الحلي، من المرجان والذهب والدر التي لولا وجودها آنذاك، لما استطاع أبو نواس ولا غيره ترصيع الكلمة وشحذ البيت بكل تلك المعاني الزاخرة.

ويقول مسلم بن الوليد⁽¹⁾ الملقب بصريع الغواني في وصف جارية أنته تمشي على استحياء مخافة أن تسمع أصوات حليها⁽²⁾:

| | |
|------------------------------|-------------------------------------|
| وزائرة رُعْتُ الكرى بلقائها | وعاديتُ فيها كوكب الصبح والفجرَا |
| أنتني على خوفِ العيون كأنها | خذول تراعى النَّبتَ مُشعرة دُعرا |
| إذا ما مشت خافت تميمة حليها | تُدَارى على المشي الخلاخيل والعُطرا |
| فبت أسرُّ البدر طوراً حديتها | وطوراً أناجي البدر أحسبها البدرَا |

وتجدر الإشارة إلى أن النساء في عصر بني العباس اتخذن من الخلاخل والأساور الفضية زينة لهن، ومن كمال الزينة أن تغتص الذراعان والساقان بتلك الحلي، وفي ذلك قال صريع الغواني⁽³⁾:

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| بارزته وسلاحه خالاه | حتى فضضت بكفي الخالاه |
| هذا الخيال فكيف لي بمنعم | رود الشباب تخالاه تمالاه |
| صمتت خلاخله وغص سواره | والقلب واضطرب الوشاخ وجالا |

لقد برع سكان بغداد في استخدام الحلي وصياغتها، بل وفاقوا غيرهم، كما نبغ الفرس في هذه الحرفة، فبلغت صناعتهم شأواً بعيداً في الدقة والجمال وتمام الذوق، حتى إنه ليذكر عنهم أنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجوهر، ويكتبون عليه بالذهب المجسم، ويصنعون للملوك أقداحاً تبهر البصر، وصوروا أشكالاً لبعض الحيوانات والطيور على الكؤوس والأواني⁽⁴⁾.

(1) - هو مسلم بن الوليد الأنصاري، بالولاء، أبو الوليد، المعروف بصريع الغواني، شاعر غزل، هو أول من أكثر من البديع وتبعه الشعراء فيه، وهو من أهل الكوفة، توفي سنة ثمان ومائتين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج7/ص: 223.

(2) - صريع الغواني، مسلم بن الوليد، الديوان، صححه حسين أحمد البنا، مكتبة المعاهد العلمية، مصر، بدون طبعة وتاريخ، ص: 34.

(3) - المصدر نفسه، ص: 74.

(4) - انظر حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، 1996م، الطبعة الرابعة عشر، دون تاريخ، ج2/ص: 254.

كما نقشوا عباراتٍ وحكماً وأشعاراً على خواتيمهم، ومنها: "القناعة خير من الضراعة"، "التقلل خير من التذلل"، "السلامة خير من الندامة"، "الأسف أهون من التكلف"، "بادر الفرصة قبل أن تكون الغصة"، "من قدم هواه دام أساه"، "الهوى ثوب الضنى"، إلى غير ما ذكروا من عباراتٍ وحكمٍ تحذر من الغفلة، وتصف السلامة، وتبين شوق الحبيب، وتعرض بالصد والهجران وما شابه ذلك⁽¹⁾.

ويذكر أن أبا نواس كان له خاتمان: أحدهما عقيق مربع كتب عليه⁽²⁾:

تَعَاظَمْنِي دَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بَعْفُوكَ رَبِّي كَانَ عَفْوكَ أَعْظَمَا

والآخر حديد صيني مكتوب عليه: "أشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً"⁽³⁾، ولم يقتصر الأمر الحضاري على الخواتم فحسب، بل تعدى ذلك إلى الأواني المصنوعة من الذهب والفضة، والصيني المذهب، فكتبوا عليها الأقوال والأشعار، فقد وجدت صينية بين يدي المأمون مكتوب عليها الأبيات الآتية⁽⁴⁾:

لا شيء أملحُ من أيامِ مَجْلِسِنَا إذْ نَجْعَلُ الرُّسُلَ فيما بيننا حَدَقَا
وإذْ جَوَانِحُنَا تُبْدي سَرَائِرَنَا وشَكْنَا في الهوى تَلَقَّاهُ مُتَّفَقَا
ليتِ الوُشَاةُ بنا والعاشقين لَنَا في لُجَّةِ البَحْرِ ماتُوا كلُّهم غَرَقَا
أوليتِ مَنْ دَمَّنَا أوْ عَابَ مَجْلِسَنَا شُبَّتْ عليه ضِرَامُ النَّارِ فاحترَقَا

إذاً فقد شكلت الزينة بما فيها من حلي وجواهر صورة للحياة العصرية الجديدة، المحلاة بطعم الحضارة والتأنق في أساليب العيش، ولا سيما عند الطبقة الحاكمة، وخاصة في بغداد مركز التقدم والبهو والتحضّر وحياة الترف، ويظهر ذلك جلياً في قصائد بعض الشعراء، إذ يقول أبو الشمقمق - على سبيل المثال لا الحصر - واصفاً الحياة في بغداد وفي الأهواز⁽⁵⁾:

ما أراني إلا سَأْتَرُكُ بَغْدَا دَ وَأَهْوَى لِكُـوَرَةِ الأَهْـوَازِ
حيث لا تُنْكَرُ المعازِفُ واللّهـ أوْ وشَرِبُ الفَتَى من النَّفَمَازِ
وجوارٍ كأنهنّ نجومُ الـ يَلْ زُهْرُ مِثْلُ الطِّبَاءِ الجَوَازِي

(1) - انظر الوشاء، الموشى، ص: 215.

(2) - ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 1/ص: 420.

(3) - الأبيشي، المستطرف في كل فن مستطرف، ج 1/ص: 278.

(4) - الوشاء، الموشى، ص: 246.

(5) - الأهواز: كورة بين البصرة وفارس، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 1/ص: 285، وأبو الشمقمق، الديوان، تحقيق: واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م، ص: 61.

المبحث السادس: العطور

العِطْرُ لغة اسمٌ جامعٌ للطَّيبِ، والجمع عطور وأعطار، وتقول العرب: امرأةٌ عَطْرَةٌ ومِعْطِيرٌ ومِعْطَرَةٌ: تتعهد نفسها بالطَّيب وتكثر منه، فإذا كان ذلك من عاداتها، فهي مِعْطَار ومِعْطَارَةٌ⁽¹⁾.

أما اصطلاحاً فالعُطور هي الشدَى الناتج عن الزيوت العطرية للنباتات ومن العطور التخليقية، وهي قديمة الاستعمال، في حين تُعرف العُطور الحديثة باعتمادها عادة على توليفة من الروائح الطبيعية والتخليقية مع مثبَّات، وتركَّب هذه المكونات مع الكحول في صناعة العطور المائعة ومع القواعد الدهنية في كثير من مواد التزيين⁽²⁾.

وقد عرف العرب الطَّيب قبل الإسلام وبعده، ومشمومه عند العرب على أنواع، فمنه المسك والعنبر والكافور والعود والندِّ، ولشدة اهتمام العرب به، أفردوا لكلِّ نوع أسماء بعينها، فقالوا عن المسك: الأناب والصَّوار - القطعة منه - والفأرة والنافجة - ما فيه - واللَّطيمة والفِناق والشَّدو، وسموا لون المسك الدكنة، لأنه يضرب إلى العُبرة، والأصهب لأنه يضرب إلى الحُمرة⁽³⁾، يقول عنتره بن شدَّاد⁽⁴⁾ واصفاً دار عبلة⁽⁵⁾:

قِف بِالِدِيَارِ وَصِحْ إِلَى بِيَدَاهَا فَعَسَى الدِّيَارُ تُجِيبُ مَنْ نَادَاهَا
دَارٌ يَفُوحُ المِسْكُ مِنْ عَرَصَاتِهَا وَالْعُودُ وَالنَّدَى الذَّكِيُّ جَنَاهَا

ولا ريب أن الإسلام دين النظافة رغب في الطيب وندب إلى استعماله، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر المسك في وصف أهل الجنة، قال عز وجل: { يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ }⁽⁶⁾.

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (عطر)، ج4/ص: 582.

(2) - الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 2009م، ج4/ص: 2255.

(3) - السري بن أحمد الرفاء، المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، تحقيق: مصباح غلاونجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دون طبعة، 1407هـ / 1986م، الباب الرابع والثلاثون، ج2/ص: 154.

(4) - هو عنتره بن شداد بن عمرو بن معاوية ابن قراد العبسي، من أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى، أمه حبشية اسمها زبيبة، سرى إليه السواد منها، كان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة، وكان مغرماً بابنة عمه عبلة، فقل أن تخلو له قصيدة من ذكرها، توفي سنة اثنين وعشرين قبل الهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج5/ص: 91.

(5) - الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنتره، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ / 1992م، ص: 210.

(6) - سورة المطففين، الآية: 25، 26.

ووردت أحاديث كثيرة في السنة النبوية ارتبطت معانيها بالطيب والرائحة الطيبة الزكية، ولا سيما المسك فضلاً وتفضيلاً، فاستحق أن يكون سيّد أنواع الطيب كافة، فالمسك أطيب الطيب كما وصفه عليه الصلّاة والسلام⁽¹⁾، فقد كان من أحب الأشياء وأقربها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم ير عليه الصلاة والسلام إلا أنيقاً جميلاً متطيباً، حتى إنه ليعرف الطريق الذي مر منه عليه الصلاة والسلام من رائحته الطيبة المنبعثة منه، وقد جاء في المسند أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: " حُب إلي من الدنيا النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة"⁽²⁾.

وقد تمادحت العرب بحسن الهيئة وطيب الرائحة، فقال كثير عزة⁽³⁾:

أشْمُ مِنَ الْغَادِينَ فِي كُلِّ حَلَّةٍ يَمِيسُونَ فِي صِبْغٍ مِنَ الْعَصْبِ مُتَّقِنِ
لَهُمْ أُرْرُ حُمُرُ الْحَوَاشِي يَطُونَهَا بِأَفْدَامِهِمْ فِي الْحَضْرَمِيِّ الْمَلْسَنِ

ومن الطبيعي أن يتفنن الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم من الأكابر في دولة بني العباس في انتقاء أندر أنواع الطيب والبخور، وهم أهل الثراء والحضارة، فقد كانت تجلب إليهم العطور بأصنافها من أقاصي البلاد، وكان أجود الطيب يقدم على موائد الخلفاء، فيدهن به كل من حضر المائدة بعد أن يقضي مأكله ويغسل يديه، ويقول الأصمعي⁽⁴⁾ في وصف طيب قدم بعد الفراغ من مائدة الفضل بن يحيى البرمكي: " وأتينا بألوان من الطيب، فغسلنا أيدينا، وكنت كلما استعملت منه لوناً ظننته أطيب ما في الدنيا من عطر فاخر، حتى إذا استعملت غيره زاد عليه طيباً، فلما فرغنا من ذلك إذا غلام قد أقبل معه جام بلور فيه غالية، قد ازرقّت بكثرة العنبر، فتناولنا بملعقة من الذهب حتى نضحناه، فصرت كأني جمرة"⁽⁵⁾.

(1) - انظر سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دون طبعة وتاريخ، الحديث رقم: 3158، ج3/ص: 200.

(2) - أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421 هـ / 2001 م، الحديث رقم: 12294، ج19/ص: 307.

(3) - هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر، شاعر، متيم مشهور من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر، وفد على عبد الملك بن مروان، فازدرى منظره، ولما عرف أدبه رفع مجلسه، وكان مفرد القصر دميماً، في نفسه شمم وترفع، توفي بالمدينة سنة خمس ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج5/ص: 219، وكثير عزة، الديوان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، دون طبعة، 1394 هـ / 1971 م، ص: 252.

(4) - هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع بن مظهر بن عبد شمس الأصمعي البصري، صاحب اللغة، كان إمام زمانه في اللغة، قال البخاري مات سنة ست عشرة ومائتين للهجرة، وقال غيره سنة خمس عشرة، انظر الصفي، الوافي بالوفيات، ج19/ص: 127.

(5) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 214.

ومما لا شك فيه أن التطور الحضاري الذي شهدته بغداد حاضرة الخلافة العباسية، قد لعب الدور الأساس في تطوير سلوكيات وأنواق المجتمع، حتى أصبح البغداديون رمزاً من رموز التألق الإنساني الرفيع، فاستكثروا حينئذ من العطور وأنواع الطيب من الغالية والمسك والكافور والعنبر والروائح الأرجة التي كانت تستخلص من البنفسج والزرعس والنيلوفر وغير ذلك من الأزهار، واشتهرت جور الفارسية بماء الورد وأدهنة الزعفران⁽¹⁾.

أما الشاعر العباسي، فعَدَّ التعطّر من سمات جمال المرأة، بل كانت تلك العطور والأطياب مبعث هيام العاشقين والمحبين من الشعراء، يقول أبو نواس مشبها رائحة محبوبته برائحة الطيب⁽²⁾:

سَقَى اللهُ ظَبِيًّا مُبْدِي الْغُنْجِ فِي الْخَطْرِ
بِعَيْنَيْهِ سِحْرٌ ظَاهِرٌ فِي جُفُونِهِ
هُوَ الْبَدْرُ ، إِلَّا أَنْ فِيهِ مَلَاخَةٌ
يَمِيسُ كَغُصْنِ الْبَانِ مِنْ رِقَّةِ الْخَصْرِ
وَفِي نَشْرِهِ طِيبٌ كَفَائِحَةِ الْعِطْرِ
بِتَقْتِيرٍ لَحْظٍ لَيْسَ لِلشَّمْسِ وَالْبَدْرِ

ويقول أيضا في السياق ذاته⁽³⁾:

لَوْلَا الْأَمِينُ ، وَأَنَّ الْعُذْرَ مَنْقُصَةً
جَاءَتْ يَخَاتِمَهَا مِنْ عِنْدِ خَمَارٍ
فَالرَّيْحُ رِيحٌ نَكِيٌّ الْأَذْفَرِ الدَّارِي
مَا تَخَنَّتِي مَجْلَساً مِمَّا تَمَرَّ بِهِ
حَتَّى إِذَا حَازَهَا الْحَيِّ الَّذِي قَصَدُوا
فَاحَتْ بِرَائِحَةٍ قَالَ الْعَرِيفُ لَهُمْ:
وَالْعَارُ بِالْعُذْرِ عِنْدِي أَقْبَحُ الْعَارِ
رَوْحٌ مِنَ الْكَرَمِ فِي جِسْمٍ مِنَ الْقَارِ
وَالْبَرْدُ بَرْدُ النَّدَى ، وَاللُّونُ لِلنَّارِ
إِلَّا تَلَوَّهَا بِأَسْمَاعٍ وَأَبْصَارِ
بِهَا إِلَيْهِ ، فَحَيَزَتْ مِنْهُ فِي دَارِ
هَلْ فِي مَحَاتِّبَا دُكَّانُ عَطَارِ

ولا يخفى ما في تصوير أبي نواس من خيال حضري، قد مس أطراف ذلك المجتمع الذي أحب الروائح الطيبة، وغالى في اقتناء أنواع العطور.

كما ذهب أبو نواس إلى تشبيه الخمر بالمسك فقال⁽⁴⁾:

نَحْنُ نُخْفِيهَا ، وَيَأْبَى
فَكَأَنَّ الْقَوْمَ نُهَبَى
طِيبُ رِيحٍ ، فَتَفْـؤُحُ
بِيَهُمْ مِسْكَ ذَبِيحُ

(1) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 50.

(2) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 145.

(3) - المصدر نفسه، ج3/ص: 154.

(4) - المصدر نفسه، ج1/ص: 153.

وهذا بشار بن برد يعاتب محبوبته، مذكرا إياها بما جمعها من ود ووصال، فيقول(1):

أَصْفَرَاءُ مَا أَنْسَى هَوَاكَ وَلَا وُدِّي وَلَا مَا مَضَى بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ وُكْدِ
أَبَى اللَّهِ إِلَّا أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَنَا وَكُنَّا كَمَاءِ الْمُزْنِ بِالْعَسَلِ الشَّهْدِ
فِيَا غَادِيَا يَخْتَالُ فِي الْعِطْرِ وَالْحُلَى وَيَا وَاقِفَا يَبْكِي مُقِيمًا عَلَى فَقْدِ
لَقَدْ كَانَ مَا بَيْنِي زَمَانًا وَبَيْنَهَا كَمَا كَانَ بَيْنَ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ

استطاع الشاعر من خلال الأبيات السابقة أن يزاوج بين جلال المعنى وجمال المبنى، فساق لنا تلك الصور الحضارية المبنية على تشبيه المعنويات بالمحسوسات، وما كان لذلك أن يتأتى له لولا حياة الترف والبذخ التي سمحت لنسوة ذلك العصر بالالتعم بأجود أصناف الزينة والعطور.

ومن تغزله بمحبوبته أن شبه حسن حديثها بالرياض تارة وبالسحر تارة أخرى، كما شبه جسدها بالذهب والحرير إذ يقول(2):

يَا لَيْلَتِي تَزْدَادُ نَكَرًا مِنْ حُبِّ مَنْ أَحْبَبْتُ بِكَرًا
حَـوْرَاءُ إِنْ نَظَرْتُ إِلَيْـ لَكَ سَقَاتُكَ بِالْعَيْنَيْنِ خَمْرًا
وَكَا أَنْ رَجَعَ حَدِيثُهَا قَطَعَ الرِيَاضِ كَسِينِ زَهْرًا
وَكَا أَنْ تَحْتِ لِسَانِهَا هَارُوتُ يَنْفُثُ سِحْرًا
وَتَخَالُ مَا جَمَعْتَ عَلَيْهِ ثِيَابَهَا ذَهَبًا وَعَطْرًا
وَكَا نَهَّـ بَارِدُ الشَّرَا بَ صَفَا وَوَأْفَقَ مِنْكَ فَطْرًا
جَنِيَّةٌ إِنْسِيَّةٌ أَوْ بَيْنَ ذَلِكَ أَجْلُ أَمْرًا

بدأ بشار وصفه لهذه المرأة بعينيها الحوراء، وماتنشره أنفاسها من طيب كطيب الرياض، ووصف حديثها، وما يذيع فيه من سحر، كما صور جسدها ذهباً وطرّاً، وبسبب افتتانه بها يرى أنه لا مثيل لها لا في عالم الإنس ولا في عالم الجن، فقدم صورة لفتاته الحسنة من خلال صور فنية، لا يعمد فيها إلى إبراز أوصافها الخارجية ودقائق مفاتنها، إنما يأتي باللحاحات الشكلية، مركبة تركيباً وجدانياً محض فيجعلنا نشعر بجمال الفتاة دون أن تتمثل أمامنا "ففي هذه القصيدة قد رققت الحضارة حسه، وفتحت له في الغزل ألواناً من المعاني والصور التي تنم عن أثر البيئة وما شاع فيها من ترف مادي وشعور رقيق حاد(3)".

(1) - ديوان بشار بن برد، ج2/ص: 311.

(2) - المصدر نفسه، ج4/ص: 55.

(3) - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 217.

إن هذه الازدواجية في الغزل مردها إلى الازدواجية التي عاشها بشار بين عصرين، فقد عاش شطرا من حياته في عصر بني أمية فتأثر بالاتجاهات الشعرية السائدة آنذاك فلمح أن هذه القصيدة من الطابع العذري على نحو ما تغنى به كثير وجميل، وما امتازا به في وصف معاناة المحب، وما أتاحت له الحياة الحضرية في العصر العباسي وما صاحبها من ترف، وتحرر أن ينهج هذا المنهج في غزله عامة ووصفه خاصة⁽¹⁾.

ويتلقى شاعرنا هدية من العطر والريحان، فيقول⁽²⁾:

أَلَا يَا حَبَّـذًا وَاللَّهِ مَن أَهْدَى لِي الْعِطْرَا
وَمَن أَهْدَى لِي الرَّيْحَا ن قَدْ شَابَ بِهِ سِحْرَا

وللهدية عظيم الأثر في استجلاب المحبة وإثبات المودة وإذهاب الضغائن وتأليف القلوب، كما أنها تتفاوت من مجتمع إلى آخر، فأفراد المجتمعات المتحضرة يتنافسون في تقديم الهدايا القيمة والغالية الثمن، إلا أننا نجد بشار ورغم أنه عاش حياة الترف يتلقى الريحان كهدية لما تحمله نفسه من إجلال وتقدير لهذه النبتة العطرة، وفي ذلك دلالة واضحة على حب المجتمع للأناقة والترف الحضاري الذي قلما نصادفه في مجتمع آخر.

واهتم الظرفاء بالعمور والروائح الزكية الفواحة، وأكدوا على أن لا يتطاير لإبط الإنسان رائحة الدفر الكريهة، وقد ذكر الوشاء كثيراً من الأطياب التي كان يستخدمها الكبراء والظرفاء فقال: "ومن زيهم في التعطر والطيب بالمسك المسحوق بماء الورد المحلول واستعمال العود المعنبر بماء الورد المحلول واستعمال العود المعنبر بماء القرنفل المخمر، والنَّد السلطاني، والعنبر البحراني، والعنبر"⁽³⁾.

أما المتظرفات من النساء فلهن حياتهم الخاصة التي تختلف عن حياة الرجال الظرفاء، فكانت عطورهم هي الصندل والقرنفل، والمعجونات والزعفران والخلوق والكافور وماء الكافور، وسائر صنوف الأدهان من البنفسج والزنبق⁽⁴⁾.

(1) - انظر فوزي عيسى وفوزي أمين، في الأدب العباسي، دارالمعارف، القاهرة، مصر، دون طبعة، 2008م، ص: 149.

(2) - ديوان بشار بن برد، ج3/ص: 237.

(3) - الوشاء، الموشى، ص: 162.

(4) - انظر المصدر نفسه، ص: 164.

وقد جاء ذكر الزعفران في شعر بشار بن برد مقرونا بصورة حضارية تنم عن ترف العصر وتألّق نسائه، فيقول(1):

لَمَا طَلَعْنَ مِنَ الرَّقِيقِ عَلَيَّ بِالْبِرْدَانِ خَمْسًا
وَكَاكُنَّ أَهْلَهُنَّ أَهْلًا تَحْتَ الثِّيَابِ رَفَقْنَ شَمْسًا
بَاكِرُنَ عَطَرَ لَطِيمَةً وَعَمَسْنَ فِي الْجَادِيَّ عَمْسًا

يبرز بشار من خلال ما سبق من الأبيات صورة تلك النسوة اللواتي طرقتن بابه، ففاضت قريحته شعراً، من جمال الطلعة، وحسن الهدام، وإسراف في استخدام العطور، حتى بالغ كثيراً فجعلن ينغمسن في الزعفران غمساً.

ويستمر ذكر العطور على السنة شعراء العصر، فهذا ابن الأحنف الذي سار على مدرسة أسلافه كأبي العتاهية وبشار في سهولة اللفظ وبساطة المعنى، يذكر العود الهندي الذي يتطيب به سراة القوم، فيصف من يهوى، خاصة وأنه شاعر غزل متمكن، بأنها معطار، أي أنها من المسرفين في استخدام الطيب، الذي هو من لوازم الحضارة وعدتها قائلاً(2):

يَا مُوقِدَ النَّارِ بِالْهِنْدِيِّ وَالْعَارِ هَيَّجَتْ لِي حَزَنًا يَا مُوقِدَ النَّارِ
بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْمَيْدَانِ أَرْفُهَا شُبَّتْ لِغَائِيَةٍ بَيِّضَاءَ مِعْطَارِ
هَاجَتْ لِي الرِّيحُ مِنْهَا نَفْحَ أَحْيَتْ عِظَامِي وَهَاجَتْ طُولَ تَذْكَارِي

وقال ابن الأحنف يقارن الكافور بالمسك(3):

وَلَائِمٌ فِي السُّمْرِ مِنْ جَهْلِهِ مُسْتَهْلِكٌ فِي الْبَيْضِ ذِي مَخْكِ
فَقَلَّتْ إِذْ لَأَمَ مَجِيئاً لَهُ: مَنْ يَعْدِلُ الْكَافُورَ بِالْمَسْكِ

وطبيعي أن يشيع في جو الحضارة العباسية الزاخرة بالترف استخدام العطور بشكل مبالغ فيه إلى درجة أن قصور الرشيد كانت تعبق بأنواع الطيب الفريدة، فقد أثر أنه في كل يوم من القبيظ يؤتى بإناء من فضة يعمل فيه العطار الطيب والزعفران والأفاويه وماء الورد، ثم يدخل إلى بيت مقبله، ويدخل معه سبع غلائل قصب رشيدية تقطيع النساء ثم تغمس الغلال في ذلك الطيب، ويؤتى في كل يوم بسبع جوار، فتخلع عن كل جارية ثيابها ثم تخلع عليها غلالة، وتجلس على كرسي مثقّب، وترسل الغلالة على الكرسي فتجلله، ثم تبخر من تحت

(1) - ديوان بشار بن برد، ج4/ص: 82، 83.

(2) - ديوان العباس بن الأحنف، ص: 110.

(3) - المصدر نفسه، ص: 208.

الكرسي بالعود المدرج في العنبر أمداً حتى يجف عليها القميص، ويكون ذلك في بيت مقيل الرشيد، حتى يمتلئ بالطيب ويفوح بالبخور⁽¹⁾.

لقد كان للمسك نصيب الأسد في أشعار العباسيين لما له من فوائد عظيمة صحية واجتماعية ومن أولئك ابن ميادة⁽²⁾ الذي شبه روائح الأسنان والفم بالمسك في قصيدة غزلية⁽³⁾:

كَأَنَّ عَلِيَّ أَنْيَابَهَا الْمَسْكَ شَابَهُ
وَمَا ذُقُّهُ إِلَّا بِعَيْنِي تَفْرُسًا
يَضُمُّ إِلَى اللَّيْلِ أَذْيَالَ حُبِّهَا
بُعَيْدَ الْكَرَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ عَابِقُ
كَمَا شِيمَ فِي أَعْلَى السَّحَابَةِ بَارِقُ
كَمَا ضَمَّ أَرَادَنَّ الْقَمِيصِ النَّبَاتِقُ

أما ربعة الرقي⁽⁴⁾، وهو من شعراء الدولة، وحظي بلقاء هارون الرشيد، فقد شبهه هو أيضاً رائحة فم المحبوب بالمسك فقال⁽⁵⁾:

إِذَا ابْتَسَمْتَ حَسِبْتَ الثَّغَرَ مِنْهَا
جَلْتُ بِبِشَامَةٍ بَرْدًا عَذَابًا
فَلَمْ تَزِدِ الْبِشَامَةَ فَائِكٌ طَيِّبًا
تَأَلَّقَ بَارِقٍ يَجْأُو الظَّلَامَا
كَأَنَّ عَلَيْهِ مَسْكَاً أَوْ مُدَامَا
وَلَكِنْ أَنْتِ طَيِّبَتِ الْبِشَامَا⁽⁶⁾

لقد أجاد الشاعر وصف ثغر حبيبته الذي يفوح برائحة المسك العطرة، فنقل لنا إحدى أجمل صور الغزل التي تعبق حضارة ورقيا، ولا يستغرب ذلك من ربعة فهو من أطبع أهل زمانه، وأرقهم غزلاً، وحسناً في اختيار اللفظ وسلاسة المعنى، وجمال التصوير، ولقد كان ابن المعتز يعجب به، وجمال غزله.

وحري بالذكر أن العصر العباسي شهد ازدياداً واضحاً في أعداد الجواري في البلاد لاسيما بعد تأسيس مدينة بغداد إذ جلبن إليها من مختلف البلدان فكان منهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات ومن المدينة والطائف واليمامة ومصر، وأصبح الحديث عنهن يشغل مجالس السلطة الحاكمة، لاسيما الخلفاء الذين امتلأت كتب التاريخ بمغامراتهم مع الجواري، هذه الزيادة المفرطة في أعداد الجواري ترجع إلى أسباب عدة، منها كثرة الحروب التي خاضها الأمويين والعباسيين من بعدهم، وهذا ما أدى إلى

(1) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 356.

(2) - هو رماح بن أبرد بن ثوبان بن سراقبة بن سليمان المعروف بابن ميادة، من الشعراء المجيدين، كثير الشعر وهو مخضرم أدرك الدولتين جميعاً، انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج18/ص: 200.

(3) - شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج2/ص: 61.

(4) - هو ربعة بن ثابت بن لجأ بن العيذار الأسدي، أبو ثابت الرقي، شاعر غزل مقدم، كان ضريراً، ولقب بالغاوي، عاصر المهدي العباسي ومدحه بعدة قصائد، وكان الرشيد يأنس به وله معه ملح كثيرة، مولده ومنشأه في الرقة، توفي سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج3/ص: 16.

(5) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 165.

(6) - البشام: شجر طيب الريح والطعم يستاك به، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (بشم)، ج12/ص:

اتساع الدولة وانتشار تجارة الرقيق انتشاراً واسعاً فضلاً عن حالة الترف والرخاء التي عاشها العباسيون حيث تراكمت العائدات المالية والعينية المجلوبة إلى بغداد من جميع أنحاء البلاد، كما أن زيادة الرقيق قد جاءت أيضاً نتيجة لتزاوجهم مع بعضهم بعضاً، أو تزوج أمهاتهم برجال أحرار. وأياً كانت أسباب انتشار الرقيق في العصر العباسي فإن قصور الخلفاء أصبحت تعج بالجواري والقيان، وفيهن المغنيات، والشاعرات، والساقيات، وكان من هؤلاء الجواري السمر المليحات اللاتي أكثر الشعراء من وصفهن فكانوا يشبهونهن بالمسك الذي هو من أجود أنواع الطيب.

وقد قال أبو الشيص⁽¹⁾ في وصف جارية سوداء تدعى "تبر" كان يعشقها⁽²⁾:

| | |
|---------------------------------------------------|----------------------------------------|
| لَمْ تُنْصِفِي يَا سَمِيَّةَ الذَّهَبِ | تَتَلَفُ نَفْسِي وَأَنْتِ فِي لَعِبِ |
| يَا ابْنَةَ عَمِّ الْمِسْكِ الذِّكِيِّ وَمَنْ | لَوْلَاكِ لَمْ يُتَخَذْ وَلَمْ يَطِيبِ |
| نَاسِبِكِ الْمِسْكِ فِي السَّوَادِ وَفِي الرَّيِّ | حَ فَأَكْرِمُ بِذَلِكَ مِنْ نَسَبِ |

تعامل الشعراء مع بيئة العصر العباسي الأول بما حوت من أطياب وبخور بطريقة تتم عن كثير من التحضر والأناقة، فأكثرُوا من وصفها والحديث عنها، تغزلاً بالمحبة وطلباً لودها، حتى بلغ بهم الأمر إلى التشاؤم من بعضها لأن في مسمياتها ذكر وشبه للرحيل أو اليأس أو ما شابه ذلك، فقد أخذ بعضهم كلمة "سفر" من سفرجل، والسفر في نظرهم إيذان بالبعد والفراق، قال الشاعر⁽³⁾:

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| مُتَجِفِّي بِالسَّـ فَرَجَلِ | لَا أَرِي دُ السَّـ فَرَجَلَا |
| اسْمُهُ ، لَوْ عَرَفْتَهُ | سَفْرُ جَلِّ ، فَاعْتَلَى |

ووجد شاعر آخر في كلمة "الياسمين" كلمة يأس، فعاب الياسمين لذلك، قائلاً⁽⁴⁾:

| | |
|-------------------------------------------------|-----------------------------------------------|
| إِنِّي لِأَذْكَرُ بِالرَّيْحَانِ رَائِحَةً | مِنْهَا فَلِلْقَلْبِ بِالرَّيْحَانِ إِيْنَاسُ |
| وَأَمْنَحُ الْيَاسِمِينَ الْبُعْضَ مِنْ جَدْرِي | لِلْيَاسِ إِذْ كَانَ فِي بَعْضِ اسْمِهِ يَاسُ |

(1) - هو محمد بن رزين بن سليمان، ولقب بأبي الشيص، وكنيته أبو جعفر، وهو من شعراء عصره متوسط المحل فيهم غير نبيه الذكر، لوقوعه بين مسلم بن الوليد، وأشجع السلمي، وأبي نواس، فخمل وانقطع ذكره، انقطع إلى عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعي أمير الرقة يمدحه فأغناه، توفي أبو الشيص سنة ست وتسعين ومائة للهجرة مقتولاً، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج16/ص: 279.

(2) - المصدر نفسه، ج16/ص: 284.

(3) - الوشاء، الموشى، ص: 173.

(4) - المصدر نفسه، ص: 174.

لقد اعتنى العباسيون في القرن الثاني للهجرة بالترويج لقيم الجمال والتأنق في حياتهم اليومية، واعتبروه مطلباً حضارياً وإنسانياً، وقد عُرف عن الرجل الذي يهتم بهذه القيم بأنه يستخدم "العطر والصبغ والخضاب، والكحل والنتف والقص والحلق وتجويد الثياب وتنظيفها"⁽¹⁾. وأكثرت النساء العربيات المسلمات في العصر العباسي من العطر والطيب من المسك الممزوج بماء الورد المحلول بالعنبر البحريني والقرنفل، وصنعن خالا على الجهة اليمنى من أعلى الخد فبدا نتوء وجنة الخد وعليه الخال الذي زاد الوجه حسنا وجمالا كأنه نقطة عنبر في صحن مرمر.

ولم يقف الأمر على ذلك، بل ألفت كتب جملة في وصف العطور وتعداد أنواعها، ومحاسنها، إذ ذكر ابن النديم عدداً من أسماء تلك الكتب ومنها: كتاب العطر ليحيى بن خالد وكتاب في العطر والتركيبات، أغفل تحديد مؤلفه، وكتاب العطر لحبيب العطار، وكتاب العطر وأجناسه للمفضل بن سلمة وكتاب آخر في العطر وأجناسه ومعادنه لرجل جبلي⁽²⁾.

(1) - الجاحظ، الرسائل الأدبية، ج3/ص: 142.
 (2) - انظر ابن النديم، الفهرست، ج1/ص: 385.

المبحث السابع: الأطعمة والأشربة

يعد الطعام والشراب حاجتين أساسيتين لكل فرد، وقد من الله سبحانه وتعالى بهما على البشر منذ أن أنزل آدم على سطح الأرض فقال في محكم كتابه: { إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى } (1).

بدأت الأطعمة بسيطة ومحدودة ولم يظهر التنوع في الطعام والشراب عند العرب قبل الإسلام ولا سيما في البوادي إذ تميزت موائدهم بأنواع محددة من الأطعمة والأشربة وهي بسيطة الصنع بعيدة عن التفنن، غير أن الأمر يختلف إلى حد ما في وصف موائد الحواضر العربية بسبب اختلاطهم بالأمم المجاورة وهو ما ساهم في إدخال بعض أنواع الأطعمة فضلاً عن التعرف على طرق طهيها، بل إن بعض تلك الأطعمة ظل محافظاً على تسميته الأعجمية.

واتسمت موائد الملوك والأثرياء في العصر العباسي الأول بكونها حافلة بأنواع مختلفة من الأطعمة والأشربة إذ قال الجاحظ في هذا الصدد: " إن من ينظر إلى أشعار العرب يعلم أنهم قد أكلوا الطيب وعرفوه، إلا أن الناعم من الطعام لا يكون إلا عند أهل الثراء وأصحاب العيش" (2).

والحقيقة أن التحضر يقترب بالتألق والتألق في جميع مناحي الحياة بما في ذلك المطعم والمشرب، ويتأكد ذلك عند الطبقة المترفة في العصر العباسي الأول، التي تفننت كثيراً في اختيار أطعمتها وأشربتها، بل إن البذخ بلغ عند ملوكها وأمرائها ووزرائها أن طعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة، وصحاف الصيني المزخرفة.

كما كانوا يختارون الطباخين المهرة الذين يحسنون إعداد الشهي من الأطعمة والأشربة، وكان كل واحد من هؤلاء يسمى باسم الصنف الذي يحسن إعداده، فهناك الخباز، والشواء، والطباخ، والخباص وهو صانع الحلوى، والشرابي وهو المختص بصنع الأشربة، وقد حوى كتاب البخلاء للجاحظ حشداً كبيراً من تلك الأطعمة والأشربة وألوان الحلوى، وأصناف الأرفة، وهي في عمومها فارسية (3).

والجدير بالذكر أن ألوان الأطعمة تنوعت في المجتمع العباسي حتى صورها أعلام الشعراء في قصائدهم العصماء، فهذا أبو نواس يصف خبزاً قد أحكم الخباز صنعه (4):

(1) - سورة طه، الآية: 118، 119.

(2) - الجاحظ، البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، 1419 هـ، ج1/ص: 295.

(3) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 52.

(4) - ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3/ص: 271.

| | |
|---------------------------------|-------------------------------|
| خُبْزُ إِسْمَاعِيلَ كَالْوَشِّ | سِي إِذَا مَا شُقَّ يُرْفَا |
| عَجْباً مَنْ أَثَرِ الصَّنْعِ | عَةٍ فِيهِهِ كَيْفَ يَخْفَى |
| إِنْ رَقَّاءَكَ هَذَا | أَحْذَقُ الْأُمَّةِ كَفَّاءِ |
| فَإِذَا قَابَلَ بِالنُّصْبِ | فِ مِنَ الْجَرْدِقِ نَصْفِ(1) |
| مِثْلَ مَا جَاءَ مِنَ التَّنْبِ | وَرِ مَا غَادَرَ حَرْفِ |
| أَحْكَمَ النَّصْعَةَ حَتَّى | لَا يُرَى مَوْضِعَ إِشْفَى |
| وَلَهُ فِي الْمَاءِ أَيْضاً | عَمَلٌ أَبَدَعُ ظَرْفِ |
| مَرْجُءُ الْعَذْبِ بِمَاءِ | بُرِّ كَيْ يَزْدَادُ ضِعْفِ |
| فَهُوَ لَا يَشْرَبُ مِنْهُ | مِثْلَ مَا يَشْرَبُ صِرْفِ |

لقد بلغ من إعجاب أبي نواس بذلك الخبز أن وصفه بالوشي، أي الزخرفة والتمنمة بالألوان؛ والطراوة في الصنعة، حتى إن الرغبة إذا شق، وأراد أحد أن يعيده كما كان أعاده، وبقدر ما يتعجب أبو نواس من رقة ذلك الخبز وجماله، فإنه يعلم أن خبازه كان ماهراً، بارعاً في صناعته قد تعودت كفاه على تلك الصنعة التي لا يرى فيها الناظر شططاً، ولا ثقباً، وعبر عن تلك المهارة بأنه لا يرى في الخبز مغرز إشفى، والإشفى هو المثقب الذي يشبه الإبرة الدقيقة.

ومعلوم أن هذه الصفات التي أطلقها أبو نواس على خبز إسماعيل إنما كانت نتاج ترف وتحضر وتفنن غير عادي، حتى في صناعة الخبز.

ومما يدل على كثرة أفانين الطهارة في الأطعمة ما يروى من أن مائدة المأمون ضمت ذات يوم ثلاثمائة لون، وقد انبهر الأصمعي لكثرة ما رآه على مائدة الفضل بن يحيى البرمكي من ألوان الطعام وما غسلوا به أيديهم بعد الأكل من ألوان الطيب والغالية والعنبر، ويقال أن المأمون كان ينفق على طعامه يومياً ستة آلاف دينار، بينما كان ينفق وزيره ابن أبي خالد(2) على طعامه ألف دينار، وهو نفس المبلغ الذي كان ينفقه إبراهيم الموصلي على طعامه وطيبه(3).

(1) - انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة(جردق)، ج10/ص: 35.

(2) - هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح العجلي بالولاء، المعروف بالكاتب، وزير من كبار الكتاب، من أهل الكوفة، ولي ديوان الرسائل للمأمون ثم استوزره بعد ذلك، كان فصيحاً، قوي البديهة، وله رسائل مدونة، توفي ببغداد سنة اثنتي عشرة ومائتين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج1/ص: 282.

(3) - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 53.

ويقول الموصلي في وصف قناعة ضيفه، ذكرا مجموعة من أطعمة زمانه⁽¹⁾:

نَعْمَ الصَّدِيقُ صَدِيقٌ لَا يُكَلِّفُنِي ذَبْحَ الدِّجَاجِ وَلَا شَيْءَ الْفَرَارِيحِ
يَرْضَى بِلُونِينَ مِنْ كُشْكٍ وَمِنْ عَدَسٍ وَإِنْ تَشَهَّى فزَيْتُونَ بِطَسُوجٍ⁽²⁾

وكان من الشعراء العباسيين من يحسن وصف الأطعمة التي تقدم إليه ولعل في الشاعر العماني خير دليل على ذلك، إذ يقول في وصف طعام تناوله مع محمد بن سليمان بن علي⁽³⁾:

جاءوا بفرزني لهم ملبون
مصو مع أكمم ذي غصون
ولونوا ما شئت من تلوين
ومن شراشيف ومن طردين
ومن إوز فائق سمين

بات يسقى خالص السمون
قد خشيت بالسكر المطحون
من بارد الطعام والسخين
ومن هلام ومصوص جون
ومن دجاج قيت بالعجين

فالشحم في الظهور والبطن
وبالخبيص الرطب والوزين

وأتبعوا ذلك بالجوزين
وفكهاوا بعناب وتين

والرطب الأزاد والهيرون
وبكر بنت المصطفى الأمين
وابن ولاة البيت والحجون
يخرج من فنن إلى فنون

محمدا ياسيد النبين⁽⁴⁾
الصادق المبارك الميمون
اسمع لنعيت غير ذي تفنين
إن الحديت فيك ذو شجون

(1) - ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3/ص: 256.

(2) - الطسوج: حبتان من الدوانيق، وهو مقدار من الوزن، معرب، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (طسج)، ج2/ص: 317.

(3) - هو محمد بن سليمان بن علي العباسي، أبو عبد الله، أمير البصرة، وليها في أيام المهدي، ولد سنة اثنتين وعشرين ومائة للهجرة، كان غنيا، نبیلا، سمت نفسه إلى الخلافة، توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج6/ص: 148.

(4) - الهيرون: ضرب من التمر، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (هرن)، ج13/ص: 436.

ويروى أن الرشيد خرج لغزو بلاد الروم فنزل بهرقل⁽¹⁾، وأعد العدة لإعلان الحرب عليها، فدخل عليه الشاعر العماني، وهو يذكر بغداد وطيبها وما ينعم به أهلها من الخيرات، ثم أنشده قصيدة، يقول فيها⁽²⁾:

ثُمَّ أَتَوْهُمْ بِالِدَّجَاجِ الدُّجَجِ بَيْنَ قَدِيدٍ وَشِوَاءٍ مُنْضَجِ
وَبَعْبِيطٍ لَيْسَ بِالْمُلْهَوَجِ فَدُقُّ يَقُّ الكَوْدِي الدَّيْرِجِ⁽³⁾
حَتَّى مَلَا أَعْفَاجَ بَطْنِ نَفَّجِ وَقَالَ لِلْقَيْنَةِ صُبِّي وَأَمْزِجِي

يصف الشاعر تلك المائدة المدججة باللحوم المشوية، الناضجة والخالية من الآفات والعلل، والتي قدمت بين يدي الرشيد، وهو في أحد غزواته ضد بلاد الروم، ولا شك أن الآبيات السابقة تظهر ما أفاء الله به على تلك الدولة الإسلامية من عزة ومنعة ورخاء.

ووصف الشاعر أبو الهندي⁽⁴⁾ بعض أنواع الأطعمة، وصنف ما يناسبه منها وما لا يناسبه فقال⁽⁵⁾:

أَكَلْتُ الضَّبَّابَ فَمَا عَفَّتْهَا وَإِنِّي لِأَشْهَى قَدِيدَ الْعَنْمِ
وَلَحْمَ الْخُرُوفِ حَنِيزاً وَقَدْ أُتَيْتُ بِهِ فَاتِراً فِي الشَّيْمِ
فَأَمَّا الْبَهْطُ⁽⁶⁾ وَحَيْثُ أَنْكَمَ فَمَا زِلْتُ مِنْهَا كَثِيرُ السَّقْمِ
وَقَدْ نَلْتُ مِنْهَا كَمَا نَلْتُمْ فَلَمْ أَرَ فِيهَا كَضَبٌ هَرَمِ

ولا في البيوض كبيض الدجاج وبيض الدجاج شفاء القرم
ومكن الضباب طعام الغريب ولا تشتهيه نفوس العجم

(1) - هرقل: مدينة عظيمة ببلاد الروم، بناها هرقل أحد القياصرة، غزاها الرشيد سنة إحدى وتسعين ومائة للهجرة، انظر زكريا القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص: 566، وعبد المؤمن القطيعي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ، ج3/ص: 1456.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 232.

(3) - العبيط: اللحم الطري السليم من الآفة، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (هرن)، ج7/ص: 347.

(4) - هو أبو الهندي هو عبد المؤمن بن عبد القدوس، كان مولعاً بالشراب، وتوفي بسجستان، انظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2/ص: 671.

(5) - ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3/ص: 233.

(6) - البهط: ضرب من الطعام، وهو أرز يطبخ باللبن والسمن خاصة بلا ماء انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (بهط)، ج7/ص: 266.

وكان العباسيون يفضلون من اللحوم الحُمْلان الحولية، والجداء الرُضع، والبط الصيني، والفراريج الكسكرية⁽¹⁾، والدجاج الفائق والفراخ المُسمَّنة⁽²⁾، وفي وصف مساور الوراق⁽³⁾ لأصناف الأطعمة المختلفة التي تقدم للملوك والخلفاء معلم آخر من معالم الحضارة العباسية التي تعكس حياة الترف والرقي والتفنن في إعداد الأطعمة، إذ يقول⁽⁴⁾:

يُوتُونَ ثَمَّ بِلُونِ كُلِّ طَرِيقَةٍ قَصَفَ الْمُلُوكِ وَنَهْمَةَ الْفُرَاءِ
 مِنْ كُلِّ فَرْنِيٍّ وَجَذِيٍّ رَاضِعٍ قَدْ خَالَفَتْهُ مَوَائِدُ الْخُفَاءِ
 وَمَصُوفٍ دُرَّاجٍ كَثِيرٍ طَيِّبٍ وَنَوَاهِضٍ يُوْتِي بِهِنَّ شَوَاءِ
 وَثَرِيدَةٍ مَلْمُومَةٍ قَدْ سُفِّتَتْ مِنْ فَوْقِهَا بِأَطْيَابِ الْأَعْضَاءِ
 وَتَزِينَتِ بِنُوبَلٍ مَعْلُومَةٍ وَخَبِيصَاتٍ كَالْجَمَّانِ نَقَاءِ
 هَذَا الثَّرِيدِ وَمَا سِوَاهُ تَعْلُلٌ ذَهَبَ الثَّرِيدُ بِنَهْمَتِي وَهَوَائِي
 وَلَقَدْ كُفِّتُ بِنَعْتِ جَذِيٍّ رَاضِعٍ قَدْ صُنَّتْهُ شَهْرَيْنِ بَيْنَ رِعَاءِ
 قَدْ نَالَ مِنْ لَبَنِ كَثِيرٍ طَيِّبٍ حَتَّى تَفْتَقَ مِنْ رِضَاعِ الشَّاءِ
 مِنْ كُلِّ أَحْمَرَ لَا يَقْرُ إِذَا ارْتَوَى مِنْ بَيْنِ رُقُصٍ دَائِمٍ وَنُزَاءِ
 مَتَعَنَّ الْجَنْبِينَ صَافٍ لُونُهُ عَبَّلَ الْقَوَائِمَ مِنْ غِذَاءِ رَخَاءِ
 فَإِذَا مَرَضْتُ فِدَاوَنِي بِلَحُومِهَا إِنِّي وَجَدْتُ لِحُومِهَا دَوَائِي

ومن طعامهم السُّكْبَاج، وهو مرق يعمل من اللحم و الخل، معرب الكلمة الفارسية "سكبا"، وهو مركب من "سك" أي خل و من "با" أي طعام⁽⁵⁾، ويذكر الأصفهاني أن المنصور قال يوماً لحظية له: إلى كم نأكل السكبا؟ يعرض بها، فقالت: يا أمير المؤمنين: هو مخ الأطعمة، لا يمل حارها ولا يكره باردها، فاستحيا منها.

(1) - الكسكرية: نسبة إلى مدينة على ساحل دجلة في العراق تسمى كسكر، انظر الحموي، معجم البلدان،

ج4/ص: 461.

(2) - الوشاء، الموشى، ص: 119.

(3) - هو مساور بن عبد الحميد، من آل قيس بن عيلان، كوفي، قليل الشعر، من أصحاب الحديث ورواته، وقد روى عن صدر من التابعين، وروى عنه وجوه أصحاب الحديث، توفي سنة خمسين ومائة للهجرة، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 107، والزركلي، الأعلام، ج7/ص: 213.

(4) - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج8/ص: 9، 10.

(5) - الكلداني، أديشير، الألفاظ الفارسية المعربة، طبعة اليسوعيين، بيروت، 1908 م، ص: 92.

وقال عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (1):

وسكُّباجة تشفي السُّقام بطيبتها على أنها جاءت بلون ساقيم
إذا زارها أيدي الرجال تراحمت كأيدي نساءٍ في ظلالٍ نعيم⁽²⁾

كانت موائد العباسيين متنوعة غنية بقيمتها الغذائية تتكون من الثريد الملون البديع وأصناف اللحوم المختلفة وأنواع الأشربة اللذيذة، ناهيك عن أطيب الحلويات، وقد نظم أحد الطباقين واسمه عبد الله بن طاهر، أبياتا في الغزل، يذكر فيها أصنافاً متعددة من الأطعمة والحلوى، فقال (3):

يا شبيهه الفألوذ⁽⁴⁾ في حمرة الخ يا نسيم القُدورِ في يومِ عرسِ
أنتَ جُوزينج القلوبِ وفي اللي أنتَ أشهى إلى القلوب من الزَّبِ
عُدتُ مستهتراً بمسكُّباجٍ وُدِّ أطعمَ الحاسدونَ ألوانَ غمِّ
يا نسيم القُدورِ في يومِ عرسِ قد غلى القلبُ مذناً عنك داري
أنتَ أشهى إلى القلوب من الزَّبِ هامَ قلبي لَمَّا كَسَرَنَ غضارا
أطعمَ الحاسدونَ ألوانَ غمِّ فتفضَّل على العميدِ بيومِ
قد غلى القلبُ مذناً عنك داري وتفضَّل على الكئيبِ بيزماً

دَّ ولوزينج النَّفوسِ الظَّماءِ د مع النرسيان⁽⁶⁾ بعد الغداءِ
من كَلِينِ الخبيصة⁽⁵⁾ البيضاءِ في قصاع الأُخزانِ والأدواءِ
بعد جذابةٍ بجنبِ شِوَاءِ غليان القُدورِ عند الصَّلاءِ
وشبيهاً بشهْـدَةٍ صَفراءِ تِ سُـروري مَعازفَ الشَّخْـنَاءِ
د مع النرسيان⁽⁶⁾ بعد الغداءِ جُـد بَوْصلِ يكتبُ به أَعْدائي
في قصاع الأُخزانِ والأدواءِ وردِ واصلِ يَشْفِي من الأَدواءِ

(1) - هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري، الثعالبي، أبو منصور، أديب، ناثر، ناظم لغوي، أخباري، من تصانيفه الكثيرة فقه اللغة وبيتمة الدهر، توفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة للهجرة، انظر كمال الدين الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الثالثة، 1405هـ/1985م، ج1/ص: 265، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5/ص: 151.

(2) - الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج1/ص: 705.

(3) - الجاحظ، الرسائل، ج1/ص: 391.

(4) - الفألوذ من الحلوَاءِ، يسوَّى من لُبِّ الحِنطَةِ، فارسيٌّ مُعَرَّبٌ، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (فلذ)، ج3/ص: 503.

(5) - الخبيصة: حلواءٌ محبوبصة، انظر المصدر نفسه، مادة (خبص)، ج7/ص: 20.

(6) - النرسيان: ضرب من التمر يكون أجوده، المصدر نفسه، ج6/ص: 230.

لقد تذوق العرب الأطعمة الفارسية المتعددة الأصناف، فأصبحت مطاعمهم مزيجاً بين ما هو قديم متوارث عن العرب وغير العرب وبين ما هو ناتج عن مؤثرات اجتماعية جديدة، وقد غلبت الاصطلاحات الفارسية في مجال الأطعمة والأشربة على غيرها من الثقافات الأخرى وفي هذا دلالة على أن أغلب الأطعمة التي كانت شائعة في العصر العباسي فارسية وليست عربية.

ومن تنمة هذا الترف في المطعم أن نرى العباسيين يتواضعون على طائفة من آداب المائدة، اقتبسوا كثيراً منها عن الفرس، فمن ذلك أن يضم الأكل شفتيه في أثناء المضغ وألا يستأثر لنفسه بشيء من محاسن الطعام وألا يمسح فمه بكفه وألا يتناول إلا ما بين يديه وألا ينظر إلى ما بين يدي غيره وألا يطلب ما عسى ألا يكون موجوداً⁽¹⁾، وعليه تصغير اللقمة والترفع عن النهم والشره⁽²⁾.

ومن آداب الضرفاء على موائد الطعام أنهم " لا يكثر من الضحك والكلام عند حضور مائدة الطعام، ولا يخللون على المائدة قبل أن تفرغ، ولا يتحفزون لمجيئها قبل أن توضع، وإذا غسلوا أيديهم لم يطلبوا الغسل قبل طلب إبتائها من الوسخ والكدر⁽³⁾ .

وليس غريباً أن يأتي الشعراء على ذكر جملة من الأطعمة في سخريتهم من البخل بشتى أنواعه، ومن أولئك الذين أمعنوا في وصف البخل والبخلاء أبو نواس وقد جاءت صورته متنوعة غنية، ومنها قوله⁽⁴⁾:

| | |
|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p>فقد حلّ في دار الأمان من الأكل ولم ير أوى في حزون ولا سهل تصوّر في بسط الملوك، وفي المثل سوى صورة ما إن تمر ولا تحلي ومن كان يحمي عزه منبت البقل أصاب كليياً لم يكن ذاك من ذل بحيلة ذي مكر، ولا فكر ذي عقل</p> | <p>على خبز إسماعيل واقية البخل وما خبزُهُ إلا كآوى يرى ابنه وما خبزُهُ إلا كعنقاء مغرب يحدث عنها الناس من غير رؤية، وما خبزُهُ إلا كليب بن وائل وإذ خبز إسماعيل حلّ به الذي ولكن قضاء ليس يُسطاغ رده</p> |
|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

(1) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 53.

(2) - انظر الوشاء، الموشى، ص: 167.

(3) - المصدر نفسه، ص: 169.

(4) - الجاحظ، الرسائل، ج1/ص: 391.

يؤكد أبو نواس من خلال أبياته السابقة أنّ شح إسماعيل فاق كل حد، وهو ما جعل خبزه بعيد المنال، بل إن رؤيته مستحيلة، استحالة أن يرى آوى ابنه أو أن تُرى عنقاء مغرب، التي تضرب بها الأمم المثل في المستحيلات⁽¹⁾، ويصورونها بالوهم على بسط الملوك من غير أن يروها، وهي صورة لا طعم لها ولا ذوق، وهكذا كان خبز إسماعيل عزيز المنال، في عزّة حمى كليب بن وائل، الذي يضرب به المثل في المنعة والحصانة.

وهناك صورة طريفة في الفضل الرقاشي⁽²⁾، وفيها ينفذ أبو نواس إلى دواخل البخيل، فيصف ما يعتريه من أحاسيس، عندما يشاهد ضيفاً، فهو في ضيق نفسي إذا أحسّ أنّ ضيفه سيشاركه طعامه، ثم تنبسط أساريه إذا علم أنّه لن يفعل ذلك، فيقول⁽³⁾:

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| رَأَيْتُ الْفَضْلَ مَكْتَبِيَا | يِنَاغِي الْخَبْزَ وَالسَّمَا |
| فَقَطَّبَ حَمِيمٍ أَبْصَرَنِي | وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَبَكَى |
| فَلَمَّا أَنْ حَافَّتْ لَه | بِأَنِّي صَائِمٌ ضَحَا |

وذهب النواصي في هجائه إلى أبعد من شخصية البخيل، ليتعداها إلى أدوات الطبخ والقرى، فضلاً عن مادة الغذاء نفسها، ليستنبط صوراً طريفة تُثير السخرية من المهجو فقال⁽⁴⁾:

| | |
|--------------------------------------------------|--------------------------------------------------|
| رَأَيْتُ قَدُورَ النَّاسِ سَوْدَاً مِنَ الصَّلَى | وَقَدْرُ الرِّقَاشِيِّينَ زَهْرَاءُ كَالْبَدْرِ |
| تَبَيَّنَ فِي مِخْرَاشِهَا أَنَّ عَوْدَهَا | سَلِيمٌ، صَحِيحٌ، لَمْ تَصْبُهُ أذَى الْجَمْرِ |
| يُبَيِّئُهَا لِلْمُعْتَفَى بِفَنَائِهِمْ | ثَلَاثاً كَنَقَطِ الثَّاءِ مِنْ نَقَطِ الْحَبْرِ |
| وَلَوْ جَنَّتْهَا مَلَأَى عَيْبِطاً مُجَزَّلاً | لَأَخْرَجْتَ مَا فِيهَا عَلَى طَرَفِ الظُّفْرِ |

ويوحى اختلاف قدور هذه الجماعة عن غيرها بنفسيات أصحابها، فيجعلهم محط سخرية، فقدور الناس جمعهم سود؛ لأنّ النار توقد تحتها باستمرار، أمّا الرقاشيون فالأمر عندهم مختلف تماماً، وقد بدأ الشاعر سخريته منهم باستعمال صيغة الإفراد، فهم لا يمتلكون سوى قدر واحدة، تبقى نظيفة بيضاء، لأنّها لاتلامس النار، وهذا كناية عن شدة بخلهم، فهم لا يطبخون، ويظهر هذا في أثر الأثافي الثلاث التي توضع تحت القدر، فأثرها يكاد يكون مفقوداً، فلا نلمح إلا ثلاث نقط تشبه حرف الثاء، وهذه الصورة تدلّ على سعة خيال، وقدرة

(1) - انظر الجاحظ، الحيوان، ج7/ص: 72.

(2) - هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش، وهو من ربيعة، وكان مطبوعاً، سهل الشعر، نقي الكلام، وقد ناقض أبا نواس، وقيل: إنه كان في العجم من أهل الري، مدح الرشيد وأجازته، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج16/ص: 164.

(3) - ديوان أبي نواس، ج2/ص: 100.

(4) - المصدر نفسه، ج2/ص: 62.

عالية في التوظيف، وأكثر ما يثير السخرية في هذه الأبيات الحجم البسيط الذي رسمه للقدر، فهي لا تتسع لحماً إلا بمقدار ما يحمله الظفر.

كما شاع شرب الخمر في العصر العباسي حتى صار مساغه عندهم كالماء الزلال الصافي، لا يرون فيه بأساً، ولا يعرفون له تحريماً، فكان من أهم أشربة تلك الحقبة الزمنية، فلا تكاد تجد مجلساً للخاصة أو للعامة يخلو منه، وقلما يأكلون أكلةً إلا وحلوها بشربة، وحتى الخلفاء الذين يشهد لهم بالورع والصلاح، كانوا لا يتورعون عن شربه بعد مآكلهم، وفي مجالس أسمارهم، وأوقات لهوهم واستراحاتهم، وعرفوا أنواعه المصنوعة من التمر والتين والجزر والعنب وغيرها من أنواع الفاكهة والثمار.

ولم ينظم شاعر قصائد في الخمرة مثلما نظم أبو نواس صاحب الخمریات تلك الأشعار التي تتناول عالم الشراب بدءاً بالخمرة وأوصافها، مروراً بأوانيتها وأشكالها ووصولاً إلى مواطنها ومجالسها وما تضمنه من سقاة وندمان وغناء ولهو وطرب وتتبعاً لتأثيرها في النفس ودبيبها في مفاصل الجسد، وما يحصل منها من نشوة وخيلاء.

يقول أبو نواس مشبهاً الخمرة بالعروس⁽¹⁾:

خَطَبْنَا إِلَى الدَّهْقَانِ بَعْضَ بَنَاتِهِ
وَمَا زَالَ يُغْلِي مَهْرَهَا، وَيَزِيدُهُ
رَحِيقاً أَبْوَهَا الْمَاءِ، وَالكَرْمَ أُمَّهَا
لِسَاكِنِهَا دُنُّ بِه الْقَارُ مُشَعَّرُ

فَزَوَّجْنَا مِنْهُنَّ ، فِي خَدْرِهِ، الْكُبْرَى
إِلَى أَنْ بَلَّغْنَا مِنْهُ غَايَتَهُ الْقُصْوَى
وَحَاضِنُهَا حَرُّ الْهَجِيرِ، إِذَا يَحْمَى
إِذَا بَرَزَتْ مِنْهُ ، فَلَيْسَ لَهَا مَثْوَى

يَهُودِيَّةُ الْأَنْسَابِ، مُسَلِّمَةُ الْقُرَى
مَجُوسِيَّةٌ، قَدْ فَارَقَتْ أَهْلَ دِينِهَا
رَأَتْ عُنْدَنَا ضَوْءَ السَّرَاجِ، فَرَاعَهَا
وَبَيْنَا نَرَاهَا فِي النَّدَامَى أُسِيرَةً
أُمْنِيَّتْ بَلَدَاتِ الْكُؤُوسِ نَفُوسُهُمْ
وَسَاقٍ غَرِيرِ الطَّرْفِ وَالِدَلِّ، فَاتِنِ

شَامِيَّةُ الْمَغْدَى، عِرَاقِيَّةُ الْمَنْشَا
لِبُغْضَتِهَا النَّارَ الَّتِي عِنْدَهُمْ تُذَكِّي
فَمَا سَكَنْتْ حَتَّى أَمْرَنَابِهِ يُطْفِئِي
إِذَا أُنْدَفَعَتْ فِيهِمْ، فَصَارُوا لَهَا أُسْرَى
فَأَنْفُسُهُمْ أَحْيَا ، وَأَجْسَادُهُمْ مَوْتَى
رَبِيبِ مُلُوكِ، كَانَ وَالِدُهُمْ كِسْرَى

كثيراً ما اتخذ الشاعر الجاهلي الخمرة رمزا للفروسية والثراء والنسب الشريف، أو وسيلةً لنسيان شوقه إلى الحبيبة المتمنعة غير أن أبا نواس جعل منها في قصائده غرضاً شعرياً مستقلاً بذاته ومعشوقة محببة إلى نفسه.

(1) - أبو نواس، المصدر السابق، ج3/ص: 14.

وفي القصيدة السابقة يشبه أبو نواس الخمر بالفتاة الحسنة التي يتسابق الخطاب إليها، لحسنها وجمالها، ويجعل الدهقان، وهو تاجر الخمرة، في مكان والد العروس الذي كان شديداً في مفاوضاته للخطب، فما زال يزيد في مهرها، أي في سعرها حتى تم له ما أراد، والحصول على مبلغ كبير، ثم انتقل إلى وصف تلك الخمرة وعوالمها متخذاً إياها مذهباً له.

كما أن الخمر عند أبي نواس وسيلة للفخر، يبذل فيها الدر والياقوت وينتشي بشربها وإتلاف المال فيها ليبدل على جوده وكرمه، حاله في ذلك حال الشاعر الجاهلي:

إني بذلتُ لها، لَمَّا بَصُرْتُ بِهَا صاعاً من الدُرِّ والياقوتِ ما تُقَبِّأ
يا قَهْوَةً حَرَّمْتُ إِلَّا على رَجُلٍ أُثْرَى، فأُتْلَفَ فيها المالَ والنَّشَبَا(1)

وتجدر الإشارة إلى أن أبا نواس أحدث ثورة في موازين القصيدة العربية من خلال ثورته على المقدمة الطللية واستبدالها بالمقدمة الخمرية نتيجة لحركة التجديد التي سرت في القرن الثاني الهجري والتي اصطدمت بعمود الشعر القديم، وقد ساعد على وجود هذه الحركة ظهور طبقة جديدة في المجتمع العباسي مزيجة بين العرب والأجناس الأخرين إذ ارتبط سبب هذه الثورة بطبيعة التطور الحضاري الذي بلغته الدولة العباسية، ناهيك عن أن أغلبية شعراء هذا العصر من المولدين، وهؤلاء لا تربطهم بمعالم الحياة العربية الجاهلية أية عاطفة، إنهم يعيشون في حواضر راقية ومدنية، فيها القصور الرائعة والرياض الزاهرة.

وقد تعددت أسماء الخمر في شعر أبي نواس، فذكر الراح، والقهوة والنبيد وغيرها(2):

يا خَاطِبَ القَهْوَةِ الصَّهْبَاءِ، يَمْهَرُها بالرَّطْلِ يأخِذُ مِنْها مِلاهُ ذَهَبَا
قَصَرَتْ بِالرَّاحِ، لَمَّا بَصُرْتُ بِها فَيَحْلِفُ الكَرْمُ أَنْ لا يَحْمِلَ العَنَبَا

وسميت الخمرة بالراح لأن شاربها يرتاح لشربه إياها وقيل هي التي يستطيب الشارب ريحها(3)، وسميت قهوة لأنها تُقهي شاربها، أي التي تذهب شهوة طعامه(4).

كما بلغ اهتمام الشعراء العباسيين بالشراب أن وصفوا الساقى ووجاهته وحسن منظره وطيب ملبسه، ناهيك عن وصف الأواني والكؤوس التي يقدم فيها، يقول أبو نواس(5):

(1) - أبو نواس، المصدر السابق، ج3/ص: 49، 50.

(2) - انظر محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، 1963، ص: 149.

(3) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 49.

(4) - أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ج1/ص: 186.

(5) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 9.

ريح البنفسج لا نشر الخزاماء
يستأثر العين في مستدرج الرائي
كأن في راحتيه وسم حناء
فوق الجبين ورد الصدغ بالفاء
وربما نفعت من صولة الداء

ونحن بين بساتين فتنفخنا
يسعى بها خبت في خلقه دميت
مقرط، وافر الأرداف نو غنج
قد كسر الشعر واوات ونضدّه
عيناه تفسم داء في مجاهرها

وقال في موضع آخر (1):

حبتّها بأنواع التصاوير فارس
مها تدريها بالقسي الفوارس
وللماء ما حازت عليه القلائس

تدار علينا الراح في عسجدية
قرارتها كسرى وفي جناباتها
فلخمر ما زرت عليه جيوؤها

ومن أوصاف الخمر في شعر صريع الغواني قوله (2):

ولا تطلبنا من عند قاتلتي دخلي
مجوسية الأنساب مسلمة البعل
بنار ولم يقطع لها سعف النخل
وتنطق بالمعروف السنة البخل
بها شققا بين الكروم على رجل
فجاء بها يمشي العرطنة في مهل
عقيلته دون الأقارب والأهل
حرورية في جوفها دمها يغلي
فصاغت له منها أنامل كالذبل (3)
وفاتت فلم تطلب بتبل ولا نخل (4)
كما أسلبت عين الخريد بلا كحل
لألىء عقدي في دماييج أو جحل

أديرا علي الراح لا تشربا قبلي
ومانحة شرابها الملك قهوة
ربيبية شمس لم تهجن عروفها
تصد بنفس المرء عما يغمه
قد استودعت دنا لها فهو قائم
بعثنا لها منا خطيبا لبضعها
رقى ربها حتى احتواها مغاليا
معتقة لا تشتكي وطء عاصر
أغارت على كف المدير بلونها
أمائت نفوسا في حياة قريبة
شققنا لها في الدن عينا فأسبلت
كأن حباب الماء حين يشجها

(1) - أبو نواس، المصدر السابق، ج3/ص: 184.

(2) - ديوان صريع الغواني، ص: 51.

(3) - الذبل: عظام ظهر دابة من دواب البحر، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (ذبل)، ج11/ص:

256.

(4) - الذحل: الثأر، انظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

يفتح الشاعر قصيدته بخطاب الصاحبين على طريقة الشعراء القدامى، طالبا منهما تقديم الخمرة إليه حتى ينتشي بشربها فهي التي تمنحه عادة الكبر والسرور والخيلاء ويذكر أنها صنعت من أمشاج متنوعة، فنسبها مجوسي ولعله يقصد أن بائعها فارسي الأصل، لكنها تباع في أسواق المسلمين، ثم انتقل إلى وصف تلك الخمرة التي نمت كرومها تحت الشمس المتلألئة فأغرت جيوب البخلاء الذين لم يقاوموا سحرها.

وقد جاء تصوير الخمرة في شعر أبي نواس ومسلم وغيرهما من الذين جسدوها في صور مختلفة، فشبها حيناً بالعروس الحسناء التي يتسابق الخطاب إلى ودها، ويدفون الأموال الطائلة للحصول عليها، ونسبها حيناً آخر إلى الملل المختلفة كالمجوسية، واليهودية والإسلام. كما رفعوا منزلتها فلا يصل إليها العريبيد أو البخيل أو رعاء الناس لعلو شأنها، كما صوروا سحرها وتأثيرها في العقول، حتى لكأنها تجعل من صاحبها ملكاً.

ولعل في إلحاح أبي نواس على إحلال المقدمة الخمرية محل المقدمة الطللية، ومهاجمة الحياة العربية بكامل مكوناتها، وإجراء مقارنة واضحة بين الثقافتين العربية والفارسية معلم من معالم النهضة وتبعات الحضارة والدعة في العصر العباسي الأول.

الفصل الثاني:

معالم الحضارة المعنوية في شعر العصر العباسي الأول

المبحث الأول: الاحتـرام

المبحث الثاني: الـود

المبحث الثالث : التعفـف

المبحث الرابع : الزهـد

الفصل الثاني: معالم الحضارة المعنوية شعر العصر العباسي الأول

عرفت دولة الإسلام في العصر العباسي الأول حضارة عظيمة شملت جميع المجالات العلمية، الاجتماعية، السياسية، الحربية، الاقتصادية والعمرانية، كما عرف الأدب - شعرا ونثرا - ثورة لم يكن للعرب بها سابق عهد، وخاصة بعد استقرار وضع الدولة السياسي وتدفق الخراج إلى خزائن بني العباس كل عام من جميع مقاطعاتها في الشرق والغرب، وهو الأمر الذي كان له الأثر البين في تحضر رعاياها.

وكان من المسلم به أن ينتج عن ذلك التحضر المادي والعمراني الذي تحدثت عنه في الفصل الأول، تحضر معنوي يؤثر إيجاباً أو سلباً في حياة المجتمع، ويبرز واضحاً جلياً في الحياة الأدبية للشعراء الذين صوروا تلك المفاهيم الاجتماعية وسجلوها في أشعارهم ليراها غيرهم من الناس.

ومن تلك المظاهر المعنوية، ما اكتسبه المجتمع الجديد من سلوك ونظم جديدة في الأخلاق والمعاملات، كالود والتفاهم، ورقة التعامل، والعفة والاحترام، والانسجام الاجتماعي، وإن كانت تلك المعالم من السمات الثابتة التي لا يخلو منها أي مجتمع بشري، غير أن التقدم الحضاري الذي بلغته دولة بني العباس في القرن الثاني الهجري، له الأثر الواضح على تلك المبادئ الإنسانية.

المبحث الأول: الاحترام

تبنى العلاقات في الإسلام على احترام الآخرين، وإنزالهم منازلهم ما لم يوقعوا أنفسهم في مواطن الذلة، ويكتبوا على أنفسهم بأفعالهم الخزي والعار، والاحترام المتبادل هو سمة العلاقة بين الكبير والصغير، والغني والفقير، والقائد والرعية، وحتى مع الخصوم والأعداء لا تخلو العلاقة من احترام، وقد حثنا النبي صلى الله عليه وسلم على التعامل بهذا الخلق، فقال: "إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد"⁽¹⁾.

والاحترام بالمعنى السابق، من الصفات المعنوية للعصر العباسي الأول، وقد أسهمت في تحضر أفرادها، بسبب ما كان يجري بين كثير من أولئك الأفراد من التقدير والإعجاب وتبادل الثناء والمدح، والإشادة بجهود المساهمين في بناء حضارة القرن، من الخلفاء والأمراء والولاة والوزراء والقادة وغيرهم من رجال السياسة، على أن الوسط الاجتماعي لم يعدم هذه الخصلة بين أفرادها، فقد كان للعلماء احترامهم وتقديرهم من الحاكم والمحكوم، وقل مثل ذلك عن المصلحين والدعاة والشعراء والأدباء والكتاب وغيرهم.

وأول شخصية حازت على الاحترام والإعجاب، ونالت حسن الثناء حتى من الأعداء، في عصرنا هذا شخصية الخليفة هارون الرشيد، رغم اختلاف المصادر التاريخية بشأن ورعه وتقواه.

وقد تفرد ابن خلدون بتفنيد أقوال القائلين بعبث الرشيد في كلام طويل، نجتزئ منه قوله التالي الذي ساقه في نفي أن يكون الرشيد قد عاقر الخمرة: "فحاشى الله، ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد، وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء، ومحاوراته للفضيل بن عياض⁽²⁾، وابن السماك⁽³⁾، والعمرى⁽⁴⁾، ومكاتبته سفيان الثوري⁽⁵⁾، وبكائه من مواعظهم، ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة، والمحافظة على أوقات الصلوات، وشهود الصبح لأول وقتها... وأيضاً

(1) - أخرجه أحمد في سننه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، دون طبعة وتاريخ، باب البراءة من الكبر والتواضع، حديث رقم 4179، ج2/ص: 1399.

(2) - هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر، أبو علي التميمي اليربوعي، الخرساني، الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، ولد بسمرقند، وارتحل في طلب العلم، توفي بمكة سنة سبع وثمانين ومائة، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4/ص: 94.

(3) - هو محمد بن صبيح بن السماك، أبو العباس العجلي، مولا هم الكوفي، اشتهر بوعظ الأمراء والخلفاء، توفي سنة ثلاث وثمانين ومائة بهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج8/ص: 328.

(4) - هو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله، العمري، الإمام القدوة، الزاهد العابد، روى عن أبيه، وهو قليل الرواية، مشغل بنفسه، قال بالحق، أمار بالمعروف، وتوفي العمري سنة أربع وثمانين ومائة، انظر المصدر نفسه، ج8/ص: 373.

(5) - هو سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري، أبو عبد الله الكوفي، إمام في علم الحديث وغيره، وأجمع الناس على دينه وورعه، وهو أحد الأئمة المجتهدين، توفي سنة إحدى وستين ومائة للهجرة، انظر المصدر نفسه، ج7/ص: 229.

فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقربه من سلفه المنتحلين لذلك .. وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق، وفتاويهم فيه معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها، ولا تقليده الأخبار الواهية فيها، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل المَلل⁽¹⁾.

وهذا أبو العتاهية يثني على هارون ويشيد بعدله وورعه وتقواه، ومدى ما يتمتع به من تقدير واحترام في عيون الناس، فيقول⁽²⁾:

| | |
|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| وَأَصْبَحْتَ تَسْقِي كُلَّ مُسْتَمِطِرٍ رِيًّا فَأَنْتَ الَّذِي تُدْعَى رَشِيداً وَمُهْدِيًّا وَإِنْ تَرْضَ شَيْئاً كَانَ فِي النَّاسِ مَرَضِيًّا فَأَوْسَعْتَ شَرْقِيًّا وَأَوْسَعْتَ غَرْبِيًّا فَأَصْبَحْتَ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالْجُودِ مَوْشِيًّا نَشَرْتَ مِنَ الْإِحْسَانِ مَا كَانَ مَطْوِيًّا | إِمَامَ الْهُدَى أَصْبَحْتَ بِالْدِينِ مَعْنِيًّا لَكَ اسْمَانِ شُفَا مِنْ رَشَادٍ وَمِنْ هُدًأ إِذَا مَا سَخِطْتَ الشَّيْءَ كَانَ مُسَخَّطاً بَسَطْتَ لَنَا شَرْقاً وَغَرْباً يَدَ الْعُلَا وَوَشَّيْتَ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالْجُودِ وَالنَّدَى وَأَنْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَى النَّقْصَى |
|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

وقف الشاعر في هذه الأبيات عند صورة القائد الإمام الذي اعتر بالدين فأعزه بقوته، كما أسبغ على ممدوحه صفة الجود والعطاء والإحسان والأخلاق الحسنة، فهو الخليفة الحازم والأب الحاني على شعبه في الوقت ذاته.

لقد كان للانتصارات العسكرية الضخمة التي حققها هارون الرشيد أثر بالغ في نيل الاحترام والتبجيل من الخاصة والعامة، ولعل أكبر حادثة أثارت شعراء الرشيد هي حادثة انتصاره على نقفور في "هرقلة"⁽³⁾ وعقده صلحاً معه على أن يؤدي نقفور الجزية كل سنة، غير أن نقفور نقض عهده مع الرشيد حتى قبل أن يبلغ الرشيد الرقة، العاصمة الثانية لدولته.

ويبدو أن خبر هذا النقض بلغ بعض الشعراء قبل أن يصل إلى الرشيد، فتصدى له بعض الشعراء من خلال مدح الخليفة وإعلامه بالخبر، ومن هؤلاء الشعراء الحجاج بن يوسف التيمي⁽⁴⁾:

| | |
|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| وَعَلَيْهِ دَائِرَةُ الْبُورِ تَدُورُ عُنْمَ أَتَاكَ بِهِ الْإِلَهَ كَبِيرُ بِالنَّقْصِ عَنْهُ وَافِدٌ وَبَشِيرُ تَشْفِي النَّفْسَ مَكَانَهَا مَذْكُورُ | نَقْضَ الَّذِي أُعْطِيَتْهُ نَقْفُورُ أَبْشَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْهَهُ فَلَقَدْ تَبَاشَرْتَ الرَّعِيَةَ أَنْ أَتَى وَرَجَتْ يَمِينُكَ أَنْ تَعْجَلَ غَزْوَهُ |
|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

(1) - انظر ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج3/ص: 26-23.

(2) - ديوان أبي العتاهية، ص: 489.

(3) - انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 320.

(4) - المصدر نفسه، ج8/ص: 308.

ويطلق الشاعر في ختام القصيدة جملة من البدهيات والمسلمات التي يراها في الإمام، فهو " غير غافل عما يسوس ويدير"، " وهو حازم"، " وهو متجرد بنفسه للجهاد"، " وهو قاهر لخصومه"، " وهو يستمع لنصيحة النصحاء، شكور لهم"، يسعى فيما يسعى إليه لتحقيق مطلبين: مرضاة الله والإخلاص للرعية⁽¹⁾:

يا من يريد رضا الإله بسعيه والله لا يخفى عليه ضميمــــر
نصح الإمام على الأنام فريضة ولأهلها كفارة وطهور

ولمنصور النمري⁽²⁾ قصيدة طويلة في مدح الرشيد و تعداد خصاله النبيلة التي ساقها في تقارير ثابتة وحقائق مؤكدة ومسلمات لا يتداخلها أدنى شك، خاصة ما يتعلق بتدين الرشيد وجهاده⁽³⁾:

هو الإمام الذي طاب الجهاد به والحج للناس والأعياد والجمع
حصن بنته يمين الله يسكنه الإسلام صعب المراقى ليس يطلع
يقري العدو المنيا والعفاة ندى من كل ذلك الندى أحواضه تُرع
ورجت يمينك أن تعجل غزوة في كل عام، وإن زوارها شسعوا

لقد كان الرشيد مضرب المثل في العدل، وفي قلبه توازن عجيب بين العصف بالعدو والعطف على الرعية، فهو رجل مؤمن ملتزم بأحكام الدين يخشى الله تعالى، حيث ذكر ابن كثير⁽⁴⁾ أنه كان يتصدق من ماله الخاص كل يوم بألف درهم، وإذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، كما كان يصلي في اليوم مائة ركعة تطوعاً⁽⁵⁾.

(1) - الطبري، المصدر السابق، ج8/ص: 309.

(2) - هو منصور بن سلمة بن الزبرقان، وهو من رأس العين، يكنى أبا الفضل، وكان يدين بالإمامة سراً، ويمدح آل الرسول، انظر ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 244.

(3) - منصور النمري، الديوان، تحقيق الطيب العشاش، دار المعارف، دمشق، دون طبعة، 1401هـ/1981م، ص: 98.

(4) - هو إسماعيل بن عمر بن كثير، عماد الدين، أبو الفداء، القرشي، الإمام الحافظ، ولد سنة سبعمائة للهجرة، ورحل في طلب العلم، وله تصانيف عديدة منها: تفسير القرآن العظيم والبداية والنهاية، توفي في دمشق، سنة أربع وسبعين وسبعمائة للهجرة، انظر جلال الدين السيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ، ج1/ص: 534.

(5) - انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج10/ص: 232، 233.

وكان الرشيد يعظم العلماء والفقهاء والأدباء ويجزل لهم العطايا لذلك ركز منصور النمري على إبراز خصلة الكرم في الرشيد، الذي كان غيثاً عامّاً نافعاً، وهي حالة سبق لشعراء العصر الجاهلي أن ألموا بها في كثير من أشعارهم حتى غدت جزءاً من ثقافة العربي في كل عصر، حيث يقول⁽¹⁾:

إذا الغيث أكدي وأفشعرت نجومه
فغيث أمير المؤمنين مطير
وما حلّ هارون الخليفة بلدّة
فأخفّه غيث وكاد يضير

أما أشجع السلمي فقد كان يجل الخليفة هارون الرشيد أيما إجلال حتى ذهب في مدحه مذهباً بعيداً تجافى فيه عن الواقع بالتسامي بالممدوح إلى آفاق غير مسبوقه فيقول⁽²⁾:

لازلت تنشُر أعياداً وتطويها
مستقبلاً بهجة الدنيا ولذتها
العيد والعيد والأيام بينهما
أمست هرقله مكلوماً جوانبها
ملكّتها وملكّت الناكثين بها
ما روعي الدين والدنيا على قدم
تمضي بهالك أيام وتنتهيها
أيامها لك نظم في لياليها
موصولة بك لا تُفنى وتُفنيها
وناصر الدين بالتدبير يرميها
بنصر من يملك الدنيا وما فيها
بمثل هارون راعيه وراعيتها

وهذا أبو نواس يثني على حسن تدبير الرشيد لشؤون رعيته، فقد أحلّ الوئام والائتلاف بينهم محلّ الأحقاد والأضغان، كما يشيد بحجه وغزوه في رحلتين نائيتين ومتعاكستين في الاتجاه، تضعف بينهما قوى الأقوياء وعزائمهم في تلميح مكشوف إلى تفرد الرشيد عزيمة ومضاء⁽³⁾:

هارون ألفنا ائتلاف مودة
في كلّ عيام غزوة ووفادة
حج وغزوة مات بينهما الكرى
يرمي بهن نياط كلّ تنوفة
ماتت لها الأحقاد والأضغان
تنبت بين نواهما الأقران
باليعملات شعارها الوخدان
في الله رحال بها ظعان

(1) - ديوان منصور النمري، ص: 82.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 180.

(3) - ديوان أبي نواس، ج1/ص: 109.

أما الوزراء فلم يحظ أحد بالاحترام ومحبة الناس وتقديرهم مثل ما حظي به البرامكة، وزراء الرشيد، ولعل تلك المنزلة العالية التي احتلوها كانت سبب نكبتهم وتقتيلهم، لقد عاش هؤلاء حياة الترف والبذخ والإسراف وحب الظهور، فأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء، و لم يردوا قاصدا أبدا، كما فتحوا أبوابهم لأبناء الرعية فأسبغوا عليهم العطايا الجزيلة⁽¹⁾.

وبلغ من شأن هؤلاء البرامكة، أن أسروا قلوب الناس بعفتهم وتواضعهم، وما هم عليه من الجاه والجود، والمنصب الوزاري، فلهجت ألسنة الشعراء بمدحهم والإشادة بكرمهم، من ذلك ما قاله الشاعر ابن منذر⁽²⁾ في مدح يحيى بن خالد البرمكي⁽³⁾:

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| أتانا بنو الأملاك من آل برمك | فيا طيب أخبار ويا حسن منظر |
| لهم رحلة في كل عام إلى العدا | وأخرى إلى البيت العتيق المستر |
| إذا نزلوا بطحاء مكة أشرفت | بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر |
| فما خلقت إلا لجود أكفهم | وأقدامهم إلا لأعواد منبر |
| إذا رام يحيى الأمر ذلت صعابه | وناهيك من داع له ومدبر |
| ترى الناس إجلالا لهم و كأنهم | غرانيق ماء تحت باز مصرصر |

يقول أبو الأسود الحماني⁽⁴⁾ في السياق ذاته⁽⁵⁾:

| | |
|---------------------------------------------------|------------------------------------------------------|
| وَلَأئِمَّةٍ لَأَمْتِكَ يَا فَيْضُ فِي النَّدى | فَقَلْتُ لَهَا : لَنْ يَقْدَحَ اللُّومُ فِي البَحْرِ |
| أَرَادَتْ لِتَنْتَبِي الفَيْضِ عَن سُنَنِ النَّدى | وَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْثِي السَّحَابَ عَنِ القَطْرِ |
| مَوَاقِعُ جُودِ الفَيْضِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ | مَوَاقِعُ مَاءِ المَزْنِ فِي البَلَدِ القَفْرِ |
| كَأَنَّ وَفُودَ الفَيْضِ لَمَّا تَحَمَّلُوا | إِلَى الفَيْضِ وَاقَفُوا لَيْلَةَ القَدْرِ |

يصور الشاعر الوزير الفيض بالبحر الذي لا يقدح فيه قادح، فلا فائدة من لومه، لأنه لن ينثني عن سنة ألفها ولن ينفك عن خلق كريم اعتاده، فهو السحاب الذي يغطي الأرض بقطره وخيره، حتى بلغ جوده مشارق الأرض ومغاربها، وذلك لكثرة الوفود القادمة من بلدان متعددة ترجو نواله وتطمع في عطائه.

(1) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 46، 47.

(2) - هو محمد بن منذر مولى بني صبير بن يربوع، و يكنى أبا جعفر، شاعر فصيح مقدم في العلم باللغة، وكان في أول أمره يتنسك ثم عدل عن ذلك، فهجا الناس وتهتك وخلع وقذف المحصنات وشتم الأعراض، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 122.

(3) - المصدر نفسه، ج18/ص: 146.

(4) - هو نباتة بن عبد الله الحماني التميمي، أبو الأسود، شاعر من بني حمان، من أهل الدينور، كان متصلا بالفيض بن أبي صالح، وزير المهدي العباسي، توفي سنة عشرين ومائتين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج8/ص: 7.

(5) - ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ج1/ص: 185.

ومن أهم الشعراء الذين مدحوا البرامكة، ونظموا قصائد عصماء تعكس مدى احترامهم وإجلالهم لهذه العائلة أبان اللاحقي⁽¹⁾ إذ يقول في الفضل بن يحيى البرمكي⁽²⁾:

لَقَدْ بَرَزَ الْفَضْلُ بُنَ يَحْيَى وَلَمْ يَزَلْ يُسَامِي مِنَ الْغَايَاتِ مَا كَانَ أَرْفَعَا
رَأَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِمُلْكِهِ كَفِيلاً لِمَا أُعْطِيَ مِنَ الْعَهْدِ مُقْنِعَا
قَضَى بِالتِّي سَدَّتْ لِهَارُونَ مُلْكُهُ وَأَحْيَتْ لِيَحْيَى نَفْسَهُ فَنَمَّعَا

يشيد الشاعر في الأبيات السابقة بفراسة الفضل وذكائه وقدرته على إدارة أمور الرشيد وسياستها، والسبب أن الرشيد كان يريد القبض على أحد خصومه، ويدعى يحيى بن عبد الله، فأحضره الفضل على أمان الرشيد وعهده⁽³⁾، فتجلت حكمة الفضل وانبرت بصيرته في حفظ أمن دولة الرشيد، وفي حقن دم يحيى والإبقاء على حياته.

كما روي عن خالد بن برمك⁽⁴⁾ أنه كان يكره ذل السائلين، فقد كان يطلق عليهم قبل توليه الوزارة (السؤال)، فاستنقل ذلك، وقال: أرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين، لأن فيهم الأشراف والأحرار، وأبناء النعيم، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدباً، ولكننا نسميهم (الزوار)⁽⁵⁾، وقد أحدثت تلك اللفتة استحسان الرعية بما فيهم الشعراء الذين جادت قرائحهم في مدح خالد بن برمك، ومنهم بشار بن برد⁽⁶⁾:

حَدَا خَالِدٌ فِي فِعْلِهِ حَدَوَ بَرْمَكٍ فَمَجَّدْ لَهُ مُسْتَطَرَفٌ وَأَصِيلُ
وَكَانَ ذُوو الْأَمَالِ يُدْعَوْنَ قَبْلَهُ بِأَفْظِ عَلَى الْإِعْدَامِ فِيهِ دَلِيلُ
يُسَمَّوْنَ بِالسُّؤَالِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ نَابَةٌ وَجَلِيلُ
فَسَمَاهُمْ الزُّوَارَ سِتْرًا عَلَيْهِمْ فَاسْتَارَهُ فِي الْمَهْتَدِينَ سُدُولُ
وقال فيه أيضاً⁽⁷⁾:

أ خالـد لم أخـبـط إليـك بنـعمـة
فإن تعطني أفـرغ إليـك محامـدي
أخالـد بين الأجر والحمد حاجتي
سوى أنـني عـاف و أنت جواد
وإن تأب لم يضرب عليك سداد
فأيهما تأتني فأنت عماد

(1) - هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير مولى بني رقاش، شاعر مكث من أهل البصرة، انتقل إلى بغداد، واتصل بالبرامكة، فأكثر من مدحهم، توفي سنة مائتين للهجرة، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج23/ص: 139، و الزركلي، الأعلام، ج1/ص: 27.

(2) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص: 20.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج23/ص: 138.

(4) - هو خالد بن برمك، الوزير الكبير، كان من أفرد الرجال رئاسة ودهاء وحزما، وخلفه في ذلك أولاده، توفي سنة خمس وستين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج7/ص: 229.

(5) - انظر الأصفهاني، الأغاني، ج3/ص: 119.

(6) - ديوان بشار بن برد، ج4/ص: 127.

(7) - المصدر نفسه، ج3/ص: 47، 48، 49.

أما العلماء، مصابيح الدجى، ومشاعل الهدى، وورثة الأنبياء، فلا ينكر فضلهم، ولا يجهل قدرهم، ولا يجحد جهدهم، لهم مكانتهم المرموقة في عيون الناس جميعاً، قد رفع الله منزلتهم عند الخاصة والعامة، بهم يستأنس السلطان، ويهتدي الحيران، وتقام أركان الحضارة على أسسها القوية.

ومن العلماء الذين ذاعت شهرتهم، ونالهم احترام الخاصة والعامة أبو حنيفة النعمان⁽¹⁾، وهو من حملة العلم والنهضة الحضارية في القرن الثاني، ومما قيل في الثناء على أبي حنيفة، وعلمه وفقهه وفتاويه، قول الشاعر مساور الوراق⁽²⁾:

إِذَا مَا النَّاسُ يَوْمًا قَايَسُونَا بِأَبْدَةٍ مِنَ الْفُتَيَا طَرِيفُهُ
أَتَيْنَاهُمْ بِمُقْيَاسٍ ظَرِيفٍ مُصَيَّبٍ مِنْ قِيَّاسِ أَبِي حَنِيفَةَ
إِذَا سَمِعَ الْفَقِيهَ بِهَا وَعَاَهَا وَأُثْبِتَهَا بِحَبْرٍ فِي صَحِيفَةَ

فلما بلغت تلك الأبيات أبا حنيفة سعد بها وأكرم قائلها، وكان يوسع له في مجالسه التي كانت تزدهم بالناس، ويناديه ويجلسه إلى جواره، قائلا: "إن هذا من أهل الأدب والفهم"⁽³⁾.

وقد قال الشاعر العابد المحدث عبد الله بن المبارك⁽⁴⁾ يمدح إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي، عالم السنة، وقامع البدعة، الذي انتهت إليه العلوم والفتيا⁽⁵⁾:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَمَا يُرَاجِعُ هَيِّبَةً فَالَسَّائِلُونَ نَوَاقِسُ الْأَذْقَانِ
هَدْيُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى فَهُوَ الْمَهْيَبُ وَلَيْسَ ذَا السُّلْطَانِ

ويظهر البيتين السابقين مدى احترام الناس لهذا العلامة والحبر الفهامة، خاصة وأنه ابتلي بضرب السياط بسبب فتوى لا تتناسب السلطان، فما زاده ذلك إلا قوة وجلدا وحسن بصيرة تدبر، ولم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة وكأنما كانت تلك السياط حلياً حُلِّيَ بها.

(1) - هو أبو حنيفة، فقيه العراق، النعمان بن ثابت الكوفي، ولد سنة ثمانين للهجرة، وقد رأى أنس بن مالك غير مرة لما قدم عليهم في الكوفة، كان إماماً، ورعاً، لا يقبل هدايا السلطان بل يتجر ويتكسب، توفي سنة خمسين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ/ 1998 م، ج1/ص: 126.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 109.

(3) - انظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(4) - هو عبد الله بن المبارك، التركي الأب، الخوارزمي الأم، ولد سنة اثنتا عشرة ومائة للهجرة، وكان حاجاً، مجاهداً، تاجراً، وكان ثقة، جمع الحديث والفقهاء والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1/ص: 202، والزركلي، الأعلام، ج4/ص: 115.

(5) - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4/ص: 137.

لقد كان الاحترام والرقي في التعامل أحد المعالم الرئيسية لحضارة العصر العباسي الأول، فهي عادة ما تصاحب النبلاء والكرماء والعلماء، فيخلد ذكراهم، وتصبح أفعالهم مثلاً يطرقه الناس، ويتعلمون منه القيم والمثل العالية، ولاشك أن القاضي سوار بن عبد الله بن قدامة⁽¹⁾، الذي بقي على إمامة البصرة وقضائها فترة طويلة في عهد أبي جعفر المنصور⁽²⁾، قد حظي باحترام الرعية، ومن الأبيات الشعرية التي تؤكد ذلك ما قاله أبان اللاحقي في عدله وورعه⁽³⁾:

إِمَامٌ عَدْلٌ قَائِلٌ فَاضِلٌ يَجْلُو دُجَى الشَّكِّ بِأَنْوَارِ
كَانَتْ وَجُوهُ الْحَاحِ قَدْ أَسْفَرَتْ فَأَظْلَمَتْ مِنْ بَعْدِ إِسْفَارِ

وسار على ذلك ينعاه ويعدد محاسنه، ويصف أحوال أهل البغي والظلم، وضعف العدل بعد رحيله، ولكنه يستدرك قائلاً أن آثاره باقية ومناقبه خالدة رغم توسده الثرى، فهو حي معنا بذكره الحسن، إذ يقول في هذا السياق⁽⁴⁾:

وَإِنْ يَكُنْ مَاتَ فَلَمَّا يُمُتْ طِيبُ ثَنَاءٍ مِنْهُ وَأُخْبَارِ
وَسُنُنُ الدِّينِ الَّتِي سَنَّهَا خَلَّفَ مِنْهَا خَيْرَ آثَارِ
لَا يَبْرَحُ السَّالِكُ مِنْهَاجَهَا مِنْهَا بِخَيْرٍ مَا سَرَى السَّارِ

ويصف كرمه ومروءته وإحسانه لليتامى والمعوزين، فيقول⁽⁵⁾:

مَنْ لِلْيَتَامَى كَانَ يَغْتَادُهُمْ مِنْهُ بِإِكْرَامٍ وَإِيثَارِ
وَالْعَارِمِ الْمُحْتَاجِ وَالْمُبْتَلَى وَالضَّيْفِ وَالْمُسْكِينِ وَالْجَارِ
كَانَ لَهُمْ حِصْنًا حَصِينًا إِذَا سَمَّاءُؤُهُمْ ضَنْتُ بِإِمْطَارِ

وتجدر الإشارة إلى أن أغلبية الشعراء الذين تصدروا موائد الشعر في العصر العباسي الأول ينتسبون إلى غير العرب، وفيهم من العرب - وهم قلة - أولئك الذين أفسدتهم البيئة الجديدة وجعلتهم يقبلون من العادات ما يستقبحها قومهم، ويتبعون من السلوك ما يتنافر مع تقاليدهم ومروءتهم، وقد استحدثوا أغراضاً جديدة كالشعوبية والزندقة وغيرها، نذكر منهم بشار بن برد، أبو نواس، مطيع بن إياس، أبان اللاحقي وآخرون، فشنوا حرباً ضروساً ضد

(1) - هو سوار بن عبد الله القاضي العنبري، أبو عبد الله البصري، نزل بغداد وولي بها قضاء الرصافة، وكان فقيهاً، فصيحا، أديباً، شاعراً، توفي سنة خمس وأربعين ومائتين للهجرة، انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج9/ص: 211.

(2) - انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 52.

(3) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص: 43.

(4) - المصدر نفسه، ج1/ص: 44.

(5) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

العرب من ناحية، وافتخروا بالفرس وقدموا لهم فروض الولاء والطاعة والاحترام من ناحية أخرى⁽¹⁾.

ويروى أن عربياً قال مرة لبشار: ما للموالي والشعر؟ فقال يفتخر ويهجو العرب⁽²⁾:

أنا ابنُ الأكرمين أباً وأمّاً تتأزَعني المَرَّازِبُ من طَخَّارِ

إلى أن قال⁽³⁾:

أَحْيَيْنَ لَبِسْتَ بَعْدَ الْعُرَى خَزّاً وَنَادَمْتَ الْكِرَامَ عَلَى الْعُقَارِ؟
وَنَلَيْتَ مِنَ الشَّابَرِقِ وَالْقَلَايَا وَأُعْطِيتَ الْبَنْفَسَجَ فِي الْخُمَارِ
تُفَاخِرُ يَا ابْنَ رَاعِيَةٍ وَرَاعٍ بَنِي الْأَحْرَارِ حَسْبُكَ مِنْ خَسَارِ

وتظهر الشعبية القبيحة واضحة المعالم في الأبيات السابقة، بما فيها من تقديس للعجم واحترام لتراثهم وأمجادهم، فهي هو يفخر بأن أصله ينحدر من طَخَّارِ سَتَانٍ ومرازبها، ويسخر من ذلك العربي ذي الهيئة الرثة والملابس الممزقة، ويتهمه بأنه لم يلبس الملابس الغالية، وينادم الكرام إلا بعد أن عاش حضارة الفرس، بما فيها من ترف ولهو ودور شراب، وبنس المفخرة تلك، فأى تقدم وتحضر في دوران الرأس بعد شرب الخمرة، وذهابها بالعقل والوقار؟

ويقول في موضع آخر مفتخراً بأجداده الفرس وأخواله الروم محاولاً الحط من شأن العرب والانقاص من قدرهم⁽⁴⁾:

هَلْ مِنْ رَسُولٍ مُخْبِرٍ عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ
مَنْ كَانَ حَيًّا مِنْهُمْ وَمَنْ ثَوَى فِي الثُّرُبِ
جَدِّي الَّذِي أَسْمَوْا بِهِ كِسْرَى وَسَاسَانُ أَبِي
وَقَيْصَرُ خَالِي إِذَا عَدَدْتُ يَوْمًا نَسْبِي
كَمْ لِي وَكَمْ لِي مِنْ أَبِي بَنَاجِيَهُ مَعْتَصِبِ
أَشْهُوسَ فِي مَجْلِسِهِ يُجْتَنَى لِنُكْبِهِ بِالرُّكْبِ
يَعْدُو إِلَى مَجْلِسِهِ فِي الْجَوْهَرِ الْمُتَهَبِ

(1) - انظر مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، 1997 م، ص: 172.

(2) - ديوان بشار بن برد، ج3/ص: 229.

(3) - المصدر نفسه، ج3/ص: 230.

(4) - المصدر نفسه، ج1/ص: 389.

وتعد هذه البائية من أقوى القصائد التي قيلت في الشعوبية وبصورة جريئة، إذ عقد فيها بشار بن برد موازنة بين دور كل من العرب والفرس في الحضارة الإنسانية، فأظهر العرب بدوا متخلفين متأخرين، في السلم الحضاري، وجعل من الفرس شعبا متحضرا كلهم ملوك يعيشون في قصور فخمة ويلبسون ثيابا فاخرة، وتتألق الجواهر فوق رؤوسهم، والكل يركع أمامهم في خشوع وإجلال.

ومن الطينة نفسها نجد أبا نواس الذي يسخر من العرب، ويحترم الفرس، ويباهي بمجالس اللهو والشراب، فيقول⁽¹⁾:

| | |
|------------------------------------------|----------------------------------------|
| دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ | وَتُبْلِي عَهْدَ جَدَّتْهَا الْخُطُوبُ |
| وَحَلَّ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ أَرْضًا | تَخْبُ بِهَا النَّجِيَّةُ وَالنَّجِيبُ |
| بِلَادُ نَبْئِهَا عُشْرٌ وَطَلْحُ | وَأَكْثَرُ صَايِدِهَا ضُبُعٌ وَذَيْبُ |
| وَلَا تَأْخُذُ عَنِ الْإِعْرَابِ لَهْوًا | وَلَا عَيْشًا فَعَيْشُهُمْ جَدِيدُ |
| دَعِ الْأَلْبَانَ يَشْرَبُهَا رَجَالُ | رَقِيقِ الْعَيْشِ بَيْنَهُمْ غَرِيبُ |
| فَأَطِيبُ مِنْهُ صَافِيَةٌ شَمُولُ | يَطُوفُ بِكَاسِهَا سَاقِ أَدِيبُ |

يدعو أبو نواس إلى الاجتماع إلى مجالس اللهو، فيقدس الشراب، ويتغزل في الغلام الذي يسقي القوم حتى تخر أجسادهم صرعى، ويتجاهل تراث العرب، وجهادهم، ويسخر من رواحلهم التي تنقلهم، ويعيب أشجار أرضهم وحيوانها، ويصف عيشهم بالجذب والقسوة ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، يستبدل شرب اللبن، بشرب الخمرة، ويفضل هذا على ذلك تماشياً مع الشعوبية الممقوتة.

وإذا كان الإسلام العظيم، قد أقر إكرام الضيف، وندب الناس إليه، وحثهم على التنافس فيه، فإن من الشعراء العباسيين من يرى في ذلك رقياً حضارياً، واحتراما للضيف والمضيف على حد سواء، قال دعبل الخزاعي في ذلك⁽²⁾:

| | |
|----------------------------------------|--------------------------------------------|
| نَعَمَاتُ الضَّيْفِ أَحْلَى عِنْدَنَا | مِنْ رُغَاءِ الشَّاءِ فِي ذَاتِ الرُّغَا |
| نُنْزَلُ الضَّيْفَ إِذَا مَا حَلَّ فِي | حَبَّةِ الْقَلْبِ وَالْوَازِ الْحَشَا |
| رُبَّ ضَيْفٍ تَاجِرٍ أَخْسَرْتَهُ | بِغُثِّهِ الْمَطْعَمِ وَابْتَعْتِ التَّنَا |
| أَبْغَضُ الْمَالِ إِذَا جَمَعْتَهُ | إِنَّ بُغْضَ الْمَالِ مِنْ حُبِّ الْعُلَا |

(1) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 43.
 (2) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 267.

يعبر الشاعر عن تلك اللذة التي يحسها العربي عند استقبال ضيفه، كما يصف صوته بأنه أحلى من أصوات رغاء الماشية، وقد خص هذه الأخيرة بالذكر لما لها في قلوب أصحابها من حب ومودة، قد تتساوى مع حب الولد أحياناً، ولا غرابة فإن الأغنام من أنفس الأموال عند العربي، وأحبها إليه، ثم يزيد من حب الضيف والمبالغة في إكرامه بأن أسكنه سويداء القلب، وجنابات الحشا، وهذا قمة التعامل الراقي الذي عرفه العرب في إكرام الضيف، مما لم يوجد عند سواهم من الأمم.

ولا يفوتني في هذا المقام ذكر معن بن زائدة بن مطر الشيباني الذي ذاع صيبه وبلغت شهرته الآفاق، فقد عرف بجوده وشجاعته، تنقل في أيام بني أمية في الولايات، وانقطع إلى يزيد بن عمر بن هبيرة⁽¹⁾ أمير العراقيين، وأبلى معه بلاء حسناً في حربه ضد جيوش الدولة العباسية عند قيامها، فلما قتل يزيد، وآل الأمر إلى العباسيين، اختفى معن فطلبه أبو جعفر المنصور حتى ظفر به، وعفا عنه، فصار في خدمتهم حيث تولى اليمن سنة إحدى وأربعين ومائة للهجرة، ثم تولى سجستان سنة اثنتين وخمسين ومائة، إلى أن قتله الخوارج فيها، أحبه كل من رآه وعاش معه ووصفه المنصور بأنه: "رجل من العرب، شديد النفس، علام بالحرب، كريم الحسب"⁽²⁾.

ولمروان بن أبي حفصة قصائد طوال تعكس مدى احترامه وتقديره لشخص معن، من ذلك ما قاله في كرمه وسؤده⁽³⁾:

| | |
|----------------------------------------------|----------------------------------------------|
| إِلَى بَابٍ مَعْنٍ يَنْتَهِي كُلُّ رَاغِبٍ | يُرْجَى النَّدَى أَوْ خَائِفٍ يَتَرَقَّبُ |
| جَرَى سَابِقاً مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الَّذِي | بِهِ يَفْخَرُ الْحَيَّانُ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ |
| فَبَرَزَ حَتَّى مَا يُجَارِي وَإِنَّمَا | إِلَى عِرْقِهِ يُنْمَى الْجَوَادُ وَيُنْسَبُ |
| مُحَالِفٌ صَوْلَاتٍ تُمِيتُ وَنَائِلٌ | يَرِيشُ فَمَا يُنْفَكُ يُرْجَى وَيُرْهَبُ |

يصور بن أبي حفصة الناس وقد تجمعوا إلى معن بن زائدة لا يفارقون بابه، لكل واحد منهم حاجة يود قضاءها، فقد سبق أقرانه وأهل زمانه في الجود والعفو والفرسية، حتى فاخرت به القبائل من بكر وتغلب كل أمير، وباهت به كل جواد، ولا غرابة في أن تنسب تلك الفضائل والمكارم إليه، فهي متأصلة في عروقه.

(1) - هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، أبو خالد، أمير العراقيين، ولد سنة سبع وثمانين للهجرة، كان بطلاً، جواداً، سائساً، فصيحاً، قتل في ذي القعدة، سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج6/ص: 207.

(2) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج7/ص: 507.

(3) - ديوان مروان بن أبي حفصة، ص: 16.

وفي السياق ذاته يقول الحسين بن مطير الأسدي⁽¹⁾:

أَلَمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقَوْلًا لِقَبْرِهِ سَقَتَكَ الْعَوَادِي مُرْبِعًا ثُمَّ مُرْبِعًا
فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كُنْتُ أَوَّلَ حُفْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ خُطْتُ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعًا
وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعًا
بَلَى قَدْ وَسِعْتَ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيِّتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِفَّتَ حَتَّى تَصَدَّعَا⁽²⁾

ومن عادة العرب إذا أحببت أحداً ومدحته في حياته أن تدعو لقبيره بالسقيا بعد مماته تيمناً بالخير والرخاء، وهو ما فعله شاعرنا في الأبيات السابقة رغم استغرابه من إمكانية وجود قبر يحوي ذلك الجواد الكريم الذي ضاق بكرمه وسخائه البر والبحر، ولولا كون الممدوح ميتا لما تحمل أي قبر حمله.

وقد كان لشعراء الظرف معاملاتهم الخاصة التي يستميلون عن طريقها عواطف الآخرين، أو ينفسون عنهم كرباتهم، ويدخلون السرور عليهم، فيكسبون ود عالية القوم من الخلفاء والأمراء والوجهاء الذين لا يتوانون عن ذر عطاياهم الجزيلة، أو يتخلصون من كيدهم ونقمتهم، ومن هؤلاء الشعراء، أبو دلامة، شاعر الهزل والدعابة الذي كان يدخل السرور بأشعاره على الخلفاء، فينال جوائزهم ويخرج من غضبهم وعقابهم إن هم نقموا.

وحدث ذات يوم أن دخل على المهدي، وعنده بعض الوجهاء من بني هاشم، فقال له: "أنا أعطي الله عهداً لئن لم تهج واحداً ممن في البيت لأقطعن لسانك، أو قال: لأضربن عنقك فنظر إليه القوم فكلموا نظراً إلى واحد منهم، غمزه بأن عليه رضاه، قال أبو دلامة: فعلمت أنني قد وقعت، وأنها عزمة من عزماته لا بد منها، فلم أر أحداً أحق بالهجاء مني، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي، فقلت⁽³⁾:

أَلَا أَبْلِغُ إِلَيْكَ أَبَا دِلَامَةَ فَلَيْسَ مِنَ الْكِرَامِ وَلَا كَرَامَةَ
إِذَا لَبِسَ الْعِمَامَةَ كَانَ قِرْدًا وَخِنْزِيرًا إِذَا نَزَعَ الْعِمَامَةَ
جَمَعْتَ دِمَامَةً وَجَمَعْتَ لَوْمًا كَذَلِكَ اللَّوْمُ تَتْبَعُهُ الدَّمَامَةُ
فإِنْ تَكُ قَدْ أَصَبْتَ نَعِيمَ دُنْيَا فَلَا تَفْرَحْ فَقَدْ دَنَيْتَ الْقِيَامَةَ

فضحك القوم ولم يبق أحد منهم إلا أجازه".

(1) - هو الحسين بن مطير بن مكمل، مولي لبني أسد بن خزيمه، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، شاعر متقدم في القصيد والرجز، توفي سنة تسع وستين ومائة للهجرة، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 109، و الزركلي، الأعلام، ج2/ص: 260.

(2) - المصدر نفسه، ج16/ص: 19.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج10/ص: 205.

كما حظي العصر العباسي الأول برجال أحسنوا إلى الفقراء والمعوزين، ففضوا حاجتهم، وهم كثير في عصرنا ذلك، من الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم، فمن التعامل الراقي ما قام به خالد بن عبدالله القسري⁽¹⁾، وهو من هو في طيب المعاملة، وقضاء الحاجات، إذ دخل عليه أعرابي يشكو دهره، ويخاصم زمانه، ويصف فقره وحاجة عياله، وأنشأ يقول⁽²⁾:

أَصْلَحَكَ اللهُ قَلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أَطِيقُ الْعِيَالِ إِذْ كَثُرُوا
أَنَاخَ دَهْرٌ أَلْقَى بِكَأَكْلِهِ فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا

قَالَ خَالِدٌ: أَرْسَلُوكَ وَانْتَظَرُوا؟! وَاللَّهِ لَا تَجْلِسُ حَتَّى تَعُودَ إِلَيْهِمْ بِمَا يَسِرُّهُمْ! فَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعَةِ أَعْرَافٍ مَحْمَلَةٌ بِالْبُرِّ وَالتَّمْرِ، وَكِسَاهٍ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ.

ومثل ذلك التعامل الذي يشكل التكافل الاجتماعي الذي دعت إليه الحضارة الإسلامية يبرز ملامح الاحترام والتعامل الراقي بين الوالي والرعية ويعكس الحس الاجتماعي الذي كان سائداً في تلك الفترة، كما أن التلطف في الطلب، وحسن الأدب، واختيار ما يناسب المقام من الألفاظ الراقية السهلة أصبح ضرورة اقتضتها حضارة العصر حتى في مواطن الأعراب النائية.

لا شك أن الشعر صورة عن المجتمع، يصيبه ما يصيب أوجه الحياة من جمود أو تطور وتجديد، وقد اتسعت مجالات الحياة في العصر العباسي الأول وتعددت نشاطاتها وفتح العرب أبوابهم لحضارات وثقافات جديدة متنوعة جعلتهم ينتقلون من طور البداوة والانغلاق والفقر إلى بناء حضارة جديدة خالدة بعد أن نهلوا من كل موارد الفكر والثقافة، وتوافر لهم الرخاء الاقتصادي فكان لا بد أن يتأثر إبداعهم الأدبي وإنتاجهم الشعري بروح العصر وخصائص الحضارة مع الاحتفاظ بسمات الشعر القديم.

وقد اختلف تعاملهم وازدهرت علاقاتهم، فظهر فيهم الظرف ورقي المعاملة، واستمدوا من علوم الشريعة خاصة تلك الدعوة التي تأمر الناس بالتزام الإحسان وطيب المعاشرة والاحترام.

وطبيعي أن يظهر ذلك كله في عواطف الشعراء، فنتبدل ألفاظ الخشونة بالرقية، والصرامة بالرمزية والمعاني الجافة والسطحية بالمعاني المملوءة بالصنعة، والعمق والبحث عما يناسب اللفظ الجديد، مما يعد من معالم الحضارة المعنوية الجديدة.

(1) - هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري، من بجيلة، أبو الهيثم، ولد سنة ست وستين للهجرة، أمير العراقيين وأحد خطباء العرب وأجوادهم، توفي سنة ست وعشرين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج5/ص: 425، والزركلي، الأعلام، ج2/ص: 297.
(2) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج1/ص: 260.

المبحث الثاني: الود

إن أصل مادة "ودد" في اللغة: محبة الشيء وتمنى حصوله⁽¹⁾، ويقال: ودَّ الشيء ودًّا وودِّاً، ووداداً وودادة: أحبه، ووددت الرجل أو أودته ودًّا: إذا أحببته، والودّ بضم الواو وفتحها وكسرهما: المودة⁽²⁾.

والود بالمعنى السابق يختلف عن الحب، ذلك أن أصل مادة "ح ب ب" في اللغة: اللزوم والثبات، فالحبُّ والمحبة اشتقاقهما من "أحبَّه" إذا لزمه، والمحبُّ: البعير الذي يتعب فيلزم مكانه⁽³⁾.

فالفارق الدلالي بين الكلمتين يتمثل في ملامح اللزوم والثبات في "الحب"، وملح التمني في "الود".

ويكفي الود شرفاً أن جاء ذكره في القرآن الكريم في مواضع متعددة، من مثل قوله سبحانه وتعالى: {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ}⁽⁴⁾. وقوله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}⁽⁵⁾، وقوله أيضاً: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}⁽⁶⁾.

فقد جاء الود بمعنى التمني تارة، كما في سورة البقرة، وبمعنى المحبة والألفة الخالصة تارة أخرى كما في سورة مريم والروم.

إن المحبة إذن تقان وتفاهم وتضحية، وتقريب للأبدان والأرواح واتفاق في النظرة، وتحمل للكلفة، لذلك تقارب الواصفون للمودة في مفهومها، وفي وصفها، فقد سأل عنها المأمون ذا الرياستين⁽⁷⁾، فقال: "يا أمير المؤمنين، إذا تقادحت جواهر النفوس المتقاطعة بوصل المشاكلة، انبعثت منها لمحة نور تستضيء بها بواطن الأعضاء، فتتحرك لإشراقها طبائع الحياة، فيتصور من ذلك خلق حاضر للنفس، متصل بخواطرها، يسمى الحب"⁽⁸⁾.

(1) - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج6/ص: 65.

(2) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (ودد)، ج3/ص: 453، 454.

(3) - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج2/ص: 26.

(4) - سورة البقرة، الآية: 96.

(5) - سورة مريم، الآية: 96.

(6) - سورة الروم، الآية: 21.

(7) - هو الفضل بن سهل، لقبه المأمون (بذي الرياستين) ومعنى ذلك رياضة الحرب، ورياسة التدبير، أو رياضة السيف ورياسة القلم، وهو أول وزير لقب، وأول وزير اجتمع له اللقب والتأثير وهو من أولاد ملوك الفرس المجوس، وكان قهرمانا ليحيى بن خالد، وكان أبوه سهل مجوسياً فأسلم في أيام الرشيد، وكان الفضل سخياً كريماً، كان يقال له الوزير الأمير، انظر ابن طباطبا، الفخري في الأداب السلطانية، ج1/ص: 218.

(8) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج2/ص: 167.

أما شعراء الغزل والود فقد جادت القريحة عندهم إلى درجة الإفراط؛ حتى ليخيل أنه لم يبق شاعر إلا ونظم في هذا الغرض، على تفاوت بينهم بطبيعة الحال. فالغزل هو حديث الفتيان والفتيات أو اللهو مع النساء، بينما التغزل التكلف بذلك⁽¹⁾.

ويعد الغزل من أقدم الفنون الشعرية عند العرب لاتصاله بالطبيعة الإنسانية فقد كثرت فيه الدلالة على اللوعة والصبابة والوجد والرقّة، إذ على المتغزل أن يكون لطيفاً رقيقاً ظريفاً مراعيًا لنفسية المرأة وما يجذبها إلى الرجل لذلك قال قدامة بن جعفر⁽²⁾: "يقال في الإنسان أنه غزل إذا كان متشكلاً بالصورة التي تليق بالنساء وتجانس موافقاتهن لحاجته إلى الوجه الذي يجذبهن إلى أن يملن إليه والذي يميلن إليه هو الشمائل الحلوة، والمعاطف الظريفة، والحركات اللطيفة والكلام المستعذب والمزاح المستعرب"⁽³⁾.

ومن الشعراء الذين تفجرت مشاعرهم وجادت قرائحهم بأجمل القصائد الغزلية أبو عيينة المهلب الذي قال في محبوبته فاطمة بنت عمر المكناة بدنياً⁽⁴⁾:

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| ما لقلبي أرق من كل قلب | و لحبي أشد من كل حب ! |
| ولدنيا على جنوني بدنيا | أشتهي قربها و تكره قربي |
| نزلت بي بلية من هواها | و البلايا تكون من كل ضرب |
| قل لدنيا إن لم تجبك لما بي | رطبة من دموع عيني كتبي |
| فعلام انتهرت بالله رسلي | و تهددتهم بحبس و ضرب |
| أي ذنب أذنبته ليت شعري | كان هذا جزاءه أي ذنب |

ويقال أن حب أبي عيينة لـ " دنيا " لم يكن وليد مصادفة، إنما هو حب خالص، عايشه الشاعر في كل مراحل حياته ، وأكبر الظن أنه ظل يذكر محبوبته هذه حتى أنفاسه الأخيرة، والسبب في عدم زواجه بها هو أنه لم يكن ذا منزلة تذكر رغم كونه من أسرة عريقة، إذ ذكر الأصفهاني أنه كان جندياً في بداية شبابه⁽⁵⁾.

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (غزل)، ج11/ص: 492 .

(2) - هو قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج، كاتب من البلغاء الفصحاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة، كان في أيام المكتفي بالله العباسي، من تصانيفه: الخراج، نقد الشعر، وجواهر الألفاظ، توفي ببغداد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج5/ص: 191.

(3) - قدامة بن جعفر، أبو الفرج، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ص: 134.

(4) - انظر الأصفهاني، الأغاني، ج20/ص: 30.

(5) - انظر المصدر نفسه، ج20/ص: 50.

وقد ظل حب أبي عيينة قويا حارا وظلت " دنيا " ترده عنها في عنف تارة، وفي رفق تارة أخرى، قاطعة بذلك كل سبب بينها وبينه، إلا أنه ازداد بها كلفا وحبا ما فوقه حب، ويظهر ذلك جليا في قوله⁽¹⁾:

أرى عهدها كالورد ليس بدائم
وعهدي لها كالآسى⁽²⁾ حسناً وبهجةً
فما وجد العذري إذ طال وجده
كوجدني غداة البين عند التفاتها
فقلت لأصحابي هي الشمسُ ضوءها
ولا خير في من لا يدوم له عهدُ
له نضرة تبقى إذا ما انقضى الوردُ
بعفراء حتى سل مهجتها لوجدُ
وقد شفَّ عنها دون أترابها البردُ
قريب ولكن في تناولها البعد

والظاهر أن الغزل في العصر العباسي أصبح أكثر ثراءً وازدهاراً نظراً لانتشار الرفه ونعومة العيش واستقرار الأحوال وكثرة الأموال، مما أعطى الشعراء الفرصة للتفرغ لمجالس الغناء ووصف النساء، غير أنه لم يلتزم بالاتجاهين اللذين عرفا في العصر الأموي وهما الغزل العذري أو العفيف والغزل الحضري أو الصريح، فقد أخذ الغزل العفيف في التضاؤل أمام التيارات الفكرية والفلسفية واتساع مساحة الترجمة، والانفتاح على حضارات الشعوب المفتوحة ولم يبق للاتجاه العذري إلا بقايا قليلة يمثلها العباس بن الأحنف وقلة من أمثاله من الذين أخلصوا في عشقهم، فقد وقف العباس أشعاره على فن واحد هو النسيب" ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء، ولم يكن يتصرف في شيء من هذه المعاني"⁽³⁾.

واتصل العباس بالرشيد فألفه الرشيد ودعاه إلى صحبته في الخروج إلى خراسان، ثم خرج إلى أرمينية والعباس معه، فأنشده الأبيات الآتية ليستهديه السماح بالرجوع إلى بغداد نتيجة لشدة شوقه إلى الأعبة⁽⁴⁾:

قالوا خراسانُ أقصى ما يُرادُ بنا
متى يُكونُ الذي أرجو وأملُهُ
ما أقدرَ الله أن يُدنيَ على شحطِ
عينِ الزمانِ أصابتنا فلا نظرتِ
ثمَّ الفَقولُ فَقَدَ جِئنا خُراسانَا
أمَّا الَّذي كُنْتُ أخشاهُ فَقَدَ كانَا
جيرانَ دِجْلَةَ مِن جيرانِ جِجانَا
وَعُدَّتْ بِفُنُونِ الهَجْرِ ألوانَا

(1) - الأصفهاني، المصدر السابق، ج20/ص: 40.

(2) - الآس: سيد أنواع الرياحين، انظر السيوطي، المقامات، مطبعة الجوانب، قسطنطينية، الطبعة الأولى، 1289 هـ، ج1/ص: 20.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج8/ص: 253.

(4) - ديوان العباس بن الأحنف، ص: 279.

فقال له الرشيد: قد اشتقت يا عباس! ثم أذن له بالرجوع خاصة، وأمر له بثلاثين ألف درهم⁽¹⁾.

إن العباس بن الأحنف من أهم الشعراء العشاق الذين صوروا حبهم من خلال الشعر، إذ يعد بحق ظاهرة فنية فريدة في عصره، حيث امتاز شعره بأرقى المعاني وأجود الصور، وتناول في غزله معاني العذريين وجمع بين حس البداوة ورقة الحضارة، وارتفع عن الأوصاف الحسية الفجة، وكشف عن مذهبه في الحب، وهو مذهب يقوم على عفاف الضمير ونقائه، فنجد شاعرا يخلق وحده في سماء العفة والطهر ويسلك مسلك العذريين خاصة وأنه في القرن الثاني للهجرة ارتفعت أصوات الغزل الحسي والغزل الشاذ، فهو ينأى بنفسه عن الانغماس في المجون، ويقصر شعره على الغزل.

"لقد قصر العباس بن الأحنف فنّه على الحب والعشق صدًا ووصلاً، وحنيناً وأنيباً، ولوعة وشكوى، ومكاتبة ولقاء، ووصفاً للحبيبة ولها بها، وفرحاً بلقائها، وبكاء على فراقها وألماً لرحيلها، حيث وصف الشوق وطول الليل وامتناع النوم وطول الهجر، وغاص في أعماق نفوس المحبين، وجاء بالصور الشعرية العديدة الغنية من مواقف العشق بحيث لم يكد يصل إلى معانيه شاعر آخر من شعراء الوجد والجمال في أدبنا العربي ثراءً ووفرةً وتنوعاً وكثرةً"⁽²⁾.

ويتغنى العباس بالود ويعبر عن ألم البين وما يعتريه من اللوعة العفيفة، فيقول في واحدة من غزلياته⁽³⁾:

مَا أَحْسَنَ الْوُدَّ إِذَا كَانَ مَنْ تَهْوَاهُ يَجْزِي الْوُدَّ بِالْوُدِّ
وَأَنْعَمَ الْعَاشِقُ فِي عَيْشِهِ إِنْ دَامَ مِنْ يَهْوَى عَلَى الْعَهْدِ

لا شك أن الود إذا دام وتم تبادل بين الناس، فهو مدعاة لانتشار الألفة والمحبة بين البشر، كما أن العاشق يجد لذة وامتعة في عشقه، إذا كان صاحبه باق على العهد، حافظ للود.

وقد تساءل العباس بن الأحنف عن مدى حفظ محبوبته لعهد الود فقال⁽⁴⁾:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَصْبَحَ عَهْدُهَا
فَإِنْ يَكُ مَرَّ الدَّهْرِ غَيْرَ وَدَّهَا
فَإِنِّي لَبَاقٍ الْوُدَّ لَا مُتَبَدِّلُ
فَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْحُبِّ أَبْلَى لِأَهْلِهِ
أَدَامَ عَلَى مَا كَانَ أَمْ قَدْ تَغَيَّرَا
وَأُودَى بِهِ طُولُ الزَّمَانِ فَأُدْبِرَا
سِوَاهَا بِهَا حَتَّى أَمُوتَ فَأُقْبِرَا
وَلَا مِثْلَ أَهْلِ الْعَشْقِ أَشْقَى وَأَصْبِرَا

(1) - انظر الأصفهاني، الأغاني، ج8/ص: 268.

(2) - فوزي عيسى، في الشعر العباسي، دارالمعرفة الجامعية، دون طبعة، 2007 م، ص: 71-73.

(3) - ديوان العباس بن الأحنف، ص: 100.

(4) - المصدر نفسه، ص: 121.

وهو يصون الود مهما لقي من عنت وصدود (1):

قَبُولِكَ وَدِّي مِنْ اللَّهِ نِعْمَةً تَتَمُّ إِذَا كَفَأْتُمُ الْوُدَّ بِالْوُدِّ
ولو أنكم لم تقبلوا الودَّ لم يزل مَصُونًا لَكُمْ حَتَّى أُغَيَّبَ فِي لَحْدِي

إن مودة العباس بن الأحنف سامية رفيعة، يكتنفها رقي الحضارة وأبهة العصر، فهي غزل عذري نقي طاهر، قد تنزه من العبث وفاحش القول، فيه سمات العفة وصدق العاطفة.

لقد حضرت المرأة بشكل واضح في الشعر العربي القديم، وقد ارتدت حلا مختلفة وصورا متفاوتة، غير أنها لم تبرح محور الاهتمام الذي أبداه الشعراء وزينوا به دواوينهم، فقد وصفوها على مر العصور بأوصاف مختلفة وبكلمات جميلة وعبارات رقيقة.

كما شغلت المرأة ذهن الشاعر في العصر العباسي الأول، فأضفى عليها جمالا مثاليا يرتبط بروح العصر، فكان إحساسه بها غاية في الرهافة: "فتفاعل مع محيطه، فانطبع في نفسه صور غامت في اللاشعور وفي يقظة من صفاء الفكر وتنبه خاطر، فراحت يد التداعي تملأ فراغ الذكريات ثم تدفعها كاملة أو شبه كاملة إلى حيز الشعور، وإذا بشعوره السيال يصارع الفكر، ويموج بالعواطف، وتتدافع فيه الأخيلة والصور فتفتحت نفسه للقول، وراحت ريشته المرهفة تتلمس مواطن الإبداع لتخطها بمداد العبقريّة صورا وعاما الإحساس" (2).

رسم الشعراء صورة المرأة فمثلت الذوق العام أصدق تمثيل، فكل حبيبة تمثل صورة مثالية للمرأة العربية التي جذبت الأنظار، سلبت الألباب، ودخلت القلوب وسكنتها دون استئذان.

ولا شك أن الشعراء العرب على مر العصور، كانوا أكثر المبدعين اهتماما بالمرأة وتصويرا لجمالها، وتعبيرا عن تأثيره على النفوس والحديث عن حبها والشكوى منه، فجعل الشاعر هذه المحبوبة أجمل النساء وباعتباره أكثر من تغنى بهواه لها، فقد حشد لها كل عناصر الجمال، فقصرها عليها، فصارت تمثالا لا واقعا، يقول صلاح عبدا لصبور "الشاعر لا يصف امرأة بعينها ولكنه يصف مثلا لمرأة هذا المثال الذي خطه الشعراء الأوائل" (3).

وعليه فقد كرس الشاعر العربي جل أشعاره من أجل المرأة الحبيبة، وكان للحرائر نصيب وللجوارى نصيب، "و لم يقصد الإسلام إلى كبت هذه العاطفة السامية في نفوس العرب، كما أنه لم يحاول أن ينتزعها من نفوسهم، وإنما كان أمرها هنا كأمرها في العواطف الأخرى،

(1) - العباس بن الأحنف، المصدر السابق، ص: 104.

(2) - محمد سعيد الدغلي، أحاديث غزلة، منشورات مكتبة أسامة، دمشق، الطبعة الأولى، 1895م، ص: 71.

(3) - صلاح عبد الصبور، قراءة جديدة لشعرنا القديم، منشورات إقرأ، دار السلام، الطبعة الأولى، 2006م، ص: 118.

ولم يهمل الإسلام هذا الجانب، فقد جعل من هذه العاطفة قوة دافعة نحو الخير العام والصالح المشترك⁽¹⁾.

وهذه إحدى جوارى الرشيد، ويقال لها "ماردة"⁽²⁾، غلبت على عقله وتمكن حبها من قلبه، وعندما جرى بينهما بعض العتب وشيء من الهجر أنف كل منهما عن الاعتذار للآخر، فهي أخذتها عزة المعشوق المدلل أن تعتذر، وهو بعزة الخلافة والسلطان وشرف الملك يأبى ذلك، غير أن سلطان الهوى غلب عليهما، فاشتاق كل منهما للآخر، وخاصة الرشيد الذي عرض بذلك الصدود في أبيات شعرية يخبر فيها بهجرها له وهو هجر كاذب، فهي في الحقيقة تريد وصله لولا التدلل والحياء.

تُبْدِي صُدُوداً وَتُخْفِي تَحْتَهُ صِلَةً فَالنَّفْسُ رَاضِيَةٌ وَالطَّرْفُ غَبَانٌ⁽³⁾
يا مَنْ وَضَعْتُ لَهْ خَدِي فَذَلَّلَهُ وليس فوقي سوى الرَّحْمَنِ سُلْطَانُ

ويذكر أن المأمون عتب على جارية من جواريه، وكان كلفاً بها، فأعرض عنها وأعرضت عنه، ثم أسلمه الهوى وأقلعه الشوق، حتى أرسل يطلب مراجعتها، وأبطأ عليه الرسول، فلما رجع أنشأ يقول⁽⁴⁾:

بَعَثْتُكَ مُرْتَاداً فَفَزْتَ بِنَظْرَةٍ وَأَعْفَلْتَنِي حَتَّى أَسَأْتُ بِكَ الظَّنَا
وَنَاجَيْتَ مِنْ أَهْوَى وَكُنْتَ مَقْرَباً فَيَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْ دُنُوكَ مَا أَعْنَى
وَنَزَّهْتَ طَرْفاً فِي مَحَاسِنِ وَجْهَهَا وَمَتَّعْتَ بِاسْتِظْرَافٍ نَعْمَتَهَا أَذُنَا
أَرَى أَثْراً مِنْهَا بَعَيْنِيكَ لَمْ يَزَلْ لَقَدْ سَرَقَتْ عَيْنَاكَ مِنْ وَجْهَهَا حُسْنَا
فَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ الرَّسُولَ وَكُنْتَنِي وَكُنْتَ الَّذِي يُقْصَى وَكُنْتُ أَنَا الْمُدْنَى

يحسد المأمون رسوله في الأبيات السابقة على أنه متع نظره برؤية محبوبته، وتحدث إليها، ويلومه على تأخره في الرد عليه بخبرها، حتى أساء ظنه فيه، غير أنه يجد لتلك الزيارة أثراً ايجابياً، تمثل في تمكنه من الاستمتاع من حسن معشوقته من خلال عين رسوله، ثم يتمنى من شدة شوقه، لو كان هو الرسول ليراها ويقرب منها، ويكحل ناظره بجمالها ودلالها.

(1) - سلمى سليمان علي، المرأة في الشعر الأندلسي - عصر الطوائف - مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دون طبعة، 2001 م، ص: 3.

(2) - هي ماردة، هكذا ورد اسمها في بعض المصادر، وفي بعضها مارية، جارية الرشيد من فواضل نساء عصرها ذات حسن وجمال، وإمام بالشعر والأدب، كان الرشيد يحبها حباً عظيماً، وهي أم ولده المعتصم، انظر طبقات ابن المعتز، ج/ص 255، والأصفهاني، الأغاني، ج/ص: 218.

(3) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج/ص: 68.

(4) - أبو علي أحمد بن يعقوب مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: أبو القاسم إمامي، سروش، طهران، الطبعة الثانية، 2000 م، ج/ص: 172.

ثم إن المأمون استرضاهما، وسلم عليها فلم ترد السلام، ولم تتكلم، فأنشأ قائلاً⁽¹⁾:

تَكَلَّمْ لَيْسَ يُوجَعُكَ الْكَلَامُ وَلَا يُؤْيِي مَحَاسِنَكَ السَّلَامُ
أَنَا الْمَأْمُونُ، وَالْمَلِكُ الْهَمَامُ وَلَكِنِّي بِحُبِّكَ مَسْتَهَامُ
يَجُوقُ عَائِيكَ أَنْ لَا تَقْتُلِينِي فَيَبْقَى النَّاسُ أَيْسَ لَهُمْ إِمَامُ

يتضح من خلال الأبيات السابقة أن الود يكسر قلوب الخلفاء وهم يملكون الأرض وما فيها، لكنها رقة التمدن وأثار التحضر الذي عاشه الحاكم والمحكوم، حيث سرت تلك الرقة لا في معاشهم فحسب، بل حتى في ألفاظهم، وتعاملهم مع جواريتهم وخدمهم، إلى أن بلغ الأمر أن قالوا أشعارهم فيهم، وهم قادرين على قولها في أعز الناس مكانة ومهابة ودلالا.

وقد ذكر ابن العماد الحنبلي⁽²⁾ بيتين جميلين قالهما الخليفة المأمون على الفور عندما علمت إحدى جواريتهم بخروجه للجهاد في بلاد الروم، وكان يحب الجهاد، فقالت⁽³⁾: "ما هذا قال: أريد الجهاد، فقالت: قتلتي والله وتحدرت دموعها، وأنشأت":

سَأَدْعُوهُ دَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ رَبًّا يُثِيبُ عَلَى الدُّعَاءِ وَيَسْتَجِيبُ
لَعَلَّ اللّٰهَ أَنْ يَكْفِيكَ حُزْنًا وَيَجْمَعُنَا كَمَا تَهْوَى الْفُلُوبُ

فضمها إلى صدره وأنشد:

فِيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ الدَّمْعُ كُحْلَهَا وَإِذْ هِيَ تَذْرِي دَمْعَهَا بِالْأَنَامِلِ
صَبِيحَةَ قَالَتْ فِي الْوَدَاعِ قَتَلْتَنِي وَقَتْلِي بِمَا قَالَتْ بِتِلْكَ الْمَحَافِلِ

وينقلنا تيار العصر، وأثير المودة، ومركب الشعراء، من خلفاء الشرق وملوكه، إلى خلفاء الغرب وملوكه، إلى الحكم بن هشام بن عبدالرحمن⁽⁴⁾، الأمير الشاعر، أما العاطفة فهي العاطفة ذاتها وقد رأيناها عند الرشيد والمأمون وغيرهما من خلفاء الشرق العباسي، أحاسيس ومشاعر وود وهيام، وأما الأرض فهي غير الأرض أرض الأندلس، الفردوس الإسلامي المفقود، أرض الطبيعة الساحرة والجنان الملتفة والحدائق النضرة، والأنهار الجارية، والكتبان الذهبية الناعمة، أرض إثارة عواطف الشعراء ومفجرة قرائحهم، أرض

(1) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج/8 ص: 114.

(2) - هو إبراهيم بن أحمد بن عالي الرقي، برهان الدين أبو إسحاق، ابن العماد، من علماء الحنابلة، ولد سنة سبع وأربعين وستمئة للهجرة، وتقدم في علم الطب، وسمع منه البرزالي والذهبي، له تصانيف كثيرة، منها: أحاسن المحاسن، وله خطب وشعر، توفي سنة ثلاث وسبعمائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج/1 ص: 29.

(3) - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج/3 ص: 82.

(4) - هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي، أحد ملوك المغرب، حكم ستا وعشرين سنة، كان شجاع النفس، باسط الكف، عظيم العفة، كانت له ألف فرس مربوطة بباب قصره على جانب النهر، توفي سنة ست ومئتين للهجرة، وله اثنتان وخمسون سنة، انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج/5 ص: 232.

جعلت من سكانها شعراء وإن لم يكونوا شعراء؛ بنسبتها العليلة وطبيعتها الخلابية، إذ يقول الحكم بن هشام متغزلاً غزل النبلاء⁽¹⁾:

قُضِبُ من البان ماسَتْ فوق كُتبانٍ وَلَيْنَ عَيْنِي وقد أزمَعَنَ هجراني
مَلَكَنَنِي مَلَكاً ذَلَّتْ عَزَائِمُهُ لِلْحُبِّ ذُلٌّ أَسِيرٌ موثِقٌ غَالِي
من لي بُمُعْتَصَبَاتِ الروحِ من بدني يَعْصِبُنِي في الهوى عَزِيٌّ وسُلْطَانِي

ينقل الشاعر صورة جميلة من بلده، فيشبهه أحبته بغصون البان وقضيبها التي تناثرت وترعرعت فوق كتبان الرمال الجميلة، والقُضْب (بضم القاف وسكون الضاد) جمع قضيب وهو الغصن، والقُضْب (بفتح وسكون) شجر تتخذ منه القسي⁽²⁾.

وعلى التفسيرين يصح التشبيه، والبان : شجر يسمو ويطول في استواء مثل نبات الأثل، وورقه كورق الأثل، وليس له صلابة، واحدته بانه، ويتميز بشدة الخضرة⁽³⁾، وعادة ما يشبه الشعراء الجارية الناعمة بهذه الشجرة لجمالها وطيبها وطولها، فيقال: كأنها غصن بان.

وشاعرنا هنا ينقل صور البيئة التي تحتضن تلك الجواري الفاتنات اللواتي يأخذن الألباب، وقد شبهن بغصون البان لنعومتهم وتحضرهن وجمال أجسادهن، ومن عادة المجتمع المترف والمتحضر أن يكون في بعض أفراده نوع من الخيلاء والكبر؛ ولذا عبر الشاعر عن مشية جواريه بالمسيان، وهو عدم المبالاة وعدم الالتفات عزة وتكبراً.

وقد استعمل الشاعر الأمير ألفاظاً عذبة، فهي أدوات عصره التي تدل على نهضته وتحضره، فمن الغصون إلى الكتبان مروراً بالعزة وعدم المبالاة من المحبوب، ووصولاً إلى إبراز عزة السلطان والجاه والملك، كل تلك الصور الشعرية الأخاذة لا يمكن أن تتبلور إلا في المجتمعات الراقية، والأمم المتحضرة، التي لبس أبنائها لباس الترف وعيشة الملوك. ولعل أبرز صور الود تلك التي تجسدها الرابطة الزوجية، خاصة وأن الإسلام كرم الزوجة ورفع من شأنها وميز مركزها وقرنها بالرجل في معظم الآيات القرآنية، يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا⁽⁴⁾، وقال أيضاً: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا⁽⁵⁾.

(1) - ابن شاعر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1974م، ج1/ص: 393.

(2) - انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (قضب)، ج1/ص: 678.

(3) - انظر المصدر نفسه، مادة (بين)، ج13/ص: 70.

(4) - سورة النساء، الآية: 1.

(5) - سورة الأعراف، الآية: 189.

وقد جعل الإسلام أساس العلاقة بين الزوجين المودة والرحمة، فأعطاهم حقوقاً حفظت كرامتها وجعلتها مهابة الجانب، وفي المقابل جعل لها واجبات معينة تؤديها، وبذلك فالحقوق والواجبات جعلت الكفة بين الزوجين متوازنة، فهما يمثلان شطري الإنسانية، ومن ذلك ما كتبت به زبيدة إلى الرشيد، عندما اشتغل عنها بجارية أهدتها إليه، حيث تقول (1):

وَعَانِثِقُ صَبَّبَ بِمَعَشُوقِهِ كَأَنَّمَا قَلْبَاهُمَا قَلْبُ
رُوحَاهُمَا رُوحٌ وَنَفْسَاهُمَا نَفْسٌ ، كَذَا قَلْبُكَ مِنْ حُبِّ

وتجدر الإشارة إلى أن الغزل والود موضوعان شعريان يناسبان المرأة؛ لأنها تنفّس من خلالهما عن مشاعرها الفياضة، وتظهر نفثاتها الحرة إزاء معاناتها من آلام الجوى، وحرقة الهوى.

فهذه عليّة بنت المهدي قد تبوّأت مكانة لا تُضاهى في عالم الشعر، إذ كانت "الطيفة المعنى، رقيقة الشعر، حسنة مجاري الكلام" (2)، وكانت تكتنم هواها في فؤادها، ولا تستطيع أن تذكر اسم المحبوب، فهي من أكمل النساء عقلاً، وأحسنهن ديناً وصيانة ونزاهة، من أجل ذلك اضطرت إلى الكتمان نتيجة شعورها بالرقابة الاجتماعية، فقالت:

يا ذا الــــذي أكتنم حبيبه ولست من خوف أسميه
لم يدر ما بي من هواه ولم يعلم بمــــا قاسيتــــه فيه (3)

ولعليّة رؤية مقنعة في الحب، ذلك أنه يتصف بالمشقات والمتاعب والحرمان ونحو ذلك، وعلى الرغم من هذه الصعوبات، فإن فيه حلاوة الرسائل التي تجري بين المحبين، وهي التي تهب السعادة لهم، وتثبت الحب بينهما بوشائج قوية لا تنقطع، فتقول داعية إلى التمسك بحبال الحب:

تَحَبَّبَ فَإِنَّ الْحَبَّ دَاعِيَةٌ الْحَبِّ وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تَبَصَّرَ فَإِنَّ حَدَّثَتْ أَنْ أَخَا هَوَى نجا سالمــــاً فارح النجاة من الحب
إذا لم يكن في الحب سخطٌ ولا رضاء فأين حــــلاوات الرسائل والكتب (4)

وتترامى خديجة بنت المأمون (5) على أعتاب المحبوب من خلال صورة جميلة، تجعلها تتمنى أن تصبح حماماً أو باشقاً يفعل به ما يريد. وكان للقفية الشعرية دور مؤكّد في إضفاء مسحة جمالية متألفة فتقول:

(1) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج8/ص: 115.

(2) - الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ج1/ص: 43.

(3) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج3/ص: 71.

(4) - الأصفهاني، الأغاني، ج10/ص: 139.

(5) - هي خديجة بنت أمير المؤمنين عبد الله بن هارون الرشيد، كانت أديبة، شاعرة، ظريفة في شعرها، انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج12/ص: 174.

بالله قولن لمن ذا الرشا
أظرف ما كان إذا ما صحا
المثقل الردف الهضيم الحشا
وقد بنى برج حمام له
وأملح الناس إذا ما انتشى
يا ليتني كنت حماماً له
أرسل فيه طائراً مرعشا
أو باشقياً يفعل بي ما يشا⁽¹⁾

أما الجارية عنان فكانت شاعرة متمكنة، وكفيها أنها استطاعت أن تصور الحب، والعلاقة الودية مع الرجل في مختلف الأحوال، ولو لم يكن لها سوى هذا البيت لكفى دلالة على مقدرتها الفنية إذ تقول:

ويبكي فابكي رحمةً لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دماً⁽²⁾

وهذا غاية التماهي العاطفي في ميدان الغزل، حين بدت هذه المرأة قادرة على الإفصاح عن المشاعر، بل الوصول إلى مرتبة رفيعة.

ومن شعر الشوق الذي يصلح للتمثيل به على الود، ومناجاة الحبيب أياً كان ذلك الحبيب، أبيات لمسلم بن الوليد يقول فيها⁽³⁾:

أحبُّ الرِّيحَ إن هبَّتْ شَمالاً
أهأبك أن أبوحَ بذاتِ نَفسي
وأهجرُ صاحبي حُبَّ التَّجَنِّي
أيصبرَ عاشقُ هَجَرَ الحبيبا
ولو حملتُ نفسي الصبرَ عنه
كأني حين أغضي عن سواكم
وأحسُّدُها إذا هبَّتْ جَنوباً
وأفرقُ إن سألتُك أن أخيباً
عليه إذا تجنَّيتُ الدَّنوباً
أجرُّ فؤاده شوقاً عجيباً
لكان الصبرُ في قلبي غريباً
أخافُ لكم على عيني رقيباً

استهل صريع الغواني قصيدته بتقسيم حسن، ومعناه: أن ريح الشمال تأتي من ناحية المودود فيحبها، أما الجنوب فهي تهب ناحية الحبيب فتباشر جسمه وتمسه، فيحسدها لذلك، ثم عرج في بقية الأبيات إلى إبراز عاطفته، فأخبر أحبته أنه من عظيم وده يكاد ألا يصرح باسمه، وقد أصابه الفزع والخوف، فلم يتجرأ أن يسأل أحبته حاجته خشية ألا تجد أذانا صاغية، فتزيد مأساته، ولا يلبث أن يستفهم على سبيل الإنكار أن العاشق لا يقوى على الهجر، وأنه يخفي في فؤاده شوقاً لا يُصبر عليه، ويذكر أن طرفه لم ولن ينصرف إلى سواهم وكان عليه رقيباً لا يتوانى عن حراسته.

(1) - السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تحقيق: عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، دون تاريخ، ص: 48.

(2) - السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية، 1996 م، ص: 39.

(3) - ديوان صريع الغواني، ص: 12.

ومسلم وإن كان ممن يحكم الرمزية في أبياته، فإنه يختار ألفاظاً غنية مفخمة ويلبسها ثياب البديع - مسابرة لأثرابه - فليس هذا بغريب عليه، لسببين اثنين:

- الأول: أنه من الشعراء المحدثين ، فلقد كان من أبناء منتصف العصر، حيث ولد سنة أربعين ومئة للهجرة، وهي فترة الشروع في تدوين العلوم ودراسة حضارات الأمم، وترجمة الكتب، والاستقرار السياسي، فلا مناص أن يتأثر شاعرهما بذلك كله.
 - الثاني: أنه كان ممن يجهد نفسه ويكد ذهنه في صنع شعره، على أنه عاش القديم بعقله ووجدانه فدرسه، واستفاد من تراكيبه ومعانيه وتبلورت أساليب ذلك الشعر القديم وصوره وفخامة ألفاظه، فكان أن التأم القديم بالجديد في صدره، فأضحى يجمع بين جديده وقديم غيره، فاستحق أن يقال عنه "إنه أول من لطف البديع، وكسى المعاني حلل اللفظ البديع"⁽¹⁾.
- ومما استجد في عرف شعراء الود في هذا العصر بث مشاعرهم في صورة رسائل يبعثونها إلى أحببتهم، في أسلوب قصصي قصير سهل التركيب، يصفون فيه ما يختلج ضلوعهم، كقول بشار بن برد⁽²⁾:

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| مَنْ المشهور بالحب | إلى قاسية القلب |
| سَلامُ الله ذي العرش | على وجهك يا جبي |
| فأماً بَعْدَ يَأْفُرُّ | ة عيني ومُنَى قَلْبِي |
| وَيَا نَفْسِي التّي تَسُ | كُن بين الجَنبِ والجَنبِ |
| لقد أنكرتُ يا "عَبْد" | جفاءً منك في الكُنْبِ |
| أَعَنَ ذَنْبٍ فَلَا واللـ | ه ما أحدثتُ منْ ذَنْبِ |

يعاتب بشار محبوبته عبدة⁽³⁾، ويخبرها بحبه وشوقه إليها في صورة رسالة يحملها سلامه وأشواقه، ويشكو إليها قسوتها وجفاءها، ورغم افصاحه عن مكنوناته تلك تظل الحبيبة بخيلة في الرد عليه، فلم الهجر الذي أحدثته عبدة وهو لم يقترف ذنباً يذكر؟!

وواضح من أبيات بشار الأسلوب الترسلّي الذي لم نعهده من قبل، يتبين ذلك في قوله: " من... إلى...، أما بعد " وهو الأسلوب المعتاد في كتابة الرسائل بأنواعها، على ما تتضمنه الأبيات من رقة العاطفة، والتلطف، والتودد، وبث الشكوى، وتقديم العذر والتماسه شيئاً من العتب، ثم يصاغ ذلك كله في ألفاظ رقيقة سهلة لا تحتاج إلى إعمال الفكر في فهم معانيها، وهو أسلوب عهدناه في قصائد بعض الشعراء المحدثين، أمثال أبي العتاهية.

(1) - الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ج4/ص: 1067.

(2) - ديوان بشار بن برد، ج1/ص: 206.

(3) - انظر الأصفهاني، الأغاني، ج6/ص: 170.

كما تحمل الأبيات السابقة في ثناياها رقة الحضارة والحس المرهف وسهولة التعبير واللفظ وترف البيئة المادي والمعنوي الذي فتح أبواباً من الشعر، إذ تظهر من خلالها الصورة الواقعية للحياة اليومية، وتفتح فيها المعاني العقلية المتأثرة بما في المحيط الاجتماعي والثقافي من ثقافات، فتصور لنا جزءاً من حياة الناس المعقدة.

أما ربعة الرقي⁽¹⁾، فهو شاعر عباسي مطبوع شهد له من ترجم له، ومن أقرانه شهد له مروان بن أبي حفصة، حيث وصف شعره باليسر، ونعته بأنه أشعر المحدثين⁽²⁾. و من شعره في الود⁽³⁾:

حمامةً بَلَّغِي عَنِّي سَلاماً حبيباً لا أَطِيقُ لَهُ كَلاماً
وَقُولِي لِلتَّبِي غَضِبْتُ عَلَيْنَا عَلامَ وَفِيمَ يَأ سَكَنِي عَلاماً
أَفِي هُجْرانِ بَيْنِكَ تَصْرِمِينِي وَمَا رُمْنَا لِصْرِمِكُمْ صِرَاماً
وَلَمْ أَهْجُرْكَ مَقْلِيَةً وَلَكِنْ حَلَّتْ عِرَاقُكُمْ وَحَلَّتْ شاماً

يبعث ربعة أشواقه مع الحمامة إلى المحبوب، وتلك إحدى الأساليب التي اعتمدها شعراء الغزل في عصره خاصة، لكون الحمامة رمزاً للجمال واللفظ والرفقة، وهدوء الطبع وحسن الصوت، وفيها شبه بالمرأة، حيث نقلت تلك الحمامة سلامه إلى أحبته الذين نأوا عنه فلم يعد باستطاعته أن يكلمهم؛ لبعد ديارهم ثم يبعث مع السلام عدداً من الوصايا والأعذار، فيتساءل عن سبب الغضب والهجران وصرم المودة، فهو لم يهجر ولم ينو قطع المودة، بل إنه يصبو إلى الوصال لولا أن ديار الأحيبة قد نأت.

وإذا كان شاعر البداوة يحاور الأرام والأطلال والدّمّن البالية، ويسائلها عن وجهة أحبته ومقامهم، فإن شاعر الحضارة يحاور الحمام، والبحر والسفينة التي أقلت المحبوب، ويسائل القصور التي خلت منهم وما شابه ذلك من مظاهر تعكس بيئة العصر وازدهاره.

ومن الود أيضاً، ما وقع في قلب شاعر الزهد أبي العتاهية، قبل أن يتنسك، من حب جارية للمهدي تسمى "عتبة" كان قد رآها وهو يتردد في بلاط الخليفة، فوقع في قلبه، وقال فيها أشعاراً كثيرة أغلبها حسن، فمن شعره فيها قوله⁽⁴⁾:

أَلَا يَا عَتْبُ يَا قَمَرَ الرُّصَافَةَ وَيَا ذَاتَ المَلاحَةِ والنَظَافَةَ
رُزِقْتِ مَوَدَّتِي، وَرُزِقْتِ عَطْفِي وَلَمْ أُرْزَقْ فَديْتُكَ مِنْكَ رَافَهُ

(1) - هو ربعة بن ثابت الأنصاري، يكنى أبا شباية، وقيل أبا ثابت، وكان ينزل الرقة، وبها ولد ونشأ وقدم على المهدي فمدحه بعدة قصائد، فأجزل صلته عليها وهو من المكثرين المجيدين، وصف ابن المعتز شعره بالطبع والملاحة والعذوبة والجودة، وكان ضريراً وكان بعيداً عن العراق، فلم يشتهر ذكره؛ لانعزاله عن خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء، انظر الأغاني، ج16/ص: 172، وطبقات ابن المعتز، ج1/ص: 264.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج6/ص: 172.

(3) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 163.

(4) - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3/ص: 263.

يصف الشاعر عتبة بالنظافة والملاحة، وكيف لا تكون كذلك ومسكنها قصور الخلافة، وخدمة الخلفاء ونسائهم، وقد كان لها الحظوة عند المهدي وزوجته الخيزران؛ ولذا حدَّ أبا العتاهية وجلده بسبب بعض الشعر الذي قاله فيها، ثم لم يلبث أن استرضاه عندما أشفقت عتبه عليه، وبكت بسبب جلده إياه⁽¹⁾.

ومن مליح قول أبي العتاهية أيضا في عتبه⁽²⁾:

تَبَارَكَ اللهُ، مَا دَعَاكُمْ يَا أَهْلَ وُدِّي إِلَى جَفَائِي؟
فَأَنْتُمْ الْهَمُّ فِي صَبَاحِي وَأَنْتُمْ الْهَمُّ فِي مَسَائِي
مَنْحَتُكُمْ تَمَّ صَبُّوْتِي وَوُدِّي فَكَانَ ذَا مِنْكُمْ جَزَائِي

ومن الجلي أن ألفاظ القصيدة مستساغة وتراكيبها طيعة، قريبة التناول، سهلة الحفظ والترديد يحفظها كل من يسمعها بدون عناء، تناسب حياة الناس اليومية، ويجدون فيها الحكمة والتجربة والمثل.

ونتيجة لكون أشعار أبي العتاهية توافق أهل عصره وتعالج بعض قضاياهم عدوه من خيرة المحدثين وأظرفهم وأسرعهم بديهة وأسهلهم نظاماً، ولذلك قال عنه ابن مَنَازِر عندما سئل عن أشعر أهل الإسلام، فعد منهم أبا العتاهية قائلاً: "ومن المحدثين هذا الخبيث الذي يتناول شعره من كفه"⁽³⁾.

ولا شك أن الحضارة والترف والعلوم المترجمة وغيرها قد ظهر واضحا جلياً في أشعار الود خاصة وبقية الأغراض عامة، وأصابنا نظرة ناقد لذلك الشعر وأثر الحضارة فيه عندما قال⁽⁴⁾: "يضاف إلى ذلك التجديد المقصود ما جد في أشعار المحدثين بأثر البيئة والحضارة والثقافة والعلم الغزير والأمزجة الآرية، ومما لا بد أن يكون له صدهاء في أخيلتهم وتصوراتهم وتأثيرهم للمعاني ومما وجد له النقاد مظاهر شتى في هذه الأشعار كالإسفاف والإغراق والإحالة ونقص الطبع وتفاوت النفس".

(1) - المسعودي، المصدر السابق، ج/3ص: 262.

(2) - المصدر نفسه، ج/3ص: 264.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج/4ص: 46.

(4) - طه إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الفيصلية، مكة المكرمة، دون طبعة، 2004م، ص: 125.

ويرى ابن عرفة النحوي⁽¹⁾ والمبرد⁽²⁾ في المحدثين "إسرافاً وتجاوزاً وغلواً وخروجاً عن المقدار" مرده ذلك الأثر الذي أحدثته سمات الحضارة، ونعومة العيش ودوران الحياة اليومية وتعقدها، وعدوا من ذلك الإسراف والغلو، قول بكر بن النطاح في أبياته الغزلية التي تحمل الكثير من النفحات الحضارية⁽³⁾:

تَمْشِي عَلَى الْخَزِّ مِنْ تَنْعُمِهَا فَتَشْتَكِي رِجْلَهَا مِنَ التَّرْفِ
لَوْ مَرَّ هَارُونَ فِي عَسَاكِرِهِ مَا رَفَعَتْ طَرْفَهَا مِنَ السَّجْفِ

إن أثر التحضر والتنعم والترف في حياة تلك المحبوبة واضح من خلال هذين البيتين، فأى ترف بعد هذا الترف والتنعم حيث تفرش لها ثياب الخز وحليته الناعمة، ثم تكاد رجليها أن تخذش وتنزف من مشيها عليه، فكيف لو سارت على غيره؟! وأي كبرياء وعجب أصابها فلا ترفع طرفها، لموكب يسير فيه إمام المسلمين وجنده؟ إنه الغلو ولا شك، وتلك هي عجائب الحياة الحضارية ونعيمها قبل أن تكون عجائب المبدعين من شعرائها.

(1) - هو محمد بن محد بن عرفة الوريثي، أبو عبد الله، ولد سنة ست عشرة وسبعمائة للهجرة، بتونس، كان إماماً، عالماً، خطيباً في عصره، من كتبه المختصر الكبير في فقه المالكية والمختصر الشامل في التوحيد والمبسوط في الفقه، توفي سنة ثلاث وسبعمائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج7/ص: 42،43.

(2) - محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري، أبو العباس المبرد، إمام العربية في زمانه، كان فصيحاً، بليغاً، مفوهاً، ثقة، إخبارياً، توفي آخر سنة خمس وثمانين ومائتين للهجرة، انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5/ص: 142.

(3) - المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م، ج1/ص: 370.

المبحث الثالث : التعفف

إن العفة من أجل الأخلاق وأسمائها، وأفضل الخصال وأعلاها، ثمرها باسق، وجمالها متناسق، لا يتناهى ثوابها ولا يضاهى فضلها، ويمكن تعريف العفة بأنها: "الكف عما لا يحلّ ويجمل، عَفَّ عن المحارم والأطماع الدنية، يَعْفُ عَفَّةً وَعَفًا وَعَفَافًا، وَعَفَافَةٌ فَهُوَ عَفِيفٌ وَعَفٌّ، أَيْ كَفٌّ، وَتَعَفَّفَ وَاسْتَعَفَّفَ وَأَعَفَّهُ اللَّهُ"⁽¹⁾.

وقد ورد في القرآن الكريم نصوص كثيرة تأمر بالعفة وتبين فضائلها في الدنيا والآخرة، وما قصة سيدنا يوسف عليه السلام إلا آية باهرة تدعو المؤمن الصادق إلى سلوك طريق العفاف، وتصبره على ما يلاقيه من عنت وتعب وفتنة في هذه الحياة الدنيا.

كما أمر الله جل وعلا الرجال بالعفة فقال: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}⁽²⁾، وأمر النساء بالعفة أيضا فقال: {وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ}⁽³⁾.

وأما السنة النبوية فطافحة بالأحاديث التي تنص على فضيلة العفة وتزكية أهلها، فعن سهل بن سعيد الساعدي رضي الله عنه، أن الرسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: "من يضمن لي ما بين رجليه وما بين لحييه، أضمن له الجنة"⁽⁴⁾.

ومن عفة أبي جعفر المنصور، أنه كان ميالاً إلى الرأفة والعمو رغم ما أثر عنه من الحزم وشدة البأس، ومن عادة الكريم إذا قدر غفر، ومن سمات العقلاء والصالحين أنهم يتعففون عن جعل العقوبة شيمتهم بل يعفون ويصفحون، إلا أن يكون حداً من حدود الله سبحانه، فعند ذلك لا هوادة.

ويروى أن المنصور قال لرجل مسيء عجز عن العذر: "ما هذا الوجوم وعهدي بك خطيباً لسناً؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ليس هذا موقف مباهاة، ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرق له وعفا عنه"⁽⁵⁾.

وقد ذكر ابن طباطبا⁽⁶⁾ أن المأمون كان يتحلى بهذه الصفة، فقد كان حليماً حسن الصبح يعرف بذلك، هجاه دعبل الخزاعي بأشعار كثيرة منها قوله⁽⁷⁾:

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (عفف)، ج9/ص: 253.

(2) - سورة النور، الآية: 33.

(3) - سورة النور، الآية: 60.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب حفظ اللسان، حديث رقم 6474، ج8/ص: 100.

(5) - الأبيشي، المستطرف في كل فن مستطرف، ج1/ص: 197.

(6) - هو محمد بن علي بن محمد بن طباطبا العلوي، أبو جعفر المعروف بابن الطقطقي، ولد سنة ستين وستمئة للهجرة، من أهل الموصل، مؤرخ، باحث، ناقد، صاحب كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، توفي سنة تسع وسبعمائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج6/ص: 283، وبكر بن عبد الله أبو زيد، طبقات النسابين، دار الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1407هـ/1987م، ص: 137.

(7) - ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ج1/ص: 26.

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشِرْفَتَكَ بِمَقْعَدِ
شَادُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طُولِ حُمُولِهِ وَاسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

فلما بلغه قوله لم يزد على أن قال: "قاتله الله ما أشدَّ بهتانه!"⁽¹⁾

ومن متعفي العصر العباسي الأول شاعر الغزل العذري العباس بن الأحنف، الذي بدت العفة وصيانة العرض، والحفاظ على سمعة من يهوى، غالبية على قصائده فانقادت له النفوس، وتغنى بقريضه الركبان، إذ كان العباس بن الأحنف شاعرا بغاديا غزلا حلوا، مقبولا غزير الفكر، عذب الحديث، محبوبا من هارون الرشيد ووزرائه وقواده، وكان محمد بن المنصور بن زياد⁽²⁾ الملقب بفتى العسكر يألفه ويعجب به، فكان يدعو إلى منزله، وكان جوادا يختلف إلى مجلسه الأدباء والشعراء، وكان له جوار كثيرات، من بينهم جارية ظريفة تسمى فوزا تروي الشعر والأخبار، ف وقعت في قلب العباس بن الأحنف، وكان إذ سأله محمد بن المنصور عما أحدث من الغزل ينشد أشعاره وهو ناظر إليها وكان يكتفيها باسم ظلوم⁽³⁾، وتوضح عفة العباس في قوله⁽⁴⁾:

وَمَا بَيْنَنَا مِنْ رِيبةٍ فَيَرَاقِبَا وَلَا مِثْلَهَا يُرْمَى بِسَوْءٍ وَلَا مِثْلِي
وَإِنِّي لَأُرْعَى حَقَّ فَوْزٍ وَأَتَّقِي عَلَيْهَا عُيُونَ الكَاشِحِينَ ذَوِي الخُتْلِ
وَإِنِّي وَإِيَّاهَا كَمَا شَفْنَا الهَوَى لِأَهْلِ حِفَاظٍ لَا يُدَنَّسُ بِالْجَهْلِ
وَإِنِّي وَكِنْمَانِي هَوَاهَا وَقَدْ فَشَا كَذِي الْجَهْلِ تَحْتَ التَّوْبِ يَضْرِبُ بِالطَّبْلِ

وتتجلى مروءة الشاعر في بيته الثالث، حيث يدعو إلى العفة والمحافظة، وعدم تدنيس العرض بما لا يليق، فإن كل ذلك من الأدب الرفيع، والسمات الحضارية، والمروءة العربية، فكم عف وعت، رغم ما أصابهما من ألم الهوى والمحبة وصبابة الشوق.

(1) - ابن طباطبا، المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(2) - هو محمد بن منصور بن زياد الغساني، أبو عبد الله، المعروف بفتى العسكر، كان يلي ديوان الجند أيام الرشيد، انظر ابن الفوطي الشيباني، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق: محمد الكاظم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، الطبعة الأولى، 1416هـ، ج2/ص: 509.

(3) - شوقي ضيف، الحب العذري عند العرب، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 1999م، ص:

132.

(4) - ديوان العباس بن الأحنف، ص: 210.

ولا شك أن البيئة الحضارية التي قضى العباس فيها حياته قد تركت في شعره أثرا جلياً، من حيث موسيقاه وأسلوبه وصوره، وامتد ذلك الأثر ليطول موقفه في الموضوعات الجزئية التي تازرت في الإبانة عن صورة خاصة للحب. فالمكان يؤثر تأثيراً خاصاً في الإنسان، وفي إحساسه بالأشياء والأشخاص، وهو بذلك يسهم في تشكيله، وتشكيل خياله وذوقه وفنه. ولهذا ترى العباس وأمثاله من شعراء الحواضر يميلون إلى الرقة في الموسيقى والألفاظ التي تعبر عن مشاعرهم، ويمكن لنا أن نتمثل مثل هذا الأثر في حكاية علي بن الجهم الذي ورد بغداد، فمدح المتوكل أول الأمر بأن شبّه بالكلب في الوفاء، والتيس في الجلد، ثم مدحه بعد مدة من إقامته في بغداد بقصيدته التي بدأها بقوله:

عِيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْحِجْسِرِ جَلْبَنُ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ نَدْرِي وَلَا نَدْرِي (1)

ومن مظاهر العفة عند العباس قراره في أن تبقى شخصية معشوقته سرا من أسرارهِ الدفينة، فلا يظهر في شعره ما يدل عليها تصرّحاً أو تعريضاً، بل يلجأ إلى التعمية بحيث لا يجد المتخرّصون إلى معرفتها سبيلاً، فحبّه لفوز الطافح في شعره، ليس هو الحب الذي جنّه بين ضلوعه، وما دام المعروف من علاقته هو أحد طرفيها، فلا شك في أنّ هذا الحب لن يشعر به أحد من الناس:

لَأُخْرِجَنَّ مِنَ الدُّنْيَا وَحُـبُّكُمْ بَيْنَ الْجَوَانِحِ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ (2)

ولعلّ عدداً من المتغزلين قد عمد إلى إخفاء ما يتعلّق بمحبوبته عن الناس، ولكنهم في الأغلب الأعم كانوا معروفين بهنّ وهنّ معروفات بهم، أمّا العباس فقد عرف باسمها دون أن تعرف حقيقتها، إذ زادت قصائده المسألة غموضاً، حيث لم يصف فوزاً كما تقدّم وصفاً يمكن أن يدلّ عليها، كما صاغ شعره - في محاولة الناس اكتشاف شخصيتها - صياغةً ملبسة:

فجاهلٌ قد رمى بالظنّ غيركُم وصادقٌ ليس يدري أنّه صدقا
يظنّ هذا وذا ما ليس يعرفه ودمع عيني بما أخفيه قد نطقا (3)

(1) - ابن العربي، محاضرة الأبرار ومسيرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار، مطبعة السعادة،

الطبعة الأولى، 1906م، ج2/ص: 3.

(2) - ديوان العباس بن الأحنف، ص: 84.

(3) - المصدر نفسه، ص: 200.

وجدير بالذكر أن الاختلاط في الحاضرة حيث عاش العباس وفوز أظهر منه في البادية، فتعرض النساء للرجال في أولهما أكثر منه في الأخرى، وهو الأصل الذي تتبع منه الرذيلة، ولهذا ترى فوزا تعاتب العباس على نظره إلى غيرها، ويقسم هو أن نظره لم تكن لغيرها(1):

قالت: نظرت إلى غيري، فقلت لها
ما أضمر القلب شيئاً تغضيبين له
يمين ذي قَسَم بالله مُجْتَهِدَا
إلا رفعت إليك الطرف مُعْتَمِدَا

هذا شيء من غزل العباس، وهو كما ترى: "عذري طاهر نقي يمتاز بجزالة اللفظ مع عذوبته، كما يمتاز بغزارة المعاني والخواطر حتى لكأنما تستمد من معين في نفسه لا ينضب، فيعمد أحيانا إلى شيء من صور البديع غير أنها تأتي عفوا ولا تؤثر أي تأثير في قوة العاطفة وانطلاقها كالسيل المندفَع"(2).

ومن العفة الانصراف عن قول الزور والخنا، والتخلي بالعزة والجود والمروءة التي يراها ابن أبي حفصة في ممدوحه حيث يقول(3):

مَطْرِيٌّ أَغْرُ تَلَقَّاهُ بِالْعُرِّ فِ قَوْوَلًا وَالْخَنَا تَرَآكَا
مَنْ يَرْمُ جَارَهُ يَكُنْ مِثْلُ مَا رَا مَ بِكْفَيْهِ أَنْ يَنَالَ السَّمَاكَا

يمدح الشاعر في البيتين السابقين شراحيل بن معن بن زائدة(4)، ومعلوم ما اتصف به معن وأولاده، من المروءة والعفة، والجود والشجاعة، وأما لفظة المطري فنسبة إلى بني مطر قوم معن، فشراحيل سيد كآبيه، كريم، يفتخر بجوده وبذله، ويترفع عن الفحش وقول الخنا، ويبتعد عن كل فعل وقول قبيح، ومن مروءته وكمال عفته، غيرته على جاره، فإن من يقصد الاعتداء عليه، يكون كمن يحاول أن يطول النجم بيده، وفي ذلك إشارة إلى قوته وأنفته وعفته التي لا تضاهى، وكل ذلك صفات كرم وتحضر وعزة عربية دعا إليها الإسلام.

وهذا صريع الغواني الشاعر المحب الغزل، المغرم بالعشق والشراب، فقلما افتتح قصيدة له بغير الغزل نراه يفصح عن عفته، ونزاهة عشقه، فيقول(5):

أَلَا رَبِّ يَوْمَ صَادِقِ الْعَيْشِ نَلْتُهُ بِهَا وَنَدَامَايَ الْعَفَافَةَ وَالْبَذْلُ
عَشِيَّةً أَوَاهَا الْجَبَابُ كَأَنَّهَا خَذُولٌ مِنَ الْغَزْلَانِ خَالِيَةً عَطْلُ

(1) - العباس بن الأحنف، المصدر السابق، ص: 80.

(2) - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 379.

(3) - ديوان مروان بن أبي حفصة، ص: 74.

(4) - لم أجد ترجمته.

(5) - ديوان صريع الغواني، ص: 53.

والظاهر أن الشاعر قد عاش تلك المرأة في أيام سعيدة، وكان نديمه العفة والبذل ولم يفكر في أمر سوء، فقد تسترت وهي قادرة على السفور، فكان أن عف وتكرم، والقصيدة قيلت في زوجة له طلقها، ولعله يذكرها بما كان بينهما من عفة وإخلاص اقتضته المروءة والنخوة، قبل أن يتزوجها، يدل على ذلك قوله متندما على فراقها الذي قدره الله عز وجل، بعيداً عن الخيانة والغدر⁽¹⁾:

فَبِينِي فَقَدْ فَارَقْتِ غَيْرَ ذَمِيمَةٍ قَضَاءُ دَعَانَا لِلْقَطِيعَةِ لَا الْخَتْلُ

ويذكر صبايته، وكتمه لها أمام عاذليه، فيقول⁽²⁾:

فَمَا حَزَنِي أَنِّي أُمُوتُ صَبَابَةً وَلَكِنْ عَلَى مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُ قَتْلِي
أَحَبُّ الَّتِي صَدَّتْ وَقَالَتْ لِتَرْبِهَا: دَعِيهِ! الثَّرِيًّا مِنْهُ أَقْرَبُ مِنْ وَصْلِي!
أَمَاتَتْ وَأَحْيَتْ مُهَجَّتِي فَهِيَ عِنْدَهَا مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ الْمَوَاعِيدِ وَالْمَطْلِ
وَمَا نِلْتُ مِنْهَا نَائِلًا غَيْرَ أَنَّنِي بِشَجْوِ الْمُحِبِّينَ الْأَلْيِ سَلَفُوا قَبْلِي
كَتَمْتُ تَبَارِيحَ الصَّبَابَةِ عَائِلِي فَلَمْ يَذُرْ مَا بِي فَاسْتَرَحْتُ مِنَ الْعَذْلِ

ويشكو الشاعر من جديد تباريح الهوى والصدود بسبب جارية أحبها غير أن عفنها وتمنعها حالاً دونه، فعف هو الآخر؛ لما رأى من صدها وتعففها، فالعفاف مطلب حضاري رفيع، ودعوة إسلامية خالدة، تفتك بالتحسر والندم، ويعقبها سعادة واستقرار.

أما داود بن سلم⁽³⁾ فقد أحسن في وصف ممدوحه، فبالغ في إكرامه ونعته بالرقي والرفعة عن قول الخنا، ووصفه بالعفاف، فيقول⁽⁴⁾:

فِي وَجْهِهِ بَدْرٌ وَفِي كَفِّهِ بَحْرٌ وَفِي الْعِرْنَيْنِ مِنْهُ شَمَمٌ
أَصَمُّ عَنِ قَيْلِ الْخَنَّا سَمْعُهُ وَمَا عَنِ الْخَيْرِ بِهِ مِنْ صَمَمٍ
لَمْ يَذُرْ مَا "لَا" وَ"بَلَى" قَدْ دَرَى فِعَافَهَا وَاعْتَاضَ مِنْهَا "نَعَمٌ"

(1) - صريع الغواني، المصدر السابق والصفحة نفسها.

(2) - المصدر نفسه، ص: 51.

(3) - هو داود بن سلم مولى بني تميم، وقيل مولى آل أبي بكر، مخضرم من شعراء الدولتين الأموية والعباسية، من ساكني المدينة، يقال له داود الأدم؛ لشدة سواده، له أشعار حسنة، وخاصة في الغزل، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج 6/ص: 11.

(4) - المصدر نفسه، ص: 18.

تظهر في الأبيات السابقة معاني السمو والجود والعفة، وقد أجاد الشاعر سبكها من خلال استخدام التشبيه الذي أحسن توظيفه، وكرر فأحسن التكرير، وصاغ كل ذلك في قوالب لفظية مستساغة سهلة حتى وكأنه الكلام المباشر العادي، ثم نظم ذلك كله على بحر السريع، ليزيد تعبيره عن ذوبة ورقة وبساطة. ولعل من يقرأ الأبيات يرى فيها حسن التقسيم، ولطف المقابلة، ورشاقة الطباق والمزاوجة بين التراكيب، مما يعد من المعالم الحضارية في المعاني والألفاظ.

ومن صور العفة أيضا ما قاله بشار بن برد في فتاة حسناء عرضت عن تغزله وعفت عن حديثه⁽¹⁾:

قَالَ رِيْمٌ مَرَّعَتْ سَاحِرُ الطَّرْفِ وَالنَّظْرُ
لَسْتُ وَاللَّهِ نَسَائِلِي قُلْتُ أَوْ يَغْلِبُ الْقَدْرُ
أَنْتَ إِنْ رُمْتَ وَصَلْنَا فَأَنْجُ هَلْ تُدْرِكُ الْقَمْرُ

ومن الشعراء الذين يكتمون الهوى، ويتحملون ألم اللوعة، ويخفون العتاب، محمد بن أبي أمية⁽²⁾ الشاعر الغزلي، صاحب المشاعر الرقيقة، والمعاني الغريبة، إذ يقول في إحدى قصائده⁽³⁾:

هَوَيْتُ فَلَمْ يَيْلَ الْهَوَى وَبَلَيْتُ وَقَاسَيْتُ كُلَّ الدَّلِّ حِينَ هَوَيْتُ
كَتَمْتُ الْهَوَى حَتَّى تَشَكَّتْ نُحُولَهَا عِظَامِي بِإِفْصَاحٍ وَهَنَّ سُكُوتُ
يَذُبُّ الْمُنَى عَنِّي الْمَنَايَا وَلَوْ خَلَا مَقِيلُ الْمُنَى مِنْ مُهْجَتِي لَطَفَيْتُ
وَأَضْمِرُ فِي قَلْبِي الْعِتَابَ فَإِنْ بَدَتْ وَسَاعَفَنِي قُرْبُ الْمَزَارِ نَسِيْتُ

يفاسي ابن أبي أمية ذل الهوى وآلام الشوق ولولا تلك الأمنيات التي يؤمل بها فؤاده لاختار الموت بديلا، ورغم ذلك كله إلا أنه كان يعف عن العتاب، كما عفت المحبوبة عن الإفصاح.

وهذا من أعذب الغزل وأطهره، فلا يرى فيه خدش للحياء، أو تدنيس للفضيلة، أو دعوة إلى الإباحية، وقد ساق الشاعر ألفاظاً حصرية رقيقة المبنى والمعنى طابق بين بعض مفرداتها، كالكتمان والإفصاح، وجانس بين المنى والمنايا، واستخدم ألفاظاً شعبية يعرفها العامة، كقوله "طغيت" التي كنى بها عن الموت، وأحسن في شدة كتمانته حتى جعل عظامه هي التي أفصحت من شدة وجده وصابته بما أصابها من ضعف ونحول.

(1) - ديوان بشار بن برد، ج4/ص: 80.

(2) - هو محمد بن أبي أمية بن عمرو بن أمية الكاتب، مولى بني أمية بن عبد شمس، وأصله من البصرة، انظر البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج2/ص: 83.

(3) - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2/ص: 164.

وتتأكد العفة مرة أخرى عند ابن أبي أمية، بل إنه يصرح بها، فهو رغم كونه طامعاً حريصاً على اللقاء، إلا أنه متحرج عفيف، فقد طغت عفته على شوقه، فمنعه الحياء من محادثة المحبوبة وإن كانا بعيدين عن أنظار الناس، إذ يقول في هذا السياق⁽¹⁾:

لله نُو كَبِيدٌ يُكَابِدُ فِي الْهَوَى طَمَعَ الْحَرِيصِ وَعِقَّةَ الْمُتَحَرِّجِ
يَأْبَى الْحَيَاءُ إِذَا التَّقِيْتُكَ خَالِيًا مِنْ أَنْ أَبْثُوكَ مَا أَخَافُ وَأُرْتَجِي

ويشكو أشجع السلمي محبوبته، مبدياً عفته، وطول حنينه وشجنه فيقول⁽²⁾:

أَمْفِسِدَةٌ سُعَادٌ عَلَى دِينِي وَلَائِمَّتِي عَلَى طَوْلِ الْخَنِينِ
وَمَا تَدْرِي سُعَادٌ إِذَا تَخَلَّتْ مِنْ الْأَشْجَانِ كَيْفَ أَخُو الشُّجُونِ

يتشوق أشجع إلى محبوبته، ويفكر فيها طويلاً، ويحن إلى لقائها ولكنه يخشى على دينه الذي دعاه إلى التعفف، رغم ما كان يعانيه من أشجان وأحزان، وطول حنين إلى تلك الحبيبة الممعة في الصد والهجران.

وبمجرد أن يذكر أشجع الخوف من مفسدة الدين التي هي أعظم المفسدات، فإننا نجد في ذلك دعوة إلى التعفف والمصابرة على طلب المرغوب في سبيل الحفاظ على الدين وسلامة المروءة.

ولولا التقوى لما عفّ البعض عن اقتراف المآثم، وفي هذا يقول أبو بكر العزمي⁽³⁾:

أرى عاجزاً يُدْعَى جليداً لِعُشْمِهِ ولو كَلَّفَ التَّقْوَى لَكَلَّتْ مَضَارِبُهُ
وعَفَاً يُسَمَّى عَاجِزاً لِعَفَافِهِ ولولا التَّقَى مَا أَعْجَزْتُهُ مَذَاهِبُهُ
وليس بَعَجْزِ المرءِ أخطأه الغنى ولا باحتيالٍ أدركَ المالَ كَاسِبُهُ⁽⁴⁾

تتجلى حكمة الشاعر وتجاربه عن العفة ومسالكها في القصيدة السابقة، فيصوغ أبياته على هيئة حكم تتداولها الناس، وهو مبدأ حضاري جاءت به تعاليم الإسلام وآدابه.

(1) - الصفدي، المصدر السابق و الصفحة نفسها.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 167.

(3) - هو محمد بن عبد الله، ويكنى أبا بكر وهو من حضر موت، كوفي أدرك أول الدولة العباسية، جل شعره آداب وحكم، انظر المرزباني، معجم الشعراء، تصحيح وتعليق: ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1402 هـ / 1982 م، ج1/ص: 417.

(4) - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4/ص: 5.

ومن الشعر الذي تشتم فيه رائحة الندم والتوبة والعفة عن اقتراف الآثام، قول ابن رهيمة⁽¹⁾، يصف أوبته، ويلوم نفسه على ما مضى من صبابته وهواه⁽²⁾:

الآن أبصرتُ الهُدى وعَلا المشيبُ مَفَارِقي
أبصرتُ رأسَ غَوايتي ومُنحبتُ قَصْدَ طرايقي
يفترُّ عن مُتَلالِيء منصَّبٍ لِقَابِكِ شايقي
كالأقْحُوانِ مرأة⁽³⁾ ومذاقِ لَذَائِقِي

كما قلد الحسين بن مطير الأُسدي المهدي درراً لفظية من المحاسن النبيلة والأخلاق العالية التي تجلت فيها ملامح الأدب والعفة والحياء، إذ يقول⁽⁴⁾:

فَتَى هُوَ مِنْ غَيْرِ التَّخَلُّقِ مَا جِدُّ وَمِنْ غَيْرِ تَأْدِيبِ الرَّجَالِ أَدِيبُ
عَلَا خَلْفُهُ خَلَقَ الرَّجَالَ وَخُلْفُهُ إِذَا ضَاقَ أَخْلَاقَ الرَّجَالِ رُحِيبُ
يَعْفُ وَيَسْتَحِي إِذَا كَانَ خَالِيَاً كَمَا عَفَّ وَاسْتَحْيَا بَحِيثُ رَقِيبُ

يشيد الشاعر بشهامة المهدي وعلو همته، وقناعته وحسن أدبه ويصفه بالفتوة، فهو ماجد أبي، ورث النبل كابرأ عن كابر، فالمجد والفتوة والمروءة متأصلة فيه، لم يخلقها، والأدب فطري فيه لم يكتسبه من الرجال، فهو على خُلقٍ عظيم فاق بذلك أقرانه، كما أنه يتميز دائماً بالعفة والحياء، فعفته وحيأؤه أصالة فيه، تلازمه دائماً، سواء كان في جمع أو على انفراد.

ومن عادة الكريم العفيف أن يعرض عن الخنا، وأن يتحلى بالحلم والمروءة ولذلك يعجب الناس بهذا الصنف لعفتهم، ويفيضون فيه مدائحهم، قال محمد بن زياد⁽⁵⁾ يصف حلماً⁽⁶⁾:

تَخَالَهُمْ فِي النَّاسِ صُماً عَنِ الْخَنَا وَخُرْساً عَنِ الْفَحْشَاءِ عِنْدَ التَّهَاجِرِ
وَمَرْضَى إِذَا لُوقُوا حَيَاءً وَعِفَّةً وَعِنْدَ الْحَفَاطِ كَاللُّيُوثِ الْخَوَادِرِ
كَأَنَّ لَهُمْ وَصُماً يَخَافُونَ عَارَهُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَا تَقَاءِ الْمَعَايِرِ

(1) - هو محمد بن عبد الله مولى عثمان بن عفان يعرف بابن رهيمة، وهي أمه وهو حجازي أدرك الدولة العباسية، انظر المرزباني، معجم الشعراء، ج1/ص: 417.

(2) - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3/ص: 240.

(3) - مرأة: من مرأني الطعام وأمرأني، إذا لم يثقل على المعدة وانحدر عنها طيباً، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (مرأ)، ج1/ص: 155.

(4) - الحسين بن مطير الأُسدي، الديوان، جمع: حسين عطوان، طبع مجلة المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية، دون طبعة، 1969م، ص: 141.

(5) - هو محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي، أبو عبد الله، من أكابر أئمة اللغة، راوية للأشعار، وكان ربيباً للمفضل الضبي، سمع منه الدواوين وصححها، وأخذ عن الكسائي كتاب النوادر، له مصنفات كثيرة، انظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج6/ص: 2530.

(6) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج2/ص: 143.

وله أيضاً⁽¹⁾:

وَأَرْفَعُ نَفْسِي عَنْ نَفْسٍ وَرُبَّمَا تَذَلَّلْتُ فِي إِكْرَامِهَا لِنَفْسٍ
وَأِنْ رَامَنِي يَوْمًا خَسِيسٌ بَجْهَلِهِ أَبِي اللَّهِ أَنْ أَرْضَى بِعَرَضِ خَسِيسٍ

لقد بلغ من تحضر القوم وعفتهم وبعدهم عن فحش الأقوال والأعمال أنك تحسبهم صماً لا يسمعون، وخرساً لا يتكلمون؛ وذلك لحبهم للعفة والحياء وكرههم للخنا والفحشاء، ولكنك تراهم سراعاً إلى معالي الأمور والأفعال المأثورة، كأنهم أسود منبعثة من خدورها، وما دعاهم إلى ذلك إلا خشية العار من الوقوع في مثل تلك الأفعال.

كما اتصفت فنة كبيرة في العصر العباسي الأول بالظرف، فكان من ظرفهم وعفتهم أن حفظوا حقوق الجار، وأنفوا من العار، وطلبوا السلامة من الآثام والأوزار، قالوا: "ولن يكون الظريف ظريفاً حتى تجتمع فيه خصال أربع: الفصاحة والبلاغة والعفة والنزاهة"⁽²⁾.

وكثيراً ما تبدر العفة من المعشوقة حين يراودها عشيقها لينال منها ما يريد، فتزجره وتنهاه، وتذكره أن ذلك مما يخل بالمروءة، ويغضب الباري عزوجل، حتى لتكاد السماء تنفطر من ذلك، وتلك عفة قلما توجد، صدرت من أفراد ذلك المجتمع الذين عرفوا ماهية الحضارة المعنوية الحقبة للإنسان. ونلمس ذلك واضحاً جلياً في هذا الحوار الذي دار بين المؤمل بن أميل⁽³⁾ وبين من يهواها، حيث يقول⁽⁴⁾:

وَطَارَقَاتِ طَرْفَنِّي رُسُلًا وَاللَّيْلُ وَالطَّيَّاسَانُ مُعْتَكِرُ
فَقُلْنَ : جِئْنَا إِلَيْكَ عَنْ ثِقَةٍ مِنْ عِنْدِ خَوْدٍ كَأَنَّهَا قَمَرُ
هَلْ لَكَ فِي عَادَةٍ مُنْعَمَةٍ يَحَارُ فِيهَا مِنْ حُسْنِهَا النَّظَرُ؟
فِي الْجِيدِ مِنْهَا طُولٌ إِذَا تَفَقَّتْ وَفِي خَطَاهَا إِذَا خَطَّتْ قَصْرُ
فَقُمْتُ أَسْعَى إِلَى مُحَجَّبَةٍ تَضِيءُ مِنْهَا الْبُيُوتُ وَالْحَجَرُ
فَقُلْتُ لَمَّا بَدَأَ تَخْفَرُهَا جُودِي ، وَلَا يَمْنَعُنَاكِ الْخَفَرُ
قَالَتْ : تَوَقَّرْ ، وَدَعْ مَقَالَكَ دَا أَنْتِ أَمْرٌ بِالْقَبِيحِ مُشْتَهَرُ
وَاللَّهِ لَا نِلْتِ مَا تُحَاوِلُ أَوْ بَطْنِ رَاحَتِي شِعْرُ
لَا أَنْتِ لِي قَيِّمٌ فَتَجْبُرْنِي وَلَا أَمِيرٌ عَلَيَّ مِوْتَمَرُ
قُلْتُ : وَلَكِنْ ضَيْفٌ أَتَاكَ بِهِ تَحْتَ الظَّلَامِ الْقَضَاءُ وَالْقَدْرُ
فَاخْتَسَبِي الْأَجْرَ فِي إِنْآلَتِهِ وَيَأْسِرِي قَدْ تَطَاوَلَ الْعُسْرُ!

(1) - ابن عبد ربه الأندلسي، المصدر السابق، ج2/ص: 144.

(2) - الوشاء، الموشى، ص: 51.

(3) - المؤمل بين أميل من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وقد ذكر ياقوت الحموي أنه توفي في حدود سنة تسعين ومئة للهجرة، انظر الحموي، معجم الأدباء، ج6/ص: 2733.

(4) - شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج2/ص: 266.

قالت: فقد جئت تبتغي عملاً
فقلت لمارأيتهما حرجت
لا عاقب الله في الصبأ أبداً
قالت: لقد جئنا بمبتدع
قد بين اللئيم في الكتاب فلا
تكاد منه السماء تنفطر
وغشيتها الهوم والفكر
أنثى ولكن يعاقب الذكر
وقد آتينا بغيره النذر
وازره غير وزرها تزر

يصوغ لنا المؤمل بخياله الخصب هذه المحادثة الحوارية الشعرية، التي أبدع نظمها، فصنع حواراً بين طرفين: نفسه الداعية إلى الطغيان وقضاء وطر النفس، وتلك المحبوبة التي أحبها، والتي اتخذت من العفاف والاستقامة وسيلة إلى نشر الفضيلة، والدعوة إلى التفكير في العواقب، والإذعان والانقياد لدعوة القرآن الكريم، وهي بدون شك، دعوة حضارية قوامها سمو النفس ورفعها.

ومن شعره الذي تظهر فيه الأنفة والعفة عن الشتائم والمهاترات واللؤم قوله⁽¹⁾:

وَكَمْ مِنْ لَئِيمٍ وَدَّ أَنِّي شَتَمْتُهُ
وَأَلْكَفْتُ عَنْ شَتْمِ اللَّئِيمِ تَكْرُمًا
وَإِنْ كَانَ شَتْمِي فِيهِ صَابٌ وَعَلَقْمٌ
أَضْرُلُهُ مِنْ شَتْمِهِ حِينَ يُشْتَمُّ

والظاهر أن همة الشاعر العالية تدعوه إلى الإعراض عن شتائم السفهاء وأهل اللؤم، ومبادلة الإساءة بالإحسان، فإن في الصمت عن الرد على اللئيم ضرراً وقهراً له أشد عليه مما لو رد عليه.

وبهذا يتجلى شيء من معالم التحضر في شعر المؤمل، الذي يظهر فيه التوازن، "فلا هو من المبرزين، ولا هو من المرذولين وفي شعره لين، وله طبع صالح"⁽²⁾.

تلك هي إذن العفة والتعفف عند أقوام قهروا شهواتهم فاتسموا بالحلم والورع، وزهدوا في لذات عابرة وطمعوا في نعيم باق خالد لا يتحول، فسالت الحكمة في أشعارهم، ودعوا إلى الفضيلة، رغم ما يقاسيه بعضهم من ألم الحب وتباريح الفراق.

(1) - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج6/ص: 2735.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج22/ص: 172.

المبحث الرابع : الزهد

إن تيار الزهد في العصر العباسي الأول ظاهرة تقليدية، ليست خاصة بهذا العصر فحسب، فلم يكن شعراء هذه الحقبة من ابتدعه، حيث يمكن تتبع أصوله إلى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - والتماسها في بعض المأثور من حديثه، إذ أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - رجل فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبنى الناس، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس"⁽¹⁾.

والزهد لغة: القلّة، فالشيء الزهيد هو الشيء القليل⁽²⁾، وورد الزهد والزهادة في الدنيا، والزهد: ضد الرغبة والحرص على الدنيا، والزهادة في الأشياء كلها ضد الرغبة⁽³⁾.
أما اصطلاحاً فقد تعددت أقوال الفقهاء في تعريف الزهد في الدنيا، غير أن أغلبها يصب في جفاء القلب لها وعدم التعلق بها.

وقد عرفه الجرجاني⁽⁴⁾: " بأنه ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك"⁽⁵⁾.

ويستدل من ذلك على أن الزاهد من ترك الدنيا وأعرض عنها وإن أقبلت عليه، وانصرف عن ملذاتها وإن كانت بين يديه، فلا يفرح بما أتاه منها ولا يحزن على ما فاتته.
وقال ابن السماك: " الزاهد الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح، وإن أصابته الدنيا لم يحزن، يضحك في المَلَا، ويبكي في الخَلَا"⁽⁶⁾.

فمن رغب عن الدنيا، عظمت في عينه الآخرة، وأقبل عليها، وكان ذلك عوناً له على الاستعداد لها بالصالح من الأعمال بإذن الله.

(1) - أخرجه ابن ماجة في سننه، باب الزهد في الدنيا، الحديث رقم 4102، ج2/ص: 1373 .

(2) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (زهد)، ج3/ص: 197.

(3) - المصدر نفسه، ج3/ص: 196.

(4) - هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، وهو من كبار أئمة اللغة العربية والبيان، من تأليفه المغني في شرح الإيضاح، العمدة في التصريح والتعريفات، توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمئة للهجرة، انظر جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، دون طبعة وتاريخ، ج2/ص: 106.

(5) - علي بن محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، الطبعة الأولى، 1403 هـ/1983م، ج1/ص: 115.

(6) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج3/ص: 119.

إن الزهد في الدنيا من الأمور التي حث الله عز وجل عليها في كتابه الكريم، وذلك ببيان حقارة الدنيا في عدة آيات منها قوله تعالى: { اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } (1).

ويقول عليه الصلاة والسلام مبينا حقارة الدنيا: "ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثلما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع" (2).

ويحذر - عليه أفضل الصلاة والسلام - من الدنيا والانشغال بها، ويرغب في الآخرة والإقبال عليها في قوله: "من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة" (3).

ونحن إذ نتحدث عن الزهد في العصر العباسي الأول نتحدث عن شعراء عرفوا بالزهد والتصوف في دعوة صريحة منهم، والعمل لما يرضي الله سبحانه، ف جاء شعورهم اجتماعيا حكيما في أكثره، يصف الحياة ومتاعها ويصف الآخرة بنعيمها وجحيمها، ويدعون في شعورهم إلى اختيار الطريق السليم.

ومن أولئك الشعراء الزهاد أبو العتاهية الذي رزقه الله دفء الأحاسيس منذ نعومة أظفاره، وغرس في نفسه جمال الكلمة التي تمكنه من نظم الشعر، فقد كان ذا لباقة وحصافة، معتدا بموهبته، إذ سئل عن نفسه، فقال: "أنا جرّار القوافي، وأخي جرّار التجارة" (4).

وقد كان للدولة العباسية باعتبارها دولة إسلامية في فكرتها الأولى أثر في ازدهار حركة الزهد بصورة عامة، فنجد خلفاء هذا العصر يحضون الشعراء على القول في هذا المجال، على الرغم من حياتهم الفاسدة، فالخليفة المهدي، قد حزن على وفاة ابنته حتى امتنع عن الطعام والشراب فوعظه أبو العتاهية بأبيات وأنشده (5):

| | |
|--------------------------------------------------|--------------------------------------------------|
| تعدو وتسري بأرزاق وأجال | يجري الجديدين والأقدار بينهما |
| كَمْ بَعْدَ مَوْتِكَ أَيضاً عَنْكَ مَنْ سَالَ | يَا مَنْ سَلَ عَنْ جَيْبِ بَعْدَ مَيِّتَةٍ |
| مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ، يَحْكِي لَمْعَةَ الْأَلِ | كَأَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ أَنْتَ ذَائِقَةٌ |
| مَا شِئْتَ مِنْ عِبْرٍ فِيهَا وَأَمْثَالِ | لَا تَلْعَبَنَّ لَكَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَتْرِي |
| أَوْ فَمَا حَيْلُهُ فِيهِ لِمَحْتَالِ | مَا حَيْلُهُ الْمَوْتَ إِلَّا كُلُّ صَالِحِهِ |

(1) - سورة الحديد، الآية: 20.

(2) - أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، الحديث رقم 4108، ج 2/ص: 137.

(3) - أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، الحديث رقم 4105، ج 2/ص: 1375.

(4) - الأصفهاني، الأغاني، ج 4/ص: 10.

(5) - ديوان أبي العتاهية، ص: 358.

والقارئ لشعر أبي العتاهية يرى فيه قدرا كبيرا من الوعظ الخالص، ومنه قوله(1):

أَنَّهُوَ وَأَيُّمُنَا تَذَهَبُ وَنَلْعَبُ وَالْمَوْتَ لَا يَلْعَبُ
عَجِبْتُ لِذِي لَعَبٍ قَدْ لَهَا عَجِبْتُ وَمَالِي لَا أَعْجَبُ
أَيُّهُوَ وَيَلْعَبُ مَنْ نَفْسُهُ تَمُوتُ وَمَنْزَلُهُ يَخْرَبُ
تَرَى كُلَّ مَا سَاءَنَا دَائِمًا عَلَى كُلِّ مَا سَرَّنا يَغْلِبُ

استهل أبو العتاهية أبياته بالاستفهام الذي يحمل معنى الاستغراب والتعجب ممن يأخذ من اللهو مذهباً له في هذه الدنيا وهو يعلم أنه سيموت، وأن منزله الذي يعمره سيخرب، ناهيك عن يقينه المبرم بأن الأحران في حياتنا أكثر من السرور بأشواط، لذلك جاءت نصيحته مغلفة بالخوف من الموت والزهد في الدنيا الزائلة الفانية.

وقد ركز أبو العتاهية على فكرة أن الموت آتٍ لا محالة، فهو حقيقة حتمية سيتجرعها كل حيٍّ على وجه الأرض، وأن الدنيا دار بلاء وشقاء وعناء، من سره زمن ساءته أزمان، والمغرور فيها من يظن أن القوة والصحة دائمتان، فالمرء عليه أن يعتنم شبابه قبل هرمه، وحياته قبل موته، فمن أراد الثواب فليقل خيراً أو ليصمت، وفي هذا الصدد يقول أبو العتاهية(2):

مَنْ يَعِشْ يَكْبُرُ وَمَنْ يَكْبُرْ يَمُتْ وَالْمَنَائِيَا لَا تَبَالِي مَنْ أَتَتْ
نَحْنُ فِي دَارِ بَلَاءٍ وَأَذَى وَشِقَاءٍ وَعَنْاءٍ وَعَنْتْ
مَنْزَلٌ مَا يَثْبُتُ الْمَرْءُ بِهِ سَالِمًا إِلَّا قَلِيلاً إِنْ ثَبَّتْ
أَيُّهَا الْمَغْرُورُ مَا هَذَا الصَّبَا لَوْ نَهَيْتُ النَّفْسَ عَنْهُ لَانْتَهَتْ
رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ إِذْ قَالَ خَيْرًا أَوْ سَكَتْ

اعتمد الشاعر أسلوب الشرط ليؤكد للإنسان حتمية الموت، موظفا قافية التاء الساكنة التي تتلائم ورهبة الموقف، ذلك أن الموت قريب من الإنسان، بل هو أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، وكأس الموت لا بد لكل إنسان أن يشربه.

وقد تغنى أبو العتاهية بالموت كثيرا، فمعظم زهدياته تتمحور حول فكرتين أساسيتين هما: زوال الدنيا وغرورها وهول الموت ووحشة القبر، إذ يقول في إحدى قصائده(3):

(1) - أبو العتاهية، المصدر السابق، ص: 51.

(2) - المصدر نفسه، ص: 73.

(3) - المصدر نفسه، ص: 470، 471.

حتى متى أنت في لهو وفي لعب
ما كل ما يتمنى المرء يدركه
نلهو وللموت ممسانا ومصبحنا
والموت نحوك يهوي فاغرا فاه
ربّ امرئ حتفه فيما تمنّاه
من لم يصبّحه وجه الموت مسّاه

وقد دعا في زهده إلى القناعة والابتعاد عن تتبع الشهوات ومدافعة الهوى، وانظر إليه
يحث الناس على هجر الملاذ والملاهي التي تصدهم عن الاستعداد لما ينفعهم، فيقول⁽¹⁾:

أَيَا مَنْ بَيْنَ بَاطِيَةٍ (2) وَدَنٍّ (3)
إِذَا لَمْ تَنْتَهْ نَفْسَكَ عَنْ هَوَاهَا
فَإِنَّ اللَّهَوَ وَالْمَلْهَى جُنُونٌ
وَأَيُّ قَبِيحٍ أَقْبَحُ مِنْ لَبِيبٍ
إِذَا مَا لَمْ يَتَّبِ كَهْلٌ لِشَيْبٍ
وَعُودٍ فِي يَدَيَّ غَاوٍ مُعْزِنٌ
وَتُحْسِنُ صَوْنَهَا فَإِلَيْكَ عَنِّي
وَلَسْتُ مِنَ الْجُنُونِ وَلَيْسَ مِنِّي
يُرَى مُتَطَرِّباً فِي مِثْلِ سِنِّي
فَلَيْسَ بِتَائِبٍ مَا عَاشَ ظَنِّي

ينادي أبو العتاهية أفراد مجتمعه ويندبهم إلى التزام التقوى والطهر، وترك العبث
والفساد، وهجر الملاهي ودور النخاسة والخمور، وأصوات المغنين ويبرأ ممن لم يمه نفسه
عن الغي والشهوات، فإن اللهو في نظره جنون، ونراه يرسل في طيات شعره حكماً
ونصائح، فيصور ذلك الرجل المسن المتصابي والمتطرب و يعيب عليه فعله الذي لا يليق
برجل عاقل لبيب، فإن ذلك منتهى القبح والسفالة.

كما يقرن أبو العتاهية ورعه بزهده في الدنيا، ويخاطب نفسه ويناجيها، فيطلب منها ألا
تتعرض لسؤال الناس، ولا تسأل إلا الله عز وجل، ويكرر النداء لتلك النفس فيذكرها أنها في
دار العمل والابتلاء، فلتجتهد، ولتخلص العمل؛ لتدخر الأجر والثواب في دار البقاء، وفي
ذلك يقول⁽⁴⁾:

يَا نَفْسُ لَا تَتَّعِزِّي لِعَطِيَّةٍ
يَا نَفْسُ هَلَّا تَعْلَمِينَ فَإِنَّا
إِلَّا عَطِيَّةَ رَبِّكَ الْوَهَّابِ
فِي دَارٍ مُعْتَمَلٍ لِدَارِ ثَوَابِ

(1) - أبو العتاهية، المصدر السابق، ص: 414.

(2) - الباطية: إناء، قيل معرب، والظاهر أنها من زجاج وهي عزيمة تملأ من الشراب، فيغرفون منها
ويشربون، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (بطا)، ج14/ ص: 74.

(3) - الدنّ: ما عظم من الرواقيد، له عسعس فلا يقعد إلا أن يحفر له، وجمعه الدنان، عربي صحيح، مادة
(دنن)، انظر المصدر نفسه، ج13/ ص: 159.

(4) - ديوان أبي العتاهية، ص: 54.

وهكذا سار على ذلك النهج في أغلب أشعاره الزهدية، يذكر الناس بالفناء والحساب، وأهوال القبر والقيامة، ويزهدهم في متاع الدنيا الفاني، ويطلب منهم أن يعفوا ويكفوا عن المحارم وغيرها، وقد كان ذلك ردة فعل طبيعية لتيار اللهو والمجون الذي جرف أغلب الناس، فأغراهم وشغلهم عن العمل والاستعداد للموت، وهو الذي يحصل غالباً في المجتمعات المتحضرة.

وإذا كان الكذب من الصفات القبيحة التي تصاحب المجتمعات في كل زمان ومكان، فإن الكف عنه ورعا وتكرماً واستجابة لنداء الشرع المطهر من أوليات ديننا الحنيف.

ونرى أبا العتاهية يحذر من الكذب، ويدعو إلى مجانبته، والترفع عن إتيانه، ويصف تلون الكذاب وخداعه، فيقول⁽¹⁾:

| | |
|----------------------------------------------|-------------------------------------------|
| فَلرُبَّمَا مَزَجَ اليَقِينِ بِشَكِّهِ | إِيَّاكَ مِنْ كَذِبِ الكَذُوبِ وَإِفْكِهِ |
| وَبَكَى مِنَ الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يُبْكِهِ | وَلرُبَّمَا ضَحِكَ الكَذُوبِ تَكَلُّفًا |
| وَشَكَى مِنَ الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يُشْكِهِ | وَلرُبَّمَا صَمَتَ الكَذُوبُ تَخَلُّقًا |
| وَبَصَمْتِهِ وَبُكَائِهِ وَبِضَحْكِهِ | وَلرُبَّمَا كَذَبَ امْرُوءٌ بِكَلَامِهِ |

يُشير تحذير الشاعر واستخدام أدواته (إياك) إلى ضرورة الترفع عن تلك الخصلة الذميمة، فإن الكذب إفك وزور، والكذاب أفاك أثيم، يجمل القبيح، ويمزج الشك باليقين، ثم إن شاعرنا قد أسهم في إصلاح بعض ما يعترى مجتمعه من فساد اجتماعي، وظواهر ممقوته كالكذب، والخيلاء، ودعا إلى ضرورة التحلي بالورع والابتعاد عن اقتراف تلك الآثام التي تقطع حبال المودة، كل ذلك من خلال المواعظ، والحكم المتناثرة في أبياته، في عبارات موجزة وصور موحية، وأسلوب سهل بديع.

وأبو العتاهية "قد استجمع... بين يديه تراث القرن الثاني في الشعر الزهدي وقد امتد عمره حتى أوائل القرن الثالث فشهد ظهور النبت الأول للمعاني الصوفية... وقد استطاع... بما امتاز به من شعره من سهولة وكثرة وقبول عند العامة والخاصة أن يجعل من الشعر الزهدي فنا عاما يتناوله الناس جميعا بالإنشاء والرواية، ومهنة يجب أن يقوم بها الشعراء"⁽²⁾.

(1) - أبو العتاهية، المصدر السابق، ص: 317.

(2) - عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، مطبعة الرسالة، مصر، دون طبعة، 1955م، ص: 235، 236.

إن الحياة البسيطة هي الصورة التي دعا إليها أبو العتاهية، لأنها السبيل الوحيد للنجاة من فاقة الحاجة وفقر الحرص، فهو يقنع برغيف يأكل وكوز ماء، ويعيش بعيداً عن الدنيا والناس في خلواته متعبداً، ويعتبر بما مضى قبله بتلاوة ما ورد في القرآن الكريم أو الاعتبار بكتب الأخبار، و في ذلك يقول شاعرنا(1):

| | |
|-----------------|-------------------|
| رغيف خبزٍ يابسٍ | تأكله في زاوية |
| وكوز ماءٍ باردٍ | تشربه من صافية |
| وغرفة ضيقة | نفسك فيها خالية |
| أو مسجدٍ بمعزلٍ | عن الورى في ناحية |
| تدرس فيه دفتراً | مسنداً لسارية |
| معتبراً بمن مضى | من القرون الخالية |

وامتد تيار الزهد إلى شعراء آخرين لم يعرفوا الزهد قط، كأبي نواس الذي عد من أكبر المجان في العصر العباسي الأول، وقد ظهرت في شعره أحاديث الشعوبية واللهم والزندقة والخمرة، غير أنه لم يخل من التعبير عن الجانب الخير، فظهرت فيه أحاديث الزهد والتوبة والندم والرجوع إلى الله يسأله العفو والمغفرة عما بدر منه من ذنوب وآثام، و من زهدياته(2):

| | |
|----------------------|------------------------|
| الموتُ منّا قريبٌ | وليس عنّا بنّا |
| ففي كلِّ يومٍ نعيُّ | تصيحُ منه الصّوائخُ |
| تتّجى القلوبَ وتبكي | مؤلّولاتُ النّوائخُ |
| حتى متى أنت تلهو | في غفلةٍ وتمازخُ |
| والموتُ في كلِّ يومٍ | في زنادِ عيشك قاذخُ |
| فاعملْ ليومٍ عبوسٍ | من شدّةِ الهولِ كالخُح |

تدور هذه المقطوعة حول معان كثيرة منها الاستهلال بالحديث عن الموت والدعوة إلى العمل من أجل الآخرة وعدم الاغترار بنعيم الدنيا لأنه زائل مثلها، وفي آخر المطاف أعلن أبو نواس التوبة والندم عن المعاصي والذنوب التي اقترفها، وأخذ يرجو الله عز وجل أن يعفو عنه، فيقول في هذا المعنى(3):

(1) - ديوان أبي العتاهية، ص: 488.
(2) - ديوان أبي نواس، ج1/ص: 412.
(3) - المصدر نفسه، ج2/ص: 173.

يَا رَبِّ إِن عَظَمْتَ ذُنُوبِي كَثْرَةً
 إِن كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ
 أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعاً
 مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا
 فَأَقْدَعِلْمَتْ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
 فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
 فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
 وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ

إن الأبيات السابقة ليست بعيدة عن موضوع الجدل في الثواب والعقاب، فذنوب أبي نواس كثيرة، ولكن ماذا تكون هذه الذنوب إلى جانب عظمة الله سبحانه وتعالى، ثم إذا كان المحسنون وحدهم هم أصحاب الرجاء في العفو وهم غير محتاجين إليه بحكم ما قدموا من إحسان، فإلى من يلجأ المجرمون، فالشاعر يلتمس العفو لأنه مسلم يؤمن بالوحدانية. ومن زهديات أبي نواس أيضاً(1):

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَوَادِحُ
 اللَّهُ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاعِظِيَابِي
 الْفَتَى إِلَّا اتَّبَاعَ الْهَوَى
 فَاسْمُ بَعِينِيكَ إِلَى نِسْوَةِ
 لَا يَجْتَلِي الْحَوْرَاءَ مِنْ خَدْرِهَا
 مِنْ اتَّقَى اللَّهَ، فَذَلِكَ الَّذِي
 وَ أَيُّ جِدِّ بَلَغَ الْمَازِحُ
 وَنَاصِحَ لَوْ سَمِعَ النَّاصِحُ
 وَمَنْهَجَ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحُ
 مُهَوْرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ
 إِلَّا أَمْرُو مِيزَانِهِ رَاجِحُ
 سِيقَ إِلَيْهِ الْمُتَجَرُّ الرَّابِحُ

وقد اشتهر في هذا العصر عدد كبير من الزهاد والنساک الذين كانوا يحيون حياة كلها تقشف وانقطاع إلى الله عز وجل، من هؤلاء إبراهيم بن أدهم، وسفيان الثوري وداود الطائي ورابعة العدوية(2)، والتي تأتي في مقدمة الزاهدات الشاعرات حيث استغرقت في الحب الإلهي، إذ ملك عليها ذاتها ومشاعرها، فانطلقت تصدح بأرق الشعر وأعذبه قائلة(3):

أَحْبَبُكَ حَبِيْبِنَ حَبِّ الْهَوَى
 فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حَبِّ الْهَوَى
 وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ
 فَمَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي
 وَحِبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَ
 فَذَكَرْتُ شَغَلْتُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاكَ
 فَكَشَفْتُكَ لِلْحَبِيبِ حَتَّى أَرَاكَ
 وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

(1) - أبو نواس، المصدر السابق، ج2/ص: 158.

(2) - رابعة العدوية هي أم الخير، مولاة بني عدوة، من آل عتيك، يختلف بشأن مولدها، ومما قيل أنها ولدت أوائل القرن الثاني للهجرة، كانت ذات اتجاه روحي منذ مطلع حياتها، وهي من الجيل الأول، من المتصوفة المسلمين، وأوائل من تكلم عن الحب الإلهي، توفيت سنة ثمانين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج8/ص: 241.

(3) - أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة، 1409هـ، ج9/ص: 348.

ومما لا شك فيه، فإن حب الذات الإلهية كان من أسس مذهب رابعة الزهدي، فلم تكن رابعة مجرد زاهدة متنسكة ولكنها تعد من أوائل الشعراء الصوفيين.

وقد عبرت عن كون الخالق حبيبها، فكانت تناجيه على الدوام، فهو سبحانه وحده المطلع على فؤادها، ولا يغيب عن خاطرها إذ تقول⁽¹⁾:

حبيب ليس يعدلـه حبيب وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصري وشخصي ولكن عن فؤادي ما يغيب

وإذا كانت بنت المهدي قد وجدت ضالتها في التعبير عن الحب الإنساني، والاكتماء بناره، فإن رابعة العدوية انقطعت إلى الله زهداً وتصوّفاً، على أن الحالتان السابقتان تعدان تعبيراً عن عوالم المرأة وهمومها في العصر العباسي الأول الذي قيد نشاط المرأة من خلال ذرائع تنأى عن الإقناع.

ولم تكن رابعة وحدها في ميدان الزهد والتصوف، بل شاركتها أخريات من بنات جنسها، فريحانة⁽²⁾ الزاهدة ترى أن النفس ينبغي أن تُلجم عن مطاردة اللذات واستجلابها، فهي لا تقنع بحد معين، بل تطلب المزيد على الدوام؛ فإن اعتادت على الحرمان صبرت عليه، وهان كل شيء إذ تقول⁽³⁾:

صبرتُ عن اللذات حتى تولت وألزمتُ نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تآقت و إلا تسلت

وكانت دعوتها صادقة إلى الالتزام بقيام الليل، والتهدج فيه، وذكر المولى عز وجل، وطرد النوم لأنه ملهأة وخسران مبین، ومن الأبيات الدالة على ذلك قولها⁽⁴⁾:

اجعلْ لنفسك في الليالي نبهةً وأنْسِ إلى طول القيام مخلداً
تُنبهك من خلل المنام قياماً واترك لذيذ النوم و الأحلاماً

(1) - بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص: 152.

(2) - ريحانة الوالدة، شاعرة صوفية، عاصرت رابعة العدوية، كانت تقيم الليل، تعبداً وبكاءً، آثرت الآخرة على الحياة الدنيا، كما رغبّت في الزهد، وترك الملذات، انظر أبو عبد الرحمن السلمي النيسابوري، طبقات الصوفية، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م، ص: 392، وعبد الحكيم الوائلي، موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين، دار أسامة، الأردن، عمان، دون طبعة، 2001م، ج1/ص: 215.

(3) - الحسن بن محمد النيسابوري، عقلاء المجانين، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1405 هـ/ 1985 م، ص: 122.

(4) - المصدر نفسه، ص: 123.

هكذا يتجلى تعلق الشاعرة بالله عز وجل وتمسكها بتعاليم الشريعة السمحة، إذ جاءت أبياتها في شكل حكم يتداولها الناس، وهو مبدأ حضاري جاءت به تعاليم الإسلام و آدابه. وتحدثت ميمونة⁽¹⁾ عن مكاشفة القلوب، وأشارت إلى الخمر التي كان المتصوفون يرمزون من خلالها إلى كأس الحب الإلهي⁽²⁾:

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون
والسنة بسر قد تناجي تغيب عن الكرام الكاتبين
وأجحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين
فتسقيها تراب الصدق صرفاً وتشرب من كؤوس العارفين

ودعت شاعرات الزهد إلى التخلي عن الدنيا، والتخلي بالصالحات، فالدنيا تغر ساكنها، وكل شيء فيها يحمل النقيض؛ لذا يجب البعد عنها مهما بدت جميلة، تقول ست النساء بنت طولون⁽³⁾:

دع الدنيا لعاشقها سيبح من ذبايحها
أرى الدنيا وإن مدحت تنص على فضائحها
فلا تغررك رائحة تصيبك من روائحها⁽⁴⁾

ولاشك أن شعر بنت طولون يحمل الرقة في العبارة، والسهولة في التركيب، واستخدام العلوم الدينية، في بساطة تعبيرية تحدد خصائص المرأة، بعيداً عن الإغراب والغموض وهو أحد المعالم الحضارية للعصر العباسي.

وخلاصة الفصل أن الحياة الروحية كانت استجابة للمؤثرات الحضارية التي استجبت على المجتمعات الإسلامية، فقد تطورت" كما يتطور الكائن الحي من الطفولة إلى الصبا، فالشباب ثم الكهولة فالشيخوخة، فكانت في أول أمرها تدينا ثم تطورت إلى زهد وتطور الزهد إلى التصوف"⁽⁵⁾.

(1) - هي ميمونة، أخت إبراهيم بن أحمد الخواص لأمه، الزاهدة العابدة، انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج14/ص: 438.

(2) - الحسن بن محمد النيسابوري، عقلاء المجانين، ج1/ص: 12.

(3) - هي ست النساء بنت طولون التركي، انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15/ص: 74.

(4) - الساعي الخازن البغدادي، نساء الخلفاء، تحقيق مصطفى جواد، دارالمعارف، مصر، دون طبعة وتاريخ، ص: 127، 128.

(5) - عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ص: 05.

الفصل الثالث:

معالم الحضارة الاجتماعية في شعر العصر العباسي الأول

المبحث الأول: الاحتفالات والأعياد

المبحث الثاني: اللهو والمجون

المبحث الثالث: التغني بالشعبيية

المبحث الرابع: الفكاهة

الفصل الثالث: معالم الحضارة الاجتماعية في

شعر العصر العباسي الأول

تغيرت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول عما كانت عليه، فقد ظهرت منذ بداية القرن الثاني بواكر تؤذن بتعدد مظاهر الحياة الاجتماعية لأهل العصر، فبعد أن بدأ القرن بعهد عمر بن العزيز الميمون وبإصلاحاته الاجتماعية المشهورة سرعان ما تبدلت الأمور فانغمس بعض خلفاء بني أمية في اللهو والبعد عن مصالح الرعية، ثم توالى تلك المظاهر والحروب والفتن التي لم يستقر معها وضع اجتماعي مألوف إلى أن ظهرت الدولة العباسية التي تطورت فيها الحياة الاجتماعية تطوراً واضحاً.

ومن المعروف أن الشعب في الخلافة العباسية كان يضم أعرافاً من بقاع شتى، منهم من كانت له ثقافة وحضارة سابقتين، ومنهم من لم تكن له هذه ولا تلك، ومنهم من كان يدين بدين، ومنهم من كان مشركاً أو وثنيّاً، والمطلع على التركيبة البشرية في العصر العباسي، يجدها غاية في التنوع، ومن عناصرها⁽¹⁾:

- العنصر الفارسي: ويذكر أنهم كانوا عماد النظام السياسي والإداري في الدولة حتى أقصاهم الأتراك، وكانوا دعاة الترف في الدولة.
- العنصر التركي: وكان لهم النفوذ السياسي في الدولة، وقضوا على سلطان الفرس والعرب على حد سواء، وكثرت الجوارى الأتراك في قصور الخلفاء، وكان المعتصم⁽²⁾ أول من استعان بالترك، وأدخلهم معترك الحياة السياسية والعسكرية⁽³⁾.
- العنصر الرومي: وهذا العنصر وفد إلى الدولة من خلال الحروب، أي أنهم دخلوا أسرى أرقاء، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات تركيات، ومن هذا العنصر على سبيل المثال الشاعر ابن الرومي⁽⁴⁾.

(1) - انظر عبد المنعم خفاجي، الأدب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م، ص: 28.

(2) - هو محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي، أبو اسحاق، الخليفة، ولد سنة ثمانين ومائة للهجرة، وكان قوي الساعد، يكسر زند الرجل بين أصعبه، وهو فاتح عمورية، وأول من أضاف اسم الله تعالى إلى اسمه، توفي سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج10/ص: 290.

(3) - انظر جلال الدين السيوطي، ج1/ص: 244.

(4) - هو علي بن العباس بن جريج، أبو الحسن، المعروف بابن الرومي، ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين للهجرة، الشاعر المشهور، صاحب النظم العجيب، توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين للهجرة، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3/ص: 358.

● العنصر الزنجي: وكانوا يجلبون من شرق إفريقيا، وكانوا يعملون في الزراعة والصناعة، وفي بيوت الطبقة المتوسطة، ومن مظاهر خطرهم على سبيل المثال ثورة الزنج..

وعليه كان لهذا التنوع العرقي أثره البارز في الحياة الاجتماعية بمظاهرها المختلفة والتي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الاحتفالات، الأعياد، التسلية، اللهو، التغني بالشعبية، الفكاهة، مجالس الغناء والطرب ... إلى غير ذلك من معالم التحضر التي اجتاحت العصر العباسي الأول.

المبحث الأول: الاحتفالات والأعياد

إن الدارس للحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول، يجدها حافلة بالمناسبات الاجتماعية العامة والخاصة، إذ كانت هذه الفترة من أفضل الفترات التي مرت على المسلمين، فقد وصلت الخلافة حينئذ إلى أعلى درجاتها علماً وأدباً وقوة.

وكان لهذه الأحداث والمناسبات صدى كبير في الأدب العباسي، حيث سجلها من خلال المجالس الشعرية إذ لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأحساها، حيث كان الشعراء ينتهزون مثل هذه الفرص ليؤرخوها بأدق حذافيرها، مبرزين فيها صورة الحاكم وأسرته ودورها العظيم في تنمية الشعر وتمحيصه، دون أن يخلو ذلك من الصنعة والتكلف أحياناً، ليظفروا من ورائه بالأعطيات والمكافآت الجزيلة.

ولما استقام الأمر لبني العباس، واحتفل الناس بمقدمهم، قام السيد الحميري⁽¹⁾ إلى السفّاح حين نزل من المنبر فأنشده⁽²⁾:

| | |
|----------------------------------------|---------------------------------------|
| دَوْنَكُمْوَهَا يَا بَنِي هَاشِمِ | فَجَدُّوْا مِنْ عَهْدِهَا الدَّارِسا |
| دُوْنَكُمْوَهَا لَا عَلا كَعَبُ مَنْ | كَانَ عَلَيْكُمْ مُلْكُهَا نَافِسا |
| دُونَكُمْوَهَا فَأَلْبَسُوهَا تَاجَهَا | لَا تُعْدِمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَابِسا |
| لَوْ خَيْرَ الْمَنْبِرِ فُرْسَانَهُ | مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسا |
| قَدْ سَاسَهَا قَبْلَكُمْ سَاسَةً | لَمْ يَتْرَكُوا رَطْباً وَلَا يَابِسا |
| وَأَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا إِلَى | مَهْبِطِ عَيْسَى فَيَكُمُ آيسِسا |

وقد كان لشعر السيد الحميري أثر كبير في نفس السفّاح، الذي ابتهج وسر بما سمع، من حث الشاعر بني هاشم على التشبث بالخلافة التي رآها حقاً لهم دون غيرهم وأمرهم بالتزامها، وتجديد معالمها، وبما سمع من الدعاء على من كان قبلهم - ويعني بهم بني أمية - الذين كانوا ينافسون بني هاشم على حقهم في الخلافة، ومن ذلك الدعاء قول الشاعر "لا علا كعب" أي لا شرفه الله ولا أسعده.

أما أبو جعفر المنصور فهو فحل بني العباس هيبية وشجاعة وحرماً ورأياً وجبروتاً، كامل العقل، طالب العلم، عاشق الأدب، فقيه النفس، صاحب الحزم والفصاحة والبلاغة، تولى الخلافة غرة سنة سبع وثلاثين ومئة للهجرة، فبدأ بأبي مسلم الخراساني فقتله⁽³⁾.

(1) - هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، كان شاعراً ظريفاً، حسن النمط، مطبوعاً جداً، محكم الشعر مع ذلك، وكان أحذق الناس بسوق الأحاديث والأخبار والمناقب في الشعر، لم يترك لعلي بن أبي طالب عليه السلام فضيلة معروفة إلا نقلها إلى الشعر، انظر ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج 1/ص: 23.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج 7/ص: 185.

(3) - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1/ص: 193، 194.

وقف الشعراء ببابه يمدحونه ويمجدونه ويباركون خلافته ويحتفلون به، ومنهم أبو دلامة الذي دخل عليه في محفل من الناس، بعدما قضى على أبي مسلم، فأشده(1):

أبا مُسلم خَوَّفْتَنِي القَتْلَ فانتَحَى عَلَيْكَ بما خَوَّفْتَنِي الأَسَدُ الأَوْرُدُ
أبا مُسلم ما عَيَّرَ اللهُ نِعْمَةً أبا مُسلم ما عَيَّرَ اللهُ نِعْمَةً

وكان أبو جعفر المنصور قد أرسل إلى أبي مسلم أن يأتيه، فتردد في القدوم عليه بعدما استنثار أصحابه، فاعتبرها أبو دلامة نعمة أزالها أبو مسلم بيده عن نفسه، ووقع بعدها في قبضة أمير المؤمنين ونفذ فيه أمره وفي البيت الثاني إشارة إلى قول الحق عز وجل: { لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } (2).

وقال طريح بن إسماعيل الثقفي(3) في المنصور لما أفضت إليه الخلافة(4):

لَمَّا أَتَى النَّاسَ أَنَّ مُلْكَهُمْ إِلَيْكَ قَدْ صَارَ أَمْرُهُ سَجْدُوا
وَاسْتَبَشَرُوا بِالرِّضَا تَبَاشَرَهُمْ بِالخُلْدِ لَوْ قِيلَ إِنَّهُمْ خَلَدُوا
كَنْتُ أَرَى أَنْ مَا وَجَدْتُ مِنَ الْفَرِّ حَاةٌ لَمْ يَلْقَ مِثْلَهُ أَحَدُ
حَتَّى رَأَيْتُ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ قَدْ وَجَدُوا فِيكَ مِثْلَ مَا أَجَدُ
قَدْ طَلَبَ النَّاسُ مَا بَلَغْتَ فَمَا نَالُوا وَلَا قَارَبُوا وَلَا جَهَدُوا
يَرْفَعُكَ اللهُ بِالتَّكْرَمِ وَالتَّقَى سَوَى فَتَعَلَّوْا وَأَنْتَ تَقْتَصِدُ

يستبشر الشاعر بخلافة المنصور، ويصف شعور الناس وفرحتهم بتولي المنصور خلافة دولتهم، فعندما بلغهم الخبر سجدوا شكراً لله، وابتهاجاً بتلك المناسبة، ثم يبالغ في وصفه لتلك الفرحة حتى كأن الناس أضحوا مخلدين بسببها، ويخص نفسه بتلك الفرحة، ليختم أبياته بالدعاء للمنصور بالرفعة والمكانة الراقية.

أما أبو عبد الله محمد بن المنصور، المهدي الخليفة الجواد، الذي أحبته الرعية، فهو الذي تعلم الأدب وجالس العلماء، حسن الاعتقاد، تتبع الزنادقة فأفناهم، وأمر بتأليف كتب الجدل للرد على أباطيلهم، فهو زعيم أمة، وباني حضارة(5).

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج10/ص: 188.

(2) - سورة الرعد، الآية: 11.

(3) - هو طريح بن إسماعيل بن عبيد الثقفي، يكنى أبا الصلت، نشأ في دولة بني أمية، واستقرغ شعره في الوليد بن يزيد، أدرك دولة بني العباس وتوفي في خلافة المهدي، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج4/ص: 216.

(4) - النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج5/ص: 128.

(5) - انظر السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج1/ص: 202.

وعندما تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المنصور قام أبو دلامة يعزیه في والده، ويهنئه بالخلافة في أن واحد فقال⁽¹⁾:

عينان: واحدة تُرى مسرورة
تبكي وتضحك مرةً ويسوؤها
فيسوؤها موت الخليفة محرمًا
ما إن رأيت ولا سمعتُ كما أرى
هالك الخليفة يا لأمة أحمد
أهدي لهذا الله فضل خلافة
فابكوا لمصرع خيركم ووليكم

بإمامها جَذَلَى وأخرى تَذرِفُ
ما أبصرتُ ويسرُّها ما تُعرفُ
ويسرُّها أن قام هذا الأرافُ
شعرًا أرجله وأخر أنتفُ
فأتاكم من بعده من يخلفُ
ولذاك جنات النعيم تزخرُفُ
واستشرفوا لمقام ذا وتشرَّفوا

جمع أبو دلامة الرثاء والتهنئة في قصيدة واحدة، مما لم نعهده في الشعر العربي من قبل، فنجد أن إحدى عينيه تبكيان لموت المنصور، والأخرى مسرورة لتولي المهدي الخلافة، فلقد ساءها وفاة المنصور، وسرها اعتلاء المهدي سدة الخلافة، إذ وصفه بالأراف أي: الرؤوف الحليم.

وعندما بايع المهدي لابنيه موسى⁽²⁾ وهارون، توافد الشعراء من كل مكان يباركون تلك البيعة، ويهنئون الخليفة في احتفال كبير، نثر فيه كل شاعر كنانته، وعبر عن مشاعره فهذا المؤمل بن أميل المحاربي، يفد على الخليفة المهدي في محفله المحاط بالعساكر، فيقول⁽³⁾:

هاك بياعنا يا خير وال
فإن تفعل فأنت لذاك أهل
وعذلك يابن خير الناس فينا
فإن أبا أبيك وأنت منه
أبان به الكتاب وهذا حق
بكم فتحت وأنتم غير شك
فدونكها فأنت لها محل
ولو قيدت لغيركم اشمازت

فقد جُذنا به لك طائينا
بفضلك يا ابن خير الناس فينا
نبي الله خير المرسلينا
هو العباس وارثه يقينا
ولسنا للكتاب مكدينا
لها بالعدل أكرم خاتميننا
حباك بها إله العالمينا
وأعيت أن تطيع القائديننا

(1) - السيوطي، المصدر السابق والصفحة نفسها.

(2) - هو محمد بن المنصور عبد الله الهاشمي، العباسي، ولد سنة أربع وأربعين ومائة للهجرة، وكانت خلافته سنة وشهرا، كان شجاعا، جوادا، له معرفة بالأدب والشعر، توفي سنة سبعين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج7/ص: 441، والزركلي، الأعلام، ج7/ص: 327.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج22/ص: 174.

استهل الشاعر قصيدته بتقديم البيعة للخليفة، ونقل موافقة وشعور أهل الكوفة بمباركة تلك البيعة، ليدل على وفاء أهل الكوفة.

والبيعة من المبايعة على الأمر، والطاعة والتسليم، وهي مشروعة، ومن خصائص حضارتنا الإسلامية الخالدة، ثم ختم أبياته بحث الخليفة على حفظ تلك الخلافة التي حباه الله بها فلن يقودها غيره، ولن تطاوع غير بني العباس إن هم طمعوا بها.

ولم يمض وقت طويل على وفاة المهدي حتى ساءت العلاقة بين الخليفة موسى الهادي وأخيه هارون بسبب تشجيع حاشية موسى له على إعلان البيعة لابنه جعفر⁽¹⁾، ولذلك أمر بسجن هارون ويحي البرمكي إلا أن الأحداث تسارعت فمات موسى الهادي وخرج هارون من السجن وتمت مبايعته⁽²⁾.

وذكر الطبري أن الرشيد عقد لابنه محمد ولاية العهد يوم الخميس في شعبان سنة ثلاث وسبعين ومئة للهجرة، وسمّاه الأمين، وضم إليه الشام والعراق بعد سنتين، ثم بايع لعبد الله المأمون بالرقعة سنة ثلاث وثمانين ومئة، وولاه من حدّ همدان إلى آخر المشرق، فأقبل الناس يباركون ويهنئون ويحتفلون بتلك البيعة، وقام من الشعراء سلم الخاسر فقال⁽³⁾:

| | |
|-----------------------------------------|---------------------------------------|
| بَايَعَ هَارُونَ إِمَامُ الْهُدَى | لِذِي الْحَجَى وَالْخُلُقِ الْفَاضِلِ |
| الْمُخْلِيفِ الْمُتْلِفِ أَمْوَالِهِ | وَالضَّامِنِ الْأَثْقَالِ لِلْحَامِلِ |
| وَالْعَالِمِ النَّافِذِ فِي عِلْمِهِ | وَالْحَاكِمِ الْفَاضِلِ وَالْعَادِلِ |
| وَالرَّاتِقِ الْفَاتِقِ حِلْفِ الْهُدَى | وَالْقَائِلِ الصَّادِقِ وَالْفَاعِلِ |

ونلاحظ أن الشاعر قد جمع صفات ممدوحه في القصيدة حيث وصفه بأنه إمام الهدى وأشار إلى أخلاقه الرفيعة الفاضلة، وحمله لأثقال الدولة مع محافظته على أموالها، ثم أشار إلى أنه ناقد عالم وحاكم فاضل، وأن قوله صادق، ولولا هذه الصفات الجميلة لما بويع بالخلافة.

ومن الطبيعي أن يتقرب الشعراء إلى الرشيد بتهنئة ولي عهده، والتعبير عن فرحتهم بتعيينه خليفة لأبيه على العرش بعد وفاته، ومن أولئك الشعراء محمد بن ذؤيب العماني، فقد ذهب مع وفد من خراسان إلى الرشيد برفقة الفضل بن يحيى يحضونه على البيعة لابنه محمد، ففعد لهم الرشيد على مراتبهم، وأظهروا السرور بما دعاهم إليه من البيعة لابنه، فقال العماني⁽⁴⁾:

(1) - انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج10/ص: 167.

(2) - انظر الطبري، تاريخ الملوك والأمم، ج8/ص: 230.

(3) - المصدر نفسه، ج8/ص: 275، 276.

(4) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 227.

لما أتانا خبر مشهـر
جاء به الكوفي والمبصر
والرجال حسبكم لا تكثروا
قد كان هذا قبل هذا يذكر
فقل لمن كان قديماً يتجر
وشرقوا وغربوا وبشروا
وقل الأمر الأغر الأزهر
وابتهج الناس به واستبشروا
فامن علينا بيد لا تكفر
وانظر لنا واخل من لا ينظر
فأحكم الأمر وأنت تقدر

أغر لا يخفى على من يبصر
والراكب المنجد والمغور
فأز بها محمد فأقصروا
في كتب العلم التي تسطر
قد نشر العدل فبيعوا واشتروا
فقد كفى الله الذي يستقدر
نوء السماكين الذي يستمطر
وهللو الربهم وكبروا
مشهورة ما دام زيت يعصر
واجسر كما كان أبوك يجسر
فمثل هذا الأمر لا يؤخر

ونلاحظ أن الشاعر جمع بين مدح الخليفة بالصفات القوية، ومدح ولي العهد بها، مع الإشارة إلى نسبهما الشريف والتصوير الدقيق لكل فصل من فصول البيعة من ذاك الأسد إلى هذا الشبل.

ويذكر الطبري أن المأمون لما أعلن خلع أخيه الأمين، عندما ساءت العلاقة بينهما بسبب تصرف الأمين غير الموفق، حيث تجاهل أخاه وعهد إلى أحد أبنائه بولاية العهد قعد للناس، فكانوا يدخلون فيهنئونه، ويدعون له بالعز والنصر، ويباركون خلافته في أطراف خراسان، التي سرّ أهلها، وخطب خطبائها وأنشد شعراؤها؛ ابتهاجاً واحتفالاً بتلك المناسبة السعيدة وفي ذلك يقول شاعر من أهل خراسان⁽¹⁾:

أصَبَحْتُ الأُمَّةَ فِي غِبْطَةٍ
إِذْ حَفِظْتُ عَهْدَ إِمَامِ الهُدَى
عَلَى شَفَا كَانَتْ فَلَمَّا وَقَفْتُ
قَامَتْ بِحَقِّ اللهِ إِذْ زُبِرْتُ
أَلَا تَرَاهَا كَيْفَ بَعْدَ الرَّدَى
مَنْ أَمَرَ دُنْيَاهَا وَمِنْ دِينِهَا
خَيْرَ بَنِي حَوَاءٍ مَأْمُونِهَا
تَخَلَّصْتُ مِنْ سَوْءِ تَحْيِينِهَا
قِي وُلْدِهِ كَتَبَ دَوَائِنِهَا
وَقَقَّهَا اللهُ لِتَرْبِينِهَا

والظاهر أن عاطفة الشاعر صادقة، كما أن شعور الرعية أيضاً صادق؛ انتماء وتشيعاً للمأمون، فوالدته أمة غير عربية بينما أخوه الأمين عربي الأب والأم، ومعلوم أن الشعوبية قد احتدت جذوتها في ذلك العصر، ومن ناحية أخرى فإن تصرفات الأمين وانغماسه في لهوه قد أوغر صدور الرعية عليه، لا في خراسان فحسب، بل حتى في بغداد وما جاورها.

(1) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 411.

وقد كان للمجتمع العباسي الأول احتفالاته الخاصة، كمناسبات الأفراح، ولعل من أهمها احتفالات الزواج التي يسر الناس بحضورها، فيلبسون أجمل الحلل، ويتهادون أحلى الهدايا، ويتناولون أذ الأطعمة والحلوى، وأصناف المأكولات والمشروبات، وقد سبق الحديث عن الحلبي كأحد مظاهر الحضارة المادية.

ثم إن حفلات الزواج التي يقيمها الخلفاء وأبناؤهم، تفوق الوصف في الأبهة والفخامة والإسراف، ولعل في زواج الرشيد بزبيدة، وزواج المأمون ببوران⁽¹⁾ أكبر دليل على ذلك، فقد بلغ البذخ أيامها غايته والإنفاق نهايته، سواء ما أعد من المأكولات، أو ما أنفق من الدراهم أو ما لبس من الجواهر والحلي وأرقى أنواع الثياب والرياش.

ويقول أبان بن عبد الحميد واصفاً حفلة زواج عادية، لإحدى أسر المجتمع، يصور فيها الشاعر ما قُدّم من أنواع الملابس والفرش والحلوى والمكسرات، وما حضره من المطربين والملهين والمغنين والزمارين، قائلاً⁽²⁾:

| | |
|---------------------------------------------------------------------|-------------------------------------------|
| لَمَّا رَأَيْتُ الْبَزَّ ⁽³⁾ وَالشَّارَةَ ⁽⁴⁾ | وَالْفَرَشَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَارَةَ |
| وَاللُّوزَ وَالسَّكَّرَ يُرْمَى بِهِ | مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَةَ |
| وَأَحْضَرُوا الْمُلْهِينَ لَمْ يَتْرَكُوا | طَبِلاً وَلَا صَاحِبَ زِمَّارَةَ |
| قَلْتُ: لِمَ إِذَا قِيلَ أُعْجُوبَةٌ | مَحْمُودٌ زَوْجَ عَمَّارَةَ |

نلمح من الأبيات السابقة ترف الحضارة في أسرة عادية وقد أحضرت من أنواع الحلبي والفرش والأثاث ما ضاقت به الحارة، كما قدم فيه أذ أصناف الأطعمة والمشروبات، حتى لقد بلغ بالمسرفين أن تراموا باللوز والسكر والحلويات من فوق أسوار الدور؛ ابتهاجاً بذلك العرس، كما جلبوا الملهين والمطربين لأجل ذلك الغرض، وفي ذلك دليل على ما عاشه المجتمع من تحضر، وتمتع بالملذات والملهيات.

وقد كان للناس على مدار السنة أيام يحيون فيها أعيادهم ومهرجاناتهم، ويخرجون إلى المنتزهات للهو والفسحة، وقد يخلطون ذلك بشيء من العبث والمجون، بيد أن هناك من علماء الأمة وزهادها من يستغلون تلك المناسبات في تمجيد الله والثناء عليه، والقيام بحقوق تلك الأعياد، وخاصة عيدي الفطر والأضحى.

فمن أجمل المناسبات في العصر العباسي الأول ما هياه الله للرشيد من عيدين في عيد واحد، وذلك عندما انصرف من غزوته التي فتح بها هرقله، فقدم الرقة في آخر شهر رمضان المبارك وعيّد، وجلس إلى الشعراء الذين توافدوا عليه من كل صوب يهنئونه

(1) - انظر الطبري، المصدر السابق، ج8/ص: 607.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج23/ص: 146.

(3) - البزّ: ضرب من أحسن الثياب، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (بز)، ج5/ص: 311.

(4) - الشارة: الهيئة واللبس الحسن، انظر المصدر نفسه، مادة (شور)، ج4/ص: 435.

بهذا النصر المبين في ذلك الشهر الكريم، فدخل أشجع وأنشده قصيدة رائعة تليق بتلك المناسبة الفريدة قائلاً(1):

لا زلت تنشر أعياداً وتطويها تمضي بها الأيام وتنتيها
العيد والعيد والأيام بينهما موصولة لك لا تفنيها
إلى أن قال:

ليهنك الفتح والأيام مقبلة إليك بالنصر معقوداً نواصيها

ودخل مرة على الرشيد في اليوم الثاني من أيام عيد الفطر فقال(2):

استقبل العيد بعمر جديد مَدَّتْ لَكَ الْأَيَّامُ حُبْلَ الْخُلُودِ
مُصَعِّدًا فِي دَرَجَاتِ الْعِلَا نَجْمُكَ مَقْرُونٌ بَعْدَ السُّعُودِ
وَاطْوِ رِذَاءَ الشَّمْسِ مَا أَطْلَعَتْ نُورًا جَدِيدًا كُلَّ يَوْمٍ جَدِيدِ
تَمْضِي لَكَ الْأَيَّامُ ذَا غِبْطَةٍ إِذَا أَتَى عِيدُ طَوَى عُمُرَ عِيدِ

وقد جاءت أبيات أشجع جميلة، مسبوكة ذات ألفاظ راقية، وأمثلة تناسب مقام الملوك والسلطين، كما تميزت بالتفاؤل المطلق والدعاء بالغبطة والحبور واستقرار الملك والنفوذ.

ومن شعر أشجع السلمي أيضاً في تهنئة أحمد بن يزيد بن أسيد السلمي بالعيد، ما اختار له من شعر يناسب المقام والزمان حوى ألفاظ التفاؤل والابتهاج والمرح، والدعاء بطول العمر في لباس الصحة، واستقرار الحال، ودوام الملك، فقال(3):

عِيدَانِ لَا زَالَا يُعْوَدَانِ عَلَيْكَ بِالسَّعْدِ يَدُورَانِ
فِي صِحَّةٍ مِنْكَ وَفِي نِعْمَةٍ تَدُورُ مَا دَارَ الْجَدِيدَانِ
لَوْ خَيْرَتْ قَيْسُ بَنِي آدَمَ كُنْتَ الرِّضَا مِنْ أَلْفِ إِنْسَانِ
يَا بَنَ يَزِيدَ بْنَ أَسِيدِ بِكُمْ تَعَاظَمَتْ قَيْسُ بْنُ عَيْلَانَ
أَنْتُمْ الْمُلْكُ الْعِزُّ مِنْ هَاشِمِ أَرْكَانُ عِزِّي أَرْكَانِ

كما غنت علية بنت المهدي الرشيد في يوم عيد الفطر فقالت(4):

طالت علي ليالي الصوم واتصلت حتى لقد خلتها زادت على الأبد
شوقاً إلى مجلس يزهى بصاحبه أعينه بجلال الواحد الصمد

(1) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص: 80، 81.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 181.

(3) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص: 124.

(4) - عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، طبعة مزيدة، دون تاريخ، ج3/ص: 339.

ونلاحظ أن المغنية أشارت إلى أن المجلس يتوقف طوال شهر رمضان، وهو ما زاد من شوقها إلى البهجة والسرور، وبمجرد أن يأتي العيد، يعود أهل المجلس إلى سابق عهدهم فيهنئون بعضهم بعضا ويدعون للخليفة بطول البقاء.

ولقد اتخذ المسلمون بالإضافة إلى أعيادهم الشرعية، أعياد الفرس والنصارى ومهرجاناتهم وشاركوهم فيها حتى غدت جزءاً من مناسباتهم، وكانت أعياد الفرس كثيرة، مثل عيد السّدق، والنَّيرُوز والمَهْرَجَان وغيرها⁽¹⁾.

وقيل: إن أول من افتتح المكاتب في التهاني بالنيروز والمهرجان، أحمد بن يوسف⁽²⁾، أهدى إلى المأمون سبط ذهب، فيه قطعة عود هندي في طوله وعرضه، وكتب معها هذا اليوم جرت فيه العادة بالطف العبيد السادة، وقد قال⁽³⁾:

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| على العبد حقّ لاشك فاعله | وإن عظم الموالى وجلت فضائله |
| ألم ترنا نُهدى إلى الله مآله | وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله |
| ولو كان يهدي للجليل بقدره | لقصر علُّ البحر عنك وناهلـه |
| ولكننا نُهدى إلى من تجله | وإن لم يكن في وسعنا ما يشاكله |

يبين الشاعر ضرورة تقديم التهنة والهدية في مثل هذه المناسبة، وكأنه حق تقدمه الرعية إلى الخلفاء والسادة، ويعلي الشاعر من منزلة ممدوحه وذلك بتقصير الهدية عن مكانته، وهنا يشير إلى ضرورة تقديم الهدايا وكأنها سنة، حتى وإن لم تكن ترقى إلى مستوى المهدي إليه، وهذه فكرة جديدة في التهنة والهدايا وذلك بوجوب تقديمها في المناسبات.

وقد بلغ من اهتمام العامة من الفرس وغيرهم بتلك الأعياد ومنها النيروز، أن ذكروها في أشعارهم كقول أحدهم يخاطب من يهواه⁽⁴⁾:

| | |
|--------------------------------------------------|----------------------------------------------|
| كَيْفَ ابْتَهَا جُكَّ بِالنَّيْرُوزِ يَا سَكْنِي | وَكُلُّ مَا فِيهِ يَحْكِينِي وَأَحْكِيهِ |
| فَتَارَةً كَلْهَيْبِ النَّارِ فِي كَيْدِي | وَتَارَةً كَتَّوَالِي عَبْرَتِي فِيهِ |
| أَسْلَمْتَنِي فِيهِ يَا سُوْلِي إِلَى وَصْبِ | فَكَيْفَ تُهْدِي إِلَى مَنْ أَنْتَ تُهْدِيهِ |

(1) - انظر الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج2/ص: 593، 594.

(2) - هو أحمد بن يوسف بن يوسف بن القاسم بن صبيح العجلي بالولاء، المعروف بالكاتب، وزير من كبار الكتاب، من أهل الكوفة، ولي ديوان الرسائل المأمون، كان فصيحاً، قوي البديهة، يقول الشعر الجيد، توفي ببغداد سنة ثلاث عشرة ومائتين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج1/ص: 272.

(3) - أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، دار الجيل، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج1/ص: 95.

(4) - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج2/ص: 477.

كما احتفى أبو نواس بعيد النيروز، فقال في إحدى قصائده⁽¹⁾:

أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحَمَلَا⁽²⁾ وقامَ وزنُ الزَّمانِ، فاعتدلاً
وغنَّتِ الطيرُ بعدَ عُجمِتها واستوفتِ الخمرُ حَوْلَها كَمَلا
واكتستِ الأرضُ من زَخارِفِها وشيَ نباتٍ، تخالُهُ حُلا
فاشربْ على جِدَّةِ الزمانِ، فقدُ أصبحَ وجهُ الزمانِ مُقْتَبِلاً

ولنا أن نتذوق ما في القصيدة من تراكيب جميلة وعبارات موحية، واستعارات لطيفة على نحو "قيام الزمان" و"غناء الطير" تارة، و"عجمتها" تارة أخرى، و"كسوة الأرض"، وتشبيه ما أنتجته من أصناف الزروع والزهور بالوشي مرة، وبالطلل مرة أخرى، فنلمس من ذلك كله فإسرة أبي نواس القوية، التي يلتقط من خلالها صوراً دقيقة تعكس حضارة عصره، وما خالطها من تبعات ملازمة لحضارات الأمم في كل حين.

ويتذكر أبو نواس أيامه السالفة، يوم يباكره النوروز في ربيع الجميل فيقول⁽³⁾:

سقى الله أياماً، ولا هجرَ بيننا وعودُ الصِّبا يهتَزُ بالورقِ الخضرِ
يُباكرنا النوروزُ في غلسِ الدُّجى ينورُ على الأغصانِ كالأنجمِ الزُّهرِ
يلوح كاعلامِ المطارفِ وشيئه منالصفرفوقِ البيضِ والخضروالحمَرِ
إذا قابلته الرِّيحُ أو ما برأسه إلى الشُّربِ أن سُرِّوا ومالَ إلى السكرِ
ومُسمِعةٍ جاءتْ بأخرسِ ناطِقٍ بغيرِ لسانٍ ظلَّ ينطقُ بالسُّحرِ

والظاهر أن الأبيات السابقة تحمل بين طياتها الكثير من الألفاظ الحضارية التي تعكس حياة الشاعر وعصره، فقد شارك في الحياة الاجتماعية وتفاعل معها ووصف أحداثها وصورها بلسانه تصوير الرسام لمنظر جميل يسلب الألباب.

أما المهرجان: فهو العيد الثاني، من أعيادهم وكانوا يقيمونه في السادس عشر من مَهْرَمَاه من شهور الفرس، بينه وبين النيروز مئة وسبعة وستون يوماً، وهذا الأوان في وسط الخريف، وفيه يقول الشاعر⁽⁴⁾:

أحبُّ المَهْرَجانَ لأنَّ فيه سُروراً للملوكِ ذوي السِّنِّاءِ
وباباً للمصيرِ إلى أوانٍ تُفْتَحُ فيه أبوابُ السَّماءِ

(1) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 242.

(2) - الحمل: من بروج السماء، هو أولها، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (حمل)، ج2/ص: 212.

(3) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 145.

(4) - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج2/ص: 448.

والمهرجان كغيره من المناسبات، والأعياد التي تأخذ مظاهر مختلفة في التعبير عن الفرح، ومنها الاحتفالات وتقديم الهدايا التي أصبحت تتخذ أشكالاً مختلفة، فمنها ما يكون بالقصائد والمديح، ومنها ما يكون بالهدايا المادية التي قد تنم عن شخصية صاحبها، وطبيعة الشخص المهدي إليه، بالإضافة إلى العلاقة بين الهدية والمناسبة، ومن هذه الهدايا ما قدمه شاعر متخذاً مما نسجه لسانه من كلام عذب مشرق كإشراق المهرجان ونوره، ليقدمه إلى ممدوحه في هذا اليوم، فيقول⁽¹⁾:

ليوم المهرجان بك اختيال وإشراقٌ ونور يستبان
جعلت هديتي لك فيه وشيئاً وخير الوشي ما نسج اللسان

إن حرص المجتمع العباسي على تبادل التهاني بالأعياد الفارسية التي دخلت عليه واضح، فقد اتخذ أجمل الصور في تهانيه المقدمة إلى الممدوحين والتي تنم عن انتظار الشعراء لمثل هذه المناسبات التي تشكل لهم مساحة من التودد والتقرب لأحبائهم، محاولين أحياناً إضفاء مسحة إسلامية عليها.

كما كان بعض الخلفاء العباسيين يحتفلون بيوم الشعانيين، مقيمين مظاهر الفرح بقدمه، وهو ما يرويه أحمد بن صدقة⁽²⁾، بقوله: دخلت على المأمون في يوم الشعانيين، وبين يديه عشرون وصيفة، قد تزين بالديباج الرومي، وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب، وفي أيديهن الخوص والزيتون، فقال لي المأمون: ويلك يا أحمد، قد قلت في هؤلاء أبياتاً فغني فيها، ثم أنشدني⁽³⁾:

ظباء كالدنانير ملاح في المقاصير
جلاهـن الشعانيـن علينا في الزنايـر⁽⁴⁾
وقد زرفن أصداغاً كأذناب الزرايـر
وأقبلن بأوساط كأوساط الزنايـر

(1) - الزوزني، حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء، تحقيق: محمد محي الدين بن محمد سالم، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دون طبعة، 2003م، ج2/ص: 167.

(2) - أحمد بن صدقة بن أبي صدقة، كان طنبورياً محسناً، مقدماً، حاذقاً، حسن الغناء، محكم الصنعة، له غناء في الأرمال والأهزاج، استحسن المتوكل غناءه، وأجزل صلته، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج22/ص: 149.

(3) - المصدر نفسه، ج22/ص: 150.

(4) - الزنبر: الخفيف الظريف، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (زنبر)، ج4/ص: 331.

ولقد تأثر كثير من شعراء العصر العباسي الأول بروافد تلك الحضارة وخاصة ممن كان منهم يناصر الشعوبية ويحمل شعارها، ويسخر من حضارة العرب كأبي نواس وبشار وغيرهما، حتى لنرى أبا نواس يملأ شعره بمصطلحات نصرانية، ويذكر أعياد النصارى ومناسباتهم وكتبهم وملابسهم وحليهم، بل ويقسم بها - والعياذ بالله - فينسج قصيدة مليئة بتلك الالفاظ؛ ليرضي بها غلاماً نصرانياً كان يهواه فيقول(1):

| | |
|-------------------------------------------|--------------------------------------------|
| بِمَعْمُودِيَّةِ الدَّيْرِ العَتِيْقِ | بِمَطْرَانِيَّةِهَا بِالجَائِثِيْقِ(4) |
| بِشَمْعُونِ(2) بِيُوْحَنَّا بَعِيْسَى | بِمَا سِرْجِيْنِ بِأَلْقِسِ الشَّفِيْقِ |
| بِمِيْلَادِ المَسِيْحِ بِيَوْمِ ذَبْحِ | بِبَاعُوْثَا بِتَأْدِيَّةِ الحُقُوْقِ |
| بِأَشْمُونِي(3) وَسَبْعِ قَدَمَتْهُمُ | وَمَا حَادُوا جَمِيْعاً عَن طَرِيْقِ |
| بِمَارْتِ مَرِيْمِ(5) وَبِيَوْمِ فَصْحِ | وَبِالْقَرْبَانِ وَالخَمْرِ العَتِيْقِ |
| وَبِالصُّلْبَانِ تَرْفَعُهَا رِمَاحُ | تَلَالُأُ حِيْنَ تُومِضُ بِالبُرُوْقِ |
| بِحَجَّكَ قَاصِداً مَا سِرْجَانِ | فَدِيْرُ النُّوبَهَارِ فَدِيْرُ فَيْقِ |
| بِهَيْكَلِ بَيْعَةِ اللّهِ المُفَدَى | وَقِسَّانِ أَتَوْهُمُ، نُنْ سَحِيْقِ |
| وَبِالنَّافُوسِ فِي البِيْعِ اللّوَاتِي | تُقَامُ بِهَا الصَّلَاةُ لُدَى الشُّرُوْقِ |
| بِبَنْجِيْلِ الشَّعَانِيْنَ المُفَدَى | وَشَمْعَلَةَ النَّصَّارِي فِي الطَّرِيْقِ |
| وَبِالصُّلْبِ العَظِيْمَةِ حِيْنَ تَبْنُو | وَبِالزَّنَّارِ فِي الخَصْرِ الدَّقِيْقِ |
| وَبِالحُسْنِ المُرَكَّبِ فِيكَ إلَّا | رَحِمَتِ تَحْرُقِي وَجُفُوفَ رِيْقِي |

تسوق لنا هذه القصيدة كمّا هائلا من المصطلحات الحضارية التي سبقت دولة المسلمين في القرن الثاني، ومن أسماء أعيادهم، طقوسهم وأماكن عباداتهم، كالأديرة التي هي أماكن لهوهم وملتقى بطالاتهم.

(1) - ديوان أبي نواس، ج5/ص: 148.

(2) - شمعون: وهو من نسل هارون عليه السلام، وقد تولى رئاسة بني إسرائيل ببيت المقدس بعد عزير، انظر أبو الفداء، عماد الدين بن عمر بن شاهنشاه، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، دون تاريخ، ج1/ص: 32.

(3) - دير أشموني: امرأة بني الدير على اسمها ودفنت فيه، وهو بقطربل، وكان من أجلّ متنزهات بغداد، انظر الحموي، معجم البلدان، ج2/ص: 498.

(4) - الجائليق: دير قديم البناء رحب الفناء من طسوج، مسكن قرب بغداد في غربي دجلة في عرض حربي، وهو في رأس الحدّ بين السواد وأرض تكريت، وعنده كانت الحرب بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير، انظر المصدر نفسه، ج2/ص: 503.

(5) - دير مارت مريم: دير قديم من بناء آل المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبي الخصيب، مشرف على النجف، انظر المصدر نفسه، ج2/ص: 531.

المبحث الثاني: اللهو والمجون

استفحل أمر اللهو واللاهيين في المجتمع العباسي الأول بعد تثبيت أركان الدولة العباسية، فتحوّلت الحياة الاجتماعية من طور الجد والكفاح إلى طور آخر يتناسب مع تلك الحياة الناعمة والمترفة اللاهية وساعد على ذلك تغلغل العناصر الفارسية في هذه الحياة بما جلبته من أدوات لهو ومجون.

والمجون في اللغة العربية من "مجن" الشيء إذا صلب وغلظ، ومنه اشتقاق الماغن لصلابة وجهه و قلة استحيائه، والجمع المجان⁽¹⁾.

والماجن عند العرب: الذي يرتكب المقايح المردية والفضائح المخزية، ولا يمضه عدل عاذله ولا تقرع من يقرعه⁽²⁾.

أما المجون في الاصطلاح فهو ارتكاب الأعمال المخلة بالأداب العامة والعرف والتقاليد دون تستر أو استحياء، وبهذا التعريف نجد بأن المجون ظاهرة خطيرة في أي مجتمع إنساني. "ولم يكذب يبتدئ القرن الثاني الهجري حتى ظهر المجون وانتشر ووصل قصور الخلفاء، ثم كانت ثورة العباسيين فتم انتصار الفرس على العرب، وانتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق، وأصبح الأدب عراقياً لا شامياً ولا بدوياً أي أصبح خاضعاً من كثب لتأثير الفرس وحضارة الفرس فتم انتصار العبث والمجون"⁽³⁾.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الخليفة الهادي كان يتناول المسكر ويلعب⁽⁴⁾.

وللأمين أخبار مؤسفة في اللهو المحرم، ومنها ما ذكره الجهشيارى في أن أبا نواس داعية المجون كان ينادم الأمين ويجالس له فيه أشعار كثيرة، منها ما قاله في مجلسه ولم ينكر عليه⁽⁵⁾:

ألا اسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذ أمكن الجهر

وحدث أن كان معه في مجلس لهو وشراب حتى دنا السحر ونام من في ذلك المجلس إلا الأمين ونديمه، فقال أبو نواس: يا أمير المؤمنين، قال: لبيك يا خير الندامى، فقال: يا سيد العالمين أما ترى رقة هذا النسيم وبرد هذا السحر ... وأخذ يهيطه وينشطه حتى استوى جالساً يستمع لشعر أبي نواس⁽⁶⁾:

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (مجن)، ج13/ص: 400.

(2) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3) - طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة عشر، 1964م، ج2/ص: 82.

(4) - انظر السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج1/ص: 207.

(5) - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى، 1938م، ص: 295.

(6) - ديوان أبي نواس، ج5/ص: 477.

نبه نديمك قد نعس
صرفاً كأن شعاعها
يسقيك كأساً في الغلس
في كف شاربها قبس
بلسانه منها خرس
تذر الفتى وكأنما

ومن مظاهر اللهو والمجون تلك المجالس الخاصة بالطرب والشراب والتي أصبحت من المشاهد اليومية المتكررة في العصر العباسي الأول، إذ أن الناس كانوا شغوفين بها خلال هذه الحقبة، فجنحوا إلى الغناء وسماع الإيقاع والموسيقى.

وقد أكد ابن خلدون من خلال مقدمته أن صناعة الغناء قد كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابنه حماد، وكان ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد وأمعنوا في اللهو واللعب⁽¹⁾.

ونظراً لكون الغناء أصبح من علامات الرقي والازدهار، فقد احتضنته الخلافة العباسية ورعته أيما رعاية، لأنه صار من علامات أبهة البلاط، ولحظات الحبور للخليفة، حتى إن الرشيد اهتم بالمغنيين اهتمام بالغاً، وجعلهم مراتب وطبقات.

وقد كان إبراهيم الموصلي وإسماعيل أبو القاسم بن جامع⁽²⁾ وزلزل في الطبقة الأولى؛ وفي الطبقة الثانية، سليم بن سلام⁽³⁾، وعمرو الغزال⁽⁴⁾، ومن أشبههما؛ والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والونج والطنابير، وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم⁽⁵⁾.

وقد بلغ من تأثير الرشيد بالغناء أنه كان يرقص ويستخف الطرب بالضرب بيديه ورجليه، فلقد دخل عليه إسماعيل بن الهربذ وعنده ابن جامع وإبراهيم وابنه إسحاق وغيرهم، والرشيد يومئذ خائر وبه خمار شديد، فغنى ابن جامع وإبراهيم وابنه إسحاق، فما حركه أحد منهم، ولا أطربه، فاندفع ابن الهربذ⁽⁶⁾ يغني:

(1) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج1/ص: 540.

(2) - هو إسماعيل بن عبد الله بن جامع المكي، أبو القاسم، قرأ القرآن وسمع الحديث، ثم ترك وتعلم الغناء، اتصل بالرشيد وجعفر البرمكي، توفي سنة إحدى وتسعين ومائة للهجرة، انظر حاجي خليفة، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، تحقيق: محمد عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسيا، تركيا، دون طبعة، 2010م، ج4/ص: 24.

(3) - لم أجد ترجمته.

(4) - لم أجد ترجمته.

(5) - الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1914م، ج1/ص: 36.

(6) - هو إسماعيل بن الهربذ، مكي، مولى لآل الزبير بن العوام، وقيل بل هو مولى بني كنانة، أدرك آخر أيام بني أمية، وغنى للوليد بن يزيد، وعمر إلى آخر أيام الرشيد، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج7/ص: 79.

| | |
|----------------------|-------------------------|
| يا راكب العيس التي | وفدت من البلد الحرام |
| قل للإمام ابن الإمام | م أخي الإمام أبي الإمام |
| زبن البرية إذ بدا | فيهم كمصباح الظلام |
| جعل الإله الهرب | ذي فداك من بين الأنام |

فكاد الرشيد يرقص واستخفه الطرب حتى ضرب بيديه ورجليه، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم⁽¹⁾.

وقد انصرفت المغنيات إلى الأدب يتعلمنه ويحفظن الشعر الفصيح ويتدربن على حسن مطالعه ومخارج الحروف ليسهل عليهن الغناء بعد ذلك، خاصة وأن طبقة كبيرة من المجتمع العباسي قد شغفت به، وفي مقدمتهم الخلفاء إلا النادر منهم.

غير أن تلك القيان المغنيات أحدثن أثراً سلباً في سمات العصر، وذلك بنشر الخلاعة والتهاون في المجتمع، بما استحدثته من غناء وأصوات منكرة، فأقبل فئة من الناس على سماعهن والتأثر بهن حتى نشأت شرذمة من شعراء المجون واللهو كما هو معروف، وفي ذلك قال الجاحظ: "وإن في الجمع بين الرجال والقيان ما دعا إلى الفسق والارتباط والعشق مع ما ينزل بصاحبه من الغلظة التي تضطر إلى الفجور وتحمل على الفاحشة، وأن أكثر من يحضر منازل القيان إنما يحضر لذلك لا لسماع ولا ابتياع"⁽²⁾.

ويستطرد الجاحظ فيقول: "وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب والأخانيث، وبين الخلاء والمجان ومن لا يسمع منه جد ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة"⁽³⁾.

ولعل ما أحدثه هؤلاء من الرجال والنساء كان بمثابة خدش بارز المعلم في جبين حضارة العصر التي يدعو إليها الإسلام، لا تلك السفاسف والملاهي التي هي دخيلة على العرب من غيرهم من الأمم، فإن فارس تعد الغناء أدباً وتعدده الروم فلسفة⁽⁴⁾ غير أنه في ميزان الإسلام دعوى إلى الخنا والفحش والرذيلة، وهي أمور لم تسم في يوم من الدهر من مقومات الحضارة الحقة.

كما ظهر الشذوذ، واللواط والتخنث في شريحة من المجتمع العباسي الأول، وانتشر الخصيان وخاصة في عهد الأمين، فقد ذكر أنه طلبهم وغالى فيهم، وصيرهم لخلوته ليل

(1) - شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبوظبي، الطبعة الأولى، 1423هـ، ج10/ص: 147.

(2) - الجاحظ، الرسائل، ج2/ص: 164.

(3) - المصدر نفسه، ج2/ص: 176.

(4) - المصدر نفسه، ج2/ص: 158.

نهار، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية، وفرضاً من الحبشان سماهم الغرابية وأولع بهم وفضلهم على النساء، حتى قيل فيه⁽¹⁾:

ألا يا أيها الثاوي بطوس
لقد أبقيت للخصيان هقلاً
لهم من عمره شطر وشرط
وما للغانيات لديه حظ
إذا كان الرئيس كذا سقيماً
عزيباً ما نفاذي بالنفوس
تحمل منهم شؤم البسوس
يعاقر فيه شرب الخندريس
سوى التقطيب بالوجه العبوس
فكيف صلاحاً بعد الرئيس

لقد خطا النظم في العصر العباسي خطوة كبيرة حيث استطاع مواكبة العصر، فازدهر المديح بفعل ازدهار الحياة الاقتصادية وتطور الحياة الاجتماعية، مع ميل الخلفاء إلى الترف وحب الإطراء، فأقبل الشعراء يقصدون بغداد والعواصم الأخرى للإقامة في جوار القصور⁽²⁾، وقوي الهجاء كذلك بدافع تحاسد الشعراء، وإلحاحهم في طلب الجوائز.

أما الغزل فقد مال به أصحابه بصورة عامة إلى التهتك والإباحية والفحش في الألفاظ، وكثر في هذا العصر الخلعاء والشعراء الماجنين وأهمهم أبو نواس وحماد عجرد ومطيع بن إياس، وهناك فئة من المتعفين أمثال البحتري والعباس بن الأحنف، فكانت قصائدهم صادرة عن وجدان فيه البراءة والمحافظة على الآداب العامة⁽³⁾.

وكثيراً ما نجد في شعر أبي نواس ذكره لساقي الخمرة من الغلمان الذين كان يصفهم ويتغزل فيهم من ذلك قوله⁽⁴⁾:

يا حسنها من بنات ذي خنث
تدعوك أجفانه إلى الريب

وتجدر الإشارة إلى أن أبا نواس كان أول مبتدعي هذا الباب عند العرب، وأشهر أعلامه، إلا أن شهرته في الواقع مخزية، لأن أغلب شعره في هذا الموضوع حافل بالشذوذ والخلاعة العارمة إذ يحمل من وصف المنكرات والعار والمرض الأخلاقي ما لا تطيقه أذن ولا يقبله عقل، فغزله هذا لا يخلو من الاستهتار والفحش، ورغم ذلك يعتقد البعض أن التغزل بالمذكر ظاهرة حضارية مألوفة في الحضارات الإنسانية الكبرى، إذ يقول شاعرنا في هذا السياق⁽⁵⁾:

(1) - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4/ص: 457.

(2) - مصطفى السيوفي، تاريخ الأدب في العصر العباسي، الدار الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008م،

ص: 37

(3) - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(4) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 54.

(5) - المصدر نفسه، ج4/ص: 148.

يا ماسِحَ القَبْلَـةِ مِن خَدِّهِ مِن بَعْدِ مَا قَدَ كَانَ أَعْطَاها
خَشِيتُ أَنْ يَعْرفَ إِعْجَامَها مَوْلَاكَ فِي الخَـدِّ فَيَقْرَاهَا
وَلَوْ عَلِمْنَا أَنَّـهُ هَكَذَا كُنَّا إِذَا بُسْنَا مَسَحْنَاهَا

وأيا كانت الآراء في ميل أبي نواس للغزل بالمذكر، فلقد كان السقاة الغلمان مدارا لأكثر أشعاره في هذا المجال، وهذا النوع من الغزل فيه المعنوي وفيه الحسي الفاحش الذي يتضمن سمات الغلام من التقاطيع البارزة والقدر الممشوق والدلال والتخنت، ومن ذلك قوله⁽¹⁾:

عَنيتُ عَنِ الكَواعِبِ بِالْغُلامِ وَعَن شُرْبِ المُرَوِّقِ بِالْمُـدَامِ
وَعَن سُبُلِ الرِشادِ بِطُرُقِ غَيِّ وَعَن طَلَبِ المُحَلِّلِ بِالخَـرامِ
عَشِقتُ لِشَقَوَتِي رَشاً رَبيباً رَخيمَ الدَّلِّ مَجنُوحِ الكَـلامِ
كَأَنَّ جَبِينَهُ قَمَرٌ تَلالا عَداهُ الدَجَنُ مِن خَلِّ الفِحامِ

ومن الشعراء الذين اشتهروا في هذا الفن الحسين بن الضحاك⁽²⁾، ويعد غزله معنويا بعيدا عن الفحش الذي نجده عند أبي نواس، ومن أشعاره في الغزل بالمذكر قوله في غلام:

أيهـا النـفـات في العـقد أنا مطـويٌّ على الكـمدِ
إنما زخرفت لي خدعا كأن عليه مسكا أو مداما
ليت شعري بعد حلفك لي بوفاء العهد بعد غد⁽³⁾

وقال متغزلا في شفيح، خادم الخليفة المتوكل بالله، لما أحب المتوكل منادمته ليرى ما بقي من شهوته، وكان قد أوعز إلى خادمه العبث به، فطلب الحسين دواة وقرطاسا وكتب هذه الأبيات⁽⁴⁾:

(1) - أبو نواس، المصدر السابق، ج/5 ص: 94.

(2) - أبو علي الحسين بن الضحاك بن ياسر الشاعر البصري المعروف بالخليع، مولى لولد سلمان بن ربيعة الباهلي الصحابي- رضي الله عنه - وأصله من خراسان؛ وهو شاعر ماجن مطبوع، حسن الافتنان في ضروب الشعر وأنواعه، واتصل في مجالسه الخلفاء إلى ما لم يتصل إليه إلا إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلي، فإنه قاربه في ذلك أو ساواه، وأول من صحب منهم الأمين محمد بن هارون الرشيد، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/2 ص: 162.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج/7 ص: 147.

(4) - المصدر نفسه، ج/7 ص: 130.

وكالوردة الحمراء حيّياً بأحمر
ويغمز كفي عند كلّ تحيية
سقاني بكفيه وعينه شربة
فأذكرني ما قد نسيت من العهد
من الورد يمشي في قراطق كالورد
بكفيه تستدعي الشجي إلى الورد
فأذكرني ما قد نسيت من العهد
من الدهر إلا من حبيب على وعد

أما بشار بن برد، فقد كان الغزل بابا من أبواب كثيرة ثبتت من خلالها زندقته ومجونه وحبه للهو، ذلك لأنه كان يميل إلى الغزل كميله إلى الهجاء، لا بل كان غزله في نظر الزهاد والمصلحين أشد خطراً على الناس من هجائه، لشيوع شعره وسرعة انتشاره وسهولة جريانه على الألسنة، إضافة لما كان ينطوي عليه من إباحية وفساد، فقليل ليس في البصرة غزل ولا غزلة إلا ويروي شعر بشار، من أجل ذلك كثر من هاجمه فقال سوار بن عبد الله⁽¹⁾ ومالك بن دينار⁽²⁾: "ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى"⁽³⁾.

ومن الأبيات التي تعكس مجون بشار وإباحيته قوله في وصف حبه لإحدى الجوارى⁽⁴⁾:

قَدْ لَأْمَنِي فِي خَلِيَاتِي عَمْرُ
قَالَ أَفَقِ قَانَتْ لَا فَقَالَ بَلِي
لَا أَكْتَمُ النَّاسَ حُبَّ قَاتَلْتِي
مَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ
حَسْبِي وَحَسَبُ الَّذِي كَلَفْتِ بِهَا
أَوْ قُبْلَةً فِي خِلَالِ ذَلِكَ وَلَا
وَاللَّوْمُ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ قَدْرُ
قَدْ شَاعَ فِي النَّاسِ عِنْدَكَ الْخَبْرُ
مَا لَيْسَ لِي فِيهِ عِنْدَهُمْ عُذْرُ
وَذَا هَوَى سَاقِ حِينُهُ الْقَدْرُ
مَنِي وَمَنْهَا الْحَدِيثُ وَالنَّظْرُ
بِأَسِّ إِذَا لَمْ تُحْلَلِ الْأَرْزُ

وتمثل القصة الغزلية في الأبيات السابقة رسالة الغواية التي يؤمن بها بشار بن برد ودعوته إلى مذهب اللذة الحسية، إنها رسالة إفساد الشباب وإبعادهم عن دينهم وقيمهم، فعلاقته بالجارية التي وصفها تنطوي على الكثير من التحرر والتحلل من المثل والعادات، وقد غضب الخليفة المهدي لهذه القصيدة غضباً منقطع النظير لما فيها من الفحش والسوء، وتأويل موقف المهدي المتباين من غزل بشار أنه لما شاع وانتشر في الناس، أضحى ذلك باباً في إغواء النساء، ومجالاً للفساد والإباحية، وقد لاحظ أن غزله يختلف عن غزل المتقدمين لكونه مكشوفاً للناس، وليس ذلك فحسب بل بدا في غزله خبيراً بأحوال الحسان عارفاً لطباعهن، مما جعل بعض العشاق يفتنون النساء بشعره، فروي أنّ رجلاً جاء إلى

(1) - هو سوار بن عبد الله بن سوار بن عبد الله بن قدامة التميمي، أبو عبد الله، قاضي الرصافة، من بيت علم قضاء، كان فصيحاً، مفوهاً، توفي سنة خمس وأربعين ومائتين للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج11/ص: 543.

(2) - هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيى، ولد في أيام بن العباس، علم العلماء الأبرار، معدود في ثقافت التتابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة بالبصرة، انظر المصدر نفسه، ج5/ص: 362، والزركلي، الأعلام، ج5/ص: 260.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج3/ص: 126.

(4) - ديوان بشار بن برد، ج3/ص: 170.

بشار فقال له: أنت بشار، قال: نعم، فقال: آليت أن أدفع لك مئتي دينار، وذلك أني عشقت امرأة، فجننت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلي، فهممت أن أتركها فذكرت قولك⁽¹⁾:

قاس الهموم تنل بها نجحاً والليل إن وراءه صباحاً
لا يؤيسنك من مذبأة قول تغلظه وإن جرحاً
عسر النساء إلى مياسر والصعب يمكن بعدما جمحاً

وقد قيل أن المهدي لما سمع هذه الأبيات قال لبشار: "أتحض الناس على الفجور وتقذف المحصنات المخبات، والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في نسيب لآتين على روحك"⁽²⁾.

كما كان من عادة المجان في العصر العباسي الأول - من الشعراء وغيرهم - قصد الحانات، وابتياح الخمر ونجد في الأغاني وفي غيرها ذكر تلك الحانات والدور التي يجتمع فيها الفساق وأهل المعاصي لهتك ستر الليل ووصله بساعات الصباح الأولى، ولعل أكبر دليل على ذلك وصف الشاعر الهندي⁽³⁾ لمجلس لهو جمعه بشرذمة من المخمورين وسط حانة وضيعة⁽⁴⁾:

ندامى بعد عاشرة تلاقوا تضممهم بكوذبان راح
رأوني في الشروق على وساد يفيض بمهجتي ورد وراح
فقالوا: أيها الخمار من ذا؟ فقال: أخ تخونه صلاح!
فقالوا: قم فألحقنا وعجل به، إننا لمصرعه نراح

ولقد صاحب هذا المجون تيار واتجاه شعري يوافقه، لم يكن موجوداً من قبل، وخير شاهد يمثل هذا الاتجاه شعر أبي نواس وديوانه الذي يفوح بالخمريات والخلاعة والتهتك، من ذلك قوله⁽⁵⁾:

أف للتبارك لــذا ت النــدامى للصلاح
قل لمن يبغى صلاحي بعثت رشدي بطلاحي
طفرت كف أديب بساع بـراً بجنـاح
أطيب اللذات ماكأ ن جهـاراً باقتضـاح

(1) - انظر بشار بن برد، المصدر السابق، ج2/ص: 97،98 ، والأصفهاني، الأغاني، ج3/ص: 145.

(2) - المصدر نفسه، ج3/ص: 169.

(3) - هو عبد الله بن ربيعي بن شيبث بن ربيعي الرياحي، وقيل: اسمه غالب، من بني رياح بن يربوع بن حنظلة، وكان وقع إلى خراسان، واستوطن آخر عمره سجستان، وهو أحد الدهاة، فصيح جيد البديهة حاضر الجواب، وقد أدرك الدولتين وكان منهوماً بالشراب مستهتراً به، انظر ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 136.

(4) - الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج1/ص: 811.

(5) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 97.

ومن شيعته جحشوية الخليع القائل(1):

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| أحسن من جارية دعجاء | معدودة خمصانة فرعاء |
| ذات وشاح طفلة بيضاء | ومن عقار مزجت بماء |
| ومن وقوف الرجل البكاء | في منزل أقفر من قباء |
| أير الغلام الأمرد السقاء | ذي القربة الحلوّة والقباء |

ومن غير المؤلف الحديث عن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول من غير الكلام عن القيان والشعر، فقد اشتهر الكثير من شعراء المجون والكثير من القيان، وذاع صيتهم أكثر بكثير من بعض القادة والأمراء، حتى باتت أخبار القيان والغلمان تملأ بطون الكتب وتنافس في غناها وتنوعها أخبار الزهاد والمصلحين والفقهاء.

ويرى الجاحظ أن القينة كانت تعرف كل ما يحبب بها الرجل وكل ما يثير شهوته، إذ كانت تعيش على ذكر الزنى والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة. وعرف العرب بواسطة القيان أساليب مختلفة من الحب الجنسي في الاضطجاع والاستلقاء والانبطاح والانحناء والوقوف والقعود حتى بلغت هذه الأوضاع سنتين وضعا(2).

وحاصل ما في الأمر أن اللهو بأنواعه المختلفة والمتعددة قد أصبح الشغل الشاغل لبعض المترفين، وهذا الإقبال من الأمراء ومن دونهم على الدنيا كان له بلا شك تأثير كبير في تنشيط الصناعة والتجارة والأدب، فأقبل على دمشق وبغداد وسائر الحواضر العربية عدد من الصناع والمغنين والجواري والشعراء، مما زاد حركة الأعمال، وأحدث فيها حالة اجتماعية لم يعهدها الراشدون(3).

(1) - انظر ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 387.

(2) - انظر الجاحظ، الرسائل الأدبية، ج2/ص: 176.

(3) - أنيس المقدسي، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة عشر، 1989م، ص: 32.

المبحث الثالث: التغني بالشعوبية

إن لفظة شعوبية مشتقة من الفعل شَعَبَ، قال الأصمعي شعب الرجل أمره إذا شنته وفرقه، والشعب: الجمع والتفريق، وقال ابن السكيت في الشعب إنه يكون بمعنيين، يكون إصلاحاً ويكون تفريقاً، والشعب الصدع والتفرق، والجمع: شعوب⁽¹⁾.

والتشعب: التفرق، وقد جاء في القرآن الكريم: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }⁽²⁾.

والشعوبية في الاصطلاح " نزعة في العصر العباسي تنكر تفضيل العرب على غيرهم وتحاول الحط منهم"⁽³⁾.

لقد ارتبط ظهور الشعوبية في العصر العباسي، بجملة من العناصر الاجتماعية والسياسية، ذلك أن دخول غير العرب في الإسلام، واندماجهم في الحياة مع الناس، وتعلمهم للغة العربية قد أدى إلى وجود مجتمع غير متجانس خاصة إذا علمنا أن عدداً منهم دخل الإسلام ليتمكن من الانخراط في الحياة العامة، فقد ادعى الكثير منهم الإسلام وأبطن ديانته الأصلية.

والشعوبيون بهذا المعنى فريق من الناس لا يرون للعرب فضلاً على غيرهم، بل يذهبون إلى تنقصهم والحط من قدرهم⁽⁴⁾، وهم في الغالب من الموالى والعجم الذين كانوا ينقمون على العرب، نتيجة للظروف النفسية والعرقية، ومنهم من لم يتمكن الإيمان في قلبه بعد الفتوحات الإسلامية وإن أظهر الإسلام، وقد ألفت هؤلاء الكثير من الكتب والأشعار التي تسب العرب وتحقرهم وتصفهم بالجفاء وعدم التحضر.

كما أن ظهور الترف والبحث عن الملذات والملاهي، دفع الكثير من الناس ومنهم الشعراء إلى المجون والذي ارتبط في كثير من الأحيان بالزندقة والشعوبية.

وقد كانت النزعة الشعوبية وموجات اللهو والمجون غير واضحة المعالم في العصر الأموي، أو على الأقل، لم تكن ظاهرة خطيرة؛ بسبب اعتماد الدولة الأموية على العنصر العربي، ومعاملة الأجناس الأخرى معاملة العبيد، وسموا حينئذ بالموالي، وهو ما أكده أحمد أمين بقوله: "إن الدولة الأموية، كانت دولة العرب، فالحكم في أيديهم والملك لهم، وولاتهم ورجالهم عرب، والموالي أذلاء مضطهدون، والعرب لاتعرف الزندقة كثيراً، ولاتميل إليها"⁽⁵⁾.

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (شعب)، ج1/ص: 497، 498.

(2) - سورة الحجرات، الآية: 13.

(3) - إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، دون طبعة وتاريخ، ج1/ص: 484.

(4) - انظر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ص: 6.

(5) - أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص: 136.

أما الدولة العباسية، فقد اعتمدت منذ بداية نشأتها على العنصر غير العربي، ولا أدل على ذلك من أن خراسان كانت مهد الدعوة العباسية، ومنها انطلقت جيوش العباسيين، وكان عماد تلك الدعوة والثورة، قادة جلهم من غير العرب، كأبي مسلم الخراساني مثلاً، وعليه فلما "أنت الدولة العباسية انتعش الموالي، وخاصة الفرس، وأصبح أكثر السلطان في أيديهم، وغلبوا على العرب، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعاً لما اعتنقوا الإسلام، وكانوا لا يجرؤون في الحكم الأموي أن ينبسوا بكلمة، وكان همهم الأول أن يتحرروا سياسياً لا دينياً؛ فكانت دعواتهم السرية واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة لا للدين، والزندقة إنما هي في الدين لا في السياسة، فلما نجحوا واطمأنوا وغلبوا؛ بدأت تلعب في رؤوسهم الديانات القديمة والجديدة؛ فكانت الزندقة"⁽¹⁾.

وإذا كانت الدولة الأموية، قد صارعت الثائرين على سلطانها، باستمرار من شيعة أو خوارج حتى خارت قواها؛ فإن الدولة العباسية، قد صارعت منذ نشأتها تيارات ومذاهب فكرية دخيلة على الدين، كانت سبباً في استنزاف طاقات الأمة فكرياً وعسكرياً. ولعل العوامل السياسية كانت السبب في انتشار الزندقة في العصر العباسي؛ فقد روى الطبري أن المنصور، وجه مع محمد بن أبي العباس بالزندقة والمجان فكان فيهم حماد عجرد فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجون وإنما أراد بذلك أن يبغضه إلى الناس"⁽²⁾.

ولما تولى المهدي الخلافة، رأى أن شر هذه الفئة قد تفاقم، فعمد إلى محاربتهم، بل استحدث وظيفة صاحب الزنادقة، ووكل إليه مهمة تعقبهم والقضاء عليهم، إذ يروى أنه: "لما نزل المهدي بالبصرة كان معه حمديه صاحب الزنادقة، فدفع إليه بشاراً وقال اضربه ضرب التلف، فضربه ثلاثة عشر سوطاً، فكان كلما ضربه سوطاً قال له: أوجعتني ويحك، فقال: يازنديق، أتضرب ولا تقول باسم الله؟ قال ويحك أتريدُ هو فأسمي الله عليه؟ قال: ومات من ذلك الضرب"⁽³⁾.

ولم يكن السيف هو السلاح الوحيد في محاربة الزنادقة، بل كانوا يحاولون إقناعهم ومناقشتهم لترك ما هم عليه، إذ أن "المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين، بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين، وغيرهم، وأقاموا البراهين على المعاندين، وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين"⁽⁴⁾.

(1) - أحمد أمين، المرجع السابق، ص: 137.

(2) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 86.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج3/ص: 171.

(4) - أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص: 138.

وقد سار الرشيد على سنة المهدي، إذ كان يناقش الملحدين قبل قتلهم، فمن تاب عفا عنه، ويروى أنه: "أخذ زنديقاً، فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لم تضرب عنقي؟ قال له: أريح العباد منك، قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلها ما فيها حرف نطق به؛ قال: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك يخلانها، فيخرجانها حرفاً حرفاً"⁽¹⁾.

ويعرف الطبري الزنادقة بقوله: "هي فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا، والعمل للأخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم، ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور، والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق؛ لتتقدم من ضلال الظلمة إلى هداية النور"⁽²⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنه من الصعب التفريق بين الشعوبية والزندقة، لأن مشربها واحد قائم على كره العرب، ومن كره العرب فقد كره دينهم وذمه واستهان به في الغالب؛ ولذا نجد الكثير من هؤلاء الشعوبيين يفخر بأصوله الأعجمية ويتبرأ من العرب، بل إن منهم من يسخر بالصلاة والصوم والحج جهراً أو سراً، ويجعل أقواله في ذلك على سبيل التفكه والتهمك، يقول أحد الباحثين: "ونحن لا ننكر أثر الشعوبية في قوة تيار الزندقة، وأن الشعوبيين كانوا يهدفون إلى تحطيم معنويات المسلمين ودس الأكاذيب والمفتريات في أصول دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، حتى ينتقموا لأصولهم الفارسية، ومذاهبهم ومعتقداتهم القديمة"⁽³⁾.

وقد تتبع الجاحظ أولئك الزنادقة في مواضع كثيرة من كتبه ورد عليهم ولعنهم، واستهجن أفكارهم وبين فساد مذهبهم، وما ذلك إلا دليل على كثرتهم في المجتمع آنذاك، وإرجافهم فيه، وعليه فقد كانوا معول هدم واضح في حضارة العصر، ومن أقواله فيهم: "والزنادقة لم تكن قط أمة، ولا كان لها ملك ومملكة ولم تزل بين مقتول وهارب ومناقق"⁽⁴⁾.

ويتجلى خطر الزنادقة، كما هو معروف في إبطان الضلالة والكفر، وإن أظهروا الإسلام ونذكر على رأس هؤلاء ابن أبي العوجاء⁽⁵⁾ الذي كان يسر دين المانوية، ويقول بالتناسخ، ويميل إلى مذهب الإمامية من الرافضة، كما أنه كان يقول بالقدر في أبواب التعديل والتحوير، وقيل أنه وضع على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أحاديث كثيرة بأسانيد يغتر بها من لا معرفة له بالجرح والتعديل، وكل هذه الأحاديث ضلالات في التشبيه

(1) - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج1/ص: 216.

(2) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 220.

(3) - محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص: 232.

(4) - الجاحظ، الحيوان، ج4/ص: 473.

(5) - هو عبد الكريم بن أبي العوجاء، خال بن زائدة، زنديق مفتر، قتل على يد محمد بن سليمان العباسي بالبصرة سنة ستين ومائة للهجرة، انظر ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تحقيق: دائرة المعرفة الهندية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1390هـ/1971م، ج4/ص: 51.

والتعطيل، وغير في أحكام التشريع، وهو الذي ضلل على الرافضة صوم رمضان بالهلال، وقد قتل على زندقته، فقال: "لئن قتلتُموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحلت بها الحرام وحرمت بها الحلال، وفطرت الرافضة في يوم من أيام صومهم، وصومتهم في يوم من أيام فطرهم" (1).

وقد كان للزندقة دورا كبيرا في محاربة الدين والعروبة، ومثال ذلك حماد الراوية (2) الذي دأب على إفساد اللغة والأدب بما يعمله من شعر يضيفه إلى الشعراء المتقدمين، ويدسه في أشعارهم... وصالح بن عبدالقدوس (3) يدس في الأشعار معاني زندقته، ويونس بن أبي فروة (4) يعمل كتابا في مثالب العرب وعيوب الإسلام، ويصير به إلى ملك الروم، فيأخذ منه مالا (5).

وكان من آثار تيار الزندقة، انتشار موجة المجون الهادفة إلى البحث عن اللذة، من خلال إطلاق العنان للشهوات مما دفع كثيرا من الشعراء إلى "دعوة الناس إلى الفجور والإباحة، وحملهم على الاستهتار، ولم يكتفوا أن يدعوا إلى ما يدعون إليه من غير تعرض للدين، بل تعرضوا له أحيانا، وأخذوا يجهرون بأقوال فيها تهكم وسخرية، فيسخررون ممن يقول بتحريم الخمر، ويسخررون ممن يخوف بالنار، وممن يذكر بيوم البعث" (6).

ومن الشعراء الذين تغنوا بالشعبية في العصر العباسي الأول، بشار بن برد، فنجده في الأبيات التالية يتبرأ من ولائه للعرب قائلا (7):

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولاك أكـررُ من تميم كلها
مولى العريب فجد بفضلك وافخر أهل الفَعَالِ ومن قُرَيْشِ المَعَشَرِ
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر

والعريب تصغير عرب، والمعنى أنه عبد الله وليس معنزا بولاء العرب، إذ صور بشار تنازله عن ولائه لقبيلة بني عقيل وادعائه الالتجاء إلى الله، فالله عز وجل أفضل حليف له.

(1) - انظر الخطيب البغدادي، الفرق بين الفرق وبين الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1977م، ج1/ص: 256.

(2) - هو حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم، المعروف بالراوية، ولد سنة خمس وتسعين للهجرة بالكوفة، وكان أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها، توفي سنة خمس وخمسين ومائة للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج2/ص: 276.

(3) - هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله الأزدي، أبو الفضل، شاعر حكيم، كان متكلمًا يعظ الناس في البصرة، توفي سنة ستين ومائة للهجرة، انظر المصدر نفسه، ج3/ص: 192.

(4) - هو يونس بن عبد الله، بن أبي فروة السامي، ذكره ابن عدي مختصرا، وقال ليس به بأس، يكتب حديثه، انظر ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج6/ص: 332.

(5) - أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص: 147.

(6) - المرجع نفسه، ص: 144.

(7) - ديوان بشار بن برد، ج4/ص: 62.

ويروى أنه دخل على المهدي، وقد عرف ثورته على العرب وشعوبيته فقال له المهدي: فيمن تعدت يا بشار؟ فرد عليه بشار أما اللسان والزي فعربيان، وأما الأصل فعجمي كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين:

وَنُبِّئْتُ قَوْمًا بِهِمْ جِنَّةٌ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي جَاهِدَا
نَمَتَ فِي الْكِرَامِ بَنِي عَامِرٍ
فِيَّيْ لَأَغْنِي مَقَامَ الْفَتَى
يَقُولُونَ مِنْ ذَا وَكُنْتُ الْعُلَم
لِيَعْرِفَنَنِي أَنَا أَنْفُ الْكِرَم
فِرُوعِي وَأَصْلِي قَرِيشُ الْعَجَمِ
وَأُصْبِي الْفَتَاةَ فَمَا تَعْتَصِمُ⁽¹⁾

وسأله المهدي من أي العجم أصلك؟ فقال: من أكثرها في الفرسان وأشدّها على الإقران أهل طخارستان⁽²⁾.

ويظل ذلك التذمر من الولاء للعرب يتحرك في أعماق بشار ويتفجر من حين لآخر في أبيات من الشعر كلما وجد ما يثيره، فقد ذم أعرابي في مجلس الموالي ولم ير لهم صلة بالشعر وكان بشار حاضرا فأجابه ساخرا من العرب جميعا، وعيرهم بالفقر والعري والرعي وكل طقوس الحياة العربية البدوية، قائلا⁽³⁾:

أَنَا ابْنُ الْأَكْرَمِينَ أَبَا وَأَمَّا
نُعَاذِي الدَّرْمَكِ الْمُنْقُوطِ عِزًّا
وَنَرَكِبُ فِي الْفَرِيدِ إِلَى النَّدَامَى
أَسْرَتِ وَكَمْ تَقْدَمُ مِنْ أَسِيرِ
إِذَا انْقَلَبَ الزَّمَانُ عَالًا بَعِيدِ
أَحِينٍ لَبِسْتَ بَعْدَ الْعُرْيِ خَزَا
تُفَاخِرُ يَا بِنَّ رَاعِيَةَ وَرَاعِ
وَكَنْتَ إِذَا ظَمُنْتَ إِلَى قِرَاحِ
تُرِيَعُ بِخَطْبِهِ كَسَرَ الْمَوَالِي
وَفَخْرَكَ بَيْنَ يَرْبُوعِ وَضَبِ
مَقَامِكَ بَيْنَنَا دَنَسَ عَلَيْنَا
تَتَّارَعَنِي الْمَرَازِبُ مِنْ طَخَارِ
وَنَشْرِبُ فِي اللَّجِينِ وَفِي النُّظَارِ
وَفِي الدِّيْبَاجِ لِلْحَرْبِ الْحَبَارِ
يُزَيِّنُ وَجْهَهُ عَفْوَ الْأَسَارِ
وَسَقَلَ بِالْبَطَارِيِّقِ الْكِبَارِ
وَنَادَمْتَ الْكِرَامَ عَلَى الْعُقَارِ
بَنِي الْأَحْرَارِ حَسْبُكَ مِنْ خَسَارِ
شَرَكْتَ الْكَلْبِ فِي وَلِغِ الْإِطَارِ
وَتَرْقِصُ لِلْعَصِيْرِ وَالْمَسَارِ
عَلَى مِثْلِي مِنَ الْحَدَثِ الْكِبَارِ
فَلَيْتَكَ غَائِبًا فِي حَرِّ نَارِ

(1) - بشار بن برد، المرجع السابق، ج4/ص: 156.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج3/ص: 96.

(3) - ديوان بشار بن برد، ج3/ص: 230.

واندفع أبو نواس في الكتابة في مثالب العرب وفي الحط منها، متذكراً تراث الساسانيين، فقال⁽¹⁾:

مسارحها الغربي من نهر صرصر
تراث أنو شروان كسرى ولم تكن
قصدت بها ليلى وليل ابن حرة

فقطربل⁽²⁾ فالصالحية فالصفر
مواريث ما أبقت تميم ولا بكر
له حسب زاك وليس له وفر

ولقد سخر من العرب وتهكم بهم، قائلاً⁽³⁾:

عاج الشقي على رسم يسائله
يبكي على ظلل الماضين من أسد
ومن تميم ومن قيس وفهما
لا جف دمع الذي يبكي على حجر

وعجت أسأل عن خمارة التلبد
لا درّ درك قل لي من بنو أسد؟
ليس الأعايب عند الله من أحد
ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وهذا عبد الله طاهر بن الحسين⁽⁴⁾ يقول في قصيدة يذم العرب ويفخر بالفرس⁽⁵⁾:

اقصري عمّا طمحت له
سائلني عمّن تسائلني
أنا من تعرف نسبته
سل بهم تنبيك نجدتهم
وأبي من لا كفاء له
سل بهم والخيل ساهمة
أبطن المخلوع كلكه
فتوى والترب مضجعه
قاد جيشاً نحو بابله
من خراسان مضى معهم

ففراغي عنك مشغول
قد يرد الخبر مسؤل
سألني الغر البهالييل
مشرفيات معاقيل
من يسامي مجده قولوا
حولاه جرد أباييل
ومواليه المقاويل
غال عنه ملكه غول
ضاق عنه العرض والطول
كليوث ضمها غييل

(1) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 159.

(2) - قطربل هي كلمة أعجمية: اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر، وما زالت منتزها للبطالين وحنة للخمارين، وقد أكثر الشعراء من ذكرها، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4/ص: 371.

(3) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 109.

(4) - عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق، أبو العباس الخزاعي، كان أمير المؤمنين المأمون وولاه الشام حرباً وخراسان، فخرج من بغداد إليها واحتوى عليها، وبلغ إلى مصر ثم عاد، فولاه المأمون إمارة خراسان، فخرج إليها، وأقام بها حتى مات، وكان أحد الأجواد الممدحين، والسماحاء المذكورين، انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج9/ص: 490.

(5) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج2/ص: 69.

ومن الشعوبيين الذين اتهموا بالزندقة أسرة البرامكة ولعل نكبتهم على يد الرشيد من أسباب ذلك، ولذلك قيل فيهم:

إذا ذكر الشرك في مجلس
وإن تليت عندهم آية
أضاءت وجوه بني برمك
أتوا بالأحاديث عن مزدك⁽¹⁾

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الشعوبية لم تكن على مذهب واحد، فإن منهم معتدلين سوا بين العرب والعجم، وقالوا لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، ومنهم متطرفون، تقوم شعوبيتهم على كراهية العرب وبغضهم والحقدهم عليهم وهؤلاء يصدق فيهم كلمة (الشعوبية) وكانوا طوائف منها:

- رجال السياسة: الذين يريدون قلب الحكم والاستئثار به دون العرب.
- ومنهم قوميون: يمجدون قومهم على العرب ويفخرون بحضارتهم وبأصولهم العجمية.
- ومنهم المجان والخلعاء، فهؤلاء خدعوا بزخارف الحضارة الوافدة وساقطهم سيولها إلى البعد عن منبع الإسلام الصافي، فعربدووا وتزندقوا، فهلكوا وأكثر هؤلاء من الشعراء.
- وقسم رابع: وهم الملاحدة الذين يبغضون الدين وأهله⁽²⁾ ومن أبغض شيئاً أبغض ما يتعلق به، وهؤلاء وصفهم الجاحظ بقوله: "وربما كانت العداوة من جهة العصبية فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه، وطول الجدل المؤدي إلى القتال، فإذا أبغض شيئاً أبغضه أهله، وإن كان أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغضها فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف والقوة"⁽³⁾.

ما انفكت الشعوبية والزندقة تبتان سموم الفساد والعنصرية في المجتمع فتنتشران فيه الخنا والبغضاء والحقدهم وتعملان على هدم قواعد الدين والدولة كعادة المنافقين والمرجفين في كل زمان ومكان، ولكن الله هياً لأولئك الضالين من يرد عليهم ويفند أكاذيبهم، وسلط حسام الحكام المسلمين كالمهدي والهادي وغيرهما عليهم فأبادوهم، وقطعوا دابرهم، "وهم وإن كان عددهم كثيراً فقد أقلهم الله وأذلهم، بما شهدت به دلائله الواضحة وحججة اللائحة على عقولهم من الضعف، وأرائهم من السخف"⁽⁴⁾.

(1) - انظر ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ج1/ص: 382.

(2) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 75.

(3) - الجاحظ، الحيوان، ج7/ص: 131.

(4) - انظر الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، أمالي المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة، الطبعة الأولى، 1373هـ/ 1954م، ج1/ص: 128.

وقد أسهم الشعراء العرب في المعركة ضد الشعوبية وكان لهم دور كبير في الرد عليها فلما شبّه أحد أولئك الزنادقة حجاج بيت الله عند مناسكهم بقوله: "ما أشبههم إلا ببقر تدوس البيدر"، ردّ عليه الشاعر العلاء بن الحداد الأعمى مستثيراً الخليفة موسى الهادي عليه، فقال(1):

أيا أمين الله في خلقه ووارث الكعبة والمنير
ماذا ترى في رجل كافر يشبّه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سعوا جمرأ تدوس البر والدوسر

وحين افتخر عبد الله بن طاهر بن الحسين بأبيه على قتل الأمين رد عليه الشاعر العربي محمد بن يزيد الأموي، فقال(2):

لا يرعك القال والقيـل كل ما بلغت تضليل
يا ابن بيت النار موقدها ما لحاذيه سراويل
من حسين من أبوك ومن مصعب غالتكم غول
نسب من الفخر مؤتثب وأبواب أرانيـل
قاتل المخلوع مقتول ودم المقتول مطلول

ومما قالته الشعوبية: "للأمم كلها من الأعاجم ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة وبدائع من الأدوات والصناعات... ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم"(3).

وادعت الشعوبية أن إسحاق أبو العجم، وأن أمه سارة حرة، بينما نجد إسماعيل أبا العرب وأمّه هاجر وهي أمة، وسموا العجم "بني الأحرار" والعرب "بني اللخناء" بضوء هذا الادعاء قال شاعرهم(4):

في بلدة لم تصل عكل بها طنبا ولا خباء ولا عك وهمـدان
ولا لجرم ولا بهراء من وطن لكنها لبني الأحرار أوطـان
أرض تبنى بها كسرى مناسكه فما بها من بني اللخناء إنسان

(1) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 190.

(2) - التنوخي، الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، دون طبعة، 1398هـ/1978م، ج1/ص: 344.

(3) - انظر ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج3/ص: 353.

(4) - المصدر نفسه، ج3/ص: 357.

وهاجمت الشعوبية اللغة العربية حتى أنهم جوزوا الصلاة بالفارسية، وأثار هذا الهجوم العرب وبعض المسلمين من غير العرب لأن العربية لغة القرآن ولأنها اللغة العامة للثقافة خلال عصور.

وقد انبرى الجاحظ والثعالبي وغيرهما للدفاع عن اللغة العربية وإظهار محاسنها واعتبروها أشرف اللغات وأسناها، خاصة وأن الكُتّاب والأدباء من الشعوبيين بذلوا كل سبيل لبعث الثقافة الفارسية وحاولوا بث الطابع الفارسي في الإدارة والمراسيم العباسية، هذا مع تقليل شأن الثقافة العربية الإسلامية والاستهانة بها، حيث كان موقفهم يستند إلى العصبية الجامحة لا إلى الإدراك.

واتخذ نشاط هؤلاء سبلاً مختلفة، منها إكثارهم من الترجمة عن الفارسية في موضوعات تتصل بصميم الذات الفارسية كالأدب والتاريخ والتقاليد والمثل، خاصة وأن العصر العباسي الأول شهد حركة ترجمة واسعة عن الفارسية، وهي مستقلة عن حركة الترجمة التي تبناها الخفاء، ومن أمثلة هذه الترجمات (خداينامه) أو سير الملوك (ملوك الفرس)، وهو كتاب ينطوي على كثير من الحكايات والمواعظ والتمجيد ويغلب عليه عنصر القصة والأسطورة.

ونظراً لخطورته لدى الفرس فإننا نسمع عن ثمانية صور لـ(خداينامه) بعضها مترجم والبعض الآخر مؤلف ومترجم، ومنها (الأيين نامه) أو المراسيم والتقاليد الساسانية وكتاب (مزدك) وهو يتضمن أدباً ومثلاً أخلاقية مجوسية لا تأتلف والمفاهيم الإسلامية، وقد ترجمه ابن المقفع، كما أعد أبان بن عبد الحميد اللاحي ترجمته أخرى له، ومنها كتاب (التاج) في سيرة أنوشروان، وكتاب (كليلة ودمنه) الذي تصرف ابن المقفع في ترجمته وأضاف إليه باباً (باب برزويه) للترويج للمانوية كما أوضح البيروني، ومنها كتاب سيرة الفرس المعروف بـ(اختيار نامه) نقله إسحاق بن يزيد، هذا وترجمت بعض الكتب الدينية⁽¹⁾.

وقد تصدت المعتزلة للرد على الشعوبية والدفاع عن مبادئ الإسلام، وكان واصل بن عطاء يعقد الجلسات للرد على الزنادقة وتقنيد حججهم وكان يناقش مشاهيرهم أمثال صالح بن عبدالقدوس وغيره، فقطعهم بأقل كلال.

وكان لواصل تلاميذ كثيرون أعدهم إعداداً فكرياً عميقاً، وكان يبعث بهم إلى الأقطار يدعون إلى مبادئ الاعتزال ويردون من خلال ذلك على خصوم الإسلام، حيث بعث واصل عبد الله بن الحارث إلى المغرب فأجابه خلق كثير، وبعث إلى خراسان حفص بن سالم فدخل ترمذ وناظر جهم بن صفوان حتى قطعه، وبعث القاسم إلى اليمن وبعث أيوب إلى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان إلى الكوفة وعثمان الطويل إلى أرمينية⁽²⁾.

(1) - عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1962م، ص: 51.

(2) - عبد الله سلوم، الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية 1980م، ص: 179.

والحاصل أن الشعوبية انتشرت وقويت في عهد بني العباس على العكس منها في عهد بني أمية ذلك لأن بني العباس استعانوا بالموالي في قيام دولتهم فعلا شأنهم وارتفعت أصواتهم بعدما كانت خافتة لا تكاد تسمع خشية القتل والتنكيل أيام بني أمية، خاصة وأن أغلبهم حازوا المناصب الكبرى كالوزارة والقيادة والحجابه وما شابه ذلك بعد منتصف القرن مما كان له عظيم الأثر في تقوية شوكتهم؛ وقد كان للخلفاء أثر بارز في تمكين تلك العناصر من تصريف شؤون الدولة، فقد قامت سياسة أغلب حكام بني العباس على تقريب الموالي والعجم، وإقصاء العنصر العربي، لكفاءة هؤلاء وعلمهم وقدرتهم على إدارة شؤون الحكم حتى تمكن لهم الأمر فقربوا بني جلدتهم، وأمسكوا بزمام السلطة، مما دعا بعض الخلفاء كما عرفنا إلى التنكيل بهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم.

وكان لتلك الفرق الشعوبية بمختلف أنواعها تأثير على الشعر العربي فقد نشأ ما سمي بشعر المجون وظهر له شعراء مجددون، نقموا على القديم وجددوا في الألفاظ والتراكيب والتصوير، ناهيك عن شعر الخمريات والتغزل بالمذكر وغيرهما من أغراض الشعر المستحدثة والتي تعكس بعض معالم الحضارة العباسية، وقد ظهرت أغراض شعرية جديدة كردة فعل طبيعية عن سابقتها نذكر منها شعر الزهد والتصوف الذي سخره أصحابه للدفاع عن القيم الإسلامية والمثل العليا.

المبحث الرابع : الفكاهة

الفكاهة بالضم المزاح فهي من فكه، والفكه هو الذي ينال من أعراض الناس، ورجل فكه يأكل الفكاهة، والفكاهة أيضاً: الحلواء على التشبيه، وفكهم بملح الكلام: أظرفهم، وهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحاً، والفكاهة المزاح، وفكاهت: مزحت، وتفكتهت بالشيء: تمتعت به، والفكاهة: الناعم والمعجب⁽¹⁾.

أما اصطلاحاً فالفكاهة عبارة عن حديث مستملح أو سواه أو طرفة أو ناذرة أو ملحمة أو نكتة أو حكاية موجزة يسرد فيها الراوي حادثاً واقعياً أو متخيلاً فيثير إعجاب السامعين ويبعث فيهم الجذل والضحك أحياناً⁽²⁾، أو هي تلك الصفة في العمل أو في الكلام أو في الموقف أو في الكتابة التي تثير الضحك لدى النظارة أو القراء⁽³⁾.

ومن خلال التعريفات السابقة للفظه " الفكاهة " نقف على دالتين: الأولى تعكس طيبة في النفس وتلطفاً في المحادثة والكلام، بقصد الإضحاك والترويح، أما الثانية فتدل على نوع من التهكم، والتلذذ بذكر العيوب.

لقد شهد العصر العباسي في الدور الأول نشاطاً علمياً وأدبياً كبيراً، تم فيه الامتزاج بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية المتنوعة، وصهرها كلها في بوتقة واحدة لتنتج تلك الثقافة الإسلامية التي شهدت مع الدور العباسي الثاني ترسيخاً لجذورها، إذ قوي عودها وامتدت فروعها ونضجت ثمارها، وغدت قريبة التناول وسهلة الاقتطاف.

ولا مجال للشك في كون الشعر الفكاهي، بوصفه غرضاً فنياً جديداً، قد عبر عن الواقع الحضاري الإنساني الجديد خير تعبير من خلال مرحلتين: الأولى مرحلة الملهاة والفرح، والثانية مرحلة المأساة والقلق، بوصفهما تصوران الواقع الإنساني في الحالات السابقة، فالملهاة والفرح ينتجان عن الانسراح والسرور، ومن ثمة فإن الفكاهة على اختلاف أنواعها تعد ملهاة تبعد الإنسان عن الحياة الواقعية الجادة، وتنقله إلى عالم التفكه والدعابات والتوريات والأعيب، فكأنه حلم من الأحلام السعيدة.

وتقوم الفكاهة بدور إيجابي في مرحلة المأساة والقلق من خلال الكشف عن العيوب والأخطاء وتصحيح الانحراف، كما تقوم بدور سلبي في هرب الإنسان من خلال الفكاهة من واقعه الحرج فيتخلص من حالات القلق النفسي والخوف، ويندفع بوساطة الفكاهة إلى التعالي على واقعه المرفوض والمفروض⁽⁴⁾.

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (فكه)، ج13/ص: 524.

(2) - جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، دون طبعة، 1979م، ص: 194.

(3) - مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م، ص: 276.

(4) - انظر عبد الحميد شاکر، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 289، 2003م، ص: 150.

أما المأمون فقد عرف هو أيضاً ببعض الأعمال الطريفة والغريبة أحياناً في سبيل اقتناص النادرة، لأنه يتمتع بروح الدعابة، من ذلك أنه جمع في قصره أخاه المعتصم واثنين من وزرائه، وقام المأمون بطبخ قدر من الطعام، كما أمر كل واحد منهم أن يطبخ قدرًا ثم "أمر المأمون بعض خواصه من خدمه أن يخرج فلا يرى أحدًا في الطريق إلا أتى به، فجيء برجل من العامة، فطلب المأمون منه أن يأكل من كل قدر ليحكم عليها، ولما ذاق قدر المأمون حكم بأن طبأها نظيف طريف مليح، وعن قدر المعتصم حكم أنها مثل قدر المأمون، ولما ذاق قدر الوزير أعرض بوجهه وقال: إن طبأها جعل فيها مكان البصل كذا وكذا، فضحك القوم وجلس يتلهم معهم، ووصله الخليفة بأربعة آلاف دينار وقسط له أصحاب القدر كل حسب مرتبته، ثم صار في خدمة المأمون"⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن أصوات الشعراء تعالت منذ العصر العباسي الأول تحتج على ضياع أمور الناس وهوان أحوالهم، وزوال هيبة الخلافة، واتخذوا من الفكاهة وسيلة من وسائل النقد والإصلاح، معتمدين على ما وجدوه من عيوب وأخطاء لدى الخليفة وحاشيته.

ومن أكثر الشعراء شهرة في ملاحقة الحكام وأذيالهم دعبل الخزاعي⁽²⁾، وقد قال له أحد معاصريه: "ويحك قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووقرت الناس جميعاً، فأنت دهرك كلّه شريد طريد هارب خائف، فلو كفت عن هذا، وصرفت هذا الشر عن نفسك! فقال: ويحك إنني تأملت ما تقول، فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا عند الرهبة... وعيوب الناس أكثر من محاسنهم"⁽³⁾.

ومن الخلفاء الذين سار ذكرهم على لسان دعبل السليط إبراهيم بن المهدي الذي بايعه أهل بغداد بالخلافة حين سمعوا باختيار المأمون الإمام الرضا ولياً للعهد، وعزمه على تحويل الخلافة إلى مرو، فناصر دعبل المأمون على عمه، بسبب انحيازه لآل البيت، واستهزأ بإبراهيم بن المهدي، يقول⁽⁴⁾:

(1) - المسعودي، المصدر السابق، ج4/ص: 16.

(2) - هو دعبل بن علي بن رزين، من خزاعة، ويكنى أبا علي، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، مصر، دون طبعة، ج2/ص: 838.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج20/ص: 26.

(4) - دعبل الخزاعي، الديوان، شرحه حسن السيد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1994م، ص: 104.

أنى يكونُ وليس ذاك بكائن
نَعَرَ ابنُ شِكْلَةَ⁽¹⁾ بالعراقِ وأهله
إنْ كان إبراهيم مضطلعاً بها
ولتصلحن من بعد ذاك لزُلزِلِ

يرثُ الخلافةَ فاسقٌ عن فاسقٍ!
فهفا إليه كلُّ أطيّش مائق
فلتصلحن من بعده لمخارقٍ⁽²⁾
ولتصلحن من بعده للمارقي

فقد وقف دعبل في وجه كل من جاهر ببيعة إبراهيم، وهجاه بالطيش والحمق، وأنكر عليه تسليم الخلافة لفاسق، وهو في ذلك يصرّح بعصبيته الشيعية، ويعتقد أن معظم الخلفاء العباسيين فاجرون فاسقون، وأمّا البيتان الأخيران فهما بيتا تهكم وسخرية فإذا صحّت الخلافة لنجل الخليفة، فولاية العهد تكون لأحد مغني ذلك العصر الأكثر شهرة وهم مخارق، زلزل والمارقي، وقد استمدّ دعبل جرأته من تعلقه وتقديسه لآل بيت النبي- صلى الله عليه وسلم - وهما سببان أساسيان لهذه السخرية.

واستمر دعبل في ملاحقة الخلفاء بعد مماتهم ليفرغ جام غضبه وكل ما تبقى في نفسه من ألم وحق، أو ليقول آخر ما يمكن قوله في هذا الخليفة أو ذاك، ومنه ما قاله في الرشيد بعد دفنه⁽³⁾:

أرى أميّة معذورين إن قتلوا
أربع بطوس على القبر الزكيّ بها
قبران في طوس: خير الناس كلّهم
ما ينفع الرّجس من قرب الزّكيّ ولا
هيهات كلّ امرئ رهن بما كسبت

ولا أرى لبني العبّاس من عُذر
وإن كنت تربع من دين علي وطر⁽⁴⁾
وقبر شرهم هذا من العبر
على الزّكيّ بقرب الرّجس من ضرر
له يداه فخذ ما شئت أو فذر

(1) - ابن شكلة: أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي بن المنصور أبي جعفر بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، أخو هارون الرشيد؛ كانت له اليد الطولى في الغناء والضرب بالملاهي وحسن المنادمة، وكان أسود اللون لأن أمه كانت جارية سوداء، واسمها شكلة - بفتح الشين المعجمة وكسرها، وسكون الكاف، وبعد اللام هاء - وكان مع سواده عظيم الجثة، ولهذا قيل له التنين، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج 1/ص: 39 .

(2) - هو أبو المهنا مخارق بن يحيى بن ناووس الجزار مولى الرشيد، وقيل: بل ناووس لقب أبيه يحيى؛ كان مخارق لعاتكة بنت شهدة، وهي من المغنيات المحسنات المتقدّمات في الضرب، نشأ مخارق بالمدينة؛ وقيل: كان منشؤه بالكوفة، وكان أبوه جزارا مملوكا، وكان مخارق وهو صبي ينادى على ما يبيعه أبوه من اللحم، فلما بان طيب صوته علمته مولاته طرفا من الغناء، ثم أرادت بيعه، فاشتراه إبراهيم الموصليّ منها وأهداه للفضل بن يحيى، فأخذه الرشيد منه ثم اعتقه، انظر النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 4/ص: 312.

(3) - ديوان دعبل الخزاعي، ص: 77.

(4) - طوس: مدينة في خراسان، الحموي، معجم البلدان، ج 4/ص: 49.

فهو يعدّ الرّشيد شرّاً للناس، وتعجب من دفنه بجانب الرّضا خير الناس، واستدرك فجعل من الأوّل رجساً لا ينفعه التقرب من الرّكي، كما لا يلحق الأذى الرّكي بقربه من الخبيث.

ومن الشعراء الذين أثروا التصريح عن الصمت أبو دلّامة، إذ أشار من خلال موقف طريف إلى فساد القائمين على الخراج، ولمح إلى تواطؤ الخليفة معهم، وانتقد عجز الدولة عن مراقبة موظفيها ومعاقبتهم، إذ يروى أنّ المهدي، أمر بحبسه في بيت الدّجاج بعد أن ألقى القبض عليه مخموراً، فلمّا انقضى جزء من الليل، صحا أبو دلّامة من سكره، ورأى نفسه بين الدّجاج، فصاح: يا صاحب البيت، فاستجاب له السجّان قائلاً: مالك يا عدوّ الله؟ قال له: ويلك، من أدخلني مع الدّجاج؟ فقال: أعمالك الخبيثة، أتى بك إلى أمير المؤمنين وأنت سكران، فأمر بتمزيق طيلسانك الذي كان قد أهدها إليك، وبحبسك مع الدّجاج. قال أبو دلّامة: ويلك، أو تقدر على أن توقّد سراجاً وتجيئني بدواة وورق، فكتب إلى المهدي أبياتاً منها⁽¹⁾:

| | |
|--------------------------|------------------------|
| أمير المؤمنين فدتك نفسي | علام حبستني ومزقت ساجي |
| أقأد إلى السجون بغير ذنب | كأني بعض عمال الخراج |
| ولو معهم حبست لهان وجدي | ولكنني حبست مع الدّجاج |

فهو يتساءل عن سبب سجنه وإهانتته، ويطالب بمحاسبة من هم أشدّ جرماً منه، ويستنكر وضعه في السجن لشربه الخمر، في حين يعبت عمال الخراج بأموال الدولة وخيراتهما، ولا يجدون من يحاسبهم.

وعمل أبو نواس جاهداً في سبيل التقرب من آل برمك، لكنهم فضّلوا عليه أبان بن عبد الحميد اللاحق، فاتجه إلى آل الربيع، ومال إليهم، فبدأ يمدحهم ويسخر من البرامكة، وكانت سخريته منهم نذير شؤم عليهم، يقول في جعفر البرمكي⁽²⁾:

| | |
|-------------------------------|---------------------------------------------|
| عجبت لهارون الإمام، وما الذي | يوّد ويرجو فيك يا خلقة السلق ⁽³⁾ |
| قفأ خلف وجهه قد أطيل كأنه | قفا مالك يقضي الهموم على بثق ⁽⁴⁾ |
| أرى جعفرأ يزدادُ بخلاً ودقّة، | إذا زادة الرحمُ في سعة الرزق |
| ولو جاء غير البخل من عند جعفر | لما حسبتُه الناس إلا من الحمق |

لقد امتزجت سخرية أبي نواس من البرامكة بتحذير هارون الرّشيد منهم، ونلمح ذلك من خلال اعتبار جعفر ذنباً ضارياً لا يرتكب غير الأفعال الشنيعة، والذنب لا يؤمن على حال.

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج10/ص: 200.

(2) - ديوان أبي نواس، ج2/ص: 50.

(3) - السلق: الذنب، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (سلق)، ج10/ص: 162.

(4) - ثبق: ثبقت العين ثبقت أسرع دمعها، انظر المصدر نفسه، مادة (ثبق)، ج10/ص: 33.

وواصل أبو نواس تهكمه وازدراءه للبرامكة بعد أن نكل الرّشيد بهم، مستغلاً هذا الحدث الجلل ليتقرّب من الخليفة، فقام يستصغر جعفرأً ويستخف به، بأسلوب ظاهره مدح وباطنه إزراء واستهزاء، يقول(1):

وما أنزَرَ الطَّرْفَ فيمن نرى
سوى رجلٍ صمّنته الطريقُ
فقال، وأزكنني شاعراً
أُنشِدُنِي بعضَ ما صغَّتهُ
فأنشِدْتُهُ مِدْحَ البرمكيِّ
فأعجبني ظرْفُه إذ يقولُ
ولو أصبحوا ملخّصي أكثرا
ونحنُ ضحىً نقصُد العسكرا
وأزكنُّهُ فطناً مفكِّرا(2)
ولا تدع الأجوَدَ الأفخرا
أبي الفضل أعني الفتى جعفرا
مديحكُ دُرٌّ فهل درّرا

ومن الحوادث الفكاهية والمعبرة عن سرعة البديهة، ما روي عن الشاعر ابن هرمة(3) عندما لجأ إلى التخلص الفكه من واجبات قوم نزلوا عليه ضيوفاً، واستطاع أن يقنعهم بالانصراف، ثم خرج معهم ليشاركهم في طعامهم، قال أحدهم " اجتمع قوم من قریش، وأنا فيهم، فأحببنا أن نأتي ابن هرمة فنبعث به، فتزودنا زاداً كثيراً ثم أتيناها لنقيم عنده، فلما انتهينا إليه خرج إلينا فقال: ماجاء بكم؟ فقلنا: سمعنا شعرك فدعانا إليك لما سمعناك قلت:

إن امرأ جعلَ الطريقَ لبيئته
طنبنا وأنكر حقّه للئيم

وسمعناك تقول:

وإذا تتور طارق مستباح
وعوين يستعجأنه فلقينه
نبحت فدلّته علي كلابي
يضرّبنه بشراشر الأذئاب

وسمعناك تقول:

كم ناقية قد وجاءت منحرها
وعوين يستعجأنه فلقينه
بمستهلّ الشؤبوب أو جمّل
أبتاع إلا قريبة الأجل

(1) - ديوان أبي نواس، ج2/ص: 115، 116.

(2) - أزكن: علم، وفهم، وأزكنني: علمني، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (زكن)، ج13/ص: 198.

(3) - إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة القرشي، أبو إسحاق، ولد سنة تسعين للهجرة، حجازي سكن المدينة، وهو شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وفد على الخليفة العباسي المنصور فأكرمه، وهو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم، وكان مولعاً بالشراب، جلده صاحب الشرطة بالمدينة، وتوفي سنة ست وسبعين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج1/ص: 50.

فنظر إلينا طويلاً ثم قال: ما على وجه الأرض عصابة أضعف عقولاً ولا أخف ديناً منكم، فقلنا له: يا عدو الله، يا دعي، أتيناك زائرين تسمعنا هذا الكلام، فقال: أما سمعتم الله تعالى يقول للشعراء: {وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ}، أفيخبركم الله أنني أقول ما لا أفعل، وتريدون مني أن أفعل ما أقول؟!!

فضحكنا منه وأخرجناه معنا فأقام عندنا في نزھتنا يشاركنا في زادنا حتى انصرفنا إلى المدينة⁽¹⁾.

ومن الفكاهات التي تقوم على هذا النوع الأدبي ما ذكر عن الأصمعي والأعرابي، إذ قال الأصمعي: دعاني بعض العرب الكرام إلى قرى الطعام، فخرجت معهم إلى البرية فأتوا بباطية بأذنين وعليها السمن غارق، فجلسنا للأكل، وإذا بأعرابي ينسف الأرض نسفاً حتى جلس من غير نداء، فجعل يأكل والسمن يسيل على كراعه، فقلت لأضحكن الحاضرين عليه: كأنك أثلثة⁽²⁾ في أرض هشّ أتاها وابلّ من بعد رشّ

فالتفت إلي بعين مبلقة وقال لي: الكلام أنثى والجواب ذكر، وأنت:

كأنك بعرة في إست كبش مدلاة وذاك الكبش يمشي

فقلت له: أتعرف شيئاً من الشعر أو ترويه؟ فقال: كيف لا أقول الشعر و أنا أمه وأبوه؟ فقلت له: إن عندي قافية تحتاج إلى غطاء، فقال: هات من عندك، فغطت في بحور الأشعار فما وجدت قافية أصعب من الواو المجزومة، فقلت:

قوم بنجدك قد عهدناهم سقاهاهم الله من النّو

فقلت: أتدري النّو ماذا؟ فقال:

نو تلاً في دجى ليلة حالكة مظلمة لو

فقلت: لو ماذا؟ فقال:

لوسار فيها فارس لانتنى على بساط الأرض منطّو

(1) - بهاء الدين البغدادي، محمد بن الحسن بن علي بن حمدون، التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ، ج2/ص: 383.

(2) - أثلة: شجرة طويلة مستقيمة معمرة جيدة الخشب كثيرة الأغصان دقيقة الورق، وجمعها أثل، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (أثل)، ج11/ص: 11.

فقلت: منطو ماذا؟ فقال:

منطوي الكشح هضيم الحشا كالباز ينقض من الجو

فقلت: الجو ماذا؟ فقال:

جو السما والريح تعلقو به اشتم ريح الأرض فاعلو

فقلت: اعلو ماذا؟ فقال:

فاعلو لما عيل من صبره فصار نحو القوم ينعو

فقلت: ينعو ماذا؟ فقال:

ينعو رجالا للفنا شرعت كُفيت ما لاقوا وما يلقوا

قال الأصمعي : فعلت أنه لاشيء بعد الفناء ولكن أردت أن أثقل عليه، فقلت له : ويلقوا ماذا؟

فقال:

إن كنت لا تفهم ما قلتاه فأنت عندي رجل بو

فقلت له: البو ماذا؟ فقال:

البو سلخ قد حشى جلده بألف قرن تقوم أو

فقلت له: أو ماذا؟ فقال:

أوضرب الرأس بصوانة تقول من ضربتها قو

فضحك الحاضرون وقال الأصمعي: فخشيت أن أقولله: قو ماذا؟ فيضربني ويكمل البيت، فقلت له: أنت ضيفي الليلة⁽¹⁾."

(1) - دياب الإتيدي، نوادر الخلفاء المشهور بـ «إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس»، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز سالم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م، ج1/ص: 443.

وتعكس الحكاية الطريفة السابقة سرعة البديهة التي يتميز بها الأعرابي، وقدرته الرائعة على التخلص من محاولة الأصمعي في إحراجه وجعله أضحوكة الحاضرين، غير أن الحضور الشعري والقوة في الشخصية والثقة بالنفس جعلت هذا البدوي يتجاوز الاختبار الفكاهي بنجاح وتفوق، وهذا ماجعل الأصمعي يشهد له بعلو المكانة في الشعر، وجعله ضيفه في تلك الليلة.

وهكذا فإن الفكاهة القائمة على سرعة البديهة والتخلص الفكاهي لم تكن وقفًا على طائفة من الناس دون غيرها، بل كانت حاضرة في قصور الخلفاء وفي مجالس الأدباء وعلماء الدين، وعند البسطاء من الناس وعند الرجال والنساء من أبناء ذلك المجتمع الكبير، والذي تجسد فيه هذا الأسلوب الفكاهي المعبر عن نفوس تألفت في أجواء الحضارة، فأثرت الدعابة والبسمة، وتصيدت النكتة الغنية بمعاني الفرح، وهزلت حين وجدت في الهزل راحتها وطمأنينتها.

وقد انصرف شعراء الفكاهة في العصر العباسي الأول إلى تصوير مشاعر الفئات الفقيرة البائسة التي لم تخرج أولوياتها في الحياة عن توفير لقمة العيش، وما يتصل بها من أمور بسيطة، وخير مَنْ يمثّل هذه الطبقة أبو فرعون الساسي⁽¹⁾، وله غير قطعة يصوّر فيها بؤسه، وبؤس أولاده الذين يعيشون حياة صعبة، لا يجدون فيها طعاماً أو لباساً، ويعرض حاله بأسلوبٍ ساخر، يثير في نفس القارئ الضحك والإشفاق معاً إذ يقول⁽²⁾:

| | |
|-------------------------|-----------------------------|
| ليس إغلاقي لبابي أن لي | فيه ما أخشى عليه السرّقا |
| إنّما أغلقه كي لا يرى | سوء حالي من يمُرُّ الطُّرقا |
| منزلٌ داخله الفقُرُ فلو | دخل السارقُ فيه سُرقا |

كان الشاعر يداري نفسه عن النَّاس حتّى لا يروا مسكنه الذي يخلو من ضروريات العيش المتمثلة في الطّعام والشراب، ومن أقلّ ما يملكه البسطاء، ويسوّغ سبب إغلاق بيته بأنه ليس فيه ما يُغري بالسرقة، ونلمح سخريته في قلب الحال، فلو دخل السارق بيته، لطمع أهل بيته في سرقة.

(1) - هو عدي بن الرباب من تميم، واسمه شويش، وكنيته أبو فرعون، أحد شعراء الطبقة الفقيرة، وكان من أفصح الناس وأجودهم شعراً، وأكثرهم نادرة، ولكنه لا يصبر عن الكدية، انظر ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 375.

(2) - المصدر نفسه، ج1/ص: 376.

ومن الشعراء الذين عبروا عن ضنك الحياة وقسوتها أيضاً أبو الشمقمق⁽¹⁾، فيروى أنّ أحد إخوانه دخل عليه يوماً فرأى سوء حاله، فأراد أن يخفف عنه ما هو فيه، فقال له: أبشر أبا الشمقمق، فإنه رُوي في بعض الحديث أنّ العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة، فقال ساخرًا: إن كان والله ما تقول حقاً لأكوننّ بزّازاً يوم القيامة، ثم أنشأ يقول⁽²⁾:

| | |
|-------------------------|------------------------|
| أنا في حالٍ تعالَى اللـ | هُ رَبِّي أَيِّ حَالٍ |
| ولقد أهزلتُ حتَّى | محتِ الشمسُ خيالي |
| ممن رأى شيئاً محالاً | فأنا عينُ المحالِ |
| ليس لي شيءٌ إذا قيـ | لَ لمن ذا؟ قلتُ: ذا لي |
| ولقد أفلستُ حتَّى | حلّ أكلِي لعيالي |

فهو يصوّر بأسلوبه التهكمي حالته التي وصل إليها، مؤكداً على أنه لا يملك شيئاً يُنسب إليه، أو يُرَدُّ إلى اسمه، ليس هذا فحسب، بل افتقر بيته إلى أدنى ما يملكه الإنسان من طعام وشراب، حتى أصبح نحيفاً، لا يكاد يظهر خياله، وإذ هو على هذه الحالة، يجعل أكله محللاً لعياله، لأنه لم يستطع أن يُوفّر لهم ما ينقذهم من الموت، وله أشعارٌ كثيرة يصوّر فيها فقره وإقلاله، وأنه لا يقتني حتى ما يكسو به السّرير الذي ينام عليه، ولا يملك من المتاع إلاّ حصيرة وبعض الأشياء البسيطة، ومنها قوله⁽³⁾:

| | |
|--------------------------------|----------------------------------|
| لو قد رأيتَ سريري كنتَ ترحمُني | اللهُ يعلمُ مالي فيه تلبّيسُ |
| والله يعلمُ مالي فيه شابكةٌ | إلاّ الحصيرةُ والأطمارُ والدّيسُ |

والحاصل أن الفكاهة العباسية مست طوائف المجتمع كافة، بكل تجلياتها الثقافية والفكرية، ويكاد المرء لا يستثني فئة لم تتناولها الفكاهة بسهامها الناقدة والمضحكة في آن معاً، لأن العباسيين عندما شعروا بأهمية الفكاهة شجعوا أصحابها، فازدهرت ازدهاراً كبيراً، وسارت في خط بياني تصاعدي مع تطور الحياة الثقافية وتعقيدات الحياة السياسية

(1) - أبو الشمقمق: هو مروان بن محمد، ويكنى أبا محمد، وأبو الشمقمق لقب، والشمقمق الطويل، وهو مولى بني أمية، كان خفيف العثون، عظيم الأنف، منكر المنظر، غير جيد الشعر على إكثاره فيه، هجا كثيراً من متقدمي زمانه منهم، بشار وأبي العتاهية ومروان بن أبي حفصة وأبي نواس، وهجا يحيى بن خالد البرمكي، المرزباني، معجم الشعراء، ج1/ص: 397.

(2) - ديوان أبي الشمقمق، ص: 77.

(3) - المصدر نفسه، ص: 64.

والاجتماعية، لذلك كانت الفكاهة بحرًا واسعًا عميقًا، فيه الروعة والبريق والجمال، وفيه المرارة والمهاوي القاتمة⁽¹⁾.

لقد أصبحت الفكاهة في العصر العباسي الأول مظهرًا حضاريًا ذو قيمة سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وخلقية لها قدرها العظيم في النفوس، ورسوخها القوي في وجدان الناس في عصر طغت فيه النزعة المادية، وقاسى المجتمع من ويلاتها الكثير، مما جعل الترفع عن تلك النزعة والسمو إلى حياة الفكاهة والضحك ضرورة يطلبها الشعراء للترويح عن أنفسهم، وتجاوز الصعوبات في حياتهم، كما كان لشعراء الفكاهة مدحهم وفخرهم ورثاؤهم، وغير ذلك مما عرفه العصر من أغراض الشعر، ولكنهم كانوا يتناولون هذه الأغراض بطريقتهم الخاصة، مما جعل لتلك الأغراض مذاقًا خاصًا يتلاءم مع طبائعهم وأساليبهم الفكاهية التي تعد من أهم المعالم الحضارية في شعر القرن الثاني للهجرة.

(1) - انظر قزيحة رياض، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1998م، ص: 230.

الفصل الرابع : الدراسة الفنية

المبحث الأول: بناء القصيدة

المبحث الثاني: الألفاظ والتراكيب

المبحث الثالث: الصور والأخيلة

المبحث الرابع: الأوزان والقوافي

المبحث الأول: بناء القصيدة

لقد ظهرت بوادر التجديد في الشعر منذ العصر الأموي، وهذا بسبب تغير الحياة الدينية والاجتماعية للمجتمع العربي، لكن البيئة العربية قد ازدادت تطوراً في العصر العباسي، حيث تعددت وسائل الترف وكثرت مجالس اللهو والطرب وقد ساعد على ذلك التغيير الذي أصاب المجتمع العربي من جميع النواحي احتكاكه بالثقافات المختلفة والمتباينة المنحدرة من الحضارات العريقة كالفارسية والهندية واليونانية، فظهرت ملامح ذلك الانقلاب بصورة جلية في القصائد الشعرية.

ومن الواضح أن شعراء العصر العباسي الأول قد نشؤوا في بيئة مغايرة عن تلك التي عاشها العربي في الجاهلية، الأمر الذي دفعهم إلى التساؤل وبعثهم عن جدوى النظم على طريقة الأولين.

فالشاعر ابن بيئته وإذا أراد الشاعر العباسي الذهاب إلى محبوبته، فهو لا يركب الناقة ولا يسأل الطلل عنها، ذلك أن الأغراض الشعرية القديمة لا تعبر عن كافة وجوه الحياة الحضرية والمدنية التي يعيشها، وبذلك أصبحت الحاجة ملحة للتغيير وللتعبير عن التجربة الصادقة التي يعيشها الشاعر.

وعليه فإن مقدمة القصيدة التي تشكل جزءاً من بنيتها قد نالها كثير من التطوير تماشياً مع تغير المجتمع وتمدنه، فلم يعد الشاعر يصف المفازة وبقايا الأرام ومكان خيام الأحبة التي طمست الرياح معالمها، وإن بقي من الشعراء من ينهج ذلك النهج فإنما هو تقليد للأقدمين وانتماء للقصيدة القديمة أو إرضاء للممدوح الذي ينتصر لتلك المقدمة أحياناً على أن أولئك وإن التزموا ذلك الأثر فإنهم قد أضافوا شيئاً من لوازم تحضرهم المشهود وواقعهم الحسي المشاهد الذي لم يعشه شاعر الصحراء.

وتجدر الإشارة إلى أن أبا نواس كان أحد أهم شعراء عصره وأكثرهم تأثيراً، فهو اللغوي الفذ والمطلع على ثقافات سائر الشعوب والحضارات التي تعالقت مع اللغة العربية في ذلك العصر، والعارف بأمور الدين والدنيا، له في كل منها باع طويل من المعرفة والتجربة، فقد قيل عنه أنه "كان متقناً في العلم، قد ضرب في كل نوع منه بنصيب"⁽¹⁾. وقيل في براعته أيضاً: "كان أبو نواس للمحدثين؛ كامرئ القيس للمتقدمين"⁽²⁾.

إن ثقافة أبي نواس واطلاعه الواسع وعيشه نبض عصره كان من أهم الأسباب التي دفعته إلى رفض التقليد والتعامل مع التجربة الشعرية بصدق، فخرج بذلك من منطلق التبعية إلى روح الإبداع، ليشكل عالماً خاصاً متمرداً على كافة المعايير التي وضعها نقاد عصره.

(1) - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2/ص: 787.

(2) - كمال الدين الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ج1/ص: 65.

لقد كانت دعوة أبي نواس إلى هدم بناء القصيدة العربية القديمة أول وأوضح مظاهر الثورة على التقاليد البالية، خاصة وأنه شاعر عايش المدنية العباسية الجديدة الحافلة بأرقى ما وصل إليه الإنسان من معالم التمدن، لذلك نجده يمجّد الخمر ويعطيها مكانة راقية، وكأنه بهذا يتحدى القديم ويعلن مبادئ عصره وخصوصيته، فكما أن الطلل رمز للتقاليد البالية، أصبح الخمر في قاموس شاعرنا رمزا للحياة الحديثة.

وأبو نواس نفسه يعترف ويصرح بعدم إيمانه بما يسمى المقدمة الطللية، ومع علمنا أن لذلك أثره في بنية القصيدة من تجدد في الوزن وتغيير في الألفاظ والتراكيب، وحادثة في التصوير، إلا أن الواقع يوافق أبا نواس في ذلك، فكما أن الشاعر القديم لا يصف إلا ما يراه فلماذا يتجشم الشعراء المحدثون وصف ما لم يروا، وإن سمعوا به؟

يقول أبو نواس وقد سجنه الخليفة على استشهاده بالخمر وسريانها في شعره⁽¹⁾:

| | |
|---------------------------------|-------------------------------|
| أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا | فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا |
| دعاني إلى نعت الطلول مسلط | تضييق ذراعي أن أرد له أمراً |
| فسمعاً أمير المؤمنين وطاعةً | وإن كنت قد جشمتني مركباً وعرا |

فصرح بأن وصفه للأطلال من خشية الإمام فقط وإلا فإن ذلك عنده سفه وجهل.

وقد شكلت الثورة على الطلل ونقد الشعراء المقلدين مفتتحاً لقصيدة أبي نواس، فنجده هازئاً مزدرياً لكل من يعرج على رسم يسائله، ويحرص على وضع ابنة الكرم بديلاً لهذا السلوك في مثل قوله⁽²⁾:

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| صفة الطلول بلاغمة القدم | فاجعل صفاتك لابنة الكرم |
|-------------------------|-------------------------|

أو كقوله:

| | |
|---------------------------|-------------------------------|
| دع الوقوف على رسم و أطلال | ودمننة كسحيق اليمنة البالي |
| وقم بنا نصطحب صفراء واقدة | في حمرة النار أو في رقعة الآل |

ويتضح من خلال الأبيات السابقة موقف الشاعر الحاسم من قضية التقليد، فهو يعرض رأيه بقوة وثبات، ولا يكتفي بالدعوة لهدم القديم بل نجده يوفر بديلاً، فهو بدعته إلى الخمر يشير إلى ضرورة أن يعيش الإنسان عصره، ويتفاعل معه ويعبر عنه، لا أن يقول أموراً لم يرها ولم يعرفها.

(1) - ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، 1401 هـ / 1981 م، ج1/ص: 232، وديوان أبي نواس، ج3/ص: 153.
(2) - المصدر نفسه، ج3/ص: 265.

ويشكل الإعراض عن المقدمة الطللية وتجاهلها من أهم سمات الشعر الحضاري في العصر العباسي الأول وهو ما اصطُح عليه بالوثب، إذ أن هناك: "من الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب بل يهجم على ما يريده مكافحة ويتناوله مصافحة وذلك عندهم هو: الوثب والبتير والقطع والكسع والاقْتضاب كل ذلك يقال والقصيدَة إذا كانت على تلك الحال بترء كالخطبة البترء والقطعاء"⁽¹⁾.

وأول من فتح هذا الباب وفتح هذا المعنى أبو نواس في قوله⁽²⁾:

لاتبك ليلي ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

والظاهر أن أبا نواس لم يكتف برفض البناء القديم للقصيدَة وللمقدمة الطللية، بل رفض المعاني والمضامين القديمة أيضاً وسعى إلى توليد معان جديدة حتى قيل عنه: "كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس"⁽³⁾.

وإذا كان لزاماً علينا أن ندرس بناء القصيدة ونحلل ما طرأ عليها من تطور أحدثه الشعر الحضاري، فإنه يحسن بنا تناول ذلك البناء من خلال أغراض الشعر المعروفة، لسبب بسيط هو أن البناء يختلف باختلاف الأغراض فما للمديح من اللفظ والتصوير والموسيقى الشعرية ما ليس للوصف أو الهجاء أو غيره من بقية الأغراض الشعرية الأخرى.

أ- الغزل :

يعد الغزل من الفنون الشعرية القديمة التي طرقها الشعراء في قصائدهم، متخذين منه حلية تزين أبياتهم، وكثيراً ما يفتح الشاعر قصيدته بالغزل بقصد لفت الانتباه وإيقاظ الأذهان قبل الدخول في الموضوع الرئيس، ولكنه في العصر العباسي صار موضوعاً مستقلاً قائماً بذاته.

والحري بالذكر أن هناك فرق بين الغزل والتشبيب والنسيب، فالغزل هو تصوير أحاسيس الشاعر اتجاه محبوبته وما يدور بينهما من أحاديث الغرام والعشق، وقد يتخلله وصف حسي للمرأة. أما التشبيب فهو نوع من الغزل قريب إلى المباشر لأنه يتضمن الحديث عن محاسن النساء ووصف أعضاء المرأة، ويكون "في مطالع الكلام وما يتصل بذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال، توخياً لتعليق القلوب وتقبيد الأسماع قبل المفاجأة بغرضه من الكلام"⁽⁴⁾، فهو نوع من الغزل الصناعي الذي يلجأ إليه الشاعر للفت الانتباه، في حين أن

(1) - ابن رشيق القيرواني، المصدر السابق، ج1/ص: 231.

(2) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 106.

(3) - أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان الياضي، مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م، ج1/ص: 345.

(4) - علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، طبعة دار التراث الأول، 1412هـ/1991م، ص: 414.

النسيب هو: "أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى، وما يصيغه من التجني، وما يعرض له من ذكر محاسن النساء"⁽¹⁾.

وما انفك الغزل في العصر العباسي الأول يسري في نفس الاتجاهين التقليديين: تيار الغزل العفيف الذي ضاق مجراه كثيراً حتى كاد يندثر، وكانت الحضارة قد أفسدته وجرده من العاطفة الصادقة، فصار متكلفاً زائفاً لا يؤثر في النفوس إلا ما ندر، وتيار الغزل الصريح الذي يطلق عليه أيضاً اسم التشبيب وهو الأقوى والأكثر انتشاراً والذي كان في مجمله شعراً مطبوعاً مستوحى من البيئة الحضرية مع خروج واضح عن حدود الحشمة والأدب والسمو بالحبیب عما يعيب.

ومن الغزل العفيف ما قاله ابن ميادة⁽²⁾:

| | |
|--------------------------------|------------------------------|
| كان فؤادي في يد علقت به | محاذرة أن يقضب الحبل قاضبه |
| وأشفق من وشك الفراق وإنني | أظن لمحمول عليه فراكبه |
| فو الله ما أدري: أيغلبني الهوى | إذا جد جد البين أم أنا غالبه |
| فإن أستطع أغلب وما يغلب الهوى | فمثل الذي لا قيت يغلب صاحبه |

لقد جاءت تراكيب ابن ميادة رقيقة وعباراته رصينة، فهو يصف صراعه مع الشوق والهوى الذي يعانیه ويتوقع بين اللحظة والأخرى حصول الفراق، فيعبر عن ذلك بألفاظ مطبوعة جيدة السبك، وصور جميلة جمع فيها بين القديم والحديث؛ ولذا وصفه ابن المعتز: "بأنه جيد الغزل، ونمطه نمط الأعراب الفصحاء"⁽³⁾، وقال عن أبياته السابقة "فهذه معان وألفاظ يعجز عنها أكثر الشعراء؛ فإنه جمع إلى اقتدار الأعراب وفصاحتهم محاسن المحدثين وملحهم"⁽⁴⁾.

و من مثل ذلك أيضا قول أبي العتاهية⁽⁵⁾:

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| بالله يا حلوة العينين زوريني | قبل الممات و إلا فاستزيريني |
| هذان أمران فاختاري أحبهما | إليك أولا فداعي الموت يدعوني |
| إن شئت ملكا فأنت الدهر مالكة | روحي و إن شئت أن أحيا فأحييني |
| يا عتب ما أنت إلا بدعة خلقت | من غير طين و خلق الناس من طين |
| إنني لأعجب من طين يقربني | ممن يباعدني عنه و يقصيني |
| لو كان ينصفني مما كلفت به | إذن رضيت و كان النصف يرضيني |

(1) - علي الجندي، المرجع السابق والصفحة نفسها.

(2) - ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج3/ص: 1311.

(3) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 108.

(4) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(5) - ديوان أبي العتاهية، ص: 489.

وأول ما نلاحظه في غزل أبي العتاهية هو الطابع الحضري المجدد الخالي من الصور البدوية القديمة، ذلك أن أبا العتاهية من جيل الشباب الذين لم يتأثروا بالحضارة الأموية وإنما نشؤوا في رحاب الحضارة العباسية المتمدنة، وغزل أبي العتاهية على رفته ولطافة معانيه وسهولة ألفاظه لا يؤثر في القلوب ولا تشع منه العاطفة الحقيقية لأسباب كثيرة أهمها أن تشيبيه بعنبة قد يكون نابغاً عن رغبته في بلوغ الشهرة بين الناس.

ومما يستحسن من المقطوعات الغزلية العفيفة قول سلم بن داود⁽¹⁾، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية⁽²⁾:

| | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| وما ذر قرن الشمس إلا ذكرتها | وأذكرها في وقت كل غروب |
| وأذكرها ما بين ذاك وهذه | وبالليل أحلامي وعند هبوبي |
| وقد شفني شوقي وأبعدني الهوى | وأعيا الذي بي طب كل طبيب |
| وكل محب قد سلا غير أنني | غريب الهوى ، يا ويح كل غريب |

ومثل ذلك الغزل لا يחדش الحياء، عفيف عفة السابقين، قد اختيرت ألفاظه لتناسب الحشمة والوقار، وصوره لتعكس اللوعة والحسرة التي أصيب بها ذلك المقيم وأضناه الشوق وأعياه حتى عجز الطب عن مداواته، ونلاحظ في بناء تلك الغزليات ابتعادها عن الألفاظ الوعرة، ووصف الدمن والأطلال، بل نرى ألفاظاً رقيقة مفهومة وصوراً خيالية بعيدة عن الفحش، هذبها الإسلام، واتصلت بالقيم، فاقتربت من القديم في أسلوبه وموسيقاه، وابتعدت عنه بتغيير اللفظ والصورة والتراكيب، فحازت محاسن القديم والجديد معا.

ومن الغزل العفيف التقليدي قول السري بن عبد الرحمن⁽³⁾:

ما زال فينا سقيم يستطب له من ريح زينب فينا ليلة الأحد⁽⁴⁾

وفي هذا البيت رقة وعذوبة وألم وشوق قلما نجدها مجتمعة في بيت واحد، فالشاعر أراد أن يعبر عن مدى احتياجه لرؤية محبوبته لكونها البلسم الشافي لعلته، وهو ليس الوحيد الذي يعاني من هذا الداء وإنما يتجدد هذا الألم ويستشري فلا يمر يوم إلا وهناك مريض أضناه الشوق فهو يداوى بالريح التي تهب من حيث تسكن زينب.

(1) - هو داود بن سلم مولى بني تميم بن مرة بن كعب بن لؤي، مخضرم من شعراء الدولتين الأموية والعباسية من ساكني المدينة، كان يقال له الأدم؛ لشدة سواده، له أشعار حسنة في الغزل، توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج2/ص: 232.

(2) - ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج17/ص: 153.

(3) - هو السري بن عبد الرحمن بن عنبة بن عويم بن ساعدة الأنصاري، ولجده عويم بن ساعدة صحبة للرسول صلى الله عليه وسلم، شاعر من شعراء المدينة، وليس بمكثر ولا فحل، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج20/ص: 116.

(4) - المصدر نفسه، ج20/ص: 117.

ولا شك أن تلك العذوبة نابغة من حضارة العصر من جهة، ومن السهولة والرقّة التي امتازت بها الألفاظ مع خفة الإيقاع وجمال التصوير من جهة أخرى.

و من الغزل الماجن أو الصريح قول بشار بن برد (1):

| | |
|-----------------------------------------|------------------------------------|
| تَعَفُ فِإِنْ سَامَحْتَ تَمْرَحُ | وَجَارِيَةَ دَلَّهَا رَائِعُ |
| مِنَ الْمَسْكَ فِي جِيهَاتِهَا تَذْبَحُ | كَأَنَّ عَلَى نَحْرِهَا فَاةً |
| أَسْوَدَ شَتَّ بِهَا أَبْطَحُ | كَأَنَّ الْقُرُونُ عَلَى مَتْنِهَا |
| كَحَلِّي الْعَرَائِسِ يُسْتَمْلِحُ | لَهَا مَنْطِقُ فَاخِرِ فَاثِنِ |

| | |
|--------------------------------------|--------------------------------------|
| وَوَجْهَهُ يُصَلِّي لَهُ أَسْجَعُ | وَعَيْنَانِ يَجْرِي الردى فِيهِمَا |
| وَطَابَ لَكَ الْعَيْشُ وَالْمَسْرَحُ | وَتَغْرُ إِذَا دُقَّتْهُ لَمْ تَمُتْ |
| أَشَارَتْ لِقَوْمٍ بِهَا سَبَحُوا | وَخَدُّ أَسِيلٌ وَكَفٌّ إِذَا |
| عَلَى أَنْهَابِهَا صَعْبَةٌ تَرْمَحُ | وَسَاقٌ تُزِينُ خَلْأَهَا |

وقد قال الشاعر هذه القصيدة بعد أن نهاه المهدي عن الغزل والنسيب! جاعلا منه مقدمة لهجاء حماد، حيث حشد فيها أوصاف محبوبته وصورها تصويراً حسيماً مفصلاً، ثم ختم ذلك كله بالتذكير بزجر الخليفة إياه، ونهيه عن الغزل والتصريح باسم محبوبته، فكان الشاعر لم يستطع كبح جماح نفسه ففلتت منه تلك الأبيات الحسية قبل أن يتدارك الموقف ويعتذر عما بدر منه، إلا أن هذه هي طريقة بشار في الالتفاف على أمر الخليفة، إذ يعمد إلى الغزل وقول ما شاء في النسيب والتشبيب متبعاً ذلك بأبيات يذكر فيها نهي الخليفة وأنه أطاع الأمر ولم يخرج عنه، إلا أن المهدي فطن لحيلة بشار فمنعه من العطاء حتى بعد أن مدحه بعدة قصائد مما أغضب بشاراً ودفعه إلى هجاء الخليفة.

كما أن لغة الشعر في هذا الغرض، وعلى غرار الأغراض الشعرية الأخرى، تأثرت بالحضارة الراهنة وبالثقافات العصرية، حتى اقتربت لغة التغزل في القرن الثاني الهجري، من لغة الحياة اليومية إلى حد كبير (2)، ومن أمثلة ذلك قول بشار (3):

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| أُنْتُ نَفْسِي وَحِيَاتِي | قَلِّ لِحَبِيبي قَرِيبي |
| وَحَدِيثِي فِي صِلَاتِي | وَهَمومي حِينِ أَغْدُو |

يتخطف بشار تراكيب غزله دون تأن في اختيارها، لا لعجزه وإنما لموافقة مجتمعه اليومي، بأسلوب سهل بسيط، قد أودعه بحراً راقصاً خفيفاً هو مجزوء الرمل.

(1) - ديوان بشار بن برد، ج2/ص: 107، 108.

(2) - محمد مصطفى هداره، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص: 528.

(3) - ديوان بشار بن برد، ج2/ص: 37.

كما نلمح استخدام الصنعة البديعية بكثرة في غزل القرن العصر العباسي الأول، من ذلك مثلاً قول الحسين الخليل⁽¹⁾:

| | |
|------------------|-------------------|
| لا تلمني على فتن | إنها كاسمها فتن |
| فإذا لم أهتم بها | فبمن لا بمن إذن |
| أين لا أين مثلها | في جميع الورى سكن |

ونلاحظ من خلال الأبيات السابقة أن الشاعر قد استخدم الجنس التام بين "فتن" وهو اسم المحبوبة و"فتن" في قافية البيت، وهو جمع فتنة، مما ساهم في سهولة الوزن والتركيب والذي يعزى أيضاً إلى استخدام الألفاظ الدارجة والهيئة الشعبية للقصيدة.

وبصورة عامة نجد أن الغزل بنوعيه غلبت عليه الصور الجديدة المستلهمة من البيئة الحضرية وحياة الترف التي عاشها شعراء هذا العصر، والانفتاح الكبير على الغناء وعقد الصداقات بين الشعراء والجواري المتظرفات، مما جعلهم يعتمدون أساليب سهلة وألفاظاً واقعية ليتمكن من فهم قصائدهم وليطربن لإيقاعها ومعانيها.

ولاننسى أن الحياة الإسلامية آنذاك دس فيها بعض التعاليم الباطلة نتيجة الاختلاط بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات والمعتقدات المختلفة، حيث أسهم ذلك في شيوع الغزل فظهر في المجتمع نوع من الاستهتار بالأحكام المتعلقة بالحجاب الشرعي والخلوة وأحكام العلاقات بين النساء والرجال وحكم الغناء وغير ذلك، كما يظهر لنا مدى اعتماد شعراء الغزل على الاستشهاد بالمعاني الدينية لترقيق قلب الحبيبة وللوصول لمبتغاهم مما يدل على مدى الاستخفاف بالدين والتهاون في انتهاك الحرمات عند بعضهم، إذ كانوا يعتمدون إلى السب والتجريح عند نصحهم ولومهم على تدينهم الأخلاقي، وعادة لا يلجأ الإنسان إلى العنف إلا عندما يفقد الحجة، فهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم على خطأ ولكن ضعف الإيمان يدفعهم إلى تناسي ذلك والتغافل عن الذنب، ونلاحظ كثرة تضمينهم لألفاظ القسم في إثبات حبهم وولائهم مما يدل على شيوع جو من التشكيك في صدق تلك العواطف بتأثير من البيئة المتحررة التي تتيح للشاعر الاتصال بأكثر من عشيقة دون خوف أو وجل.

ب- الوصف :

الوصف هو أن يلم الشاعر في شعره بظواهر البيئة التي يعيش فيها، وهو من أبرز موضوعات الشعر الغنائي وأهمها، لا يقوم بها إلا شاعر فحل ذو بصر ثاقب وإحساس مرهف، وهذا النمط من التصوير شائع في أدبنا القديم تكاد تكون له السطوة والغلبة على باقي الموضوعات الأخرى التي تناولها الشعراء في إبداعاتهم، فهو: "في حقيقة الأمر عمود الشعر وعماده، بل إن كل أغراض الشعر وصف، فالمدح وصف نبل الرجل وفضله، والغزل وصف النساء والحنين إليهن، والشوق إلى لقائهن، والرثاء هو وصف محاسن الميت

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج/7 ص: 134.

وتصوير آثاره وأيديه، والهجاء وصف سوءات المهجو وتصوير نقائصه ومعايبه، وهكذا نستطيع أن ندخل جميع فنون الشعر تحت الوصف، فهو على هذا الوضع كالدوحة الملتفة الأغصان، الفارعة الأفنان⁽¹⁾.

ويعد الوصف من أمتع موضوعات الشعر ولاسيما في العصر العباسي الأول، فهو المرأة الحية التي تعكس جميع مظاهر الحياة الحسية في حياة الشاعر، وتصور لنا ما كانت عليه حياتهم وما وجد حولهم من طبيعة خضراء وحدائق غناء وقصور شامخة ورياش فاخر وكلما يتبع ذلك من مظاهر الحياة الرغيدة التي كانت شائعة في عصر بني العباس.

وإن من أهم ما نراه في الوصف العباسي هو أنه لم يعد مقدمة لموضوعات الشعر الأخرى أو مجرد جزء منها وإنما قد تفرد له القصائد والمقطوعات.

كما نلاحظ فيه شيوع المعاني الحضرية والصور المستوحاة من حياة المدينة مع دقة تصوير الرياض والقصور ومظاهر الأبهة والفخامة وأدوات اللهو ومظاهر الترف التي يراها الشعراء في بيوت الحكام وعلية القوم، ويطغى عليه الطابع الحركي، إلا أنه لم يخل تماماً من الصور البدوية القديمة عند شعراء المنهج التقليدي.

لقد كانت الحال في الوصف إذن كغيرها من الأغراض السابقة، فقد تدرج شعراء العصر العباسي الأول من وصف يشابه ذاك الذي نظمه سابقهم من تصوير للأطلال والفيافي والقفار والإبل ومشاهد الصيد وما شابه ذلك إلى شحذ القصيدة بالكثير من الأوصاف الحضارية التي انتزعوها من واقع حضارتهم، وهو ما نلمحه عند رأس المحدثين بشار بن برد الذي يقول⁽²⁾:

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| أقوى وعطل من فراطة الثمد | فألربع منك ومن ريباك فالسند |
| فالهضب أو حش ممن كان يسكنه | هضب الوراق فما جادت له الجمد |
| فمن عهدت به الألاف تسكنه | فالعرج حيث تلاقي القاع والعقد |
| عافوا المنازل من نجد وساكنه | فما دريت لأي طيبة عمدوا |
| لكن جرت سنج بيني وبينهم | والأشأمان غراب البين والصرد |

من الجلي أن بشاراً يطعم أوصافه تلك بألفاظ جزلة ومطالع تقليدية معهودة مستخدماً صوراً بديعة تناسب ذلك الوصف، فقد صاغ قصيدته السابقة على بحر البسيط.

وقد أضاف بشار إلى الأوصاف البدوية التي ظل يعرض لها في قصائده من وصفه للناقة والرحلة البرية أوصافاً أخرى انتزعها من بيئته الحضرية، إذ "صور لنا بشار الرحلة النهرية وهو تصوير ابتكره وأورده ضمن قصائده المدحية سواء في العهد الأموي أو العهد

(1) - عبد العظيم علي قناوي، الوصف في الشعر العربي، شركة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1949م، ج1/ص: 43.

(2) - ديوان بشار بن برد، ج2/ص: 278.

العباسي"، فرسم نهجا جديدا نهجه معاصروه، ومن مقطوعاته الحضرية البديعة تلك التي وصف فيها رحلته إلى ممدوحه من البصرة إلى بغداد في نهر الفرات في قوله⁽¹⁾:

| | |
|-----------------------------|-------------------------|
| وملعب النون يرى بطنه | من ظهره أخضر مستصعب |
| عطشان إن تأخذ عليه الصبا | يفحش على البوصي أو يصخب |
| كأن أصواتاً بأرجائه | من جندي فاض إلى جندي |
| ركبت في أهواله ثيباً | إليك أو عذراء لم تُركب |
| لما تيممت على ظهرها | لمجلس في بطنها الحوشب |
| هيأت فيها حين خيستها | من حالك اللون ومن أضهب |
| فأصبحت جارية بطنها | ملائ من شتى فلم تُضرب |
| لا تشتكي الأين إذا ما انتحت | تهدي بهادٍ بعدها قلب |

وصف الشاعر السفينة وهي تمخر عباب الماء، والموج المتلاطم يتكسر على جنبها والملاح الحاذق يقودها بمهارة، وهي مسرعة إلى المرساة والحيتان مرتعبة فاتحة لها المجال.

وتعد القصيدة السابقة من القصائد التي حاول بشار من خلالها أن يتخلص من بعض شكليات القصيدة العربية القديمة حيث استبدل الناقة بالسفينة، وهو شكل ظاهره جديد، إلا أننا نجده متشبها بقواعد القصيدة العربية القديمة، لم يستطع التخلص منها، من ذلك مثلا صورة الظليم والنعامة في وصفه للسفينة، مع إقحامه شكلا جديدا يمثل حياة العصر، وما شاع فيه من استعمال السفن والزوارق وسيلة للتنقل بين حواضر العراق المطلة على دجلة والفرات. ويصفها في موضع آخر فيقول⁽²⁾:

| | |
|-----------------------------------|---------------------------|
| وقربت لمسير منك يومئذ | مراكب منك لم تولد ولا تلد |
| تغلي بهن طريق مابه أثير | في مستوى مابه حزن ولا جدد |
| لا في السماء ولا في الأرض مسلكتها | ولا تقوم ولا تمشي ولا تخذ |

يرى بشار أن هذه السفينة لا وجود لمثلها في قوله (لم تلد ولم تولد)، وجاء هذا المعنى في القرآن الكريم في تبيين وحدانية الله عز وجل، في قوله تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}(3)، وهذه الإشارة إلى القرآن الكريم تجعلنا نؤكد على الأبعاد الدلالية المختلفة التي يزودنا بها النص، فبشار يتفاعل مع البيئة الثقافية والعقائدية للمجتمع العباسي، فتفرد الخليفة

(1) - بشار بن برد، المصدر السابق، ج1/ص: 147.

(2) - المصدر نفسه، ج2/ص: 283.

(3) - سورة الاخلاص، الآية: 03.

بهذه المراكب العظيمة يحيلنا إلى عظمة المالك وهو الخليفة، الذي خصه بالسلطة الدينية والدينيوية معاً، فهو سيد البر والبحر معاً⁽¹⁾.

كما نجد عند شعراء العصر العباسي الأول أوصافاً أخرى مستحدثة كالطرد، فقد أفردوا له قصائد كاملة أغلبها أرجازاً، فبرعوا في ذلك ووصفوا أدواته من الكلاب والصقور وغيرها... خاصة وأن رياضة الصيد كانت من ترف الخلفاء ومتعمهم وكذلك الكبراء من الوزراء والولاة.

ولعل أقدم ما يلقانا من تلك القصائد الطردية، في العصر العباسي الأول، طرديات أبو نخيلة الراجز⁽²⁾، فقد اشتهر بذلك وتميز به، فقال عنه ابن المعتز: "وأعاجيب أبي نخيلة في القنص وغيره كثيرة"، ومن طردياته قوله⁽³⁾:

| | |
|-----------------------|-------------------------|
| وردأ طمرا مدمج السراة | أنعت مهراً سبط القرات |
| نعائمأ عشراً مطردات | يغدو بنهد في اللجام عات |
| فانصاع وانعصن موليات | صك العراقيب هجنعات |

وتتميز أرجاز الطرد بالإغراب في لغتها، وبقربها من البداوة الجاهلية، وهو ما يجعلها أقرب إلى المتون العلمية.

وعموماً نجد أن الوصف في العصر العباسي الأول قد انقسم إلى نوعين: وصف تقليدي بدوي ووصف تجديدي حضري، إلا أن كلا النوعين قد اتخذتا شكل المقطوعات المستقلة فلم يعد مقدمة لموضوعات أخرى.

ج- الهجاء :

يحتل الهجاء مكانة متقدمة بين فنون الشعر العربي القديمة، فقد قيل: " إن بيوت الشعر أربعة فخر ومديح وهجاء ونسيب"⁽⁴⁾، أما ابن رشيق⁽⁵⁾ فيرى أن الشعر نوعان: " مدح

(1) - نور الدين السد، الشعرية العربية، ص: 394.

(2) - هو أبو نخيلة بن حزن بن زائدة بن هدم ابن بني حمان، يرتفع نسبه إلى سعد ابن زيد مناة بن تميم، فهو حماني، سعدي، تميمي، تكاد المصادر تجمع على أن أبا نخيلة اسمه الحقيقي لا لقبه، وقيل إنه سمي كذلك لأن أمه ولدت تحت نخلة، ولقب بأبي الجنيد، وأبي العرماس، وهو شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، توفي سنة خمس وأربعين ومائة، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج20/ص: 251، وابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2/ص: 587، والزركلي، الأعلام، ج8/ص: 15.

(3) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 66.

(4) - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1/ص: 321.

(5) - هو الحسن بن رشيق القيرواني، أبو علي، العلامة البليغ، ولد بالمسيلة، من تصانيفه العمدة في صناعة الشعر، الرسائل الفائقة وقراضة الذهب، توفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18/ص: 324.

وهجاء"⁽¹⁾، وشاع فن الهجاء عند غالبية الأمم إلى جانب العرب، مع تباين في التعبير عنه فيما بينها، ما بين منظوم الكلام ومنثور، كما أنهم اختلفوا في أصله.

والهجاء هو أن يعدد الشاعر عيوب خصمه بقصد إذلاله والتقليل من شأنه، وقد يتخلل هجاءه تهديد أو وعيد، إذ كان هذا الغرض شائعاً في العصرين الأموي والعباسي، إلا أنه في عصر بني أمية وجه إلى زعماء الأحزاب والمذاهب التي شهدت صراعا ضاريا، فكان الشعراء يتفننون في هجاء أعداء حزبهم ومن والاهم، على أن شعراء الحزب الآخر لم يقفوا مكتوفي الأيدي، وإنما ردوا بالمثل.

لقد انعكست النزاعات بين العرب والشعوبيين وغيرهم من المذاهب المختلفة مطلع العصر العباسي الأول على اتجاه الهجائيين من غير العرب، فاتجه الشعوبي في هجوه للعرب منحى ينطلق من عقدة كراهية دون أن يحفل الهجاء باختلاق سبب لهجائه مثلما فعل بشار بن برد وأبو نواس، وفي القرن الثالث الهجري تعددت اتجاهات الهجاء ما بين شخصي واجتماعي وسياسي، ومال الهجاؤون إلى الهجاء الساخر، الذي طالت به ألسنة الشعراء أفراد الشعب كافة، ولم يسلم أحد منه إلا وكالوا له الهجاء كيلا، " ودفعهم تنافسهم إلى أن يتبادلوا الهجاء ويريشوا كثيراً من سهامه"⁽²⁾.

ومن الطبيعي أن ينشأ في العصر العباسي الأول هجاء مذهبي وسياسي فالصراع قائم بين الموالي والعرب والفرق والطوائف الدينية التي اكتض بها العصر وكل يجادل عن معتقده ويرى أنه على الصواب، وقد كثر هجاء القادة وبعض الخلفاء والوزراء الذين انغمسوا في لهوهم وحرصوا على دنياهم على حساب دينهم.

ومن أهاجي العصر ما تعرض له الخليفة العباسي الأمين، فقد عاب عليه الشعراء لهوه وباطله ومجونه رغم أنهم لم يصرحوا بأسمائهم لخوفهم من بطشه وفتكه، يقول أحد أولئك المجهولين بمناسبة مبايعة الأمين لابنه موسى هاجبا الخليفة وبطانته الفاسدة⁽³⁾:

| | |
|------------------------|--------------------------|
| أضاع الخلافة غش الوزير | وفسق الإمام وجهل المشير |
| فضل وزير وبكر مشير | يريدان ما فيه حتف الأمير |
| لواط الخليفة أعجوبة | وأعجب منه خلاق الوزير |
| وأعجب من ذا وذا أننا | نباع للطفل فينا الصغير |

لقد حمل هذا النوع من الهجاء همّ الأمة من خلال زجر الخليفة عن الغي والضلال وتفريعه على اقترافه لتلك الأفعال المشينة، وذلك يشكل طرازاً جديداً في بناء القصيدة الهجائية في ذلك العصر.

(1) - ابن رشيقي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1/ص: 121.

(2) - شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثانية، 1975م، ص: 21.

(3) - انظر الطبري، تاريخ الملوك والأمم، ج8/ص: 389، والجهشياري، الوزراء والكتاب، ص: 293.

والظاهر أن جذوة الهجاء زادت اشتعالاً خلال العصر العباسي الأول نتيجة تلاقح العرب بغيرهم من الأمم والحضارات الأخرى، حتى لنرى الشاعر ينسلخ من الحياء ويلهج بألفاظ سوقية بخسة لا يلقي لها بالاً، فيتهم من يعاديه بالزندقة مرة وبالفجور والخنا أخرى، وقد اشتهر بهذا اللون الهجائي اللاذع حماد عجرد وبشار خاصة، إذ يهجو حماداً متهما إياه بالفجور والإلحاد بألفاظ صريحة قاسية مبتذلة، فيقول⁽¹⁾:

ما ذاك يا عجرد بيت الخمار
رفيق فساق ومأوى دعار
عار من الدين وليس بالعار

ونجد من هذه الألوان الهجائية التي أضافت جديداً في بناء القصيدة الكثير من الأبيات التي لا يتورع قائلوها عن صب وابل من السباب والشتائم والألفاظ القبيحة على المهجوع، حتى ليروى عن بشار أنه بكى لأبيات مؤلمة لازعة هجاه بها حماد عجرد، ومنها⁽²⁾:

| | |
|--------------------|------------------|
| وأعمى يشبه القرد | إذا ما عمي القرد |
| دنئ لم يرح يوماً | إلى مجد ولم يغد |
| ولم يحضر مع الحضيا | رفي خير ولم ييد |
| ولم يخش له ذم | ولم يرج له حمد |

وقد استمد حماد عجرد ذلك الهجاء من بيئته فقد: "أتاه من باب جديد ألهمته به الحضارة، وما يأخذ به أهل الحضارة أنفسهم من النظافة والتعطر، فوصفه بالقذارة والدنس في أبيات لعلها كانت أشد إيلاماً وأوجع وخزاً لنفسه من الأبيات السابقة إذ يقول⁽³⁾:

| | |
|--------------------------|------------------------|
| نهاره أخبث من ليله | ويومه أخبث من أمسه |
| وليس بمقلع عن غيه | حتى يوارى في ثرى رمسه |
| والله ما الخنزير في نتته | بربعه في النتن أو خمسه |

وتجدر الإشارة إلى أنه لم يستفد شاعر من بيئته الحضرية، مثلما استفاد أبو نواس في هجائه اللاذع لصور من طبقات مجتمعه، كالمغنين وبعض البخلاء وغيرهم...، فمن ذلك هجاؤه لمغن ثقيل اسمه زهير، يقول⁽⁴⁾:

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| قل لزهير إذا اتكا وشدا | أقلل أو أكثر فأنت مهذار |
| سختت ومن شدة البرودة | حتى صرت عندي كأنك النار |
| لا يعجب السامعون من صفتي | كذلك الثلج بارد حار |

(1) - ديوان بشار بن برد، ج3/ص: 242.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج14/ص: 210، 211.

(3) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 168، والأصفهاني، الأغاني، ج14/ص: 212.

(4) - ديوان أبي نواس، ج2/ص: 82.

هكذا يفيد أبو نواس من ثقافة عصره في تقديم هذه الصور الفلسفية فيصور ذلك المغني الثقيل في بروده وثقله حتى صار على السمع والقلب أسخن من النار، وإذا كان الإنسان لا يطيق الثلج، فكذلك حاله مع النار وهو من التصوير الجميل المبتكر الذي ينم عن عقلية حضارية مرهفة الذوق والإدراك.

وقد وصل الحد بالشاعر العباسي الى هجاء أصدقاءه وجيرانه وأقاربه، بل ربما هجا زوجته كما فعل أبو دلالة تطرفاً واستخفافاً وطمعاً في عطاء الخيزران والدة هارون الرشيد، عندما قال (1):

| | | |
|---------------------|---|-------------------|
| ليس في بيتي لتمهية | — | د فراشي من قعيده |
| غير عفاء سألها عجوز | | ساقها مثل القديده |
| وجهها أقبح من حو | | ت طري في عصيده |

وبصورة عامة نجد أن الهجاء الجدي تكثر فيه الألفاظ الجزلة القوية والمعاني المباشرة الواضحة، بينما الهجاء الساخر يقوم على الألفاظ السهلة المنتقاة من قاموس العامة ومعانيه، وكذلك صورته التي تعد دخيلة على المجتمع العربي، أما معانيه فخفية خبيثة لا تصل إلى الأفهام إلا بعد تدبر وتفهم.

وكلا النوعين فيهما كثير من المعاني الدينية والتصاوير القرآنية وهو أمر متوقع ولا سيما حين نتذكر أن خلافة بني العباس قامت على أساس ديني أكثر منه سياسي وكأن الشعراء قد تأثروا بذلك فصاروا ينسبون الصفات الخارجة عن الدين لخصومهم رغبة في استثارة المجتمع العباسي عليهم، إلا أن ذلك لا يخفي ما وقع فيه الشعراء وغيرهم من الاستخفاف بالمعاني الدينية واتخاذها وسيلة خبيثة للنيل من خصومهم.

د- المدح :

ظلَّ العباسيون ينظمون في الأغراض القديمة التي كان ينظم فيها الجاهليون والإسلاميون، ومع التقدم العقلي الخصب، والذوق المتحضّر المرهّف سرى التجديد في الشعر العباسي.

وأبرز الأغراض التي جدد فيها العباسيون غرض المدح الذي يعد فناً من فنون الشعر الغنائي، يقوم على عاطفة الإعجاب، ويعبر عن شعور - اتجاه فرد من الأفراد أو جماعة أو هيئة - ملك على الشاعر إحساسه، وأثار في نفسه روح الإكبار والاحترام لمن جعله موضع مدحه.

(1) - انظر الأصفهاني، الأغاني، ج10/ص: 208.

وفي هذا الفن من الشعر تعداد للمزايا الجميلة ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا وعرفوا مثل تلك الصفات والشمائل⁽¹⁾.

لقد عرف فن المديح في العصر العباسي الأول ظهور اتجاهين شعريين متباينين:

- الأول: ينهج نهج القدماء ويسلك طريقته.
- والثاني: يحاول الظهور بنهج شعري جديد مختلف يُعبّر عن عصره ومشاعر أصحابه. ونعني بالاتجاه القديم المحافظة على طريقة القدماء في نظم الشعر، حيث يقوم الشاعر بنظم قصيدته بلغة وصور مستمدة من النموذج الجاهلي القديم، محاكيًا إياه محاكاة تامة.

وكان لعلماء اللغة تأثير في دفع الشعراء إلى النظم على طريقة القدماء، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلي والإسلامي، ووضعوا لهم قواعد يسرون عليها، وكأنهم بهذا الصنيع يريدون من الشعراء ألا يزيغوا عن ذلك النهج، بل إنهم عكفوا طوال العصر على ترسيخ مبدأ هام مفاده أن الشعر القديم هو المثل الذي يجب الاحتذاء به؛ ولعلّ هذا ما دفعهم إلى إسقاط كثير من شعر المحدثين لا لسبب إلا لكونه جديدًا، خرج عن النهج الشعري القديم الذي يتمسك به اللغويون تمسكًا شديدًا.

ومن أصحاب هذا الاتجاه مروان بن أبي حفصة الذي يقول في مدح المهدي⁽²⁾:

| | |
|-------------------------------------------------|---------------------------------------------------|
| أَعَادَكَ مِنْ ذِكْرِ الْأَحَبَّةِ عَائِدُ | أَجَلٌ وَإِسْتَخْفَتَكَ الرُّسُومُ الْبَوَائِدُ |
| تَذَكَّرْتَ مَنْ تَهَوَّى فَأَبْكَكَ ذِكْرُهُ | فَلَا الذِّكْرُ مُنْسِيٌّ وَلَا الدَّمْعُ جَامِدُ |
| تَجُرُّ وَيَأْبَى أَنْ يُسَاعِدَكَ الْهَوَى | وَاللَّمُوتُ خَيْرٌ مِنْ هَوَى لَا يُسَاعِدُ |
| أَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَجَادِبْتَ | بِنَا الْأَيْلِ خَوْضٌ كَالْقَسِيِّ شَوَارِدُ |
| يَمَانِيَّةٌ يَنْأَى الْقَرِيبُ مَحَلَّةٌ | بِهِنَّ وَيَدْنُو الشَّاحِطُ الْمَتَاعِدُ |
| إِلَى مَلِكٍ تَنْدَى إِذَا يَبِسَ الثَّرَى | بِنَائِلٍ كَفَيْهِ الْأَكْفُفُ الْجَوَامِدُ |
| لَهُ فَوْقَ مَجْدِ النَّاسِ مَجْدَانِ مِنْهُمَا | طَرِيفٌ وَعَادِيٌّ الْجَائِثِيمِ تَالِدُ |
| كَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا | لِرَأْفَتِهِ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ |
| عَلَى أَنَّهُ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ مِنْهُمْ | سَقَتُهُ بِهِ الْمَوْتَ الْحَتُوفُ الْقَوَاصِدُ |

وتعد هذه الأبيات النموذج الأمثل للقصيدة العباسية التقليدية إذ يبدأها الشاعر بالوقوف على الأطلال وبكاء الأحبة بعد أن ثارت مشاعره الدفينة إثر رؤيته لما تبقى من آثارهم، فلا هو نسيهم واستراح من عذاب فقدهم ولا هو وصلهم فسعد بملاقاتهم، وفي هذه الحالة يكون الموت راحة للمحب اليائس.

(1) - انظر ناصيف إميل، أروع ما قيل في المديح، دار الجبل، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م، ص: 09.

(2) - ديوان مروان بن أبي حفصة، ص: 36، 37.

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف ناقته اليمانية الرشيفة التي يدنو بها البعيد والقريب فهي تقطع مسافات كبيرة بسرعة رهيبية.

ويعرج في الأخير إلى مدح خليفته، فيصفه بالملك الكريم الذي جمع بين طيب الأصل وعلو المكانة فهو لشدة رأفته برعيته كأنه والد لهم إلا أن ذلك لا يتعارض مع سلطته عليهم وأخذه على يد المخالف منهم ومعاقبته أشد العقاب.

وأول ما نلاحظه في هذه القصيدة هو احتذاء الشاعر بالفحول القدماء في منهجهم التقليدي، فهو قد بدأ بالمقدمة الطللية المعروفة ثم انتقل إلى وصف الرحلة والراحة قبل أن يدخل في موضوع القصيدة ألا وهو المدح، وقد جاءت ألفاظه جزلة بدوية لم تؤثر فيها الحضارة كما في قوله: "الرسوم البوائد - خوص - القسي - الشاحط - عادي الجراثيم - تالد"، كما أن صورته مستوحاة من البيئة البدوية القديمة، ويتضح ذلك جليا في تصويره الأطلال القديمة والرسوم التي عفا عليها الزمن وتشبيهه النوق بالرماح في ضمورها وسرعتها، كما نجد أنه نعت الخليفة بصفات المدح التقليدية التي شملتها المدائح منذ القدم وهي: الكرم - المجد - الرأفة بالرعية - معاقبة المسيء.

ومن أبيات المدح التي عمد أصحابها إلى اتباع منهج القدامى، قول الحسين بن مطير⁽¹⁾ في مدح المهدي⁽²⁾:

| | |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَعَسَّفْتُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قُدَامَهَا مَا تَقَاذَفْتُ قَتَى هُوَ مِنْ غَيْرِ التَّخْلُقِ مَا جَدُّ عَلَا خُلُقُهُ خَلَقَ الرَّجَالَ وَخُلُقُهُ إِذَا شَاهَدَ الْقَوَادِ سَارَ أَمَامَهُمْ وَإِنْ غَابَ عَنْهُمْ شَاهَدَتْهُمْ مَهَابَةٌ يَعْفُ وَيَسْتَحْيِي إِذَا كَانَ خَالِيًا | بِنَا الْبَيْدُ هُوَ جَاءَ النَّجَاءِ خُبُوبُ جِبَالُ بِهَا مُغْبِرَةٌ وَسُهُوبُ وَمِنْ غَيْرِ تَأْدِيبِ الرَّجَالِ أَدِيبُ إِذَا ضَاقَ أَخْلَاقُ الرَّجَالِ رَجِيبُ جَرِيءٌ عَلَى مَا يَتَّقُونَ وَثُوبُ بِهَا يَفْهَرُ الْأَعْدَاءُ حِينَ يَغِيبُ كَمَا عَفَّ وَاسْتَحْيَا بِحَيْثُ رَقِيبُ |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

استهل الشاعر قصيدته بوصف ناقته التي قطعت به الصحراء بسرعة وطيش كالذي يسير على غير هدى، وكيف أن هذه الرحلة كانت شاقة متعبة رأى فيها الأهوال، ثم مدح الخليفة بالمجد وحسن الخلق، الحلم والسطوة والمهابة والإقدام والشجاعة والحياء والتقوى، وهي في مجملها صفات تقليدية، مدح بها الملوك منذ القدم.

(1) - هو الحسين بن مطير بن مكمل، مولى لبني أسد بن خزيمه، ثم لبني سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد، وكان جده مكمل عبداً، فاعتقه مولاه، وقيل بل كاتبه، فسعى في مكاتبته حتى أداها وأعتق، وهو من مخزومي الدولتين الأموية والعباسية، شاعر متقدم في القصيد والرجز، فصيح، قد مدح بني أمية وبني العباس، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج16/ ص: 14.
(2) - المصدر نفسه، ص: 18.

وقد وردت هذه الأبيات مقطوعة، فلا ندري إن كانت قد بدأت بالمقدمة الطللية أم لا ولكننا نرى أنها مطابقة للاتجاه التقليدي المعروف سواء من حيث الأسلوب القديم وتنوع الموضوعات (وصف الرحلة والراحلة - ثم مدح الخليفة) أو من حيث الألفاظ (تعسفت - البيد - هوجاء - النجاء - خبوب - سهوب) أو من حيث الصور والتشبيهات.

غير أن التحضُّر دفع شعراء العصر العباسي الأول إلى استحداث أسلوب مولّد جديد، وهو أسلوب يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية، ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال، يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية والنحوية، ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة.

ويؤكد مطيع بن إياس هذه النظرة في مدائحه التي يملؤها بالألفاظ السهلة والتراكيب العابرة مبتعداً عن قسوة الألفاظ وغرابتها ووعورة التركيب وجلافته نافرماً من المقدمات الطللية، فنراه يبدأ بالمديح مباشرة دون مقدمات، في مدحه لمعن بن زائدة في قصيدته التي أولها(1):

| | |
|--------------------------|------------------------------|
| أهلاً وسهلاً بسيد العرب | ذي الغرر الواضحات والنجب |
| فتى نزار وكهلها وأخي الـ | جود حوى غايتيه من كذب |
| قيل أتاكم ابو الوليد فقا | ل الناس طراً في السهل والرحب |
| أبو العطاء الذي يلوذ به | من كان ذا رغبة وذا رهب |

وهكذا يسهب الشاعر في وصف معن بن زائدة بأسلوب قريب وألفاظ واضحة في رشاقة موسيقية وصور مليحة، صاغها على بحر المنسرح، بحر الليونة الذي يعشقه المجتمع المتحضر.

وإذا كان مطيع قد تزعم هذه الدعوة في بنية القصيدة فإنه لم يكن فريد عصره بل تسابق أقرانه من الشعراء إلى ذلك الواقع المدني والتحضر العصري، بل إن منهم من تعدها وفاقه في ذلك حتى وصل إلى درجة التهكم والسخرية من بنية قصيدة الشاعر القديم ووصفه لمجتمعه البسيط.

وهذا حماد عجرد وهو من هو، في المجون واللهو، ينظم قصيدة مدح في الوزن البسيط وهو من الأوزان التقليدية التي تصلح لهذا الغرض، ومع ذلك فإنه قد اختار أسلوباً رقيقاً ومعان طريفة ومفردات عذبة رشيقة لا تتأتى إلا لشاعر قوي قد وظف تراثه المكتسب عن الأسلاف مع خياله المعاصر في استلهاهم تلك البنية الحضارية الجديدة، إذ يقول مشبهاً ممدوحه محمد بن أبي العباس السفاح(2) بالشجرة الطيبة(3):

(1) - الأصفهاني، المصدر السابق، ج13/ص: 227.

(2) - هو محمد بن أبي العباس السفاح، كان شديداً، قوياً، جواداً، ممدحاً، كان يلوي العمود ثم يلقيه إلى أخته ربطة فترده، انظر المصدر نفسه، ج14/ص: 243.

(3) - المصدر نفسه، ص: 244.

يا أكرم الناس أعرافاً وعيدانا
وأنضر الناس عند المحل أغصانا
لمج عودك فينا المسك والباننا

أرجوك بعد أبي العباس إذبانا
فأنت أكرم من يمشى على قدم
لو مج عود على قوم عصارته

ويعلق الشاعر رجاءه بممدوحه بعد فراق والده وانقضاء حياته، فيشبهه بتلك الشجرة الطيبة ذات الأصول الراسخة، جدعها ثابت في الأرض وأغصانها تبلغ عنان السماء لتؤتي أكلها كل حين بإذن خالقها، للدلالة على عراقة أصل الخليفة وطيب نسبه ولطفه وجوده.

ومن أشعار المديح التي اكتست طابع التجديد في العصر العباسي قصيدة أبي العتاهية التي يقول فيها مادحا الخليفة المهدي⁽¹⁾:

| | |
|---------------------------------------|--------------------------------------|
| أدلت فأحمل إدلالها | ألا ما لسيدتي مالها |
| جَنَيْتُ سَقَى اللّهُ أَطْلَأَهَا | وَالْأَفْهِيمَ تَجَنَّتْ وَمَا |
| مَ قَدْ أُسْكِنَ الحُبُّ سِرْبَالَهَا | أَلَا إِنَّ جَارِيَةَ لِإِلِمَا |
| تُجَاذِبُ فِي المَشْيِ أَكْفَالَهَا | مَشَّتْ بَيْنَ حورِ قِصَارِ الخُطَا |
| وَأَتَعَبَ بِالأُومِ عُدَّالَهَا | وَقَدْ أَتَعَبَ اللّهُ نَفْسِي بِهَا |
| سَاكَتْ مِنْ الأَرْضِ تِمثالَهَا | كَأَنَّ بَعِينِي فِي حَيْثَمَا |
| إِلَيْهِ تَجْرُرُ أذْيَالَهَا | أَتَتْهُ الخِلافةُ مِنْقَادَةً |
| ولم يك يصلح إلالها | فلم تك تصلح إلاله |
| لزلزلت الأرض زلزالها | ولو رامها أحد غيره |
| لما قبل الله أعمالها | ولو لم تطعه بنات القلوب |
| إِلَيْهِ لِيُبَغِضُ مَنْ قَالَهَا | وَإِنَّ الخَلِيفَةَ مِنْ بُغْضِ لا |

وتعد هذه القصيدة من أشهر المدائح التي قيلت في المهدي، إذ بدأها الشاعر بالغزل الرقيق المطبوع بطابع المدنية، فعلى الرغم من ذكر الشاعر للأطلال إلا أن الأبيات لا تمت للشعر التقليدي بصلة، فالأساليب والألفاظ في غاية السهولة والوضوح ومقتبسة من قاموس اللغة الدارجة التي يستعملها العامة (سيدتي - أدلت - جارية - الإمام - حور..)، والصور والأخيلة هي بلا شك مستقاة من البيئة الحضرية الجديدة (شبه الخلافة بجارية ذليلة تنقاد إليه وتجر أذيال الخضوع والاستسلام)، كما أن التوزيع الإيقاعي للأبيات يجعل موسيقاها مطربة للأسماع.

(1) - ديوان أبي العتاهية، ص: 375.

كما احتلت الظاهرة الإسلامية مكاناً بارزاً في قصيدة المديح وبخاصة مدح الخلفاء والوزراء بل كان الخليفة يدعو إلى ذلك على صورة لم نعهدها من قبل، فقد روى ابن المعتز أن الشعراء اجتمعوا يوماً بباب الرشيد فسألوا الإذن فلم يأذن لهم ثم بدا له، فقال للحاجب: اخرج إليهم فقل لهم: من اقتدر أن يمدحنا بالدين والدنيا في ألفاظ قليلة فليدخل فبادر ابن أبي السعلاء⁽¹⁾ فاستأذن فقال للحاجب: أدخله، فأدخله فقال له الرشيد: أنشدني قولك⁽²⁾:

| | |
|--------------------|----------------------|
| أغيثاً تحمل الناقل | ة أم تحمل هاروننا |
| أم الشمس أم البدر | أم الدنيا أم الديننا |
| ألا بل أرى كل الـ | ذي عدته مقروننا |
| على مفرق هارون | فداه الأدميوننا |

ومن أهم ما نلاحظه هنا، هو أن معظم شعراء الاتجاه التجديدي هم من شعراء الجيل الجديد الشاب الذي لم يعايش الحضارة العربية البدوية التي كانت تغلب بطابعها على حياة المجتمع الأموي، فكانوا أصغر سناً من أن يتأثروا بها، ولما فتحوا أعينهم على الحياة وجدوها على الصورة العباسية الحديثة المتحضرة، والتي شاعت فيها حياة الترف ومظاهر الحضارة والثقافات الأجنبية التي لم تعرف من قبل فكان من البديهي أن يقوم جيل الشعراء الشباب بثورة على الاتجاه التقليدي، بينما نجد أن معظم شعراء الاتجاه التقليدي هم من جيل المخضرمين الذين عاشوا فترة طويلة في ظل الدولة الأموية العربية الخالصة فوقعوا في الحيرة بين ترك القديم الأصيل لنيل رضا الشريحة الأكبر في المجتمع العباسي أو بين التمسك بالمستحدث لنيل رضا النقاد وشعراء الجيل الجديد.

هـ - الرثاء:

عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كانوا جميعاً "رجالاً ونساءً" يندبون موتاهم، كما كانوا يقفون على قبورهم يكيلون لهم ألواناً من المديح مركزين على الثناء عليهم من خلال محامدهم ومناقبهم وفي كثير من الأحيان يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وعجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وهم يدركون أن ذلك مصير محتوم.

والرثاء غرض شعري يعبر فيه الشاعر عن تجربة الحزن والأسى والتفجع واللوعة لفقدان ما هو عزيز محبب إلى النفس، وهو بكاء الأهل والأقارب والأصحاب حين يعصف بهم الموت، وبعبارة أخرى هو "النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة"⁽³⁾.

(1) - هو عمر بن سلمة، المعروف بابن أبي السعلاء، شاعر هارون الرشيد المشهور، أشعاره كثيرة، وهو من فحولة المحدثين المجيدين، انظر ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج 1/ص: 150.

(2) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3) - شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، الطبعة الثالثة، دون تاريخ، القاهرة، ص: 12.

وقد نشط فن الرثاء في العصر العباسي الأول، وتميزت قصائد رثاء الخلفاء والأبطال بغلبة طابع الحماسة والقوة والتمجيد عليها لتضرم الحمية في نفوس الشباب للدفاع عن الحمى حتى الموت، كما ظهرت ضروب جديدة من الرثاء لم تكن معروفة من قبل كرثاء المدن والممالك حين تنزل بها كوارث الغزو والنهب والحرق والتخريب.

والحريّ بالذكر أن الشعراء العباسيين قد نظموا مراثيهم تلك في أساليب سهلة بسيطة بعيداً عن معاني التأبين الجاهلي، مبتعدين عن أساليب التعازي البدوية، كما صاغوا قصائدهم على أنغام وأوزان قصيرة نلمح فيها الشجن والحزن، مستخدمين فيها اللغة اليومية الدارجة، وبالمناسبة فقد نهجوا الطريق ذاته في كافة أغراضهم الشعرية المعروفة.

ويظهر هذا الأسلوب السهل والمفردات القريبة والتشبيه الرقيق في مراثيه أبي دلامة للسفاح التي أبكت الناس في قوله (1):

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| أمسيت بالأنبار يابن محمد | لا تستطيع إلى البلاد تحويلا |
| ويلي عليك وويل أهلي كلهم | ويلا يكون إلى الممات طويلا |
| مات الندى إنمت يابن محمد | فجعلته لك في التراب عديلا |
| إنني سألت الناس بعدك كلهم | فوجدت أسمح من رأيت بخيلا |
| الشقوي أخرت بعدك للذي | يرع السمين من العيال هزيلا |

ويتضح من الأبيات السابقة أن للسفاح أياد سابعة على الشاعر، لذلك نجد أن أبا دلامة كان يمجده لذلك فحسب، لا لذات السفاح وكفاحه وحنكته وسياسته، وهو ما قلل من قيمة الجو النفسي المعمول به عادة في أغلب المراثي التي تظهر العاطفة الصادقة، فقد غلبت عليها ظاهرة الاستجداء وطروق المسألة، ويظهر ذلك جليا في البيت الأخير الذي يتمنى فيه الشاعر الموت بعد السفاح مباشرة لا لشيء إلا لانقطاع العطاء والنوال عنه بعد ممدوحه؛ ولذا غضب منه أبو جعفر المنصور وهم بقطع لسانه، دلالة على أن عاطفة الشاعر لا تناسب قامة وقيمة الممدوح (2).

إن الإنسان ما انفك عرضة لسهام الموت، وحبائل الردى، تنصبها الأقدار هنا وهناك، فإذا الطعنة تصيب منه القتل، وإذا السهم لا يخطئ هدفه، ومن لم يعدم نفيسا في هذه الدنيا، كان هو الممدوم دون النفيس.

وكما هو معروف لدى بني آدم، فإن على فراق المؤلف حرقه لا تدفع، ولوعة لا ترد، وما يتفاضل الناس إلا بصحة الفكر وحسن العزاء وجميل الذكر، ومن ثمة فإن الرثاء القائم على أساس اللوعة والحزن والندب هو من أغزر شعر الرثاء، وأصدقه عن الحس والشعور، ولذلك كانت المراثي أشعر الأشعار، لأن أصحابها يقولونها وقلوبهم تحترق فهذا

(1) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 54.

(2) - انظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

إسماعيل بن عمار⁽¹⁾ فقد ابنه فعلاً نحيبه واشتد حزنه وجزعه، وصار يخاطب الموت ويلومه ويعاتبه لأنه قصد ابنه دون غيره، وكأنه يحاكم إنساناً اعتدى عليه وظلمه إذ يقول⁽²⁾:

يا موت مالك مولعاً بضراري
تعدو علي كأنني لك واتر
نفس البعيد إذا أردت قريبة
والمرء سوف وإن تطاول عمره
لماعلا عظمي به فكأنه
فجعتني بأعز أهلي كلهم
هلا بنفسي أو ببعض قرابتي
وتركت ربتي التي من أجلها
إني عليك وإن صبرت لزار
وأول منك كما يؤول فراري
ليست بناجية مع الأقدار
يوماً يصير لحفرة الحفار
من حسن بنيتي قضيب نزار
تعدو عليه عدوة الجبار
أوقعت أو ما كنت للمختار
عفت الجهاد وصرت في الأوصار

وقد جاءت مرثية إسماعيل بن عمار في صورة حوارية يجادل فيها الموت ويناقشه ويلومه على انقضاضه على فلذة كبده وأغلى الناس عنده بدون استئذان، مسائلاً الموت عن سبب تلذذه بتعاسة الآخرين، ومؤكداً على استمرار غضبه رغم احتسابه وصبره، ثم لا يلبث أن يسلم لحقيقة واقعة وسنة ماضية، وهي الأجل، فلا نجاة إذا حل القدر، ولئن عمر الإنسان قليلاً أو كثيراً فإن المصير هو الموت لا محالة.

أما من مرثي أشجع السلمي قصيدة ينعي فيها صديقاً له ويجسد في مرثيته هذه خصلة واحدة ويركز عليها وهي الجود والكرم الذي كان يتمتع به الفقيد، وبمجرد أن اخترمه الموت انقطع الجود عنه وعدا البخل عليه، إذ يقول⁽³⁾:

أنعى فتى الجود إلى الجود
أنعى فتى أصبح معروفه
أنعى فتى مص الثرى بعده
قد تلم الدهر به ثلثة
ما مثل من أنعى بموجود
منتشراً في البيض والسود
بقية الماء من العود
جانبها ليس بمسدود

إلى أن قال:

الآن نخشى عثرات الندى
وعدوة البخل على الجود

(1) - هو اسماعيل بن عمار بن عينية بن طفيل الأسدي، شاعر مقل، مخضرم، من شعراء الدولتين الأموية والهاشمية، كان ينزل الكوفة، توفي سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج1/ص: 320، والأصفهاني، الأغاني، ج11/ص: 245.

(2) - المصدر نفسه، ج11/ص: 247.

(3) - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2/ص: 871.

ومن جديد الرثاء في هذا العصر رثاء المدن، ذلك أن علاقة الإنسان بالتحضر والإقامة بالمدن وعمارتها والتنافس في شق ترعها وزرع بساطينها وبناء قصورها وزخرفتها لم يتأكد وجوده إلا في العصر العباسي في صورة مدنية وهيئة حضارية، وخاصة في بغداد، غير أنه حدث بعد هذا التأنق أن حل بها الدمار والخراب نتيجة للحرب العمياء بين الأمين وأخيه المأمون⁽¹⁾، فنشط هذا النوع من الرثاء واشتدت جذوته.

ومن الطبيعي أن تتغير في هذا النوع الجديد من الرثاء الصورة الشعرية والبنية التركيبية للقصيدة تبعاً للعاطفة الصادقة ولهفة الحرقلة لما حل بالوطن الجميل من دمار وتشريد، ومن أمثلة تلك المراثي ما استنكره عمرو الوراق⁽²⁾ من ضرب بالمجانق وحرق وسرقة ونهب وفوضى عمت بغداد⁽³⁾:

| | |
|-------------------|--------------------|
| يا رُمّة المنجنيق | كلكم غير شُفّيق |
| ما تُبالون صديقاً | كان أو غير صديق |
| ويلكم تدرون ما تر | مُون مَرّار الطريق |
| رُب خـود ذات دل | وهي كالعُصن الوريق |
| أخرجت من جوف دنيا | ها ومن عيش أنيق |
| لم تجد من ذاك بدأ | أبرزت يَوم الحريق |

لقد أحسن الشاعر تصوير تلك الأحداث المهيبة التي عصفت ببغداد أيام الفتنة الحاصلة بين الأمين والمأمون، إذ عمت الفوضى أرجاء المدينة وذعر الناس بسبب أصوات المنجنيق وقذائفه العشوائية، التي كانت تلاحقهم إلى عقر ديارهم لا تميز عدواً من صديق .

كما عكست الأبيات السابقة رهف العيش في مدينة بغداد والكواعب المترفات اللاتي يشبهن الغصون الناعمة قد أخذهن الهلع والجزع، يتخبطن فراراً من الموت ولهب النيران والحرائق.

ومعجم هذه المراثية الشعري بسيط سلس، ذو طابع حضاري سهل البناء، لذلك صيغ على وزن قصير راقص، يظهر فيه اللوم والغضب إزاء التصرف المشين الذي تسبب في هدم وإتلاف معالم بغداد الحضارية.

(1) - انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 445، 446، 447.

(2) - هو عمرو بن عبد الملك الوراق مولى عنزة، شاعر ماجن رشيد، له شعر كثير في حرب محمد والمأمون، وأصله بصري، وهو أحد الخلعاء المجان، وله مع أبي نواس أخبار، انظر المرزباني، معجم الشعراء، ج1/ص: 218.

(3) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 446.

ويروي الطبري في السياق ذاته أن الحسين بن الضحاك وصف تلك الفتنة فقال: "لما تولى طاهر البستان بباب الأنبار دخل الأمين أمر عظيم، وتفرق ما كان في يده من الأموال وضاق ذرعاً، فأمر ببيع ما في الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم وحملها إليه وأمر حينئذ برمي الحربية بالنفط والنيران والمجانيق والعرادات يقتل بها المقبل المدبر"⁽¹⁾، ومن رثائه لبغداد قوله⁽²⁾:

| | |
|----------------------------|------------------------|
| ألم تر الفتنة قد ألفت | إلى أولي الفتنة شذاذاً |
| وانتقضت بغداد عمرانها | عن رأي لاذك ولا هـذا |
| هدماً وحرقاً قد أبيد أهلها | عقوبة لاذت بمن لاذا |

وبصورة عامة نجد أن الرثاء يختلف باختلاف مكانة المرثي من الشاعر، فإذا كان الفقيد من الأسرة المالكة أو من علية القوم، لمحنا ضروب المبالغة في تعداد صفاته الحسنة مع زيادة جرعة المواساة والتعزية والتأكيد على المصير الحسن، فهو من أهل الجنة !!

أما إذا كان المرثي شخصاً مقرباً أو موطناً محبباً إلى قلب الشاعر، فنجد أن العاطفة الصادقة هي التي تسيطر على القصيدة، كما تقل عبارات المواساة وكأن الشاعر يرى أن تلك المواساة لن تخفف عنه هول ما يقاسيه من حزن وألم، فكل تعازي العالم لن تعوضه عن فقده.

و- الزهد:

إن الزهد الذي حث عليه الدين الحنيف هو أن تكون الدنيا في يد الإنسان لا في قلبه، فيتحكم بها وليس العكس، فينفق ويجود ويعطي، مصداقاً لقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى، الذي يؤتي ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى}⁽³⁾.

وليس الزهد إعراضاً عن الدنيا في كل الحالات، وهو أيضاً ليس انسحاباً من المجتمع، وإقبالاً على الخلوات والفلوات والزوايا وحبس النفس فيها، فذاك زهد النصارى لا المسلمين، يؤيد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي"⁽⁴⁾.

(1) - الطبري، المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(2) - المصدر نفسه، ج8/ص: 447.

(3) - سورة الليل، الآية: 17-21.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، حديث: 2965، ج4/ص: 2277.

وورد عن سفيان الثوري أنه قال: " ليس الزهد في الدنيا بلبس الغليظ والخشن، وأكل الجشب - أي الطعام الغليظ - إنما الزهد في الدنيا قصر الأمل" (1)، والمقصود بقصر الأمل هنا أن يكون الإنسان واقعياً في سلوكه، وأن ينهض بمسئوليته الكاملة اتجاه الخالق والمخلوقين.

واشتهر شعر الزهد في العصر العباسي الأول بشكل ملفت، ذلك أنه جاء في الأصل رداً على تيار اللهو والمجون، والعيش الترف وانتشار الخمر ومجالس الغناء، حيث قامت طائفة من الشعراء بالتصدي لهذه التيارات باستعمال غرض جديد هو الزهد، فكانت قصائدهم داعية إلى التوبة والرجوع إلى الله، ونبذ هذه الظواهر. والملاحظ أن الزهد صيغ بلغة سهلة قريبة من أفهام الناس حيث اجتنب ناظمه الغريب والبعيد المستعصي على الفهم، لأن صعوبة التعبير تولد النفور في النفوس وبذلك تنتفي الفائدة منه.

وأول من يرد في باب الزهد في العصر العباسي الأول أبو العتاهية، فلقد كان على رأس الاتجاه الإيجابي في العصر العباسي الأول، إذ كثر هذا الغرض في شعره، بل وانقطع له لا يقول في غيره من الأغراض في سائر أيام عمره، ومن زهدياته قوله (2):

أَرَى الدُّنْيَا لَمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كَلَّمَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهَيِّنُ المُّكْرِمِينَ لَهَا بِصُغْرٍ وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
إِذَا اسْتَعْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ، فَدَعَهُ وَخِذْ مَا أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ

لقد تعرضت الأبيات السابقة إلى اشتغال الناس بالدنيا وافتتانهم بها حتى بلغوا حد الطمع فلم يكتفوا بما تقدمه، فما كان منها إلا أن جرت عليهم الأهوال والعذاب، وهي المعروفة بغدورها وإعراضها عن طالبيها، بينما تقبل عن يدبر عنها ويزهد فيها، فعلى الإنسان أن يكتفي بحاجته الضرورية منها وألا يطمح للاستزادة من متاعها.

ومما ورد عنه في هذا الباب أيضاً قوله (3):

إِذَا المرء لم يعتق من المال رقه تملكه المال الذي هو مالكه
ألا إنما مالي الذي أنا منفق وليس لي المال الذي أنا تاركه
إِذَا كنت ذا مال فبادره بالذي يحق وإلا استهلكته مهالكه

(1) - الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1985م، ج3/ص: 1452.

(2) - ديوان أبي العتاهية، ص: 464، 465.

(3) - المصدر نفسه، ص: 317.

وفي هذه الأبيات حض الشاعر على الإنفاق وادخار الثواب عند الله تعالى، ومعناها متفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية التي تسعى إلى تحقيق الكفاية الاقتصادية للناس والأمن الغذائي بالقضاء على الفقر والجوع، مما يحقق تماسك المجتمع الإسلامي، وتعاقد أبنائه ونموه على جميع الأصعدة، وانمحاق كافة الجرائم التي تنجم عن شيوع الفاقة في الأمة، وهو ما يحقق هدف الدين الحنيف في التربية الاجتماعية السليمة، وإقامة المجتمع الإسلامي المتعاقد.

إن المعرفة الحقيقية للعالم ومصيرها تتحول عند الإنسان المسلم إلى سلوك إيجابي، يجعله يثور على الفقر، ويرفض سؤال الآخرين، وينشط للعمل بدلا من مذلة الاستكانة والاستسلام، ويسارع إلى تقوى ربه فيصبح راضي النفس في هذه الحياة، بعد ان استطاع الموازنة بين عقله وقلبه، وفي ذلك يقول بشر الحافي⁽¹⁾ - رحمه الله :-

| | |
|-------------------------|-------------------------------------|
| أقسم بالله لرضخ النوى | وشرب ماء القلب المالحه |
| أعزّ للإنسان من حرصه | ومن سؤال الأوجه الكالحه |
| فاستغن بالله تكن ذا غنى | مغتبطاً بالصفقة الرابعه |
| اليأس عزّ والتقوى سؤدد | ورغبة النفس لها فاضحه |
| من كانت الدنيا به برّة | فإنها يوماً له ذابحه ⁽²⁾ |

وقال الحسين بن مطير في الزهد⁽³⁾:

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| وقد تغدّر الدنيا فيضحى غنيها | فقيراً ويغني بعد بؤس فقيرها |
| فلا تقرب الأمر الحرام فإنه | حلاوته تقنى ويبيقى مريها |
| وكم قد رأينا من تغير عيشه | وأخرى صفا بعد كدار غديرها |

إن تغير حال المرء من الغنى إلى الفقر أو من الفقر إلى الغنى أمر وارد في أية لحظة وهو ما يجعل العبد متارجحاً بين الرجاء والخوف، لذلك ينصح الشاعر العبد الضعيف ألا يأمن مكر الدنيا ولكن عليه في الوقت ذاته ألا ييأس منها أيضاً، وتغير الحال قد يشكل ظاهرة اجتماعية مكرورة في العصر العباسي ولا سيما بين الشعراء الذين تفاوتت معيشتهم بحسب تمكنهم من صنعتهم.

(1) - هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزي، أبو نصر، المعروف بالحافي، ولد سنة خمسين ومائة للهجرة، أحد أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري، وهو من ثقات رجال الحديث، توفي ببغداد سنة سبع وعشرين ومائتين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج2/ص: 54، وابن كثير، البداية والنهاية، ج10/ص: 326.

(2) - ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج5/ص: 203.

(3) - انظر الأصفهاني، الأغاني، ج16/ص: 14.

وأخيراً فقد اتخذ الزهد في العصر العباسي الأول شكل ظاهرة واضحة، تعبيراً عن استنكار الناس للبذخ والفجور، والتكالب على الحياة المادية، وبروز ظواهر الزندقة والإلحاد، فانصرف الزهاد إلى زواياهم يتعبدون، وصار الزهد مدرسة تحمي الأخلاق، وتصون الدين، وترفع المعنويات⁽¹⁾.

ز- الشعر التعليمي :

ظهرت في الشعر العربي منذ بداية العصر العباسي الأول ظواهر جديدة، بعضها غريب عنه، اتخذ شكله والتبس به، ومن أهمها المنظومات التعليمية في مختلف ألوان المعرفة، وقد عدها بعض الباحثين فناً شعرياً مستحدثاً، ورآها آخرون انحرافاً في مسيرة الشعر العربي ومآخذاً عليه.

ولا بد من التنبيه على أن المنظومات العلمية تخالف المفهوم الحقيقي للشعر، هذا الفن الجميل الذي يحمل الأفكار والمشاعر بأسلوب ممتع ممزوج بالخيال والموسيقى، ولكنها تلتقي مع هذا المفهوم التقليدي القاصر الذي يذهب إلى أن " الشعر كلام موزون مقفى دال على المعنى"⁽²⁾.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الشعر التعليمي الذي نحن بصددته يهدف إلى تعليم الناس شؤون حياتهم المادية والمعنوية بطريقة مؤثرة وسهلة، إلا أن بعضهم خالفوه وعدوه منهجا صعبا للتعلم، ويأتي على رأس هؤلاء ابن خلدون حيث يقول في مقدمته " أن عددا كبيرا من المتأخرين ذهبوا إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم، يشتمل على حصر مسائله باختصار في الألفاظ، وصار ذلك مخلا بالبلاغة، وعسرا على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون بالتفسير والبيان، فاختصروها تقريبا للحفظ، كما فعله ابن الحاجب⁽³⁾ في الفقه وابن مالك⁽⁴⁾ في العربية والخونجي⁽⁵⁾ في المنطق وأمثالهم، وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدئ بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم، ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم

(1) - انظر محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1999م، ج1/ص: 511.

(2) - أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 64.

(3) - هو عثمان بن عمر بن أبي بكر الكردي، الشيخ الإمام، العلامة، المقرئ، الفقيه النحوي، ولد سنة سبعين وخمسائة للهجرة، سارت بتصانيفه الركبان، توفي سنة ست وأربعين وستمائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23/ص: 266.

(4) - هو محمد بن عبد الله بن مالك، جمال الدين، أبو عبد الله الطائي الجبالي الشافعي، ولد سنة إحدى وستمائة للهجرة، إمام النحاة وحافظ اللغة، من تأليفه الألفية في النحو، تسهيل الفوائد، توفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة للهجرة، انظر السيوطي، بغية الوعاة، ج1/ص: 130.

(5) - هو محمد بن نامور بن عبد الملك الخونجي، أبو عبد الله، الشافعي، ولد سنة تسعين وخمسائة للهجرة، كان حكيما، وقاضيا للفضاة، وله تصانيف في الطب والمنطق، توفي سنة ست وأربعين وستمائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23/ص: 228.

بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأنّ ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح عن الوقت"⁽¹⁾.

وقد أورد الفزاري⁽²⁾ في مزدوجته ما يعرفه من علم النجوم ليفيد به الناس، وليتفكروا في عظمة الخالق عز وجل، فخلط بذلك بين الهدف العلمي والهدف الديني، وهو أمر متوقع في تلك الحقبة، لأن الاشتغال بالعلوم الصرفة لم يكن قد تم بعد، ولذلك احتفظ بشيء من مسحة التعبير الشعري في أرجوزته التي يقول في أولها:

الحمد لله العلي الأعظم ذي الفضل والمجد الكبير الأكرم

الواحد الفرد الجواد المنعم

الخالق السبع العلى طباقا والشمس يجلو ضوءها الإغساقا

والبدر يملأ نوره الآفاقا⁽³⁾

غير أن معاصره عالم اللغة و النحو علي بن حمزة الكسائي⁽⁴⁾ افتتح مسيرة النظم في النحو بقصيدة أوضح فيها أهمية هذا العلم قائلاً فيها⁽⁵⁾:

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| إنما النحو قياس يتبع | و به في كل أمر ينتفع |
| فإذا ما أبصر النحو فتى | مرّ في المنطق مرّاً فاتسع |
| و إذا لم يبصر النحو فتى | هاب أن ينطق جينا فانقطع |
| فتراه ينصب الرفع و ما | كان من خفض ومن نصب رفع |
| يقرأ القرآن لا يعرف ما | حرّف الإعراب فيه و صنع |

والملاحظ أن أبيات الكسائي السابقة لا تحوي أي شاعرية ذلك أنه لم يصل إلى مرحلة النظم، فقد عبر عن مراده بطريقة مباشرة وواضحة للتدليل على أهمية علم النحو وقواعده، فيكون بصنيعه ذاك قد فتح باباً لعلماء النحو لينظموا مسائله وضوابطه في أراجيز شيقة ومفيدة.

(1) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج1/ص: 733.

(2) - هو إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة الفزاري، أبو إسحاق، من كبار العلماء، ولد في الكوفة وقدم دمشق، وحدث بها، وكان من أصحاب الأوزاعي ومعاصريه، توفي سنة ثمان وثمانين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج1/ص: 59.

(3) - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج5/ص: 2295.

(4) - هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي، أبو الحسن الكسائي، الكوفي، غمام في اللغة والفقه والقراءة، سكن بغداد وكان مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين، له تصانيف كثيرة منها: معاني القرآن، المصادر، الحروف، توفي سنة تسع وثمانين ومائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج4/ص: 283.

(5) - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج11/ص: 410.

ثم جاء أبان بن عبد الحميد اللاحقي، فنظم في أكثر من فرع من فروع المعرفة كالتاريخ والفقه والقصص، غير أن أهم عمل قام به هو نظمه لكتاب "كليلة ودمنة"، إذ يقول ابن المعتز في هذا الصدد: "هو الذي نقل كليلة ودمنة شعراً بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة، وهي هذه المزوجة التي في أيدي الناس... وهي قريبة من خمسة آلاف بيت"⁽¹⁾.

والحري بالذكر أن هناك رواية أخرى تجعل منظومة أبان في أربعة عشر ألف بيت⁽²⁾، ومنها قوله⁽³⁾:

| | |
|------------------------|-------------------------|
| هذا كتاب كذب ومحنه | وهو الذي يدعى كليل دمنه |
| فيه دلالات وفيه رشد | وهو كتاب وضعته الهند |
| فوصفوا آداب كل عالم | حكاية عن أسن البهائم |
| وهو على ذاك يسير الحفظ | لذ على اللسان عند اللفظ |

لقد نظم أبان اللاحقي كتاب ابن المقفع شعراً ليسهل حفظه ويزداد انتشاره بين الناس لما فيه من تثقيف للعقول وتهذيب للنفوس وشحن للأذهان في خيالات حيوانية مسلية تنبض بالحياة والحركة والنشاط.

أما بشر بن المعتمر⁽⁴⁾ فقد "نقل من الكتب من معاني شتى إلى الشعر"⁽⁵⁾، وله قصيدتان ذكرهما الجاحظ في كتابه "الحيوان"، في أثناء كلامه عن الحشرات وأصناف الحيوان والوحوش ومهد لهما بقوله: "إن له: - أي بشر بن المعتمر- في هذا الباب قصيدتين قد جمع فيهما كثيراً من الغرائب والفرائد، ونبه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة، والموعظة البليغة. وقد كان يمكننا أن نذكر من شأن هذه السباع والحشرات بقدر ما تتسع له الرواية، من غير أن نكتبها في هذا الكتاب، ولكنهما يجمعان أموراً كثيرة، أمّا أول ذلك فإن حفظ الشعر أهون على النفس، وإذا حفظ كان أعلق وأثبت، وكان شاهداً، وإن احتيج إلى ضرب المثل كان مثلاً"⁽⁶⁾.

والملاحظ أن الجاحظ قد تنبه إلى الغاية التعليمية لنظم ابن المعتمر والذي يعكس جانباً مشرقاً من جوانب الحضارة العباسية التي تحترم العلم والعلماء، إذ يقول في إحدى قصائده⁽⁷⁾:

(1) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 241.
(2) - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج7/ص: 47.
(3) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص: 46.
(4) - بشر بن المعتمر الهلالي البغدادي، أبو سهل، فقيه معتزلي، مناظر، من أهل الكوفة، له مصنفات في الاعتزال، توفي سنة عشر ومائتين للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج2/ص: 55.
(5) - ابن النديم، الفهرست، ج1/ص: 197.
(6) - الجاحظ، الحيوان، ج6/ص: 464.
(7) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

الناس دأبا في طلاب الغنى
كأذوب تنهشها أذوب
تراهم فوضى وأيدي سبا
وكلهم من شأنه الخثر⁽¹⁾
لها عواء ولها زفر
كل له في نفثه سحر

وتجدر الإشارة إلى أن نظم المتون المتعلقة بالتاريخ قد بلغت أوجها في العصر العباسي الأول، إذ ظهرت قصائد ومنظومات على قدر كبير من الأهمية، أبرزها "المحبرة في التاريخ" لعلي بن جهم⁽²⁾، وهي مزدوجة تجاوزت ثلاثمائة بيت، جعلها في جزأين، تناول في الأول بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء، أما الثاني فخصه لتاريخ الإسلام والخلفاء إلى أيامه، وقد استهلها بعد الحمد والصلاة بقوله⁽³⁾:

ياسائلي عن ابتداء الخلق
أخبرني قوم من الثقات
تقدموا في طلب الآثار
وفهموا التوراة والإنجيلا
أن الذي يفعل ما يشاء
أنشأ خلق آدم إنشأ
مسألة القاصد قصد الحق
أولو علوم وألو هيئات
وعرفوا حقائق الأخبار
وأحكموا التنزيل والتأويلا
ومن له العزة والبقاء
وقد منه زوجة حواء

ومن الواضح أن ابن الجهم يتكئ على مناهج العلماء في الإخبار فهو يهتم بالإسناد، ويستخدم ألفاظ العلماء في قوله "أخبرني والثقات"، ثم يذكر الحوادث التاريخية ابتداء بخلق آدم عليه السلام وانتهاء بالخلافة العباسية، أو إلى الزمن الذي عاش فيه، إذ يقول في خاتمة قصيدته⁽⁴⁾:

وكان في العشرين من ولايتها
فنحن في خلافة مباركة
فالحمد لله على إنعامه
ثم السلام أولاً وأخيراً
من آل عباس ومن حماتها
خلت عن الإضرار والمشاركة
جميع هذا الأمر من أحكامه
على النبي باطنياً وظاهراً

(1) - الخثر: العذر؛ خثر يخثر؛ فهو خائر، وخثر للمبالغة، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (خثر)، ج4/ص: 229.

(2) - هو علي بن الجهم بن بدر بن مسعود بن أسيد، وكنيته أبو الحسن وأصله من خراسان، ولد سنة ثمان وثمانين ومائة للهجرة، وهو شاعر مطبوع، عذب الألفاظ، سهل الكلام، مقتدر على الشعر، مدح المعتصم والوائق، وجالس المتوكل، وتوفي سنة تسع وأربعين ومائتين للهجرة، انظر المرزباني، معجم الشعراء، ص: 287.

(3) - علي بن جهم، الديوان، تحقيق خليل مروم بك، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ/1980م، ص: 157.

(4) - المصدر نفسه، ص: 250.

وابن الجهم في سرد أحداث التاريخ بهذه الصورة الموجزة إنما يسجل خلاصة هذه الأحداث وما هو مشهور منها، ولا شك في أن هذه الأرجوزة عظيمة القيمة في اختزالها الأحداث المشهورة منذ بدء الخلق وحتى زمنه، فذكر خلق آدم وحواء وإقامتهما في الجنة، ثم اغترارهما بإبليس وهبوطهما منها، ثم تحدث عن رحلتها في الحياة وإنجابهما، وخبر ولد آدم، وخبر الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى لبني آدم، وذكر شيئاً من أخبار الفرس والروم وأيام العرب قبل الإسلام، وفصل في تاريخ المسلمين بدءاً بحياة الرسول الكريم وانتهاءً بخلافة بني العباس.

ولاشك بعد هذا في أن المنظومات كانت حاجة دعت إليها أحوال العصر العباسي العلمية، فهي ليست كما يجمع الباحثون ناجمة عن تأثر العرب المسلمين بما شاع من نظوم في آداب الشعوب الأخرى فحسب، وإنما برزت هذه المنظومات نتيجة تحول طراً على الحياة الإسلامية منذ صدر الإسلام وحتى بداية العصر العباسي، ومن يستعرض النتائج الشعرية العربية الإسلامية خلال تلك الفترة يجد أن حركة الشعر عامة بدأت تتحرف شيئاً فشيئاً باتجاه النثر، وما إن انتهى الأمر إلى الأدباء العباسيين حتى وجدنا كثيراً من النقاد والمفكرين يدعون الشعراء إلى احتذاء أساليب النثر في أشعارهم، وهذا التحول إنما حدث بتأثير القرآن الكريم في النفوس كونه أقرب في صورته إلى النثر، ولهذا بدأ النقاد يعون تفوق الأشكال النثرية على الشعر، "ومما يدل على أن النثر أشرف من النظم أن الإعجاز من الله والتحدي من الرسول عليه السلام وقعا فيه دون النظم... فلما كان زمن النبي زمن الفصاحة والبيان، جعل الله معجزته من جنس ما كانوا يولعون به وبأشرفه، فتحداهم بالقرآن كلاماً منثوراً، لا شعراً منظوماً"⁽¹⁾.

ومن هنا نفهم دعوة بعض النقاد القدامى إلى احتذاء نماذج النثر ولاسيما الرسائل من حيث تدرج معانيها وحسن تتابعها وحلاوة إخراجها، ذلك: "أن للشعر فصولاً كفصول الرسائل فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المدح، ومن المدح إلى الشكوى... بألطف تخلص وأحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متصلاً وممتزجاً معه"⁽²⁾.

وهذا إنما هو إقرار لتقريب المسافة بين الشعر والنثر خاصة وبين الأدب والعلم عامة، لأن النثر هو وعاء العلم، ومن هنا انصاع قسم من الشعر من حيث موضوعاته ليستوعب جانباً من العلوم، وبذلك عبّر عن انتمائه إلى عصره قبل كل شيء، خصوصاً وأن السمة العلمية كانت غالبية على ملامح الحياة العلمية كما كانت غالبية على ملامح الحياة الإسلامية في العصر العباسي.

(1) - انظر المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م، ج1/ص: 17.

(2) - انظر ابن طيطبا، عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، دون طبعة وتاريخ، ج1/ص: 9.

والحقيقة التي لا مرأى فيها، أن شكل القصيدة قد تطور وسار في اتجاهين متقابلين، أولهما خلد القديم، وظل لصيقاً به، فتأثر بتراكيبه وموسيقاه وطول أبياته، أما ثانيهما فمال نحو الاختصار والإيجاز والشعبية في جميع ذلك حتى غدت القصيدة تسمى مقطوعة لقلّة أبياتها وخفتها، ولا يعزى ذلك إلى ضعف في ملكة الشاعر أو قريحته، بل هو يومئذ قوي مزود بثقافة واسعة لم يعرفها الشاعر القديم، وإنما هو نتاج لمتطلبات العصر وركب الحضارة، ولذا نجد في أشعارهم الجزل الفخم الذي يضاهي أشعار السابقين، ويبقى الفارق بين أولئك وهؤلاء مجسداً في جزئية "اللفظ"، ذلك أن المحدثين غيروا ظاهر الشعر ليضعوا الأفكار القديمة في قوالب جديدة.

لقد انطلق الشاعر العباسي من واقعه المعيش الذي عرف حياة حضرية تتوافق مع السرعة وتتلائم مع حركة الإنسان في بيئته الجديدة، فتناسبت مقطوعاته الشعرية التي لا تستهلك الكثير من وقت المتلقي مع إيقاع الحياة المترفة التي تختلف تماماً عن حياة الشاعر الجاهلي الموسومة بالسكينة والهدوء في عمومها، فلربما مرت الأيام والسنون وتغيرت الأحوال والشاعر قابع في مكانه لا يغادر قبيلته، ولعل ذلك من أهم الأسباب التي دفعت إلى إطالة قصائده، فكل من المبدع والمتلقي قد ألفا السكون وبطء الحركة، "ومما يدل بقوة على أن الشعراء في هذا العصر كانوا يريدون لأشعارهم أن تشيع في الشعب وأن تدور على ألسنته أننا نجدهم يكثرون في أشعارهم من صنع المقطوعات القصيرة، حتى يمكن حفظها بسرعة وتداولها بين الناس"⁽¹⁾.

(1) - شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، دون تاريخ، ص: 91.

المبحث الثاني : الألفاظ والتراكيب

إن الشكل هو وجه العمل الأدبي، ولهذا لا بد أن يكون جميلاً، لكي يجذب المتلقي إليه، ويكون بوابة ينفذ من خلالها إلى عالمه الفسيح.

وكما أجاد الأديب صياغة الشكل في أعماله الأدبية كان أثرها في النفوس عميقاً، ودلالاتها على مضمونها قوياً، والشكل في العمل الأدبي يضم الألفاظ والتراكيب، وأسلوب صياغتها والصور الفنية والأداء الصوتي.

كما أن العمل الأدبي فيض ينبع من وجدان الأديب، واللغة هي حلقة الوصل بينه وبين المتلقي، فهي أعظم عناصر الشعر، لذلك تراه يحرص على اختيار الألفاظ والتراكيب المناسبة للمعاني، لأنه يعلم " أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى، وضرباً من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى"⁽¹⁾.

ومن المعلوم أن العصر العباسي الأول شهد حركة علمية قوية، فقد هبت على الأمة العربية آنذاك أعاصير ثقافية متنوعة من جميع الأمم المفتوحة، وبحكم أن الغلبة كانت للعرب المسلمين وأنهم كانوا أصحاب السلطان والدراية، فقد جعلوا ثقافتهم العربية الأصلية التي تمثلت في القرآن العظيم والأحاديث النبوية الشريفة، والشعر العربي مرتكزاً لهذه الثقافات الوافدة، فقام العلماء بخدمتها من خلال ترجمة الكتب، وجمع أشعار العرب وتسجيلها في دواوين، وتأصيل النحو والعروض ومختلف العلوم، حيث أصبح هذا العصر يحوي بالإضافة إلى الثقافة العربية، الثقافة الفارسية واليونانية والهندية التي أسهمت في بناء حضارة العصر وأصبحت عاملاً هاماً من عوامل تحضره.

لقد اهتم شعراء العصر العباسي الأول بألفاظهم وأحسنوا استخدامها في مواضعها الصحيحة التي تتلائم مع المعنى المراد، ذلك أن الشعر عموماً قد اتجه خلال هذه الحقبة نحو السلاسة والوضوح، حيث جاءت المعاني ظاهرة مكشوفة والألفاظ مناسبة للأسلوب المولد الجديد الذي يمتاز بالرشاقة والعذوبة ودقة التعبير، على الرغم مما يحشد فيه من كلمات دخيلة، ولأبي نواس ما ليس لغيره من الشعراء في هذا المجال، فقد كان يسرف في استخدامه لبعض تلك الألفاظ، وقد جاء أغلبها من باب العبث واللهو والتجديد، إذ فطن ابن رشيق إلى ذلك فقال: "وللشعراء ألفاظ معروفة، وأمثلة مألوفة، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها، إلا أن يريد

(1) - الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الثالثة، 1413هـ/1992م، ج1/ص: 575.

الشاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمي، فيستعمله في الندرة، كما فعل الأعشى⁽¹⁾ قديماً وأبو نواس حديثاً⁽²⁾، من ذلك قوله⁽³⁾:

| | |
|----------------------------|------------------------------------------|
| فأقمنا عليه حتى رأينا اللـ | يل يطويه كف النهار |
| و عكفنا على المدامة فيه | فرأينا النهار في الطرجهار ⁽⁴⁾ |
| قم ملنا إلى يفاع رياض | زينتها الأنواء بالانوار |
| جامعات لكل نوع غريب | من بياض من حسن خد العذار |
| وورود تزهر كحكرة خد | جرحته نواظر النظر |
| بينها صفرة كصفرة صب | ساهر الليل من هوى الغدار |

فأبو نواس شاعر متحضر يرى في حياة الحاضرة مثله الأعلى، وقد استخدم الألفاظ الأعجمية للتعبير عن موصوفاته، ويبدو ذلك واضحاً من خلال استخدامه للفظة "الطرهاج" ذات الأصل الفارسي.

لقد حملت إلينا قصائد العصر العباسي الأول الكثير من الألفاظ والتراكيب الفارسية من ذلك مثلاً قول إسحاق بن إبراهيم الموصلي⁽⁵⁾، يذكر بعض مجالسه مع أحد أصدقائه:

| | |
|---------------------------------|-----------------------------|
| فيا ليت شعري هل أروحن مرةً | إليه فيلقاني كما كان يلقاني |
| وهل أرين يوماً غضارة ملكه | وسلطانه لا زال في عز سلطان |
| وهل أسمعن ذاك المزاح الذي به | إذا جنّته سلّيت همي وأحزاني |
| إذا قال لي "يا مرد مي خر" وكرها | على وكناني مزاحاً بصفوان |

قال الأصفهاني: "هذا كلام بالفارسية تفسيره: يا رجل اشرب النبيذ"⁽⁶⁾، ومعلوم أن إسحاق من أبناء فارس، ورغم روايته وفصاحته فإنه كان يحن إلى لغة قومه فأدخل تلك العبارة في شعره ولعله يقصد التملح والظرافة.

(1) - هو ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويسمى صناجة العرب، أدرك الإسلام ولم يسلم، وتوفي سنة سبع للهجرة، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1/ص: 250، والزركلي، الأعلام، ج7/ص: 341.

(2) - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1/ص: 128.

(3) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 355.

(4) - الطرجهار، طرجهل، الطرجهالة: كالفنجانة معروفة، وقيل: طرجهاره، انظر الجوهرى، الصحاح، ج5/ص: 1751.

(5) - هو إسحاق بن إبراهيم بن بهمن بن نسك، أصله من فارس، ولد سنة خمسين ومائة للهجرة، خرج هارباً من بني أمية في خراج كان عليه، فنزل الكوفة، كان راوية للشعر والمآثر، ولقي فصحاء الأعراب من الرجال والنساء، كان شاعراً حاذقاً بصناعة الغناء، مصنفاً في علوم كثيرة، كان الرشيد يولع به ويكنيه أبا صفوان، توفي سنة خمس وثلاثين ومائتين للهجرة، انظر ابن النديم، الفهرست، ج1/ص: 173.

(6) - الأصفهاني، الأغاني، ج5/ص: 219.

وقد كان أبوه من قبله يدخل هذه التراكيب في شعره، إذ قال مرة يصف وداعه لخمار نبطي (1):

سقياً لمنزل خمارٍ قصفت به
ما زلت أرهن أثوابي وأشربها
حتى إذا نفذت مني بأجمعها
فقال " إزل بشين" حين ودعني
وسط الرصافة يوماً بعد يومين
صفراء قد عتقت في الدن حولين
عاودته بالربا دنا بدنين
وقد تعمرك زلنا عنه بالشين

وتركيب " إزل بشين " كلمة سريانية، تفسيرها " امض بسلام " كما يقول الأصفهاني (2).

وتلك التراكيب والألفاظ التي تسلمت إلى لغة العرب، فأصبحت جزءاً منها تدل على تطور العقل العربي ونهضته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بشكل خاص، فلولا تفنق الذهن العربي وشموخ لغته وأدبه لما انساقت حضارات غيره إليه، ولما أصبحت تلك الألفاظ معربة، وقد أفرد ابن جني (3) باباً في كتاب "الخصائص" سماه " في أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب " وضرب أمثلة على ذلك (4).

كما درج الشعراء في ذلك العهد إلى استخدام ألفاظ سهلة لينة قريبة المعاني تناسب ما عليه حياتهم الحضارية، متغاضين عما يعترئها من ركافة ولين مفرط، وعلى رأس هؤلاء أبو العتاهية والعباس بن الأحنف ومن تابعهما (5)، والشاهد على ذلك قول أبي العتاهية (6):

يا إخوتي إن الهوى قاتلي
ولا تلوموا في اتباع الهوى
عيني على عتبة منهلة
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى
بسطت كفي نحوكم سائلاً
فيسروا الأكفان من عاجل
فإنني في شغل شاغل
بدمعها المنسكب السائل
من شدة الوجد على القاتل
ماذا تردون على السائل؟

(1) - الأصفهاني، المصدر السابق، ج5/ص: 217.

(2) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3) - هو عثمان بن جني الموصلي، أبو الفتح، من أئمة الأدب والنحو، ولد بالموصل، كان أبوه مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي ومن تصانيفه: الخصائص، المبهج، في اشتقاق أسماء رجال الحماسة، المحتسب، وغيرها، توفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج4/ص: 204.

(4) - أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، دون تاريخ، ج1/ص: 358.

(5) - انظر ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1/ص: 126.

(6) - المصدر نفسه، والصفحة نفسها، وأبو العتاهية، الديوان، ص: 386.

وكان ربعة الرقى من أولئك نفر الذين يتخيرون لأشعارهم تلك الألفاظ العذبة السهلة وهو صاحب تلك القصيدة التي أصبحت أبياتها، بما حملته من ألفاظ وتراكيب عذبة، مثلاً من الأمثال السائرة التي يستشهد بها كل من سمعها، وقد رفعت منزلة ربعة بين أتباعه بل أوصلته إلى بلاط المهدي ومناذمته (1)، وهي جميلة المبنى والمعنى يقول فيها (2):

| | |
|---------------------------------|------------------------------|
| لشتان ما بين اليزيديين في الندى | يزيد سليم والأغر ابن حاتم |
| يزيد سليم سالم المال والفتى | أخو الأزد للأموال غير مسالم |
| فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله | وهم الفتى القيسي جمع الدراهم |
| فلا يحسب التتمام أني هجوته | ولكنني فضلت أهل المكارم |
| فيا ابن أسيد لا تسام ابن حاتم | فتقرع إن ساميته سن نادم |
| هو البحر إن كلفت نفسك خوضه | تهالكت في موج له متلاطم |

كما كان أبو العتاهية أيضاً من أنصار ذلك التركيب اللغوي الذي يتخذ من اللين والسهولة مركباً لتسويق شعره بين الطبقات المتنوعة في المجتمع، وكان أبو العتاهية وأقرانه من شعراء العصر العباسي الأول يرون في استخدام ذلك الأسلوب معلماً حضارياً يناسب الحياة الجديدة المترفة ولسان حالهم يقول، هل الأدب إلا مواكبة للحياة؟

ولننظر إلى شيء من السهولة والرقّة في قول أبي العتاهية - وأغلب شعره على تلك الشاكلة - حيث يقول (3):

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| كأنها من حسنها درة | أخرجها اليم إلى الساحل |
| كان في فيها وفي طرفها | سواحراً أقبلن من بابل |
| لم يبق مني جبهها ما خلا | حشاشة في بدن ناحل |
| يا من رأى قتيلاً بكى | من شدة الوجد على القاتل |

والأبيات السابقة من غزله الجميل الذي انتشح ألفاظاً قريبة المأخذ، جلية المعنى، فهو يصف حسن تلك المعشوقة وكأنها من يواقيت البحر ودرره، حيث شبه قسمات وجهها وحسن حديثها بالسحر وخص بابل هنا بالذكر لاشتهارها بالسحر والخمر، وهي ناحية منها الكوفة والحلة، وقد وردت في القرآن الكريم وقيل إنها العراق (4)، كما أرجع نحول جسده وضعفه إلى ولوعه بمحبوبته التي لا يقوى على فراقها.

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج16/ص: 172.

(2) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3) - ديوان أبي العتاهية، ص: 386.

(4) - انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ص: 43.

ولم تقتصر تلك السهولة في ألفاظ أبي العتاهية على غرض واحد في شعره بل شملت بقية أغراضه، وقد نقل هذا الأسلوب إلى الدور الثاني من حياته عندما تفرغ للزهد والقول فيه فكانت زهدياته تحمل ألفاظاً سهلة رقيقة يسمعها المذنب فيندم بمجرد سماعها؛ لقرب تراكيبها ومعانيها إلى قلبه، من أجل ذلك راج شعره وذاع صيته في مجتمعه لأنه يعزف على وتر يعشقه الجميع، ولا يجد مشقة في حفظه ولقد تغنى الملاحون مرة بأبياته التي منها قوله(1):

| | |
|-------------------|------------------|
| سيصير المرء يوماً | جسداً ما فيه روح |
| بين عيني كل حي | علم الموت يلوح |
| كانا في غفلة والـ | موت يغدو ويروح |
| نح على نفسك يا مـ | كين إن كنت تتروح |
| لتموتن وإن عمـ | رت ما عمر نوح |

إن سهولة ألفاظ أبي العتاهية وأسلوبه الرشيق وتراكيبه القريبة إلى النفس، قد حققت لشعره رواجاً كبيراً إلى درجة أن الناس كانوا يتجمعون حوله أنى وجد، فلا يكاد يلمح في مكان إلا وترى العامة يتهافتون إليه رغبة منهم في سماع ترانيمه الشجية التي تبعث في نفوسهم أنغاماً وألواناً من المتعة الخفية، والشاهد على ذلك أنه دخل مرة مسجد المدينة ببغداد، فتدافع الناس يستمعون إلى مواظبه الشعرية وزهدياته السهلة التي تلاطف القلوب وتلامس المشاعر ملاطفة النسيم العليل لذي حاجة، ومن جميل قوله ذلك اليوم(2):

| | |
|---------------------|---------------------|
| لهفي علي ورق الشباب | وغصونه الخضر الرطاب |
| ذهب الشباب وبان عني | غير منتظر الإباب |
| فلأبكين على الشباب | ب وطيب أيام التصابي |
| ولأبكين من البلى | ولأبكين من الخضاب |
| إنني لأمل ان أخلـ | د والمنية في طلابي |

وتتميز ألفاظ العباس بن الأحنف هي الأخرى بكونها ألفاظاً رقيقة، سلسلة، شقافة، موحية، لا يتكلف قارئها عناء البحث عن معنى شارد أو صورة معقدة، بل ينساق معها دون أعمال جهد، ولا ريب في أن هذا أثر من آثار حالته الحضارية والفكرية، وقبس من نور حبه الذي يجد فيه لذاتة رغم الألم، وعبارته مكثفة تختزل الأحداث والأزمنة:

| | |
|---------------------------|----------------------------|
| قالت مرضت فعدتها فتبرمت | وهي الصالحة والمريض العائد |
| والله لو أن القلوب كقلبها | ما رق للصغير الوالد(3) |

(1) - ديوان أبي العتاهية، ص: 117، والأصفهاني، الأغاني، ج4/ص: 82.

(2) - ديوان أبي العتاهية، ص: 68.

(3) - ديوان العباس بن الأحنف، ص: 81.

لقد استطاع الشاعر أن يصوغ لغة تجمع بين رشاقة المتمدن وسلاسة حركة الحاضرة، مع الجنوح إلى البساطة، ولهذا نجده يعمد إلى تسهيل الهمزة في غير موضع واحد، بل لعلّ تسهيل الهمزة طابع مميز في هذه المقطعات، ومنه كذلك قوله جامعاً بين تسهيلها وبين تكرار أسلوب الشرط والمقابلة والنفي وقصر العبارة والتّركيز على الأثر التنغيّمي لحرف اللام⁽¹⁾:

إِنْ سَيْلَ لَمْ يَبْذَلْ، وَإِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ، وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتَب

وإلى جانب تلك الصّفة الحضريّة التي ميزت لغة العباس، نلاحظ ميله إلى تخطّي قواعد النّحو المؤصّلة أحياناً، مرّكزاً على المعنى والوزن، فضلاً عن بعض الألفاظ الفارسيّة في شعره، ولعلّه يقترب بذلك من مستوى راق من الدّارجة يختص بفئة المثقّفين المترفين في عصره، ويبدو أنّ لهذا المستوى من الدّارجة ألفاظاً وتعبيرات خاصّة نجد بعضها مكرراً في شعره، ومن ذلك قوله⁽²⁾:

| | |
|------------------------------|--------------------------------|
| أَيَّاسُ سَيِّدَةُ النَّاسِ | لَقَدْ قَطَعْتُ أَنْفَاسِي |
| وَيَا دِيبَاجَةَ الْحُسَيْنِ | وَيَا رَأْمُشْشَنَةَ الْآسِ |
| يَلُومُونِي عَلَى الْخُبِّ | وَمَا بِالْخُبِّ مِنْ بَاسِ |
| أَلَا قَدْ قَدِمْتُ فَفُوزٌ | فَقَرَّتْ عَيْنُ عَبَّاسِ |
| لَمَنْ بَشَّرَنِي الْبُشْرَى | عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ |

ولعلّ هذه القطعة تكفي للدلالة على طبيعة لغة العباس، وهي تدلّ على الحضريّة دلالة مباشرة لا تأويليّة.

وإذا كان لتلك المرونة في اللفظ المولد طعمه الخاص وجريانه على ألسنة العامة والخاصة فإنه قد أحدث ألواناً من التوسع في إهمال وتجاهل كثير من الضوابط اللغوية والصرفية مما أيقظ حماس اللغويين وتصديهم لمثل تلك الهنات عند الشعراء.

والغريب في الأمر أن بشاراً بن برد صاحب الثقافة العالية والدائرة الشعرية العريضة، عمد إلى أن ابتكار اشتقاقات جديدة تناسب، في زعمه الحياة الحضريّة الجديدة، خارجاً بذلك عن المألوف في الاشتقاقات القياسية فانظر إلى قوله⁽³⁾:

على الغزلي سلام الله مني وإن صنع الخليفة ما يشاء

(1) - العباس بن الأحنف، المصدر السابق، ص: 23.

(2) - المصدر نفسه، ص: 164.

(3) - ديوان بشار بن برد، ج 1/ص: 105.

فقوله (الغزلي) مصدر جديد أتى به بشار، وليس في لغة العرب وزن على ذلك الجمع، والغزلي من الغزل وهو مازحة النساء، يقصد بقوله أنه انصاع لأمر الخليفة ولم يعد يشيب بالنساء ويذكر محاسنهن، ويقاس على ذلك قوله(1):

فالآن أقصر عن شتيمة باطل وأشار بالوجل إلى مشير

لفظة: الوجلي - والمراد الخوف والتقوى - جاءت على غير قياس، ودليل ذلك قول المرزباني: " .. كان الأخفش يطعن على بشار قوله (وذكر البيتين) قال: لم يسمع من الوجلي والغزل (فعلى)، وإنما قاسهما بشار، وليس هذا مما يقاس، إنما يعمل فيه بالسماع "(2).

كما نجد من الشعراء من يحذف بعض أجزاء الكلمة، من ذلك مثلا حذف أبي العتاهية لهزمة " الأحياء " فيقول(3):

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى
ففي يده كشف المضرة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها
فلا نحن في الأموات فيها ولا الأحياء

كما فعل بشار بن برد الشيء ذاته في كلمة " الفناء " حيث جعلها " الفنا " وكذلك الكلمات المهموزة نداء، الثناء، الإخاء، عناء، في أبياته التالية(4):

فَخَذِ الْكَلْبَ عَلَى مَا عِنْدَهُ
قَلَّ مِنْ طَابَ لَهُ أَبَاؤُهُ
أَدْنُ مِنِّي تَلَقَّيْتُ ذَا مِرَّةٍ
مَا أَرَاكَ الدَّهْرَ إِلَّا شَاخِصًا
يُرْعَبُ اللَّصُّ وَيُفْعِي بِالْفِنَا
وَعَلَى أُمَّاتِهِ حُسْنُ الثَّنَا
نَاصِحَ الْحُبِّ كَرِيمًا فِي الْإِخَا
دَائِبَ الرَّحْلَةِ فِي غَيْرِ عَنَا

كما لم يتخرج أبو نواس من فعل ذلك أيضا، إذ حذف همزة كأس فقال(5):

يرى حرجاً عليه مس ثوبي وأن أسقى وإياه بكاس

والحري بالذكر أن القصيدة الشعرية في العصر العباسي الأول تضمنت بعض الأمثال الشعبية، وهي كثيرة حتى في أشعار الفحول منهم من ذلك مثلا قصائد ابن مناذر التي جنح فيها إلى اللفظة البسيطة التي تؤدي ما يريغه في سهولة ويسر، حيث مال بمفرداته إلى ما يستطيع قارئه إدراكه وفهمه، دون أن يجد فيها عنقا ولا مشقة، ونود الاحتراس مما نعنيه

(1) - بشار بن برد، المصدر السابق والصفحة نفسها.

(2) - المرزباني، الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، ص: 286.

(3) - ديوان أبي العتاهية، ص: 29.

(4) - ديوان بشار بن برد، ج1/ص: 132.

(5) - ديوان أبي نواس، ج4/ص: 229.

بالبساطة هنا، إذ لا تعني عند شاعرنا السطحية، أو الانحطاط إلى الدرك الأسفل من اللغة، أو الابتذال في استخدام التعبيرات، أو فقر المعجم الشعري عنده، ووقوفه عند هذا الحد وحسب من الألفاظ، بل نعني بها البساطة التي يركن إليها الشاعر عن سعة وغنى؛ لا عن فقر وخصاصة، وضيق في المحصول اللغوي، البساطة التي تستملحها النفوس، وتلذذها الأسماع، عندما تعبر عما رامه الشاعر، دون إخلال أو تقصير.

فها هو ابن منذر يهجو محمد بن عبد الوهاب الثقفي، الذي كان يعاديه كثيراً، فتصادف أن تزوج المهجو فتاةً على جانب من الثراء والجمال تدعى عمارة، فاغتنم ابن منذر الفرصة، ليعرض به؛ راغباً في الفرقة بينهما؛ واصفاً عرسها، وما أعد له وصفاً دقيقاً، متعجباً وساخرأً من رضا هذه الفتاة بهذا القران غير المتكافئ، فقال⁽¹⁾:

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| لما رأيت القصف والشاره | والبزقـد ضاقت به الحاره |
| والأسوالريحـانيرمي به | من فوق ذي الدارة والداره |
| قلت: لمن ذا؟ قيل: أعجوبة | محمدزوجـهـمـارـه!! |
| لا عمر اللـهـبها ربـعه | فإنـعـمـارة بدكـاره |
| ويحك فري واعصبي فاك لي | فهـذـه أختك فـرارـه |

إن هذا الأداء الشعبي الذي يقطر سهولة ونضارة، ويفيض عنوبة وسلاسة جعل المقطوعة تشيع وتنتشر على ألسنة الصغار والكبار في البصرة وقتئذٍ، والطريف فيما حكاه صاحب الأغاني أن عمارة عندما سمعت بهذه الأبيات التي سرت في أرجاء البصرة "ما لبثت عنده إلاً مديدةً حتى هربت، وكانت لها أخت قبلها متزوجة من أهل البصرة، ففرخته وهربت منه، فكانوا يعجبون من موافقة فعلها قول ابن منذر"⁽²⁾.

كما اعتمد ابن منذر على الأمثال العربية - وإن لم يكثر منها - ملخصاً بها مواقف نفسية وعاطفية؛ ممتزجاً بالتجارب الإنسانية التليدة، متفاعلاً مع خبرات السلف، فما أحسن إفادته من المثل الهادف في قوله يمتدح⁽³⁾:

خير تقيفٍ أبأً ونفساً إذا التقت حلقتا البطان

فقد استلهم الشاعر بيته من المثل العربي المعبر: "إذا التقت حلقتا البطان"⁽⁴⁾، وهو مثل يضرب للأمر إذا اشتد وللحادثة إذا بلغت النهاية.

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 142.

(2) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3) - المصدر نفسه، ص: 182.

(4) - أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دون طبعة وتاريخ، ج2/ص: 186.

كما ضمن ابن منذر في إحدى قصائده المثل العربي: "أذل من فقع بقرقرة"⁽¹⁾، إذ قال⁽²⁾:

كأنهم فقع بدويّة وليس لهم قبل ولا بعد

والظاهر أن شاعرنا قد استفاد من هذا المثل استفادة ذكية، وهو مثل يشبه به الرجل الذليل فيقال: هو فقع قرقر؛ لأن الدواب تنجله بأرجلها، ولم يكن ابن منذر يعني بهذا الاستلham إلا ما في المثل العربي القديم من الوصف بالذل والركون إليه.

وهكذا فقد عدت الأمثال رافداً ثرياً غدّي لغة ابن منذر الشعرية، وقد كان يسوق المثل في مكانه المناسب؛ عندما يمليه الموقف وتستدعيه الضرورة، فيدرجه في سياقاته بما يخدم تجربته ومعانيه.

وإذا كان الشعراء المحدثين في العصر العباسي الأول قد نزلوا بتراكيبيهم وألفاظهم إلى الساحة الشعبية، فإنما هي في الوقت ذاته ساحة حضرية، قد امتلأت بالثقافات والنظم والمذاهب والتقاليد التي لا خيار للشعراء عن الإعراض عنها، والتعامي عن وجودها، والبقاء في وصف الطلل البالي، والمفازة العريضة، التي توحش ولا تؤنس والتي تفرض على الشاعر ألفاظاً ولغة تناسبها في الوحشية والغرابة، وإذا كان هؤلاء الشعراء قد بالغوا في التطرف والتصنع والزخرفة اللفظية فملؤوا أشعارهم بألفاظ فارسية بفعل الحضارة أو مجارة لثقافة عصرهم، حيث نزلوا بقاموسهم الشعري إلى أسواق الباعة وحوانيت العطارة وإلى أزقة القصارين وكبار الحدادين وتعرضوا للمارة في طرقهم، فقد سموا إلى قصور الخلفاء فاحتفظوا بأصالتهم الموروثة، واختاروا مع التمسك بهذه الأصالة ألفاظاً حضارية في المبني والمعنى.

لقد زواج شعراء هذا العصر إذن بين القديم والجديد في صياغته اللغوية؛ مولدين من القديم بناء لغوياً يتماشى مع حضارة العصر؛ دون أن يهملوا في ذلك سلامة اللغة ووفاءها بالغرض، والحرص على انتقاء المفردة الجزلة والفصيحة، "حتى أصبح هناك في وضوح أسلوبان: أسلوب للقدماء وأسلوب للمولدين العباسيين، ولسنا نقصد أن هؤلاء المولدين كان يجري على ألسنتهم شيء من اللحن في التصريف أو في الإعراب ولا نقصد ما كان يجري على ألسنتهم من تملح وتطرف بحشد بعض الألفاظ الفارسية، وإنما نقصد أنهم على الرغم من تقيدهم بكثير من تقاليد القدماء، ولا سيما في شعر المديح الرسمي وصناعة الأراجيز، استطاعوا أن ينفذوا إلى لغة شفافة مبسطة تقف بين الإغراب و الابتذال"⁽³⁾.

(1) - الميداني، المصدر السابق، ج1/ص: 284.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 132.

(3) - شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، الطبعة الحادية عشرة، دون تاريخ، ص: 128.

إن هذه النظرة النقدية الثاقبة التي يراها شوقي ضيف هي في الحقيقة نظرة واقعية نلحظها في أشعار بشار وأبي نواس وغيرهما من شعراء العصر، فقد جمعوا في قصائدهم رشاقة الأسلوب ومرونة اللفظ وحلاوته الحضارية وابتعدوا عن وحشي الكلام وخشونة التعبير، ولعل النقلة النوعية في الألفاظ والتراكيب عند بشار المخضرم الذي عاش أمياً ثم عباسياً، فتلبس القديم واستلهم الجديد من خلال تنازله عن كثير من الأوزان الطويلة والتراكيب والألفاظ الصعبة، وابتعاده عن المشاهد الصحراوية أكبر دليل على ذلك⁽¹⁾:

| | |
|-------------------------|-----------------------------------|
| سلم على الدار بذى تنضب | فشط حوضى فلوى قعنب ⁽²⁾ |
| واستوقف الركب على رسمها | بل حل بالرسم ولا تتركب |
| لما عرفناها جرى دمعه | ما بعد دمع العانس الأشيب |
| طالب بسعدى شجناً فائتاً | وهل لما قد فات من مطلب |

نوه الشاعر في هذه القصيدة البائية بابن هبيرة⁽³⁾، مفتتحاً إياها بمقدمة طلية اكتفى فيها بذكر الديار والتسليم عليها والوقوف بها فحسب، ولم يستطرد في ذلك مقومات المقدمة الطلية المعروفة عند الشعراء الأوائل ثم شرع يتغزل تغزلاً سهلاً حضرياً فيما يقرب من عشرين بيتاً ثم انتقل يصور بعض مقتنيات بيئته الحضرية، فوصف السفينة التي استقلها مبتكراً وصفاً جديداً لوسيلة نقل حضرية جديدة، والتي حلت محل الناقة مضيفاً إلى ذلك وصف نهر الفرات وأمواجه المتلاطمة وما فيه من حيتان وأسماك وقد اندفعت سفينته بسرعة فائقة بين الأمواج المتلاطمة⁽⁴⁾، ليصل أخيراً إلى غرضه الأساسي وهو مدح ابن هبيرة، فوصف جوده ونداه، وبشاشته لزازريه، ومواساته للمحتاجين، وصور شجاعته وبلائه في حروب أعداء دولته واستقامته على دين الله وذبه عنه، ونقمته على العصاة مصوراً بسالة جيوشه في سبيل كسر شوكة الخارجين على مروان بن محمد الخليفة الأموي فيقول⁽⁵⁾:

| | |
|--------------------------------------|--------------------------|
| إلى فتى تسقى يداه الندى | حيناً وأحياناً دم المذنب |
| إذا دننا العيش فمعروفه | دان بعيش القناع المترب |
| زين سرير الملك في المغتدى | وغرة الموكب في الموكب |
| إذا رماه النقري ⁽⁶⁾ بامرئ | لان له الباب ولم يحجب |
| أطبب للدين إذا رنقت | عيناه من طاغية مجرب |

(1) - ديوان بشار بن برد، ج1/ص: 169.

(2) - حوضى، فلوى، قعنب: أسماء أماكن، انظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3) - هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، أبو خالد، أمير العراقيين، ولد سنة سبع وثمانين للهجرة، وكان شجاعاً، فصيحاً، خطيباً، قتل سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج6/ص: 208.

(4) - انظر ديوان بشار بن برد، ج1/ص: 170، 171، 172.

(5) - المصدر نفسه، ص: 173.

(6) - النقري: اختيار المدعوين للمائدة، انظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

إن الأثر الحضاري في المديح السابق واضح المعالم إذ اختصر الشاعر في مقدمته الطللية وصف الأطلال والآثار البالية وأعرض عن ذكر الفيافي والفقار، ووسائل النقل فيها مستبدلاً إياها بالنهر وأمواجه المخيفة والفلك التي تطفو على صحائفه، ثم ختم ذلك الوصف الحضري الجديد بتعداد خصال الممدوح من جود وشجاعة ونود عن الدين الإسلامي الحنيف، مستعيناً في ذلك كله بالألفاظ وتراكيب فخمة جزلة، مبتعداً عن غريب اللفظ ومهمله، كما نلاحظ أيضاً ابتعاده عن التصوير والتشبيه البدوي المتبع عادة في مثل تلك المواقف بل إنه من فراسته قد اختار مثل تلك التعبيرات في وصف السفينة، إذ شبهها بالنعام والجراد والخيل والإبل ليظهر قدرته وإبداعه.

أما أشجع السلمي فقد كان شديد الارتباط بالتراث القديم، غير أنه في الوقت ذاته كان لصيقاً بالبيئة العباسية التي ألفها، فتارة نجد مدائحه مثقلة بالزخارف اللفظية، وتارة أخرى معطلة، يردد أشجع فيها ما كان يرددده الشاعر الجاهلي، من ذلك مثلاً قوله في رثاء الرشيد⁽¹⁾:

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| بقائي على ريب الزمان قليل | وإنى على عزّي به لذليل |
| نازل هارون الخليفة أصبحت | لهن على شاطى الفرات عويل |
| لبسن حلىّ الملك ثم سلبنها | فهن ولا حلي لهن عطول |
| يذكرني هارون آثار ملكه | وذلك ذكر إن بقيت طويل |
| إذا ما سطا عز المنايا فإنه | سواء عزيز عنده وذليل |

وتتسم الأبيات السابقة بالصدق وحسن السبك وعمق المعاني، ذلك أن الرثاء ليس مجالاً للتكلف وافتعال الحزن والتأنق في اختيار الألفاظ، والأمر سواء في قوله أيضاً⁽²⁾:

| | |
|--------------------|---------------------|
| شجاني المنزل الدرس | وأطلال له خرس |
| وعهدي بصحون الدا | ر تمشى بينها الشمس |
| كأن الطلل الملتـ | فّ في ثوب البلى طرس |

هكذا جاءت المعاني والتراكيب عند أشجع، تميل إلى البساطة، حيث ذكر الألفاظ المرتبطة بالديار الخربة، مزاجاً في ذلك بين ثنائية القديم والجديد.

(1) - انظر أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص: 130.

(2) - المصدر نفسه، ج1/ص: 123.

وقد مال الجاحظ أيضاً إلى اللفظ وانحاز لجزالته وحلاوته على حساب المعنى، إذ يقول ناقداً بعض النصوص التي خلت من جمال التركيب وحلاوة اللفظ واهتمت بالمعاني فحسب: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك؛ فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"⁽¹⁾.

ويبدو أن نظرة الجاحظ إلى اللفظ والاهتمام به وحسن اختياره إنما هي رؤية عصرية فالزمن زمن تطور وحضارة وإبداع حتى في صناعة الكلمة، ناهيك عن دخول مختلف الفنون المادية والمعنوية إلى ساحة المجتمع الخاص والعام.

وقد كان للخلفاء بعد استقرار دولتهم، دورهم في مساعدة الشعراء على تذوق تلك الحياة الجديدة، إذ كان لهؤلاء الخلفاء لهوهم ونعيمهم، والشعر من لوازم ذلك النعيم، لذلك عملوا على تقريب الشعراء الذين انصرفوا إلى التأنق في الألفاظ والصور تأنقهم في مآكلهم ومشاربهم ورياشهم.

كما هجر شعراء العصر العباسي الأول الألفاظ الوعرة، والتراكيب الخشنة، وسخروا من حياة البداوة وتكروا لمطالع القصيدة العربية القديمة، وقد أصابت نظرة بطرس البستاني فيهم، حيث قال: "وقد علمنا أنهم يكرهون العرب فأنفوا أن يتشبهوا بهم، ويقلدوهم في أساليبهم، وكان لهم من حضارتهم ومن عنصرهم العجمي ما يبدهم من وحشي اللفظ، وبدوي المعنى، فكان لهم الفضل في تجدد الألفاظ، وفي تجدد المعاني"⁽²⁾.

ومن أهم ما يتسم به المعجم في شعر العصر العباسي الأول تجنب الغريب، فالكلمات والتراكيب فيه سهلة واضحة المعنى، كثيرة الاستعمال، مألوفة لا تخفى على عامة الناس، حتى أن كثيراً من الشعراء أدخلوا إلى معجمهم الشعري ألفاظاً وكلمات مولدة ومعربة، وتعبيرات شعبية، ومن ذلك مثلاً السيد الحميري⁽³⁾ الذي سئل ذات مرة: "ما لك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء؟ قال: لأن أقول شعراً قريباً من القلوب يلذه من سمعه خير من أن أقول شيئاً متعقداً يضل فيه الأوهام"⁽⁴⁾، وهذا يعني أن الوعي والقصد موجودان فلم تصدر هذه السهولة بصورة عفوية بل برغبة الشاعر نفسه، مما

(1) - الجاحظ، الحيوان، ج/3ص: 67.

(2) - بطرس البستاني، أدباء العرب في العصر العباسية، ص: 20.

(3) - هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة المعروف بالسيد الحميري؛ كان شاعراً محسناً كثير القول، وهو الذي هجا زياد بن أبيه الأموي وبنيه ونفاهم عن آل حرب؛ ولذلك حبسه عبيد الله بن زياد وعذبه، ثم أطلقه معاوية، انظر ابن شاعر، فوات الوفيات، ج/1ص: 188، والأصفهاني، الأغاني، ج/7ص: 177.

(4) - المصدر نفسه، ص: 190.

يدعونا إلى القول إن القضية التي التزمها الشاعر دعتة إلى أن يكون واضحاً في قوله وكشفه لما تتعاوره من أفكار وعواطف ليسهل الوصول إليها دون ممانعة، فشعره موجه أساساً للتأثير في المجتمع الذي يعيش فيه، لذلك نجده حريصاً على اختيار أبسط المفردات وأقربها موضعاً من المعنى الذي قصده، ليحقق التواصل مع المتلقي عبر جسرٍ من الشعر الواضح إذ يقول⁽¹⁾:

فَعَندها قام النبي الذي كان بما يأمره يصدع
يخطب مأمورا وفي كَفِّه كفّ علي نورها يلمع

لقد كان السيد الحميري ينفر من بدوية اللفظ وغرابته ويريد أن يخاطب مجتمعه بما يفقه، إذ قيل عنه: "ليس في عصرنا هذا أحسن مذهباً في شعره ولا أنقى ألفاظاً من السيد"⁽²⁾.

كما اعتمد شعراء العصر العباسي الأول الصنعة اللفظية في قصائدهم عوضاً عن غريب اللفظ، فشبهوا وجانسوا وطابقوا وقابلوا، حتى غدت قصائدهم كعقد المليحة في ليلة زفافها، بل قد يخيل إليك وأنت تقرأ بعض أشعارهم أنك بإزاء لغز لن تقدر على حله مع أن ألفاظه سهلة المبني، قريبة المأخذ، من ذلك مثلاً: قول أبي الشيص⁽³⁾:

أشاقك والليل ملقي الجران غراب ينوح على غصن بان
أحم الجناح شديد الصياح بيكي بعينين لا تهملان
وفي نعبات الغرب اغتراب وفي البان بين بعيد التدان
لعمري لئن فزعت مقاتك إلى دمة قطرهما غير وان
فحق لعينيك ألا تجف دموعهما وهما تطرفان
ومن كان في الحي بالأمس منك قريب المكان بعيد المكان
فهل لك يا عيش من رجعة بأيامك المونقات الحسان

والأبيات السابقة مجتزأة من قصيدة مطولة، يجدها المتمعن أشبه ما تكون بوقفه محاسبة ورتاء للنفس قبل رحيلها، فهو يشكو تصرم الأيام وانقضاء العمر محاوراً شبيهه الذي عكر عليه صفو حياته فجعله ملوماً محسوراً.

(1) - السيد الحميري، الديوان، شرح وتحقيق: شاکر هادي شکر، طبعة المكتبة الحيدرية، دون تاريخ، ص:

263.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج7/ص: 189.

(3) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 78.

وإن كان أبو الفرج قد قدّم بعض الشعراء على أبي الشيبان فإن المأمون الخليفة العباسي فضّل أبا الشيبان على جماعة من حذاق المحدثين كبشار ومسلم بن الوليد ونظرائهما في قصيدته التي يقول فيها⁽¹⁾:

جلا الصُّبْحُ أونيَّ الكرى عن جُفونِهِ وفي صَدْرِهِ مثلُ السَّهامِ القواصِدِ
نَمَكَنَّ مِنْ غِرَّاتِهِ الحَبُّ فانتحى عَلَيْهِ بِأَيْدِ أَيْدَاتِ حواشِدِ

إن الحياة الجديدة التي عاشها الناس في العصر العباسي الأول، كانت حياة حضارة وترف اقتصادي وثقافي، وتبعاً لذلك فقد طرأت على ألفاظ الشعر وتراكيبه مسحة من الوشي والتنميق، ودخلت على لغته مفردات غريبة دعت إليها حياتهم الجديدة، كما عمد بعض الشعراء إلى نحت ألفاظ جديدة من صلب اللغة لمعان مستحدثة جاءت بها الحضارة الجديدة.

(1) - انظر ابن المعتز، المصدر السابق، ج1/ص: 86.

المبحث الثالث : الصور والأخيلة

الصورة إحدى الظواهر الطبيعية، وهي إما حقيقة أو خيال، وقد جاء في لسان العرب: "الصورة في الشكل، والجمع صور، وقد صوره فتصور، وتصورت الشيء: توهمت صورته، فتصور لي، والتصاوير التماثيل، وصورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا، أي صفته"⁽¹⁾.

وإذا شاهد الإنسان صورة ما، فإنه ينفعل بها، ويدركها إدراكاً حسيًا، والإدراك الحسي هو: "الأثر النفسي الذي ينشأ مباشرة من انفعال حاسة أو عضو حاس... وهو يعني الفهم أو التعقل بوساطة الحواس، وذلك كإدراك ألوان الأشياء وأشكالها وأحجامها وأبعادها بوساطة البصر"⁽²⁾.

وعن الإدراك الحسي ينشأ التصور الذي هو: "استحضار صور المدركات الحسية عند غيابها عن الحواس، من غير تصرف فيها بزيادة أو نقص أو تغيير أو تبديل"⁽³⁾.

إن مفهوم الصورة الفنية مفهوم نقدي فائق الأهمية قد أدرك كنهه الأدباء العرب في مختلف عصورهم، ووعاه النقاد ودرسوه، ولكن هذا المفهوم لم يقيد له أن يحدد فيتخذ صيغة واحدة ودلالة واحدة حتى الآن، فظهر في صيغ مختلفة كالتصوير والصورة والصورة الشعرية والصورة البلاغية والصورة البيانية والصورة الأدبية والصورة الفنية، ويختلف هذا المفهوم تبعًا لاختلاف اتجاهات درسه ضمن حقول المعرفة الإنسانية العامة، وكذلك في الدراسات الأدبية الخاصة.

ولما كان الأدب في الأساس تعبيرًا بالصور فإن الصورة الفنية هي جوهر الأدب والوحدة الأساسية في بنائه، والتصوير من أهم أدوات الشاعر للتعبير عن فكره ومشاعره، وهي أهمية تنبه إليها النقاد قديمًا وحديثًا.

وإذا كان الشعر وثيق الصلة بالشعور والعاطفة فإن التصوير هو الأداة القادرة على التعبير عن ذلك الشعور وتلك العاطفة. والتصوير الجيد رهن بصدق العاطفة وقوتها من ناحية، وقوة الشاعر من ناحية أخرى، حتى إنه ليقال: "إن التعبير بالصورة يتم في تناسب طردي مع توهج المشاعر والاستغراق العاطفي، بحيث يميل المبدع إلى اتخاذ ذلك التصوير قناعًا يستتر به كلما غلبه انفعاله"⁽⁴⁾.

وعلى هذا فالصورة الشعرية هي خلق جديد يمكن القول أنها تعتمد على الخيال أو معطيات العقل، يقول أحمد الشايب: "إنه من الصعب إعطاء تعريف شامل ودقيق للخيال لأن

(1) - انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (صور)، ج4/ص: 473.

(2) - انظر عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، دون تاريخ، ص: 68.

(3) - المرجع نفسه، ص: 69.

(4) - محمد فتوح أحمد، شعر المتنبي قراءة أخرى، دار المعارف، مصر، 1983م، ص: 23.

هذه الكلمة تردف العبارات المبهمة، ولكنها كذلك تدلّ على صورة عقلية متشابهة وإن لم تكن متحدة" (1).

ومن هنا فإن الشعر يكفي فيه التخيل والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل فالخيال وعي ذو سلطان ثابت لا يهتدي المرء إليه لأنه يعجز عن الوقوف على عظمتة إلا إذا عرفه عن طريق الشعور حينئذ لا تستطيع قوّة أخرى من قوى العقل أن تضعفه أو تفسده أو تنقص منه.

كما أن الخيال الخصب الواسع يساعد في تكوين صور التشبيه والاستعارة والكناية فهو عنصر الإلهام فيها، فمن أسرار الخيال أنه يوهم النفس ويلتمس من العلل والأسباب ما يريحها ويؤنسها، ذلك أن للخيال النصيب الأكبر في تشكيل الصور البيانية فهو يعمل عمل السحر في إيضاح المعاني وجلائها.

ويبدو أن شعراء العصر العباسي الأول كانوا أصحاب معان فريدة وصور خيالية باهرة، فهم زعماء مدرسة التجديد الشعري، إذ واكبوا مجريات عصرهم ونهضته الحضارية، وشهدوا الحركات الثقافية، فاستفادوا من فلسفة الشعوب وتجاربهم وحكمهم ومنطقهم، وحملوا أشعارهم بالأفكار والمصطلحات الأجنبية، وغاصوا يلاحقون المعاني والصور البعيدة ويطاردون الخيال، فجاءت أشعارهم عذبة الألفاظ، رقيقة العبارة، لمعانيها حلاوة، ولقرب مأخذها طلاوة، ولعل ذلك من أسباب تدوينها وانتشار صيتها.

وسنحاول من خلال هذا المبحث أن نتناول الصورة البيانية في شعر العصر العباسي الأول متمثلة في التشبيه، الاستعارة والكناية، ساعين إلى الكشف عن منابعها ومدى تأثيرها بحضارة العصر وأبهته.

أ- الصورة التشبيهية:

يعد هذا الشكل التعبيري في مقدمة الأشكال التي لجأ إليها شعراء العصر العباسي الأول في تصوير مواقفهم الحضارية، فالتشبيه متأب من "شبه : الشُّبه والشُّبه والشُّبيه : المثل والجمع أشباه وأشبه الشيء، الشيء: ماثله" (2)، فالتشبيه مستدع طرفين مشبها ومشبها به واشتركا بينهما من وجه وافتراقا من آخر مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة والعكس فالأول، كإنسانين إذا اختلفا طولاً وقصراً والثاني كالطويلين إذا اختلفا حقيقة إنساناً وفرساً" (3).

(1) - أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة، 1994م، ص: 211.

(2) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (شبه)، ج13/ص: 503.

(3) - أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزو، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1407 هـ / 1987م، ج1/ص: 332.

ويغلب التشبيه على الصور الشعرية عند أبي نواس في خمرياته، وفي هذه التشبيهات تظهر الخمر محبوبة فاتنة، وتؤدي دور المثير الأصلي الذي تدور تلك التشبيهات وتنداعى إذ يؤدي التشبيه هنا وظيفة توكيدية، إضافة إلى وظيفته الجمالية في تشكيل الصورة الفنية، فيبرز الشاعر من خلال التشبيه حجم ذلك الجمال من خلال التدفق التشبيهي المسترسل الذي يقوم على بلورة فكرة الجمال وإبرازها، حيث يشبه خمرته وهي تسري الى فمه بالمصباح، فيقول(1):

فَاسْتَعْمِلِ الْكَاسَ وَاسْقِنِي بِكَرًّا
كَاسًا دِهَاقًا صِرْفًا كَأَنَّ بِهَا
نُوتِي بِهَا كَالْخَلُوقِ فِي قَدَحٍ
إِنِّي إِلَيْهَا أَصَبَحْتُ مُرْتَاحًا
إِلَى فَمِ الشَّارِبِينَ مِصْبَاحًا
خَالَطَ رِيحُ الْخَلُوقِ تَفَاحًا

فشرية الخمر عند أبي نواس طرف حسي وقد ربطه بآخر متولد عن طعم الخمر عند وصولها إلى فم شاربها، يصاحب هذا الحسي طرف معنوي نفسي سببه الأثر الناتج عن مشاعر الفرح والسرور التي غمرت النفس بعدما حصلت على ما يطفئ غليلها، فكانت مثل المصباح الذي ينير عتمة ما حوله، فالحسي المتولد عن شرب الخمر الشبيه بالمصباح يصاحبه المعنوي النفسي المتولد عن الفرح والسرور.

ولا يخفى على أحد واقع الحياة العباسية آنذاك، فما أن استقرت الخلافة في بغداد حتى انصرف الناس إلى شيء من الغذاء الفكري يطربون لهذا اللون الجديد من الأدب والتفكير، فشهدت بغداد بحبوحه من العيش، خاصة طبقة الأغنياء والحكام التي استقطبت موائدهم كثيرا من الفنانين، وقد جاء صدى ذلك في كتب الأدب والنواذر ودواوين الشعر، فصورت جانبا كبيرا من حياة العصر العباسي الأول، ومثال ذلك قول أبي نواس(2):

أَلَا خُذْهَا كِمِصْبَاحِ الظَّلَامِ
أَشْبَهْهَا وَقَدْ صُفِّتْ صُفُوفًا
فَجَاءَتْ كَالدَّمُوعِ صَقًّا وَحُسْنًا
تَرَى إِبْرِيْقَنَا كَالطَّيْرِ سَامِ
وَخَذُ مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ، وَصَيْفِ
فَأَحْيَانًا نُقَطُّ بُّ حَاجِبِيهَا
سَالِيَةَ أَسْوَدٍ، جَعَدٍ، سُخَامِ
بِأَشْيَاخِ مَعَمَّةٍ، قِيَامِ
كَقَطْرِ الطَّلِّ فِي صَافِي الرِّخَامِ
لَهُ فَرْخَانٍ مِنْ دُرٍّ وَسَامِ
رَخِيمِ الدَّلِّ، مَلْثُوعِ الْكَلَامِ
وَأَحْيَانًا تَنْتَنِي كَالْحُسَامِ

(1) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 88.

(2) - انظر المصدر نفسه، ج3/ص: 279.

فالشاعر في هذه التشبيهات يعرض لأبعاد حضارية عاصرها في بيئته، متمثلة في الكرمة التي عرفها العباسيون وأخذوا منها خميرتهم وهي هنا ذات عنب أسود، ثم الحديث عن الحلقات التي كان يعقدها علماء الكلام ورجال الدين في المساجد، وقد تحولت هذه المجالس من مجلس علمي إلى مجلس خمري، ثم حديثه عن الرخام كفعل تدليل على فن العمارة في العصر العباسي، ثم حديثه عن الجواري والساقيات والوصيفات اللواتي كن طبقة خاصة في المجتمع العباسي.

ويعمد أبو نواس إلى التشبيه البليغ مزيلا كل الفواصل الفارقة بين المشبه والمشبه به، وفي هذا دليل على قوة العلاقة بينهما وكأنهما شئ واحد لا فارق بينهما، من ذلك قوله(1):

لا تَبْكِ ليلي ، ولا تطرَبِ إلى هِنْدِ
كأساً إذا انحدرت في حلقِ شاربها
فألخمرُ ياقوتةٌ ، والكأسُ لؤلؤةٌ
وأشربُ على الورْدِ من حمراءِ الورْدِ
أجدتُهُ حُمْرَتها في العينِ والخدِّ
من كفِّ جاريةٍ ممشوقةٍ القَدِّ

لاشك أن خمرة أبي نواس هي فتاته البكر التي لم يلمسها أحد، إذ صور الكأس التي حوت الخمرة باللؤلؤة للدلالة على الطهارة، وكان أبا نواس يبحث في معجمه الشعري عن كل ما يعلي شأن هذه الخمرة ليجعلها مقدمة على غيرها من الموصوفات.

ونظراً لأن القوم قد بلغوا الغاية في التأنق والتحضر، أتوا بما لم يأت به غيرهم، وأحسنوا في التخيل واستحضر الصور البديعة، فهذا شاعرنا يصف النرجس الذي ازدانت به بساتينهم وحدائقهم، فيقول(2):

لدى نرجس غض القطاف ، كأنه
مخالفة في شكلهن فصفرة
إذا ما منحاه العيون عيون
مكان سواد والبياض جفون

والتشبيه من أكثر الوسائل شيوعاً عند شعراء العصر العباسي الأول، ومن بينهم بشار بن برد لقرب تناوله وسهولة إدراكه، غير أن ما يستوقفنا هو تلك الصور التي أبدعها شاعرنا الفاقد للبصر، ومع ذلك استطاع أن يحس تأثير الأشياء من حوله ويتمثلها وعيه، فينقلها عبر خيال متوقد، قد لا يتمكن الشاعر المبصر من رصده والتعبير عنه، من ذلك قوله(3):

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها

(1) - أبو نواس، المصدر السابق، ج3/ص: 106.

(2) - المصدر نفسه، ج3/ص: 307.

(3) - ديوان بشار بن برد، ج1/ص: 46.

إن المتأمل للصورة الفنية في البيت السابق، يجدها صورة مركبة متعددة الأطراف، شبه فيها الشاعرُ الغبارَ القاتمَ المنبعث من احتدام المعركة، والسيوف اللامعة وسط هذا الغبار، بالليل البهيم الذي تتساقط نجومه، ولاشك أنها صورة بصرية قلما يصل إليها شاعر يتمتع بكامل حواسه، لما فيها من خيال خلاق، فما بالك بشاعر ضريير لم ير جيوشاً، ولم يشهد معركة، يعمل خياله ويحسن تصوير صليل السيوف وتطاير غبار المعركة الذي ملأ الفضاء حتى سد الأفق، فأصبح النهار ليلاً، بسبب بياض السيوف في سماء ذلك النقع المتطاير، وهي تتخاطف يمنه ويسره وأعلى وأسفل في حركة عشوائية وكأنها نجوم متساقطة، وقد أعجب بهذا البيت النقاد القدماء والمحدثين، حتى قال أحدهم بعد أن عقد له مقارنة بأبيات لغير بشار تصف مثل ذلك: "إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل، ومن كرم الموقع التأثير في النفس ما لا يقل مقداره ولا يمكن إنكاره وذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره، وهو أن جعل الكواكب تهاوى، فأتم الشبه، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلّت من الأغمد وهي تعلو وترسب، وتجيئ وتذهب، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها في أثناء العجاجة، وكان لهذه الزيادة حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل"⁽¹⁾، كما أنشد الجاحظ بيت بشار السابق ثم قال: "وهذا المعنى قد غلب عليه بشار"⁽²⁾.

واستعان ابن منذر بالصورة التشبيهية لإبراز معانيه التي رامها، ومن نماذج ذلك قوله يمتدح يحيى اليرمكي⁽³⁾:

ترى الناس إجلالاً له وكأنهم
غرائق ماءٍ تحت بازٍ مصرير⁽⁴⁾

فابن منذر هنا يوظف التشبيه التمثيلي، مصوراً الناس وهم يلهجون بالإكبار والإعظام ليحيى بن خالد بهيئة ذلك الغرنوق، وهو طائر مائي، وهو يصيح أشد الصياح وأقواه عندما يجابهه الصقر ويفاجئه، وقد أضفى هذا التصوير على التشبيه جمالاً وطرافة، وأمدّه بالصورة الصوتية المسموعة، وهو تصوير يثير في النفس الرفعة والهيبة والإجلال الذي يكنه الناس ليحيى في وجدانهم، ويستشعرونه في حناياهم، ولا نزع من هذه الصورة التي استشفها ابن منذر من الطبيعة الحية كانت وليدة تأمل وانتقاء واختيار؛ لتناسب هذا الشعور بالإجلال والإعظام لممدوحه، ولكنها "انبثاق تلقائي حر يفرض نفسه على الشاعر كتعبير وحيد عن لحظة نفسية انفعالية تريد أن تتجسد في حالة من الانسجام مع الطبيعة من حيث هي مصدرها

(1) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مطبعة المدني، القاهرة، دون طبعة وتاريخ، ج1/ص: 175.

(2) - الجاحظ، الحيوان، ج3/ص: 65.

(3) - هو أبو عليّ يحيى ابن الوزير خالد بن برمك الفارسيّ، و قد كان خالد من رجال العالم، توصّل إلى أعلى المراتب في دولة أبي جعفر، ثم كان ابنه يحيى كامل السؤدد، جليل المقدار، بحيث إنّ المهديّ ضمّ إليه ولده الرّشيد، فأحسن تربيتّه، وأدبه، فلمّا أفضت الخلافة إلى الرّشيد، ردّ إلى يحيى مقاليد الأمور، ورفع محلّه، وكان يخاطبه: يا أبي، فكان من أعظم الوزراء، انظر شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9/ص: 59.

(4) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 146.

البعيد الأغوار، وتنفرد عنها ربما إلى درجة التناقض والعبث بنظامها وقوانينها وعلاقتها، تأكيداً لوجودها لخاص، ودلالاتها الخاصة"⁽¹⁾.

كما اعتمد ابن منذر على الصورة التشبيهية التامة في سياق الرثاء، وذلك في قوله⁽²⁾:

وأرانا كالزرع يحصده الدهـ ر فـمـن بـين قـائـمٍ وحصـيد
فكأننا للموت ركبمحتـو ن سـرـاعاً لمنهـل مـورود

لقد صور الشاعر الموت وهو يحتصد النفوس احتصاداً، فلا منجى منه إذن، ولا مهرب، والناس إزاءه ما بين قائم ينتظر لحظته، وبين حصيد أتى عليه الحمام، فاختطف روحه واستلها من بين ذويه ومحبيه، ثم يعمد إلى التفصيل في بيته الثاني، فيقرر بأن الناس حيال القضاء ركب عجلون مسرعون إلى ورد ذاك المنهل المتمثل في الموت، ولا شك أن هذا النحو من التصوير - وبخاصة في سياق الرثاء - يزيد المعنى وضوحاً وانطباعاً لدى المتلقي؛ من خلال إبراز ذلك القهر والضعف الإنساني أمام الموت "والشاعر الأصيل لا يشبه شيئاً بآخر إلا لأنه يريد أن يكتشف من خلال العلاقة بينهما معنى أعمق وأشمل من كل واحد منهما على حدة"⁽³⁾.

"ومن أحسن المحدثين تشبيهاً في الحرب، مسلم بن الوليد الأنصاري"⁽⁴⁾، الذي مدح أحد أبطالها وأثنى عليه فقال⁽⁵⁾:

كالليث بل مثله الليث الهصور إذا غنى الحديد غناءً غير تغريد
يلقى المنية في أمثال عدتها كالسيل يقذف جلموداً بجمود
إن قصر الرمح لم يمش الخطا عدداً أو عرد السيف لم يهـم بتغريد
إذا رعى بلداً دانى مناهله وإن بنين على شحط وتبعيد

ويعد التشبيه من أهم الصور البيانية في قصائد الشاعر الفذ دعبل الخزاعي لكثرتة ودوره الهام في الجمع بين المتناقضات التي تجد صداها حقيقة في العصر العباسي الأول، وهو ما يؤدي إلى تقريب المعاني وتأكيد المقاصد الشعرية، ومن شواهد هذه البيئة في شعره قوله⁽⁶⁾:

(1) - محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، دون طبعة وتاريخ، ص: 33.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 145.

(3) - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1992م، ص: 342.

(4) - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1/ص: 99.

(5) - ديوان صريع الغواني، ص: 19.

(6) - ديوان دعبل الخزاعي، ص: 22.

إذا ما اغتدوا في روعة من خيولهم
وإن لبسوا دكن الخزوز وخزها⁽¹⁾
وأثوابهم قلت البروق الكواذب
وراحو فقد راحت عليك المشاجب⁽²⁾

فقد شبه الشاعر الفرسان بالبروق الكواذب في البيت الأول، والقوم المتزينين بأبهي حللهم بالمشاجب، ليعطي الصورة أبعاد فنية جديدة، فهؤلاء القوم لهم مناظر تملؤها الروعة والرهبية إلا أن هذه المناظر وهمية ليس لها فاعلية في الواقع الحربي والقتالي، إذ لجأ الشاعر إلى حذف الأداة، ثم عمد إلى الإشارة إلى البروق الكواذب وهي التي لها صوت يكاد يذهب بالأسماع ووميض تغشى له الأبصار بالغيث والمطر، غير أن هذا الصوت واللمعان لا يلبثان إلا هنيهة من الزمن، أي: أنها بروق كاذبة لا فائدة منها.

وهكذا جعل الشاعر هذه الصورة في الشطر الأول تقابل الصورة في الشطر الثاني وهذا التقابل بين الشطرين أنتج لنا صورة تشبيهية قائمة على المماثلة، فالشطر الأول مشبه والشطر الثاني مشبه به وطرفا الصورة متماثلان، وهذه الهيئة في حالة القتال أما في حالة السلم فيشير إلى الحالة العظمى التي يظهر فيها القوم وقد لبسوا الخزوز الخضراء والداكنة، فهم لا يمتلكون من مقومات الملك والعظمة إلا الثياب والمظهر، ثم يتحول عن هذه الهيئة إلى ما يقابلها ويتواز معها في المظهر والجوهر فليجأ إلى المشاجب متخذاً منها عنصر موازيا لأولئك القوم معتمداً على بنية التشبيه البليغ الذي ينتج لنا مماثلة بين طرفي الصورة.

لقد صب الشعراء في المجتمع العباسي المتمدن كامل اهتمامهم على الازدهار الاجتماعي والتقدم العلمي والثقافي والتغيير الذي طرأ على هذا المجتمع، فراحوا يصفون القصور والرياض والمجالس والزهور وتدفق المياه تصويراً جميلاً، كل هذا جاء بلغة حضارية تماشي العصر العباسي الذي يمثل نقلة جديدة في حياة هذه اللغة، ناهيك عن كون بيئة العراق بطبيعتها الجميلة الخلابة ميداناً للصورة الحضارية التي استقى منها شعراء العصر العباسي خيالهم وأفكارهم، وفي تجربة علي بن جهم الشعرية أكبر دليل على ذلك، فقد انتقل من البداوة إلى الحضارة، لذلك عرف لغة البادية وجزالتها ثم راح يمنحها الصورة الحضارية التي عاشها، فنجده يقول في حضرة الخليفة المتوكل⁽³⁾:

(1) - الخزوز من الخَزُّ: وهي ثيابٌ تُنْسَجُ مِنْ صُوفٍ وَإِبْرَيْسِمٍ وَهِيَ مُبَاحَةٌ، وَقَدْ لَبَسَهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (خزز)، ج5/ص: 345.
(2) - الْمِشْجَبُ، وَهِيَ حَشَبَاتٌ مُنْدَاخِلَةٌ مُؤَنَّفَةٌ تُنْصَبُ وَتُنْشَرُ عَلَيْهَا الثِّيَابُ، انظر ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (شجب)، ج3/ص: 249.

(3) - هو جعفر المتوكل على الله بن محمد بن هارون الرشيد، أبو الفضل: خليفة عباسي، ولد ببغداد سنة ست ومائتين للهجرة وبويع بعد وفاة أخيه الواثق، كان جواداً، ممدحاً، محباً للعمران، من آثاره المتوكلية ببغداد، أنفق عليها أموالاً كثيرة، وسكنها، توفي سنة سبع وأربعين ومائتين، انظر الزركلي، الأعلام، ج2/ص: 127.

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَافِكَ لِلْوُدِّ وَكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ
أَنْتَ كَالدَّلْوِ لَا عِدْمَانَكَ دَلْوًا مِنْ كِبَارِ الدِّلَالِ كَثِيرِ الدَّنُوبِ⁽¹⁾

ولكنه بعد أن استوطن بغداد وعاش في نعيمها وأبهتها، انعكست حضارتها على لغته وألفاظه وتعبيراته، فقال في قصيدته الرصافية المشهورة⁽²⁾:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمر على جمر

ومن تشبيهاته الجميلة ما نلاحظه في وصف سحابة كثيفة بسطت سطوتها على سماء بغداد ليلاً فلم تبرحها حتى تفجرت أوديتها، وغردت طيورها، واكتست معالمها بحل من النور أشكالاً وألواناً، وكأنها عروس تتهادى للقاء عريسها وقد ازينت بالوشي والبرود⁽³⁾:

فما برحت بغداداً حتى تفجرت بأودية ماتستفيقُ مدودها
وحتى رأينا الطيرَ في جنباتها تكاد أكَفُ الغانياتِ تصيدها
وحتى اكتست من كلِّ نورٍ كأنها عروسٌ زهاها وشيها وبرودها

ومن الواضح أن الصورة التشبيهية لدى شعراء العصر العباسي الأول قريبة التناول، سهلة المأخذ، واضحة الدلالة، غزيرة الإيحاء، ومن ينعم النظر في تصاويرهم الفنية يجد جملة من المقومات التي استندت إليها مثل هذه الصورة وقامت عليها، لعل أوضحها وأقربها: الإيحاء والتكثيف الدلالي والحوارية والموسيقية وملاءمة اللفظ للمعنى، إذ لا تكاد تخلو قصيدة من قصائد القرن الثاني للهجرة من هذه التشبيهات الرقيقة التي شكلت لدى الشعراء عنصر الخيال أو التخيل، فأطلقوا من خلاله على ألوان كثيرة من منابع الحس والشعور والجمال الناتجة عن التحضر.

ب- الصورة الاستعارية:

تعد الاستعارة من أهم ألوان البيان، وذلك لعلاقتها الوطيدة بالصورة الشعرية، والاستعارة لغة: مأخوذة من قولهم استعار المال، إذا طلبه عارية واستعرنا الشيء واعتورناه وتعاورناه وقيل مستعار بمعنى متعاور أي متداول⁽⁴⁾.

(1) - ديوان علي بن جهم، ص: 117.

(2) - المصدر نفسه، ص: 141.

(3) - المصدر نفسه، ص: 56، 57.

(4) - انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (عور)، ج4/ص: 618.

أما في الاصطلاح فهي: "أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيّره المشبه وتجرّيه عليه"⁽¹⁾، أو هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها، مثل أم الكتاب ومثل جناح الذل ومثل قول القائل الفكرة مخ العمل، فلو كان قال: لب العمل لم يكن بديعاً⁽²⁾.

ومن البديهي أنّ الشاعر ابن بينته، فهو يغترف من محيطه الذي يدركه بحواسّه، ليبيّن صورته الفريدة التي تنبض بالجمال وتنسم بالغموض، فيستعير للتعبير عن جمال محبوبته بالطّبي أو الشّمس أو الورد، وعن كمال ممدوحه بالأسد والبحر والغيث والمطر، وهكذا ينطلق الشاعر ممّا في متناوله إلاّ أنّه لا ينقله نقلاً أميناً، ولا يجعله مرآة عاكسة للواقع، وإنّما يخلق عالماً خياليّاً مادته الواقع ومسرحه الخيال⁽³⁾، وفي كثير من الأحيان يجاوز الشاعر حدود العقل والمنطق اللذين يبرّرهما حال الشاعر التي تختلف عن الناس، ونفسيّته الفريدة المليئة بالشّعور، المثقلة بالإحساس.

ومن النماذج الاستعارية في قصائد العصر العباسي الأول قول أشجع السلمي في وفاة الرشيد⁽⁴⁾:

إنّ المنايا أنألته مخالبتها ودونه عسكر جم الكراديس
أوفى عليه أوفى بأشبله والموت يلقي أبا الأشبال في الخيس

جسد الشاعر المنايا وشخصها، وجعل لها مخالبا، تنقض بها على فريستها، على سبيل الاستعارة المكنية، وبالرغم من أن الخليفة يحيط به العسكر والجند والحراس من كل مكان، إلا أنهم لم يستطيعوا دفع المنية عنه، وقريب من هذا المعنى قوله في رثاء عيسى بن جعفر لما مات⁽⁵⁾:

إن النجوم بكنت له ولمجده في من بكى

لقد أبكى الشاعر النجوم في بيته السابق، والبكاء صفة من الصفات الإنسانية، أضفاها الشاعر على النجوم، كي يثير فينا الحزن والبكاء، وهي استعارة مكنية، حيث جعل الشاعر للنجوم مقلتان، يبكي بهما فقد عيسى بن جعفر، مشاركةً منه لأولئك الذين يبكونه أيضاً.

(1) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 67.

(2) - ابن المعتز، كتاب البديع، تحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1433هـ/2012م، ص: 11.

(3) - حسين خالفي، البلاغة وتحليل الخطاب، دار الفرابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2011م، ص: 88.

(4) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص: 129.

(5) - المصدر نفسه، ج1/ص: 133.

كما أولى أبو نواس الصورة الاستعارية عناية كبيرة، حيث جعل الخمر كائنا حيا يتمتع بكل صفات الحياة بدءاً من أول خلقه و حتى نهايته، إذ يقول(1):

فاسقيني البكرَ التي اختَمَرَتِ
بِخَمَارِ الشَّيْبِ فِي الرَّحْمِ
نُتِمَّتْ أَنْصَاتُ الشَّبَابِ لَهَا
بَعْدَ مَا جَاذَتْ مَدَى الْهَرَمِ

ورغم أن الصورة السابقة تضم عددا كبيرا من المفارقات، إلا أنها تؤكد اهتمام الشاعر بالتشخيص الذي يتجسد من خلال إضفاء الإنسانية على كل المحسوسات والماديات، حيث جعل أبو نواس من الخمرة جنينا قد علا الشيب رأسه، ثم عاودته نضرة الشباب بعد الشيخوخة واجتيازه سن الهرم للدلالة على عنصر الحياة المتجدد.

ولم يكن أبو نواس في حبه للخمرة وتصوير مجالسها وسقاتها وندمانها غريبا عن الوسط الذي يعيش فيه، فقد شاعت مجالس الأُنس والمجون والطرب في أغلب أوساط مجتمعه وساد التحلل والإباحية طبقات واسعة من المجتمع العباسي آنذاك.

بل إن خلفاء بني العباس وأمراءهم و وزراءهم قد أسهموا إسهاما كبيرا في إشاعة موجة المجون واللهو في هذه المجالس، وذلك من خلال تشجيعهم لها، وتزويدها بمختلف وسائل الترف والرخاء الذي هيأته الحضارة العباسية، من هنا أصبحت كثيرة هي القصائد التي قالها الشعراء في مجالس الخلفاء والأمراء والقادة، وعرضوا من خلالها جوانب اللذة والمتعة التي كانت الخمرة والغزل بالغلمان والجواري المغنيات والساقيات تضيفها على هذه المجالس.

وقد وصل شغف أبي نواس بالخمرة أن جعل منها كائنا حيا يحس ويشعر وله ككل مخلوق تاريخ مكتوب، وماض مسطور، وهو لهذا لم يدع شيئا يتصل بالخمر من قريب أو بعيد إلا تناوله بالوصف و عرج عليه بالمدح والثناء، فقد وصف الأكواب والكؤوس والدنان والندمان والسقاة والخمارين والكروم، ولم يفته أن يذكر أصناف الخمر و طريقة صنعها، ولم ينس أن يفرق بين هذه وتلك في الطعم واللون والرائحة، ولم يقصر في بيان النشوة ودبيبها في الأعضاء، فالخمرة التي يشربها أبو نواس خمرة حسية ما في ذلك من شك، ولكنه من فرط شغفه بها وتقديسه لها قد انتقل بها من الحسية إلى المعنوية، فجعلها فكرة شائعة تحس بها الروح غير أنها لا تدرك كنهها، من ذلك مثلا قوله(2):

فاحبسْ يديكَ عن التي بقيتْ بها
قد قلتُ حين تَشَوَّفْتُ في كأسها
نفسٌ تشاكلُ أنفَسَ الأحياءِ
وَتَضَايَقَتْ كَتَضَايِقِ العذراءِ
و تشبُّبُكُ الأحشاءِ بالأحشاءِ
لا بدَّ من عضِّ المِراشِفِ فاسكُنِي

(1) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 269.

(2) - المصدر نفسه، ج3/ص: 07.

لقد جعل الشاعر من خمرته فتاة عذراء متمردة تتمتع بكل مقومات الجمال والأنوثة، فهو يدعوها من خلال أبياته الجميلة والحضرية إلى الهدوء والسكينة حتى يقضي وطره منها، فيطفئ شهوته، ويبرد جحيمه في عناق وحشي التوحد.

ولا يكتفي أبو نواس بالتشخيص السابق، بل يتعداه إلى تشبيه الخمرة بفتاة تخطب وتزف، إذ يقول⁽¹⁾:

يا خَاطِبَ القَهْوَةِ الصَّهْبَاءِ يَمُهْرُهَا
قَصَّرَتْ بِالرَّاحِ فَاحْذَرِ أَنْ تُسَمَّعَهَا
إِنِّي بَدَلْتُ لَهَا لَمَّا بَصُرْتُ بِهَا
بِالرَّطْلِ يَأْخُذُ مِنْهَا مِلاَهُ ذَهَبَا
فِيحْلِفَ الكَرْمُ أَنْ لَا يَحْمِلَ العِنْبَا
صَاعاً مِنَ الدُّرِّ وَالْيَاقوتِ مَا نُقْبَا

كما جعل أبو نواس من الخمرة امرأة يبذل ماله للحصول عليها، وهو يزنها بالذهب قبل أن يراها، وبالياقوت والدر بعد رؤيتها، ويتجاذب أطراف الحديث معها في حوارية شيقة تحدد فيها العروس شروطها في الزوج المستقبلي قائلة⁽²⁾:

لَا تُمَكِّنِّي مِنَ العَرَبِيدِ يَشْرَبُنِي
وَلَا المَجُوسِ فَإِنَّ النَّارَ رَبَّهُمْ
وَلَا السَّفَالِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ وَلَا
وَلَا الأَرَاذِلِ إِلَّا مَنْ يُوقِّفُنِي
وَلَا اللُّئِيمِ الَّذِي إِنْ شَمَّنِي قَطْبَا
وَلَا اليَهُودِ وَلَا مَنْ يَعْبُدُ الصُّأْبَا
غِرَّ الشَّبَابِ وَلَا مَنْ يَجْهَلُ الأَدْبَا
مَنْ السُّقَاةَ وَلَكِنْ إِسْقِنِي العَرَبِيَا

والواضح أن أبا نواس رسم بهذه القصيدة صورة الخمرة الفتاة بعد أن منحها الروح وحولها إلى حسناء تخطب وامرأة تطارح الغرام، وقد قابل بين الخمرة والمرأة مقابلة دقيقة بارعة وصريحة عكست طبيعة العصر ومعالم الحضارة.

أما ابن منذر فقد استعمل البنية الاستعارية للتعبير عما يختلج في نفسه راسماً بذلك صوراً تأخذ بلب المتلقي، ومن نماذج ذلك قوله يمدح يحيى البرمكي⁽³⁾:

أَتَانَا بَنُو الأَمَلَاكِ مِنْ آلِ بَرْمَكِ
لَهُمْ رَحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى العَدَا
فَتَظَلَمَ بَغْدَادٌ وَتَجَلَّوْنَا الدُّجَى
إِذَا نَزَلُوا بِطَحَاءِ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ
فَمَا خَلَقَتْ إِلَّا لِجُودِ أَكْفَهُمْ
إِذَا رَاضَ يَحْيَى الأَمْرَ ذَلَّتْ صَعَابُهُ
فِيَا طَيِّبَ أَخْبَارٍ وَيَا حَسَنَ مَنْظَرِ
وَأُخْرَى إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ المَطْهَرِ
بِمَكَّةَ وَمَا حَجُّوا ثَلَاثَةَ أَقْمَرِ
بِيحْيَى وَبِالْفَضْلِ بِنِ يَحْيَى وَجَعْفَرِ
وَأَقْدَامَهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادِ مَنْبَرِ
وَحَسْبُكَ مِنْ رَاعٍ لَهُ وَمدبِرِ

(1) - أبو نواس، المصدر السابق، ص: 49.

(2) - المصدر نفسه، ص: 50.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 145.

فقد جسد الشاعر الأمر في صورة حية مجسمة بعد أن كان من المجردات؛ حيث جعل منه كأننا عصيا متمردا قد روض بعد طول عناء، فصار سهل الانقياد يخضع ليحيي بفضل حنكته، وحسن رأيه.

ويتفاوت الشعراء في قدرتهم على إعادة صياغة العلاقة بين الموجودات من حيث شبكة التحولات، من حسي إلى مجرد، ومن مجرد إلى ذهني، وما يرافق هذا التحول من تبادل في الصفات والخصائص كالصوت والحركة واللون، ذلك أن العلاقة بين طرفي الاستعارة تكشف تفاوتاً في البناء الفني، فالشاعر حينما يعمد إلى تشكيل الاستعارة، فإنه يستمد من العناصر الحسية وغير الحسية مادة يعيد صياغتها وفق قدرته التخيلية ومستوى تأثيره وانفعاله وتوتره، وهو مالا يتأتى لغير الشعراء الذين يملكون رؤية خاصة تمكنهم من خلق علاقات جديدة تلغي الحدود بين المادي والمجرد.

ومن نماذج تجسيد المجردات أيضاً، وإلباسها ثوبا حسيا قول جعفر بن علبه الحارثي⁽¹⁾ وهو يصف صبره في مواجهة مصيره المحتوم داخل غياهب السجن⁽²⁾:

فَلَا تحسبي أنني تخشعت بعدكم لشيءٍ وَلَا أنني من المموت أفرق
وكيف وفي كفي حسام مذلق يعرض بهامات الرجال ويعلق

وقد استعان الشاعر بصيغة الاستفهام الذي يحمل في طياته تعجبا واستبعادا، ذلك أنه لا يابيه بالموت ولا يخاف السجن، ويبدو أن جلده على مواجهة نوائب الدهر أكبر من أن تنهض به اللغة المعيارية المألوفة، فعمد إلى البنية الاستعارية مشخصا السيف في صورة حيوان مفترس يعرض هامات الرجال ويلعق دماءهم.

وانظر إلى هذه الصورة التي يجسد فيها علي بن جهم الدهر حيوانا أليفا ينقاد ببسر منقطع النظر ليحلبه مدلا على جلده وقوة صبره على المكاره⁽³⁾:

حَلَبْنَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَمَرَّتْ بِنَا عُقْبُ الشَّدَائِدِ وَالرَّخَاءِ
فَلَمْ آسَفْ عَلَى دُنْيَا تَوَلَّتْ وَلَمْ نُسَبِّقْ إِلَى حُسْنِ الْعَزَاءِ

وفي قول الشاعر "حلبنا الدهر" ثراء دلالي يقتضي التأمل في السياق المكاني والنفسي، ذلك أن ابن جهم لا يملك من أمره شيئا، غير أن صروف الدهر لم تثبط عزيمته وتجلده، فقد مر بتجارب وشدائد جعلته قادرا على تحمل أعباء الحياة وتكاليفها.

(1) - هو جعفر بن علبه بن ربيعة الحارثي، أبو عارم، شاعر غزل مقل، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان فارسا مذكورا في قومه، توفي سنة أربع وخمسين مائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج2/ص: 125.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، ج13/ص: 35.

(3) - ديوان علي بن جهم، ص: 83.

وابن جهم كان يحرص على بث الحياة في الصوامت وقد عبر عن ذلك بالاستعارات من مثل قوله(1):

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه حسن الرياض وصوت الطائر الغرد

ففي لفظة "يضحك" استعارة مكنية حيث شبه ورود تلك الروضة الصفراء بالإنسان الذي يضحك، وحذف المشبه به وأبقى شيئاً من لوازمه، وهو الضحك، للدلالة على تقدم القوم وتأنيهم، إذ بلغوا شأوا عظيماً من التحضر.

ومهما يكن من أمر، فإن شاعرنا لم يدخر جهداً في وصف مظاهر الحضارة ومباهجها، وكل ما يتعلق بها من جمال طبيعي، مازجا بين الطبيعة الحية والطبيعة الصناعية، وهو ما يعد تحولاً جديداً في تاريخ الشعر العربي، حيث فتحت البيئات الحضارية الآخذة بالتمدد آفاقاً جديدة في الوصف لم يعهدها الشعر من قبل، ومن ذلك مثلاً قوله(2):

| | |
|-------------------------------------------|------------------------------------|
| نَظَمْنَ الْفَسَّيفُوسَ نَظْمَ الْحَلِيِّ | لِعَوْنِ النِّسَاءِ وَأَبْكَارِهَا |
| فَهُنَّ كَمُصْطَبِحَاتِ بَرَزَنْ | بِفِصْحِ النَّصَارَى وَإِطَارِهَا |
| فَمِنْهُنَّ عَاقِصَةٌ شَعَرَهَا | وَمُصَلِحَةٌ عَقْدُ زُنَارِهَا |
| وَسَطِحٌ عَلَى شَاهِقٍ مُشْرِفٍ | عَلَيْهِ النَّخِيلُ بِأَثْمَارِهَا |
| إِذَا الرِّيحُ هَبَّتْ لَهَا أَسْمَعَتْ | غِنَاءَ الْقِيَانِ بِأَوْتَارِهَا |
| وَقَوَارِةٍ تَارُهَا فِي السَّمَاءِ | فَلَيْسَتْ تُقَصِّرُ عَنْ تَارِهَا |

قدم لنا ابن جهم من خلال الأبيات السابقة صورة فنية جميلة لأحد قصور بني العباس التي اكتست حلاً بهية هي أشبه ما تكون إلى حلي النساء، أما نافورته التي تطاول عنان السماء في إصرار وتصميم فقد شبهها بمكلوم يطالب بثأره، وفي ذلك دلالة قاطعة على غزارة مياها وعمقها، إذ صممت بعناية وإتقان لتبهر كل من رآها.

ومن النماذج الاستعارية في شعر صريع الغواني قوله(3):

| | |
|-----------------------------|---------------------------------|
| إذا ما أدار الكأس ثنى بطرفه | فعاطاهم خمرا و عاطاءهم سحرا |
| إلأن دعا للسكر داع فموتوا | و كان مدير الكأس أحسنهم سكرا |
| أدار علي الراح البيات فصيرت | وسادا له منه الترائب و النحرا |
| سلكنا سبيلا للصبأ أجنبيية | ضمنا لها أن نعصي اللوم و الزجرا |
| بركب خفاف من زجاج كأنها | ثدي عذارى لم تخف من يد كسرا |

(1) - ابن جهم، المصدر السابق، ص: 89.

(2) - المصدر نفسه، ص: 30.

(3) - ديوان صريع الغواني، ص: 35.

لقد أكسب صريع الغواني في البيت الأول صفة المحسوس للسحر الذي يعد من المعنويات، إذ أحسن تصوير النظرات التي يرمق بها الساقى شاربي الخمر فنتحول سحرا مساويا لتأثير الخمرة التي تنساب في أوصال الندامى، وفي ذلك دلالة قاطعة على علاقة الشاعر الحميمة بالخمرة، فهي عنده قرينة للمرأة التي طالما شغف بها وبجمالها.

وله في القناعة والصبر والاحتساب والابتسام لبرائن الزمان قوله(1):

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| شكى الزمان به أمضى به قدراً | إن الزمان لمحمود على الأبد |
| لن يبطئ الأمر ما أملت أوبته | وإن أعانك فيه رفق متئد |
| والدهر أخذ ما أعطى مكرماً | أصفى ومفسد ما أهوى له بيد |
| فلا يغرنك من دهر عطيته | فليس يترك ما أعطى على أحد |

وفي الأبيات تصوير حسن، واستعارة بديعة، فقد جعل مسلم الدهر يأخذ ويعطي ويكدر العيش وينغصه، ويفسد ما يهواه الإنسان ويميل إليه، وقد تمكن شاعرنا من خلال الصورة الفنية السابقة أن يتجاوز الواقع المنطقي؛ محلقاً بخياله الخصب في أرض بكر جديدة، مانحاً للمعنويات فعلاً، ولم تكن تلك الجسور التي أقامها بين المعنويات والمحسوسات إلا بفضل ملكة الخيال، وبفضل المجاز الذي فيه القدرة على تقويض الحائط بين الحقيقة والخيال.

ج- الصورة الكنائية:

إن الكناية باب من أبواب البلاغة وركن من أركان الفصاحة، شأنها في ذلك شأن الاستعارة، بحيث لا تقل أهمية عنها، إلا أنها تفتقر إلى نوع من الدقة والتفصيل فهي تحمل شيئاً من الغموض والستر لكنه غموض بناء.

والكناية لغة: أن تتكلم بالشيء، وتريد غيره، يقال: كنييت بكذا عن كذا إذا تركت التصريح به، فبابه: كنى يكنى كرمى يرمى، وقد ورد: كنا يكنوا كدعا يدعو، وهي من كنييت الشيء أكنيه، إذا ستر بغيره، وقيل: كنانة، بنونين لأنها من "الكن" وهو الستر، وتعريف الكناية مأخوذ من اشتقاقها، واشتقاقها من الستر، ويقال كنييت الشيء إذا سترته، وإنما أجري هذا الاسم على هذا النوع من الكلام لأنه يستتر معنى ويظهر غيره، ولذلك سميت كناية(2).

أما اصطلاحاً فهي: " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ إليه ويجعله دليل عليه، مثال ذلك قولهم هو طويل النجاد يريدون طويل القامة، وفي امرأة نؤوم

(1) - صريع الغواني، المصدر السابق، ص: 34.

(2) - مجد الدين محمد الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة(كني)، ج1/ص: 1228، وأحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، دون طبعة، 1987 م، ج3/ص: 154.

الضحى المراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود...⁽¹⁾.

وقد استعان شعراء العصر العباسي الأول بالكنائية للوصول إلى ما راموه من معانٍ؛ ما كانوا ليصلوا إليها من غير طريق الكناية؛ مخاطبين بذلك فطنة المتلقي، مستثيرين ذكاءه، مستغلين طاقات اللغة الدلالية في تلميح جميل، وبطريقة مختزلة مكثفة "وتبدو قيمة التعبير الأساسية في إبداع المعنى، والإيحاء به، وعدم المباشرة، واقتناص لازم المعنى، وإعمال الذهن لفهم المركب التعبيري الجديد، وتبدو قيمته كذلك في تمييزه بالتعبيرية المختزلة"⁽²⁾.

والحري بالذكر أن أغلب الصور الكنائية التي استخدمها شعراء هذا العصر تعكس ملامح التجديد نظرا لما حملته هذه الحقبة من حياة متحضرة غيرت الأذواق وأنماط التفكير، وإن كانت أوصافهم في الغالب لم تخرج تماما عما ورثوه من الجاهليين والإسلاميين، ذلك أن سنة التجديد تنطلق غالبا من الموروث القديم، وهو ما يؤكد الدكتور شوقي ضيف بقوله: "ظل العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون، وبذلك أبقوا للشعر العربي على شخصيته الموروثة، وقد مضوا يدعمونها دعما بما لاءموا بينها وبين حياتهم المتحضرة المرهفة، فإذا هي تتجدد من جميع أطرافها تجددًا لا يقوم على التفاضل بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة، بل يقوم على التواصل الوثيق"⁽³⁾.

ولم يغفل أبو نواس عن استخدام هذه الصورة في بناء نصوصه الشعرية لما تحققه من إبداع فني يزيد من جمالية القصيدة، ومن صور الكناية التي وردت بشكل مكثف أبياته التي قالها في وصفه للسفن التي كان الأمين يمتطيها أثناء تنزهه وسياحته في نهر دجلة، وقد كنى عنها بالمطايا المسخرة تسخيرا لم تسخر فيه لسليمان بن داود - عليهما السلام - ، وإن كان أبو نواس قد أثم بمبالغته هذه، إذ يقول⁽⁴⁾:

(1) - الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ج1/ص: 66.

(2) - محمد العبد، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، مدخل لغوي أسلوب، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1988م، ص: 107، 108.

(3) - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 159.

(4) - ديوان أبي نواس، ج1/ص: 299.

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايِيا
فَإِذَا مَا رَكابُهُ سِرْنَ بَرّاً
أَسَدًا بِاسْطاً ذارِعِيه يَغْدو
لَا يُعَانِيهِ بِاللِّجَامِ، وَلَا السَّوْ
عَجِبَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْه عَلَى سَوِ
سَبَّحُوا إِذَا رَأَوْكَ سَرَّتْ عَلَيْهِ
ذاتُ زَوْرٍ، وَمِنْسَرِّ وَجَنَاحِيْ

لَمْ تَسَخَّرْ لِصَاحِبِ المَحْرابِ
سار في الماءِ رَاكِباً لَيْتَ غابِ
أَهْرَتَ الشَّدْقِ، كَالْحِ الأَنْيابِ
طِ، وَلَا غَمَزَ رِجْلِهِ فِي الرِّكابِ
رَةَ لَيْتَ يَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ
كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ العُقَابِ
نَ، تَشُقُّ العُبابَ بَعْدَ العُبابِ

فالصورة الكنائية في الأبيات السابقة ساهمت في توسيع دائرة الرؤيا عند الشاعر، إذ لا بد لشاعر متميز كأبي نواس أن يعبر عن مظاهر التحضر في المجتمع العباسي حيث تعد القصيدة السالفة الذكر من لطائف ما سجله شعراء بني العباس في وصف السفن التي أخذت أشكالاً عديدة، مرة في صورة العقاب وأخرى في صورة الأسدوثلاثة في صورة الدلفين، وكلها كنايةات عن موصوف هو "السفينة"، ليختمها بمدح الخليفة الأمين والدعاء له.

ولم يتفرد أبو نواس بوصف عجائب الحضارة، بل كان هناك كثير من الشعراء المثقفين، الذين أسهموا في وصف مقتنيات العصر الحضارية، المادية منها والمعنوية، ومن هؤلاء محمد بن يسير الرياشي⁽¹⁾ الذي كان مولعاً بالثقافة والعلوم، حريصاً على شراء الكتب واقتنائها حيث كان يأنس بمجالستها فيهديه خياله إلى تصوير ذلك الأُنس والقرب منها فيقول⁽²⁾:

هم مؤنسون وألاف غنيت بهم
لله من جلساء لا جليسهم
لا بادرات الأذى يخشى رفيقهم
أبقوا لنا حكماً تبقى منافعها
فأيماً أدب منهم مددت يدي
إن شئت من محكم الآثار يرفعها
أو شئت من عرب علماً بأولهم
أو شئت من سير الأملاك من عجم
حتى كأني قد شاهدت عصرهم

فليس لي في أنيس غيرهم أرب
ولا عشيرهم للسوء مرتقب
ولا يلاقيه منهم منطلق ذرب
أخرى الليالي على الأيام وانشغبوا
إليه فهو قريب من يدي كذب
إلى النبي ثقات خيرة نجب
في الجاهلية أنبتني به العرب
تنبي وتخبر كيف الرأي والأدب
وقد مضت دونهم من دهرهم حقب

(1) - هو محمد بن يسير البصري، أبو جعفر، شاعر من أهل البصرة، كان مولى لبني أسد، أو بني رياش، عاش في عصر أبي نواس، وعمر بعده حيناً، توفي سنة عشر ومائتين للهجرة، انظر الأعلام، الزركلي، ج7/ص: 144.

(2) - الجاحظ، الحيوان، ج1/ص: 64.

يصف الرياشي في الأبيات السابقة شعوره اتجاه هذه الكتب، إذ يجد الأناج والطمانينة في مجالستها وتصفحها، فلا يريد غيرها جليسا، كما يتعجب من نقاء وسلامة من يعاشرها من السوء والباطل؛ لأن هذه الكتب لا تحدثه إلا بكل حسن ومفيد، وبالتالي فقد استعمل الشاعر مجموعة من الكنايات عن موصوف للدلالة على شيء واحد هو الكتاب، من ذلك مثلا قوله: "المؤنسون" و"جلساء"، كما أن في قوله "فهو قريب من يدي كئيب" كناية عن إلفه لتك الآداب و انعدام إحساسه بالغربة اتجاهها.

ومن خلال الاطلاع على أشكال الكناية عند الرياشي يتضح لنا أن هذا الشاعر كان مولعا بنهج سبيل الكناية والتعريض بدل التصريح بمعانيه ولعل مرد ذلك، إيمانه بأن الكناية مظهر بلاغي لا يدركه إلا من صفت قريحته ولطف طبعه.

كما اعتمد الحسين بن الضحاك على هذه الصورة في قوله يصف سفينة بنهر دجلة(1):

| | |
|----------------------|------------------------|
| سكناً إلى خير مسكونة | تيممها راغبٌ من أمم |
| كان بها نشر كافورة | لبرد نداها وطيب النسَم |
| مبرأة من وحول الشتاء | إذا ما طمى وحله وارتكم |

وقد أتاح لنا إتباع الشاعر للأسلوب الكنائي هنا أن نتصور ألفة العباسيين للبحر، فقد خرجوا في الفتوح، وأصبحوا ينتقلون عبره للتواصل مع باقي أطراف الخلافة الإسلامية المترامية، كما خاضوه طلبا للتجارة، بل والنزهة، وراحت يد الصناع تتفنن في صناعة زوارق خاصة بهذه الغاية القائمة على المتعة، ولنا أن نتمثل جمال تلك السفينة وفخامتها بما تحويه من متعلقات، حيث انصرف بن الضحاك عن أسلوب الإفصاح والتقدير ليميل إلى التلميح الجيد البارع في قوله: "خير مسكونة"، وهو ما جعلنا نتمثل ذلك المعنى المجرد للترف والأبهة من خلال صورة مرئية محسوسة نراها واقعا، ونلمسها حسا.

ومن الأمثلة الأخرى على اعتناء شعراء العصر العباسي الأول بالصورة الكنائية قول

أبي نواس يصف الخمرة(2):

| | |
|-----------------------------|--------------------------------------|
| لنا خمرٌ وأليس بخمرٍ نخلٍ | وَأَكِنَ مِنْ نِتَاجِ الباسِقَاتِ |
| كرائمٌ في السماء زهينٌ طولا | فَقَاتِ ثِمَارُهَا أَيْدِي الجُنَاةِ |
| قلابصٌ في الرؤوس لها ضروعٌ | تدر على أكف الحالبات |

(1) - ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج3/ص: 1069.

(2) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 66.

فقد كنى الشاعر في البيت الأول عن النخل بلفظة "باسقات" وهي كناية عن موصوف، وهكذا نجد أن وصف الطبيعة بلغ من التطور شأوا عظيما، إذ نحا به أبو نواس منحاً جديداً لم يكن معهوداً من قبل، فعندما يربط بين عشقه للخمرة، وهيامه بها ووصف النخلة، يجعل للنخلة مذاقاً خاصاً، وأن خمرها يختلف عن أي نوع من أنواع الخمر.

ومن صور الكناية التي تعكس بعض معالم الحضارة العباسية قول أبي دلامة⁽¹⁾:

أَبْصَرْتُ قَصْرًا لَهُ عَيْنٌ يُقَابِلُهَا فَكَدْتُ أَرْمِي بِسَلْحِي فِي سَرَائِلِي

وتظهر الكناية بوضوح في عجز البيت وهي كناية عن صفة الجبن والخوف من رؤية الفيل لضخامة حجمه، إذ شبهه بالقصر، وقد مزج الشاعر بين الاستعارة والكناية لإضفاء إيقاع موسيقي جميل، فضلاً عن إبراز المعنى بشكل واضح على الرغم من استخدامه ألفاظاً بذيئة إلا أنه رسم صورة ساخرة عن خوفه وهول المنظر استقى بعض تفاصيلها من بيئة عصره.

د- استعمال البديع:

جاء في القاموس المحيط البديع، المبتدع والمبتدع باسم الفاعل واسم المفعول، والبديع: الأمر الذي يجيء أولاً، وأبدع إبداعاً، الشاعر أتى بالبديع⁽²⁾، والبديع: المحدث العجيب، وهو أيضاً من أسماء الله عز وجل لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها "بديع السموات والأرض" فهو الخالق المخترع لا عن مثال سابق، والبديع الزق والسقاء الجديان⁽³⁾.

أما اصطلاحاً: فيقصد بالبديع ذلك العلم الذي يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسناً وجمالاً وطلاوة، وتكسوه بهاء ورونقاً بعد مطابقتها لمقتضى الحال ووضوح الدلالة⁽⁴⁾.

ولعل أول من استعمل هذا المصطلح ابن المعتز إذ يقول: "البديع اسم موضوع لفنون من الشعر، يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو، وما جمع فنون البديع، ولا سبقني إليه أحد، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين"⁽⁵⁾.

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج10/ص: 210.

(2) - انظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (بدع)، ج1/ص: 702.

(3) - انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (بدع)، ج8/ص: 06.

(4) - السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، دون طبعة و تاريخ، ص: 289.

(5) - أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله، البديع في البديع، دار الجيل، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م، ج1/ص: 151.

لقد اندفع الشعراء في العصر العباسي الأول نحو البديع ووفروا له خصائص فنية جعلته يختلف عما كان عليه في العصور السابقة، إذ خالفوا القدماء في طريقة تركيب بعض ألوانه، كما أكثروا من هذه الألوان إكثاراً متعمداً وتفننوا في سبل استخدامها، وقد اعتمدوا على استنباط المعاني الدقيقة المستمدة من ثقافة العصر، كما اعتمدوا على تبسيط الأسلوب ومرونته، ولكنهم لم يتخذوه مذهباً يطبقونه على كل أشعارهم بيتاً بيتاً، بل أحسنوا توظيفه بحكم ذوقهم العباسي الذي يعنى بالتأنق.

وأول من ولع بفن البديع و اتخذه مذهباً في العصر العباسي الأول مسلم بن الوليد، فهو "أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن في الأشعار المحدثّة قبل صريع الغواني إلا النبذ اليسيرة" (1).

أما بشار بن برد فقد عرف عنه تزيده من البديع في أشعاره والخروج به عن طرائق القدماء حتى نسب إليه تفتيق البديع والانتهاج به انتهاجاً لم يسلكه أحد قبله، إذ "تميز البديع لديه بشيء جديد قد يصح أن يعد خروجاً على المألوف في الشعر، وهو ضرب من الاستقصاء في التصوير والميل إلى التفصيل في التشابيه" (2).

ومثل أبي نواس مثل بشار، نجد عنده ضرباً مختلفاً من التجديد، وقد استطاع أن يصل بخمرياته إلى الذروة، وجاء بكثير من المعاني والصور الطريفة وعني بزخرف البديع في بعض شعره، ولكنه لم يتخذ مذهباً يطبقه في كل أبياته، إذ كان كثيراً ما ينظم الشعر عفو الخاطر، ولذلك تفاوت شعره قوة وضعفاً ونفاسةً وغمثاً (3).

والظاهر أن العباسيين عاشوا في بيئة مترفة لاهية وحضارة مزدهرة دفعت بشعرائهم إلى العناية بالشعر، وتزيينه بألوان الصنعة البديعية التي تتناسب مع روح العصر السائد آنذاك، كما أن لتأثيرات الحضارات الوافدة دوراً كبيراً في توجيه شعراء بني العباس نحو التكلف والصنعة في بعض أشعارهم، فشغلت أساليبهم المختلفة الجزء الأكبر من نتاجهم الشعري متأثرين بنمط الحياة الجديدة.

وقد اختلف الشعراء من حيث الصنعة اللفظية، فمنهم من اعتمد في شعره الصادق على الألفاظ السهلة المباشرة، ومنهم من فضل أن يضيف إلى قصائده لحناً موسيقياً من خلال السجع والجناس والطباق وغيرها من المحسنات البديعية التي تزيد المعنى إيضاحاً والأسلوب جمالاً وقوة.

(1) - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1/ص: 131.

(2) - أحمد عبد الستار الجوارى، الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مطبعة المجمع العلمي العراقي، الطبعة الثانية، 1412 هـ/ 1991م، ص: 330.

(3) - انظر شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص: 179.

واستطاع بشار مثلا أن يستغل البديع في خدمة أغراضه وأن يقدم من خلاله ضربا من الموسيقى اللفظية، فوظف الجناس الذي يعد من أكثر المظاهر البديعية الموسيقية لما يمتاز به من خاصية التكرار والترجيع اللذان يسمحان بتكثيف جرس الأصوات وإبرازها، من ذلك مثلا قوله⁽¹⁾:

لو كنت أعلم أن الحب يقتلني أعددت لي قبل أن ألقاك أكفانا
فغنت الشرب صوتا مؤنقا رملا يذكي السرور ويبيكي العين ألوانا
لا يقتل الله من دامت مودته والله يقتل أهل الغدر أحيانا

والظاهر أن شاعرنا اعتمد الجناس الناقص الذي أبانت عنه لفظتي (يذكي/ يبكي)، حيث استطاع أن يستغل طاقاته السمعية التي تركزت فيها أحاسيسه وقواه الفنية ليدرك ما للجناس من فاعلية كبيرة، وذلك لما يمتاز به من مزاجية وتكرار صوتي يولد تأثيرات تنغيمية تزيد موسيقية الشعر وتغني إيقاعه، وترضي ذوق الحضارة والترف اللذين سادا في ذلك العصر.

أما أبو نواس فقد كان حريصا على أن يوفر لشعره جمالا فنيا، إذ لجأ إلى بدائع الزخرف والتوشية، فظهرت في قصائده محسنات اللفظ والمعاني، وأخذ يتأنق في رسم الصور الفنية، ومن أمثلة الجناس التام في شعره قوله⁽²⁾:

لا خربَ الله كَرخَ السوسوالسوسا يوماً، ولا مجلساً بالسوسِ مأنوساً⁽³⁾
وحبباً حانةً بالكَرخِ تجمُعنا نطيعُ فيها بشربِ الخمرِ إبليساً

وقد اعتمد أبو نواس على الجناس في البيت الأول كلون من ألوان الصبغة اللفظية وهذا في "السوس - السوس"، فالسوس الأولى اسم لبلدة أما الثانية فقصدها بها عود السوس الذي يصنع منه شراب طيب يعرف باسم عرق السوس.

ومن أمثلة الجناس أيضا قوله⁽⁴⁾:

فما الطيش إلا أن تراني صاحيا وما العيش إلا أن أذ فأسكرا

(1) - ديوان بشار بن برد، ج4/ص: 197.

(2) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 199.

(3) - السوس: بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي عليه السلام، والسوس تعريب الشوش، بنقط الشين، ومعناه الحسن والنزه والطيب واللطيف، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3/ص: 280.

(4) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 181.

والجناس في "الطيش - العيش"، جناس جميل جاء ليصف ويجلب المتلقي لنشوة الخمر وروعها، إذ أراد الشاعر جلب انتباه المتلقي من خلاله وإثارته عبر الجرس الموسيقي والإيقاع الصوتي الصادر من تكرار الحروف، " فالجناس ليس إلا تفننا في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم وموسيقى ويسترعي القلوب والعقول بمعانيه"⁽¹⁾.

كما كثر الجناس في شعر مسلم بن الوليد، ولا غرابة في ذلك فهو شاعر البديع باقتدار وهو البارع في تشكيل وتفجير طاقات الألفاظ والتعامل مع الإيقاعات، ومن أمثلة ذلك قوله⁽²⁾:

فَبِتُّ أَسِرَّ البَدْرَ طَوْرًا حَدِيثَهَا وَطَوْرًا أَنَاجِي البَدْرِ أَحْسَبُهَا البَدْرَا

ففي البيت السابق جناس تام بين "البدر - البدر"، حيث قصد الشاعر بالبدر الأولى القمر أما البدر الثانية فقصد بها وجه المحبوبة.

وقد امتزج الجناس بالطباق عند صريع الغواني في مواضع كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله⁽³⁾:

كَحَلَاءٍ لَمْ تَكْتَحِلْ بِكَاحِلَةٍ وَسَنَانَةِ الطَّرْفِ مَا بِهَا وَسَنٌ

ويلاحظ أن الشاعر طابق وجانس بين "كحلاء - لم تكتحل"، وبين "وسانة - وسن"، كما يعاود الخلط بين الطباق والجناس في قوله⁽⁴⁾:

الزائديون قوم في رماحهم خوف المخيف وأمن الخائف الوجل

وهذا الاستخدام المكثف للجناس المصحوب بتلاعب متقن للألفاظ ما كان ليخلق سوى التكلف والسوء لولا مهارة اللاعب وحذقه وإدراكه لأسرار لعبه بفنه ومذهبه، فعلى الرغم من كل هذا التكلف البادي على هذه الأبيات إلا أن الصنعة عنده احتفظت برونق الكلام وإشراقه وصحة معناه ودقة التعبير عنه.

(1) - إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، 1952م، ص: 42.

(2) - ديوان صريع الغواني، ص: 35.

(3) - المصدر نفسه، ص: 69.

(4) - ابن شاعر، فوات الوفيات، ج4/ص: 139.

كما نلمح الصنعة البديعية بكثرة في تغزل القرن للنظر والتلمح من مثل قول الحسين الخليع⁽¹⁾:

| | |
|------------------|-------------------|
| لا تلمني على فتن | إنها كاسمها فتن |
| فإذا لم أهتم بها | فبمن لا بمن إذن |
| أين لا أين مثلها | في جميع الورى سكن |

ونلاحظ أن الشاعر قد استخدم الجنس التام بين فتن وهو اسم المحبوبة وفتن في قافية البيت جمع فتنة والمراد بها الابتلاء، كما نلمح سهولة الوزن والتركيب واستخدام الألفاظ الدارجة والهيئة الشعبية للقصيدة .

كما وظف شعراء العصر العباسي الأول التصريح بكثرة، خاصة وأنه "يجري مجرى القافية، وليس الفرق بينهما، إلا أنه في آخر النصف الأول من البيت، والقافية في آخر النصف الثاني منه"⁽²⁾.

ولعل شعراء هذا العصر وظفوا هذا الفن لأسباب عديدة، يأتي في طليعتها التدايل على إجادتهم لقرض الشعر، ذلك أن "الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك، ولا يكادون يعدلون عنه، إذ فيه دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام"⁽³⁾.

وقد عمد بشار بن برد إلى التصريح في قصائد كثيرة نذكر منها قوله⁽⁴⁾:

| | |
|---------------------|------------------------|
| يا ليلتي تزداد نكرا | من حُبِّ من أحببت بكرا |
| حوراء إن نظرت إلي | كسقتك بالعينين خمرا |
| وكان رجوع حديثها | قطع الرياض كسبين زهرا |
| وكان تحت لسانها | هاروت ينفث فيه سحر |
| وتخال ما جمعت علي | ه ثيابها ذهباً وعطرا |

(1) - الأصفهاني، الأغاني، ج7/ص: 134.

(2) - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1402هـ/1982م، ج1/ص: 188.

(3) - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، دون طبعة وتاريخ، ج1/ص: 259.

(4) - ديوان بشار بن برد، ج4/ص: 55.

ويظهر من خلال أبيات بشار السابقة حالة الناس حضارياً وطبقياً وعقائدياً وجدلياً واندفاقاً في الإباحة والانفتاح الفكري والمذهبي والأخلاقي⁽¹⁾، حيث يرسم صورة أنثاء التي تملك جمالاً مادياً ومعنوياً يفعل به ما تفعله الخمرة بالعقول والألباب، موظفاً بعض المفردات الحضارية التي طبعت العصر العباسي الأول كالبساتين، الرياض والعطور...

ولعل ما زاد من جمال أبيات بشار حنكته في استعمال التصريع الذي ربط بين لفظتي "نكرا- بكرأ" في البيت الأول، ولا يخفى ما للتصريع من أهمية في إضفاء طابع مميز لإيقاع القصيدة، إذ لجأ إليه الشاعر باعتباره ضابطاً إيقاعياً مميزاً، فهو صرع إنما ليهياً لاستيعاب نموذج إيقاعي معين وربط السامع به، فلا يند عنه ولا يتوقع مجرى آخر للقصيدة غير ما سمعه أول وهلة، وذلك لإدراكه التام الدور الذي يمثله التصريع في الخطاب الشعري من الناحية الجمالية، وما يترتب عنه من إيقاع مثير لتردد المقاطع الصوتية المتناسبة والمتطابقة في المصراعين.

وقد كثر التصريع في شعر صريع الغواني ذلك أنه شاعر الإيقاع، فهو البارع في تفجير طاقات الألفاظ والتعامل مع الإيقاعات، من ذلك قوله⁽²⁾:

| | |
|--------------------------------|-----------------------------|
| إن كنت تسقين غير الراح فاسقيني | كأسألذ بها من فيك تشفيني |
| عيناك راحي وريحاني حديثك لي | و لون خديك لون الورد يكفيني |
| إذا نهاني عن شرب الطلا حرج | فخمر عينك يغنيني و يجزيني |
| لولا علامات شيب لو أتت و عظت | لقد صحت و لكن سوف تأتيني |
| أرضى الشباب فإن أهلك فعن قدر | و إن بقيت فإن الشيب يسليني |

ويهدف مسلم بن الوليد من إيراده التصريع بين (فاسقيني/تشفيني) إلى إحداث رونق وتميز يستمتع به المتلقي، وفي ذلك إبراز لكفاءته الشعرية خاصة وأن هذا النوع من الصنعة "يكسب البيت الذي يكون فيه أبهة، ويكسوه رونقاً وديباجة ويزيده مائة وطلاوة"⁽³⁾.

كما تعكس الأبيات السابقة الزخرف الذي عم جوانب الحياة العباسية برمتها ليشمل القصور والرياض والبرك والحلي والماكل والمشرب والملبس... وغيرها، وفي حديثه عن الراح والريحان أكبر دليل على ذلك.

(1) - انظر حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1986م، ص: 683.

(2) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج/ص: 238.

(3) - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج/ص: 03.

وإذا ذكر أبو نواس وريادته في استخدام التصريح، مَثَلت له عدة أبيات ومطالع، لعل أدلها على القضية قوله (1):

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتالي كانت هي الداء

فقد جسد الشاعر ظاهرة التصريح من خلال توظيفه للفظتي (إغراء / الداء) للدلالة على شدة تعلقه بالخمرة، وفي ذلك تحد صارخ لمجتمع إسلامي يضرب بيد من حديد كل من تسول له نفسه معاقرة الخمرة ولكنه أبو نواس إمام الداعين إلى حزبها وإجلالها، وإحلالها محل الطلل والحببية، فالخمر بالنسبة إليه عالم أكون يجب أن يملأ عليه فكره وحواسه جميعاً.

أما فن الطباق، فقد برع شعراء العصر العباسي الأول في استغلاله بطريقة متجددة، مستفيدين مما ورثوه عن سبقهم، وقد كثر عندهم كثرة ملحوظة، فهو من المحسنات البديعية التي تعتمد على الجمع بين الشيء وضده، وما من شك أن الجمع بين المتضادات له إيقاع خاص يكسو الكلام جملاً ورونقاً.

والطباق في شعر القرن الثاني للهجرة لم يأت به الشعراء عبثاً، بل كان مما يفيد المعنى ويقويه، ذلك لأن الشاعر استطاع التوفيق بين الشيء وضده، وجعل بينهما مناسبة، بحيث يستدعي كل منهما الآخر، من ذلك مثلاً قول مسلم بن الوليد (2):

قد أعظموك فما تدعى لهينة إلا لمعضلة تسنتن بالعضل
أقسمت ما ذب عن جدواك طالبها ولا دفعت اعتزام الجد بالهزل
يأبى لسانك منع الجود سائله فما يلجلج بين الجود والبخل

نراه يطابق في الأبيات السابقة بين (هينة/معضلة) و(الجد/الهزل) و(الجود /البخل)، والطباق هنا طباق إيجاب مباشر، حيث استخدم اللفظة وضدها، ولا يغني هذا أن الطباق عند صريع الغواني كان استدعاء لغويا سهلاً، بل وظف الشاعر هذا التضاد لصالح الصورة الفنية التي يرسمها، فالكلمة تستدعي ضدها.

وقد نوه النقاد - قدامى ومعاصرين- بتصويره للسفينة التي تعد من المعالم الحضارية البارزة في شعر العصر العباسي الأول، بمثل قوله (3):

(1) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 2.

(2) - ديوان صريع الغواني، ص: 49.

(3) - المصدر نفسه، ص: 36.

وإن أدبرت راقت بقادمتي نسر
وقومها كبح اللجام من الدبر⁽³⁾
نسيم الصبا مشي العروس إلى الخدر

إذا أقبلت راعت بقنة⁽¹⁾ قرهب⁽²⁾
أقلت بمجدافين يعثورانها
كان الصبا تحكى بها حين واجهت

حيث طابق الشاعر بين (أقبلت / أدبرت) وذلك لما تمثله هذه الثنائية المتضادة من بيان قوة وجمال تلك السفينة، إذ شبه صدرها في البيت الأول برأس ثور وحشي، كما شبه مجدافيهما بجناحي نسر، أما في البيت الثالث فقد شبهها في سيرها الوئيد بالعروس في سيرها الرقيق إلى مخدعها.

وعلى هذا النحو لا يزال مسلم يلتقط لأبياته وأشعاره درر المعاني والصور، مضيفاً إلى ذلك حلى كثيرة من وشي الطباق والجناس والمشاكلة، وهو في ذلك لا ينسى العناية بموسيقاه الضخمة وما ترسل من رنين قوي محكم، مزوجاً بكل ما استطاع بين الجديد والقديم، فإذا أشعاره تحتفظ بالصياغة الجزلة الرصينة التي تليق بالأسماع العربية، وإذا هي تفتح مصراعها لمذهب البديع الجديد بكل طرائفه العقلية والخيالية، بحيث يمتع القلوب والأفئدة⁽⁴⁾.

أما الطباق في شعر العباس بن الأحنف، فينهض بدور غير منكور في تشكيل صورته الشعرية غير متكلف فيه، ولا مفتعل، وقد نجح شاعرنا في توظيفه تعبيرياً وموسيقياً في مثل قوله⁽⁵⁾:

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| أيا معرضاً عني ولم أجتزم ذنبا | سوى أنني أبدي وأخفي له الحبا |
| أيسخطكم أني هويت وصالكم؟ | فلا تغضبي يا منيتي فلك العنبي |
| سأنهـى - ولكن لأراه يطيعني | وأزجر - عما فيه سخطك - القلبا |
| لقد راضني حبيك حتى أذلني | وقد كنت قبل الحب ذا منعة صعبا |

لقد طابق الشاعر في الأبيات السابقة بين (أبدي / أخفي) و(أذلني / ذا منعة) للدلالة على موقفه الشعوري حيث تكشف معالم اللغة الشعرية في الأبيات عن تجليات الرؤية عنده، فهو يهيمه أولاً وصل الحبيب والاتصال به، ولكن الحبيب لا يكثرث بهذه المشاعر والأحاسيس ولا يقيم لها وزناً، ولذا تشكلت رؤية جديدة لديه اتجاه المحبوبة تتمثل في محاولة التخلي عنها ونسيانها، وقد أسعفت اللغة في إبراز هذا الجانب، فالنداء - في البيت الأول - بامتداده البعيد

(1) - القنة: الجبل الصغير، وقيل الجبل المنفرد المستطيل في السماء، وقنة كل شيء أعلاه، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (قنن)، ج13/ص: 348.

(2) - القرهب: من الثيران الضخمة المسنة، انظر المصدر نفسه، ج1/ص: 671.

(3) - اعثور: تداول القوم الشيء، نشوان بن سعيد الحميري اليمني، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م، ج7/ص: 4840.

(4) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 268.

(5) - ديوان العباس بن الأحنف، ص: 32.

يعطي مؤشراً على أن المحبوبة في منطقة أخرى غير منطقة الشاعر، ومن هنا جاء زجر القلب، لأنه صاحب السلطة في الحب أو الكره وشتى العواطف.

وإذا كان بشار بن برد قد فقد بصره، فإن ذلك قد ساعده على استخدام حواسه الأخرى بطريقة مبتكرة، في تلف ما تنقله إليه ليعالجه في مخيلته الشعرية، بما يحمله من مشاعر وأحاسيس، ويضفي على عالمه فيضا من رؤاه وأحلامه، وينسق صورته وفقا لما توحىه أذناه ومخيلته في ائتلاف فني مفاجئ متميز نابع من أعماق تجربته، مستعينا بالمتضادات من طباق ومقابلة، والتي لها دلالاتها الواضحة في الكشف عن المفارقات في المجتمع العباسي، من ذلك قوله⁽¹⁾:

| | |
|--------------------|--------------------|
| سقيت العذب من ودي | وان لم تسقني عذبا |
| و هبني كنت أذنت | أما تغفر لي الذنبا |
| كأنني بك مطبوب | و ما أحدثت لي طبا |
| تركت القلب قد مات | و ما أبقيت لي لبا |
| أبيت الليل محزوننا | و أغدو هائمنا صبا |

تقوم هذه المقطوعة على ظاهرة التضاد سواء على الصعيد المعنوي أو اللفظي سلبا وإيجابا، فقدم لنا مقابلة في البيت الأول بين صورتين تجسدان محوري الصراع، الشاعر ومحبوبته إذ سقاها العذب من وده، وفي المقابل امتنعت تلك المحبوبة عن مبادلتها هذه السقيا فالتماثل الصوتي الناجم عن الجناس خالطه تضاد معنوي، وطابق بين (أذنت / تغفر) وفي قوله: (كأنني بك مطبوب / وما أحدثت لي طبا) فهو في الشطر الأول مسحور بها وفي الشطر الثاني ينفي أن يكون قد حدث له أي سحر وفي قوله: (تركت القلب قد مات / وما أبقيت لي لبا)، فالطباق جاء خفيا حين استخدم الفعل (أبقي) بدلا من (ترك)، فساهم في رسم حالة الشاعر المعذب، وفي البيت الأخير طابق بين (أبيت وأغدو).

وقد استخدم أبو نواس فن الطباق بروح جديدة من خلال حسن اختيار الفعل الذي يأتي به موجبا مرة وسالبا أخرى، ومن اختلاف الإسناد للفعل نفسه في حالتيه الموجبة والسالبة ومن العلاقات المتبادلة بين الألفاظ ومعانيها وأغراضها، إذ يقول في إحدى قصائده⁽²⁾:

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| لتلك أبكي و لا أبكي لمنزلة | كانت تحل بها هند و أسماء |
| حاشا لدرة أن تبني الخيام لها | و أن تروح عليها الإبل و الشاء |
| فقل لمن يدعي في العلم فلسفة | حفظت شيئا و غابت عنك أشياء |

(1) - ديوان بشار بن برد، ج1/ص: 202.

(2) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 3.

أسهم الطبايق بين (أبكي/ لا أبكي) بدور رئيس في تشكيل الصورة التي يؤمن بها الشاعر، وقد جاءت نابعة من إحساسه بضرورة توظيفها في هذا المقام؛ رابطاً بينها وبين سياقها التهكمي ربطاً شعورياً وثيقاً؛ لا حشو فيه، ولا انفصال، مبرزاً عن طريقها ذلك البون الشاسع الذي يفرق بينهما، وتلك الفجوة التي تفصل بين واقعه الحضاري المترف وبين حياة البدو الخشنة التي يكتنفها القفر من كل جانب؛ وقد جسدت بنية التضاد هنا الدلالة خير تجسيد ودعمت المعنى الذي قصده الشاعر، حيث استطاع أن يرصد مجموعة من التحولات التي يمكن أن تكون قد أسهمت في الوقوف على كثير من ملامح الحراك الثقافي والاجتماعي داخل المجتمع العباسي، وكأن الشاعر يقترح أسباباً صالحة للوقوف على قضايا عصره ومعالجتها، ونقلها بطريقة صحيحة واقعية، فهو يعي تماماً أنه بدأ يعيش شكلاً جديداً من الحياة، يحمل هذا الشكل قيماً جديدةً تختلف عن الحياة السابقة.

ونظراً لأن القوم قد بلغوا الغاية في التأنق والتحضر، فوصفوا ذلك فأتوا بما لم يأت به غيرهم، وأحسنوا في التخيل واستحضر الصور البديعة، نجد أبا نواس يصف النرجس الذي ازدانت به بساتينهم وحدائقهم، فيقول(1):

لدى نرجس غض القطاف ، كأنه
مخالفة في شكلهن فصفرة
إذا ما منحاه العيون عيون
مكان سواد والبياض جفون

كما ترددت الطباقات في شعر أشجع السلمي التي قالها في مدح الخلفاء ووصف قصورهم من ذلك مثلاً قوله(2):

قصور الصالحة كالعدارى
مطلات على بطن كسوته
إذا ما الطل(3) أثر في ثراه
ليسن ثيابهن ليوم عرس
أيادي الماء نسجا وشي غرس
تنفس نوره من غير نفس

والظاهر أن أشجع طابق بين(تنفس / غير نفس) في البيت الأخير لينقل لنا صورة شمسية غاية في العبق، ذلك أن قصور الصالحة تطل على مساحات واسعة من الأراضي المكسوة بطبقة جميلة من الأزهار الملونة بفضل الأنهار الصناعية التي شقها الخلفاء والأمراء والقادة، ويسترسل الشاعر في وصف هذه الأزهار خاصة عندما يهب عليها نسيم الصباح وتكسوها قطرات الندى، فإنها تشع رونقا وبهاء.

(1) - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2/ص: 810.

(2) - الصولي، الأوراق قسم الشعراء، ج1/ص: 78.

(3) - الطل: المطر الصغار، القطر الدائم، وهو أرسخ المطر، الندى، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (طل)، ج11/ص: 405.

أما علي بن جهم، فقد كان للحضارة التي ضربت بجرانها على أرجاء العالم الإسلامي آنذاك، أثرٌ واضحٌ في شعره، تجلّى في أفكاره وأخيلته، وفي معانيه وألفاظه؛ إذ لم يكن بمعزل عن مجتمعه الذي أخذ بأسباب التقدّم والتّطور، ونهل من ينابيع الحضارة العالمية التي كانت تتفاعل مع الحضارة العربية، لتنشأ بعد ذلك حضارة عربية إسلامية تتفياً بظلالها الناس قروناً، و من نماذج الطباق في شعر علي بن جهم نذكر مايلي(1):

نبذ سواد في بياض كما در فتيت المسك في الورد
ساهمة الأسطار مصروفة عن ملح الهزل إلى الجد

طابق الشاعر في البيتين السابقين بين أربعة ألفاظ هي: (سواد / بياض)، (الهزل / الجد)، مضفياً على معانيه بعض معالم الحضارة العباسية من خلال استخدامه لألفاظ على شاكلة المسك والورد. وقد قال أيضاً(2):

ودجلة كالدرع المضاعف نسجها لها حلق يبدو و يخفى حديدها

والملاحظ في البيت السابق أن الشاعر طابق بين لفظتي (بيدو / يخفى) للتعبير عن إحدى معالم الحضارة المادية في العصر العباسي والمتمثلة في السفن التي تشق نهر دجلة، قصد تقوية المعنى وتنميته.

ولم يكن ابن جهم الوحيد الذي عني بوصف عجائب الحضارة، بل كان هناك كثير من الشعراء المثقفين، الذين أسهموا في وصف مقتنيات العصر الحضارية، المادية منها والمعنوية، فهذا محمد بن يسير الرياشي الذي يحب الثقافة ويطارد العلوم فيحرص على شراء الكتب واقتنائها ويأنس بمجالستها، يهديه خياله إلى تصوير ذلك الأنس والقرب منها فيقول(3):

هُم مُؤْنِسُونَ وَأَلْفٌ غَنِيَتُ بِهِمْ فَلَيْسَ لِي فِي أَنْيْسٍ غَيْرِهِمْ أَرْبُ
لِلَّهِ مِنْ جُلْسَاءٍ لَا جَلِيْسَهُمْ وَلَا عَشِرَهُمْ لِلْسُّوءِ مَرْتَقِبُ
لَا بَادِرَاتِ الْأَذَى يَخْشَى رَفِيْقَهُمْ وَلَا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقُ دَرْبُ
أَبَقُوا لَنَا حِكْمًا تَبَقَى مَنَافِعُهَا أُخْرَى اللَّيَالِي عَلَى الْأَيَّامِ وَأَنْشَعَبُوا
فَأَيُّمَا أَدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ يَدِي كَثِبُ
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الْأَثَارِ يَرْفَعُهَا إِلَى الذَّبِي ثَقَاتٌ خَيْرَةٌ نُجِبُ

(1) - ديوان علي بن جهم، ص: 91.

(2) - أبو علي، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ، ص: 448.

(3) - الجاحظ، الحيوان، ج1/ص: 64.

فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْبَأْتَنِي بِهِ الْعَرَبُ
تُنْبِي وَتُخْبِرُ كَيْفَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ
وَقَدْ مَضَتْ دُونَهُمْ مِنْ دَهْرِهِمْ حَقْبٌ

أَوْ شِئْتُ مِنْ عَرَبٍ عَلِمًا بِأَوْلِهِمْ
أَوْ شِئْتُ مِنْ سَيْرِ الْأَمْلاِكِ مِنْ عَجَمٍ
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمْ

يصف الرياشي شعوره اتجاه هذه الكتب، فيذكر أنه يجد الأُنس والاطمئنان في مجالستها وتصفحها، فلا يريد غيرها جليساً، ويتعجب من نقاء وسلامة من يعاشرها، من السوء والباطل؛ لأن هذه الكتب لا تحدثه إلا بكل حسن ومفيد، إذ أن معاشرها لا يخشى الأذى في القول أو الفعل، فليس من شأنها ذلك، بل من شأنها أن تنتقل لنا المنافع والعلوم، وتصف لنا حضارات الأمم السابقة وآدابها وحكمها، وقد استعان الشاعر بطباق السلب لتوضيح فكرته وتأكيدا من خلال لفظتي (جلساء / لا جليسه).

على أن بعض البلاغيين عدوا الطباق من المقابلة، غير أنهم ميزوا بينهما من وجهين:

- إن المطابقة لا تأتي إلا بالجمع بين ضدين، أما المقابلة فتكون غالباً بالجمع بين أربعة أضداد، ضدين في صدر الكلام وضدين في عجزه، وقد تصل المقابلة إلى الجمع بين عشرة أضداد، خمسة في صدر الكلام وخمسة في عجزه.
- أن الطباق أو المطابقة لا تكون إلا بالأضداد، في حين تكون المقابلة بالأضداد وغير الأضداد، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ }⁽¹⁾.
ويعد صريع الغواني أكثر شعراء العصر العباسي الأول توظيفا للمقابلة، غير أنها جاءت عفوية، لا تصنع فيها ولا تكلف، تتم عن تجربة ذاتية وشعور أصيل متجذر في أعماقه، ومن نماذج ذلك قوله يصف إحدى عجائب دهره وزمانه، ألا وهي السفينة التي أوصلته إلى ممدوحه بعد رحلة ممتعة، كان لوصف الخمر فيها نصيبا واسعا، مشيرا بذلك كله إلى النقلة الحضارية النوعية التي عرفها العرب خلال تلك الحقبة:
إذا أقبلت راعت بقنة قرهب وإن أدبرت راقت بقادمتي نسر⁽²⁾

حيث قابل الشاعر بين (أقبلت / أدبرت)، (راعت / راقت)، (قنة / قادمتي) على التوالي، وكأنه جمع بين الطباق والمقابلة.

كما استخدم بشار بن برد التقابل في شعره، وقد جاء في الغالب طبيعياً لا يحمل أمارات التكلف والتصنع، موظفا إياه توظيفا بليغاً يخدم الغرض المنشود، فيبرزه ويوضحه، من ذلك قوله⁽³⁾:

(1) - سورة يونس، الآية: 31.

(2) - ديوان صريع الغواني، ص: 36.

(3) - ديوان بشار بن برد، ج3/ص: 18.

رأيت الدهر يشعب كل إلف و لا يبقى لوحدته الوحيد
قريب ما ملكت و إن تراخي و بيت الجار مطالبه بعيد

ومن الواضح أن النص السابق يقودنا إلى اكتشاف التضاد المتشكل بطريقة مكثفة نتيجة تجربة ذاتية تبرز بنية التحول التي لامست الدهر وأحواله، فبشار حاول من خلال هذا التقابل بين (يشعب/ يبقى)، (إلف/ وحيد)، (قريب/ بعيد) أن يترصد معنى الشكوى انطلاقاً من الدلالات المتضادة، ليبعث الاندهاش في نفس المتلقي، فالتضاد يكشف في معناه الخفي عن مفارقات القدر، فما كان بعيداً يمكن أن يمتلكه الإنسان على الرغم من قربيه، وما كان قريباً لم تنله الذات حتى لو قربت مسافته.

وتكثر المقابلة أيضاً في شعر أبي نواس لما لها من دور عظيم في موسيقاه الداخلية، ولعل للأمر علاقة بنفسية الشاعر التي تقوم على المقارنة في غالب الأحيان، حيث يقول في مدح الرشيد⁽¹⁾:

ألفت منادمة الدماء سيوفه فلقلما تجتازها الأجنان
حتى الذي في الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان
حذر امرئ قصر يده على العدا كالدهر فيه شراسة و ليان

وفي التضاد البارز بين (شراسة / ليان) تلخيص لصورة المقابلة العامة في القصيدة بين حالته مع الجنين وحالته مع العدو، وهذا يجعل المتلقي في حالة ترقب دائم وشغف مستمر، ناهيك عن قافية النون المناسبة للحالتين: حالة الشراسة بما يتبعها من أنين وبكاء وحالة اللين وما ينجر عنها من خفقان وحركة للأجنان النشوى.

ومما يقوم فيه التصوير على التقابل قول أبي الشمقمق⁽²⁾:

لو ركبتُ البحار صارت فجاجا لا ترى في متونها أمواجا
فلو أنني وضعت ياقوتة حمى راء في راحتي لصارت زجاجا
ولو أنني وردت عذباً فراتا عاد لاشك فيه ملحاً أجاجا

وتقدم الأبيات السابقة صورتين متقابلتين بين ما يرنو إليه الشاعر في خياله وبين ما يحدث معه في واقعه، فالحياة تقفله بالمرصاد وتشيح بوجهها عنه، وكأن الشاعر يهدف من خلال هذه المفارقة إلى إضحاك القراء لما هو فيه من فشل وإحباط.

(1) - ديوان أبي نواس، ج1/ص: 110.

(2) - ديوان أبي الشمقمق، ص: 33.

وقد ترددت التقابلات في قصائد أشجع السلمي، ومن نماذج ذلك قوله(1):
تَجَافَى عَنِ الدُّنْيَا وَقَدْ فَتَقَّتْ بِهِ حَوَاضِرُهَا وَاسْتَقْبَلَتْهُ أُمُورُهُ

حيث قابل الشاعر بين (تجافى عن الدنيا واستقبلته أموره) مما أحدث إيقاعاً موسيقياً في البيت.

ويبدو التقابل في شعر ابن ميادة بسيطاً واضحاً، مرتبطاً بالواقع الذي عاشه بعيداً عن التعقيد والغموض والتناقض، ويؤكد قدرته الفنية في التعبير عن تجربته الشعرية، فلم يأت التقابل متصنعاً ولا متكلفاً، ومن نماذج ذلك قوله(2):

كانوا بعيداً فكنت أملهم حتى إذا تقاربوا هجروا
فالبعد منهم على رجائهم أنفع من هجرهم إذا حضروا

لقد استعان الشاعر بالتضاد في البيتين السابقين بين (بعيداً / تقاربوا)، (هجروا / حضروا) لإثراء صورته الفنية، وإبراز بعض المعاني التي تختلج حنايا نفسه، وتعمل في وجدانه، راسماً بذلك صورة تأخذ بلب المتلقي نتيجة تحطم صورة الأحاباب في قلب الشاعر بسبب التناقض الصارخ بين الغياب الذي يحمل معاني الأمل والترقب والشوق وبين الحضور المفعم بالصد والهجر.

وللمقابلة في شعر ابن جهم نماذج كثيرة، من ذلك مثلاً قوله(3):

سوى أن ذاك بعيد المحل و هذا قريب لمن ينظر
و ذاك يغيب و ذا حاضر و ما من يغيب كمن يحضر

حيث قابل الشاعر في البيت الأول بين (ذاك بعيد / هذا قريب)، وقابل في البيت الثاني بين (ذاك يغيب / ذا حاضر).

كما لجأ ابن الأحنف إلى استخدام صيغة التقابل لينقل (السرور / الهموم)، (الوصل / الصدود) إلى دائرة الحسي المجسم قائلًا(4):

(1) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص: 127.

(2) - شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج2/ص: 251.

(3) - ديوان ابن جهم، ص: 139.

(4) - ديوان العباس بن الأحنف، ص: 61.

وكستني من الهموم ثيابا
فتحت لي من المنية بابا
— فمما ذقت كالصدود عذابا

سأبتني من السرور ثيابا
كلما أغلقت من الوصل بابا
عذبيني بكل شيء سوى الص—

تعتمد الأبيات السابقة على ألفاظ تعد بؤرة التقابل، كما في (سلبتني / كستني)، (السرور / الهموم)، (أغلقت / فتحت)، إذ تعكس حالة الشاعر المعنوية حيث صار بها مجردا من الفرح، واستطاع من خلال ذلك التقابل تجسيم السرور والهموم في صورة ثياب، كما جعل من الوصل والمنية طريقا تغلق وتفتح أبوابها، وصير هجران الحبيبة وصددها شرابا مرا تذوقه الشاعر فلم يجد أشد منه مرارة.

لقد اشتهر شعراء العصر العباسي الأول بكونهم أصحاب البديع في الشعر، فقد اكتملت لديهم كل معالم هذا الفن الزخرفي بعد إن تطور على يد أعلام اتخذوا من هذا الفن مجالا خصبا لكذ الذهن في سبيل جلب وسائل تزيينه وتنمقه ليتسلم شعراء القرن الثاني للهجرة المشعل، فأجهدوا أنفسهم لإخراجه في قالب واضح وجميل، اتخذوه مذهبا شعريا متكاملا في وسائله المعنوية والموسيقية واللفظية، فنجحوا في ذلك أيما نجاح .

المبحث الرابع: الأوزان والقوافي

يتفرد الشعر عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى بالموسيقى، إذ تترك في الوجدان أثراً عميقاً ممتعاً، مما يجعل الشعر أكثر رسوخاً في الأذهان وأسرع تأثيراً في الوجدان، و"من أجل ذلك اتخذتها الإنسانية من القديم وسيلتها إلى التعبير عن عالمنا الوجداني تعبيراً تنتظم نسبه النغمية في توافق عجيب، ينطلق في داخلنا ويتداخل في كيان أحاسيسنا ومشاعرنا، فإذا هي تنزن، ونحس كأننا نعيش في جو حالم لا عهد لنا به من قبل"⁽¹⁾.

وإذا كانت الأوزان أعظم أركان حد الشعر، وأولاها به خصوصية فهو مشتمل أيضاً على القافية التي تعتبر هي الأخرى شريكة الأوزان في الاختصاص بالشعر؛ فإن الشعر لا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية، كما هو معلوم، وتلك حقيقة أقرها ابن رشيق⁽²⁾، وأدركها الشعراء.

إذن فالموسيقى الشعرية ركن أساسي من الأركان التي يقوم عليها العمل الشعري، وعنصر مهم من العناصر التي تتركز عليها العملية الإبداعية، وهي التي تربط أجزاء العمل الأدبي، وتمسك عناصره وأركانه، وبدونها يصبح العمل لا روح فيه ولا بهاء ولا جمال، ففي القديم عرف بعض أجدادنا الشعر بأنه " قول موزون مقفى يدل على معنى"⁽³⁾، وفي العصر الحديث عرفه بعضهم بأنه الكلام المقيد بالوزن والقافية والذي يقصد به الجمال الفني⁽⁴⁾.

ولما كان الإيقاع لصيقاً بالطبيعة والذات البشرية، يحاكيهما في كل زمن وحين؛ يحاكي الطبيعة في جلبة الكون وسكونه؛ في شروق الشمس وأفولها، في انبلاج الصباح وسدومه، في خرير الماء، وحفيف الشجر، في هديل الحمام ونواح الورق، ويحاكي الإنسان في مشيته، دقات قلبه، في شهيقه وزفيره، في طربه وكدره، وفي جميع نشاطاته اليومية وحالاته النفسية، فهو بالمعنى السابق سيرورة الكون في نظامه وانسجام مظاهره واتساق أشكاله، وهو في الشعر ذروته وعموده، وروحه التي بها تتحقق شعريته، وبدونه ينزل الشعر إلى درك الكلام العادي، فالشعر إذن لغة جميلة في قالب جميل وإيقاع أجمل.

والأصل أن الإيقاع نوعان: ثابت ومتغير، فأما الثابت فهو التفعيلة والبحر والوزن في القصيدة، أي ما يُحس به في ظاهر العبارة الشعرية، وأما المتغير في تعلق بجرس الألفاظ الناشئ من تأليف أصوات حروفها وحركاتها وسكناتها، ومدى تناغمه مع دلالة المعاني داخل المنظومة الشعرية.

(1) - شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1977م، ص: 28.

(2) - انظر ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1/ص: 134.

(3) - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ج1/ص: 03.

(4) - انظر طه حسين، في الأدب الجاهلي، مكتبة فاروق، الطبعة الثالثة، 1933م، ص: 327.

والجدير بالذكر أن العصر العباسي الأول اتسم بمحاولات جادة قام بها كثير من الشعراء للثورة على الأساليب القديمة في الشعر، سواء من ناحية بناء القصيدة، أو من ناحية الوزن، وقد تم تفصيل التطور من ناحية الموضوع في المباحث السابقة، أما من ناحية الإيقاع، فإننا سنحاول التعرض إلى ما طرأ من تطور في هذا المجال.

أ- الوزن الشعري :

تعد التفعيلة الشعرية النواة الأساسية التي يتشكل منها الإيقاع الشعري، وإليها يرجع الفضل في إحداث النغمات الموسيقية الجميلة التي تأسر قلب الإنسان وتملك عليه حسه ولبه وعواطفه، ومن هذه التفعيلات تتكون الأوزان وتتألف البحور الشعرية.

والواقع أن الشعر قد ارتبط منذ نشأته الأولى بالوزن، بل إن كثيرا من النقاد والباحثين نقبوا عن مكامن الاختلاف بين الشعر والنثر فوجدوا أن أهمها يتعلق بالموسيقى الشعرية، خاصة وأن "الكلام كان كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحاتها الأجواد، لتَهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم؛ فتوهما أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم وزنه سموه شعرا؛ لأنهم شعروا به: أي فطنوا"⁽¹⁾.

ولما كانت الثورة ضد الأساليب القديمة لم تصل إلى درجة النضج في العصر العباسي الأول الذي أوجد فيه الخليل بن أحمد الفراهيدي بحور الشعر التي توخاها عند دراسته لتراث العرب الشعري في العصر الجاهلي وما تلاه، وأكب فيه الشعراء والعلماء على ارتشاف العلوم وتفحص آثار أسلافهم التي اتخذوها مقصداً لهم يدرسونه ويحاكونه، ويصوغون أشعارهم على نهجه وأسلوبه، فإننا وجدنا كثيراً من الشعراء الداعين إلى هذه الثورة، يضطرون في كثير من الأحيان إلى السير على نهج القدماء، وبخاصة ما ورد عن أبي نواس في محاكاته لمعاني القدماء في مديحه وراثته؛ لأنه في مثل هذين المقامين ينظم أبياتاً لتلقى استحسان الناس، وعلى رأسهم الخليفة، بخلاف شعره الخمري الذي نهج فيه النهج الذي يريد.

وحاصل الأمر أن شعراء العصر العباسي الأول استخدموا معظم البحور الشعرية على اختلاف أوزانها، وقد تفاوتت نسبتها تفاوتاً ملحوظاً، إذ احتل الطويل والبسيط والكامل الصدارة ليليهم المتقارب والخفيف وغيرها من البحور الأخرى التي دأب العرب على استعمالها.

(1) - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج 1/ص: 20 .

وأهم ما يستدعي الانتباه في هذا المجال أن بحر الطويل من أكثر البحور دوراناً في شعر القرن الثاني للهجرة عامة والعصر العباسي الأول خاصة، من ذلك مثلاً قول أبي نواس متغزلاً بإحدى جوارى قصر الخليفة⁽¹⁾:

| | |
|--------------------------------|----------------------------------|
| وقصرية أبصرتها فهويتها | هوى عروة العذري و العاشق النجدي |
| فلما تمادى هجرها قلت: وأصلي | فقلت: بهذا الوجه ترجو الهوى عندي |
| فقلت لها: لو كان في السوق أوجه | تباع بنقد حاضر و سوى نقد |
| لغيرت وجهي و اشتريت مكانه | لعلك أن تهوي و صالي من بعدي |
| و إن كنت ذا قبح فإني شاعر | فقلت: و لو أصبحت نابغة الجعدي |

والملاحظ أن الأبيات السابقة تتميز بالمعاني الحضارية السهلة والمبسطة، حيث استهلها بحوار غزلي لطيف حدث بينه وبين جارية من جوارى قصر الخليفة، ويبدو أن شاعرنا سار في اختياره لهذا الوزن مسار الشعراء الجاهليين، غير أنه عند إلتفات الألفاظ الدقيقة والعذبة التي تتماشى وعصر الترف والتحضر، من ذلك مثلاً قوله واصفاً مجلس شراب⁽²⁾:

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| ومجلس خمار الى جنب حانة | بقطربل بين الجنان الحقائق |
| تجاه ميادين على جنباتها | رياض غدت محفوفة بالشقائق |

وقد كان أبو نواس مولعاً بإبراز صور كسرى على كؤوس الخمر، معجباً بزينتها وتصاويرها الفارسية، معتبراً ذلك معلماً من معالم التحضر والتمدن، إذ يقول⁽³⁾:

| | |
|----------------------------|-------------------------------|
| تدار علينا الراح في عسجدية | حبتها بألوان التصاوير فارس |
| قرارتها كسرى و في جنباتها | مها تدريها بالقسي الفوارس |
| فللخمر ما زرت عليه جيوبها | و للماء ما دارت عليه القلانيس |

ويأتي البحر الطويل في مقدمة البحور الشعرية التي نظم عليها مسلم بن الوليد قصائده، وهو ما يتوافق مع ما عرف عن العرب في تفضيلهم البحور الطويلة، إذ "أن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخيل عادة وزناً طويلاً كثيراً المقاطع يصب فيه أشجاناً ما ينفس عن حزنه وجزعه"⁽⁴⁾، ناهيك عن كون "الطويل بحر خضم يستوعب ما لا يستوعبه غيره من

(1) - ديوان أبي نواس، ج4/ص: 51.

(2) - أبو نواس، المصدر السابق، ج3/ص: 220.

(3) - المصدر نفسه، ج3/ص: 184.

(4) - إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص: 175.

المعاني، ويتسع للفخر والحماسة والتشابه والاستعارات وسرد الحوادث وتدوين الأخبار ووصف الأحوال⁽¹⁾، ومن نماذج ما نظمه صريع الغواني على البحر الطويل قوله⁽²⁾:

| | |
|-----------------------------|---------------------------------|
| وملتطم الأمواج يرمي عبابه | بجر جرة الأذي للعبر فالعبر |
| مطعمة حيتانه ما يغبها | مأكل زاد من غريق من كسر |
| إذا اعتنقت فيه الجنوب تكفأت | جواريه أو قامت مع الريح لا تجري |
| كأن مدب الموج في جنباتها | مدب الصبا بين الوعات من العفر |
| كشفت أهويل الدجى عن مهوله | بجارية مخمولة حامل بكر |

ويبدو أن مسلم بن الوليد قد رسم صورة جديدة من صور الافتتاح للقصيد، وذلك لإشباع رغبته في إبراز جدة الموضوع، مضافاً عليها أحاسيس مفعمة بمتعة التجاوب مع روح عصره من خلال وصف السفينة ورسم حركتها وشكلها في صورة مليئة بالحياة والصخب.

ولعل لجوء مسلم بن الوليد إلى هذا الوزن بحيث يحتل لديه الصدارة ناتج عن استغلاله للمساحة الإيقاعية الكامنة في تفعيلاته، مما وفر له مساحة أوسع في التعبير عما يختلج في صدره من مشاعر وأحاسيس، وفي أبياته التالية أكبر دليل على ذلك⁽³⁾:

| | |
|------------------------------|-----------------------------------|
| أديري عليّ الراح ساقية الخمر | ولا تسأليني واسألني الكأس عن أمري |
| كأن بي قد أظهرت مضمّر الحشا | لك الكأس حتى أطلعتك على سري |

وفي البيتين السابقين تشخيص للكأس، إذ يجعلها صريع الغواني مسؤولة عن كشف أسرارها والبوح بها، وهو لم يقصد الكأس ذاتها، بل قصد المشروب المستقر في جوفها، فهو سبب في ذهاب العقول ودفع الإنسان إلى الإفصاح عن دواخله.

ولأن البحر الطويل أكثر الأوزان ملاءمة للتعبير عن هذه العاطفة، جاءت أبيات بشار بن برد دليلاً على ذلك، فقال⁽⁴⁾:

(1) - هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، دون طبعة وتاريخ، ص: 79.

(2) - ديوان صريع الغواني، ص: 36.

(3) - المصدر نفسه، ص: 36.

(4) - ديوان بشار بن برد، ج2/ص: 160.

من البيض لم تسرح على أهل غنة
 كأن لسانا ساحرا في لسانها
 كأن رياضاً فرقت في حديثها
 تميّت بها ألبابنا وقلوبنا
 إذا نطقت صحنا و صاح لنا الصدى
 وقيرا و لم ترفع حداج قعود⁽¹⁾
 أعين بصوت كالفرند حديد⁽²⁾
 على أن بدوا بعضه كبرود
 مرارا و تحيينهن بعد همود
 صياح جنود وجهت لجنود

تبدو صورة المرأة في هذه الأبيات فريدة من نوعها، بل قد تفوق الصورة الإنسانية الطبيعية، إذ تتعالى عن الوصف، فهي بالإضافة إلى كونها من الحرائر تتمتع بحسن الحديث الذي يشبه الرياض، وهو ملمح من ملامح حضارته التي ترسخت في وجدانه، فبشار قادر على قلب خصائص الأشياء، ليظهر الرياض المحببة إلى نفوس البشر غير أسرة، بينما يصور المرأة أسرة، خاطفة للأبصار بسحرها وجمالها حتى يصبح الرجل أمامها منزوع الإرادة والبصر.

ومن أمثلة الأبيات التي جاءت على البحر الطويل قول أشجع السلمي يرثي الخليفة هارون الرشيد⁽³⁾:

منازل هارون الخليفة أصبحت
 لبسن حلي الملك ثم سلبنها
 يذكرني هارون آثار ملكه
 إذا ما سطا عر المنايا فانه
 لهن على شاطئ الفرات عويل
 فهن و لا حلي لهن عطول
 و ذلك ذكر ما حييت يطول
 سواء عنده عزيز و ذليل

والظاهر أن أشجع السلمي كان شديد الارتباط بالموروث القديم، غير أنه في الوقت ذاته كان لصيقا بالبيئة العباسية التي كلف برقيها وتمدنها، ودليل ذلك الصدق الفني الذي يفوح من ثنايا القصيدة، إذ تتسم بحسن السبك وعمق المعاني، بعيدا عن التكلف وافتعال الحزن والتأنق في استخدام الألفاظ.

ومن ذلك أيضا ما سطره سلم الخاسر عندما انتهاز فرصة تولي الهادي للخلافة بعد وفاة المهدي، إذ يقول⁽⁴⁾:

لقد فاز موسى بالخلافة و الهدى
 فمات الذي عم البرية فقده
 و مات أمير المؤمنين محمد
 و قام الذي يكفيك كم يتفقد

(1) - الغنة: العنة: صَوْتُ فِي الْحَيْشُومِ، وَقِيلَ: صَوْتُ فِيهِ تَرْخِيمٌ نَحْوَ الْحَيَاشِيمِ تَكُونُ مِنْ نَفْسِ الْأَنْفِ، أَمَا فِي الْأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ فَيَقْصِدُ بِهَا الْوَادِي الَّذِي كَثُرَ ذَبَابُهُ لِاتِّقَافِ عَشْبِهِ، انْظُرْ ابْنَ مَنْظُورٍ، لِسَانِ الْعَرَبِ، مَادَّةُ (غَنَن)، ج 13/ص: 315.

(2) - الفرند: وَشَيْءٌ السَّيْفِ، وَهُوَ دَخِيلٌ، يَنْظُرُ الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ، مَادَّةُ (فَرَنْد)، ج 3/ص: 334.

(3) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج 1/ص: 130.

(4) - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 8/ص: 224.

وفي البيتين السابقين يجمع الشاعر بين الرثاء والمديح جاعلا كل بيت يتضمن المعنيين معا، فهو يرثي المتوفي ويمدح الحي.

ويحتل بحر البسيط المرتبة الثانية في نسبة الشيوخ في شعر العصر العباسي الأول، ذلك انه من البحور "التي أولع الشعراء بركوبها منذ الجاهلية، لاتساع أفقه وامتداد رقعته وجمال إيقاعه"⁽¹⁾، ومن ذلك قول أبي نواس محاورا الخمرة، وقد شخصها وجعل لها لسانا⁽²⁾:

| | |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| صاعاً من الدُّرِّ واليَاقُوتِ مَأْتِيبَا يا أُمُّ وَيَحَاكِ، أَخْشَى النَّارَ وَاللَّهْبَا قالت: ولا الشمس؟ قلت الحرُّ قد ذَهَبَا قالت: فَبِعَلِي؟ قلت: الماءُ إنَّ عَذْبَا قالت: فبيتي، فما استحسنُ الخَشْبَا فِرْعُون، قالت: لقد هيجتَ لي طَرَبَا ولا اللُّيمِ الذي إنَّ شَمْنِي قَطْبَا | إني بَدَلْتُ لَهَا، لَمَّا بَصُرْتُ بِهَا فاستوحِشْتُ، وبكيتُ في الدَّنِ قَائِلَةً: فقلت: لا تَحْذِرِيه عندنا أبداً قالت: فَمَنْ خَاطَبِي هذا؟ فقلت: أنا قالت لقاحي فقلت: التَّلْجُ أُبرِدُهُ قلت: القَنَانِيُّ والأقْداحُ، وَلَدَّهَا لا تُمَكِّنَنِي مِنَ العَرَبِيِّدِ، يَشْرَبُنِي |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

ومن المسلم به أن الخمرة قديمة، وأن شعراءها في أدبنا العربي أكثر، بل يمكن الجزم أن أبا نواس قد أخذ معانيه المتصلة بها من شعر من سبقه، غير أنه تبوأ المرتبة العالية وفاق القدامى في وصفها، ولعل الجديد في خمرياته، ما نلحظه في القصيدة السابقة، من جعله إياها عروساً يخاطبها وتخاطبه، بل اتخذها شقيقة روحه، وتوأم نفسه، وزاد على ذلك بأن توجهها أمًا له يرضع لبنها.

وإلى جانب هذا التفنن في عرض معاني القدماء، وفي مزج الفلسفة بالأدب، هذا المزج اللطيف، الذي لم يقصد به الشاعر إلى أكثر من التطرف، فلم يحوج السامع إلى جهد التفكير، نجد أبا نواس قد تخلص من البداوة والجزالة التي كان القدامى حريصين على استيفائها في شعرهم، وحتى في البحور الطوال التي أنشأ عليها أبو نواس بعض شعره في الخمر، لا يكاد يشعر القارئ بالوقار والجزالة التي كان يحسهما في خمريات سابقيه، ذلك لأن أبا نواس قد خلع على شعر الخمر أسلوباً ماجناً يحمل كل معاني العبث والثورة، في بحوره وفي ألفاظه السهلة القريبة التي حاكى بها كلام الشرب والخمار والساقى، وفي معانيه التي تشيع فيها الفكاهة والاستهتار بكل المبادئ الدينية والخلقية.

(1) - إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص: 189.

(2) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 49.

وممن تناول بحر البسيط من شعراء العصر العباسي الأول بشار بن برد، إذ يقول⁽¹⁾:

| | |
|---------------------------------|------------------------------|
| و قربت لمسير منك يومئذ | مراكب منك لم تولد و لا تلد |
| يغلي بهن طريق ما به اثر | غي مستوى ما به حزن و لا جدد |
| لافي السماء ولا في الارض مسلكها | و لا تقوم و لا تمشي و لا تخذ |
| و لا يذقن اكالا ما بقين و لا | يشربن ماء و عن الشرع الورد |

والظاهر أن شاعرنا قد تحول عن وصف رحيله إلى ممدوحه في الصحاري المجدبة على ظهور النوق إلى وصف البحر وركوب السفينة، وهي ظاهرة تشيع عند كثير من شعراء العصر العباسي الأول أمثال بشار، مسلم وأبي نواس.

ومن ثمة فإن اختيار بحر البسيط من قبل الشاعر لم يأت وليد صدفة، بل من خلال الأثر الذي يتركه هذا البحر في التنظيم الصوتي الدلالي، ناهيك عن كونه من البحور التي توفر للبيت الشعري طولاً أكثر وفضاءً أوسع، فيتسنى للشاعر مجالاً أكبر للتعبير عما يجول في نفسه.

ولا عجب أن نلاحظ استخدام بعض شعراء هذه الحقبة لوزن مخلع البسيط، فقد عد من البحور المناسبة للتغني في مجالس الأتس والراح، ويبدو ذلك واضحاً من قول أبي نواس يمدح أحد الأشراف⁽²⁾ :

| | |
|---------------------|----------------------|
| اختصم الجود والجمال | فيك ؛ فصار إلى جدال |
| فقال هذا يمينه لي | للعرف والجود والنوال |
| وقال هذا : ووجهه لي | للحسن والظرف والكمال |
| فافترقا فيك عن تراض | كلاهما صادق المقال |

ومن النماذج الشعرية التي تنظمها شعراء العصر العباسي الأول على بحر البسيط أيضاً قول دعبل الخزاعي يتغزل بمحبوبته⁽³⁾:

| | |
|---------------------------|-------------------------------|
| الله يعلم والأيام دائرة | و المرء ما بين إيحاش وإيناس |
| أنى أحبك حبالو تضمنه | سلمى سميك دك الشاهق الراسي |
| حبا تلبس بالأحشاء وامتزجا | تمازج ألماء بالصهباء في الكاس |

(1) - ديوان بشار بن برد، ج2/ص: 283.

(2) - ديوان أبي نواس، ج1/ص: 338.

(3) - ديوان دعبل الخزاعي، ص: 133.

وقد استطاع دعبل من خلال الأبيات السابقة أن يلج إلى أعماق النفس البشرية في أدق عواطفها، وأسمى معانيها، فتراها عاشقا والها دنفا؛ أحب سلمى وتماهى في روحها، حيث أصاب في اختياره بحر البسيط لأنه أقدر على نقل الحالة الشعورية المفعمة بركة العاطفة إزاء محبوبته سلمى، فساهم تناوب تفعيلتي (مستفعلن، فاعلن) على خلق إيقاع يتماشى والشعور بحالة الهجر والوجد، مما ساهم في إبراز معاني التماهي والحلول في ذات المعشوقة.

ويقول علي بن جهم في الهجاء من وزن بحر البسيط⁽¹⁾:

بني متيم هل تدرون ما الخبر وكيف يستتر أمر ليس يستتر
قد كان شيخكم شيخا له خطر لكم أمكم في أمرها نظر

وأهدي لأحمد بن يوسف⁽²⁾ - وزير المأمون - دهن الحماح⁽³⁾، فقال على وزن بحر البسيط أيضا⁽⁴⁾:

قَد أَتَانَا دُهْنُ الْحَمَاحِ يَعْدُو يُنْشِدُ الشَّعْرَ تَارَةً ثَمَّ يَشْدُو
يَا أَبَا غَانِمٍ مَلَكْتَ فَأَسْجَحُ مَا لَنَا مِنْ طَلَابٍ وَصَلَاكِ بُدُ
إِنَّمَا صَاحِبُ الْحَمَاحِ مَوْلى وَالَّذِي يَطْلُبُ الْحَمَاحَ عَبْدُ

ويتضح من الأبيات السابقة أن الموسيقى الشعرية واكبت في تطورها تطور الموضوعات الشعرية، بعد سريان الأثر الحضاري الذي أخذ يدب في جميع أمصار البلاد العربية في العصر العباسي الأول، وهو ما يفسر استخدام الشعارين السابقين لبحر البسيط الذي يعد من البحور الطويلة التي لا غنى عنها، " فالبسيط والطويل ليس في الشعر أشرف منهما وزنا، وعليهما جمهور شعر العرب، إذا اعترضت الديوان من دواوين الفحول كان أكثر ما فيه طويلا و بسيطا"⁽⁵⁾.

وكما نظم شعراء العصر العباسي الأول على وزن بحر البسيط، نظموا أيضا على الكامل، إذ لم تكذبوا كبر التحضر تخرج للوجود حتى شهدنا هذا الوزن وهو يحتل المراتب الأولى، بل ويزاحم غيره لنيل الصدارة والتفوق، خاصة وأنه أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات، وفيه لون خاص من الموسيقى يجعله -إن أريد به الجد- فخما جليلا مع عنصر

(1) - ديوان ابن جهم، ص: 133.

(2) - هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح العجليّ بالولاء، المعروف بالكاتب، وزير من كبار الكتاب، من أهل الكوفة، ولي ديوان الرسائل للمأمون، واستوزره بعد أحمد بن أبي خالد الأحول، وتوفي ببغداد، وكان فصيحاً، قوي البديهة، يقول الشعر الجيد، له رسائل مدونة، انظر الزركلي، الأعلام، ج1/ ص: 272.

(3) - الحماح: ريحانة معروفة، الواحدة حماحة، ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (حمم)، ج12/ص: 161.

(4) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ ص: 219.

(5) - أبو العلاء المعري، الفصول والغايات، ضبط وتفسير: محمود حسن زناتي، مطبعة حجازي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1356هـ/ 1938م، ج1/ص: 212.

ترنمي ظاهر، ويجعله - إن أريد به غزل أو ما يحاكيه من أبواب اللين والرقّة - حلوا مع صالصة كصالصة الأجراس، ومن نماذج ذلك قول الحسين بن مطير⁽¹⁾:

| | |
|---------------------------------------------|-------------------------------------------------------|
| مُسْتَضْحِكُ بِلِوَامِعِ مُسْتَعْبِرٍ | بِمَدَامِعِ لِمِ تَمْرِهِمَا الْأَقْدَاءُ |
| كَثُرَتْ لِكَثْرَةِ وَدَقِّهِ أَطْبَاؤُهُ | فَإِذَا تَحَلَّبَ فَاضَتْ الْأَطْبَاءُ ⁽²⁾ |
| فَلَهُ بِبِلَا حَزَنٍ وَلَا بِمَسْرَةٍ | ضَحِكٌ يُرَاوِحُ بَيْنَهُ وَبُكَاءُ |
| وَكَأَنَّ عَارِضَهُ حَرِيقٌ يَلْتَقِي | أَشْبَبُ عَلَيْهِ وَعَرْفَجُ وَأَلَاءُ |
| لَوْ كَانَ مِنْ لُجَجِ السَّوَاجِلِ مَاؤُهُ | لَمْ يَبِقْ فِي لُجَجِ السَّوَاوِحِلِ مَاءُ |

يقف ابن مطير مذهولاً أمام جمال تلك السحابة الممتلئة برذاذ المطر الذي يشبه الدموع النقية الناصعة البياض، إذ أضفى عليها لمعان البرق الذي يخطف الأبصار بهاء ورونقا منقطع النظير، وكأن تلك السحب تبكى في امتلائها وتضحك بعد أن تذرف زخات المطر المنعشة.

ويبدو أن شاعرنا سار في اختياره لهذا الوزن على نهج الشعراء القدامى، غير أنه عمد إلى تصيد الألفاظ الراقية والعبارات الرقيقة التي تعكس ترف عصره وعضوبة حسه.

وواضح من شعر القرن الثاني للهجرة عامة والعصر العباسي الأول خاصة - مما مر ذكره - أن شعراء هذه الحقبة قد افتتنوا بالألفاظ الموحية والتراكيب الفخمة التي تحمل في طياتها حضارة العصر وترفه، وهو ما دفعهم إلى اختيار أوزان موسيقية ذات تفعيلات رشيقة، طيبة الإيقاع حلوة النغمة لا نشاز فيها ولا تنافر، من ذلك مثلاً قول بشار بن برد⁽³⁾:

| | |
|------------------------------------------------|---------------------------------------------|
| وَدُمِّي أَوَانِسُ مِنْ بَنَاتِ مُحَرَّقٍ | حُورِ نِوَاعِمِ أَوْجِهَاءَ وَجُلُودَا |
| أَرْسَلَنْ فِي لَطْفِ إِلَيَّ أَنْ أَنْبَتَا | غَابَ الرَّقِيبُ وَمَا تَخَافُ وَعَيْدَا |
| فَأَتْنِيهِنَّ مَعَ الْجَرِيِّ يَفُودُنِي | طَرِبَاءَ وَيَا لَكَ قَائِدًا وَمَقُودَا! |
| لَمَّا التَّقِينَا قُلْنَ: هَاتِ فَقَدْ مَضَتْ | سَنَةٌ نُؤْمَلُ أَنْ نَرَاكَ قَعِيدَا |
| حَدَّثَ فَقَدْ رَقَدَ الْوُشَاةُ وَلَيْتَهُمْ | حَتَّى الْقَيَامَةِ يَلْبَثُونَ رُقُودَا |
| قَلْتُ: اقْتَرِحْنِ مِنَ الْهَوَى فَسَأَلْنِي | طُورَفَ الْحَدِيثِ فُكَاهَةً وَنَشِيدَا |
| حَتَّى إِذَا بَعَثَ الْأَذِينَ فَرَاقِنَا | وَرَأَيْتُ مِنْ وَجْهِ الصَّبَّاحِ خُدُودَا |
| جَرَتِ الدَّمُوعُ وَقَلْنَ: فِيكَ جِلَادَةٌ | عَنَا وَنَكَرَهُ أَنْ نَرَاكَ جَلِيدَا |

(1) - أبو علي القالي، الأمالي، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، 1344هـ/1926م، ج1/ص: 177.

(2) - الأطباء: جمع طبي، وهو الواحد من أطباء الضرع، و كل شيء لا ضرع له، وفي المثل "جاوز الحزام الطبيين"، وهي كناية عن المبالغة في تجاوز حد الشر والأذى، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (طبي)، ج15/ص: 04.

(3) - ديوان بشار بن برد، ج2/ص: 329.

يظهر الشاعر في الأبيات السابقة بمظهر المتشوق الطرب إلى لقاء محبوبته وغيرها من النسوة اللاتي اعتدن التردد على بشار في مخدعه ليتبادل وإياهن أطراف الحديث المتخم بالفكاهات والدعابات التي تسري عنهن الهم وتبعث فيهن الحياة والمرح كلما احتجن إلى ذلك.

ومن روائع ما نظم على بحر مجزوء الكامل قصيدة سلم الخاسر التي يمدح فيها المهدي ويرى فيه الرجل الأنسب لقيادة الأمة والذود عن حماها، إذ يقول⁽¹⁾:

| | |
|------------------------------------|------------------------------------|
| وإلى أمير المؤمنين | نَ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ |
| جَمَعَ الْخِلَافَةَ وَالسَّلَامَ | حَاةً وَالشَّجَاعَةَ فِي نِظَامِ |
| مَلِكٌ ضَرِيْبُهُ رَأِيْبُهُ | أَمْضَى مِنْ السَّيْفِ الْحَسَامِ |
| يَقْضِي أُمُورَ الْمُؤْمِنِيْنَ | نَ بِرَأْيِ حَزْمٍ وَاعْتِزَامِ |
| قَالَتْ فُرَيْشٌ كُلُّهَا | وَهُمُ الْكِرَامُ بَنُو الْكِرَامِ |
| وَخِيَارُ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى | مِنْ بَيْنِ كَهْلٍ أَوْ غُلَامِ |
| فَضَلَ الْمُلُوكَ مُحَمَّدَ | فَضَلَ الْخَلَالَ عَلَى الْحَرَامِ |
| فَأَسْلَمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ | نَ فَأَنْتَ رَهْنٌ بِالسَّلَامِ |

وما يلحظه المتلقي في الأبيات السابقة طول النفس، ذلك أن الحديث عن الخلافة وولاية الأمر من شأنه أن يحدث رهبة في نفوس العوام والخواص، وهو ما دفع الشاعر إلى استخدام هذا الوزن، "فهو أتم الأبحر السباعية لأنه يصلح لكل أنواع الشعر، ولهذا كان كثيرا في كلام المتقدمين والمتأخرين"⁽²⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن مجزوء الكامل من البحور التي استهوت شعراء العصر، فمالوا إلى كثرة النظم فيها، من ذلك مثلا قول بشار بن برد مادحا⁽³⁾:

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الَّذِي | أَمْسَى وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرُ |
| أَلَوْ كَانَ مِثْلَكَ آخِرُ | مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا فَقِيرُ |

ويقول أبو نواس من الكامل⁽⁴⁾:

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| وكان أقداح الزجاج إذا جرت | وسط الظلام كواكب الجوزاء |
|---------------------------|--------------------------|

(1) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 103.

(2) - غازي يموت، بحور الشعر العربي، دار الفكر اللبناني، لبنان، الطبعة الثانية، 1996م، ص: 91.

(3) - ديوان بشار بن برد، ج4/ص: 70.

(4) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 10.

لكؤوس الخمر حضور كثيف في لغة أبي نواس الشعرية؛ فهو يتلذذ بكل ما يتصل بها، فقد تخيل الأقداح بما تحويه من خمر كواكب لامعة مضيئة خلابة لتصبح لديه عالماً مليئاً بالتصورات والألوان والرؤى التي ترمز لكل ما هو سام ومرتفع، وقد ساعدته تفاعلات بحر الكامل في تجسيد معانيه وصياغتها داخل إطار عذب يعكس ثقافة العصر وألقه، خاصة وأنه من البحور الصافية ذات التفعيلة الواحدة المكررة (6 مرات) في البيت الشعري التام وهي (متفاعلن متفاعلن متفاعلن)، غير أن هذا البحر تعتريه كثير من التغيرات التي تبتعد عن الأصل الموضوع عليه، مما يؤدي إلى توجيه البنية الإيقاعية نحو أنغام جديدة ذات قيم جمالية تطرب السامع وتأخذ لبه.

ومن نماذج ما نظم على وزن بحر الكامل أيضاً أبيات لأبان اللاهقي يرثي فيها القاضي سوار⁽¹⁾، وهي من قصيدة طويلة، قيل عنها: "إنه لم يرث قاضٍ بأحسن منها"⁽²⁾، حيث يقول⁽³⁾:

نَقَرَ نَوْمِي الْخَبَرَ السَّارِي إِذْ صَرَخَ النَّعْيُ بِسُؤَارِ

إلى أن يقول⁽⁴⁾:

إِمَامٌ عَزَلُ قَائِلٍ فَاضِلٍ يَجْلُو دُجَى الشَّكِّ بِأَنْوَارِ
كَانَتْ وَجُوهُ الْحَحِّ قَدْ أَسْفَرَتْ فَأَظْلَمَتْ مِنْ بَعْدِ إِسْفَارِ

توصل الأبيات السابقة احترام الرجل وتخلد ذكره، وقد سار الشاعر على ذلك في كل قصيدته ينعاه ويبث محاسنه، ويصف أحوال أهل البغي والظلم وضعف العدل بعد رحيله، ثم يصف مصرعه تحت الجنادل، ولكن وإن مات جسده فإن آثاره باقية ومثاله لم تمت، فهو حي قلوب محبيه بذكره الطيب العطر.

ويقول أبو الشيص على وزن بحر الكامل⁽⁵⁾:

وَقَفَ الْهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتِ فَلَيْسَ لِي مَتَّأخَّرُ عَنْهُ وَلَا مُنْقَدُّمٌ
أَجْدُ الْمَلَامَةِ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةٌ حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلْيُلْمَنِي اللَّوْمُ

(1) - هو سوار بن عبد الله بن قدامة العنبري القاضي البصري، كان من نبلاء القضاة، وكان من فحول الشعراء، فصيحاً، مفوهاً، ومات سنة خمس وأربعين ومائتين هجرية، سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج11/ص: 544.

(2) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج1/ص: 46.

(3) - المصدر نفسه، ج1/ص: 42.

(4) - المصدر نفسه، ج1/ص: 43.

(5) - جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ/1992م، ج10/ص: 34.

ومناسبة البيتين السابقين أن دعبلا الخزاعي اجتمع مع أقران له من شعراء العصر، الذين كانوا من أساطين حضارة العصر، يسجلون بأشعارهم ما يدور في المجتمع، ويتناقلون الكلمة، ويثرون الأدب والشعر بإبداعاتهم الشعرية، حيث اجتمع مع دعبل في ذلك المجلس مسلم بن الوليد وأبو الشيص وأبو نواس، فقال أبو نواس: "إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه ولهذا اليوم ما بعده، فليأت كل واحد منكم بأحسن ما قال"⁽¹⁾، فقام أبو الشيص فأنشد أبياته على وزن بحر الكامل، إذ نلمس أن الشاعر استطاع أن يطوع التفعيلات لصالح أسلوبه ولغته الشعرية، وهو ما يدل على مرونة هذا البحر.

وحاصل الأمر أن نظرة الشعراء القدامى للشعر تركز على شروط معينة لنجاح أي قصيدة، أهمها أن تقال في سبعة أبحر تامة (الطويل، البسيط، المديد، الكامل، الوافر، الرجز، الخفيف)، على أن تكون العرب قد تغنت به، وهو ما أدركه شعراء العصر العباسي الأول، فعمدوا إلى استخدام بحر الطويل، البسيط، الكامل... لأنها من أكثر البحور مناسبة للإنشاد والغناء، إذ نلمح تفعيلاتها وهي تشدو من خلال أحاسيس مفعمة بالفرحة والألفة تارة، وتارة تبكي وتتوح من خلال الانفعال الذي أوجده الشاعر في الأغراض والموضوعات التي نظم عليها في إطار هذه البحور.

وقد زاد الاهتمام بالموسيقا الشعرية في العصر العباسي، إذ ازدهر فيه الغناء، وغدا الشعر صنعة تولى عناية كبيرة للزخرف والزينة في ملاءمة للحياة المتحضرة المترفة التي تميل إلى التأنق في كل شيء.

ويرى شوقي ضيف أن الشعراء في ذلك العصر، قد أخذوا يعدلون في الغالب عن النظم في الأوزان الطويلة المعقدة، واستبدلوها بالنظم في الأوزان الخفيفة البسيطة حتى إذا وصلنا إلى العصر العباسي صفيت لغة الشعر، وبلغت كامل الرشاقة والعدوبة، واتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء، وساد نظام المقطوعة وشاعت الأوزان الخفيفة والمجزوءة⁽²⁾، على أن شعراء العصر العباسي كانوا أحياناً أخرى يقفون بين يدي الخليفة أو الوزير ينشدون الشعر إنشاداً ويلقونه إلقاءً، ولا سيما في قصائد المدح والثناء. فقد جمع الشعر العباسي إذن بين شعر يتغنى به وشعر ينشد في المجالس والمحافل⁽³⁾.

والجديد في الأمر هو انصراف بعض شعراء الحضارة عن النظم في الأوزان الطويلة فإن اضطروا إليها جزؤها حتى توافق أنغام المغنين والمغنيات، وقد يتدخل المغنون أنفسهم في أشعار الشعراء فيجزؤون الأوزان الطويلة ويصيرونها كما يوافق رغباتهم وغنائهم، لذلك أحدثوا في الشعر كثيراً من الزخافات والعلل التي لم تكن منتشرة وانقاد الشعر إلى الأوزان

(1) - أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، الأوائل، دار البشير، طنطا، الطبعة الأولى، 1408هـ، ص:

51.

(2) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 193.

(3) - انظر إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص: 161.

السهلة مثل الخفيف والرمل والوافر والهزج والمتقارب تبعاً لتطور الأذواق التي أرهفتها حياة الحضارة الجديدة⁽¹⁾.

ويمثل شوقي ضيف لذلك التأثير الغنائي في الأوزان بقول أبي العتاهية⁽²⁾:

| | |
|---------------|-----------------|
| عتب ما للخيال | خبريني ومالي |
| لا أراه أتاني | زائراً من ليالي |
| لو رأني صديقي | رق لي أو رثي لي |
| أو يراني عودي | لان من سوء حالي |

وتبعاً لذلك كله فقد شاعت أوزان تناسب المقام والحال منها: مجزوء الكامل ومجزوء الرجز والبسيط المخلع ومجزوء الرمل ومجزوء المنسرح والهزج والمضارع والمقتضب والمجتث والخيب ومجزوء المقتضب ومجزوء المتقارب⁽³⁾.

وحين يقترب شعر العصر العباسي الأول من طبيعة هذه الأوزان القصيرة أو المجزوءة تغدو ملائمة له فيؤثرها على غيرها، كأن ينظم الشعر بغرض الإنشاء والترديد الغنائي، على طراز ما نجد في هذه الأبيات التي نظمها مطيع بن إياس يتغزل فيها بجارية سبت فواده، وهي موزونة على مجزوء الكامل⁽⁴⁾:

| | |
|---------------------|---------------------|
| لا تبعدي يا جوهر | عنا وإن شط المزار |
| ويلي لقد بعدت دينا | رك سمت تلك الديار |
| يشفى بريقتهما السقا | م كأن ريقها العقار |
| بيضاء واضحة الجبين | كأن غرتها نهار |
| القلب قابلي وهو | عند الهاشمية مستعار |

ولا غرو أن ألفاظ الشاعر جاءت واضحة ومعانيه قريبة، وهو ما اقتضته الحياة الشعبية اليومية، إذ زادها ذلك الوزن جمالا، وقربها إلى لغة الناس وقاموسهم اليومي الذي لانجد فيه عناء ولا مشقة.

(1) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 193.

(2) - انظر شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، ص: 84.

(3) - انظر مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص: 538.

(4) - الأصفهاني، الأغاني، ج13/ص: 221.

ومن مجزوء الكامل أيضا قول أبي العتاهية يصف مجون المجتمع العباسي الأول قائلا(1):

لَهْفِي عَلَى الزَمَنِ الْقَصِيرِ بَيْنَ الْخَوَرَنَقِ وَالسَّيْدِيرِ
إِذْ نَحْنُ فِي غُرْفِ الْجِنَا نِ نَعُومُ فِي بَحْرِ السُّرُورِ
فِي فَنِيَّةٍ مَلَكُوا عِنَا نَ الدَّهْرِ أَمْثَالِ الصُّقُورِ
يَتَعَاوَرُونَ مُدَامَةً صَهْبَاءَ مِنْ حَلَبِ الْعَصِيرِ

وقد كثر النظم على بحر الرجز ومجزؤه نتيجة التقاء الثقافة العربية بالثقافات الأخرى، فقد زاد نصيب الفكر في الشعر عما كان عليه من قبل، على حساب الشاعرية فيه، وقد وازن الشعراء الكبار بين المكونات الفكرية الوافدة وبين المكونات الفنية لشعرهم، فظل مقبولا سائغا عند الناس، وهكذا كان شأن أبن اللاحقي الذي نظم كتاب " كليله و دمنة " شعرا، إذ يقول(2):

هَذَا كِتَابُ أَدَبٍ وَمَحْنُهُ وَهُوَ الَّذِي يَدْعَى كَلِيلَهُ دَمْنَهُ
فِيهِ احْتِيَالَاتٌ وَفِيهِ رَشْدٌ وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعْتَهُ الْهَنْدُ
فَوْصَفُوا آدَابَ كُلِّ عَالِمٍ حِكَايَةَ عَنِ أَلْسِنِ الْبُهَائِمِ

ومن مجزوء الرجز الذي يطرب الأذن، قول الربيعي(3)، متغزلاً(4):

أَفْدِي التِّي قَلْتِ لَهَا وَالْبَيْنِ مِنْمَا قَدَدْنَا
فَقَدْ كُ قَدْ أَنْحَلِ جِسْمِي وَأَذَابِ الْبِنْدَانَا
قَالْتِ فَمَاذَا حَيْلَتِي كَذَاكَ دَبْتِ أَنْنَا
بِالْيَأْسِ بَعْدِي فَاقْتَنَعِ قَلْتِ إِذَا قَلَّ الْغِنَا(5)

(1) - ديوان أبي العتاهية، ص: 212.

(2) - أبو بكر الصولي، الأوراق، ج1/ص: 46.

(3) - هو عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع من الشعراء المطبوعين ، جيد الصنعة، حسن الرواية، كان من المغنيين، حلو الشعر ظريفه، ليس من الشعر الجيد الجزل ولا من المرذول، ولكنه شعر مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين، عاش في عصر أبي جعفر المنصور وعاصر من بعده، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج19/ص: 158.

(4) - المصدر نفسه، ج19/ص: 183.

(5) - الغنا (بالفتح) النفع، وأصله مهموز (الغناء) وحذف الشاعر همزته ضرورة، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (غنا)، ج15/ص: 136.

ومن مخلع البسيط في شعر أبي نواس قوله يمدح أحد الأشراف(1):

وَمَجْلِسٍ مَأَلُهُ شَبِيبُهُ حَلٌّ بِهِ الْحُسْنُ وَالْجَمَالُ
يُمِطُّرُ فِيهِ الشُّرُورُ سَحًّا بِدِيمَةٍ مَالَهَا أَنْتَقَالَ
شَهْدَتُهُ فِي شَبَابٍ صِدْقٍ مَا إِنْ يُسَامَى لَهُمْ فَعَالُ

ونواة التحضر في المجتمع العباسي بادية من خلال الأبيات السابقة، إذ انغمس في الثراء والتنعيم ونشطت فيه حركة العلوم والترجمة وتعددت فيه الطبقات والأجناس البشرية وكثرت فيه الملل والنحل والمذاهب المختلفة ونشطت فيه الشعوبية فتغيرت لذلك التطور الحياة الأدبية، وتنكر فيه فحول الشعراء للتراث الشعري الموروث، واجتهدوا في تجديد مقدمة قصائدهم وأفاظه وتراكيبه وموسيقاه وصوره وأوزانه، وإن بقيت للشعر العربي أصالته وعرافته.

وقال طريح بن إسماعيل الثقفي(2) في المنصور لما أفضت إليه الخلافة(3):

لَمَّا أَتَى النَّاسَ أَنْ مُلْكَهُمْ إِلَيْكَ قَدْ صَارَ أَمْرُهُ سَاجِدُوا
وَاسْتَبَشَرُوا بِالرِّضَا تَبَاشَرُهُمْ بِالْخُلْدِ لَوْ قِيلَ إِنَّهُمْ خَلَدُوا
كَنْتُ أَرَى أَنْ مَا وَجَدْتُ مِنَ الْفَرِّ حَاةٍ لَمْ يَلْقَ مِثْلَهُ أَحَدُ
حَتَّى رَأَيْتُ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ قَدْ وَجَدُوا فِيكَ مِثْلَ مَا أَجِدُ
قَدْ طَلَبَ النَّاسُ مَا بَلَغَتْ فَمَا نَالُوا وَلَا قَارَبُوا وَلَا جَهْدُوا
يَرْفَعُكَ اللَّهُ بِالتَّكْرَمِ وَالتَّقَى سَوَى فَتَعَلَّوْا وَأَنْتَ تَقْتَصِدُ

والمبالغة واضحة في هذه الأبيات التي اشتملت على كثير من أدوات القصر البلاغي، فقد قدم الجار والمجرور في الشطر الثاني من البيت الأول لحصر انقياد أمر الخلافة إلى المنصور وجعل رضا الناس بخلافة المنصور في مقابل الخلد والبقاء الذي ينشده الناس، كما أن في استخدامه لفظ التوكيد المعنوي في قوله (العباد كلهم) مبالغة أيضاً، ولو لم يستخدم التوكيد لكان المعنى أدق وأصدق، فإن من الناس من لم يرض بخلافة المنصور، وهذا سائغ في كل زمان ومكان.

(1) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 249.

(2) - هو طريح بن إسماعيل بن عبيد الثقفي، يكنى أبا الصلت، نشأ في دولة بني أمية، واستفرغ شعره في الوليد بن يزيد، أدرك دولة بني العباس ومات في خلافة المهدي، انظر الزركلي، الأعلام، ج3/ص: 226.

(3) - النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج5/ص: 128.

ولعل الشاعر في قصيدته تلك التي حشاها بالمبالغة من خلال قصر الخلافة والسعد على المنصور دون غيره، يريد أن يكسب ود الخليفة ويأمن مكره، فقد كان نديم الوليد بن يزيد وشاعره المقدم⁽¹⁾، وفي ذلك إثارة لحفيظة المنصور العباسي، الناقم على خلفاء بني أمية.

أما من نماذج مجزوء الرمل، فنذكر قول أبي العتاهية في إحدى زهدياته⁽²⁾:

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| سَيَصِيرُ الْمَرْءُ يَوْمًا | جَسَدًا مَا فِيهِ رُوحٌ |
| بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ حَيٍّ | عَلَّمُ الْمَوْتِ يَأْسُوحُ |
| كُنَّا فِي عَفَاةٍ وَالـ | مَوْتُ يَغْدُو وَيَرُوحُ |
| نَحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَسْـ | كَيْنُ إِنْ كُنْتَ تُتْرُوحُ |
| لَتَمُوتَنَّ وَإِنْ عُمُّ | رَتَ مَا عُمَّرَ نُوحُ |

تحمل الأبيات السابقة ألفاظاً سهلة رقيقة، يسمعها المذنب فيندم بمجرد سماعها؛ لقرب تراكيبها ومعانيها إلى قلبه، ولذلك راج شعر أبيالعتاهية وذاع صيته في مجتمعه لأنه كان يعزف على وتر يعشقه الجميع، ولا يجدون مشقة في حفظه، إذ لاقت المقطوعة السابقة صدى كبيراً في نفس هارون الرشيد، وهو صاحب الترف والتحضر، فلماذا لا تؤثر في الطبقة العامة الكادحة التي عاشت حياة الفقرة والحاجة ولماذا لا ينشدها اللاهون والمهرجون فيحاسبوا أنفسهم ويؤوبوا ذواتهم؟!

وهذا حماد عجرد يقول في الثناء على صديقه مطيع بن إلياس من مجزوء الرمل أيضاً⁽³⁾:

| | |
|-------------------------------|--------------------------|
| كُلُّ شَيْءٍ لِي فِدَاءٌ | لِمُطِيعِ بْنِ إِيَّاسِ |
| رَجُلٌ مُسْتَمَلِّحٌ فِي | كُلِّ لَيْلٍ وَشَمَّاسِ |
| عَدْلٍ رُوحِي بَيْنَ جَبَابِي | وَعَيْنَيَّ بِرَاسِي |
| غَرَسَ اللَّهُ لَهُ فِي | كَبِيدِي أَخْلَى غِرَاسِ |
| لَسْتُ وَاللَّهِ بِنَاسِي | لِمُطِيعِ بْنِ إِيَّاسِ |
| ذَاكَ إِنْسَانٌ لَهُ فَضْلٌ | عَلَى كُلِّ أَنْسَاسِ |

لقد تميز العصر العباسي الأول أيضاً بانتشار المقطوعات الإخوانية، وتبادل الأحبة والأصدقاء عبارات الود والشوق والوئام شعراً ونثراً، وحشدوا كثيراً من الألفاظ والتراكيب العصرية في تلك الرسائل الإخوانية، فجاءت مليحة التركيب، طريفة الاستعارة، حضارية الصياغة، تتم عن ذوق صاحبها المرهف، وخياله المترف، وهو ما لمسناه من الأبيات السابقة.

(1) - انظر الأصفهاني، الأغاني، ج4/ص: 216.

(2) - ديوان أبي العتاهية، ص: 117.

(3) - جمال الدين الخزرجي، بدائع البدائنه، مصر، دون طبعة، 1861م، ص: 185.

لقد مال الشعراء العباسيون في غالب الأحيان إلى استخدام الأوزان القصيرة والمجزوءة، ولاسيما الأوزان التي يغنى بها، إذ تستدعي الرشاقة والعذوبة والنعومة والخفة وتلائم حياة الترف والنعيم والتقدم، إذ وصفوا كثيراً من المنجزات الحضارية كالإسطرلاب والسفن والأدوات المنزلية، وآلات اللهو وغيرها، من ذلك مثلاً قول علي بن جهم يصف الشطرنج على وزن مجزوء الرمل⁽¹⁾:

أَرْضٌ مُرَبَّعَةٌ حَمْرَاءَ مِنْ أَدَمِ مَا بَيْنَ خَلَّيْنِ مَوْصُوفَيْنِ بِالكَرَمِ
تَذَكَّرَ الْحَرْبَ فَاخْتَارَ لَهَا شَبَهًا مِنْ غَيْرِ أَنْ عَفِيَا فِيهَا بِسَفَاكِ دَمِ
أَنْظُرَ إِلَى فِطْنٍ جَاشَتْ بِكَرِّهِمَا فِي عَسْكَرَيْنِ بِلَا طَبْلِ وَلَا عِلْمِ
هَذَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ هَذَا فَيَغْلِبُهُ وَذَا يَغْيِرُ وَعَيْنُ الْحَزْمِ لَمْ تَنْمِ

وهذا أبو دلامة يبعث برسالة شعرية رقيقة مضحكة إلى الخيزران، يطلب منها جارية تخدمه ويسكن إليها، فقد كبرت أم دلامة وعجزت عن خدمته، فقال⁽²⁾:

أَبْلِغِي سَائِدَتِي بِاللَّحْمِ لِي يَا أُمَّ عُبَيْدَةَ
إِنَّهَا، أَرْضٌ شَدِيدَةٌ لَهُ وَإِنْ كَانَتْ رَشِيدَةً
وَعَدَدْتِي قَبْلَ أَنْ تَخُومَ رَجَّحَ لِلْحَجِّ وَلِيَدَةَ
فَتَأْتِيَنِي وَأُرْسَلُ تَبْتُ بَعَثَرَيْنِ قَصِيدَةَ
كُلَّمَا أَخْلَقْنَا مِنْ أَخْفَى تَبْتُ لَهَا أُخْرَى جَدِيدَةَ
لَيْسَ فِي بَيْتِي لَتْمِيهِمْ دَفْرَاشِي مِنْ قَعِيدَةَ
غَيْرَ عَجُوزٍ عَجْفَاءَ سَأَقُهَا مِثْلَ الْقَدِيدَةَ
وَجْهَهُهَا أَقْبَحُ مِنْ حُومِ تَبْتُ طَرِيٍّ فِي عَصِيدَةَ

ونلمس من الأبيات السابقة بعض نفحات التحضر المتمثلة في حياة الملهمين وميل أهل الترف إلى أصحاب الدعابة الذين يدخلون البهجة إلى نفوسهم، وإن كان الثمن غالياً، فكم دُفع لأبي دلامة وأمثاله من المهرجين والعابثين من الضياع والدور والdraهم والجواري لا لشيء إلا لكونهم ضليعين بالنكتة والكدية التي تبلغ غايتها في مجالس الخلفاء والأمراء.

كما أكثر شعراء العصر العباسي من النظم على وزن بحر المنسرح لاستحسانهم إياه بسبب اتساقه وعذوبته، ومن أجمل ما قيل فيه بائية أبي نواس التي ورد فيها⁽³⁾:

(1) - ديوان علي بن جهم، ص: 179.
(2) - بهاء الدين الهمداني، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 11418هـ/ 1998م، ج1/ص: 105.
(3) - ديوان أبي نواس، ج4/ص: 25.

بعَدَ امْتِنَاعٍ وَشِدَّةِ التَّعَبِ
جودي بأخرى أقضي بها أربي
يَعْرِفُهُ الْعُجْمُ لَيْسَ بِالْكَذِبِ
يَطْلُبُ أُخْرَى بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ

سَأَلْتُهَا قَبْلَةَ ففَزْتُ بِهَا
فَقُلْتُ: بِاللَّهِ يَا مَعَذِبَتِي
فَابْتَسَمَتْ، ثُمَّ أَرْسَلَتْ مَثَلًا
لَا تُعْطِيَنَّ الصَّبِيَّ وَاحِدَةً

ومن نماذج بحر المنسرح أيضا قول أبي العتاهية مادحا(1):

نَفْسَاكِ مَمَّا تَرَيْنِ رَاحَاتِ
تَوَجَّهَهُ اللَّهُ بِالْمَهَابَاتِ
تَاجُ جَلَالٍ وَتَاجُ إِخْبَاتِ
هَلْ لَكَ يَا رِيحُ فِي مُبَارَاتِي
أُخْوَالَهُ أَكْرَمُ الْخَوْوَلَاتِ

يَا نَاقُ حُبِّي بِنَا وَلَا تَعِدِي
حَتَّى تُتَاخِي بِنَا إِلَى مَلِكِ
عَالِيهِ تَاجَانِ فَوْقَ مَفْرِقِهِ
يُقُولُ لِلرِّيْحِ كَلَّمَا عَصَفَتْ
مَنْ مِثْلُ مَنْ عَمَّهُ الرَّسُولُ وَمَنْ

ويتلطف الخريمي لما حل بدار الخلافة من بلاء ودمار وخراب، فيعبر عن أساه وحزنه بسبب ما آلت إليه مظاهر الدولة الحضارية التي كثرت فيها القصور والحدائق والجنان المحفوفة بالكروم والنخيل والرياحين، لتتحول الى ركام وانقاض تحت قصف المنجنيق، فيقول على وزن المنسرح(2):

يَرُوقُ عَيْنَ الْبَصِيرِ زَاهِرُهَا
تَكُنُّ مِثْلَ الدُّمَى مَقَاصِرُهَا
مَلَائِكُ مُخْضَرَّةً دَسَاكِرُهَا
رِيحَانُ، مَا يَسْتَقِلُّ طَائِرُهَا
إِنْ قَدْ أُدْمِيَتْ مَحَاجِرُهَا
يُنْكَرُ مِنْهَا الرُّسُومَ زَائِرُهَا
إِلْفَاءُ لَهَا وَالسُّرُورُ هَاجِرُهَا
يُنْ، حَيْثُ انْتَهَتْ مَعَابِرُهَا

يَا هَلْ رَأَيْتَ الْجِنَانَ زَاهِرَةً
وَهَلْ رَأَيْتَ الْقُصُورَ شَارِعَةً
وَهَلْ رَأَيْتَ الْقُرَى غَرَسَ الْأُ
مُحْفُوفَةً بِالْكَرُومِ وَالنَّخْلِ وَالـ
فَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ خَلَايَا مِنَ الْإِنْسِ
قَفْرًا خَلَاءَ تَعْوِي الْكِلَابُ بِهَا
وَأَصْبَحَ الْبُؤْسُ مَا يَفَارِقُهَا
بِزَنْدٍ وَرَدِّ، وَالْيَاسِرِيَّةِ، وَالشَّطِّ

ومن الأوزان التي استعملها شعراء العصر العباسي الأول أيضاً بحر الهزج الذي كثر عند المحدثين لسهولة، فقد كان يطرب كل من سمعه فضلاً عن منشده، من ذلك مثلاً ما قاله أشجع السلمي مادحا(3):

(1) - ديوان أبي العتاهية، ص: 103.

(2) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ص: 449.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 162.

عَلَامَاتٌ مِّنَ الْبَنِّ
بِ نُبْلًا كَثْرَةَ الْأَهْلِ

عَلَى بَابِ ابْنِ مَنْصُورٍ
جَمَاعَاتٌ وَحَسْبُ الْبَا

ولعل أبرز ما يتميز به الشعر عن غيره من أنواع الفنون الأدبية الأخرى الوزن الذي تنتظم في إطاره المقاطع الصوتية والقوالب الإيقاعية، وقد أكد النقد العربي على العلاقة الوثيقة بين الشعر والموسيقى والتي مردها إلى الوزن الذي يشكل عنصر التقارب باختيار الأوزان العذبة والخفيفة، من ذلك مثلا ما نظمته الحسين بن الضحاك استجابة لأمر صالح بن هارون الرشيد فيما كان فيه مع "يسر" غلام أخيه، إذ قال على وزن بحر الهزج (1):

أَيَا مَنْ طَرَفَهُ سَحْرٌ
تَجَاسَّرَتْ فَكَاشَتْ فَتَاكَ
وَمَا أَحْسَنَ فِي مِثْلِكَ
فَإِنْ لَامِنِيالْنَسَاسُ

وَيَا مَنْ رَيْقَهُ خَمْرٌ
لَمَّا غَلَبَ الصَّبْرُ
أَنْ يَهْتَكَ الْبَسْرُ
فَفِي وَجْهِكَ لِي عَذْرُ

ومن نماذج بحر الهزج أيضا قول بشار بن برد (2):

أَحْبَبِي لَيْسَ لِي صَبْرٌ
وَإِنْ رَخَّصْتَ لِي جَيْتُ

والملاحظ من خلال البيت السابق استعمال الشاعر لعدد من الألفاظ والتراكيب العامية التي نتجت عن الحياة الشعبية من ذلك مثلا قوله "جيت"، وهو لفظ سوقي دارج في الأحاديث اليومية للمجتمع و"جيت" تعني "جئت".

وقال سعيد بن وهب (3) في القلم قوله (4):

وَفِي مَا طَوَّلْتَهُ شَبْرٌ
لَهُ فِي رَأْسِهِ شَقٌّ
إِذَا مَا جَفَّ لَمْ يَجْرُ

وَقَدْ يُوفِي عَلَى الشَّبْرِ
نَطُوفٌ بِالنَّدَى يَجْرِي
لَدَى بَرٍّ وَلَا بَخْرٍ

(1) - الأصفهاني، المصدر السابق، ج7/ص: 145.

(2) - ديوان بشار بن برد، ج2/ص: 20.

(3) - هو سعيد بن وهب أبو عثمان، مولى بني سامة بن لؤي بن نصر، ولد ونشأ في البصرة، وأقام في بغداد وكانت الكتابة صناعته، فتصرف مع البرامكة فاصطنعوه، ثم تقدم عندهم وكان شاعراً مطبوعاً، يقال إنه تنسك وتاب وحج راجلاً على قدميه، فمات في أيام المأمون على توبة وإقلاع ومذهب جميل بعدما كان أكثر شعره في الغلمان، توفي سنة ثمان ومائتين للهجرة، انظر الأصفهاني، الأغاني، ج20/ص: 214، والزركلي، الأعلام، ج3/ص: 104.

(4) - الأصفهاني، الأغاني، ج20/ص: 219.

كما نظم الخليفة المأمون في هذا البحر، ومن ذلك على سبيل المثال قوله في إحدى المهرجانات التي شارك فيها، فقد روي أنه في يوم الشعانين كان بين يديه عشرون وصيفة من الجواري الروميات المُنزَّرات، إذ تَزَيَّنَ بالدِّيَّاجِ الرُّومي، وعلقن في أعناقهن صُلبان الذهب، وفي أيديهن الخُوص والزَيْتُون، وقال فيهن شعراً وأمر بمن يغني تلك الأبيات التي منها(1):

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| ظَبَاءٌ كَالدَّنَانِيرِ | مِلاحٌ فِي المَقاصِيرِ |
| جَلَاهُ نَّ السَّعَانِينُ | عَلَيْنَا فِي الزَّنَانِيرِ |
| وَقَدْ زَرَقْنَ أَصْدَاغًا | كَأذْنَابِ الزَّرَازِيرِ |
| وَأَقْبَلْنَ بِأَوْسَاطِ | كَأَوْسَاطِ الزَّنَانِيرِ |

ويتضح من الأبيات السابقة أن الخليفة قد وفق في اختيار ألفاظ عذبة ووزن سهل راقص، ناهيك عن أنواع التشبيه والاستعارات التي تنم عن حضارة العصر وتأنقه، وموجة اللهو التي عرفتتها قصور الخلفاء، كما تصف اندماج العرب بغيرهم من الأمم الأخرى، ومشاركتهم أفراسهم ومناسباتهم، وما تتمتع به طوائف الملل والنحل من حرية دينية، وممارسة لطقوس ضالة مخالفة لأنظمة الدولة الإسلامية، وفي ذلك كله دليل قاطع على تأثير العرب بغيرهم وافتتانهم بحضارتهم المادية، وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذا سيقع فقال: "للتبعن سنن الذين من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتهم". فقال الصحابة: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن(2).

أما المجتث فهو ضرب حضاري جاء به الوليد بن يزيد، وهو وزن غنائي راقص يصحب اللهو والطرب، وقد ظهر مع بداية الغناء الأموي في خلافة هذا الأخير، ويعتقد شوقي ضيف أنه أول من اقترحه إذ غنى فيه قوله(3):

| | |
|-------------------------------|----------------------------|
| إِنِّي سَمِعْتُ بَلِيلَ | وَرَا المَصَالِي بَرْنَه |
| إِذَا بَنَاتِ هَشَامِ | يَنبِذِينَ وَالنَّدَاهِنَه |
| يَنبِذِينَ قَرْمَماً جَلِيلاً | قَدْ كَانَ يَعْضُدُ هِنَه |

ومن نماذج هذا الوزن في الشعر العباسي قول مطيع بن إياس متغزلاً(4):

(1) - النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج5/ص: 35.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب العلم - باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث: 2669، ج4/ص: 2054.

(3) - شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر، ص: 59.

(4) - الأصفهاني، الأغاني، ج13/ص: 205.

| | |
|----------------|-----------------|
| وحيبه قد براني | ويلي ممن جفاني |
| وشخصه غير دان | وطيفه يلقاني |
| بحسنه العيان | أغر كالبدر يعثي |
| ففي حبه ودعاني | جاري لا تعذلاني |

وحيث نقف على إيقاع المقطوعة السابقة نجد أن الشاعر قد اختار بحر المجتث ووزنه: (مُنْفَعِلُنْ، فعلاتن) وهو من البحور القصيرة الخفيفة التي اشتهرت بأوزان الشعر الغنائي، كما نلاحظ أيضا أن لغة الأبيات لغة هامسة رقيقة، فقد خلت من الحروف الانفجارية مثل: الطاء، الظاء، والضاد، إذ أكثر من استخدام الفعل المضارع، "يلقاني"، "تعذلاني"، "ودعاني"، ولم يستخدم الفعل الماضي إلا في موضعين هما: "جفاني" و"براني"، وهذا يعطينا دلالة على الروح الشفافة والحالة النفسية التي كتب في جوها القصيدة، والحياة الناعمة التي يعيشها الشاعر وحببيته وأكثر أيضاً من الأحرف ذات الجرس الموسيقي مثل العين والقاف وفي ذلك يقول الخليل بن أحمد في مقدمة العين: "ولكن العين والقاف لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرساً"⁽¹⁾.

كما نظم أبو نواس على وزن بحر المجتث، إذ يقول⁽²⁾:

| | |
|------------------------------|--------------------------|
| عَزُوا أَخْلَائِي قَلْبِي | فَقَدَ أَصِيبْتُ بِأَبِي |
| الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّي | مَاذَا لَقِيتُ فَحَسْبِي |
| مَالِي عَلَى الْخُبِّ عَتَبُ | أَنَا وَقَعْتُ بِذَنْبِي |

وقد استطاع أبو نواس أن يوفر عنصر الجمال، حيث صاغ أفكاره بلغة واضحة سهلة بعيدة عن التكلف، فجاءت أبياته لوحة فنية معبرة تعبيراً صادقاً عما يعتمل في نفسه، إذ أننا لا نعثر على لفظة تفسد جو الغزل، فضلاً عن الموسيقى العذبة الوادعة، فهي من بحر المجتث ذي النغمات اليسيرة.

ويتضح من خلال أبيات الشعراء في العصر العباسي الأول مدى اعتمادهم على البحور والأوزان التي كان لها الدور البارز في موسيقى الأبيات، وما بينها من تناغم، وما يعلوها من إيقاع ترنيمي تشرئب لسماعه الأذان، وتطرب له الأنفس، وفي الوقت نفسه لعبت هذه الأوزان دوراً في جلاء المعنى الذي أراد الشاعر، فقد "ربط بعض الباحثين بين موضوع القصيدة والبحر الذي كانت تنظم فيه في الشعر العربي، أي بين موقف الشاعر في معانيه

(1) - أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، دون طبعة وتاريخ، ج1/ص: 13.

(2) - ديوان أبي نواس، ج4/ص: 183.

وعاطفته وبين الإيقاع والوزن الذين اختارهما للتعبير عن موقفه"⁽¹⁾، لذا نرى مدى أهمية البحور الطويلة كبحر البسيط والطويل والكامل التي أكثر الشعراء من استخدامها.

ويتمثل الجديد في أن الانفجار الحضاري الذي عاشه أولئك، والذي كان لا بد أن يترك أثراً ولو ضئيلاً في أوزان الشعر وقوافيه، وأن تتأثر أنغامه وموسيقاه بما استحدثت في الحياة المعاصرة من تطور وتنعم، فاضطروا تحت تلك الضغوط أن يوجدوا مجزوءات في ظل الأوزان الأصلية؛ لتتيح لهم مواكبة النهضة التي شملت جميع مناحي الحياة وشعبها.

ب- التجديد في القوافي :

القافية لغة: " مؤخرة العنق"⁽²⁾، وسميت قافية الشعر بذلك؛ " لأنها تقفو الكلام، أي تأتي في آخره"⁽³⁾، فهي شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، فلا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية.

ويعرف علماء العروض القافية بأنها: " المقاطع الصوتية التي تكون في أواخر أبيات القصيدة، أي المقاطع التي يلزم تكرار نوعها في كل بيت"⁽⁴⁾ وقيل: "بأنها آخر حرف يليه ساكن قبله متحرك"⁽⁵⁾.

وكما اهتم شعراء العصر العباسي الأول باختيار الأوزان العذبة السلسة من أجل تحقيق الالتحام في القصيدة، فقد حرصوا على انتقاء القوافي الرنانة والجميلة في الوقت ذاته، ذلك أن " للقافية قيمة موسيقية في مقطع كل بيت، وتكرارها يزيد في وحدة النغم"⁽⁶⁾، وقد عرفها العرب منذ القدم فيما يعرف بالأرجاز وسجع الكهان، وتنبهوا إلى ما تحدثه هذه القوافي في القصائد من موسيقى تدل على براعتهم في النظم، حيث تجعل السامع ينتظر بشغف ما يلي الأبيات بنفس النغم حتى نهاية القصيدة، لذا اعتنى الشعراء بقوافيهم وبالغوا في هذه العناية لدرجة أن الشاعر المقدم عندهم هو من يحسن الإتيان بها، وما ذلك إلا لمشقة الحصول عليها⁽⁷⁾.

(1) - محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، مكتبة نهضة مصر، دون طبعة أو تاريخ، ص: 441.

(2) - إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1411هـ/1991م، ص: 347.

(3) - انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (قفي)، ج15/ص: 195.

(4) - عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، دار النهضة العربية، بيروت، دون طبعة، 1407هـ/1987م، ص: 134.

(5) - أبو حسن سعيد بن مسعدة الأخفش، القوافي، تحقيق: أحمد راتب النفاخ، دار الأمانة، السعودية، الطبعة الأولى، 1394هـ/1974م، ص: 8.

(6) - انظر محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص: 442.

(7) - انظر محمد عوني عبد الرؤوف، القافية والأصوات اللغوية، مكتبة الخانجي، مصر، دون طبعة أو تاريخ ص: 81-88.

وتجدر الإشارة إلى أن القافية في الشعر العربي تأتي بروي متحرك أو ساكن، وقد قسم القدماء القافية تبعاً لذلك إلى قسمين :

1-القافية المطلقة:

وهي " ما كانت متحركة الروي، أي بعد رويها وصل بإشباع"⁽¹⁾، ويبدو ميل شعراء العصر العباسي الأول إلى نظم القوافي المطلقة واضحا بصورة جلية، حيث يشكل نسبة كبيرة من مجمل قصائدهم ومقطوعاتهم، ذلك لأنها أوضح في السمع وأشد أسرا للأذن، لأن الروي فيها يعتمد على حركة بعده قد تستطيل في الإنشاد وتشبه حينئذ حرف مد، ومن المقرر في علم الأصوات أن حروف المد أوضح في السمع من الحروف الأخرى كالعين والفاء مثلا⁽²⁾، ومن نماذج القافية المطلقة قول مسلم بن الوليد واصفا الخمرة⁽³⁾:

أَرِيقاً مِنْ رَضَائِكَ أَمْ رَحِيقاً رَشَفْتُ فَكُنْتُ مِنْ سُكْرِي مُفِيقاً
وَلِلصَّهْبَاءِ أَسْمَاءٌ وَلِكِنَّ جَهَلْتُ بِأَنَّ فِي الْأَسْمَاءِ رِيقاً

وقد حرص شعراء العصر العباسي الأول على ركوب القافية القوية في قصائدهم والتي تحتوي على تجانس صوتي، واستهجنا في المقابل القافية الضعيفة، لأن القافية القوية ذات جرس موسيقي أقوى من ذلك الذي تحدته القافية الضعيفة، والتزامها يحتاج إلى شاعر بارع حاذق كأبي نواس الذي صب اهتمامه بالروي المرفوع والمنسوب والمجورر والساكن وإن كان نادر، ولم يكفه ذلك بل راح يوزع موسيقاه الداخلية في ديوانه الضخم من خلال المطابقة والمجانسة وضروب البديع المختلفة، من ذلك مثلا قوله⁽⁴⁾:

يسعى بها خَبِثٌ فِي خُلُقِهِ دَمَتْ يَسْتَأْتُرُ الْعَيْنُ فِي مُسْتَدْرَجِ الرَّائِي
مَقْرَطٌ، وَافِرُ الْأُرْدَافِ، ذُو غُنْجٍ كَأَنَّ فِي رَاحَتَيْهِ وَسْمَ حِنَاءٍ
قَدْ كَسَرَ الشَّعْرَ وَأَوَاتٍ، وَنَضَّدَهُ فَوْقَ الْجَبِينِ وَرَدَّ الصَّدْعَ بِالْفَاءِ

والقارئ لخمريات أبي نواس يستطيع أن يكون صورة عن طبيعة الملابس التي كان الساقى يرتديها فهي ملابس تعكس روح الحضارة كما يستطيع أن يرى مدى اهتمام الساقى بمظهره الخارجي حيث تصفيف الشعر والاعتناء بلامح الوجه وتنميقها، وفي ذلك دليل على مقدار عناية العاملين في هذا المكان ببروز شخصياتهم لتتناسب مع عملهم والحاضرين فيه.

(1) - عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، ص: 165.

(2) - انظر إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص: 259.

(3) - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 11/ص: 309.

(4) - ديوان أبي نواس، ج 3/ص: 9.

كما أن الدارس للمدونة الشعرية في العصر العباسي الأول، يجد في حرف الروي معظم الأحرف الأبجدية، إن لم نقل كلها وبنسب متفاوتة، وهو راجع بالدرجة الأولى إلى خلجات الشعراء الفكرية وانتقائهم للنغمات الموسيقية الأنسب لحالاتهم النفسية، من ذلك مثلا قول أبي العتاهية⁽¹⁾:

| | |
|-------------------------------------------|------------------------------------------|
| لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ | فَكَأَنَّكُمْ يَصِيرُ إِلَى تَبَابِ |
| لِمَنْ تَبْنِي وَنَحْنُ إِلَى تُرَابِ | نَصِيرُ كَمَا خُلِقْنَا مِنْ تُرَابِ |
| أَلَا يَا مَوْتُ لِمَ أَرَّ مِنْكَ بُدًّا | أَتَيْتَ وَمَا تَحِيفُ وَمَا تُحَايِي |
| كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِيبي | كَمَا هَجَمَ الْمَشِيبُ عَلَى الشَّبَابِ |

وأبو العتاهية شاعر العصر في الزهديات، فقد تصدى للغافلين وحذرهم من مغبة غيهم وانهماكهم في الشهوات، وصور الآخرة وأهوالها وفناء الدنيا ولذاتها، ولقد كان يدخل على الرشيد فيعظه بشعره فلا يتركه حتى تخضب دموعه لحيته، ويشفق عليه من كان بحضرته.

أما الأصمعي فيقول على قافية الرءاء المضمومة مادحا جعفرا البرمكي⁽²⁾:

| | |
|---------------------------------------|---------------------------------------|
| إِذَا قِيلَ مَنْ لِلنَّدَى وَالْعُلَى | مَنْ النَّاسِ قِيلَ الْفَتَى جَعْفَرُ |
| وَمَا إِنْ مَدَحْتُ فَتَى قَبْلَهُ | وَلَكِنْ بَنُو بَرْمَكٍ جَوْهَرُ |

وليس عجبياً من جعفر ولا يعز عليه مثل تلك الأوصاف الجليلة من إخماد للفتن، وإجلاء للأمور وكشفها، وإعادة الأمن إلى مرابعه، وفي البيتين السابقين تصوير لما كان يتمتع به جعفر من مكانة مرموقة واحترام في نظر الخاصة والعامة بسبب جوده وكرمه وفتوته.

كما يلاحظ أن أغلبية شعراء القرن الثاني للهجرة، وخاصة أولئك الذين عاصروا الحقبة العباسية الأولى قد أولوا القافية المطلقة الموصولة أهمية بالغة لما لها من أثر موسيقي، من ذلك مثلا قول سلم الخاسر مادحا المهدي⁽³⁾:

| | |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| لَهُ شِيْمَةٌ عِنْدَ بَدْلِ الْعَطَا | ءِ لَا يَعْرِفُ النَّاسُ مَقْدَارَهَا |
| وَمَهْدِيٌّ أُمَّتِنَا وَالَّذِي | حَمَاهَا وَأَدْرَكَ أَوْتَارَهَا |

(1) - ديوان أبي العتاهية، ص: 46.

(2) - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج19/ص: 129.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، ج19/ص: 200.

ويقول أبو نواس على قافية اللام الموصولة⁽¹⁾:

| | |
|------------------------------------------|--------------------------------------------|
| وَقَامَ وَزْنَ الزَّمَانِ، فَاعْتَدَلَا | أَمَا تَرَى الشَّمْسَ حَلَّتِ الحَمَلَا |
| وَاسْتَوَفَتِ الخَمْرُ حَوْلَهَا كَمَلَا | وَعَنَّتِ الطَّيْرُ بَعْدَ عُجْمَتِهَا |
| وَشَيْ نَبَاتٍ، تَخَالُهُ حُلَا | وَاكَتَسَتِ الأَرْضُ مِنْ زَخَارِفِهَا |
| أَصْبَحَ وَجْهُ الزَّمَانِ مُقْتَبِلَا | فَاشْرَبَ عَلَى جِدَّةِ الزَّمَانِ، فَقَدْ |

والواقع أن القافية الموصولة كانت أكثر ملائمة للغناء والشذو في شعر العصر الذهبي الذي رصعته القصور والرياض و مجالس اللهو والرقص، فانصرف الشعراء إلى تصيدها تصيدا، وهو نلمحه في أبيات أبي نواس السابقة التي صيغت في قالب موسيقي بالغ الدقة والخفة.

2-القافية المقيدة :

وهي " التي يكون رويها ساكنا، فيتحرر الشاعر بذلك من حركات الإعراب في آخر القافية"⁽²⁾.

وقد نظم شعراء العصر العباسي الأول على القافية المقيدة، لأن " القافية المقيدة، أسهل تلحينا من المطلقة"⁽³⁾، وإن كانت هذه القافية " قليلة الشيوع في الشعر العربي، وهي في شعر الجاهليين أقل منه في شعر العباسيين"⁽⁴⁾، من ذلك مثلا قول العماني⁽⁵⁾:

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| قَدَ غَضِبَ العَضْبَانُ | إِذْ جَاءَ العَضْبَانُ |
| وَجَاءَ يَحْمِي حَسَبًا | فَفَوْقَ الحَسَبِ |
| مِنْ إِرْثِ عَبَّاسِ | بِـنِ عَبْدِالمطلبِ |
| وَجَاءَتِ الخَيْلُ بِهِ | تَشْكُو العَتَابِ |
| أَلَهُ عَلَيْهِ | مَالُكُمْ عَلَى العَرَبِ |

فصوت الباء هنا هو الروي، وقد جاء ساكنا، وهذا النوع من القافية نادر في الشعر العربي عبر تاريخه، وإن عرف تواجدا في العصر العباسي لإنسجامه والتآمه مع فن الغناء، حتى أن ملحنى العصر كانوا يرون في هذا النوع من القافية الأطوع والأيسر لأنغامهم.

(1) - ديوان أبي نواس، ج3/ص: 243.

(2) - صفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، الطبعة الخامسة، 1977م/1397هـ، ص: 217.

(3) - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(4) - إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص: 258.

(5) - الأصفهاني، الأغاني، ج18/ص: 233.

ومن نماذج القافية المقيدة أيضا قول بشار بن برد متغزلا(1):

| | |
|------------------------------------------|------------------------------------------|
| وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلْمِ | لَمْ يَطْلُ أَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمِ |
| خَرَجْتُ بِالصَّمْتِ عَنِ لَأٍ وَنَعَمِ | وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودِي لَنَا |
| أَنْنِي يَا عَبْدُ عَنِّي وَأَعْلَمِي | نَفْسِي يَا عَبْدُ عَنِّي وَأَعْلَمِي |
| لَوْ تَوَكَّأَتْ عَلَيْهِ لِأَنَّهُدَمِ | إِنَّ فِي بُرْدِي جِسْمًا نَاجِلًا |
| مَوْضِعَ الْخَاتَمِ مِنْ أَهْلِ الذَّمِّ | خَتَمَ الْحُبُّ لَهَا فِي عُنُقِي |

لقد جاءت ألفاظ بشار عذبة، نقية تعكس تحضر العصر وألقه، إذ راوحت بين القديم والجديد، فنجده من خلال الأبيات السابقة يصون كرامته وكرامة محبوبته، وتلك ميزة يعتز بها الشاعر العربي قبل دخوله سرداب المدنية، من أجل ذلك أعجب النقاد وأئمة اللغة، بمثل تلك الروائع الحضرية الأصيلة.

وتجدر الإشارة إلى أن تفكير شعراء العصر العباسي الأول لم يكن محصوراً في محاولة الخروج على الأوزان والتجديد فيها فحسب، بل تعدى ذلك إلى محاولة استحداث نظام جديد للقافية الواحدة يتناسب وتلك الأوزان المستحدثة، ولكن القافية العربية كانت أكبر من أن تصاب بأذى أو طمس مثلها في ذلك مثل الأوزان التي بقيت هي أيضاً شامخة سليمة وخاصة في كل مقام يتطلب الكمال والرصانة والجد في الأمور.

ولعل تلك المحاولات التجديدية في القافية، قد انحصرت في المحاور الأربعة التالية:

● استحداث المزدوجات:

والازدواج هو عدم اطراد القافية في الأبيات، فتختلف من بيت إلى آخر، بينما تتحد في الشطرين المتقابلين، وعادة تنظم من بحر الرجز(2).
وقد برع بشار وأبو العتاهية في المزدوج، فقد وصف الجاحظ بشاراً بأنه صاحب مزدوج(3)، ولأبي العتاهية مزدوجته المشهورة المسماة " ذات الأمثال "، ويقال إن عدد أبياتها أربعة آلاف بيت ومنها(4):

| | |
|------------------------------------------|-------------------------------------------------|
| حَسْبُكَ مَمَّا تَبْتَغِيهِ الْقُوتُ | مَا أَكْثَرُ الْقُوتِ لِمَنْ يَمُوتُ |
| الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكِفَافَا | مَنْ اتَّقَى اللَّهَ رَجَا وَخَافَا |
| هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلَمْنِي أَوْ قَدَرُ | إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَأَ الْقَدَرُ |
| لِكُلِّ مَا يُؤْذِي وَإِنْ قَلَّ أَلْمُ | مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْمِ |

(1) - ديوان بشار بن برد، ج4/ص: 166.

(2) - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 197.

(3) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ص: 63.

(4) - ديوان أبي العتاهية، ص: 493.

كما ظهرت في الشعر العربي من بداية العصر العباسي الأول ظواهر جديدة، بعضها غريبة عنه، اتخذت شكله والتبست به، وأهمها المنظومات التعليمية في مختلف ألوان المعرفة، وكانت في معظمها من المزدوجات التي جعلها بغض الأدياء والعلماء وسيلة تعليمية، غايتها تقرير العلوم وتثبيتها وتسهيل حفظ المتون العلمية، لأن النظم أعلق بالذهن من النثر، وأسهل حفظاً.

ويعد أبان بن عبد الحميد اللاحقي من أكثر شعراء العصر العباسي الأول إنتاجاً للمزدوجات، ذلك أنه نظم في أكثر من فرع من فروع المعرفة كالتاريخ والفقه والقصص، كما تخصص بنقل الكتب المنثورة إلى الشعر المزدوج، ومنها⁽¹⁾:

- كتاب كليلة ودمنة.
- كتاب سيرة أزدشير.
- كتاب سيرة أنو شروان.
- كتاب بلوهر وبردانيه.
- كتاب رسائل.
- كتاب حلم الهند.
- كتاب الصيام والاعتكاف.
- كتاب السندباد، وكتاب مزدك وغيرها.

ومن نماذج المزدوج في شعر أبان بن عبد الحميد اللاحقي قوله⁽²⁾:

| | |
|-------------------------|---------------------|
| هو الذي يدعي كليلة دمنة | هذا كتاب أدب ومحنة |
| وهو كتاب وضعته الهند | فيه دلالات وفيه رشد |
| حكاية عن ألسن البهائم | فوصفوا آداب كل عالم |

وهذا باب جديد من أبواب الشعر العربي جد في العصر العباسي الأول ولم تكن له جذور في شعر العصرين اللذين سبقا، ويبدو أن ظهور هذا الغرض يعزى إلى أثر الثقافات التي اتسم بها هذا العصر، لأن هذا النوع من الشعر معروف في الآداب الهندية واليونانية. ومن الشعراء الذين اشتهروا بنظم المزدوجات بشر بن المعتمر، إذ أن "أكثر شعره من

(1) - انظر ابن النديم، الفهرست، ص: 150.

(2) - أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، ج 1/ص: 46.

المزدوج، ينقل الكتب المنثورة في الكلام والفقہ وغير ذلك الى الشعر⁽¹⁾، ومن نماذج ذلك أرجوزته في تفضيل علي بن أبي طالب على الخوارج يقول فيها⁽²⁾:

| | |
|-----------------------------|------------------------------------------|
| ما كان في أسلافهم أبو الحسن | ولا ابن عباس ولا أهل السنن |
| غير مصابيح الدجى مناجب | أولئك الأعلام لا الأعراب |
| كمثل حرقوص ومَنْ حرقوص | ففعة قاع حولها قصيص |
| ليس من الحنظل يشتر العسل | ولا من البحور يصطاد الورل ⁽³⁾ |

واهتم علي بن جهم بنظم المزدوجات حيث تقفن في صياغة الشعر لمواضيع مختلفة، ببسبب رقي الحياة العقلية، والترف المادي الموجود آنذاك، فعني بنظم مزدوجة في التاريخ تقع في أكثر من ثلاثمائة بيت، جعلها في جزأين، "جزء تناول فيه بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء، وجزء تناول فيه تاريخ الإسلام والخلفاء، وربما تأثر في الجزء الأول بالقصيدة المنسوبة إلى أبان أو التي قال الرواة عنها إنها كانت في بدء الخلق، أما الجزء الثاني وهو الخاص بتاريخ الخلفاء فيعد سابقاً فيه فإن الشعراء من قبله لم يفكروا في نظم هذا التاريخ"⁽⁴⁾.

| | |
|----------------------------------------|------------------------------------------------|
| يَا سَائِلِي عَنِ ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ | مَسْأَلَةُ الْقَاصِدِ قَصْدَ الْحَقِّ |
| خُبْرَنِي قَوْمٌ مِنَ النَّقَاتِ | أُولُو عُلُومٍ وَأُولُو هَيْئَاتِ |
| تَقَرَّعُوا فِي طَلَبِ الْأَثَارِ | وَعَرَفُوا مَوَارِدَ الْأَخْبَارِ |
| دَرَسُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلِ | وَأَحْكَمُوا التَّأْوِيلَ وَالتَّنْزِيلِ |
| أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ | وَمَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ وَالْبَقَاءُ |
| أَنْشَأَ خَلْقَ آدَمَ إِنْشَاءً | وَقَدَّ مِنْهُ زَوْجَهُ حَوَاءَ ⁽⁵⁾ |

• ظهور الرباعيات:

وهي تقسيم الشاعر لقصيدته إلى أقسام يتضمن كل قسم منها أربعة أشطر، قد تكون كلها مقفاة بقافية واحدة ووزن واحد، وفي بعض الأحيان يكون الشطر الثالث في هذه الأشطر الأربعة مختلف القافية⁽⁶⁾، ومن نماذج ذلك قول حماد عجرد⁽⁷⁾:

(1) - ابن النديم، الفهرست، ص: 197.
(2) - الجاحظ، الحيوان، ج6/ ص: 562.
(3) - الورل: دابة كالضب، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (ورل)، ج11/ ص: 724.
(4) - شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مصر، ص: 247.
(5) - ديوان علي بن جهم، ص: 228.
(6) - إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص: 282.
(7) - الأصفهاني، الأغاني، ج14/ ص: 234.

ظهر الأمير عليك يا غيلان
أمع الدمامة قد جمعت خيانة
إذ خنته إن الأمير معان
قبح الدميم الفاجر الخوان

وقد كان لَحْمَادَ عَجْرَدَ ، فيما يروي رباعيات شعر مزوجة بيتين بيتين، كان الزنادقة من أمثاله يقرؤون بها في صلاتهم⁽¹⁾.

كما اشتهر أبو نواس بكثير من الرباعيات، وهي وافرة في ديوانه، من ذلك مثلاً قوله⁽²⁾:

يا عاذليني الصمت ذا هجر
ما صح عندي من جميع الذي
لا قدر صحح ولا جبر
تذكر إلا الموت والقبر

وفي البيتين السابقين تحدّ صارخ للإسلام والقواعد الإسلامية والمقدّسات ورجال الدين، بل إن الحال بلغت بأبي نواس إلى حد تكذيب دعائم هذا الدين وهذا التكذيب ينتج عن تصوّرات فلسفيّة مخالفة لما جاءت به الديانات ومناقضة لتعاليمها ولتفسير الفلسفة الإسلامية لها.

ومن الواضح تأثر الشاعر واعترافه بأقوال الدهريين الذين كذبوا الغيبيات ورفضوا القول بحياة أخرويّة تعقب الحياة الدنيا وتترتب منزلة المرء في تلك الحياة عن أقواله وأفعاله في الحياة الفانيّة، إذ يقول⁽³⁾:

باح لساني بمضمّر السمر
وليس بعد الممات مرجع
وذاك أني أقول بالدهر
وإنما الموت بيضة العقر

والملاحظ مما سبق من الأبيات تأكيد على أن قول النواصي بالدهر هو بؤخ بسرّ طالما أضمره وفي ذلك دلالة قاطعة على مدى تحدّيه للعقائد وانتهاكه لقداستها، وتوضيح جلي للأسباب التي جعلت مجونه يقطع ذلك الشوط البعيد من الجسارة والجرأة.

ومن يرجع إلى تراجم الشعراء في الأغاني يجد من أمثلة الرباعيات عددا هائلا، وممن كان يكثر منها أبو العتاهية سواء في الغزل أو الزهد، من ذلك مثلاً قوله في الموت الدائر على جميع الناس⁽⁴⁾:

الموتُ بين الخلق مُشْتَرِكُ
مَا ضَرَّ أَصْحَابَ الْقَلِيلِ وَمَا
لا سُوقَةَ يَبْقَى وَلَا مَلِكُ
الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَهُمْ دَرَكُ
أَغْنَى عَنِ الْأَمْلاكِ مَا مَلَكُوا

(1) - لأصفهاني، المصدر السابق، ج14/ص: 207.

(2) - ديوان أبي نواس، ج5/ص: 235.

(3) - المصدر نفسه، ج5/ص: 459.

(4) - ديوان أبي العتاهية، ص: 310.

• ظهور الخمسات:

والخمسات هي أن يقسم الشاعر مقطوعته إلى أقسام يتضمن كل قسم منها خمسة أشطر لها نظام خاص في قوافيها، وقد يكون كل قسم من هذه الأقسام مستقلاً تمام الاستقلال في قوافيه وأوزانه⁽¹⁾، ولأن النظم كغيره من المواهب والفنون، له تشكيلاته الفنية وتفرعاته التي تنشأ من رحم القصيدة، يهب البيت أو القطعة أو القصيدة زينة وبهاءً متجدداً ضمن قياسات وموازن يتقن الشعراء في خلقها وإنشائها وتطويعها، فإن عملاقي الشعر العباسي: بشار وأبو نواس كانا أول من استخدم التخميم.

وكان أبو نواس، إضافة إلى ما وجد في ديوانه من خمسات يستعمل الرجز ذا المصراع الواحد والقافية الواحدة في طردياته المشهورة⁽²⁾،

ومن أمثلة الخمسات في شعره⁽³⁾:

| | |
|-----------------------|----------------------|
| يا ليلة قضيتها حلوه | مرتشفا من ريقها قهوه |
| تسكر من قد يبتغي سكره | ظننتها من طيبها لحظه |

يـاليت لا كان لها آخر

وخلاصة الحديث أن الأوزن والقوافي قد حافظت على أصولها المتجذرة في وجدان الإنسان العربي، إذ نظم شعراء العصر العباسي الأول في البحور الطويلة ويتأكد ذلك في أغراض المديح والفخر والرثاء وغيرها...، وإذا فرضنا جدلاً أنهم قد مالوا إلى الأوزان المجزوءة تبعاً لمقتضيات الحياة العصرية التي ألفوها، فإن ذلك لا يعني أنها من ابتكارهم ولكن الجديد في ذلك هو مغالاتهم في استخدام تلك الأوزان المجزوءة إلى درجة اعتقاد البعض أنهم أول من ابتدعها، وهم في ظاهر اشعارهم وباطنها لم يخرجوا عن عروض الخليل خروجاً يسمح لنا باتهامهم بنبذ أوزان الشعر العربي وقوافيه.

(1) - إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص: 274.

(2) - انظر دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتاوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس، وراجعها الدكتور: محمد مهدي علام، دار الفكر، بدون تاريخ أو طبعة، مادة (رجز)، ج1/ص: 55 وما بعدها.

(3) - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 199.

الخاتمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى، أما بعد:

فبعد دراسة أهم معالم الحضارة في العصر العباسي الأول وعلاقتها بمضمون القصيدة، أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، وهي كالآتي:

● يعتبر العصر العباسي الأول من أزهى العصور الإسلامية، إذ تآزرت أسباب وعوامل كثيرة في إضعاف السلطة الأموية، منها ما كان داخلياً في إطار البلاط الأموي، ومنها ما كان في إطار المجتمع الذي كان يموج بحركات وأحزاب وأفكار ناقمة على الأمويين واتخذت لذلك وسائل كثيرة.

● صارت بغداد عاصمة الدولة العباسية بدلاً من دمشق، وازدهرت الحياة فيها، وصار يؤمها الناس من كل حذب وصوب.

● كان النظام السياسي السائد في الدولة العباسية يحاكي بشكل واضح وجلي النظم السياسية والإدارية الفارسية، بدءاً بالحكم المطلق الذي طبع بطابع ديني، مروراً بنظام الوزارة الذي استحدثه الخلفاء العباسيون، ووصولاً إلى نظام الدواوين الفارسية وتعددتها.

● كانت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول حياة ترف ونعيم، إذ انتقل المجتمع من الطابع البدوي الأعرابي إلى الطابع المدني الحضري، مما أثر بوضوح على موضوعات الأدب وبنيتة الفنية.

● ظهور طبقتين متميزتين في المجتمع العباسي: طبقة تنعم بالرخاء وسعة العيش، وأخرى ترزح تحت نير الفقر.

● تمتع العامة في العصر العباسي الأول بحرية مطلقة في الفكر والعيش، إلا من قيود ضرورية، حيث كانت المناقشات علنية حول الدين والأخلاق والمعارف، حتى صار المانوي يجادل المسلم في حلقات الدراسة أو الجوامع أو على صفحات الكتب، وبلغ من حرية الرأي أن تباينت الشروح التي وضعت للمبادئ الدينية تبايناً شديداً.

● ازدياد وهج نيران الشعوبية، حيث لم تقتصر المفاضلة فيها بين العرب والفرس، بل تجاوزته إلى المفاضلة بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى.

● ازدهار حركة العمران، من بناء للقصور المنيفة وشق للترع والأنهار الرقراقة وتشبيد للبرك الاصطناعية وإقامة للحدائق والرياض الزاهية وتصميم للنافورات المبهرة والمساجد الفخمة.

● شيوع اللهو والمجون والزندقة عند طائفة من المجتمع العباسي الأول، نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى، مع محافظة الغالبية العظمى على القيم الإسلامية، إذ كانت متمسكة بفرائض الدين الحنيف وسننه وشعائره، ناقمة على أهل اللهو والشعوبية والزندقة.

● ألقى كل من الترف والفقر بظلاله على الشعر، حيث افنتن العباسيون المترفون بمعالم حضارتهم، فتأنقوا في ملبسهم ومأكلهم ومشربهم، واقتنوا الجوارح والقيان والغلمان، وظهرت

الخاتمة

آثار المدنية وأمارات النعمة في كل جانب من جوانب حياتهم. أما عن أثر الفقر في المجتمع العباسي، فقد كان موازيا لسابقه، حيث أدى إلى استحداث أغراض جديدة لم يكن للعرب بها سابق عهد، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: شعر الكدية و التسول وتصوير الفقر والبؤس وغيرها.

● شهد العصر العباسي نهضة ثقافية متميزة، نتيجة احتكاك العرب بغيرهم من الثقافات والأمم الأخرى (الفارسية، اليونانية، الهندية)، والنقل منها عن طريق حركة الترجمة النشيطة آنذاك، وتشجيع الخلفاء للعلم والعلماء.

● تأثر القصيدة العباسية بمختلف العوامل السياسية والاجتماعية والعرقية والفكرية والحضارية، بل إن موضوع الانفتاح على الآخر ودخول عالم المدنية والتحضر كان مطية للتنظير للمذاهب والاتجاهات المختلفة، أو متنفسا يعبر الشاعر من خلاله على هموم طبقة أو طبقة معينة أخرى.

● ظهر في العصر العباسي اتجاهين شعريين متباينين: الأول ينهج نهج القدماء ويسلك طريقهم، والثاني يحاول الظهور بنهج شعري مستحدث يعبر عن عصره ومشاعر أصحابه.

● دفع التحضر شعراء العصر العباسي الأول إلى استحداث أسلوب مولد جديد، يعتمد لغة وسطية بين لغة البدو الزاخرة بغريب اللفظ، ولغة العامة المفعمة بالكلمات المبتذلة، أسلوب وسط بين الغرابة والإسفاف، يحافظ على خصوصية اللغة ومقوماتها النحوية والتصريفية، ويلئم بينها وبين واقع العباسيين وحياتهم المتحضرة.

● حاول شعراء العصر العباسي الأول عكس صورة مجتمعهم من خلال شعرهم، فصوروا جميع طبقاته في مناسباتها المختلفة وطرق عيشها المتباينة.

● كان أبو نواس أول من دعا إلى نبذ المقدمة الطللية في العصر العباسي الأول، واستبدالها بوصف الخمر والتغزل بها، مع أن البدء بهذه المقدمة لم يكن حكرا على هذا العصر، بل كان له جذور في الجاهلية، غير أنها لم تسجل اهتمام القدماء .

● أخذ شعراء العصر العباسي الأول يجددون في البناء الفني للقصيدة العربية تجديدات خطيرة وجريئة شملت الوزن الشعري وقافية البيت، كما شملت مضمون القصيدة، ووحدة البيت وافتتاحها وختامها.

● لعبت الظروف السياسية والاجتماعية والحضارية دورا فاعلا في انتشار بعض الأغراض الشعرية وتبوءها للصدارة مقارنة بباقي الأغراض الأخرى، على نحو ما رأينا من فنون المدح والرتاء والهجاء والغزل والزهد وغيرها...

● استقل غرض الوصف بقصائد عصماء بعد أن كان يدرج ضمن أغراض متعددة، إذ احتل القمة بين فنون الشعر، وساعده على ذلك طبيعة بغداد والبلاد المفتوحة التي تسحر الأبواب وتسبي العقول، حيث لم يترك هذا الفن جانبا إلا وطرق بابيه، فوصف شعراء العصر العباسي الأول الطبيعة وجمالها، واستحدثوا أغراضا جديدة لها صلة وثيقة بها، من ذلك مثلا الروضيات والزهريات والمائيات وغيرها...

- التحمت القصيدة بعد أن كانت أقساماً لا يربط بينها رباط نفسي أو فكري إلا ما نذر، بل أصبحت بعض القصائد تدور حول موضوع واحد، كما كثر النقل من الحكم الفارسية و التآثر بالثقافات الأجنبية خاصة في مجال الفلسفة و المنطق و علم الكلام.
- بدأت معالم الصنعة اللفظية في القصيدة العباسية في وقت مبكر، وإن كان بشار بن برد وأبو نواس قد اهتمما بها في شعرهما، فإن مسلم بن الوليد هو أول من اعتمد عليها، وأصبحت أساساً في شعره، فقد أكثر من استعمال ألوان البديع المختلفة من طباق ومقابلة وجناس وغيرها من فنون هذا العلم.
- اعتمد شعراء العصر العباسي الأول الأوزان الخفيفة في نظم قصائدهم، أما في مجال القوافي فقد ظهرت المزدوجات، كما نظم الشعراء الرباعيات والمسمطات والمخمسات، وجميعها أشكال مختلفة في استعمال القوافي.

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

| الرقم | الآية | اسم السورة | رقم الصفحة |
|-------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|------------|------------|
| 1 | { لا إكراه في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } | البقرة | 24 |
| 2 | { يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ } | البقرة | 135 |
| 3 | { وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أُمَّهَاتُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا، الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } | النساء | 23 |
| 5 | { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } | النساء | 142 |
| 6 | { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } | الأعراف | 4 |
| 7 | { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } | الأعراف | 142 |
| 8 | { وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } | الأنفال | 21 |
| 9 | { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. } | التوبة | 23 |

| | | | |
|-----|--------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----|
| 24 | التوبة | {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} | 10 |
| 32 | التوبة | {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السَّيِّئَةُ وَسَيُحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ، لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ، إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} | 11 |
| 32 | التوبة | {إِنِ اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} | 12 |
| 10 | يونس | {حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} | 13 |
| 284 | يونس | { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } | 14 |
| 172 | الرعد | { لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } | 15 |
| 10 | النحل | { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا } | 16 |

| | | | |
|-----|----------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------|
| | | | { يَصْنَعُونَ } |
| 11 | الإسراء | { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا } | 17 |
| 135 | مريم | { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } | 18 |
| 25 | الأنبياء | { إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } | 19 |
| 25 | النور | { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } | 20 |
| 149 | النور | { وَلِيَسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } | 21 |
| 149 | النور | { وَأَنْ يَسْتَعْفِفَ خَيْرٌ لَهُنَّ } | 22 |
| 7 | الروم | { أَلَمْ غَلَبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } | 23 |
| 135 | الروم | { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } | 24 |
| 160 | الحديد | { اَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُمْ صَفْرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورُ } | 25 |
| 99 | المطففون | { يُسْفَقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خَتَمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } | 26 |
| 79 | القلم | { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا } | 27 |

| | | ليصِرْمُهَا مُصْبِحِينَ} | |
|-----|---------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----|
| 10 | الأحقاف | {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} | 28 |
| 108 | طه | { إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ } | 29 |
| 190 | الحجرات | { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } | 30 |
| 233 | الليل | { وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَىٰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ } | 31 |
| 220 | الإخلاص | {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} | 32 |

فهرس الأحاديث الشريفة

| الرقم | الحديث | الصفحة |
|-------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--------|
| 1 | "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنتفن كنوزهما في سبيل الله" | 8 |
| 2 | " ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس" | 159 |
| 3 | أطيب الطيب المسك | 100 |
| 4 | " اغزوا باسم الله، في سبيل الله . تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً" | 33 |
| 5 | إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد" | 122 |
| 6 | "إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي" | 233 |
| 7 | " تغزون جزيرة العرب ، فيفتحها الله عز وجل ثم تغزون الدجال فيفتحها الله " | 7 |
| 8 | "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وأسننتكم" | 32 |
| 9 | " حبب إلي من الدنيا النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة" | 100 |
| 10 | " رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها " | 32 |
| 11 | "لا يبيع حاضر لباد" | 2 |
| 12 | لتتبعن سنن الذين من قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم . فقال الصحابة: يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : فمن " | 366 |
| 13 | " اللهم فقهه في الدين " | 14 |
| 14 | "ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثلما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع" | 160 |

| | | |
|-----|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----|
| 79 | "ما من مسلم يغرس غرساً، إلا كان ما أكل منه صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع مه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة" | 15 |
| 32 | "ما من مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمي، اللون لون الدم والريح ريح المسك" | 16 |
| 160 | "من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة" | 17 |
| 149 | "من يضمن لي ما بين رجليه وما بين لحييه، أضمن له الجنة" | 18 |

فهرس القوافي
قافية الهمزة المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|------------------|--------|---------|
| 86 | 2 | بشار بن برد | الخفيف | انتهاؤ |
| 296 | 5 | الحسين بن المطير | الكامل | الأقذاء |
| 281 | 3 | أبو نواس | البسيط | أسماء |
| 279 | 1 | أبو نواس | البسيط | الداؤ |
| 247 | 1 | بشار بن برد | الوافر | يشاء |

قافية الهمزة المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-----------------|--------|----------|
| 265 | 3 | أبو نواس | الكامل | الأحياء |
| 297 | 1 | أبو نواس | الكامل | الجوزاء |
| 112 | 11 | مساور الوراق | الكامل | القرأء |
| 147 | 3 | أبو العتاهية | الرجز | جفائي |
| 118 | 5 | أبو نواس | البسيط | الخراماء |
| 179 | 2 | الحسين بن مطير | الوافر | السناؤ |
| 310 | 3 | أبو نواس | السريع | الرئائي |
| 267 | 2 | علي بن جهم | الوافر | الرخاء |
| 113 | 10 | عبدالله بن طاهر | الكامل | الظماء |
| 189 | 4 | جحشويه | الشريع | فرعاء |

قافية الباء المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|------------------|---------|---------|
| 156 | 5 | الحسين بن مطير | الطويل | أديب |
| 283/271 | 9 | الرياشي | الرياشي | أرب |
| 226 | 7 | الحسين بن المطير | الطويل | خبوب |
| 131 | 6 | أبو نواس | الوافر | الخطوب |

| | | | | |
|-----|---|--------------------|--------------|----------|
| 240 | 5 | أبو العتاهية | مجزوء الكامل | الرطابُ |
| 77 | 4 | العباس بن الأحنف | الطويل | سُرُوبُ |
| 93 | 1 | بشار بن برد | الكامل | سلْبُه |
| 83 | 2 | ديك الجن | الطويل | الطَرَبُ |
| 16 | 4 | نصر بن صيار | الطويل | عزْبُ |
| 84 | 8 | مروان بن أبي حفصة | الطويل | غرابُها |
| 215 | 4 | ابن ميادة | الطويل | قاضيُه |
| 143 | 2 | زبيدة "زوج الرشيد" | السريع | قَلْبُ |
| 262 | 2 | دعبل الخزاعي | طويلا | الكواذب |
| 259 | 1 | بشار بن برد | الطويل | كواكِبُه |
| 155 | 3 | أبو بكر العزرمي | الطويل | مضاربُه |
| 166 | 2 | رابعة العدوية | الوافر | نصيْبُ |
| 132 | 4 | مروان بن أبي حفصة | الطويل | يترقَّبُ |
| 141 | 2 | جارية المأمون | الوافر | يستجيبُ |
| 161 | 4 | أبو العتاهية | المتقارب | يلعبُ |

قافية الباء المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|------------------|--------|-----------|
| 75 | 4 | العباس بن الأحنف | الخفيف | الإيَابَا |
| 287 | 3 | العباس بن الأحنف | الخفيف | ثيابا |
| 293/117 | 7 | أبو نواس | البسيط | ثقبَا |
| 280 | 4 | العباس بن الأحنف | الطويل | الحبَا |
| 144 | 6 | مسلم بن الوليد | الطويل | جنوبَا |
| 265/117 | 2 | أبو نواس | البسيط | ذهبا |
| 75 | 5 | العباس بن الأحنف | الخفيف | طيبَا |
| 281 | 5 | بشار بن برد | الهمزج | عذبا |
| 265 | 4 | أبو نواس | البسيط | قطبا |

قافية الباء المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------------|--------------|-------------|
| 311 | 4 | أبو العتاهية | الوافر | تَبَابِ |
| 305 | 4 | أبو نواس | المنسرح | التعبِ |
| 136 | 6 | أبو عيينة المهلبى | الخفيف | حبِ |
| 263 | 2 | علي بن جهم | الخفيف | الخطوبِ |
| 54 | 6 | سلم الخاسر | الطويل | ذنبِ |
| 92 | 2 | - | السريع | ذنبِي |
| 246 | 5 | أبو العتاهية | مجزوء الكامل | الرطابِ |
| 185 | 1 | أبو نواس | المنسرح | الرَّيبِ |
| 19 | 4 | أبو نواس | الطويل | الضبِ |
| 130/20 | 7 | بشار بن برد | مجزوء الرمل | العربِ |
| 216 | 4 | سلم بن داود | الطويل | غروبِ |
| 143 | 3 | عليه بنت المهدي | الطويل | القربِ |
| 251 | 9 | بشار بن برد | السريع | قَعْنَبِ |
| 145 | 6 | بشار بن برد | الهزج | القلبِ |
| 241 | 2 | ابن هرمة | الكامل | كلايِ |
| 308 | 3 | أبو نواس | المجتث | بليِ |
| 106 | 3 | أبو الشيص | المنسرح | لعبِ |
| 271 | 7 | أبو نواس | الخفيف | المحرابِ |
| 2 | 1 | المتنبي | البسيط | مَجْلُوبِ |
| 220 | 8 | بشار بن برد | السريع | مستصعبِ |
| 205 | 2 | ابن الهرمة | الكامل | كلايِ |
| 227 | 4 | مطيع بن إياس | المنسرح | النجبِ |
| 90 | 2 | - | الخفيف | النَّصَابِي |
| 162 | 2 | أبو العتاهية | الكامل | الوَهَّابِ |

| | | | | |
|-----|---|------------------|--------|------|
| 247 | 1 | العباس بن الأحنف | السريع | يعتب |
|-----|---|------------------|--------|------|

قافية الباء الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|----------|-------|---------|
| 312 | 5 | العُماني | الرجز | الغضب |

قافية التاء المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|------------------|--------------|---------|
| 306 | 1 | بشار بن برد | الهمزج | جيت |
| 73 | 6 | أشجع السلمي | مخلع البسيط | الموات |
| 154 | 4 | محمد بن أبي أمية | الطويل | هويت |
| 313 | 4 | أبو العتاهية | الرجز(مزدوج) | يموت |

قافية التاء المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|--------------|-------------|----------------|
| 272 | 3 | أبو نواس | الوافر | الباسقات |
| 71 | 7 | محمد بن عاصم | البسيط | بالنَوَيْثَاتِ |
| 217 | 2 | بشار بن برد | مجزوء الرمل | حياتي |
| 305 | 5 | أبو العتاهية | البسيط | راحات |
| 221 | 3 | أبو نخيلة | الرجز | السراة |

قافية التاء الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|----------------|--------|---------|
| 161 | 5 | أبو العتاهية | الرمل | أنت |
| 166 | 2 | ريحانة الزاهدة | الطويل | فاستمرت |

قافية التاء المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|--------------------|--------|------------|
| 201 | 2 | عمرو "رفيق المهدي" | الخفيف | بالكَرَاتِ |

قافية الجيم المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------|--------|---------|
| 285 | 3 | أبو الشمقمق | الخفيف | أموجا |
| 76 | 5 | أبو نواس | السريع | لَجَبَا |

قافية الجيم المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|---------------|--------|----------------|
| 204 | 3 | أبو دلامة | الوافر | ساجي |
| 110 | 2 | إسحاق الموصلي | الطويل | الْفَرَارِيحِ |
| 155 | 2 | ابن أبي أمية | الوافر | الْمُتَحَرِّجِ |
| 111 | 3 | العماني | الرجز | منضج |

قافية الحاء المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|---------------------|--------------|-------------|
| 217 | 8 | بشار بن برد | المتقارب | تَمْزُحُ |
| 186 | 4 | أبو الهندي | الوافر | رَاحُ |
| 303/246 | 5 | أبو العتاهية | مجزوء الرمل | رُوحُ |
| 101 | 2 | أبو نواس | مجزوء الكامل | فَتَّقُوْحُ |
| 165 | 6 | أبو نواس | السريع | المازحُ |
| 69 | 2 | علي بن محمد بن حبيب | الوافر | مَسْفُوْحُ |

قافية الحاء المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------|---------|-----------|
| 188 | 3 | بشار بن برد | السريع | صبَحَا |
| 235 | 5 | بشر الحافي | السريع | المالِحَه |
| 258 | 3 | أبو نواس | المنسرح | مرتاحا |

قافية الحاء المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-----------|--------------|---------|
| 167 | 3 | بنت طولون | مجزوء الوافر | ذبائِحا |

| | | | | |
|-----|---|---------------|-------------|--------|
| 188 | 4 | الشاعر الهندي | الوافر | راح |
| 82 | 2 | القاضي عياض | السريع | الرياح |
| 188 | 4 | أبو نواس | مجزوء الرمل | الصلاح |

قافية الحاء الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|----------|--------------|---------|
| 164 | 6 | أبو نواس | مجزوء الكامل | نازح |

قافية الدال المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|-------------------|--------------|---------|
| 92 | 2 | الجارية راهي | الطويل | أبترد |
| 225 | 9 | مروان بن أبي حفصة | الطويل | البوائد |
| 151 | 1 | العباس بن الأحنف | البسيط | أحد |
| 250 | 1 | ابن منذر | السريع | بعد |
| 65 | 7 | أبو نواس | البسيط | تطرد |
| 283 | 1 | علي بن جهم | الطويل | حديدها |
| 95 | 5 | بشار بن برد | مجزوء الرجز | الحميد |
| 127 | 3 | بشار بن برد | الطويل | جواد |
| 302/172 | 6 | طريح بن إسماعيل | مخلع البسيط | سجدوا |
| 246 | 2 | العباس بن الأحنف | الكامل | العائد |
| 49 | 2 | الوليد بن يزيد | الوافر | عنيذ |
| 137 | 5 | ابن عيينة | الطويل | عهد |
| 223 | 4 | حماد عجرد | مجزوء الوافر | القرد |
| 292 | 2 | سلم الخاسر | الطويل | محمد |
| 263 | 3 | علي بن جهم | الطويل | مدودها |
| 285 | 2 | بشار بن برد | الوافر | الوحيد |
| 172 | 2 | أبو دلالة | الطويل | الورد |
| 295 | 3 | أحمد بن يوسف | البسيط | يشدو |

قافية الدال المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|------------------|-------------|-----------------|
| 304 | 8 | أبو دلّامة | مجزوء الرمل | أُمُّ عُبَيْدَه |
| 296 | 8 | بشار بن برد | الكامل | جلودًا |
| 96 | 4 | بشار بن برد | الطويل | الزَّبْرَجَدَا |
| 224 | 3 | أبو دلّامة | الرمل | قعيدَه |
| 152 | 2 | العباس بن الأحنف | البسيط | مجتهدا |
| 282 | 2 | سلم الخاسر | الطويل | محمدًا |
| 166 | 1 | ريحانة الزاهدة | الرجز | مخلدًا |

قافية الدال المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|---------------------|--------|---------|
| 177 | 2 | عليه بنت المهدي | البسيط | الأبد |
| 269 | 4 | مسلم بن الوليد | البسيط | الأبد |
| 216 | 1 | السري بن عبد الرحمن | البسيط | الأحد |
| 195 | 4 | أبو نواس | البسيط | البلد |
| 294/220 | 3 | بشار بن برد | البسيط | تلد |
| 50 | 3 | أبو دلّامة | البسيط | بتصريد |
| 261 | 4 | مسلم بن الوليد | البسيط | تغريد |
| 64 | 4 | سلم الخاسر | السريع | بالجود |
| 177 | 4 | أشجع السلمي | السريع | الخلود |
| 261 | 2 | ابن منذر | الخفيف | حصيد |
| 40 | 4 | العماني | الرجز | بالسرد |
| 219 | 5 | بشار بن برد | البسيط | فالسند |
| 268 | 1 | علي بن الجهم | البسيط | الغرد |
| 292 | 5 | بشار بن برد | الطويل | قعود |
| 255 | 2 | ابو الشيص | الطويل | القواصد |

| | | | | |
|---------|---|------------------|--------|--------|
| 183 | 4 | الحسين بن الضحاك | الطويل | كالورد |
| 186 | 3 | الحسين بن الضحاك | الطويل | الكميد |
| 150 | 2 | دعبل الخزاعي | الكامل | بمقعد |
| 231 | 5 | أشجع السلمي | الرجز | بموجود |
| 290 | 5 | أبو نواس | الطويل | النجدي |
| 89 | 3 | بشار بن برد | الرجز | وحددي |
| 139/138 | 2 | العباس بن الأحنف | المديد | بالود |
| 283 | 2 | علي بن جهم | السريع | الورد |
| 187 | 4 | الحسين بن الضحاك | الطويل | كالورد |
| 214 | 1 | أبو نواس | البسيط | كالورد |
| 259 | 3 | أبو نواس | البسيط | كالورد |
| 102 | 4 | بشار بن برد | الطويل | وكدي |

قافية الذال المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|------------------|-------|---------|
| 233 | 3 | الحسين بن الضحاك | الرجز | شذاذا |

قافية الذال المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|--------------|--------|---------|
| 73 | 2 | أبان اللاحقي | الخفيف | لذاذ |

قافية الراء المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------|--------------|---------|
| 77 | 2 | بشار بن برد | مجزوء البسيط | أثر |
| 82 | 13 | أبو نواس | الخفيف | اعتبار |
| 286 | 1 | أشجع السلمي | الطويل | أموره |
| 83 | 1 | - | الطويل | أنوار |
| 96 | 5 | أبو نواس | الطويل | تبر |

| | | | | |
|--------|----|--------------------------|--------------|----------|
| 123 | 6 | الحجاج بن يوسف التيمي | الكامل | تدورُ |
| 156 | 3 | محمد بن زياد | الطويل | التهاجرُ |
| 50 | 1 | الوليد بن يزيد | المتقارب | الجبورُ |
| 316 | 2 | أبو نواس | السريع | جبرُ |
| 311 | 2 | الأصمعي | الطويل | جعفرُ |
| 182 | 1 | أبو نواس | الطويل | الجهرُ |
| 239 | 3 | الجاحظ | الرجز | الخنزُ |
| 306 | 4 | الحسين بن الضحاك | الهزج | خمرُ |
| 305 | 8 | الخريمي | المنسرح | زاهرُها |
| 195 | 3 | أبو نواس | الطويل | الصفيرُ |
| 78 | 6 | محمد بن كناسة | الكامل | العفرُ |
| 3 | 1 | ابن سيده | الكامل | العكرُ |
| 235 | 3 | الحسين بن مطير | الطويل | فقيرُها |
| 187 | 6 | بشار بن برد | المنسرح | قدرُ |
| 134 | 2 | بعض الأعراب | المنسرح | كثروا |
| 125 | 2 | منصور النمري | الطويل | مطيرُ |
| 157 | 16 | المؤمل بن أميل | البسيط | مُعترُ |
| 126 | 6 | ابن منذر | الطويل | منظرُ |
| 223/44 | 3 | أبو نواس | المنسرح | مهذارُ |
| 297 | 2 | بشار بن برد | مجزوء الكامل | نظير |
| 286 | 2 | ابن ميادة | المنسرح | هجرُوا |
| 175 | 11 | العماني | الرجز | يبصرُ |
| 295 | 2 | علي بن جهم | البسيط | يستترُ |
| 286 | 2 | علي بن جهم | المتقارب | ينظرُ |

قافية الرء المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|--------------------|--------------|---------|
| 275 | 1 | أبو نواس | الطويل | أسكرا |
| 236 | 3 | ابن أبي عيينة | البسيط | اعتبراً |
| 205 | 6 | أبو نواس | المتقارب | أكثرًا |
| 57 | 3 | اليزيدي | الكامل | باراً |
| 276 | 1 | مسلم بن الوليد | الطويل | البدراً |
| 213 | 3 | أبو نواس | الطويل | الخمراً |
| 277/102 | 5 | بشار بن برد | الوافر | بكرًا |
| 67 | 10 | أبو شاعر | مجزوء الوافر | بكره |
| 138 | 4 | العباس بن الأحنف | الطويل | تغيراً |
| 176 | 2 | أبان بن عبد الحميد | الرجز | الحارّه |
| 249 | 5 | ابن المناذر | السريع | الحارّه |
| 268 | 5 | مسلم بن الوليد | الطويل | سحرًا |
| 103 | 2 | بشار بن برد | الهجج | العطرًا |
| 97 | 4 | مسلم بن الوليد | الطويل | الفجرًا |
| 20 | 6 | أبو نواس | مجزوء الوافر | المطرًا |
| 311 | 2 | سلم الخاسر | المتقارب | مقدارها |

قافية الرء المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|------------------|----------|---------|
| 268 | 6 | علي بن جهم | المتقارب | أبكارها |
| 263 | 2 | علي بن جهم | الطويل | أدرى |
| 74 | 5 | العباس بن الأحنف | الكامل | أصفر |
| 291 | 2 | مسلم بن الوليد | الطويل | أمري |
| 298/129 | 8 | أبان اللاحقي | السريع | أنوار |
| 193 | 3 | بشار بن برد | الكامل | وافخر |

| | | | | |
|---------|------|-------------------------|--------------|--------------|
| 126 | 4 | أبو الأسود الحماني | الطويل | في البَحْرِ |
| 63 | 4 | العباس بن الحسين | مجزوء الكامل | في الخُدُورِ |
| 76 | 6 | أبو العتاهية | مجزوء الكامل | من الخُدُورِ |
| 101 | 3 | أبو نواس | الطويل | الخصرِ |
| 179 | 5 | أبو نواس | الطويل | الخصرِ |
| 223 | 3 | بشار بن برد | الرجز | الخمَارِ |
| 114 | 2 | أبو نواس | السريع | وخمِرِ |
| 316 | 2 | أبو نواس | الكامل | الدَّهْرِ |
| 231 | 8 | إسماعيل بن عمار | الكامل | زارِي |
| 301/61 | 4/12 | أبو العتاهية | مجزوء الكامل | والسدِيرِ |
| 298 | 3 | أبان اللاحقي | الكامل | بسوَّارِ |
| 306 | 3 | سعيد بن وهب | الهجج | الشبِيرِ |
| 194/130 | 11/4 | بشار بن برد | الوافر | من طَخَارِ |
| 291 | 5 | مسلم بن الوليد | الطويل | العبرِ |
| 101 | 3 | أبو نواس | البسيط | العارِ |
| 203 | 5 | دعبل الخزاعي | البسيط | عذِرِ |
| 60 | 2 | أبو العتاهية | مجزوء الكامل | القُصُورِ |
| 115 | 4 | أبو نواس | الطويل | كالبدرِ |
| 300 | 5 | مطيع بن إياس | مجزوء الكامل | المزارُ |
| 222 | 4 | - | المتقارب | المشِيرِ |
| 248 | 1 | بشار بن برد | الكامل | مشِيرِ |
| 260 | 1 | ابن منذر | الطويل | مصرصرِ |
| 307/180 | 4 | المأمون (الخليفة) | الهجج | المقاصيرِ |
| 194 | 3 | العلاء بن الحداد الأعمى | السريع | المنبرِ |
| 266/126 | 6 | ابن منذر | الطويل | منظِرِ |
| 197 | 3 | العلاء بن الحداد الأعمى | السريع | المنيرِ |

| | | | | |
|---------|----|---------------------------|--------|-----------|
| 104 | 3 | العباس بن الأحنف | الطويل | النَّارِ |
| 284/280 | 3 | مسلم بن الوليد | الطويل | نسرٍ |
| 151 | 1 | علي بن جهم | | ندري |
| 177 | 5 | أبو نواس | الطويل | الخضِرِ |
| 59 | 12 | علي بن أبي طالب الأعمى | الطويل | ناظِرِ |
| 243 | 6 | أبو نواس | الخفيف | النَّهارِ |

قافية الراء الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|---------------|----------|---------|
| 76 | 1 | ابن عيينة | الطويل | جزرُ |
| 154 | 3 | بشار بن برد | المتدارك | النظرُ |
| 62 | 8 | بكر بن النطاح | المتقارب | ظهرُ |

قافية الزاي المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------|--------|----------|
| 98 | 3 | أبو الشمقمق | الخفيف | الأهوازِ |

قافية السين المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|-------------|--------|---------|
| 106 | 2 | - | البسيط | إيناسُ |
| 209 | 2 | أبو الشمقمق | البسيط | تلبيسُ |
| 252 | 3 | أشجع السلمي | الوافر | خرسُ |
| 290/118 | 3 | أبو نواس | الطويل | فارسُ |

قافية السين المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|---------------|--------------|----------|
| 104 | 3 | بشار بن برد | مجزوء الكامل | خمَسًا |
| 171 | 6 | السيد الحميري | السريع | الدارسَا |
| 275 | 2 | أبو نواس | البسيط | مأنوسَا |

قافية السين المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|--------------------------|-------------|------------|
| 223 | 3 | حماد عجرد | الوافر | أمسه |
| 81 | 2 | إبراهيم بن المهدي | مقارب | أملس |
| 247 | 5 | العباس بن الأحنف | الhezج | أنفاسي |
| 303 | 6 | حماد عجرد | مجزوء الرمل | إياس |
| 294 | 3 | دعبل الخزاعي | البسيط | إيناس |
| 73 | 4 | إبراهيم مولى قائد العبلي | الخفيف | ثرمس |
| 282/58 | 4 | أشجع السلمي | الوافر | عزس |
| 18 | 8 | سديف | الكامل | بني العباس |
| 248 | 1 | أبو نواس | الوافر | كاس |
| 264 | 2 | أشجع السلمي | البسيط | كراديس |
| 87 | 2 | أبو دلامة | الطويل | القلانس |
| 185 | 5 | - | الوافر | بالنفوس |
| 157 | 2 | محمد بن زياد | الطويل | لنفوس |

قافية السين الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|----------|--------------|---------|
| 183 | 3 | أبو نواس | مجزوء الكامل | الغلس |

قافية الشين المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------------|--------|---------|
| 144 | 4 | خديجة بنت المأمون | السريع | الحشأ |

قافية الشين المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|---------|--------|---------|
| 206 | 1 | الأصمعي | الوافر | رش |
| 206 | 1 | أعرابي | الوافر | يمشي |

قافية الضاد المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|---------------|--------|---------|
| 55 | 2 | عمارة بن عقيل | الطويل | الأرض |
| 86 | 2 | - | الطويل | بعض |

قافية العين المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|---------------|--------|---------|
| 124 | 4 | منصور النمري | البسيط | الجمع |
| 254 | 2 | السيد الحميري | السريع | يصدع |

قافية العين المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|----------------|--------|---------|
| 127 | 3 | أبان اللاحقي | الطويل | أرفعاً |
| 133 | 4 | الحسين بن مطير | الطويل | مربعا |
| 70 | 3 | - | البسيط | طلعا |

قافية العين الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|---------|--------|---------|
| 237 | 5 | الكسائي | الرملي | ينتفع |

قافية الغين الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|--------------|--------|---------|
| 131 | 4 | دعبل الخزاعي | الرملي | الرغا |

قافية الفاء المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------|--------|---------|
| 173 | 7 | ابو دلامة | الكامل | تذرف |
| 74 | 6 | أشجع السلمي | الخفيف | محفوف |

قافية الفاء المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|---------|--------|---------|
| 80 | 4 | السلامي | الكامل | شغفا |

| | | | | |
|-----|---|--------------|-------------|---------|
| 128 | 3 | مساور | الوافر | طريفه |
| 146 | 2 | أبو العتاهية | الوافر | النظافه |
| 109 | 9 | أبو نواس | مجزوء الرمل | يرفا |

قافية الفاء المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|---------------|--------|---------|
| 148 | 2 | بكر بن النطاح | منسرح | الترف |
| 67 | 9 | أبو دلامة | البسيط | بالسدف |

قافية القاف المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-----------|--------|---------|
| 105 | 3 | ابن ميادة | الطويل | عابق |

قافية القاف المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|------------------|--------|----------|
| 232 | 2 | الفزاري | الرجز | الاعساقا |
| 98 | 4 | - | البسيط | الحدقا |
| 208 | 3 | أبو فرعون الساسي | الرمل | السرقا |
| 151 | 2 | العباس بن الأحنف | البسيط | صدقا |
| 310 | 2 | مسلم بن الوليد | الوافر | مفيقا |

قافية القاف المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|----------------------|-------------|-----------|
| 267 | 2 | جعفر بن علبة الحارثي | الطويل | أفرق |
| 290 | 2 | أبو نواس | الطويل | الحدائق |
| 315/239 | 6 | علي بن جهم | الرجز | الحق |
| 181 | 12 | أبو نواس | الوافر | بالجائليق |
| 204 | 4 | أبان اللاحقي | الطويل | السلق |
| 96 | 4 | أبو نواس | الطويل | شارق |
| 232 | 6 | عمرو الوراق | مجزوء الرمل | شفيق |

| | | | | |
|-----|---|--------------|--------|--------|
| 203 | 4 | دعبل الخزاعي | الكامل | فاسق |
| 156 | 4 | ابن رهيمة | الرملة | مفارقة |

قافية الكاف المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|--------------|--------|---------|
| 316 | 3 | أبو العتاهية | الكامل | ملك |
| 234 | 3 | أبو العتاهية | الطويل | مالكه |
| 85 | 3 | أبو نواس | الوافر | المليئ |

قافية الكاف المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------------|--------------|---------|
| 264 | 1 | أشجع السلمي | مجزوء الوافر | بكي |
| 152 | 2 | مروان بن أبي حفصة | الخفيف | تراكاً |
| 165 | 4 | رابعة العدوية | الطويل | لذاكا |
| 115 | 3 | أبو نواس | الوافر | السمكا |

قافية الكاف المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-----------------|--------|---------|
| 68 | 4 | عليه بنت المهدي | البسيط | أنساك |
| 163 | 4 | أبو العتاهية | الكامل | بشكه |
| 58 | 8 | ابن أبي عيينة | الطويل | الشرك |
| 85 | 4 | ابن أبي عيينة | الطويل | والفتك |

قافية الكاف الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------------|----------|---------|
| 196 | 2 | - | المتقارب | برمك |
| 104 | 2 | العباس ابن الأحنف | السريع | محك |

قافية اللام المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------|--------|---------|
| 127 | 4 | بشار بن برد | الطويل | أصيل |

| | | | | |
|-----|----|----------------|-------------|---------|
| 152 | 3 | مسلم بن الوليد | الطويل | البذلُّ |
| 197 | 5 | طاهر بن الحسين | مجزوء الرمل | تضليل |
| 302 | 3 | أبو نواس | مخلع البسيط | الجمالُ |
| 66 | 10 | يوسف بن القاسم | الطويل | حلولُ |
| 252 | 5 | أشجع السلمي | الطويل | ذليلُ |
| 72 | 6 | - | الكامل | صقيلُ |
| 65 | 14 | أبونواس | البسيط | طلُّ |
| 292 | 4 | أشجع السلمي | الطويل | عويلُ |
| 195 | 10 | طاهر بن الحسين | المديد | مشغولُ |
| 57 | 2 | - | الطويل | منازلهُ |

قافية اللام المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|------------------|-------------|----------|
| 228 | 11 | أبو العتاهية | المتقارب | إذلالها |
| 312/179 | 4 | أبونواس | المنسرح | فاعتدلاً |
| 36 | 2 | العباس بن الحسن | الكامل | بقيلة |
| 230 | 5 | أبو دلامة | الكامل | تحويلا |
| 106 | 2 | - | الهجج | السفرجلا |
| 97 | 3 | مسلم بن الوليد | الكامل | خلخالا |
| 209 | 4 | أبو نواس | المنسرح | اعتدلا |
| 75 | 5 | العباس بن الأحنف | مجزوء الرمل | ليلا |

قافية اللام المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------------|--------|----------|
| 160 | 5 | أبو العتاهية | البسيط | آجال |
| 114 | 7 | أبو نواس | الطويل | الأكل |
| 141 | 2 | المأمون (الخليفة) | الطويل | بالأنامل |
| 159 | 5 | أبو العتاهية | البسيط | بالي |

| | | | | |
|-----|----|------------------|--------------|---------|
| 213 | 2 | أبو نواس | البسيط | البالي |
| 247 | 7 | أبو الشيص | المتقارب | بان |
| 306 | 2 | أشجع السلمي | الhezج | البذل |
| 118 | 12 | مسلم بن الوليد | الطويل | نحلي |
| 294 | 4 | أبو نواس | مخلع البسيط | جدال |
| 205 | 2 | ابن الهرمة | الرجز | جمل |
| 209 | 5 | أبو الشمقمق | مجزوء الرمل | حال |
| 70 | 2 | نفظويه | البسيط | زلزل |
| 245 | 4 | أبو العتاهية | السريع | الساحل |
| 273 | 1 | أبو دلامة | البسيط | سراويلي |
| 78 | 5 | آدم بن عبدالعزيز | المتقارب | الطويل |
| 244 | 5 | أبو العتاهية | الخفيف | عاجل |
| 279 | 3 | مسلم بن الوليد | البسيط | العضل |
| 174 | 5 | سلم الخاسر | السريع | الفاضل |
| 178 | 4 | أحمد بن يوسف | الطويل | فضائله |
| 153 | 5 | مسلم بن الوليد | الطويل | قتلي |
| 300 | 4 | أبو العتاهية | مجزوء الخفيف | مالي |
| 150 | 4 | العباس بن الأحنف | الطويل | مثلي |
| 57 | 2 | نفظويه | الطويل | مسبل |
| 331 | 1 | مسلم بن الوليد | البسيط | الوجل |

قافية الميم المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------|--------------|---------|
| 165 | 4 | أبو نواس | الكامل | أعظم |
| 355 | 8 | سلم الخاسر | مجزوء الكامل | الأنام |
| 59 | 4 | أشجع السلمي | الكامل | الأيام |
| 92 | 1 | - | البسيط | حاكم |

| | | | | |
|-----|---|-------------------|----------|--------|
| 141 | 3 | المأمون (الخليفة) | الوافر | السلام |
| 153 | 3 | داود بن سلم | البسيط | شمم |
| 158 | 2 | المؤمل بن أميل | الطويل | علقم |
| 190 | 4 | بشار بن برد | المتقارب | العلم |
| 202 | 1 | ابن الهرمة | الكامل | لئيم |
| 298 | 2 | أبو الشيص | الكامل | متقدم |

قافية الميم المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|---------------------|--------|----------|
| 98 | 1 | أبو نواس | الطويل | أعظماً |
| 3 | 1 | حسان بن ثابت | الطويل | تكرماً |
| 37 | 2 | ركاض | الطويل | الحلماً |
| 144 | 1 | الجارية عنان | الطويل | دما |
| 19 | 3 | العباس بن عبدالمطلب | الكامل | الدماً |
| 105 | 3 | ربيعة الرقي | الطويل | الظلاماً |
| 133 | 4 | أبو دلامة | الوافر | كرامة |
| 146 | 4 | ربيعة الرقي | الخفيف | كلاما |

قافية الميم المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|------------------|--------------|---------|
| 272 | 3 | الحسين بن الضحاك | السريع | أمم |
| 237 | 2 | الفزاري | الرجز | الأكرم |
| 297 | 8 | سلم الخاسر | مجزوء الكامل | الأنام |
| 242 | 2 | ابن الهرمة | المنسرح | جمل |
| 245 | 6 | ربيعة الرقي | الطويل | حاتم |
| 184 | 4 | ابن الهربد | مجزوء الرجز | الحرام |
| 265 | 2 | أبو نواس | المديد | الرحم |
| 258 | 6 | أبو نواس | الوافر | سخام |

الفهارس العامة

| | | | | |
|-----|---|----------------------|------------|--------|
| 113 | 2 | عبد الملك بن إسماعيل | الطويل | سقيم |
| 213 | 1 | أبو نواس | البسيط | الكرم |
| 304 | 4 | علي بن جهم | مجزء الرمل | بالكرم |
| 205 | 1 | ابن هرمة | الكامل | اللثيم |
| 186 | 4 | أبو نواس | الوافر | المدام |
| 60 | 4 | أبو العتاهية | الوافر | الهمام |

قافية الميم الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-------------|----------|---------|
| 313 | 5 | بشار بن برد | الرمل | ألم |
| 194 | 4 | بشار بن برد | المتقارب | العلم |
| 111 | 6 | أبو الهندي | المتقارب | الغنم |

قافية النون المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|------------|-------------|-----------------------|----------|---------|
| 285 | 3 | أبو نواس | الكامل | الأجفان |
| 125 | 4 | أبو نواس | الكامل | الأضغان |
| 254 | 7 | أبو الشيص | المتقارب | البان |
| 85 | 5 | ابن أبي عيينة | المنسرح | ثمن |
| 43 | 1 | يزيد الناقص (الخليفة) | الطويل | خاقان |
| 282/259/81 | 2 | أبو نواس | الطويل | عيون |
| 140 | 2 | هارون الرشيد | البسيط | غبان |
| 277/218 | 3 | حسين الخليل | المتدارك | فتن |
| 377 | 2 | حماد عجرد | الكامل | معان |
| 197 | 3 | - | البسيط | همدان |
| 276 | 1 | مسلم بن الوليد | المنسرح | وسن |
| 180 | 2 | - | الوافر | يستبان |

قافية النون المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|-------------|-------------|-------------------|-------------|------------|
| 248 | 4 | بشار بن برد | الرمل | الفنا |
| 275 | 3 | بشار بن برد | البسيط | أكفانا |
| 308 | 4 | مطيع بن إياس | المجتث | براني |
| 3 | 1 | القطامي | الكامل | ترانا |
| 137 | 5 | العباس بن الأحنف | البسيط | خراسانا |
| 23 | 4 | الأعور العبدى | البسيط | خفانا |
| 301 | 4 | الربيعي | مجزوء الرجز | دنا |
| 314/301/238 | 2 | أبان اللاحقي | الرجز | دمنه |
| 84 | 3 | الحسين بن الضحاك | البسيط | دنيانا |
| 173 | 8 | المؤمل بن أميل | الوافر | طائعيننا |
| 140 | 5 | المأمون (الخليفة) | الطويل | الظنا |
| 228 | 3 | حماد عجرد | البسيط | عيدانا |
| 71 | 7 | عمرو الوراق | الهجج | مريحنا |
| 91 | 4 | الجارية ماجن | مجزوء الرمل | مضنى |
| 167 | 4 | ميمونة | الوافر | الناظروننا |
| 229 | 4 | ابن أبي السعلاء | الهجج | هارونا |

قافية النون المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|--------------------|--------------|-----------|
| 128 | 2 | عبدالله بن المبارك | الطويل | الأذقان |
| 215 | 6 | أبو العتاهية | البسيط | استزيريني |
| 249 | 1 | ابن منذر | مجزوء البسيط | البطان |
| 18 | 1 | - | الخفيف | ترويني |
| 278 | 5 | مسلم بن الوليد | البسيط | تشفيني |
| 55 | 2 | ابن الغريزة النشلي | السريع | بالجوزجان |

| | | | | |
|---------|----|-------------------------|--------|------------|
| 155 | 2 | أشجع السلمي | الوافر | الحنين |
| 175 | 5 | شاعر من خراسان | السريع | دينها |
| 83 | 6 | أبو نواس | الكامل | الريحان |
| 80 | 1 | المتنبي | الوافر | الزمان |
| 113/110 | 11 | العماني | الرجز | السُّمُونِ |
| 315 | 4 | بشر بن المعتمر | الرجز | السُّننِ |
| 63 | 3 | محمد بن يسير | الوافر | ما شجاني |
| 100 | 2 | كثير عزة | الطويل | متقن |
| 64 | 11 | حجاء | الخفيف | الميدان |
| 162 | 5 | أبو العنابية | الوافر | مغن |
| 142 | 3 | الحكم بن هشام (الخليفة) | السريع | هجراني |
| 177 | 5 | أشجع السلمي | الوافر | يدوران |
| 243 | 4 | إسحاق الموصلي | البسيط | يلقاني |
| 244 | 4 | إسحاق الموصلي | البسيط | يومين |

قافية النون الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|------------------|-------|---------|
| 86 | 3 | العباس بن الأحنف | خفيف | منها |

قافية الهاء المضمومة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-----------------|--------|---------|
| 68 | 1 | علية بنت المهدي | الكامل | الله |

قافية الهاء المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|--------------|--------|---------|
| 99 | 3 | عنتر بن شداد | الكامل | ناداها |
| 186 | 3 | أبو نواس | السريع | أعطاهما |
| 177/125 | 6 | أشجع السلمي | البسيط | تنهيا |

قافية الهاء المكسورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|-----------------|--------|---------|
| 178 | 3 | - | البسيط | أحكيه |
| 143 | 2 | علية بنت المهدي | السريع | أسميه |

قافية الهاء الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|----------------|--------|---------|
| 307 | 3 | الوليد بن يزيد | المجتث | برنه |
| 162 | 3 | أبو العتاهية | البسيط | فاه |
| 317 | 2 | أبو نواس | رجزا | قهوة |

قافية الواو الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|---------|-------------|---------|--------|---------|
| 206 | 1 | الأصمعي | السريع | النو |
| 244/206 | 9 | أعرابي | السريع | لُو |

قافية الياء المفتوحة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|--------------|-------------|---------|
| 17 | 2 | سديف | الكامل | دويًا |
| 164 | 6 | أبو العتاهية | مجزوء الرجز | زاويه |
| 123 | 6 | أبو العتاهية | الطويل | ريًا |

قافية الياء الساكنة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|--------------|--------|---------|
| 234 | 3 | أبو العتاهية | الوافر | لديه |

قافية الألف المقصورة

| الصفحة | عدد الأبيات | الشاعر | البحر | القافية |
|--------|-------------|--------------|--------|---------|
| 248 | 2 | أبو العتاهية | الطويل | البلوى |
| 132 | 4 | دعبل الخزاعي | الرملي | الرغا |
| 116 | 10 | أبو نواس | الطويل | كبرى |

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

المصادر والمراجع:

- 1- الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 2009م.
- 2- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، 1952م.
- 3- إبراهيم النجار، شعراء عباسيون منسيون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
- 4- إبراهيم السامرائي، التكملة للمعاجم العربية من الألفاظ العباسية، مديريات المكتبات والوثائق الوطنية، الأردن، الطبعة الأولى، 1407هـ/1986م.
- 5- إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، دون طبعة وتاريخ.
- 6- الأبيشي، المستطرف في كل فن مستطرف، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ.
- 7- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.
- 8- ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ/1994م.
- 9- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م.
- 10- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، دون طبعة وتاريخ.
- 11- الأخفش، أبو حسن سعيد بن مسعدة، القوافي، تحقيق: عزت حسن، مديرية إحياء التراث العربي القديم، دمشق، دون طبعة، 1390هـ/1977م.
- 12- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م.
- 13- أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421 هـ / 2001 م.
- 14- أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة، 1994م.
- 15- أحمد عبد الستار الجوارى، الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مطبعة المجمع العلمي العراقي، الطبعة الثانية، 1412 هـ / 1991 م.
- 16- أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1346هـ/1927م.
- 17- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، دون طبعة، 1987 م.
- 18- الأزهرى، محمد بن أحمد الهروي، أبو منصور، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2001م.

الفهارس العامة

- 19- الأصفهاني، الأغاني، تحقيق إحسان عباس، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م.
- 20- الأنباري، كمال الدين، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الثالثة، 1405هـ/1985م.
- 21- أنيس المقدسي، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة عشر، 1989م.
- 22- إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1411هـ/1991م.
- 23- اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة: عادل زيتون، دار حسان، الطبعة الأولى، دمشق، 1410هـ/1998م.
- 24- البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- 25- البرقوق، عبد الرحمن، شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1968م.
- 26- بشار بن برد، الديوان، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، دون طبعة، 1386هـ/1966م.
- 27- بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، الطبعة الأولى، 1352هـ/1934م.
- 28- بطرس البستاني، أدباء العرب في العصر العباسية، دار مارون عبود، بيروت، دون طبعة، 1979م.
- 29- بكر بن عبد الله أبو زيد، طبقات النسابين، دار الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1407هـ/1987م.
- 30- البكري الأندلسي، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، 1992م.
- 31- البلاذري أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دون طبعة، 1988م.
- 32- بهاء الدين البغدادي، محمد بن الحسن بن علي بن حمدون، التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ.
- 33- البوطي، محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق، 1987م.
- 34- ابن تيمية، الصفدية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، الطبعة الثانية، 1406هـ.
- 35- التنوخي، الفرغ بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، دون طبعة، 1398هـ/1978م.
- 36- الثعالبي، أبو منصور، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة، دون طبعة وتاريخ.
- 37- الثعالبي، أبو منصور، سحر البلاغة وسر البراعة، تحقيق: عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون طبعة وتاريخ.

- 38- الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1422هـ/2002م.
- 39- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1992م.
- 40- الجاحظ، البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، 1419 هـ.
- 41- الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دون طبعة، 1423 هـ.
- 42- الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1914م.
- 43- الجاحظ، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1424 هـ.
- 44- الجاحظ، الرسائل الأدبية، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دون طبعة، 1384هـ/1964م.
- 45- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، دون طبعة، 1979م.
- 46- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، مطبعة المدني، القاهرة، دون طبعة وتاريخ.
- 47- الجرجاني، علي بن محمد الشريف، التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983م.
- 48- الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الثالثة، 1413هـ/1992م.
- 49- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، دون تاريخ.
- 50- الجهشياري، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى، 1938م.
- 51- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، الطبعة الرابعة، 1422هـ/2001م.
- 52- الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ/1992م.
- 53- الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1407هـ/1987م.
- 54- حاجي خليفة، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، تحقيق: محمد عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة إرسىكا، تركيا، دون طبعة، 2010م.
- 55- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، 1941 م.
- 56- ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ.
- 57- ابن حجر العسقلاني، تريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد سوريا، الطبعة الأولى، 1406هـ/1986م.

الفهارس العامة

- 58- ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تحقيق: دائرة المعرفة الهندية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1390هـ/1971م.
- 59- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، 1996م، الطبعة الرابعة عشر، دون تاريخ.
- 60- حسن أحمد محمود/أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، دون تاريخ.
- 61- الحسن بن محمد النيسابوري، عقلاء المجانين، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1405 هـ/1985 م.
- 62- حسين خالفي، البلاغة وتحليل الخطاب، دار الفرابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2011م.
- 63- حسين عطوان، شعر مروان بن أبي حفصة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 2005م.
- 64- حسين محمود نصار ومساعديه، الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، الطبعة الأولى، 1431هـ/2010م.
- 65- الحسين بن مطير الأسدي، الديوان، جمع: حسين عطوان، طبع مجلة المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية، دون طبعة، 1969م.
- 66- الحصري، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
- 67- الحميري، أبو عبد الله، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، 1980 م.
- 68- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1986م.
- 69- الحنبلي، صفى الدين، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412 هـ.
- 70- ابن حوقل، محمد، البغدادي الموصل، أبو القاسم، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، دون طبعة، 1938م.
- 71- الخزرجي، جمال الدين ، بدائع البدائه، مصر، دون طبعة، 1861م.
- 72- الخصري، محمد بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية، تحقيق: محمد العثماني، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1406هـ/1968م.
- 73- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417 هـ.
- 74- الخطيب البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1977م.
- 75- الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنتر، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ/1992م.

- 76- الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1985م.
- 77- الخفاجي، ابن سنان، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1402هـ/1982م.
- 78- الخفاجي، عبد المنعم، شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، المطبعة الوهبية، العراق، دون طبعة، 1282هـ.
- 79- خفاجي، عبد المنعم، الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.
- 80- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ/1988م.
- 81- ابن الخلكان، شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، 190م.
- 82- أبو داود، السنن، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
- 83- الداودي، شمس الدين، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، دون طبعة وتاريخ.
- 84- دعبل الخزاعي، الديوان، شرحه حسن السيد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1994م.
- 85- دياب الإلتيدي، نواذر الخلفاء المشهور بـ «إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس»، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز سالم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1425 هـ/2004 م.
- 86- الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الأولى، 1960 م.
- 87- الذهبي، شمس الدين تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2003م.
- 88- الذهبي، شمس الدين، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998 م.
- 89- الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1405 هـ/1985 م.
- 90- الذهبي، شمس الدين، العبر في خبر من غير، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
- 91- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ.
- 92- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، 1420هـ/2009م.

الفهارس العامة

- 93- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، 1401 هـ / 1981 م.
- 94- الزبيدي، أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الثانية، دون تاريخ.
- 95- الزبيدي، المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، دون طبعة وتاريخ.
- 96- الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، 2002 م.
- 97- الزمخشري، جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1419 هـ / 1998 م.
- 98- الزمخشري، جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407 هـ.
- 99- الزوزني، حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء، تحقيق: محمد محي الدين بن محمد سالم، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دون طبعة، 2003 م.
- 100- زيدان جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
- 101- الساعي الخازن البغدادي، نساء الخلفاء، تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف، مصر، دون طبعة وتاريخ.
- 102- السري بن أحمد الرفاء، المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، تحقيق: مصباح غلا ونجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دون طبعة، 1407 هـ / 1986 م.
- 103- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزو، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1407 هـ / 1987 م.
- 104- سلمى سليمان علي، المرأة في الشعر الأندلسي - عصر الطوائف - مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دون طبعة، 2001 م.
- 105- السلمي، أبو عبد الرحمن النيسابوري، طبقات الصوفية، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ / 1998 م.
- 106- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
- 107- السيد الحميري، الديوان، شرح وتحقيق: شاكر هادي شكر، طبعة المكتبة الحيدرية، دون تاريخ.
- 108- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، الطبعة السابعة عشر، 1412 هـ.
- 109- السيد أبو المعاطي النوري، أحمد عبد الرزاق عيد، محمود محمد خليل، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1417 هـ / 1997 م.
- 110- ابن سيده المرسي، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1417 هـ / 1996 م.
- 111- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ / 2000 م.

الفهارس العامة

- 112- السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، دون طبعة وتاريخ.
- 113- السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م.
- 114- السيوطي، جلال الدين، المستظرف من أخبار الجوارى، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية، 1996 م.
- 115- السيوطي، جلال الدين، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ.
- 116- السيوطي، المقامات، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، الطبعة الأولى، 1289 هـ.
- 117- الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد، الديارات، تحقيق: كوكيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، 1951م.
- 118- ابن شاعر، محمد بن شاعر بن أحمد بن عبد الرحمن بن هارون الملقب بصلاح الدين، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1974م.
- 119- أبو الشمقمق، الديوان، تحقيق: واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م.
- 120- شوقي ضيف، الحب العذري عند العرب، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 1999م.
- 121- شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، الطبعة الثالثة، دون تاريخ.
- 122- شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، دون تاريخ.
- 123- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة عشر، 1966م.
- 124- شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثانية، 1975م.
- 125- شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1977م.
- 126- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، الطبعة الحادية عشرة، دون تاريخ.
- 127- الصدي، عبد الرحمن بن يونس، تاريخ ابن يونس المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ.
- 128- صريع الغواني، مسلم بن الوليد، الديوان، صححه حين أحمد البناء، مكتبة المعاهد العلمية، مصر، بدون طبعة وتاريخ.
- 129- صفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية، منشورات مكتبة المثني، بغداد، الطبعة الخامسة، 1977م/1397هـ.
- 130- الصفي، صلاح الدين خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، دون طبعة، 1420هـ/2000م.
- 131- صلاح عبد الصبور، قراءة جديدة لشعرنا القديم، منشورات إقرأ، دار السلام، الطبعة الأولى، 2006م.

- 132- صليبا جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دون طبعة، 1979 م.
- 133- الصولي، أبو بكر، الأوراق قسم أخبار الشعراء، شركة أمل، القاهرة، دون طبعة، 1425 هـ.
- 134- الطالب، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1420 هـ/1999م.
- 135- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، 1387 هـ.
- 136- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ/2000 م.
- 137- ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، دون طبعة وتاريخ.
- 138- ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1418 هـ/1997 م.
- 139- طه إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الفيصلية، مكة المكرمة، دون طبعة، 2004م.
- 140- طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة عشر، 1964م.
- 141- طه حسين، في الأدب الجاهلي، مكتبة فاروق، الطبعة الثالثة، 1933م.
- 142- العباس بن الأحنف، الديوان، تحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1373 هـ/1954م.
- 143- ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، دون طبعة، 1412 هـ/1992م.
- 144- عبد الحميد شاكر، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد289، 2003م.
- 145- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1404 هـ.
- 146- عبد العظيم علي قناوي، الوصف في الشعر العربي، شركة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1949م.
- 147- ابن العجمي، أبو ذر سبط، كنوز الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، الطبعة الأولى، 1417 هـ.
- 148- عبد الحكيم حسان، الأدب المقارن والتراث الإسلامي، مكتبة الأدب، القاهرة، دون طبعة، 1998 م.
- 149- عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، مطبعة الرسالة، مصر، دون طبعة، 1955م.
- 150- عبد الحكيم الوائلي، موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين، دار أسامة، الأردن، عمان، دون طبعة، 2001م.
- 151- عبد الشافي محمد عبد اللطيف، السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، 1428 هـ.
- 152- عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعبوية، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1962م.

الفهارس العامة

- 153- عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، دون طبعة وتاريخ.
- 154- عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، دار النهضة العربية، بيروت، دون طبعة، 1407هـ/1987م.
- 155- عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، دون تاريخ.
- 156- عبد الله سلوم، الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية 1980م.
- 157- أبو العتاهية، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، 1406هـ/1968م.
- 158- ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دون طبعة وتاريخ.
- 159- ابن العربي، محاضرة الأبرار ومسايرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، 1906م.
- 160- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، مصر، القاهرة، الطبعة السابعة، دون تاريخ.
- 161- ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، دون طبعة، 1415هـ/1995م.
- 162- أبو العلاء المعري، الفصول والغايات، ضبط وتفسير: محمود حسن زناتي، مطبعة حجازي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1356هـ/1938م.
- 163- علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام الجاهلي، الدولة العربية والدولة العباسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1960م.
- 164- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، طبعة دار التراث الأول، 1412هـ/11991م.
- 165- علي بن جهم، الديوان، تحقيق: خليل مروم بك، منشورات دار الأفق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ/1980م.
- 166- أبو علي الفالي، الأمالي، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، 1344هـ/1926م.
- 167- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 1406هـ/1986م.
- 168- عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1975م.
- 169- عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، طبعة مزيدة، دون تاريخ.
- 170- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، لبنان، الطبعة الرابعة، 1981م.
- 171- شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبوظبي، الطبعة الأولى، 1423هـ.
- 172- غازي يموت، بحور الشعر العربي، دار الفكر البناني، لبنان، الطبعة الثانية، 1996م.

الفهارس العامة

- 173- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيت، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دون طبعة، 2012م.
- 174- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، دون طبعة، 1399هـ/1997م.
- 175- أبو الفداء، عماد الدين بن عمر بن شاهنشاه، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، دون تاريخ.
- 176- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، دون طبعة وتاريخ.
- 177- فوزي عيسى وفوزي أمين، في الأدب العباسي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دون طبعة، 2008م.
- 178- فوزي عيسى، في الشعر العباسي، دار المعرفة الجامعية، دون طبعة، 2007 م.
- 179- ابن الفوطي الشيباني، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق: محمد الكاظم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، الطبعة الأولى، 1416هـ.
- 180- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، قاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، 1426 هـ/2005 م.
- 181- ابن قتيبة الدينوري، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1992 م.
- 182- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، دون طبعة، 1423هـ.
- 183- ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، 1418 هـ.
- 184- قدامة بن جعفر، أبو الفرج، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
- 185- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ/1964 م.
- 186- القرطبي، أخبار الدول وأثار الأول، تحقيق: أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1412هـ/1992م.
- 187- القزويني، أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
- 188- قزيحة رياض، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1998م.
- 189- القطيعي، عبد المؤمن، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ.
- 190- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
- 191- ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ، 1988 م.

الفهارس العامة

- 192- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، 1420هـ/1999م.
- 193- كثير عزة، الديوان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، دون طبعة، 1394هـ/1971م.
- 194- الكلداني، أديشير، الألفاظ الفارسية المعربة، طبعة اليسوعيين، بيروت، 1908م.
- 195- لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م.
- 196- ابن ماجة القزويني، السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، دون طبعة وتاريخ.
- 197- مالك بن أنس، الموطأ، صححه ورقمه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دون طبعة، 1406هـ/1985م.
- 198- مؤنس حسين، الحضارة، سلسلة عالم المعرفة العدد (1)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دون طبعة، 1978م.
- 199- مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م.
- 200- محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1999م.
- 201- محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، دون طبعة وتاريخ.
- 202- محمد سعيد الدغلي، أحاديث غزلة، منشورات مكتبة أسامة، دمشق، الطبعة الأولى، 1895م.
- 203- محمد العبد، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، مدخل لغوي أسلوب، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1988م.
- 204- محمد عوني عبد الرؤوف، القافية والأصوات اللغوية، مكتبة الخانجي، مصر، دون طبعة أو تاريخ.
- 205- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، مكتبة نهضة مصر، دون طبعة أو تاريخ.
- 206- محمد فتوح أحمد، شعر المتنبي قراءة أخرى، دار المعارف، مصر، 1983م.
- 207- محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، بيروت، دار الشروق، الطبعة الخامسة، 1398هـ/1978م.
- 208- محمد مصطفى هداره، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، دون طبعة، 1963م.
- 209- ابن مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ/2003م.
- 210- المرتضى، الشريف علي بن الحسين الموسوي العلوي، أمالي المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة، الطبعة الأولى، 1373هـ/1954م.
- 211- المرزباني، معجم الشعراء، تصحيح وتعليق: ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1402هـ/1982م.

- 212- المرزباني، الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م
- 213- المرزوقي، أبو علي، أحمد بن محمد بن الحسن، شرح ديوان الحماسة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م.
- 214- المرزوقي، الأصفهاني، الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ.
- 215- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ/2005م.
- 216- مسكويه، أبو علي أحمد بن يعقوب، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: أبو القاسم إمامي، سروش، طهران، الطبعة الثانية، 2000م.
- 217- مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
- 218- مصطفى السيوفي، تاريخ الأدب في العصر العباسي، الدار الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008م
- 219- مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، 1997م.
- 220- المُطَرِّزِيّ، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي، المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي، بدون طبعة وتاريخ.
- 221- ابن المعتز، عبد الله بن محمد، أبو العباس، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، دون تاريخ.
- 222- ابن المعتز، البديع في البديع، دار الجيل، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م.
- 223- ابن المعتز، كتاب البديع، تحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1433هـ/2012م.
- 224- المقرئزي، تقي الدين، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ.
- 225- منصور النمري، الديوان، تحقيق الطيب العشاش، دار المعارف، دمشق، دون طبعة، 1401هـ/1981م.
- 226- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ/1994م.
- 227- ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1402هـ/1984م.
- 228- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دون طبعة وتاريخ.
- 229- ناصيف إميل، أروع ما قيل في المديح، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.

الفهارس العامة

- 230- ابن النديم، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1417هـ/1997م.
- 231- أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة، 1409هـ.
- 232- أبو نواس، الديوان، تحقيق: ايفالد قاغنز، دار النشر فرانز شتاينر، دون طبعة، 1492هـ/1972م.
- 233- نور الدين السد، الشعرية العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون طبعة، 1995م.
- 234- النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1423هـ.
- 235- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون طبعة وتاريخ.
- 236- أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ديوان المعاني، دار الجيل، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
- 237- أبو هلال العسكري، الأوائل، دار البشير، طنطا، الطبعة الأولى، 1408هـ.
- 238- الهمداني، بهاء الدين، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 11418هـ/1998م.
- 239- هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، دون طبعة وتاريخ.
- 240- الوشاء، الموشى، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر، مطبعة الاعتماد، الطبعة الثانية، 1371هـ/1953م.
- 241- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت، دون طبعة، 1988م.
- 242- الياضي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م.
- 243- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ/1993م.
- 244- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1995م.

فهرس الموضوعات

| الصفحة | الموضوع |
|---------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| | مقدمة |
| 51-1 | المدخل أ- الحضارة: المصطلح والمفهوم ب- نظرة تاريخية عن قيام الدولة العباسية ج- المؤثرات العامة في حضارة العصر العباسي الأول |
| 120-52 | الفصل الأول: معالم الحضارة المادية في شعر العصر العباسي الأول |
| 68-53 | المبحث الأول: القصور |
| 78-69 | المبحث الثاني: البرك والأنهار |
| 86-79 | المبحث الثالث: الزهريات والروضات |
| 93-87 | المبحث الرابع: الثياب |
| 98-94 | المبحث الخامس: الحلي |
| 107-99 | المبحث السادس: العطور |
| 119-108 | المبحث السابع: الأطعمة والأشربة |
| 167-120 | الفصل الثاني: معالم الحضارة المعنوية في شعر العصر العباسي الأول |
| 134-122 | المبحث الأول: الاحترام |
| 148-135 | المبحث الثاني: الود |
| 158-149 | المبحث لثالث: التعفف |
| 167-159 | المبحث الرابع: الزهد |
| 210-168 | الفصل الثالث: معالم الحضارة الاجتماعية في شعر العصر العباسي الأول |

| | |
|---------|-----------------------------------|
| 181-171 | المبحث الأول: الاحتفالات والأعياد |
| 189-182 | المبحث الثاني: اللهو والمجون |
| 199-190 | المبحث الثالث: التغني بالشعبوية |
| 210-200 | المبحث الرابع: الفكاهة |
| 317-211 | الفصل الرابع: الدراسة الفنية |
| 241-212 | المبحث الأول: بناء القصيدة |
| 255-242 | المبحث الثاني: الألفاظ والتراكيب |
| 287-256 | المبحث الثالث: الصور والأخيلة |
| 317-288 | المبحث الرابع: الأوزان والقوافي |
| 320-318 | الخاتمة |
| 325-321 | فهرس الآيات القرآنية |
| 327-325 | فهرس الأحاديث النبوية الشريفة |
| 350-328 | فهرس القوافي |
| 363-351 | فهرس المصادر والمراجع |
| 365-364 | فهرس الموضوعات |

الملخص :

يعد القرن الثاني الهجري العصر الذهبي للحضارة العباسية التي تكونت من مزيج من الحضارات الأخرى، مما أكسبها التفوق والاستمرار، فقد توافرت في العصر العباسي الأول أسباب رقي الحضارة وازدهارها مما جعل الشعراء يصفون معالمها الحضارية بطريقة فنية وإبداعية تؤكد أن خلفاء بني العباس وأمراءهم قد شجعوا هذه المظاهر الحضارية المادية، المعنوية والاجتماعية، حيث خلّدت هذه الأشعار ذكر مجموعة كبيرة من الخلفاء كالمهدي، الرشيد، المأمون وغيرهم ...

لذلك سعت هذه الأطروحة إلى الكشف عن المعالم الحضارية كما تتجلى في شعر العصر العباسي الأول، والبحث عن العلاقة بين الشعر والحضارة العباسية في هذا القرن، ومدى مواكبة الشاعر للمعالم الحضارية في عصره، وقدرته على تصويرها والتعبير عنها، آخذين بعين الاعتبار كون الشعر وثيقة حضارية لتلك المرحلة الزمنية.

الكلمات المفتاحية: الحضارة، العصر العباسي الأول، المعالم الحضارية، المدونة الشعرية.

Abstract

The second century of Hijra is considered as the golden age of Islamic culture, because the Abbasid empire was founded from different civilizations such as Persian, Greek and Indian, and during this time of governance that the reputation and power of the dynasty was created in order to maintain the excellence and continuity. Also during this period many causes of the civilizational prosperity have existed, which made the poets describe those appearances in a creative and artistic way.

With all of the changes that took place in the Arab empire under the Abbasids, it is no surprise that the Abbasid caliphs had encouraged this civilizational revolution that touched all aspects of life, including the physical one. It should be noted also that a large number of the Abbasid caliphs mentioned in the poems like al-Mansour, al-Rashid and El maamoun.

Therefore this study is trying to detect the various cultural and civilizational appearances through the poetry of the first Abbasid era, and to know the relationship between the poetry and the Abbasid Civilization in this century. In addition to this, it determines the ability of the poets to keep up with the great progress in all fields, this thesis touches also their competence to reflect their new society.

Keywords: civilization, the first Abbasid period, cultural appearances, the poetry of the first Abbasid era.

Résumé :

Tout le monde sait que le deuxième siècle de l'égire est considéré comme l'âge d'or de la civilisation Abbasside, car il se compose de multiples cultures, ce qui l'a aidée à atteindre l'excellence et la continuité.

Durant cette période, l'empire Abbasside constitue un espace culturel, politique, économique et architectural où va se déployer une civilisation brillante. Cette prospérité culturelle qui marqua si durablement les esprits a poussé les poètes Abbassides à décrire toutes les apparences culturelles de cette ère d'une manière artistique et créative, ce qui fait preuve que les califes Abbassides furent les premiers à encourager cette révolution civilisationnelle relative au côté physique, moral et social, et là il est nécessaire de signaler que les poètes ont mentionné de nombreux califes Abbassides dans leurs poèmes tel qu'El Mahdi, Arachide et El- Maamoun...

Pour tous cela cette thèse se veut axée sur les apparences culturelles qui existaient dans les poèmes de la première époque abbasside, puis tenter à découvrir la relation entre la poésie et la civilisation de cette ère, et s'assurer que les poètes étaient bien compatibles avec ces apparences culturelles, ainsi qu'il était capable à décrire tous ces éléments, tout en prenant en considération la poésie telle qu'un document historique.

Mots-clés: civilisation, la première époque abbasside, les apparences culturelles, la poésie de la première ère abbasside.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد
UNIVERSITÉ DE TLEMÇEN



كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

ملخص ورقي لأطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة والأدب العربي

تخصص: الدراسات اللغوية في ضوء التواصل الحضاري

الموضوع:

المعالم الحضارية للتواصل اللغوي في العصر العباسي الأول

- المدونة الشعرية أنموذجا -

إشراف: أ.د عبد الجليل مرتاض

إعداد الطالب: بلقاسم سيدي محمد

السنة الجامعية: 2019/2018

مقدمة:

ازدهرت الحركة الشعرية والأدبية في العصر العباسي الأول بفعل عملية الامتزاج بين المجتمعات والعناصر المختلفة وانتقال الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة وتبلور الخلافات السياسية والمذهبية بين الفرق الإسلامية مع بعضها البعض من جهة، ومع غيرها من جهة أخرى، فضلاً عن تشجيع الخلفاء والحكام للشعراء في بغداد، والمدن الأخرى، إذ لمع في سماء الأدب العباسي شعراء كثر أمثال بشار بن برد، أبو نواس، أشجع السلمي وغيرهم...

لقد أثرت الحضارة العباسية على أغراض الشعر ومقاصده، وأخيلته ومعانيه، فانعكس عصر الترف والغنى والثروة، عصر القصور والملذات على مرآة الشعراء الذين تحولوا عن الوقوف على الأطلال و وصف الصحاري المجذبة والجبال والوهاد إلى وصف القصور الشاهقة والمناظر الحضرية الخلابة، إذ شكلت تلك القطع الشعرية البديعة فناً حضارياً جديداً، يسعى الشاعر من خلاله إلى بث الحنين إلى وطنه وقصوره ومقتنياته، وكثيراً ما كان يمزج نشوته تلك بنشوة الحب، أو الخمر وسماع القيان، فكان يحسن تصوير فنتته بها وبقصورها وورودها ورياحينها.

ولا غرو أن الانقلاب العباسي مع ما رافقه من طغيان العنصر الأجنبي، قد أحدث هزة عنيفة في الكيان العربي، ولم يكن من السهل انصهار العقليات المختلفة في وقت سريع مما هيا لنشأة صراع حضاري ما فتئ أن تحول إلى صحوة و انفتاح على الآخر. و بناء عليه فما مدى تأثير شعر العصر العباسي الأول بالمعالم الحضارية التي شهدتها الخلافة العباسية آنذاك؟ وما هي أهم الآثار الناجمة عن التواصل الحضاري الذي عرفته الحياة الأدبية عامة، و الشعر على وجه الخصوص باعتباره دستور العرب؟

1- قيام دولة بني العباس :

ينتسب البيت العباسي إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - و كان مولده قبل الهجرة بنحو خمسين سنة، ونشأ في مكة وأصبح من وجوهها، و من سادة قريش و اشتهر بسداد الرأي والكرم و العطف على الفقراء، و تولى في الجاهلية منصب السقاية، كما تولى أيضاً عمارة المسجد الحرام.¹

وتجدر الإشارة إلى أن دولة العباسيين قامت على عواتق العجم من الفرس والموالي، وقام بهذا الكيان العظيم أبو مسلم الخراساني الذي يعده المؤرخون رجل الدولة، وصاحب الدعوة والذي تم على يده الفتح، فقد تبنى الدعوة منذ نشأتها، ولما كسب قلوب الناس وكثر الهرج والمرج، ونما الشر وثار الفتن في عهد مروان بن محمد، الملقب بالحمار آخر خلفاء بني أمية، واضطرب حبل الدولة واختلقت كلمتهم وقتل بعضهم بعضاً استغل أبو مسلم ذلك وأظهر دعوة بني العباس وجهاز جيشاً عرمرماً لقتال نصر بن سيار أمير خراسان ثم توالى الوقائع الحربية معه ومع غيره من أمراء خراسان حتى ظهر أبو مسلم عليهم ودخل العراق ثم سلم الأمر إلى السفاح فتولى الخلافة سنة اثنتين و ثلاثين و مائة للهجرة.²

و مهما تكن الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة الأموية، فإن الانقلاب العباسي في حقيقة أمره ثورة اجتماعية غيرت من صورة المجتمع العربي التي كان عليها أيام بني أمية إلى مجتمع إسلامي جديد، تعيش فيه أمة إسلامية تضم إلى جانب العنصر العربي عناصر أجنبية، وبخاصة الفرس، ارتفعت منزلتها الاجتماعية حتى تفوقت على العرب، و استطاعت أن تفرض وجودها ونفوذها في المجتمع العباسي، و أن يكون لها دورها الفعال في تطويره، و التأثير فيه في شتى جوانبه، حتى صبغ المجتمع بالصبغة الفارسية.

¹ ينظر الزركلي الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 2002 م، ج3، ص: 262.

² ينظر ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، ط1، بيروت، 1418 هـ / 1997 م، ج1، ص 143.

2- معالم الحضارة المادية في شعر العصر العباسي الأول :

أ- القصور :

لم يتفنن أحد كتفنن العباسيين في قصورهم وخاصة بعدما استقام لهم الأمر، واستقرت الأوضاع وزادت الأموال ، وفاض الترف . فقد ذكر البغدادي أن المنصور لما عزم على بناء مدينة بغداد أحضر مهرة المهندسين، وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالزرع والمساحة وقسمة الأرضين ، وحُذِّق الصناع والحدادة والحفر، ثم اختطها وجعلها مدورة ، حتى قيل : أنه لا يعرف في الدنيا كلها مدينة مدورة سواها.³ وقد وصفها الشاعر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي بقوله⁴:

أَعَايَنْتَ فِي طُولِ مِنَ الْأَرْضِ وَالْعَرْضِ كِبَغْدَادَ دَاراً إِنَّهَا جَنَّةُ الْأَرْضِ
صَفَا الْعَيْشُ فِي بَغْدَادَ وَأَخْضَرَ عُوْدَهُ وَعَيْشُ سِوَاهَا غَيْرُ صَافٍ وَلَا غَضٌّ

و كان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أول من شاد الأبنية و القصور ، إذ بنى قصر القبة الخضراء ليحول أذهان الناس إلى ضرورة بناء القصور تماشياً و متطلبات الحضارة الجديدة ، و بنى الجوامع و الحصون و القصور في بغداد كقصر الخلد و قصر باب الذهب و غيرهما ، و أخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع ، واقتدى بهم وزراءهم و أمراؤهم ، فأقاموا قصورا فخمة تعرف بأسماء بناتها ، كقصور البرامكة في الشماسية، و قصر ابن الخطيب ، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد ، و قصر بني خلف بالبصرة ، و قصر عيسى بن علي و هو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور ، و قصر وضاح الذي بناه رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي، و قصر الرشيد و قصر الأمين، و قصر ابن الفرات ، و قصر ابن مقلة غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة و دار القرار.⁵

ب- البرك والأنهار :

كان من الطبيعي أن تلقى البرك والأنهار جزءاً فسيحاً من الاهتمام الحضاري الذي صنعه الحاكم والمحكوم في الدولة العباسية، تلك الدولة الحضارية الحقة، خاصة وأن عاصمتها بغداد تمثل بيئة ساحرة خلاصة تحفها الخضرة، وتخرق أراضيها الأنهار، وتتفجر قيعانها بالعيون والينابيع، ومعلوم ما حبا الله به تلك المدينة من جمال الطبيعة وتعدد الأنهار وخصب الأرض وصلاح التربة، فلا غرابة بعد هذا أن تُصنع الترعة، وتُحفر القنوات، وتبنى القناطر، وتقام الجسور، وأن يتفنن البناؤون والمهندسون في شق البرك وتسويرها وتزيينها ، والاهتمام بها حتى أصبحت تلك البرك علماء لبعض الأمكنة ، لا تعرف إلا بها . ناهيك عن البرك التي لا يخلو منها قصر من القصور ، وبركة المتوكل وهائية البحثري خير شاهد على ذلك .

أما الأنهار فقد كثرت بصورة لافتة، وتفنن المهندسون في شق الترعة المنبتقة منها، وأقيمت عليها القناطر والجسور، بل وأقيمت الدكاكين والأسواق على جوانب بعضها، حتى غدت علماء على بعض الأمكنة. والتفت القرى والدور والرياض حول معظمها، كنهْر القلَّائين، وسمي بذلك لتجمع باعة السمك وقيامهم بقلبه هناك ، وهي محلة كبيرة ببغداد في شرقي الكرخ⁶. وكنهر عيسى بن علي بن عبدالله بن

³ ينظر البغدادي، تاريخ بغداد ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، ط1، بيروت، 1417 هـ ، ج1 ، ص:88.

⁴ المصدر السابق ، ج1، ص:89.

⁵ ينظر زيدان جرجي ، تاريخ اليمن الإسلامي ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ج2 ، ص:624.

⁶ ياقوت الحموي ، معجم البلدان، دار صادر ، ط2 ، بيروت، 1995، ج5، ص:322.

العباس: وهي كورة وقرى كثيرة وعمل واسع في غربي بغداد يعرف بهذا الاسم ، ويذكر ياقوت أن مأخذه من الفرات عند قنطرة ديمما ثم يمر فيسقي طسوج فيروز سابور حتى ينتهي إلى المحول ثم تنفرع منه أنهار تخرق مدينة السلام، ثم يمر بالياسرية ثم قنطرة الرومية وقنطرة الزياتين وقنطرة الأشنان وقنطرة الشوك وقنطرة الرمان وقنطرة المغيض هكذا إلى أن يصب في دجلة ، وفي نهر عيسى يقول بعض شباب بغداد⁷:

في نهر عيسى والهواء مُعْبِرٌ
والطَّيْرُ إِمَّا هَاتِفٌ بِقَرِينِهِ
وعرائس السَّرِّ التَّحْفَنُ بِسُنْدُسٍ
والغصن مهزوزُ القَوَامِ كأنها
والدهرُ كالليلِ الْبَهِيمِ وَأَنْتُمْ
نَبَهُ بَنِي اللَّذَاتِ وَاهْتَفَّ فِيهِمْ
والماء فضي القميص صَقِيلٌ
أو نَادِبٌ يَشْكُو الْفِرَاقَ تَكْوِلٌ
ورقصنَ فارتفعت لهن دُيُولُ
دَارَتْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّمَالِ شَمُولُ
عُرْرٌ تُنِيرُ ظِلَامَهُ وَحُجُولُ
بِتَيْقُظٍ: إِنْ الْمُقَامَ قَلِيلٌ

ج- الزهريات و الروضيات :

لقد أكثر شعراء العصر العباسي الأول وكتابه من وصف الرياض وما تحويه من أنواع الزهور والورود والرياحين . ولهم في هذا المعنى قولهم : "روضة رقت حواشيها، وتأنق واشيها . روضة كالعقود المنظمة ، على البرود المنمنمة ، روضة قد راضتها كف المطر، ودبجتها أيدي الندى ، أخرجت الأرض أسرارها وأظهرت يد الغيث آثارها وأبدت الرياض أزهارها . الرياض كالعرائس في حليها وزخارفها ، والقيان في وشيها ومطارفها ، باسطة زرابيها ، وأنماطها ، ناشرة حبراتها ورياطها ، زاهية بحمرائها وصفرائها. روضة قد تضوعت بالأرج الطيب أرجاؤها وتبرجت في ظل الغمام صحراؤها، وتنافحت بنوافح المسك أنوارها ، وتعارضت بغرائب النطق أطياريها"⁸.

وقد كان أكثر شعراء العصر العباسي الأول يشبهون محاسن من يحبون بالزهر والروض و في ذلك يقول بشار بن برد⁹:

ولها وراد العَدائر كالكُر
وحديت كأنه قَطْعُ الرو
م سَوَاداً قَدْ حَانَ مِنْهُ انْتِهَاءُ
ضِي زَهْنُهُ الصَّفراءُ وَالْحَمراءُ

د - الثياب والحلي :

لقد تأثر العباسيون بالفرس كثيرا من حيث الاهتمام باللباس و هو ما فعله بعض الخلفاء إذ قرر أبو جعفر المنصور لبس القلانس التي لم تكن معهودة من قبل بالصورة التي أقرها وأمر بها ، مما دعا

⁷ ياقوت الحموي، المصدر السابق و الصفحة نفسها .

⁸ ينظر الحصري، زهر الآداب وثر الألباب ، تحقيق الدكتور، زكي مبارك، دار الجيل ، ط 4 ، بيروت ، (بدون تاريخ) ، ج 2 ، ص 576 ، 577.

⁹ بشار بن برد ، الديوان ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 ، ج 1 ، ص 144.

أبا دلامة إلى القول¹⁰ :

وَكُنَّا نُرَجِّي مَنَحَةَ مِنِّ إِمَامِنَا فَجَاءَتْ بِطُولِ زَادِهِ فِي الْقَلَانِسِ
تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرَّجَالِ كَأَنَّهَا دِنَانُ يَهُودٍ جُلَّاتٍ بِالْبَرَانِسِ

وكان الناس يلبسون تلك القلانس صيفاً وشتاءً، عندما يريدون الدخول على الخلفاء وعلى الأمراء . قال الجاحظ " وقد يلبس الناس الخفاف والقلانس في الصيف كما يلبسونها في الشتاء إذا دخلوا على الخلفاء وعلى الأمراء وعلى السادة والعظماء؛ لأن ذلك أشبه بالاحتفال ، وبالتعظيم والإجلال ، وأبعد من التبذل والاسترسال وأجدر أن يفصلوا بين مواضع أنسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم"¹¹.

ومن أنواع الثياب أيضاً، ثياب موشاة بالذهب تلبسها النساء وتسمى (الزُّبْرَج). قال بشار في أرجوزته المعروفة يصف فتاة تحلت بتلك الثياب¹²:

وَاهَا لِأَسْمَاءِ ابْنَةِ الْأَشَدِّ قَامَتْ تَرَاعَى إِذْ رَأْتَنِي وَخَدِي
كَالشَّمْسِ بَيْنَ الزُّبْرِجِ الْمُنْقَدِّ سُلْطَانَ مُبَيِّضٍ عَلَى مُسْوَدِّ
ضُنَّتْ بِخَدِّ وَجَلَّتْ عَن خَدِّ ثُمَّ انْتَنَّتْ كَالنَّفْسِ الْمُرْتَدِّ

ومن تحضر القوم وتفننهم أن كتبوا على تلك الرياش والملابس العبارات اللطيفة، والأشعار العذبة، في الود والعتاب والشكوى ولوعة الحب، وما شابه ذلك، وكأن كل عبارة أو بيت شعر تعبر عما في نفس صاحباها ، ومن أمثلة ذلك ما كتب على قلنسوة إحدى جواري المأمون¹³ :

يا تارك الجسم بلا قلب إن كان يهواك فما ذنبي
يا مفرداً بالحسن أفردتني منك بطول الشوق والكرب

وقد تناول الشعراء الحلي بوصفها زينة للمرأة ، تزيدها بهاء وجمالاً، فتسحر العيون، وتستولي على القلوب، وبقدر تعدد حلي المرأة وتنوعها ، يكون تحضرها وترفعها ، وقد لا يتوفر ذلك إلا في ربات القصور، فإنهن أقدر على تملك الجواهر، وأكثر ترفاً وتنعماً وفي ذلك يقول بشار بن برد¹⁴:

يَمَشِي الْهُوَيْئَا كَالنَّزِيهِ فِإِ لِبْهُرِهِ وَهُوَ الْحَمِيدُ
وَعَلَى التَّرَائِبِ دُرَّةٌ فِيهَا الزُّبْرِجُ وَالْفَرِيدُ
وَنَقَّارِسُ قَدِ زَانَهَا حَاقُّ غَدَائِرُهَا تَصِيدُ

¹⁰ الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق إحسان عباس ، المجلد الأول ، دار صادر ، ط1 ، بيروت ، 2002/1423 ، ج10 ، ص: 189 .

¹¹ الجاحظ ، البيان والتبيين ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ، 1423 هـ ، ج3، ص:77.

¹² ديوان بشار بن برد ، ج2 ، ص: 222 .

¹³ الوشاء ، الموشى ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، شارع عبد العزيز، مصر - مطبعة الاعتدال ، ط2، 1371 هـ - 1953 م ، ج1 ، ص: 162.

¹⁴ ديوان بشار بن برد ، ج2 ، ص: 215،216.

وَأَغْنَنَ يَحْفُلُ عُصْفُورًا وَكَأَنَّه جَمْرٌ وَقُودٌ
وَالْفُرطُ فِي مَهْلُوكَةٍ مَجْرَاهُ مِنْ جَبَلٍ بَعِيدٍ

استطاع بشار بن برد أن يبرز معالم حضارة عصره من خلال تلك الحلي في سهولة لفظية ومآخذ قريبة، ووزن راقص عصري، هو مجزوء الرجز، الذي تتغنى به الخاصة والعامة؛ لسهولة وظرفه.

وتجدر الإشارة إلى أن النساء في عصر بني العباس اتخذن من الخلاخل والأساور الفضية زينة لهن، ومن كمال الزينة أن تغطص الذراعان والساقان بتلك الحلي، وفي ذلك قال صريع الغواني¹⁵ :

بَارَزْتُهِ وَسِلاخُهُ خَلْأَلُهُ حَتَّى فَضَضْتُ بِكَفِّي الْخَلْأَلَا
هَذَا الْخِيَالُ فَكَيْفَ لِي بِمُنْعَمٍ رُودَ الشَّابَابِ تَخَالُفُهُ تِمْنَالَا
صَمَّتْ خَلَاخِلُهُ وَغَصَّ سَوَارُهُ وَالْقَلْبُ وَاضْطَرَبَ الْوَشَاخُ وَجَالَا

3- معالم الحضارة المادية في شعر العصر العباسي الأول:

من المظاهر المعنوية التي اكتسبها المجتمع العباسي نتيجة احتكاكه بغيره من الأمم الأخرى وانفتاحه على الآخر: الود، التقاهم، رقة التعامل، العفة، الاحترام والانسجام الاجتماعي، وإن كانت تلك المعالم من السمات الثابتة التي لا يخلو منها أي مجتمع بشري، غير أن التقدم الحضاري الذي بلغته دولة بني العباس في القرن الثاني الهجري، له الأثر الواضح على تلك المبادئ الإنسانية.

أ- الاحترام:

تبنى العلاقات في الإسلام على احترام الآخرين، وإنزالهم منازلهم ما لم يوقعوا أنفسهم في مواطن الذلة، ويكتبوا على أنفسهم بأفعالهم الخزي والعار، والاحترام المتبادل هو سمة العلاقة بين الكبير والصغير، والغني والفقير، والقائد والرعية، وحتى مع الخصوم والأعداء لا تخلو العلاقة من احترام، وقد حثنا النبي صلى الله عليه وسلم على التعامل بهذا الخلق، فقال: "إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد"⁽¹⁶⁾.

والاحترام بالمعنى السابق، من الصفات المعنوية للعصر العباسي الأول، وقد أسهمت في تحضر أفرادها، بسبب ما كان يجري بين كثير من أولئك الأفراد من التقدير والإعجاب وتبادل الثناء والمدح، والإشادة بجهود المساهمين في بناء حضارة القرن، من الخلفاء والأمراء والولاة والوزراء والقادة وغيرهم من رجال السياسة، على أن الوسط الاجتماعي لم يعدم هذه الخصلة بين أفرادها، فقد كان للعلماء احترامهم وتقديرهم من الحاكم والمحكوم، وقل مثل ذلك عن المصلحين والدعاة والشعراء والأدباء والكتاب وغيرهم.

¹⁵ ديوان صريع الغواني، تحقيق د. سامي الدهان، دار المعارف، ط2، مصر، (بدون تاريخ)، ص: 201.
⁽¹⁶⁾ - أخرجه أحمد في سننه: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، دون طبعة وتاريخ، باب البراءة من الكبر والتواضع، حديث رقم 4179، ج2/ ص: 1399.

وأول شخصية حازت على الاحترام والإعجاب، ونالت حسن الثناء حتى من الأعداء، في عصرنا هذا شخصية الخليفة هارون الرشيد، رغم اختلاف المصادر التاريخية بشأن ورعه وتقواه.

وهذا أبو العتاهية يثني على هارون ويشيد بعدله وورعه وتقواه، ومدى ما يتمتع به من تقدير واحترام في عيون الناس، فيقول⁽¹⁷⁾:

إِمَامَ الْهُدَى أَصَبَحْتَ بِالدِّينِ مَعْنِيَا
لَكَ اسْمَانِ شَقَا مِنْ رَشَادٍ وَمِنْ هُدَا إِذَا مَا
سَخِطْتَ الشَّيْءَ كَانَ مُسَخَّطًا بَسَطْتَ لَنَا
شَرْقًا وَغَرْبًا يَدَ الْعُلَا
وَوَشَّيْتَ وَجَهَ الْأَرْضِ بِالْجُودِ وَالنَّدَى
وَأَنْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَى النَّقْصَى
وَأَصَبَحْتَ تَسْقِي كُلَّ مُسْتَمَطِرٍ رِيًّا
فَأَنْتَ الَّذِي تُدْعَى رَشِيدًا وَمُهْدِيًّا
وَإِنْ تَرَضَ شَيْئًا كَانَ فِي النَّاسِ مَرَضِيًّا
فَأَوْسَعْتَ شَرْقِيًّا وَأَوْسَعْتَ غَرْبِيًّا
فَأَصَبَتْكَ وَجَهَ الْأَرْضِ بِالْجُودِ مَوْشِيًّا
نَشَرْتَ مِنَ الْإِحْسَانِ مَا كَانَ مَطْوِيًّا

ب- الود:

إن المحبة إذن تفران وتفاهم وتضحية، وتقريب للأبدان والأرواح واتفاق في النظرة، وتحمل للكلفة، لذلك تقارب الواصفون للمودة في مفهومها، وفي وصفها، فقد سأل عنها المأمون ذا الرياستين⁽¹⁸⁾، فقال: "يا أمير المؤمنين، إذا تقادحت جواهر النفوس المتقاطعة بوصل المشاكلة، انبعثت منها لمحة نور تستضيء بها بواطن الأعضاء، فنتحرك لإشراقها طبائع الحياة، فيتصور من ذلك خلق حاضر للنفس، متصل بخواطرها، يسمى الحب"⁽¹⁹⁾.

أما شعراء الغزل والود فقد جادت القريحة عندهم إلى درجة الإفراط؛ حتى ليخيل أنه لم يبق شاعر إلا ونظم في هذا الغرض، على تفاوت بينهم بطبيعة الحال. فالغزل هو حديث الفتيان والفتيات أو اللهو مع النساء، بينما التغزل التكلف بذلك⁽²⁰⁾. ومن الشعراء الذين تفجرت مشاعرهم وجادت قرائحهم بأجمل القصائد الغزلية أبو عبيدة المهلب الذي قال في محبوبته فاطمة بنت عمر المكناة بدنيا⁽²¹⁾:

مَا لِقَابِي أَرْقَ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ
وَلِدُنْيَا عَلَيَّ جَنُونِي بِدُنْيَا
نَزَلْتَ بِي بَلِيَّةً مِنْ هَوَاهَا
قَلِّ لِدُنْيَا إِنْ لَمْ تَجْبِكْ لِمَا بِي
فَعَلَامَ انْتَهَرْتَ بِإِلَهِ رَسَلِي
أَيُّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتَهُ لَيْتَ شِعْرِي
وَلِحَبِي أَشَدَّ مِنْ كُلِّ حَبٍ !
أَشْتَهِي قَرْبَهَا وَتَكْرَهُ قَرْبِي
وَالْبَلَايَا تَكُونُ مِنْ كُلِّ ضَرْبٍ
رَطْبَةٌ مِنْ دَمِوعِ عَيْنِي كَتَبِي
وَتَهَدَدْتَهُمْ بِحَبْسٍ وَضَرْبٍ
كَانَ هَذَا جَزَاءَهُ أَيُّ ذَنْبٍ

(17) - أبو العتاهية، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، 1406هـ/1968م. ص: 489.

(18) - هو الفضل بن سهل، لقبه المأمون (بذي الرياستين) ومعنى ذلك رئاسة الحرب، ورئاسة التدبير، أو رئاسة السيف ورئاسة القلم، وهو أول وزير لقب، وأول وزير اجتمع له اللقب والتأثير وهو من أولاد ملوك الفرس المجوس، وكان قهرمانا ليحيى بن خالد، وكان أبوه سهل مجوسياً فأسلم في أيام الرشيد، وكان الفضل سخيلاً كريماً، كان يقال له الوزير الأمير، انظر ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ج1/ص: 218.

(19) - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1404 هـ، ج2/ص: 167.

(20) - ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ/1994م، مادة (غزل)، ج11/ص: 492.

(21) - انظر الأصفهاني، الأغاني، ج20/ص: 30.

ج- التعفف :

إن العفة من أجل الأخلاق وأسامها، وأفضل الخصال وأعلاها، ثمها باسق، وجمالها متناسق، لا يتناهى ثوابها ولا يضاهى فضلها، ويمكن تعريف العفة بأنها: "الكف عما لا يحلّ ويجمل، عَفَّ عن المحارم والأطماع الدنية، يَعِفُّ عِفَّةً وَعَفَاً وَعَفَافاً، وَعِفَافَةٌ فَهُوَ عَفِيفٌ وَعَفٌّ، أَي كَفٌّ، وَتَعَفَّفَ وَاسْتَعْتَفَ وَأَعَفَّهُ اللهُ"⁽²²⁾.

ومن عفة أبي جعفر المنصور، أنه كان ميالاً إلى الرأفة والعمو رغم ما أثر عنه من الحزم وشدة البأس، ومن عادة الكريم إذا قدر غفر، ومن سمات العقلاء والصالحين أنهم يتعففون عن جعل العقوبة شيمتهم بل يعفون ويصفحون، إلا أن يكون حداً من حدود الله سبحانه، فعند ذلك لا هوادة.

وقد ذكر ابن طباطبا⁽²³⁾ أن المأمون كان يتحلى بهذه الصفة، فقد كان حليماً حسن الصبح يعرف بذلك، هجاه دعبل الخزاعي بأشعار كثيرة منها قوله⁽²⁴⁾:

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشِرْفَتَكَ بِمَقْعَدِ
شَادُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طَوْلِ خُمُولِهِ وَاسْتَنْفَذُواكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

فلما بلغه قوله لم يزد على أن قال: "قاتله الله ما أشدَّ بهتانه!"⁽²⁵⁾

د- الزهد:

إن تيار الزهد في العصر العباسي الأول ظاهرة تقليدية، ليست خاصة بهذا العصر فحسب، فلم يكن شعراء هذه الحقبة من ابتدعه، حيث يمكن تتبع أصوله إلى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - والتماسها في بعض المأثور من حديثه، إذ أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - رجل فقال: يارسول الله، دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبنى الناس، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس"⁽²⁶⁾.

ومن الشعراء الزهاد أبو العتاهية الذي رزقه الله دفع الأحاسيس منذ نعومة أظافره، وغرس في نفسه جمال الكلمة التي تمكنه من نظم الشعر، فقد كان ذا لباقة وحصافة، معتدا بموهبته، إذ سئل عن نفسه، فقال: "أنا جرّار القوافي، وأخي جرّار التجارة"⁽²⁷⁾.

(22) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (عفف)، ج9/ص:253.

(23) - هو محمد بن علي بن محمد بن طباطبا العلوي، أبو جعفر المعروف بابن الطقطقي، ولد سنة ستين وستائة للهجرة، من أهل الموصل، مؤرخ، باحث، ناقد، صاحب كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، توفي سنة تسع وسبعائة للهجرة، انظر الزركلي، الأعلام، ج6/ص: 283، ويكر بن عبد الله أبو زيد، طبقات النساين، دار الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1407هـ/1987م، ص: 137.

(24) - ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ج1/ص: 26.

(25) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(26) - أخرجه ابن ماجة في سننه، باب الزهد في الدنيا، الحديث رقم 4102، ج2/ص: 1373.

(27) - الأصفهاني، الأغاني، ج4/ص: 10.

وقد ركز أبو العتاهية على فكرة أن الموت آتٍ لا محالة، فهو حقيقة حتمية سيتجرعها كل حيٍّ على وجه الأرض، وأن الدنيا دار بلاء وشقاء وعناء، من سرّة زمن ساءته أزمان، والمغرور فيها من يظن أن القوة والصحة دائمتان، فالمرء عليه أن يغتنم شبابه قبل هرمه، وحياته قبل موته، فمن أراد الثواب فليقل خيراً أو ليصمت، وفي هذا الصدد يقول أبو العتاهية⁽²⁸⁾:

مَنْ يَعِشْ يَكْبُرُ وَمَنْ يَكْبُرْ يَمُتْ
نَحْنُ فِي دَارِ بَلَاءٍ وَأَذَى
وَالْمَنَائِيَا لَا تَبَالِي مَنْ أَتَتْ
وَشَقَاءٍ وَعَنَاءٍ وَعَنْتِ
سَالِمًا إِلَّا قَلِيلًا إِنْ ثَبِتَ
لَوْ نَهَيْتِ النَّفْسَ عَنْهُ لَانْتَهَتْ
إِذْ قَالَ خَيْرًا أَوْ سَكَتْ
رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ

اعتمد الشاعر أسلوب الشرط ليؤكد للإنسان حتمية الموت، موظفا قافية التاء الساكنة التي تتلائم ورهبة الموقف، ذلك أن الموت قريب من الإنسان، بل هو أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، وكأس الموت لا بد لكل إنسان أن يشربه.

5- معالم الحضارة الاجتماعية في شعر العصر العباسي الأول:

تغيرت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول عما كانت عليه، فقد ظهرت منذ بداية القرن الثاني بوادر تؤذن بتعدد مظاهر الحياة الاجتماعية لأهل العصر، فبعد أن بدأ القرن بعهد عمر بن العزيز الميمون وبإصلاحاته الاجتماعية المشهورة سرعان ما تبدلت الأمور فانغمس بعض خلفاء بني أمية في اللهو والبعد عن مصالح الرعية، ثم توالى تلك المظاهر والحروب والفتن التي لم يستقر معها وضع اجتماعي مألوف إلى أن ظهرت الدولة العباسية التي تطورت فيها الحياة الاجتماعية تطوراً واضحاً.

أ- الاحتفالات والأعياد:

إن الدارس للحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول، يجدها حافلة بالمناسبات الاجتماعية العامة والخاصة، إذ كانت هذه الفترة من أفضل الفترات التي مرت على المسلمين، فقد وصلت الخلافة حينئذ إلى أعلى درجاتها علماً وأدباً وقوة.

ولما استقام الأمر لبني العباس، واحتفل الناس بمقدمهم، قام السيد الحميري⁽²⁹⁾ إلى السّفاح حين نزل من المنبر فأنشده⁽³⁰⁾:

دُونَكُمْ هَا يَا بَنِي هَاشِمٍ
دُونَكُمْ هَا لَا عَلاَ كَعَبُ مَنْ
فَجَدُّوْا مِنْ عَهْدِهَا الدَّارِيسَا
كَانَ عَلَيْكُمْ مُلْكُهَا نَافِيسَا
لَا تُعْدِمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَابِيسَا
دُونَكُمْ هَا فَالْبِيسُوْهَا تَاجِهَا

(28) - أبو العتاهية، الديوان، ص: 73.

(29) - هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، كان شاعراً طريفاً، حسن النظم، مطبوعاً جداً، محكم الشعر مع ذلك، وكان أحق الناس بسوق الأحاديث والأخبار والمناقب في الشعر، لم يترك لعلني بن أبي طالب عليه السلام فضيلة معروفة إلا نقلها إلى الشعر، انظر ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، دون تاريخ، ج1/ص: 23.

(30) - الأصفهاني، الأغاني، ج7/ص: 185.

لو خَيْرُ المنبِرُ فُرْسَانَهُ
 قد سَأَسَهَا قَبْلَكُمْ سَأَسَةً
 ما اخْتَارَ إلا مَنْكُمُ فَارِسَا
 لم يَتْرَكُوا رَطْباً ولا يَابِسَا
 مَهْبِطِ عَيْسَى فيكُمْ أَيَسَا

وقد كان لشعر السيد الحميري أثر كبير في نفس السفاح، الذي ابتهج وسر بما سمع، من حث الشاعر بني هاشم على التثبث بالخلافة التي رأها حقاً لهم دون غيرهم وأمرهم بالتزامها، وتجديد معالمها، وبما سمع من الدعاء على من كان قبلهم - ويعني بهم بني أمية - الذين كانوا ينافسون بني هاشم على حقهم في الخلافة، ومن ذلك الدعاء قول الشاعر "لا علا كعب" أي لا شرفه الله ولا أسعده.

ب- اللهو والمجون:

استفحل أمر اللهو واللاهيين في المجتمع العباسي الأول بعد تثبيت أركان الدولة العباسية، فتحوّلت الحياة الاجتماعية من طور الجد والكفاح إلى طور آخر يتناسب مع تلك الحياة الناعمة والمترفة اللاهية وساعد على ذلك تغلغل العناصر الفارسية في هذه الحياة بما جلبته من أدوات لهو ومجون.

ومن مظاهر اللهو والمجون تلك المجالس الخاصة بالطرب والشراب والتي أصبحت من المشاهد اليومية المتكررة في العصر العباسي الأول، إذ أن الناس كانوا شغوفين بها خلال هذه الحقبة، فجنحوا إلى الغناء وسماع الإيقاع والموسيقى.

وقد أكد ابن خلدون من خلال مقدمته أن صناعة الغناء قد كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابنه حماد، وكان ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد وأمعنوا في اللهو واللعب⁽³¹⁾.

كما ظهر الشذوذ، واللواط والتخنث في شريحة من المجتمع العباسي الأول، وانتشر الخصيان وخاصة في عهد الأمين، فقد ذكر أنه طلبهم وغالى فيهم، وصيرهم لخلوته ليل نهار، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية، وفرضاً من الحبشان سماهم الغرابية وأولع بهم وفضلهم على النساء، حتى قيل فيه⁽³²⁾:

ألا يا أيها الثاوي بطوس
 لقد أبقيت للخصيان هقلاً
 لهم من عمره شطر وشرط
 وما للغانيات لديه حظ
 إذا كان الرئيس كذا سقيماً
 عزيماً ما نفاذي بالنفوس
 تحمل منهم شؤم البسوس
 يعاقر فيه شرب الخندريس
 سوى التقطيب بالوجه العبوس
 فكيف صلاحاً بعد الرئيس

ج- التغني بالشعبية:

(31) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ/ 1988م.

ج 1/ص: 540.

(32) - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ / 1997م، ج 4/ص: 457.

لقد ارتبط ظهور الشعوبية في العصر العباسي، بجملة من العناصر الاجتماعية والسياسية، ذلك أن دخول غير العرب في الإسلام، واندماجهم في الحياة مع الناس، وتعلمهم للغة العربية قد أدى إلى وجود مجتمع غير متجانس خاصة إذا علمنا أن عددًا منهم دخل الإسلام ليتمكن من الانخراط في الحياة العامة، فقد ادعى الكثير منهم الإسلام وأبطن ديانته الأصلية.

والشعوبيون بهذا المعنى فريق من الناس لا يرون للعرب فضلاً على غيرهم، بل يذهبون إلى تنقصهم والحق من قدرهم⁽³³⁾، وهم في الغالب من الموالى والعجم الذين كانوا ينتمون على العرب، نتيجة للظروف النفسية والعرقية، ومنهم من لم يتمكن الإيمان في قلبه بعد الفتوحات الإسلامية وإن أظهر الإسلام، وقد ألف هؤلاء الكثير من الكتب والأشعار التي تسب العرب وتحتقرهم وتصفهم بالجفاء وعدم التحضر.

ومن الشعراء الذين تغنوا بالشعوبية في العصر العباسي الأول، بشار بن برد، فنجد في الأبيات التالية يتبرأ من ولائه للعرب قائلاً⁽³⁴⁾:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولى العريب فجد بفضالك وافخر
مولاك أكبرم من تميم كلها أهل الفعال ومن قرئش المعشر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر

د- الفكاهة:

لا مجال للشك في كون الشعر الفكاهي، بوصفه غرضاً فنياً جديداً، قد عبر عن الواقع الحضاري الإنساني الجديد خير تعبير من خلال مرحلتين: الأولى مرحلة الملهاة والفرح، والثانية مرحلة المأساة والقلق، بوصفهما تصوران الواقع الإنساني في الحالات السابقة، فالملهاة والفرح ينتجان عن الانسراح والسرور، ومن ثمة فإن الفكاهة على اختلاف أنواعها تعد ملهاة تبعد الإنسان عن الحياة الواقعية الجادة، وتنقله إلى عالم التفكه والدعابات والتوريات والألاعيب، فكأنه حلم من الأحلام السعيدة.

وقد انصرف شعراء الفكاهة في العصر العباسي الأول إلى تصوير مشاعر الفئات الفقيرة البائسة التي لم تخرج أولوياتها في الحياة عن توفير لقمة العيش، وما يتصل بها من أمور بسيطة، وخير من يمثل هذه الطبقة أبو فرعون الساسي⁽³⁵⁾، وله غير قطعة يصور فيها بؤسه، وبؤس أولاده الذين يعيشون حياة صعبة، لا يجدون فيها طعاماً أو لباساً، ويعرض حاله بأسلوبٍ ساخر، يثير في نفس القارئ الضحك والإشفاق معاً إذ يقول⁽³⁶⁾:

ليس إغلاقي لبابي أن لي فيه ما أخشى عليه السرقة
إنما أغلقه كي لا يرى سوء حالي من يمر الطرقة
منزل داخله الفقير فلو دخل السارق فيه سرقة

(33) - انظر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ص: 6.

(34) - ديوان بشار بن برد، ج4/ص: 62.

(35) - هو عدي بن الرباب من تميم، واسمه شويش، وكنيته أبو فرعون، أحد شعراء الطبقة الفقيرة، وكان من أفصح الناس وأجودهم شعراً، وأكثرهم نادرة، ولكنه لا يبصر عن الكدية، انظر ابن المعتز، طبقات الشعراء، ج1/ص: 375.

(36) - المصدر نفسه، ج1/ص: 376.

كان الشاعر يداري نفسه عن النَّاسِ حتَّى لا يروا مسكنه الذي يخلو من ضروريات العيش المتمثلة في الطَّعام والشراب، ومن أقلِّ ما يملكه البسطاء، ويسوِّغ سبب إغلاق بيته بأنه ليس فيه ما يُغري بالسرقة، ونلمح سخريته في قلب الحال، فلو دخل السارق بيته، لطمع أهل بيته في سرقة.

6- الدراسة الفنية:

أ- بناء القصيدة:

لقد ظهرت بوادر التجديد في الشعر منذ العصر الأموي، وهذا بسبب تغير الحياة الدينية والاجتماعية للمجتمع العربي، لكن البيئة العربية قد ازدادت تطوراً في العصر العباسي، حيث تعددت وسائل الترف وكثرت مجالس اللهو والطرب وقد ساعد على ذلك التغيير الذي أصاب المجتمع العربي من جميع النواحي احتكاكه بالثقافات المختلفة والمتباينة المنحدرة من الحضارات العريقة كالفارسية والهندية واليونانية، فظهرت ملامح ذلك الانقلاب بصورة جلية في القصائد الشعرية.

فالشعر ابن بيئته وإذا أراد الشاعر العباسي الذهاب إلى محبوبته، فهو لا يركب الناقة ولا يسائل الطفل عنها، ذلك أن الأغراض الشعرية القديمة لا تعبر عن كافة وجوه الحياة الحضرية والمدنية التي يعيشها، وبذلك أصبحت الحاجة ملحة للتغيير وللتعبير عن التجربة الصادقة التي يعيشها الشاعر.

وعليه فإن مقدمة القصيدة التي تشكل جزءاً من بنيتها قد نالها كثير من التطوير تماشياً مع تغير المجتمع وتمدنه، فلم يعد الشاعر يصف المفازة وبقايا الأرام ومكان خيام الأحبة التي طمست الرياح معالمها، وإن بقي من الشعراء من ينهج ذلك النهج فإنما هو تقليد للأقدمين وانتماء للقصيدة القديمة أو إرضاء للممدوح الذي ينتصر لتلك المقدمة أحياناً على أن أولئك وإن التزموا ذلك الأثر فإنهم قد أضافوا شيئاً من لوازم تحضرهم المشهود وواقعهم الحسي المشاهد الذي لم يعيشه شاعر الصحراء.

وأبو نواس نفسه يعترف ويصرح بعدم إيمانه بما يسمى المقدمة الطللية، ومع علمنا أن لذلك أثره في بنية القصيدة من تجدد في الوزن وتغيير في الألفاظ والتراكيب، وحادثة في التصوير، إلا أن الواقع يوافق أبا نواس في ذلك، فكما أن الشاعر القديم لا يصف إلا ما يراه فلماذا يتجشم الشعراء المحدثون وصف ما لم يروا، وإن سمعوا به؟

يقول أبو نواس وقد سجنه الخليفة على استشهاده بالخمير وسريانها في شعره⁽³⁷⁾:

| | |
|---------------------------------|-------------------------------|
| أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا | فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا |
| دعاني إلى نعت الطلول مسلط | تضيق ذراعي أن أرد له أمراً |
| فسمعاً أمير المؤمنين وطاعةً | وإن كنت قد جشمتني مركباً وعرا |

فصرح بأن وصفه للأطلال من خشية الإمام فقط وإلا فإن ذلك عنده سفه وجهل.

(37) - ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، 1401 هـ / 1981 م، الجزء الأول، ص: 232، وديوان أبي نواس، ج3/ ص: 153.

وقد شككت الثورة على الطلل ونقد الشعراء المقلدين مفتتحاً لقصيدة أبي نواس، فنجد هازناً مزدرباً لكل من يعرج على رسم يسائله، ويحرص على وضع ابنة الكرم بديلاً لهذا السلوك في مثل قوله⁽³⁸⁾:

صفة الطلول بلاغسة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ويتضح من خلال الأبيات السابقة موقف الشاعر الحاسم من قضية التقليد، فهو يعرض رأيه بقوة وثبات، ولا يكتفي بالدعوة لهدم القديم بل نجده يوفر بديلاً، فهو بدعوته إلى الخمر يشير إلى ضرورة أن يعيش الإنسان عصره، ويتفاعل معه ويعبر عنه، لا أن يقول أموراً لم يرها ولم يعرفها.

ب- الألفاظ والتراكيب:

إن الشكل هو وجه العمل الأدبي، ولهذا لا بد أن يكون جميلاً، لكي يجذب المتلقي إليه، ويكون بوابة ينفذ من خلالها إلى عالمه الفسيح.

وكلما أجاد الأديب صياغة الشكل في أعماله الأدبية كان أثرها في النفوس عميقاً ودلائتها على مضمونها قوياً، والشكل في العمل الأدبي يضم الألفاظ والتراكيب، وأسلوب صياغتها والصور الفنية والأداء الصوتي.

لقد اهتم شعراء العصر العباسي الأول بألفاظهم وأحسنوا استخدامها في مواضعها الصحيحة التي تتلائم مع المعنى المراد، ذلك أن الشعر عموماً قد اتجه خلال هذه الحقبة نحو السلاسة والوضوح، حيث جاءت المعاني ظاهرة مكشوفة والألفاظ مناسبة للأسلوب المولد الجديد الذي يمتاز بالرشاقة والعذوبة ودقة التعبير، على الرغم مما يحشد فيه من كلمات دخيلة، ولأبي نواس ما ليس لغيره من الشعراء في هذا المجال، فقد كان يسرف في استخدامه لبعض تلك الألفاظ، وقد جاء أغلبها من باب العبث واللهو والتجديد، إذ فطن ابن رشيقي إلى ذلك فقال: "وللشعراء ألفاظ معروفة، وأمثلة مألوفة، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها، إلا أن يريد الشاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمي، فيستعمله في الندرة، كما فعل الأعشى⁽³⁹⁾ قديماً وأبو نواس حديثاً"⁽⁴⁰⁾، من ذلك قوله⁽⁴¹⁾:

يل يطويه كف النهار
فرأينا النهار في الطرجهار⁽⁴²⁾
زينتها الأنواء بالانوار
من بياض من حسن خد العذار
جرحتـه نواظر النظـار
ساهر الليل من هوى الغدار

فأقمنا عليه حتى رأينا اللـ
وعكفنا على المدامة فيه
قم منا إلى يفاع رياض
جامعات لكل نوع غريب
وورود تزهر كحكرة خـد
بينها صفرة كصفرة صب

(38) - المصدر نفسه، ج3/ص: 265.

(39) - هو مهوم بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويسمى صناجة العرب، أدرك الإسلام ولم يسلم، وتوفي سنة سبع للهجرة، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، دون طبعة، 1423هـ، ج1، ص: 250، والزركلي، الأعلام، ج7/ص: 341.

(40) - ابن رشيقي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1/ص: 128.

(41) - أبو نواس، الديوان، تحقيق: إيفالد قاغتر، دار النشر فرانز شتاينر، دون طبعة، 1492هـ/1972م، ج3/ص: 355.

(42) - الطرجمار، طرجم، الطرجمالة: كالفنجانة معروفة، وقيل: طرجماره، انظر الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1407هـ/1987م، ج5/ص: 1751.

ج- الصور والأخيلة:

الصورة إحدى الظواهر الطبيعية، وهي إما حقيقة أو خيال، وقد جاء في لسان العرب: "الصورة في الشكل، والجمع صور، وقد صوره فتصور، وتصورت الشيء: توهمت صورته، فتصور لي، والتصاوير التماثيل، وصورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا، أي صفته"⁽⁴³⁾.

ويبدو أن شعراء العصر العباسي الأول كانوا أصحاب معان فريدة وصور خيالية باهرة، فهم زعماء مدرسة التجديد الشعري، إذ واكبوا مجريات عصرهم ونهضته الحضارية، وشهدوا الحركات الثقافية، فاستفادوا من فلسفة الشعوب وتجاربهم وحكمهم ومنطقهم، وحملوا أشعارهم بالأفكار والمصطلحات الأجنبية، وغاصوا يلاحقون المعاني والصور البعيدة ويطاردون الخيال، فجاءت أشعارهم عذبة الألفاظ، رقيقة العبارة، لمعانيها حلاوة، ولقرب مأخذها طلاوة، ولعل ذلك من أسباب تدوينها وانتشار صيتها.

ولا يخفى على أحد واقع الحياة العباسية آنذاك، فما أناستقرت الخلافة في بغداد حتى انصرف الناس إلى شيء من الغذاء الفكري يطربون لهذا اللون الجديد من الأدب والتفكير، فشهدت بغداد بحبوحه من العيش، خاصة طبقة الأغنياء والحكام التي استقطبت موائدهم كثيرا من الفنانين، وقد جاء صدى ذلك في كتب الأدب والنواذر ودواوين الشعر، فصورت جانبا كبيرا من حياة العصر العباسي الأول، ومثال ذلك قول أبي نواس⁽⁴⁴⁾:

سَلِيلَةَ أَسْوَدٍ، جَعَدٍ، سُخَامٍ
بِأَشْيَاخٍ مُعَمَّمَةٍ، قِيَامٍ
كَقَطْرِ الطَّلِّ فِي صَافِي الرِّخَامِ
لَهُ فَرُخَانٍ مِنْ دُرٍّ وَسَامِ
رَخِيمِ الدَّلِّ، مَلْثَوْغِ الكَلَامِ
وَأَحْيَانَا تَنْتَنِي كَالْحُسَامِ

أَلَا خُذْهَا كَمِصْبَاحِ الظَّلَامِ
أَشْبَهُهَا وَقَدْ صُفِّتْ صُفُوفًا
فَجَاءَتْ كَالدَّمْعِ صَافًا وَحُسْنًا
تَرَى إِبْرِيْقَنَا كَالطَّيْرِ سَامِ
وَخُذْ مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ، وَصَيْفِ
فَأَحْيَانَا تُقَطُّ بِحَاجِبِيهَا

فالشاعر في هذه التشبيهات يعرض لأبعاد حضارية عاصرها في بيئته، متمثلة في الكرمة التي عرفها العباسيون وأخذوا منها خميرتهم وهي هنا ذات عنب أسود، ثم الحديث عن الحلقات التي كان يعقدها علماء الكلام ورجال الدين في المساجد، وقد تحولت هذه المجالس من مجلس علمي إلى مجلس خمري، ثم حديثه عن الرخام كفعل تدليل على فن العمارة في العصر العباسي، ثم حديثه عن الجواري والساقيات والوصيفات اللواتي كن طبقة خاصة في المجتمع العباسي.

ومن النماذج الاستعارية في شعر صريع الغواني قوله⁽⁴⁵⁾:

(43) - انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (صور)، ج4/ص:473.

(44) - انظر ديوان أبي نواس، ج3/ص:279.

(45) - ديوان صريع الغواني، ص: 35.

فعاطاهم خمرا و عاطاءهم سحرا
و كان مدير الكأس أحسنهم سكرا وسادا له
منه الترائب و النحررا
ضمنا لها أن نعصي اللوم و الزجرا
ثدي عذارى لم تخف من يد كسرا

إذا ما أدار الكأس ثنى بطرفه
إلى أن دعا للسكر داع فموتوا
أدار علي الراح البيات فصيرت
سلكنا سبيلا للصبأ أجنبية
بركب خفاف من زجاج كأنها

لقد أكسب صريع الغواني في البيت الأول صفة المحسوس للسحر الذي يعد من المعنويات، إذ أحسن تصوير النظرات التي يرمق بها الساقى شاربى الخمر فتتحول سحرا مساويا لتأثير الخمرة التي تتساب في أوصال الندامى، وفي ذلك دلالة قاطعة على علاقة الشاعر الحميمة بالخمر، فهي عنده قرينة للمرأة التي طالما شغف بها وبجمالها.

د- الأوزان والقوافي:

يتفرد الشعر عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى بالموسيقى، إذ تترك في الوجدان أثراً عميقاً ممتعاً، مما يجعل الشعر أكثر رسوخا في الأذهان وأسرع تأثيراً في الوجدان، و"من أجل ذلك اتخذتها الإنسانية من القديم وسيلتها إلى التعبير عن عالمنا الوجداني تعبيراً تنتظم نسبه النغمية في توافق عجيب، ينطلق في داخلنا ويتداخل في كيان أحاسيسنا ومشاعرنا، فإذا هي تنزن، ونحس كأننا نعيش في جو حالم لا عهد لنا به من قبل"⁽⁴⁶⁾.

وإذا كانت الأوزان أعظم أركان حد الشعر، وأولاها به خصوصية فهو مشتمل أيضا على القافية التي تعتبر هي الأخرى شريكة الأوزان في الاختصاص بالشعر؛ فإن الشعر لا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية، كما هو معلوم، وتلك حقيقة أقرها ابن رشيق⁽⁴⁷⁾، وأدركها الشعراء.

وقد حافظت الأوزان والقوافي على أصولها المتجذرة في وجدان الإنسان العربي، إذ نظم شعراء العصر العباسي الأول في البحور الطويلة ويتأكد ذلك في أغراض المديح والفخر والرثاء وغيرها...، وإذا فرضنا جدلاً أنهم قد مالوا إلى الأوزان المجزوءة تبعاً لمقتضيات الحياة العصرية التي ألفوها، فإن ذلك لا يعني أنها من ابتكارهم ولكن الجديد في ذلك هو مغالاتهم في استخدام تلك الأوزان المجزوءة إلى درجة اعتقاد البعض أنهم أول من ابتدعها، وهم في ظاهر أشعارهم وباطنهم لم يخرجوا عن عروض الخليل خروجاً يسمح لنا باتهامهم بنبذ أوزان الشعر العربي وقوافيه.

والجديد في الأمر هو انصراف بعض شعراء الحضارة عن النظم في الأوزان الطويلة فإن اضطروا إليها جزؤها حتى توافق أنغام المغنين والمغنيات، وقد يتدخل المغنون أنفسهم في أشعار الشعراء فيجزؤون الأوزان الطويلة ويصيرونها كما يوافق رغباتهم وغنائهم، لذلك أحدثوا في الشعر كثيراً من الزحافات والعلل التي لم تكن منتشرة وانقاد الشعر إلى الأوزان السهلة مثل الخفيف والرمل والوافر والهزج والمتقارب تبعاً لتطور الأذواق التي أرهفتها حياة الحضارة الجديدة⁽⁴⁸⁾.

(46) - شوقي ضيف، فصول في الشعر وقده، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1977م، ص: 28.

(47) - انظر ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1/ص: 134.

(48) - انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة عشر، 1966م، ص: 193.

ويمثل شوقي ضيف لذلك التأثير الغنائي في الأوزان بقول أبي العتاهية⁽⁴⁹⁾:

| | |
|---------------|-----------------|
| عتب ما للخيال | خبريني وموالي |
| لا أراه أتاني | زائراً مذللي |
| لوراني صديقي | رق لي أو رثي لي |
| أوبراني عودي | لان من سوء حالي |

خاتمة

لقد شكّلت المعالم الحضارية في الشعر العباسي بصورة عامة أهمية بالغة للدارسين في مراحل زمنية مختلفة، فمن خلال الشعر اكتشف المهتمون والباحثون مفاصل التطور الحضاري من الناحية الاجتماعية، ولعل هذا البحث قد أثار السبيل وفتح الطريق للتعرف على جانب مهم من جوانب حياة الإنسان في عصوره الزاهية، وفيه إجابة لمن يزعم أن الإنسان العباسي كان يجهل معنى التحضر والمدنية. والطريف في هذا الأمر أن هذا البحث توصل عبر محطاته المختلفة إلى بلورة فكرة مهمة عن حياة العباسيين، فليس من المعقول أو المنطق أن يكون الإنسان مبدعاً في الشعر متميزاً في نظمه، ويكون عاجزاً عن بلورة وعيه للجانب المادي الذي يتعلق بمناحي الحياة المختلفة.

(49) - انظر شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، ص: 84.

مقدمة

الحمد لله على ترادف آلائه ونعمائه، ومزيد فضله وإحسانه، أحمده سبحانه وأشكره على جزيل عطائه، وجميل نواله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وفي أسمائه وصفاته، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، خير من عبد ربه حق عبادته، وشكره حق شكره، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار، وأصحابه الأخيار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

يعد القرن الثاني الهجري العصر الذهبي للحضارة العباسية التي تكونت من مزيج من الحضارات الأخرى، مما أكسبها التفوق والاستمرار، فقد توافرت في هذا العصر أسباب رقي الحضارة وازدهارها مما جعل الشعراء يصفون معالمها بطريقة فنية وإبداعية تؤكد أن خلفاء بني العباس وأمراءهم قد شجعوا هذه المظاهر الحضارية المادية والمعنوية، حيث خلدت هذه الأشعار ذكر مجموعة كبيرة من الخلفاء كالمهدي والرشيدي والمأمون وغيرهم...

ولا غرو أن الانقلاب العباسي مع ما رافقه من طغيان العنصر الأجنبي، قد أحدث هزة عنيفة في الكيان العربي، ولم يكن من السهل انصهار العقليات المختلفة في وقت سريع مما هياً لنشأة صراع حضاري ما فتئ أن تحول إلى صحوه وانفتاح على الآخر. وبناء عليه فما مدى تأثير شعر العصر العباسي الأول بالمعالم الحضارية التي شهدتها الخلافة العباسية آنذاك؟ وما هي أهم الآثار الناجمة عن التواصل الحضاري الذي عرفته الحياة الأدبية عامة، والشعر على وجه الخصوص باعتباره دستور العرب؟

أما عن أسباب اختياري لهذا الموضوع فتعزى إلى أنني لطالما كنت شغوفاً بالأدب العربي وفنونه المختلفة، فخوراً بمآثر العرب المسلمين على جميع الأصعدة، ولاسيما الثقافية منها، إذ شهد العصر العباسي الأول أكبر نهضة ثقافية في تاريخ الحضارة الإسلامية نتيجة امتزاجه بالأمم الأخرى من خلال الإسلام الذي شكل حضارة جديدة لتلك الثقافات المتعايشة في المجتمع العباسي وما يحويه من تحضر مادي ومعنوي، كان له الأثرُ البين في تأثر شعراء القرن الثاني للهجرة بما شاهدوه من تمدن مجتمعمهم، فقاموا بصورونه وبيدعون في التعبير عما يختلج في نفوسهم وما تجيش به قرائحهم اتجاه هذه الهزة الحضارية، فسجلت محابرتهم مفاخر أمتهم الحضارية بما فيها من ظرفٍ وأناقة وتقلب في النعيم، وتفنن في المعاش والأثاث والرياش.

ولقد كنت في أثناء قراءتي للأدب العربي في عصوره المختلفة أدقق النظر في أدب العصر العباسي الأول، وأقرأ بنهم ما كتبه الدارسون في شعر تلك الفترة، فاستهوتني النقلة الحضارية التي حظي بها الشعرُ في ذلك الزمن، ولفت نظري ما تضمنه من تصوير حضاري لمجتمعه في شتى مجالاته، وكان إيماني راسخاً بأن الأدب - شأنه شأن سائر العلوم والفنون - طريقة لنقل المعرفة في قالب مشوق وممتع، فلم أجد أجمل من اختيار مسمى يتناسب وتلك النهضة الحضارية، فطاب لي أن يسمى بحثي هذا "المعالم الحضارية للتواصل اللغوي في شعر العصر العباسي الأول" - المدونة الشعرية - أنموذجاً.

لا توجد دراسة مفردة عن المعالم الحضارية في شعر العصر العباسي الأول، ولكن هناك دراسات موجزة، لامست من بعيد بعض الشعر في هذا العصر، وأكثرها التصاقاً بالموضوع هي:

- وصف القصور في العصر العباسي من إعداد الطالبة: ثروت أحمد محمود وهدان من جامعة النجاح - فلسطين- حيث درست الباحثة معلماً واحداً من معالم التحضر في العصر العباسي والمتمثل في القصور التي خلد الشعراء ذكرها في قصائدهم، ناهيك عن اكتفائها بثلة من شعراء هذا العصر، تبعاً لمنهجها العام في الدراسة.

- ملامح الحياة الاجتماعية في العصر العباسي من خلال شعر ابن الرومي من إعداد الطالبة: هويدا الطريفي الإمام علي بن عوف من جامعة الخرطوم -السودان- ولم تدرس صاحبة هذا البحث سوى شاعر واحد بدت معالم الحضارة العباسية واضحة في شعره، وقد قصرتها على الشق الاجتماعي فقط.

وقد ركزت الدراستين السابقتين على جوانب محددة من معالم الحضارة العباسية الطافحة في شعر العصر العباسي، وبذلك ظل هذا الموضوع مفتوحاً للدراسة من أجل الكشف عن جوانبه المهمة ووضعه في المكانة اللائقة به، فلعل دراستي هذه - إنشاء الله تعالى- سوف تقوم بذلك.

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التكاملي، فجمعت بين المنهج التاريخي الملائم لمثل هذا النوع من المواضيع، خاصة وأنه يعالج حقبة مشرقة من حقب التاريخ الإسلامي، فيوضح العلاقات بين الأشخاص والأحداث والزمان والمكان، إلى جانب المنهج الوصفي الذي يعنى بوصف الظواهر الطبيعية والاجتماعية وتحليلها وتعليلها وتحديد العوامل المؤثرة فيها، فيكون بذلك مكماً لسابقه، ناهيك عن اعتمادي على المنهج الاستنباطي الذي يقوم على تأمل المعالم الحضارية في شعر العصر العباسي الأول باعتباره عصراً متفرداً ودراستها تفسيراً ونقداً واستنباطاً للوصول إلى حقيقة تأثر شعراء هذا العصر بواقع المجتمع الجديد القائم على التحضر الذي مس مناحي الحياة العباسية المختلفة.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة أوجزت فيها سبب اختياري للموضوع، ثم تمهيد يحدد، بشيء من الشرح والتفصيل المعنى اللغوي والاصطلاحي لمفهوم الحضارة، فنبذة عن قيام الدولة العباسية العظيمة، مع الإشارة إلى أهم عوامل التحضر في المجتمع العباسي آنذاك، ثم قسمت الرسالة إلى أربعة فصول، وخاتمة، فجاء أول هذه الفصول بعنوان: معالم الحضارة المادية في العصر العباسي الأول، والمتمثلة في القصور والبرك والأنهار، ومستلزمات المجتمع من الثياب، والأطعمة والأشربة والعمارة والحلي وغيرها مما يعكس تحضر المجتمع، وأقف في ذلك كله مع الشعر العربي متأماً جماليته، في أناقة وجمال، وحس تصوير لتلك المظاهر الحضارية المتعددة.

أما الفصل الثاني فخصته للإحاطة بالحياة المعنوية التي يتسم بها أفراد المجتمع العباسي المتحضر، كالتعفف والود والاحترام والرقي في التعامل والعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، والتي أبدع شعراء هذه الحقبة الزمنية المشرفة في وصفها وإبرازها، وانتقاء التراكيب العذبة للتعبير عنها وتوظيف الصور والأخيلة التي تناسبها.

وخصت الفصل الثالث للحديث عن معالم الحياة الاجتماعية في شعر العصر العباسي الأول، والمتمثلة في الاحتفالات والأعياد التي استمدت من واقع البيئة التي غلب عليها طابع

الانفتاح على ثقافة الغير وما صاحبه من لهو ومجون انعكس على الحياة الأدبية آنذاك، فاستحدثت أغراض شعرية جديدة أهمها التغني بالشعبية وشعر الفكاهة.

أما الفصل الرابع فأفردته للدراسة الفنية الخاصة بذلك الإبداع الشعري الذي نظم في ظل تلك الثورة الحضارية، فخلدّها وأحسن تصويرها فأثر فيها، وتأثر بها، فكان له سماتٌ مميّزةٌ في بناء القصيدة وألفاظها، وتراكيبها، وأخيلتها وصورها.

وقد اعتمدت في جمع مادة هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع فكانت في مجملها أدبية تاريخية.

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أحمد الله على توفيقه ومنّه وكرمه، ولطفه، وأرجو من الله أن يكون بحثي هذا إضافة إلى ما سبقه من دراسات في هذا المجال. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

Introduction

The second century of Hijra is considered as the golden age of Islamic culture, because the Abbasid empire was founded from different civilizations such as Persian, Greek and Indian, and during this time of governance that the reputation and power of the dynasty was created in order to maintain the excellence and continuity. Also during this period many causes of the civilizational prosperity have existed, which made the poets describe those appearances in a creative and artistic way.

With all of the changes that took place in the Arab empire under the Abbasids, it is no surprise that the Abbasid caliphs had encouraged this civilizational revolution that touched all aspects of life, including the physical one. It should be noted also that a large number of the Abbasid caliphs mentioned in the poems like al-Mansour, al-Rashid and El maamoun.

Therefore this Abbasid coup, accompanied by the tyranny of the foreign element, caused a violent shake-up in the Arab entity, and it was not easy to merge different mindsets in a fast time, which led to the emergence of a civilizational struggle that has been transformed into awakening and openness to the other. Accordingly, how much was the first Abbasid poetry influenced by the cultural features witnessed by the Abbasid Caliphate at the time? What are the most important effects of the civilized communication that literary life has known in general, and poetry in particular as the Arab constitution?

As for the reasons for my choice of this subject, it is attributed to the fact that I have always been passionate about Arab literature and its various arts. I am proud of the achievements of the Arab Muslims at all levels, especially the cultural ones. The first Abbasid period witnessed the greatest cultural renaissance in the history of Islamic civilization. A new civilization of those cultures coexisting in the Abbasid society and its material and moral materialization, had a significant impact on the influence of poets of the second century of Hijra, as they saw the civilization of their society, so they portrayed and innovate in expressing what is confused in them, Shake civilization, they recorded the glories of their nation civilization, including the circumstance of elegance and volatility in bliss, and the work of art in the pension, furniture and feathers.

During my reading of the Arabic literature in its different ages I studied the literature of the first Abbasid period, and read what they wrote in the poetry of that period. I was struck by the cultural shift that prevailed in poetry at that time, and drew my attention to the cultural portrayal of its society in all its fields, And it was my firm belief that literature - like other sciences and the arts - a way to transfer knowledge in a form interesting and enjoyable, I did not find a beautiful selection of a suitable name for that cultural renaissance, I called my

research: "cultural features of linguistic communication in the first Abbasid poetry" Code of poetry - model.

There is no single study of the cultural features of the first Abbasid poetry, but there are brief studies, which touched on some of the poetry of this era, and most relevant to the subject are:

- Description of the palaces in the Abbasid era by the student: Tharwat Ahmed Mahmoud Wahdan of An-Najah University - Palestine - where the researcher studied one of the landmarks of urbanization in the Abbasid era, which is mentioned by poets.

in addition to this, the student is satisfied with a few poets of this age, according to the general approach in the study.

- The features of social life in the Abbasid era through the poetry of Ibn al-Roumi prepared by the student: Huwayda Tarifi Imam Ali bin Auf from the University of Khartoum - Sudan - The author of this research studied only one poet, and The features of the Abbasid civilization were evident in his poetry, and were limited to the social aspect only.

The two previous studies focused on specific aspects of the Abbasid civilization in the Abbasid poetry, and this subject remained open to study in order to reveal its important aspects and put it in its proper place. Perhaps this study will do so.

In this study, we have followed the integrated approach, combining the appropriate historical approach to this type of subject, especially as it deals with a bright era from the history of Islamic history, clarifying the relationships between people, events, time and place, as well as the descriptive approach that describes, analyzes, Not to mention my dependence on the deductive approach, which is based on the contemplation of cultural features in the poetry of the first Abbasid period as a unique era and study it as an explanation and critique, and in order to reach the reality of poets of this age By the new society based on urbanization, which touched the various aspects of Abbasid life.

This study is divided into an introduction in which I explained the reason for my choice of the subject, and then a preface that explains, with some details, the linguistic and the traditional meaning of the concept of civilization. Then an overview of the great Abbasid state, with reference to the most important factors of urbanization in the Abbasid society. And then divided the thesis into four chapters, and the conclusion.

The first of these chapters was entitled: The physical features of civilization in the first Abbasid period, like: palaces, ponds, rivers, and the community's

necessities of clothes, food, perfumes, ornaments, etc., reflecting the urbanization of the society.

The second chapter was devoted to the moral life of the members of the civilized Abbasid society, such as moderation, friendliness, respect and progress in the social relations and relations between the members of society.

The poets of this period were created in the description of these aspects through the beautiful structures and images that suits them.

The third chapter was dedicated to talking about the social life features of the first Abbasid poetry, which was represented in the celebrations and festivals that were reflected in the literary life of the time.

The fourth chapter is devoted to the technical study of the poetic creativity that was written in that era, which had distinctive features in the construction of the poem and its words, structures and images.

I was adopted in the collection of the articles of this research on a range of historical and literary sources and references.

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى، أما بعد:

فبعد دراسة أهم معالم الحضارة في العصر العباسي الأول وعلاقتها بمضمون القصيدة، أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، وهي كالآتي:

- يعتبر العصر العباسي الأول من أزهى العصور الإسلامية، إذ تآزرت أسباب وعوامل كثيرة في إضعاف السلطة الأموية، منها ما كان داخليا في إطار البلاط الأموي، ومنها ما كان في إطار المجتمع الذي كان يهتف بحركات وأحزاب وأفكار ناقمة على الأمويين واتخذت لذلك وسائل كثيرة.
- صارت بغداد عاصمة الدولة العباسية بدلا من دمشق، وازدهرت الحياة فيها، وصار يؤمها الناس من كل حذب وصوب.
- كان النظام السياسي السائد في الدولة العباسية يحاكي بشكل واضح وجلي النظم السياسية والإدارية الفارسية، بدءا بالحكم المطلق الذي طبع بطابع ديني، مرورا بنظام الوزارة الذي استحدثه الخلفاء العباسيون، ووصولاً إلى نظام الدواوين الفارسية وتعددتها.
- كانت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول حياة ترف ونعيم، إذ انتقل المجتمع من الطابع البدوي الأعرابي إلى الطابع المدني الحضري، مما أثر بوضوح على موضوعات الأدب وبنيتة الفنية.
- ظهور طبقتين متميزتين في المجتمع العباسي: طبقة تنعم بالرخاء وسعة العيش، وأخرى ترزح تحت نير الفقر.
- تمتع العامة في العصر العباسي الأول بحرية مطلقة في الفكر والعيش، إلا من قيود ضرورية، حيث كانت المناقشات علنية حول الدين والأخلاق والمعارف، حتى صار المانوي يجادل المسلم في حلقات الدراسة أو الجوامع أو على صفحات الكتب، وبلغ من حرية الرأي أن تباينت الشروح التي وضعت للمبادئ الدينية تبايناً شديداً.
- ازدياد وهج نيران الشعوبية، حيث لم تقتصر المفاضلة فيها بين العرب والفرس، بل تجاوزته إلى المفاضلة بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى.
- ازدهار حركة العمران، من بناء للقصور المنيفة وشق للترع والأنهار الرقراقة وتشديد للبرك الاصطناعية وإقامة للحدائق والرياض الزاهية وتصميم للنافورات المبهرة والمساجد الفخمة.
- شيوع اللهو والمجون والزندقة عند طائفة من المجتمع العباسي الأول، نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى، مع محافظة الغالبية العظمى على القيم الإسلامية، إذ كانت متمسكة بفرائض الدين الحنيف وسننه وشعائره، ناقمة على أهل اللهو والشعبوية والزندقة.
- ألقى كل من الترف والفقر بظلاله على الشعر، حيث افتنن العباسيون المترفون بمعالم حضارتهم، فتأنقوا في ملبسهم ومأكلهم ومشربهم، واقتنوا الجوارح والقيان والغلمان،

وظهرت آثار المدنية وأمارات النعمة في كل جانب من جوانب حياتهم. أما عن أثر الفقر في المجتمع العباسي، فقد كان موازيا لسابقه، حيث أدى إلى استحداث أغراض جديدة لم يكن للعرب بها سابق عهد، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: شعر الكدية و التسول وتصوير الفقر والبؤس وغيرها.

• شهد العصر العباسي نهضة ثقافية متميزة، نتيجة احتكاك العرب بغيرهم من الثقافات والأمم الأخرى (الفارسية، اليونانية، الهندية)، والنقل منها عن طريق حركة الترجمة النشيطة آنذاك، وتشجيع الخلفاء للعلم والعلماء.

• تأثر القصيدة العباسية بمختلف العوامل السياسية والاجتماعية والعرقية والفكرية والحضارية، بل إن موضوع الانفتاح على الآخر ودخول عالم المدنية والتحضر كان مطية للتنظير للمذاهب والاتجاهات المختلفة، أو متنفسا يعبر الشاعر من خلاله على هموم طبقة أو طبقة معينة أخرى.

• ظهر في العصر العباسي اتجاهين شعريين متباينين: الأول ينهج نهج القدماء ويسلك طريقهم، والثاني يحاول الظهور بنهج شعري مستحدث يعبر عن عصره ومشاعر أصحابه.

• دفع التحضر شعراء العصر العباسي الأول إلى استحداث أسلوب مولد جديد، يعتمد لغة وسطية بين لغة البدو الزاخرة بغريب اللفظ، ولغة العامة المفعمة بالكلمات المبتذلة، أسلوب وسط بين الغرابة والإسفاف، يحافظ على خصوصية اللغة ومقوماتها النحوية والتصريفية، ويلائم بينها وبين واقع العباسيين وحياتهم المتحضرة.

• حاول شعراء العصر العباسي الأول عكس صورة مجتمعهم من خلال شعرهم، فصوروا جميع طبقاته في مناسباتها المختلفة وطرق عيشها المتباينة.

• كان أبو نواس أول من دعا إلى نبذ المقدمة الطللية في العصر العباسي الأول، واستبدالها بوصف الخمر والتغزل بها، مع أن البدء بهذه المقدمة لم يكن حكرا على هذا العصر، بل كان له جذور في الجاهلية، غير أنها لم تسجل اهتمام القدماء .

• أخذ شعراء العصر العباسي الأول يجردون في البناء الفني للقصيدة العربية تجديدات خطيرة وجريئة شملت الوزن الشعري وقافية البيت، كما شملت مضمون القصيدة، ووحدة البيت وافتتاحها وختامها.

• لعبت الظروف السياسية والاجتماعية والحضارية دورا فاعلا في انتشار بعض الأغراض الشعرية وتبوءها للصدارة مقارنة بباقي الأغراض الأخرى، على نحو ما رأينا من فنون المدح والرثاء والهجاء والغزل والزهد وغيرها...

• استقل غرض الوصف بقصائد عصماء بعد أن كان يدرج ضمن أغراض متعددة، إذ احتل القمة بين فنون الشعر، وساعده على ذلك طبيعة بغداد والبلاد المفتوحة التي تسحر الألباب وتسبي العقول، حيث لم يترك هذا الفن جانبا إلا وطرق بابها، فوصف شعراء العصر العباسي الأول الطبيعة وجمالها، واستحدثوا أغراضا جديدة لها صلة وثيقة بها، من ذلك مثلا الروضيات والزهريات والمائيات وغيرها...

• التحمت القصيدة بعد أن كانت أقساما لا يربط بينها رباط نفسي أو فكري إلا ما نذر، بل أصبحت بعض القصائد تدور حول موضوع واحد، كما كثر النقل من الحكم الفارسية و التآثر بالثقافات الأجنبية خاصة في مجال الفلسفة و المنطق و علم الكلام.

- بدأت معالم الصنعة اللفظية في القصيدة العباسية في وقت مبكر، وإن كان بشار بن برد وأبو نواس قد اهتمتا بها في شعرهما، فإن مسلم بن الوليد هو أول من اعتمد عليها، وأصبحت أساسا في شعره، فقد أكثر من استعمال ألوان البديع المختلفة من طباق ومقابلة وجناس وغيرها من فنون هذا العلم.
- اعتمد شعراء العصر العباسي الأول الأوزان الخفيفة في نظم قصائدهم، أما في مجال القوافي فقد ظهرت المزدوجات، كما نظم الشعراء الرباعيات والمسمطات والمخمسات، وجميعها أشكال مختلفة في استعمال القوافي.

Conclusion:

After studying the most important features of civilization in the first Abbasid period and its relation to the content of the poem, I record the most important findings that I have reached through this research, which are as follows:

- The first Abbasid period was considered one of the most beautiful Islamic times. Many reasons and factors contributed to the weakening of the Umayyad authority. Some of them were internal within the framework of the Umayyad court, including within the framework of a society that was surrounded by movements, parties and ideas that were offensive to the Umayyads.
- Baghdad became the capital of the Abbasid state instead of Damascus, and life flourished in it, and was led by people from all sides.
- The political system in the Abbasid state was clearly similar to the Persian political and administrative systems, starting with the absolute rule of the religious character, through the system of the ministry, which was developed by the Abbasid Caliphs, and the Persian system of Dawaween and its multiplicity.
- The social life of the first Abbasid period was a life of luxury and pleasure. The society moved from nomadic to urbanism, which clearly influenced the subjects of literature and its artistic structure.
- The emergence of two distinct classes in the Abbasid society: a prosperous and subsistence class, and others under poverty.
- In the first Abbasid period, the public enjoyed absolute freedom of thought and life, except for necessary restrictions. The discussions were public about religion, morality and knowledge. Even the Manawi argued in the study circles, mosques or on the pages of books. Religious principles have been sharply differentiated.
- The increase in the flames of populism, where not only trade between the Arabs and the Persians, but the differentiation between Arabs and other races.
- The boom in urbanization, from the construction of tall palaces, the construction of the canals, the glittering rivers, the construction of artificial ponds, the establishment of gardens,, the design of dazzling fountains, and the magnificent mosques.
- The prevalence of fun, insanity and heresy in a sect of the first Abbasid society, as a result of the mixing of Arabs with other nations, while maintaining the majority of the Islamic values, as they were adhering to the laws of religion and Sunnah and rituals, vow to the people of amusement and populism and heresy.
- The influence of both luxury and poverty on poetry, where the Abbasids fascinated with the characteristics of their civilization, they took care of their clothes, food and drink, they acquired also the Juari and the boys. And according to this, the effects of civilization and signs of grace appeared in every aspect of their lives. As for the impact of poverty in the

Abbasid society, it was parallel to the previous, which led to the development of new purposes did not have the Arabs of the past, including, but not limited to: the irony poetry and begging and portraying poverty and misery and others.

- The Abbasid period witnessed a distinct cultural renaissance, as a result of the friction of the Arabs with other cultures and nations (Persian, Greek and Hindi), the transfer of these civilizations through active translation at the time, and the encouragement of caliphs for science and scientists.
- The influence of the Abbasid poem on various political, social, ethnic, intellectual and cultural factors. The theme of opening up to the other and entering the world of civilization and urbanization was a ride for the endoscopy of different sects and trends.
- In the Abbasid era, two different trends emerged: the former approaches the ancients and follows their path, and the second tries to emerge with an innovative poetic approach expressing his age and the feelings of his companions.
- The urbanization of the poets of the first Abbasid period led to the development of a new method, which adopts a middle language between the language of the Bedouin, which is full of strange words, and the general language full of vulgar words, a middle style between strangeness and moderation.
- The first Abbasid poets tried to reverse the image of their society through poetry, and they reflected all its layers in its different occasions and ways of living.
- Abu Nawas was the first to call for the rejection of the Abbasid introduction in the first Abbasid period, and replaced it with the description of wine, although this introduction was not exclusive to this age, because it had roots in previous eras, but did not get the interest of the ancients.
- The first Abbasid poets developed in the artistic construction of the Arabic poem. They introduced serious and bold innovations, including poetic weight and rhyme of the poetic house, as well as the content of the poem, the unity of the house and its opening and closing.
- Political, social and cultural conditions have played an active role in the spread of some poetic purposes and their superiority over the rest of the other purposes, as we have seen from the arts of praise, lamentation, spelling, spinning, asceticism and others.
- The purpose of the description was acquired by individual poems after it was included for several purposes. This type was the top among the art of poetry. It was helped by the nature of Baghdad and the open country that enchanted the hearts and minds. This art touched many aspects. The first Abbasid poets described nature and its beauty, and introduced new objects of close relevance, such as vertebrates, vesicles...
- Some poems revolve around one subject. There is also a lot of transfer from Persian rule and influence on foreign cultures, especially in the field of philosophy, logic and speech science.

- The signs of verbal work began in the Abbasid poem at an early date, although Bashar ibn Bard and Abu Nawas were interested in their poetry. Muslim ibn al-Walid was the first to rely on it and became mainly in his poetry.
- The first Abbasid poets adopted light weights in the systems of their poems, while in the field of rhymes, there were different forms in the use of rhymes.

دراسات أدبية

LITERARY STUDIES



العدد
21

دورية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية
العدد الواحد والعشرون - مارس 2017

تطور اللغة الشعرية

نهارى أمينة

دازاين هيدغر وأفق المقاربة السيميائية للفضاء

علي بن شريف مصطفى

الرحلات الحجازية الأندلسية في عصر بني الأحمر

لحلو سمهان

علم القراءات القرآنية ودوره في الحفاظ على تراثنا الصوتي العربي.

يوسف بن خويا

الترخيص في العلامة الإعرابية في شعر أحمد سحنون الجزائري

يوسف بن جرميخ

دور القصة في نقل تجربة الشاعر المعاصر

موس نجية

ISSN 2170-046X الترخيم الدولي

مظاهر الحضارة المادية في شعر العصر العباسي الأول

سيدي محمد بلقاسم .

البريد الإلكتروني: Belkacem.Mohammed.13@gmail.com

جامعة أبي بكر بلقايد - كلية الآداب واللغات - تلمسان.

الملخص :

يعد القرن الثاني الهجري العصر الذهبي للحضارة العباسية التي تكونت من مزيج من الحضارات الأخرى ، مما أكسبها التفوق والاستمرار، فقد توافرت في هذا العصر أسباب رقي الحضارة وازدهارها مما جعل الشعراء يصفون تلك المظاهر بطريقة فنية وابداعية تؤكد أن خلفاء بني العباس وأمرأهم قد شجعوا هذه المظاهر الحضارية المادية ، حيث خلدت هذه الأشعار ذكر مجموعة كبيرة من الخلفاء كالمهدي والرشيدي والمأمون وغيرهم ...

لذلك سمعت هذه الدراسة إلى الكشف عن المظاهر الحضارية كما تتجلى في شعر العصر العباسي الأول ، والبحث عن العلاقة بين الشعر والحضارة العباسية في هذا القرن ، ومدى مواكبة الشاعر للمظاهر الحضارية في عصره ، وقدرته على تصويرها والتعبير عنها، أخذين بعين الاعتبار كون الشعر وثيقة حضارية لتلك المرحلة الزمنية.

Abstract

The second century of Hijra is considered as the golden age of Islamic culture, because the Abbasid empire was founded from different civilizations such as Persian, Greek and Indian, and during this time of governance that the reputation and power of the dynasty was created in order to maintain the excellence and continuity. Also during this period many causes of the civilizational prosperity have existed, which made the poets describe those appearances in a creative and artistic way.

With all of the changes that took place in the Arab empire under the Abbasids, it is no surprise that the Abbasid caliphs had encouraged this civilizational revolution that touched all aspects of life, including the physical one. It should be noted also that a large number of the Abbasid caliphs mentioned in the poems like al-Mansour, al-Rashid and El maamoun.

Therefore this study is trying to detect the various cultural and civilizational appearances through the poetry of the first Abbasid period , and to know the relationship between the poetry and the Abbasid Civilization in this century .In addition to this , it determine the ability of the poets to keep up with the great progress in all field, this article touches also their competence to reflect their new society.

مقدمة :

ازدهرت الحركة الشعرية والأدبية في العصر العباسي الأول بفعل عملية الامتزاج بين المجتمعات والعناصر المختلفة وانتقال الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة وتبلور

الخلافات السياسية والمذهبية بين الفرق الإسلامية مع بعضها البعض من جهة، ومع غيرها من جهة أخرى، فضلاً عن تشجيع الخلفاء والحكام للشعراء في بغداد، والمدن الأخرى، إذ لمع في سماء الأدب العباسي شعراء كثر أمثال بشار بن برد، أبو نواس، أشجع السلمي وغيرهم...

لقد أثرت الحضارة العباسية على أغراض الشعر ومقاصده، وأخيلته ومعانيه، فانعكس عصر الترف والرفاهية والثروة، عصر القصور والملذات على مرآة الشعراء الذين تحولوا عن الوقوف على الأطلال و وصف الصحاري المجذبة والجيال والوهاد إلى وصف القصور الشامخة والمناظر الحضرية الخلابة، إذ شكلت تلك القطع الشعرية البديعة فناً حضارياً جديداً، يسمي الشاعر من خلاله إلى بث الحنين إلى وطنه وقصوره ومقننتياته، وكثيراً ما كان يمزج نشوته تلك بنشوة الحب، أو الخمر وسماع القيان، فكان يحسن تصوير قننته بها ويقصورها وورودها ورياحينها.

ولا غرو أن الانقلاب العباسي مع ما رافقه من طغيان العنصر الأجنبي، قد أحدث هزة عنيفة في الكيان العربي، ولم يكن من السهل انصهار العقليات المختلفة في وقت سريع مما هيا لنشأة صراع حضاري ما فتئ أن تحول إلى صحوة و انفتاح على الآخر. وبناء عليه فما مدى تأثير شعر العصر العباسي الأول بالمظاهر الحضارية التي شهدتها الخلافة العباسية آنذاك؟ وما هي أهم الآثار الناجمة عن التواصل الحضاري الذي عرفته الحياة الأدبية عامة، والشعر على وجه الخصوص باعتباره دستور العرب؟

1- قيام دولة بني العباس :

ينتسب البيت العباسي إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان مولده قبل الهجرة بنحو خمسين سنة 502 م، ونشأ في مكة وأصبح من وجوهها، ومن سادة قريش واشتهر بسداد الرأي والكرم والعطف على الفقراء، وتولى في الجاهلية منصب السقاية، كما تولى أيضاً عمارة المسجد الحرام (1).

وتجدر الإشارة إلى أن دولة العباسيين قامت على عواتق العجم من الفرس والموالي، وقام بهذا الكيان العظيم أبو مسلم الخراساني الذي يعده المؤرخون رجل الدولة، وصاحب الدعوة والذي تم على يده الفتح، فقد تبنى الدعوة منذ نشأتها، ولما كسب قلوب الناس وكثر الهرج والمرج، ونما الشر وثار الفتن في عهد مروان بن محمد، الملقب بالحمار آخر خلفاء بني أمية، واضطرب حبل الدولة واختلقت كلمتهم وقُتل بعضهم بعضاً استغل أبو مسلم ذلك وأظهر دعوة بني العباس وجهاز جيشاً عرمرماً لقتال نصر بن سيار أمير خراسان ثم توالت الوقائع الحربية معه ومع غيره من أمراء خراسان حتى ظهر أبو مسلم عليهم ودخل العراق ثم سلم الأمر إلى السفاح فتولى الخلافة سنة اثنتين و ثلاثين ومائة للهجرة (2).

ومهما تكن الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة الأموية، فإن الانقلاب العباسي في حقيقة أمره ثورة اجتماعية غيرت من صورة المجتمع العربي التي كان عليها أيام بني أمية إلى مجتمع إسلامي جديد، تعيش فيه أمة إسلامية تضم إلى جانب العنصر العربي عناصر أجنبية، وبخاصة الفرس، ارتفعت منزلتها الاجتماعية حتى تفوقت على العرب، واستطاعت أن تفرض وجودها ونفوذها في المجتمع العباسي، وأن يكون لها دورها الفعال في تطويره، والتأثير فيه في سني جوانبه، حتى صبغ المجتمع بالصبغة الفارسية.

اسم
Bellk
مسيان.

ارات
نهارها
هم قد
الخلفاء

عباسي
ظاهر
وثيقة

Tl
becau
Greek
the dy
this p
poets :

Wi
no sui
touch
numb
El ma

The
appea
relatio
to this
field,
this art

الامتزاج
وتبلور

2- معالم الحضارة المادية في شعر العصر العباسي الأول :

أ- القصور :

لم يتفنن أحد كتفنن العباسيين في قصورهم وخاصة بعدما استقام لهم الأمر، واستقرت الأوضاع وزادت الأموال، وفاض الترف. فقد ذكر البيهقي أن المنصور لما عزم على بناء مدينة بغداد أحضر مهرة المهندسين، وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالزرع والمساحة وقسمة الأرضين، وحذاق الصناعات والحفر، ثم اختطها وجعلها مدورة، حتى قيل: أنه لا يعرف في الدنيا كلها مدينة مدورة سواها. (3) وقد وصفها الشاعر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي بقوله (4):

أَعَانَيْتُ فِي طَوْلٍ مِنَ الْأَرْضِ وَالْعَرْضِ كِبَغْدَادَ دَاراً إِنَّهَا جَنَّةُ الْأَرْضِ
صَفَا الْعَيْشُ فِي بَغْدَادَ وَأَخْضَرَ عُوْدَهُ وَعَيْشُ سِوَاهَا غَيْرُ صَافٍ وَلَا غَضَنُ

وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أول من شاد الأبنية والقصور، إذ بنى قصر القبة الخضراء ليحول أذهان الناس إلى ضرورة بناء القصور تماثياً ومتطلبات الحضارة الجديدة، وبنى الجوامع والحصون والقصور في بغداد كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما، وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع، واقتدى بهم وزراءهم وأمراؤهم، فأقاموا قصوراً فخمة تعرف بأسماء بناتها، كقصور البرامكة في الشماسية، وقصر ابن الخطيب، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد، وقصر بني خلف بالبصرة، وقصر عيسى بن علي وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور، وقصر وضاح الذي بناه رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي، وقصر الرشيد وقصر الأمين، وقصر ابن الفرات، وقصر ابن مقله غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة ودار القرار. (5)

وبلغ فن البناء العباسي شأواً بعيداً في التحضر، من رسوم ونقوش وقبب وزخرفة، فقصر القبة الخضراء مثلاً كان يتصدره، إيوان طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وسقفه قبة خضراء تعلوها تماثيل، وترى هذه القبة من أطراف بغداد، وكانت هذه القبة تاج بغداد، وعلم البلدة، ومأثرة من مأثر بني العباس العظيمة (6). والملاحظ أن فكرة بناء الإيوان جاءت مستمدة من الحضارة الفارسية خاصة إيوان كسرى أنوشروان الذي بناه سابور ذو الأكتاف في نيف و عشرين سنة و طوله مائة ذراع في عرض خمسين بناه بالأجر و الجص ، و جعل طول كل شرافة من شرافته خمسة عشر ذراعاً ، و لما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهباً ، و حكي أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه و أن يجعل آتته في بنائه ، فقيل له إن نقضه يتكلف بقدر العمارة فلم يسمع و هدم شرافه و حسب ما انفق عليها فوجد الأمر كذلك. (7)

ويصف لنا الشاعر أحمد بن محمد اليزيدي قصراً كان يسكنه المأمون، ويصف أشجاره وانهاره فيقول (8):

يَا قَمَرُ ذَا السَّخَلَاتِ مِنْ قَارَا إِنِّي حَنَّتُ إِلَيْكَ مِنْ بَارَا
أَبْصَرْتُ أَشْجَاراً عَلَى نَهْرٍ فَذَكَرْتُ أَنهَاراً وَأَشْجَارَا
لِلَّهِ أَيَّامٌ نَعْمَتْ بِهَا فِي الْقُصْرِ أَحْيَاناً وَفِي بَارَا

كما انعكست مظاهر الحضارة الجديدة على شعر أبي نواس ، و تجلت في صدق فني وعمق وجداني، وما يهمننا في هذا المقام أشعاره التي لها علاقة بالقصور أو بالأحرى التي صورت جانباً من جوانب الحياة فيها ، وقد تمثلت فيها أيضاً حياته الخمرية التي تنشقت عقب الرياض والقصور والقيان . فهاهو يصف مجلساً في أحد قصور عيسى بن أبي جعفر المنصور في بلدة يقال لها القفص (9) :

يا طيبنا بفضور القفص، مشرفة
لما أخذنا بها الصهباء، صافية
جاءتلك من بيت خمار بطيبتها
فقام كالغصن قد شدت مناطه
فاستلها من فم الأبريق ، فانبعثت
في مجلس حوله الأشجار مخيفة
لا نستجف بساقينا لعزته
فيها الدسائر، والأنهار تطرد
كأنها النار وسط الكاس تتعد
صقراء، مثل شعاع الشمس، تزعد
ظني يكاد من التهيب ينعد
مثل اللسان جرى واستمسك الجسد
وفي جوانبه الأنهار تطرد
ولا يبرد عليه حكمة أحد

و لا شك أن صورة المجلس هنا تختلف تماماً عن صورة المجلس في القصائد الجاهلية التي تغلب عليها البساطة والألفاظ السهلة و اللغة العامة ، فنحن بإزاء مجلس شراب في قصر زاه من قصور القفص، حيث يشرف على جملة من بيوت الأعاجم و الأنهار الجارية. وقد استرسل الشاعر في وصف ساقى الخمر الذي قدمه بصورة الظبي الجميل ، مشيراً إلى ظاهرة انتشار الظمان في القصور العباسية ، فكان التشبيب بهم شائعاً و إن كان وصف الظمان شذوذاً معاباً غير أنه حالة إنسانية لم يتفرد بها النواصي وحده ، بل برع فيها غيره من الشعراء لكنه يبقى أبرزهم .

ومن الشعراء من يدعو لتلك القصور بالسقيا والغيث، ويصف أصحابها بعلو الهمة، والتأييد من الله عز وجل ولا سيما إذا كان صاحب القصر من خلفاء المسلمين. يقول أبو العتاهية مادحاً المهدي وواصفاً قصره له (10) :

سقيت الغيث يا قصر السلام
لقد نثر الإله عليك نوراً
سأشكر نعمة المهدي حتى
له بيت تبعي
فإنعم محلة القلبيك الهمام
وحنك بالملانكة الكرام
تسود علي دانرة الحمام
وبيت حل بالبلد الخرام
يدعو الشاعر بالسقيا قصر المهدي، المسمى بقصر السلام وذلك لأنه مقام المهدي ومستقره ، ومن عادة العرب أن تدعو لمن تحب بالغيث والمطر؛ لأنه سبب الحياة، ومبعث الخضرة والجمال.

وتبقى القصور بقيمتها الحضارية، ومنعتها ، وأسوارها ، تحدياً لأهل الود والإلف، تحول دون لقائهم، وتبادل نظراتهم ، فتتحول تلك الصبابة إلى أبيات نفيسة تجسد معاناة الشاعر و ولهم، فهذا أبو دلالة يفتن بجارية ، تطلعت عليه من أحد القصور ، فيقول فيها (11) :

بَيْنَا الْفَتَى يَتَمَشَى نَحْوَ مَسْجِدِهِ
 حَائِثٌ لَهُ نُظْرَةٌ مِنْهَا فَايْتَصَرَهَا
 فَحَرَّ فِي الثَّرْبِ مَا يَدْرِي غَدَاتِنْدِ
 فَجَاءَهُ الْقَوْمُ أَفْوَاجاً بِمَائِهِمْ

مِبَادِرًا لِصَلَاةِ الصُّنُجِ بِالسُّتَفِ
 مُطَّلَعٌ بَيْنَ سَجْفِهَا مِنْ الشَّرَفِ
 أَخْرَ مُنْكَشِفًا أَمْ غَيْرَ مُنْكَشِفِ
 لِيُنْضَحُوا الرَّجُلَ الْمُغْشَى بِالنُّطْفِ

ب- البرك والأنهار :

كان من الطبيعي أن تلقى البرك والأنهار جزءاً فسيحاً من الاهتمام الحضاري الذي صنعه الحاكم والمحكوم في الدولة العباسية ، تلك الدولة الحضارية الحقبة ، خاصة وأن عاصمتها بغداد تمثل بيئة ساحرة خلابة تحفها الخضرة، وتخرق أراضيها الأنهار ، وتتفجر قيعانها بالعيون والينابيع ، ومعلوم ما حبا الله به تلك المدينة من جمال الطبيعة ، وتعد الأنهار، وخصب الأرض ، وصلاح التربة. فلا غرابة بعد هذا أن تُصنع النرج، وتُحفر القنوات، وتبنى القناطر، وتقام الجسور، وأن يتفنن البناؤون والمهندسون في شق البرك وتسويرها وتزيينها ، والاهتمام بها حتى أصبحت تلك البرك علماً لبعض الأمكنة ، لا تعرف إلا بها . ناهيك عن البرك التي لا يخلو منها قصر من القصور ، وبركة المتوكل وهانية البحراري خير شاهد على ذلك .

ولقد سميت البركة بركة لإقامة الماء فيها ، والماء مصدر الحياة وجمالها ، ومن هنا اتخذت زينة تُزيّن بها القصور والحدائق . كما أن بعض الأمكنة سميت بالبركة لنفسيتها وشبهها بالبركة في جمالها " بركة الحبش " التي ذكرها ياقوت في معجمه، فنذكر أنها أرض واسعة تشرف على نيل مصر، تزرع فتكون نزهة خضرة لزكاه أرضها وريتها ، وهي من أجمل منتزهات مصر، وليست ببركة ماء كما يتبادر من التسمية(12). وفي ذلك المكان الجميل يقول الشاعر علي بن محمد بن حبيب الكاتب(13) :

أَقْنَعْتُ بِالْبِرْكَةِ الْغَرَاءِ مِنْ هَقَّةٍ وَالْمَاءِ مُجْتَمِعٍ فِيهَا وَمَسْفُوحِ
 إِذَا التَّسِيمُ جَرَى فِي مَائِهَا كَأَمَّا رِيحُهَا فِي جَسْمِهَا رُوحِ
 اضْطَرَبَتْ

ومن البرك العباسية التي ذكرها ياقوت الحموي بركة أم جعفر: زبيدة بنت جعفر بن المنصور، وتقع هذه البركة في طريق مكة بين المغيرة والعنيد(14). وبركة الخيزران وهو موضع قرب الرملة من أرض فلسطين . وبركة زلزل ، وتقع في بغداد بين الكرخ والسراة، سميت باسم رجل مغن محسن في الضرب على العود ، وكان في أيام المهدي والهادي والرشيد ، وكان في موضع البركة قرية يقال لها سال بقاء إلى قصر الوضاح، فحفر زلزل هناك بركة ووقفها على المسلمين فنسبت المحلة كلها إليه ، فقال نَفْطُوِيهِ النَّحْوِي فِي ذَلِكَ(15):

لَوْ أَنَّ زُهَيْرًا وَأَمْرًا الْقَيْسِ أَبْصُرَا مَلَأَخَةً مَا تَخْوِيهِ بَزَكَةَ زَلْزَلِ
 لَمَّا وَصَفَا سَلَمَى وَلَا أُمَّ جُنْدَبِ وَلَا أَكْسُرَا نَكْرَ السُّخُولِ فَحَوْمَلِ

أما الأنهار فقد كثرت بصورة لافتة، وتفنن المهندسون في شق الترع المنبتقة منها، وأقيمت عليها القناطر والجسور، بل وأقيمت الدكاكين والأسواق على جوانب بعضها، حتى غدت علماً على بعض الأمكنة. والتفت القرى والدور والرياض حول معظمها، كنهج القلابين ، وسمي بذلك لتجمع باعة السمك وقيامهم بقلبه هناك ، وهي محلة كبيرة ببغداد في شرقي

الكرخ (16). وكُنْهَر عَيْسَى بن علي بن عبدالله بن العباس: وهي كُورَة وقرى كثيرة وعمل واسع في غربي بغداد يعرف بهذا الاسم ، ويذكر ياقوت أن مأخذه من الفرات عند قنطرة بيمًا ثم يمر فيسقي طَسُوجَ فَيَزُورُ سَابُورَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى المَحْوَلِ ثُمَّ تَنْفَرَعُ مِنْهُ أَنْهَارٌ تَخْتَرِقُ مَدِينَةَ السَّلَامِ ، ثُمَّ يَمُرُ بِالنَّيَّاسِرِيَّةِ ثُمَّ قَنْطَرَةَ الرُّومِيَّةِ وَقَنْطَرَةَ الرِّبَاتِيْنِ وَقَنْطَرَةَ الأَشْنَانِ وَقَنْطَرَةَ الشُّوكِ وَقَنْطَرَةَ الرُّمَانَ وَقَنْطَرَةَ المُغِيضِ هَكَذَا إِلَى أَنْ يَصِبَ فِي دَجَلَةَ ، وَفِي نَهْرِ عَيْسَى يَقُولُ بَعْضُ شَبَابِ بَغْدَادِ (17):

والماء فضي القميص صَبِيلُ
أَوْ نَادِبٍ يَشْكُو الفِرَاقَ نُكُؤُ
ورقَصْنَنَ فارتفعت لهن ذبول
دَارَتْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّمَالِ شَسْمُولُ
عُرَّرَ ثِيَابَهُ ظَلَامَةً وَخُجُولُ
يَبْتَقِظُ: إِنْ المُقَامَ قَلِيلُ
ففي نهر عيسى والهواء مُعْتَبِرُ
وَالطَّيْرُ إِذَا هَوَاتَتْ بِقَرِينِهِ
وعرائس السمر السحفن بسندس
والفصن مهزوز القوام كأنها
والدهر كالليل البهيم وأنتم
نبة بني الذات واهتفت فيهم
لقد صور الشاعر، ذلك النهر تصويراً بديعاً ، فماؤه كالفضة الصافية في لمعانها ،
ورائحة الهواء تنبث منه زكية كأنها العنبر ، وقد تعددت أصوات الطير التي تجمعت حوله ،
فمنها من يغرّد تغاريد الفرخ فينادي أحبائه ، ومنها من هو مكلم ، قد غير الفراق بهاء
صوته .
وعندما أجرى الرشيد نهرأ؛ ليحي به موات الأرض ، ويزيد في خضرتها ، قال أشجع

السلمي يصف ذلك النهر (18) :

أَجْرَى الإِمَامُ الرَّشِيدُ نَهْرًا
جَادَ عَلَيْهِ بِرَيْسِقِي فِيهِ
أَلْفَ كَلْبَةٍ دَرَّةٌ لَفُوحًا
عَلَى رِيَاضٍ لَهُ نَبَاتٌ
لِلْمَاءِ مِنْ فَوْقِهَا أَنْتَبَاهُ
فِي جَانِبِيهِ وَجَانِبِيهَا

عَاشَ بِأَجْرَانِهِ المَقَوَاتُ
وَسِرَّ مَضْمُونِهِ الفُرَاتُ
يُرْضَخُ أَخْلَافَهَا النُّبَاتُ
مِمَّا وَلَدَتْهُنَّ أُمَّهَاتُ
وَاللُّغْرَى تَحْتَهَا سُكُنَاتُ
أَعْنَةُ المَاءِ مَطْلَقَاتُ

واضح أنه لم يكن وصف القصور و فنها المعماري ، المادة الوحيدة للوصف في شعر أشجع السلمي، فقد وصف أيضا البرك و الرياض التي تحفها من كل جانب ، و هذا النص ذو دلالة حضارية مهمة ، نستدل من خلاله على بعض معطيات البيئة العباسية ، و على تطور غير معهود في الشعر العربي قبل هذا العصر .

و الثانية السابقة تتحدث عن نهر صناعي أنشأه الرشيد في أحد قصوره ، و يبدو أن الشاعر قد فتن بهذا المنظر الطبيعي فوقف على بعض مظاهر ذلك النهر ، التي تجسدت بشلالات المياه المندفعة إلى أعلى بقوة السيل ، ليسقي مساحات واسعة من الرياض و البساتين ، و تبدو اللوحة مرسومة رسماً بريشة فنان ، و كأننا أمام نهر من أنهار الجنة أو روضة من رياضها .

و يصف العباس بن الأحنف نهر المعلى الذي ينسب إلى المعلى بن طريف مولى المهدي ، و هو من كبار قواد الرشيد ، ويسمى ذلك النهر بالفردوس وهو أعظم محلة ببغداد ، إذ يسير تحت الأرض حتى يدخل دار الخلافة (19) ، فيقول فيه (20):

أَيُّهَا الطَّالِبُ شَمْساً لَلسُّورَى تَطَأُ لُغْلُغَ لَيْلِلا
أَنْتَ مِنْ بَعْدَادِ بِبَابِ الدِّ شَمَامٍ أَوْ نَهْرِ الْمُعَلَّى
تَلَقَّ نَسَمَ الشَّمْسِ إِلَّا أَيُّهَا تَسْبَعُ دَيْلِلا
هِيَ شَمْسٌ عَزَمْتُ أ لِأَتُبَيِّنَ الْخُلُقَ دَيْلِلا
طَلَعْتُ فَوْقَ كَثِيبِ فِي قَضِيبِ هَمَّالِ هَيْلِلا

و في هذه الأبيات يصف الشاعر محبوبته التي فاق جمالها و ضياؤها جمال الشمس ، ويرى أن نهر المعلى قد شرف بمقامها فيه . و قد استطاع التعبير عن ذلك بألفاظ سهلة وبسيطة ، كما أنه لم يتكلف استحضار المعاني ، ولم يتصنع صياغتها ، فهي مستقاة من واقعه المعيش ، وإن أغرق في جعل تلك المحبوبة شمساً على سبيل التشبيه البليغ، إلا أن ذلك باب في البلاغة، يطرقه جميع الشعراء ، على تفاوت فيه بينهم ، وحسبه أنه قد استخدم القران المفارقة بين الشمسين: فشمسه التي عناها جعل لها ذليلاً تجره ، وهي ملابسها الأنيقة كما أنه لا ينالها أي شخص ، ولا يراها كل إنسان، بينما الشمس الحقيقية ، يعم نفعها كافة البشر ، ويراهم الجميع.

ج- الزهريات و الروضيات :

نقد أكثر شعراء العصر العباسي الأول و كتابه من وصف الرياض وما تحويه من أنواع الزهور والورود والرياحين . ولهم في هذا المعنى قولهم : "روضه رقت حواشيتها، وتأنق وأشيتها . روضه كالعقود المنظمة ، على البرود المنمنمة ، روضه قد راضتها كف المطر، ودبجتها أيدي الندى ، أخرجت الأرض أسرارها وأظهرت يد الغيث آثارها وأبدت الرياض أزهارها . الرياض كالعرانس في حليها وزخارفها ، والقيان في وشيها ومطارفها ، باسطة زرايبها ، وأنماطها ، ناشرة حبراتها ورباطها ، زاهية بحمراتها وصفرائها. روضه قد تضوعت بالأرج الطيب أرجاؤها وتبرجت في ظل الغمام صحراؤها، وتنافحت بنوافح المسك أنوارها ، وتعارضت بغرائب النطق أطيارها"⁽²¹⁾.

إن تلك الأوصاف الرنانة التي يطلقها شعراء العصر العباسي الأول و كتابه عن الروضيات ، تدلنا على اهتمام الناس بالزرع والثمر والزهرة ، الذي يجدون فيه متنفسهم ، ويتلذذون بروائح الفواحة التي تشرح صدورهم ، وتجلي همومهم، وتجلب مسراتهم، كما يرون فيه مسرحة فسيحة تسرح فيه عيونهم فترتد سفارها محملة بالجمال والغبطة ، فبينما كان السلف يقدم قصائده بوصف الصحراء و ما تحويه من خشونة العيش، وضيم النفس، وركوب الأخطار، أصبح الشاعر العباسي يترك ذلك إلى وصف الطبيعة الخلابة في الحاضرة ببساتينها ورياحينها ونسيم هبوبها ، وكان يمزج نشوته بها في كثير من الأحيان بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع الأصوات العذبة، وبعضهم صور قننته بتلك الرياض والبساتين وبما فيها من رياحين وزهر وورود ، كقول إبراهيم بن المهدي في الترجس⁽²²⁾:

ثَلَاثُ عَيْونٍ مِنَ التُّرْجِسِ عَلَى قَائِمِ أَحْضَرَ أَمْلَسِ
يُدْجِرُنِي طَيْسَبُ رَبِّا الْحَبِيبِ فَيَمْنَعُنِي لِدَّةَ الْمَجَاسِ

و قد كان أكثر شعراء العصر العباسي الأول يشبهون محاسن من يجنون بالزهر والروض و في ذلك يقول بشار بن برد⁽²³⁾:

ولهذا وراثة العذار كالكز
وحديث كانه قطع السرو
م سواداً قد خان منه انتهاء
ض زهته الصفراء والخمراء

د - الثياب و الخليسي :

لقد تأثر العباسيون بالفرس كثيراً من حيث الاهتمام باللباس و هو ما فعله بعض الخلفاء
إذ قرر أبو جعفر المنصور لبس القلانس التي لم تكن معهودة من قبل بالصورة التي أقرها
وأمر بها ، مما دعا أبا دلامة إلى القول (24) :

وَكُنَّا نَرَجِّي مَخْتَةً مِنْ إِمَامِنَا فَجَاءَتْ بِطُولٍ زَادَهُ فِي الْقَلَانِسِ
تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرَّجَالِ كَأَنَّهَا بِنَانٌ يَهُودٌ جُلِّلَتْ بِالْبَيْرَانِسِ

و كان الناس يلبسون تلك القلانس صيفاً وشتاء، عندما يريدون الدخول على الخلفاء
وعلى الأمراء . قال الجاحظ " وقد يلبس الناس الخفاف والقلانس في الصيف كما يلبسونها
في الشتاء إذا دخلوا على الخلفاء وعلى الأمراء وعلى السادة والعظماء؛ لأن ذلك أشبه
بالاحتفال ، وبالتعظيم والإجلال ، وأبعد من التبذل والاسترسال وأجدر أن يفصلوا بين
مواضع أنسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم". (25)

ومن أنواع الثياب أيضاً، ثياب موشاة بالذهب تلبسها النساء وتسمى (الزبرج). قال بشار
في أرجوزته المعروفة يصف فتاة تحلت بتلك الثياب (26):

وَاهَا لِأَسْمَاءِ ابْنَةِ الْأَشَدِّ قَامَتْ تَرَايَ إِذْ رَأَيْتَنِي وَخَدِي
كَالشَّمْسِ بَيْنَ الزُّبُرِجِ الْمُتَّقِدِ سُلْطَانَ مُبِينٍ عَلَى مُسْوَدِ
ضُنْتُ بِخَمِيٍّ وَجَلَّتْ عَنِّي خَدِي نُمُّ انْتُنْتُ كَالنَّفْسِ الْمُزْتَدِ

ومن تحضر القوم وتفننهم أن كتبوا على تلك الزياش والملابس العبارات اللطيفة،
والأشعار العذبة، في الود والعتاب والشكوى ولوعة الحب، وما شابه ذلك، وكان كل عبارة
أو بيت شعر تعبر عما في نفس صاحبها ، ومن أمثلة ذلك ما كتب على قلنسوة إحدى جواري
المأمون (27):

يَا تَارِكَ الْجِسْمِ بِلَا قَلْبِ إِنْ كَانَ يَهْوَاكَ فَمَا ذَنْبِي
يَا مَفْرَدًا بِالْحُسْنِ أَفْرَدْتَنِي مِنْكَ بِطُولِ الشُّوقِ وَالْكَرْبِ

وقد تناول الشعراء الحلي بوصفها زينة للمرأة ، تزيدها بهاء وجمالاً ، فتسحر العيون،
وتستولي على القلوب، ويقدر تعدد حلي المرأة وتنوعها ، يكون تحضرها وترقعها ، وقد لا
يتوفر ذلك إلا في ربات القصور، فإنهن أقدر على تملك الجواهر، وأكثر ترفها وتنعم وفي
ذلك يقول بشار بن برد (28):

يَمْشِي الْهُوَيْنَا كَالنَّزْرِ فِي لَيْهَرِهِ وَهُوَ الْخَمِيْدُ
وَعَلَى التَّرَائِبِ دُرَّةٌ فِيهَا الزَّبْرَجِدُ وَالْقَرِيْدُ
وَنَقَارِسٌ قَد زَانَتْهَا خَأْسَقٌ غَدَانُهَا تُصَيْدُ
وَأَعْيُنٌ يَخْفُلْنَ عَصْفُوراً وَكَأَنَّهُ جَمْرٌ وَقُودُ
وَالْفَرْطُ فِي مَهْلُوكَةٍ مَجْرَاهُ مِنْ جَبَلٍ بَعِيْدُ

استطاع بشار بن برد أن يبرز معالم حضارة عصره من خلال تلك الحلي في سهولة لفظية ومأخذ قريبة، ووزن راقص عصري، هو مجزوء الرجز، الذي تتغنى به الخاصة والعامّة؛ لسهولته وظرفه.

وتجدر الإشارة إلى أن النساء في عصر بني العباس اتخذن من الخلاخل والأساور الفضية زينة لهن، ومن كمال الزينة أن تغص الذراعان والساقان بتلك الحلي، وفي ذلك قال صريع الغواني (29):

بازرُئته وسلاخه خالصة حتى فتنضت بكفي الخلالا
هذا الخيال فكيف لي بمُنعم رُود الشَّباب تخالسه تمُّالا
صمّنت خلاخله وغصَّ سواره والقُنب واضطرب الوشاحُ وجالا

الخاتمة

لقد شكّلت مظاهر الحضارة المادية في الشعر العباسي بصورة عامة أهمية بالغة للدارسين في مراحل زمنية مختلفة، فمن خلال الشعر اكتشف المهتمون والباحثون مفاسل التطور الحضاري من الناحية الاجتماعية، ولعل هذا المقال قد أثار السبيل وفتح الطريق للتعرف على جانب مهم من جوانب حياة الإنسان في عصوره الزاهية، وفيه إجابة لمن يزعم أن الإنسان منذ القدم كان يجهل عملية الصناعة والطريف في هذا الأمر أن هذا البحث توصل عبر محطاته المختلفة إلى بلورة فكرة مهمة عن حياة العباسيين، فليس من المعقول أو المنطوق أن يكون الإنسان مبدعاً في الشعر متميزاً في نظمه، ويكون عاجزاً عن بلورة وعيه للجانب المادي الذي يتعلق بمناحي الحياة المختلفة.

كان الشاعر يعيش تلك الحياة بكل تفاصيلها وجزئياتها، وحيثما نظر إلى ما حوله هاله ذلك التقدم، فأطلق العنان لقرينته التي ما انفكت تصور تلك القصور والرياض والبرك والأساور والقلاند بريشته المبدعة وبوعيه الثاقب، فلم يكن بتصوير تلك المشاهد الحضارية من حيث الزمان والمكان وطبيعته وجمالياته الخارجية وما يحيط به من نقوش وصفات، بل راح يتقلّب في ترجمة الأبعاد النفسية من شوق و هيام وإجلال ومعاناة وخوف وألم وأمل وربطها بتقدم المجتمعات، أي أن الشاعر العباسي استطاع أن يضيف على معالم حضارته مشاعره وأحاسيسه فوجد في تلك المظاهر الحضارية مثلاً يثري من خلاله تجربته الشعرية والشعورية.

هوامش الدراسة :

- 1- ينظر الزركني دمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 2002 م، ج3، ص: 262.
- 2- ينظر ابن طيها، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مازي، دار الفلم العربي، ط1، بيروت، 1418 هـ - 1997 م، ج1، ص: 143، 144.
- 3- ينظر البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417 هـ، ج1، ص: 88.
- 4- المصدر السابق، ج1، ص: 89.
- 5- ينظر زيدان جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج2، ص: 624.
- 6- ينظر البغدادي، المصدر السابق، ج1، ص: 93.
- 7- ينظر الأبيشي، المستطرف في كل فن مستظرف، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1419 هـ، ج1، ص: 389.

- 8- ياقوت الحموي ، معجم الأديباء ، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1414 هـ / 1993 م، ج 1، ص: 434.
- 9- أبو نواس، الديوان، تحقيق إيفالد فاختر، دار النشر، فرانز شتاينر، 1972/هـ1492، ج3، ص:112.
- 10- أبو العتاهية، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1968/1406، ص: 408.
- 11- ينظر ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1404 هـ، ج1، ص: 223.
- 12- ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، ط2، بيروت، 1995، ج1، ص:401.
- 13- المصدر السابق و الصفحة نفسها.
- 14- المصدر نفسه، و الصفحة نفسها.
- 15- المصدر نفسه، ج1، ص: 402.
- 16- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5، ص:322.
- 17- المصدر نفسه و الصفحة نفسها.
- 18- أبو بكر الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، شركة أمل، القاهرة، 1425 هـ، ج1، ص: 86.
- 19- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5، ص:324.
- 20- العباس بن الأحنف، الديوان، تحقيق عاتكة الفزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1373هـ/1954م، ص: 230.
- 21- ينظر الحصري، زهر الأديب وثمر الألباب، تحقيق الدكتور، زكي ميلك، دار الجيل، ط4، بيروت، (بدون تاريخ) ج 2، ص 576، 577.
- 22- ينظر الأصفهاني، الأغاني، تحقيق إحسان عباس، المجلد الأول، دار صادر، ط1، بيروت، 2002/1423، ج 10، ص: 95.
- 23- بشار بن برد، الديوان، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007، ج 1، ص: 144.
- 24- الأصفهاني، المصدر السابق، ج 10، ص: 189.
- 25- الجاحظ، البيان و التبيين، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ، ج3، ص:77.
- 26- ديوان بشار بن برد، ج 2، ص: 222.
- 27- الوشاء، الموشى، تحقيق كمال مصطفي، مكتبة الختجي، شارع عبد العزيز، مصر - مطبعة الاعتماد، ط2، 1371 هـ - 1953 م، ج 1، ص: 162.
- 28- ديوان بشار بن برد، ج 2، ص: 215، 216.
- 29- ديوان صريع الفرائي، تحقيق د. صامى الدهان، دار المعارف، ط2، مصر، (بدون تاريخ)، ص: 201.

مسارات مغربية

المجلة المقاربية للأبحاث في الفنون و التراث و العلوم الإنسانية و الاجتماعية
علمية عالمية محكمة يصدرها نخبة من الباحثين بجامعة الجلفة - الجزائر -

العدد الثاني

السنة الأولى - المجلد الأول -

سبتمبر 2017 ذي الحجة 1438

رقم الإيداع القانوني issn2572-0139

البريد الإلكتروني

revuemasarat@gmail.com

العنوان البريدي

ص ب 3117 الجلفة - الجزائر



أثر الشعوبية في شعر العصر العباسي الأول أسبوعي وهو بلقاسم جامعة للمسان

المخلص :

يعد القرن الثاني للهجرة العصر الذهبي للحضارة العباسية التي تكونت من مزيج من الحضارات الأخرى، خاصة الفارسية منها، والتي كانت القوة الداعمة لملك بني العباس، فأخذ العرب منهم بعض نظم الحكم و طرق المعيشة، و جانباً من الثقافة و الفنون، ناهيك عن تمتع الأجناس الأخرى بفيض من الحرية الفكرية والدينية، فانتهز أعداء الأمة العربية الفرصة و نشروا سمومهم و جاهرُوا بشعوبيتهم القائمة على العنصرية والتقليل من شأن العرب.

لذلك سعت هذه الدراسة إلى الكشف عن مفهوم الشعوبية، و دواعي انتشارها في المجتمع العباسي وأثرها في شعر هذه الحقبة التاريخية المميزة التي ضجت بأحداث استثنائية.

Résumé :

Nul ne peut nier que le deuxième siècle de l'hégire est considéré comme l'âge d'or de la civilisation Abbasside, car il se compose de multiples cultures, en particulier la civilisation perse qui était la force fondatrice de la dynastie des Abbassides dont les arabes se sont inspirés de leur systèmes gouvernementaux, mode de vie et un coté de la culture et des l'arts, y compris la jouissance des autres races de la liberté sur le plant cultuel et religieux. Chose qui a poussée les ennemis de la nation arabe à saisir l'occasion pour répandre leurs venins et à exprimer haut et fort leur basée sur le racisme et la discrimination des arabes.

Pour tous cela cette étude se veut axée sur la notion du racisme, puis tenter à découvrir les raisons de sa propagation dans la société Abbasside, ainsi que son impact sur la poésie de cette unique ère historique connue par ses événements exceptionnels.

مقدمة

عرفت الإمبراطورية العباسية أكبر نهضة ثقافية في تاريخ الحضارة الإسلامية، بفعل احتكاكها بغيرها من الثقافات و الأمم الأخرى و تأثر العرب بحضارة البلدان المفتوحة في كثير من جوانبها، ناهيك عن المساواة التي شرعها الإسلام بين البشر، فامتزج هؤلاء بغيرهم من الشعوب الأخرى عن طريق النسب و المصاهرة، فأقبلت تلك الشعوب على اللغة العربية دراسة و تحليلاً حتى نبغت فيها نبوغاً منقطع النظير إما تحت تأثير الإسلام فيهم، أو طمعاً في الوصول إلى وزارات الدولة العباسية ومناصبها التي يتعذر على من لم يتقن اللسان العربي وبلاغته الوصول إليها .

و لا غرو أن حضارة الدولة العباسية استوعبت كل الحضارات السابقة لها كالأكدية والآشورية والفارسية واليونانية والهندية، فقد حدث لقاح متفاعل ومستمر في هذا المجتمع نتيجة امتزاج هذه الحضارات، بل إن اللغة العربية تغلب سلطانها لكونها لغة الدولة المسيطرة بحيث ترجمت لها خلاصة الفكر اليوناني والهندي والفارسي، فاستوعبتها جميعاً، خاصة و أن العرب لم يجدوا ضيراً في أن يأخذوا من المفردات الفارسية وغيرها مما كانت لهم حاجة إليه، أو مما كان ينقصهم في لغتهم بعد أن عربوها و جرت على ألسنتهم وفي كتبهم .

أثر الشعوبية في شعر العصر العباسي الأول

و الجدير بالذكر أن الدولة العباسية استعانت في بدايتها بالروح الفارسية التي تحلم بعظمة الفرس عبر ماضيها التليد قبل الإسلام مجسدة في أبي مسلم الخراساني 1 الذي قاد الثورة للعباسيين، وقد حفظ خلفاء بني العباس الجميل للفرس فانكروا عليهم في الإدارة و الوزارة، و بذلك انتعش العنصر الفارسي الذي كان مُهمشاً في حكم بني أمية و تعاضم نفوذه و بدأ التنافس بينه و بين العنصر العربي.

وقد نشط الفرس و غيرهم من الأجناس الأخرى في العراق نشاطا واسعا ، و أصبحوا يشكلون حركة قوية مدمرة، بحيث كان لكل جنس ثقافته و ديانته، فخرجت إلى الوجود مجموعة من الشعراء و الأدباء المتخبطين المفسدين الذين يتخذون من الشعوبية و الزندقة وسيلة من وسائل العبث بعقول الناس و عقائدهم، و يجعلون السخرية من العرب وطريقة عيشهم أساسا متينا لأدبهم القائم على التجديد في الموضوعات و الأنساق الشعرية ، و نبذ كل قديم يتعلق بحياة الإنسان العربي .

إن هذا الانقلاب العباسي مع ما رافقه من طغيان العنصر الأجنبي، قد أحدث هزة عنيفة في الكيان العربي، و لم يكن من السهل انصهار العقليات المختلفة في وقت سريع مما هيا لنشأة صراع حضاري، خاصة بعد تغير أحوال العجم والموالي ، فقد شعروا بكيانهم ودخلهم العجب وخاصة الفرس الذين كانوا يزعمون أنهم السبب المباشر في قيام الدولة، وصار لهم نفوذ وسلطة ، بعدما كانوا مضطهدين في دولة بني أمية التي كانت تقدم العرب عليهم، أما اليوم فقد علا شأنهم وعظم أمرهم فالوزراء منهم ، والولاة ، والقضاة وقواد الجيش ، وأصبحت الدولة تعاملهم كمعاملة العرب أو أكثر ، ونتيجة لهذا النفوذ كون الموالي حزبا لهم انبثقت منه ثوراتهم ومؤامراتهم ، وشاع ما سمي بالشعوبية وهي حركة تبناها الموالي من العجم وغيرهم، مذهبهم الحقد على العرب والسخرية منهم و من تراثهم وحضارتهم .

وبناء عليه فما المقصود بالشعوبية؟ و ما هي الأسباب التي أدت إلى شيوعها في العصر العباسي؟ و ما هو أثرها على شعر العصر العباسي ؟

1- تعريف الشعوبية :

إن لفظة شعوبية مشتقة من الفعل شَعَبَ ، قال الأصمعي شعب الرجل أمره إذا شنته و فرقه ، و الشعب : الجمع و التفريق ، و قال ابن السكيت في الشعب إنه يكون بمعنيين ، يكون إصلاحا و يكون تفريقا ، و الشعب الصدع و التفريق ، و الجمع شعوب 2. و التشعب ، التفريق ، و قد جاء في القرآن الكريم : { يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } 3. و الشعوبية في الاصطلاح "نزعة في العصر العباسي تنكر تفضيل العرب على غيرهم و تحاول الحط منهم" 4.

و الشعوبية بالمعنى السابق حركة ثقافية حضارية مناهضة للعرب ، كان العراق مسرحا لها أيام دولة بني العباس ، و إن كانت لها جذور تاريخية في عهد الدولة الأموية 5 ، حيث اعتمدت الدولة العباسية منذ بداية نشأتها على العنصر غير العربي، ولا أدل على ذلك من أن خراسان كانت مهد الدعوة العباسية، ومنها انطلقت جيوش العباسيين، وكان عماد تلك الدعوة والثورة، قادة جلهم من غير العرب، كأبي مسلم الخراساني مثلا، وعليه

فلما "أنت الدولة العباسية انتعش الموالي، وخاصة الفرس، وأصبح أكثر السلطان في أيديهم، وغلبوا على العرب، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعاً لما اعتنقوا الإسلام، وكانوا لا يجروون في الحكم الأموي أن ينسوا بكلمة، وكان همهم الأول أن يتحرروا سياسياً لا دينياً؛ فكانت دعواتهم السرية واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة لا للدين، والزندقة إنما هي في الدين لا في السياسة، فلما نجحوا واطمأنوا وغلبوا؛ بدأت تلعب في رؤوسهم الديانات القديمة والجديدة؛ فكانت الزندقة"6.

و الواقع أن الشعوبية لم تنتشر بين الموالي الفرس فحسب ، بل امتدت لتشمل باقي الأمم الأخرى التي أذعن للعرب كالنبط و القبط و الأندلسيين و الزط من أهل السند ، و الزنج من أهل أفريقية7، غير أن هذا لا ينفي الدور الكبير الذي لعبه الفرس في تفشي العنصرية و شيوع مبدأ الأفضلية ، إذ كانوا أكثر عددا و عدة من غيرهم، كما أنهم استأثروا بالمناصب الرفيعة في الدولة ، و هو ما مكنتهم من إذكاء نيران الفتنة و نفت سموم هذه الحركة المقيتة، و لعل في قول أبي نواس أكبر دليل على ذلك 8: .

إِذَا مَا تَمِيمِي أَتَاكَ مُفَاخِرًا
تَقَاخِرُ أَبْنَاءَ الْمُلُوكِ سَفَاهَةً
وَإِذَا ابْتَدَرَ النَّاسُ الْفِعَالَ فَخُذْ عَصَاً
فَنَحْنُ مُلْكُنَا الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
فَقُلْ غَدًا عَنْ ذَا أَكُلِكَ لِلضُّبِّ؟
وَيُؤَلِّكَ يَجْرِي فَوْقَ سَاقِكَ وَالْكَعْبِ
وَدَعْدِغٍ بِمَغْرَى يَا ابْنَ صَانِعَةِ الرِّزْبِ
وَشَيْخِكَ مَاءٍ فِي الثَّرَائِبِ وَالصُّلْبِ

2- أسباب انتشار الشعوبية في العصر العباسي :

تعد الشعوبية حركة متعصبة لأرائها، تمقت العرب و لا ترى لهم فضلا على غيرهم من الأمم الأخرى ، بل تعتقد أنهم أقل شأنًا و منزلة من شعوب المعمورة.

و الواقع أن العداء الفارسي للعرب عداً قديم، لم ينشأ بعد الدعوة المحمدية أو على أعقاب تحرير العرب لبلاد فارس، بل ظهر قبل ذلك بكثير بسبب بعض الحروب التي شنتها القبائل العربية على بلاد فارس المعتدة بطاقتها و المفاخرة بعظمتها9.

لقد ارتبط ظهور الشعوبية في العصر العباسي، بجملة من العوامل الاجتماعية و السياسية ، ذلك أن دخول غير العرب في الإسلام، واندماجهم في الحياة مع الناس، وتعلمهم للغة العربية قد أدى إلى وجود مجتمع غير متجانس خاصة إذا علمنا أن عدداً منهم دخل الإسلام ليتمكن من الانخراط في الحياة العامة، فقد ادعى الكثير منهم الإسلام، وأبطن ديانته الأصلية. والشعوبيون بهذا المعنى فريق من الناس لا يرون للعرب فضلاً على غيرهم ، بل يذهبون إلى تنقصهم والحط من قدرهم10. وهم في الغالب من الموالي والعجم الذين كانوا ينقمون على العرب ، نتيجة للظروف النفسية والعرقية ، ومنهم من لم يتمكن الإيمان في قلبه بعد الفتوحات الإسلامية ، وإن أظهر الإسلام ، وقد ألفت هؤلاء الكثير من الكتب والأشعار التي تسب العرب وتحتقرهم وتصفهم بالجفاء وعدم التحضر.

و الحري بالذكر أن النزعة الشعوبية، وموجات اللهو والمجون، لم تكن واضحة المعالم في العصر الأموي، أو على الأقل لم تكن ظاهرة خطيرة؛ بسبب اعتماد الدولة الأموية على العنصر العربي، ومعاملة الأجناس الأخرى

معاملة العبيد، وسموا حينئذ بالموالي، وهو ما أكده أحمد أمين بقوله : "إن الدولة الأموية، كانت دولة العرب، فالحكم في أيديهم، والملك لهم، وولاتهم ورجالهم عرب، والموالي أذلاء مضطهدون. والعرب لا تعرف الزندقة كثيراً، ولا تميل إليها"11. فقد نبذ الأمويون الموالي و أقصوهم من المراكز الحساسة بحكم عصبيتهم للجنس العربي و أرهقوهم بالضرائب و دفع الجزية، كما تم منعوهم من الانضمام إلى الجيش باعتبار أنه مؤلف على أساس قبلي ، فلا يستعينون بهم إلا عند الحاجة أو الضرورة كمتطوعين أو محاربين راجلين12. و لعل من بواكير الأشعار التي أعلن من خلالها الشاعر الأموي إسماعيل بن يسار شعوبيته و ميله إلى أصله الفارسي في أوائل القرن الثاني للهجرة قوله13:

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| رب خال متوج لي وعم | ماجد مجتدى كريم النصاب |
| إنما سمي الفوارس بالفرد | س مضاهاة رفعة الأنساب |
| فاتركي الفخر يا أمام علينا | واتركي الجور وانطقي بالصواب |
| واسألني أن جهلت عنا وعنكم | كيف كذبا في سالف الأحقاب |
| إذ نري بناتنا وتدسون | سفاهنا بناتكم في التراب |

و مما ساعد على نشوء هذه النزعة الشعوبية إهمال الأمويين للشؤون المالية في البلاد المفتوحة ، و ظلمهم لأهلها من الموالي و أهل الذمة ، فقد استمروا يطالبون مسلميهم بالجزية و يتعسفون في استيفائها منهم جبرا14 ، خاصة بعد اتساع الرقعة الإسلامية التي جرت على الدولة أعباء مالية ضخمة، إذ لوحظ تهافت الفرس على الدخول في الإسلام ، مما شك معه أن تكون هذه الجموع الغفيرة قد أسلمت عن إخلاص للعقيدة الإسلامية، و اشتبه في أنهم إنما فعلوا ذلك تخلصا من الجزية15.

و لا بد من الإشارة هنا إلى أن أهل العصبية من فارس قد شعروا بعداء شديد للعرب و أضمروا لهم و للدين الذي حملوه شرا و كيدا كبيرين منذ أن أزال هؤلاء ملك كسرى و حرروا أرض العجم من جورهم و نشروا في ربوعها الإسلام، فلو صح أن اضطهاد بني أمية للموالي كان سببا رئيسا في نشوء الشعوبية ، لما استمرت في التفشي و التغلغل في الأوساط الإسلامية بعد قيام دولة بني العباس التي عاملت الفرس معاملة راقية أملت عليها أخلاقهم العربية ووفأؤهم لمن تظاهر لهم بالنصرة ، و لعل أعظم شاهد على هذه المعاملة الرفيعة وصية أبي جعفر المنصور قبيل وفاته لابنه المهدي : " و أوصيك بأهل خراسان خيرا... أن تحسن إليهم و تتجاوز عن مسيئتهم و تكافئهم على ما كان منهم...16".

و إزاء هذه الأخلاق الكريمة، كان الأولى أن يتخلى الموالي عامة و الفرس على وجه الخصوص عن شعوبيتهم و يبرئوا صدورهم من الضغينة، و يتقاسموا مع العرب حياة موادعة و عيشا مسالما بدل أن يكشفوا القناع عن شرهم المستطير الذي عم أصقاع البلاد العربية شرقا و غربا، في محاولة منهم لتقويض الحكم الإسلامي و استرجاع أمجاد الفرس القديمة .

2- أثر الشعوبية على شعر العصر العباسي :

لم يكن الشعر العربي في فترة حكم بني العباس بمنأى عن الأحداث العظيمة التي كانت تعصف بالامة الإسلامية من كل حدب و صوب ، بل كان سجلا ضم ما قاله الشعراء في تصوير المد الفارسي الذي سلك شتى السبل للطعن في العرب و اصطنع مختلف الوسائل للحط من شأنهم في الجاهلية و الإسلام، إذ نقضوا كل خصائصهم و مساعيهم و مناقبهم، ومما ينسب إلى الشعوبيين قولهم : "للأمم كلها من الأعاجم ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة وبدائع من الأدوات والصناعات...ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم"17.

و من الشعراء الذين تغنوا بالشعوبية في العصر العباسي الأول ، بشار بن برد ، فنجده في الأبيات التالية يتبرأ من ولائه للعرب قائلًا18:

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم | مولى الغريب فجد بفضالك وافخر |
| مولاك أكرم من تميم كلها | أهل الفعال ومن قزيش المعشر |
| فارجع إلى مولاك غير مدافع | سبحان مولاك الأجل الأكبر |

و العريب تصغير عرب ، و المعنى أنه عبد الله و ليس معتزًا بولاء العرب ، إذ صور بشار تنازله عن ولائه لقبيلة بني عقيل ، و ادعى الالتجاء إلى الله، فإله عز وجل أفضل حليف له. ويظل ذلك التذمر من الولاء للعرب يتحرك في أعماق بشار ويتفجر من حين لآخر في أبيات من الشعر كلما وجد ما يثيره، فقد ذم أعرابي في مجلس الموالي ولم ير لهم صلة بالشعر وكان بشار حاضرا فأجابه ساخرًا من العرب جميعا، وعيرهم بالفقر والعري والرعي وكل طقوس الحياة العربية البدوية ، قائلًا19:

| | |
|-------------------------------|----------------------------|
| أنا ابن الأكرمين أباً وأماً | تتارعتي المرازب من طحار |
| نغاذى الدرّمك المنقُوط عِرّاً | ونشرب في اللجين وفي النظار |
| وتزكّب في الفريد إلى الندامى | وفي الديباج للحرب الحبار |
| أسرت وكم تقدم من أسير | يزين وجهه عقدا الأسار |
| إذا انقلب الزمان غلاً بعبد | وسفل بالبطاريق الكبار |
| أجبن ليست بعبد العزري خراً | ونادمت الكرام على العقار |
| تفاخر يا بن زاعية وزاع | بني الأحرار حسبك من خسار |
| وكنت إذا ظممت إلى قراح | شركت الكلب في ولغ الإطار |

واندفع أبو نواس في الكتابة في مثالب العرب وفي الحط منها، متذكراً تراث الساسانيين، فقال:20:

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| مسارحها الغري من نهر صرصر | فقطريل 21 فالصالحية فالصفر |
| تراث أنو شروان كسرى ولم تكن | مواريث ما أبقّت تميم ولا بكر |

قصدت بها ليلي وليلى ابن حرّة
ولقد سخر من العرب وتهكم بهم، قائلًا: 22:

عاجَ الشَّقِيَّ عَلَى رَسْمِ يُسَائِلُهُ
يبكي على ظلل الماضين من أسدٍ
وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ قَيْسٌ وَلَفُهِمَا
لا جفّ دمع الذي يبكي على حجرٍ
ولوالبة بن الحباب الشاعر الماجن الخليع قوله في تمجيد أيام الفرس 23:

ودابرتنا النحوس
قد عظمته المجوس

قد قابلتنا الكؤوس

واليوم هرمز روز

ومن الشعوبيين الذين اتهموا بالزندقة أسرة البرامكة ولعل نكبتهم على يد الرشيد من أسباب ذلك . ولذلك قيل فيهم 24 :

أضاءت وجوه بني برمك
أتوا بالأحاديث عن مـزك

إذا ذكر الشرك في مجلس
وإن تليت عندهم آية

الخاتمة

والحاصل أن الشعوبية انتشرت وقويت في عهد بني العباس على العكس منها في عهد بني أمية ذلك لأن بني العباس استعانوا بالموالي في قيام دولتهم فعلا شأنهم وارتفعت أصواتهم بعدما كانت خافتة لا تكاد تسمع خشية القتل و التنكيل أيام بني أمية ، خاصة و أن أغلبهم حازوا المناصب الكبرى كالوزارة والقيادة والحجابه وما شابه ذلك بعد منتصف القرن مما كان له عظيم الأثر في تقوية شوكتهم؛ و قد كان للخلفاء أثر بارز في تمكين تلك العناصر من تصريف شؤون الدولة، فقد قامت سياسة أغلب حكام بني العباس على تقريب الموالي والعجم، و إقصاء العنصر العربي، لكفاءة هؤلاء وعلمهم وقدرتهم على إدارة شؤون الحكم حتى تمكن لهم الأمر فقبوا بني جلدتهم، و أمسكوا بزمام السلطة ، مما دعا بعض الخلفاء إلى التنكيل بهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم .

وكان لتلك الفرق الشعوبية بمختلف أنواعها تأثير على الشعر العربي فقد نشأ ما سمي بشعر المجون وظهر له شعراء مجددون، نغموا على القديم وجددوا في الألفاظ والتراكيب والتصوير ، ناهيك عن شعر الخمريات والتغزل بالمذكر و غيرها من أغراض الشعر المستحدثة و التي تعكس بعض معالم الحضارة العباسية، و قد ظهرت أغراض شعرية جديدة كردة فعل طبيعية عن سابقتها نذكر منها شعر الزهد و التصوف الذي سخره أصحابه للدفاع عن القيم الإسلامية و المثل العليا .

الهوامش :

- 1- هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سندوس بن حوذون، ولد بزرجمهر، وكان يكنى: أبا إسحاق، وذو الكوفة، وكان أبوه أوصى به إلى عيسى بن موسى السراج، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين، فلما به إبراهيم بن محمد الإمام إلى خراسان قال له غير اسمك وكنيتك، فتسمى عبد الرحمن بن مسلم، و اكتنى بأب: مسلم، انظر ابن كثير ، البداية و النهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1408 هـ 1988 م، ج10، ص: 27 .
- 2- ابن منظور، لسان العرب، مادة (شعب)، دار إحياء صادر بيروت ، 1414هـ/1994م، ط3، ج1، ص : 497،498 .
- 3- سورة الحجرات، الآية: 13.
- 4- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) دار الدعوة، دون تاريخ أو طبعة ، ج1، ص : 484.
- 5- انظر حسين عطوان، الزندقة و الشعوبية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، دون طبعة و تاريخ ، ص: 149.
- 6- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ، 2012، ص : 137.
- 7- انظر حسين عطوان، الزندقة و الشعوبية في العصر العباسي الأول، ص: 149 .
- 8- ديوان أبي نواس ، تحقيق إيفالد قاغندر، دار النشر : فرانز شتاينر، 1492هـ/ 1972 ، ج2، ص 12.
- 9- انظر د. نعمة رحيم العزاوي، مقالات في أثر الشعوبية في الأدب العربي و تاريخه، مكتبة اشبيلية: بغداد، دون طبعة و تاريخ، ص: 9.
- 10- الجاحظ، البيان و التبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ ، ج 1 ، ص: 06 .
- 11- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص : 136.
- 12- انظر حسين عطوان، الزندقة و الشعوبية في العصر العباسي الأول، ص: 152.
- 13- ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة و النشر، 1415هـ/1995م ، ج71، ص: 325.
- 14- انظر حسين عطوان، الزندقة و الشعوبية في العصر العباسي الأول، ص: 153.
- 15- انظر د. محمود زيادة، الحاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، دار السلام، ط1، مصر، 1415هـ/1995م ، ص: 307.
- 16- انظر د. نعمة رحيم العزاوي، مقالات في أثر الشعوبية في الأدب العربي و تاريخه، ص: 17.
- 17- انظر ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد، دار الكتب العلمية ، ط1، بيروت ، 1404 هـ، ج3، ص 353: .